# المجلد السابع(1)

# من

# تيسير الكريم المنان

# في

# تفسير آيات القرآن

لجامعه

**عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي**

غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

(1) في (ب): «المجلد السابع من تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنّان، من منن الله على عبده وابن عبده وابن أمته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي».

# تفسير سورة صَ

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴿٢﴾ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾﴾.

﴿١﴾ هٰذا بيانٌ من الله تعالى لحال القرآن وحال المكذِّبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿صَ والقرآنِ ذي الذِّكرِ﴾؛ أي: ذي القَدْر العظيم والشرف، المذكِّر للعباد كلَّ ما يحتاجون إليه من العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء؛ فهو مذكِّرٌ لهم في أصول دينهم وفروعه. وهنا لا يُحتاجُ إلى ذِكرِ المقسَم عليه؛ فإنَّ حقيقة الأمر أنَّ المقسم به وعليه شيءٌ واحدٌ، وهو هٰذا القرآن الموصوف بهٰذا الوصف الجليل.

﴿٢﴾ فإذا كان القرآن بهٰذا الوصف؛ عُلِمَ ضرورةُ العبادِ إليه فوق كلِّ ضرورةٍ، وكان الواجبُ عليهم تلقِّيه بالإيمان والتَّصديق والإقبال على استخراج ما يُتَذَكَّرُ به منه، فهدى الله مَنْ هدى لهٰذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزلَه، وصار معهم عِزَّةٌ وشقاقٌ، عزَّةٌ وامتناعٌ عن الإيمان به، واستكبارٌ وشقاقٌ له؛ أي: مشاقَّة ومخاصمة في ردِّه وإبطاله وفي القَدْح بمن جاء به.

﴿٣﴾ فتوعَّدهم بإهلاك القرون الماضية المكذِّبة بالرسل، وأنَّهم حين جاءهم الهلاكُ؛ نادَوْا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولٰكنْ ﴿لاتَ حينَ مناصٍ﴾؛ أي: وليس الوقت وقتَ خلاصٍ مما وقعوا فيه ولا فرج لما أصابهم، فليحذَرْ هٰؤلاء أن يَدوموا على عزَّتِهم وشقاقِهِم؛ فيصيبُهم ما أصابهم.

﴿٤﴾ ﴿وعَجِبوا أن جاءهم منذرٌ منهم﴾؛ أي: عجب هٰؤلاء المكذِّبون في أمرٍ ليس محلَّ عجبٍ أن جاءهم منذرٌ منهم ليتمكَّنوا من التلقِّي عنه وليعرفوه حقَّ المعرفة، ولأنَّه من قومهم؛ فلا تأخُذُهم النَّخوة القوميَّة عن اتِّباعِهِ؛ فهٰذا مما يوجبُ الشكر عليهم وتمامَ الانقيادِ له، ولٰكنَّهم عكسوا القضيَّة، فتعجَّبوا تعجُّب إنكار، وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هٰذا ساحرٌ كذابٌ﴾!

﴿٥﴾ وذنبُهُ عندَهم أنَّه ﴿جعل الآلهة إلٰهاً واحداً﴾؛ أي: كيف ينهى عن اتِّخاذ الشركاء والأنداد ويأمُرُ بإخلاص العبادة للّه وحده؟! ﴿إنَّ هٰذا﴾: الذي جاء به ﴿لشيءٌ عُجابٌ﴾؛ أي: يقضى منه العجب لبطلانِهِ وفسادِهِ عندهم.

﴿٦﴾ ﴿وانطَلَقَ الملأ منهم﴾: المقبولُ قولُهم، محرِّضينَ قومَهم على التمسُّك بما هم عليه من الشرك. ﴿أنِ امْشوا واصبِروا على آلِهَتِكُم﴾؛ أي: استمرُّوا عليها وجاهدوا نفوسَكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردُّكم عنها رادٌّ، ولا يصدَّنَّكم عن عبادتها صادٌّ. ﴿إنَّ هٰذا﴾: الذي جاء به محمدٌ من النهي عن عبادتها ﴿لشيءٌ يُرادُ﴾؛ أي: يُقصَدُ؛ أي: له قصدٌ ونيةٌ غير صالحة في ذٰلك، وهٰذه شبهةٌ لا تَروج إلَّا على السُّفهاء؛ فإنَّ مَنْ دعا إلى قول حقٍّ أو غير حقٍّ لا يُرَدُّ قولُه بالقدح في نيَّتِهِ؛ فنيَّتُهُ وعملُه له، وإنَّما يُرَدُّ بمقابلتِهِ بما يُبْطِلُهُ ويفسِدُهُ من الحُجج والبراهين، وهم قصدُهم أنَّ محمداً ما دعاكم إلى ما دعاكم إلَّا ليرأس فيكم ويكونَ معظَّماً عندكم متبوعاً.

﴿٧﴾ ﴿ما سمعنا بهٰذا﴾: القول الذي قاله والدين الذي دعا إليه ﴿في الملَّةِ الآخرةِ﴾؛ أي: في الوقت الأخير، فلا أدْرَكْنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه؛ فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم؛ فإنَّه الحقُّ، وما هٰذا الذي دعا إليه محمدٌ إلَّا اختلاقٌ اخْتَلَقَهُ وكذبٌ افتراه. وهٰذه أيضاً شبهةٌ من جنس شبهتهم الأولى؛ حيث ردُّوا الحقَّ بما ليس بحجَّة لردِّ أدنى قول، وهو أنَّه قولٌ مخالف لما عليه آباؤهم الضالُّون؛ فأين في هٰذا ما يدلُّ على بطلانه؟!

﴿٨﴾ ﴿أأُنزِلَ عليه الذِّكرُ من بيننا﴾؛ أي: ما الذي فضَّله علينا حتى ينزل الذِّكر عليه من دوننا ويخصَّه اللّه به؟! وهٰذه أيضاً شبهةٌ، أين البرهانُ فيها على ردِّ ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلَّا بهٰذا الوصف؟! يمنُّ اللّه عليهم برسالته ويأمُرُهم بدعوة الخلق إلى اللّه. ولهٰذا؛ لما كانت هٰذه الأقوالُ الصادرةُ منهم لا يَصْلُحُ شيءٌ منها لردِّ ما جاء به الرسول؛ أخبر تعالى من أين صَدَرَتْ، وأنَّهم ﴿في شكٍّ من ذِكْري﴾: ليس عندَهم علمٌ ولا بيِّنةٌ، فلما وقعوا في الشكِّ وارتَضَوا به وجاءهم

الحقُّ الواضحُ وكانوا جازمين بإقامتهم على شكِّهم؛ قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحقِّ، لا عن بيِّنة من أمرهم، وإنَّما ذٰلك من باب الائتفاكِ منهم. ومن المعلوم أنَّ مَنْ هو بهٰذه الصفة يتكلَّم عن شكٍّ وعنادٍ؛ فإنَّ[1] قولَه غيرُ مقبول ولا قادح أدنى قدح في الحقِّ، وأنَّه يتوجَّه عليه الذمُّ واللوم بمجرَّد كلامه، ولهٰذا توعَّدهم بالعذاب، فقال: ﴿بل لَمَّا يَذوقوا عذابِ﴾؛ أي: قالوا هٰذه الأقوالَ وتجرَّؤوا عليها؛ حيث كانوا ممتَّعين في الدُّنيا، لم يصبْهم من عذاب الله شيءٌ؛ فلو ذاقوا عذابَه؛ لم يتجرَّؤوا.

﴿٩﴾ ﴿أم عِندَهُم خزائنُ رحمةِ ربِّك العزيزِ الوهَّاب﴾: فيعطون منها مَنْ شاؤوا ويمنعونَ منها مَن شاؤوا؛ حيث قالوا: ﴿أأنزِلَ عليه الذِّكْرُ مِن بَيْنِنا﴾؛ أي: هٰذا فضلُه تعالى ورحمتُه، وليس ذٰلك بأيديهم حتى يتجرؤوا على الله.

﴿١٠﴾ ﴿أم لهم مُلْكُ السمٰواتِ والأرض وما بينَهما﴾: بحيثُ يكونون قادرين على ما يريدون، ﴿فلْيَرْتَقوا في الأسبابِ﴾: الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمةَ عن رسول الله! فكيف يتكلَّمون وهم أعجزُ خلق الله وأضعفُهم بما تكلَّموا به؟!

﴿١١﴾ أم قصدُهم التحزُّب والتجنُّد والتعاون على نصر الباطل وخذلان الحقِّ، وهو الواقعُ؛ فإنَّ هٰذا المقصودَ لا يتمُّ لهم، بل سعيُهم خائبٌ، وجندُهم مهزومٌ، ولهٰذا قال: ﴿جندٌ ما هنالك مهزومٌ من الأحزابِ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢ ـ ١٥﴾ يحذِّرُهم تعالى أن يَفْعَلَ بهم ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوَّةً منهم وتحزُّباً على الباطل. ﴿قومُ نوح وعادٌ﴾: قوم هود وفرعونُ ذي الأوتادِ؛ أي: الجنود العظيمة والقوَّة الهائلة، ﴿وثمودُ﴾: قوم صالح، ﴿وقومُ لوطٍ وأصحابُ الأيكةِ﴾؛ أي: الأشجار والبساتين الملتفَّة، وهم قوم شعيب. ﴿أولٰئك الأحزابُ﴾: الذين اجتمعوا بقوَّتهم وعَددِهم وعُدَدِهم على ردِّ الحقِّ، فلم تُغْنِ عنهم شيئاً ﴿إن كُلٌّ﴾: من هٰؤلاء ﴿إلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فحقَّ﴾: عليهم ﴿عقاب﴾: الله،

---

(١) في (ب): «إن».

وهٰؤلاء ما الذي يطهِّرهم ويزكِّيهم أن لا يُصيبَهم ما أصاب أولٰئك؟! فلينتظروا ﴿صيحة واحدة ما لها من فَواقٍ﴾؛ أي: من رجوع وردٍّ، تهلِكُهم، وتستأصِلُهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

﴿١٦﴾ أي: قال هٰؤلاءِ المكذِّبون من جَهْلِهِم ومعانَدَتِهِم الحقَّ مستعجلين للعذاب: ﴿ربَّنا عَجِّلْ لنا قِطَّنا﴾؛ أي: قِسْطَنا وما قسم لنا من العذابِ عاجلاً ﴿قبلَ يوم الحسابِ﴾: ولجُّوا في هٰذا القول، وزعموا أنَّك يا محمدُ إن كنتَ صادقاً؛ فعلامةُ صدقِكَ أن تأتينا بالعذاب.

﴿١٧﴾ فقال لرسوله: ﴿اصْبِرْ على ما يقولونَ﴾: كما صبر مَنْ قَبْلَكَ من الرُّسل؛ فإنَّ قولَهم لا يضرُّ الحقَّ شيئاً، ولا يضرُّونك في شيءٍ، وإنَّما يضرُّون أنفسَهم.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٧﴾ لمَّا أمر اللّه رسولَه بالصبر على قومه؛ أمَرَه أن يستعينَ على الصبر بالعبادةِ للّه وحدَه، ويتذكَّرَ حال العابدين؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاصْبِرْ على ما يَقولونَ وسَبِّحْ بِحَمْدِ ربِّكَ قبلَ طُلوع الشمسِ وقبلَ غُروبها﴾. ومن أعظم العابدين نبيُّ اللّه داود عليه الصلاة والسلام، ذو ﴿الأيدِ﴾؛ أي: القوة العظيمة على عبادةِ اللّه تعالى في بدنِهِ وقلبِهِ. ﴿إنَّه أوَّابٌ﴾؛ أي: رجاعٌ إلى اللّه في جميع الأمور بالإنابة إليه بالحبِّ والتألُّه والخوف والرجا وكثرَةِ التضرُّع والدُّعاء، رجاعٌ إليه عندما يقعُ منه بعض الخلل بالإقلاع والتوبة النَّصوح.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ ومن شدة إنابته لربِّه وعبادتِهِ أن سَخَّرَ اللّه الجبال معه تسبِّحُ معه بحمدِ ربِّها ﴿بالعشيِّ والإشراقِ﴾: أول النهار وآخره، ﴿و﴾ سخَّر ﴿الطيرَ محشورةً﴾: معه مجموعةً. ﴿كلٌّ﴾: من الجبال والطير ﴿له﴾ تعالى ﴿أوابٌ﴾: امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا جبالُ أوِّبي معه والطير﴾: فهٰذه منَّةُ اللّه عليه بالعبادة.

﴿٢٠﴾ ثم ذكر منَّته عليه بالملك العظيم، فقال: ﴿وشَدَدْنا مُلْكَه﴾؛ أي: قوَّيْناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العَدَدِ والعُدَدِ التي بها قوَّى اللّهُ ملكَه. ثم ذكر مِنَّته عليه بالعلم، فقال: ﴿وآتيناه الحكمةَ﴾؛ أي: النبوَّة والعلم العظيم ﴿وفصلَ الخطابِ﴾؛ أي: الخصومات بين الناس.

﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢١﴾ لما ذكر تعالى أنَّه آتى نبيَّه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذٰلك مقصوداً؛ ذَكَرَ تعالى نبأ خصمينِ اختصما عنده في قضيَّةٍ جعلهما الله فتنةً لداود وموعظةً لخلل ارتكَبَهُ، فتاب الله عليه وغفَرَ له وقيَّض له هٰذه القضيَّة، فقال لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾: فإنَّه نبأ عجيبٌ، ﴿إذ تَسَوَّروا﴾: على داود ﴿المحرابَ﴾؛ أي: محلَّ عبادتِهِ من غير إذنٍ ولا استئذانٍ، ولم يدخُلوا عليه مع باب.

﴿٢٢﴾ فلذٰلك لما دَخَلوا عليه بهٰذه الصورةِ؛ فَزِعَ منهم وخاف، فقالوا له: نحن خصمانِ؛ فلا تخفْ، ﴿بغى بعضُنا على بعضٍ﴾: بالظلم، ﴿فاحْكُم بيننا بالحقِّ﴾؛ أي: بالعدل ولا تَمِلْ مع أحدِنا، ﴿ولا تُشْطِطْ واهْدِنا إلى سواءِ الصِّراطِ﴾.

﴿٢٣﴾ والمقصود من هٰذا أن الخصمين قد عُرِفَ أنَّ قصدَهما الحقُّ الواضحُ الصرفُ، وإذا كان ذٰلك؛ فسيقصُّون عليه نبأهم بالحقِّ، فلم يشمئزَّ نبيُّ الله داود من وعِظِهما له ولم يؤنِّبهما، فقال أحدُهما: ﴿إنَّ هٰذا أخي﴾: نصَّ على الأخوَّة في الدين أو النسب أو الصداقة؛ لاقتضائِها عدم البغي، وأن بغيَه الصادرَ منه أعظمُ من غيره، ﴿له تسعٌ وتسعون نعجةً﴾؛ أي: زوجة، وذٰلك خير كثيرٌ يوجِبُ عليه القناعة بما آتاه الله، ﴿ولي نعجةٌ واحدةٌ﴾، فطمع فيها، ﴿فقال أكْفِلْنيها﴾؛ أي: دعها لي وخَلِّها في كفالتي، ﴿وعَزَّني في الخطاب﴾؛ أي: غلبني في القول، فلم يزلْ بي حتى أدركها أو كادَ.

﴿٢٤﴾ فقال داود لما سمع كلامَه، ومن المعلوم من السياق السابق من كلامِهما

أنَّ هٰذا هو الواقع؛ فلهٰذا لم يحتج أن يتكلَّم الآخرُ؛ فلا وجهَ للاعتراض بقول القائل: لِمَ حَكَمَ داودُ قبل أن يسمعَ كلام الخصم الآخر؟ ﴿لقد ظَلَمَكَ بسؤال نعجتِكَ إلى نعاجِهِ﴾: وهٰذه عادةُ الخُلَطاء والقرناءِ الكثير منهم، فقال: ﴿وإنَّ كثيراً من الخُلَطاءِ لَيَبْغي بعضُهم على بعضٍ﴾: لأنَّ الظُّلم من صفة النفوس ﴿إلَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ﴾: فإنَّ ما مَعَهم من الإيمان والعمل الصالح يمنعُهم من الظُّلم، ﴿وقليلٌ ما هم﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وقليلٌ من عِبادي الشَّكُورُ﴾. ﴿وظنَّ داودُ﴾: حين حَكَمَ بينَهما ﴿أنَّما فَتَنَّاهُ﴾؛ أي: اختبرناه ودبَّرْنا عليه هٰذه القضيةَ ليتنبَّه، ﴿فاسْتَغْفَرَ ربَّه﴾: لما صدر منه، ﴿وخَرَّ راكعاً﴾؛ أي: ساجداً، ﴿وأناب﴾: للّه تعالى بالتوبة النصوح والعبادة.

﴿٢٥﴾ ﴿فغفرنا له ذٰلك﴾: الذي صَدَرَ منه، وأكرمه اللّه بأنواع الكَراماتِ، فقال: ﴿وإنَّ له عندَنا لَزُلْفى﴾؛ أي: منزلة عالية وقربة منَّا، ﴿وحسنَ مآبٍ﴾؛ أي: مرجع. وهٰذا الذنبُ الذي صَدَرَ من داود عليه السلام لم يَذْكُرْهُ اللّه لعدم الحاجةِ إلى ذكرهِ؛ فالتعرُّضُ له من باب التكلُّف، وإنَّما الفائدةُ ما قصَّه اللّه علينا من لطفِهِ به وتوبتِهِ وإنابتِهِ وأنَّه ارتفع محلُّه فكان بعد التوبةِ أحسنَ منه قبلَها.

﴿٢٦﴾ ﴿يا داود إنَّا جَعَلْناكَ خليفةً في الأرض﴾: تنفُذُ فيها القضايا الدينيَّةَ والدنيويَّةَ، ﴿فاحْكُم بين الناسِ بالحقِّ﴾؛ أي: العدل، وهٰذا لا يتمكَّن منه إلا بعلم بالواجب وعلم بالواقع وقدرةٍ على تنفيذ الحقِّ، ﴿ولا تَتَّبع الهوى﴾: فتميل مع أحدٍ لقرابةٍ أو صداقةٍ أو محبةٍ أو بغضٍ للآخر، ﴿فيضلَّك﴾: الهوى ﴿عن سبيل اللّه﴾: ويخرِجَك عن الصراط المستقيم. ﴿إنَّ الذين يَضِلُّون عن سبيل اللّه﴾: خصوصاً المتعمِّدين منهم ﴿لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يومَ الحسابِ﴾؛ فلو ذَكَروه ووقع خوفُهُ في قلوبِهِم؛ لم يَميلوا مع الهوى الفاتن.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ
﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمتِهِ في خلقه السماواتِ والأرضَ، وأنَّه لم يخلُقْهما ﴿باطلاً﴾؛ أي: عبثاً ولعباً من غير فائدةٍ ولا مصلحةٍ. ﴿ذٰلك ظنُّ الذين كفروا﴾: بربِّهم حيث ظنُّوا ما لا يَليقُ بجلالِهِ. ﴿فويلٌ للذين كَفَروا من النارِ﴾:

فإنَّها التي تأخُذُ الحقَّ منهم وتَبْلُغُ منهم كلَّ مبلغ. وإنَّما خلق اللّه السماواتِ والأرض بالحقِّ وللحقِّ، فخلقهما لِيَعْلَمَ العبادُ كمالَ علمِهِ وقدرتِهِ وسعةَ سلطانه، وأنه تعالى وحدَه المعبودُ دون من لم يَخْلُقْ مثقال ذَرَّةٍ من السماواتِ والأرض، وأنَّ البعث حقٌّ، وسيفصِلُ اللّه بين أهل الخير والشرِّ، ولا يظنُّ الجاهل بحكمة اللّه أن يُسَوِّيَ اللّه بينهما في حكمه.

﴿٢٨﴾ ولهٰذا قال: ﴿أم نجعلُ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كالمفسدينَ في الأرض أم نَجْعَلُ المتَّقينَ كالفجَّارِ﴾: هٰذا غيرُ لائقٍ بحكمتِنا وحكمِنا.

﴿٢٩﴾ ﴿كتابٌ أنزلناه إليك مبارَكٌ﴾: فيه خيرٌ كثيرٌ وعلمٌ غزيرٌ، فيه كلُّ هدى من ضلالة وشفاء من داء ونور يُسْتَضاء به في الظُّلمات، وكلُّ حكم يحتاج إليه المكلَّفون، وفيه من الأدلَّة القطعيَّة على كلِّ مطلوب ما كان به أجَلَّ كتاب طَرَقَ العالَمَ منذ أنشأه اللّه، ﴿لِيَدَّبَّروا آياتِهِ﴾؛ أي: هٰذه الحكمة من إنزاله؛ ليتدبَّر الناسُ آياتِهِ، فيستخرِجوا علمَها، ويتأمَّلوا أسرارها وحِكَمَها؛ فإنَّه بالتدبُّر فيه والتأمُّل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرةً بعد مرةٍ تُدْرَكُ بركتُهُ وخيرُهُ، وهٰذا يدلُّ على الحثِّ على تدبُّرِ القرآن، وأنَّه من أفضلِ الأعمال، وأنَّ القراءة المشتملة على التدبُّر أفضل من سرعةِ التلاوةِ التي لا يحصُلُ بها هٰذا المقصودُ، ﴿وليَتَذَكَّرَ أولو الألبابِ﴾؛ أي: أولو العقول الصحيحة، يتذكَّرون بتدبُّرهم لها كلَّ علم ومطلوب. فدَلَّ هٰذا على أنه بحسب لُبِّ الإنسان وعقله يحصُلُ له التذكُّر والانتفاعُ بهٰذا الكتاب.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ
﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّۖ فَطَفِقَ
مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ
ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ
رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما أثنى اللّه تعالى على داودَ وذَكَرَ ما جرى له ومنه؛ أثنى على ابنِهِ سليمانَ عليهما السلام، فقال: ﴿ووَهَبْنا لداودَ سليمانَ﴾؛ أي: أنْعَمْنا به عليه وأقررْنا به عينَه. ﴿نعم العبدُ﴾: سليمانُ عليه السلام، فإنَّه اتَّصف بما يوجب المدح، وهو ﴿إنَّه أوابٌ﴾؛ أي: رجاعٌ إلى اللّه في جميع أحوالِهِ بالتألُّه والإنابة والمحبَّة والذِّكر

والدُّعاء والتضرُّع والاجتهاد في مرضاة اللّه وتقديمها على كل شيءٍ.

﴿٣١ ـ ٣٣﴾ ولهٰذا؛ لما عُرِضَتِ [عليه] الخيل الجياد السبق ﴿الصافناتُ﴾؛ أي: التي من وصفها الصُّفونُ، وهو رفع إحدى قوائِمِها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائقٌ وجمالٌ معجبٌ، خصوصاً للمحتاج إليها؛ كالملوك؛ فما زالتْ تُعْرَضُ عليه حتى غابتِ الشمس في الحجاب، فألهتْه عن صلاة المساءِ وذِكْرِهِ، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرُّباً إلى اللّه بما ألهاه عن ذكرِهِ، وتقديماً لحبِّ اللّه على حبِّ غيره: ﴿إنّي أحببتُ حُبَّ الخيرِ﴾: وضمَّنَ أحببتُ معنى آثرتُ؛ أي: آثرتُ حبَّ الخير الذي هو المالُ عموماً وفي الموضع المرادُ الخيل ﴿عن ذِكْرِ ربِّي حتى تَوارَتْ بالحجابِ. ردُّوها عليَّ﴾: فردُّوها، ﴿فطَفِقَ﴾: فيها ﴿مسحاً بالسُّوقِ والأعناقِ﴾؛ أي: جعل يعقِرُها بسيفِهِ في سوقِها وأعناقها.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد فتنَّا سليمانَ﴾؛ أي: ابتلَيْناه واختبرْناه بذَهابِ ملكِهِ وانفصالِهِ عنه بسبب خلل اقتضتْه الطبيعةُ البشريةُ، ﴿وألقَيْنا على كرسيِّه جسداً﴾؛ أي: شيطاناً قضى اللّه وقَدَّر أن يجلسَ على كرسيِّ ملكِهِ ويتصرَّفَ في الملك في مدَّةِ فتنة سليمان، ﴿ثم أنابَ﴾: سليمانُ إلى اللّه تعالى، وتابَ.

﴿٣٥ ـ ٣٩﴾ فَ﴿قالَ ربِّ اغفِرْ لي وَهَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنَّك أنت الوهابُ﴾: فاستجاب اللّه له، وغفر له، وردَّ عليه مُلْكَه، وزادَه ملكاً لم يحصُلْ لأحدٍ من بعده، وهو تسخيرُ الشياطين له يبنونَ ما يريدُ ويغوصون له في البحر يستخرِجون الدُّرَّ والحُلِيَّ، ومَنْ عصاه منهم؛ قَرَّنَه في الأصفاد وأوثقه، وقلنا له: ﴿هٰذا عطاؤنا﴾: فَقَرَّ به عيناً، ﴿فامنُنْ﴾: على من شئتَ، ﴿أو أمسِكْ﴾: مَنْ شئتَ ﴿بغير حسابٍ﴾؛ أي: لا حرج عليك في ذٰلك ولا حسابَ؛ لعلمه تعالى بكمال عدلِهِ وحسن أحكامِهِ.

﴿٤٠﴾ ولا تحسبنَّ هٰذا لسليمانَ في الدُّنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خيرٌ عظيمٌ، ولهٰذا قال: ﴿وإنَّ له عندَنا لَزُلْفى وحسنَ مآبٍ﴾؛ أي: هو من المقرَّبين عند اللّهِ المكرَمين بأنواع الكراماتِ للّه.

## فصل

فيما تبيَّن لنا من الفوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام.

**فمنها**: أنَّ اللّه تعالى يقصُّ على نبيِّه محمدٍ ﷺ أخبارَ من قبله ليثبِّتَ فؤاده

وتطمئنَّ نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدَّة صبرهم وإنابتهم ما يشوِّقُه إلى منافستهم والتقرُّب إلى اللّه الذي تقرَّبوا له والصبر على أذى قومه، ولهٰذا في هٰذا الموضع لما ذَكَرَ اللّه ما ذكر من أذيَّةِ قومِهِ وكلامِهم فيه وفيما جاء به؛ أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

**ومنها**: أنَّ اللّه تعالى يمدحُ ويحبُّ القوَّة في طاعته؛ قوَّةَ القلب والبدن؛ فإنَّه يحصُلُ منها من آثار الطاعة وحسنِها وكثرتِها ما لا يحصُلُ مع الوهن وعدم القوَّة، وأنَّ العبد ينبغي له تعاطي أسبابها وعدم الركونِ إلى الكسل والبطالة المخلَّةِ بالقوَّة المضعفة للنفس.

**ومنها**: أنَّ الرجوع إلى اللّه في جميع الأمورِ من أوصاف أنبياء اللّه وخواصِّ خلقِهِ؛ كما أثنى اللّه على داود وسليمان بذٰلك؛ فَلْيَقْتَدِ بهما المقتدون، ولْيَهْتَدِ بُهداهم السالكون، ﴿أولٰئك الذين هدى اللّه فبِهُداهُمُ اقْتَدِه﴾.

**ومنها**: ما أكرم اللّه به نبيَّه داود عليه السلامُ من حسن الصوت العظيم الذي جعل اللّه بسببه الجبال الصُّمَّ والطيور البُهْمَ يجاوِبْنه إذا رجَّع صوتَه بالتسبيح، ويسبِّحْن معه بالعشيِّ والإشراق.

**ومنها**: أنَّ من أكبر نعم اللّه على عبدِهِ أن يرزُقَه العلم النافع ويعرِفَ الحُكْمَ والفصلَ بين الناس؛ كما امتنَّ اللّه به على عبدِهِ داود عليه السلام.

**ومنها**: اعتناءُ اللّه تعالى بأنبيائِهِ وأصفيائِهِ عندما يقع منهم بعضُ الخلل بفتنتِهِ إيَّاهم وابتلائهم بما به يزول عنهم المحذورُ، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى؛ كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

**ومنها**: أنَّ الأنبياءَ صلوات اللّه وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلِّغون عن اللّه تعالى؛ لأنَّ مقصودَ الرسالة لا يحصُلُ إلَّا بذٰلك، وأنَّه قد يجري منهم بعضُ مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكنَّ اللّه يتداركُهم ويبادِرُهم بلطفِهِ.

**ومنها**: أن داود عليه السلام في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمةِ ربِّه، ولهٰذا تسوَّر الخصمان عليه المحرابَ؛ لأنَّه كان إذا خلا في محرابه؛ لا يأتيه أحدٌ، فلم يجعلْ كلَّ وقتِهِ للناس مع كثرةِ ما يَرِدُ عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه بربِّه وتَقَرُّ عينُه بعبادتِهِ، وتعينُه على الإخلاص في جميع أموره.

**ومنها**: أنَّه ينبغي استعمال الأدبِ في الدخول على الحكَّام وغيرهم؛ فإنَّ الخصمين لما دخلا على داود في حالةٍ غير معتادةٍ ومن غير الباب المعهود؛

فَزِعَ منهم، واشتدَّ عليه ذٰلك، ورآه غيرُ لائقٍ بالحال.

**ومنها**: أنَّه لا يمنعُ الحاكمَ من الحكم بالحقِّ سوءُ أدبِ الخصم وفعلِهِ ما لا ينبغي.

**ومنها**: كمال حلم داود عليه السلام؛ فإنَّه ما غضب عليهما حين جاءاه بغير استئذان، وهو الملكُ، ولا انتهرهما، ولا وبَّخهما.

**ومنها**: جوازُ قول المظلوم لِمَنْ ظَلَمَه: أنت ظَلَمْتَني أو: يا ظالم! ونحو ذٰلك أو باغٍ عليَّ! لقولهما: ﴿خصمان بغى بعضُنا على بعضٍ﴾.

**ومنها**: أنَّ الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدرِ جليل العلم، إذا نَصَحَهُ أحدٌ أو وَعَظَه؛ لا يغضبُ ولا يشمئزُّ، بل يبادِرُه بالقَبول والشكر؛ فإنَّ الخصمين نَصَحا داود، فلم يشمئزَّ ولم يغضبْ ولم يَثْنِهِ ذٰلك عن الحقِّ، بل حكم بالحقِّ الصرف.

**ومنها**: أنَّ المخالطةَ بين الأقارب والأصحاب وكثرةَ التعلُّقاتِ الدنيويَّة الماليَّة موجبةٌ للتعادي بينهم، وبغي بعضِهم على بعضٍ، وأنَّه لا يردُّ عن ذٰلك إلَّا استعمال تقوى الله والصبر على الأمور بالإيمان والعملِ الصالح، وأنَّ هٰذا من أقل شيءٍ في الناس.

**ومنها**: أنَّ الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب؛ فإنَّ الله رتَّب مغفرةَ ذنبِ داود على استغفارِهِ وسجودِهِ.

**ومنها**: إكرامُ الله لعبدِهِ داود وسليمان بالقرب منه وحسن الثوابِ، وأنْ لا يظنَّ أن ما جرى لهما منقصٌ لدرجتهما عند الله تعالى، وهٰذا مِنْ تمام لطفِهِ بعباده المخلِصين؛ أنَّه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم؛ أزال الآثار المترتِّبة عليه كلَّها، حتى ما يقع في قلوب الخلق؛ فإنَّهم إذا علموا ببعض ذنوبهم؛ وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هٰذه الآثار، وما ذاك بعزيز على الكريم الغفار.

**ومنها**: أنَّ الحكم بين الناس مرتبةٌ دينيةٌ تولَّاها رسل الله وخواصُّ خلقه، وأنَّ وظيفة القائم بها الحكمُ بالحقِّ ومجانبةُ الهوى؛ فالحكمُ بالحقِّ يقتضي العلم بالأمور الشرعيَّة والعلم بصورة القضيَّةِ المحكوم بها وكيفيَّة إدخالها في الحكم الشرعي؛ فالجاهلُ بأحدِ الأمرين لا يَصْلُحُ للحكم، ولا يحلُّ له الإقدام عليه.

**ومنها**: أنَّه ينبغي للحاكم أن يَحْذَرَ الهوى ويَجْعَلَه منه على بال؛ فإنَّ النفوس لا تَخْلو منه، بل يجاهدُ نفسَه بأن[1] يكونَ الحقُّ مقصودَه، وأن يلقي عنه وقتَ الحكم كلَّ محبةٍ أو بغضٍ لأحدِ الخصمين.

**ومنها**: أنَّ سليمان عليه السلام من فضائل داود ومن مِنَنِ اللّه عليه حيث وَهَبَه له، وأنَّ من أكبر نعم اللّه على عبدِهِ أن يَهَبَ له ولداً صالحاً؛ فإنْ كان عالماً؛ كان نوراً على نور.

**ومنها**: ثناءُ اللّه تعالى على سليمان ومدحِهِ في قوله: ﴿نِعْمَ العبدُ إنَّه أوَّابٌ﴾.

**ومنها**: كثرة خيرِ اللّه وبرِّه بعبيده أنْ يَمُنَّ عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم يُثني عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

**ومنها**: تقديم سليمان محبَّةَ اللّه تعالى على محبَّةِ كل شيء.

**ومنها**: أنَّ كل ما شغل العبد عن اللّه؛ فإنَّه مشؤومٌ مذمومٌ؛ فليفارِقْه ولْيُقْبِلْ على ما هو أنفعُ له.

**ومنها**: القاعدة المشهورةُ: من ترك شيئاً للّه؛ عوَّضَه اللّه خيراً منه. فسليمان عليه السلام عَقَرَ الجيادَ الصافناتِ المحبوبةَ للنفوس تقديماً لمحبَّة اللّه، فعوَّضه اللّه خيراً من ذٰلك؛ بأنْ سخَّرَ له الريح الرُّخاءَ الليِّنة التي تجري بأمره إلى حيثُ أراد وقصد، غدوُّها شهرٌ ورواحُها شهرٌ، وسخَّر له الشياطين أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدِرُ عليها الآدميُّون.

**ومنها**: أنَّ تسخير الشياطين لا تكون لأحدٍ بعد سليمان عليه السلام.

**ومنها**: أنَّ سليمان عليه السلام كان مَلِكاً نبيًا، يفعلُ ما أراد، ولٰكنَّه لا يريد إلَّا العدل، بخلاف النبيِّ العبد؛ فإنَّه تكون إرادتُه تابعةً لأمر اللّه؛ فلا يفعل ولا يترك إلَّا بالأمر؛ كحال نبيِّنا ﷺ، وهٰذه الحال أكمل.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

---

(١) في (ب): «أن».

﴿٤١﴾ أي: ﴿واذكر﴾: في هٰذا الكتاب ذي الذكر ﴿عبدَنا أيُوبَ﴾: بأحسن الذِّكر، وأثنِ عليه بأحسن الثناء؛ حين أصابه الضُّرُّ فصبر على ضُرِّه، فلم يشتكِ لغير ربِّه، ولا لجأ إلَّا إليه. فـ﴿نادى ربَّه﴾: داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً، فقال: ربِّ ﴿إنِّي مَسَّنِيَ الشيطانُ بِنُصْبٍ وعذابٍ﴾؛ أي: بأمر مُشِقٍّ متعبٍ معذبٍ، وكان سُلِّطَ على جسدِهِ فنفخ فيه حتى تقرَّحَ ثم تقيَّحَ بعد ذٰلك، واشتدَّ به الأمر، وكذٰلك هلك أهلُه ومالُه.

﴿٤٢﴾ فقيل له: ﴿اركُضْ برِجْلِكَ﴾؛ أي: اضربِ الأرض بها؛ لينبعَ لك منها عينٌ تغتسلُ منها وتشربُ، فيذهب عنك الضرُّ والأذى، ففعل ذٰلك، فذهب عنه الضرُّ وشفاه اللّه تعالى.

﴿٤٣﴾ ﴿ووهَبْنا له أهلَه﴾: قيل: إنَّ اللّه تعالى أحياهم له ﴿ومثلَهُم معهم﴾: في الدنيا، وأغناه اللّه وأعطاه مالاً عظيماً، ﴿رحمةً منَّا﴾: بعبدنا أيوبَ حيث صَبَرَ فأثبناه من رحمتنا ثواباً عاجلاً وآجلاً. ﴿وذِكرى لأولي الألبابِ﴾؛ أي: وليتذكَّر أولو العقول بحالةِ أيُّوب ويعتبِروا فيعلموا أنَّ مَنْ صَبَرَ على الضُّرِّ؛ فإنَّ[1] اللّه تعالى يُثيبه ثواباً عاجلاً وآجلاً ويستجيبُ دعاءه إذا دعاه.

﴿٤٤﴾ ﴿وخُذْ بيدِكَ ضِغْثاً﴾؛ أي: حزمة شماريخ، ﴿فاضْرِبْ به ولا تَحْنَثْ﴾: قال المفسِّرون: وكان في مرضه وضُرِّه قد غضب على زوجتِهِ في بعض الأمور، فحلف لئن شفاهُ اللّه ليضرِبَنَّها مائةَ جلدةٍ، فلمَّا شفاه اللّه، وكانت امرأتُه صالحةً محسنةً إليه؛ رحمها اللّه ورحمه، فأفتاه أن يضرِبَها بِضِغْثٍ فيه مائةُ شمراخ ضربةً واحدةً فيبَرَّ في يمينه. ﴿إنا وجَدْناه﴾؛ أي: أيوب ﴿صابراً﴾؛ أي: ابتليناه بالضُّرِّ العظيم فصبر لوجه اللّه تعالى. ﴿نعم العبدُ﴾: الذي كَمَّلَ مراتبَ العبوديَّة في حال السرَّاءِ والضرَّاءِ والشدَّة والرَّخاء، ﴿إنَّه أوابٌ﴾؛ أي: كثير الرجوع إلى اللّه في مطالبه الدينيَّة والدنيويَّة، كثير الذِّكْرِ لربِّه والدعاء والمحبة والتألُّه.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿واذكُرْ عِبادَنا﴾: الذين أخلصوا لنا العبادة ذكراً حسناً

---

(١) في (ب): «أن».

﴿إبراهيم﴾: الخليل ﴿و﴾ ابنه ﴿إسحاقَ﴾ وابن ابنه ﴿يعقوب أولي الأيدي﴾؛ أي: القوَّة على عبادة اللّه تعالى، ﴿والأبصار﴾؛ أي: البصيرة في دين اللّه. فوصَفَهم بالعلم النافع والعمل الصالح الكثير.

﴿٤٦﴾ ﴿إنَّا أخلَصْنَاهم بخالصةٍ﴾: عظيمة وخصيصةٍ جسيمةٍ، وهي: ﴿ذِكْرى الدارِ﴾: جعلنا ذكرى الدارِ الآخرةِ في قلوبهم والعملَ لها صفوةَ وقتِهم. والإخلاصُ والمراقبةُ للّه وَصْفُهُمُ الدائمُ، وجَعَلْناهم ذكرى الدار، يتذكَّر بأحوالِهم المتذكِّرُ ويعتبرُ بهم المعتبِرُ، ويُذْكَرونَ بأحسن الذِّكر.

﴿٤٧﴾ ﴿وإنَّهم عندنا لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ﴾: الذين اصطفاهم اللّه من صفوة خلقه ﴿الأخيار﴾: الذين لهم كلُّ خُلُق كريم وعمل مستقيم.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ﴾.

﴿٤٨﴾ أي: واذكر هٰؤلاء الأنبياء بأحسن الذِّكْر، وأثْنِ عليهم أحسن الثناء؛ فإنَّ كلاً منهم من الأخيار، الذين اختارهم اللّه من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال والأخلاق والصفاتِ الحميدةِ والخصال السديدةِ.

﴿٤٩﴾ هٰذا؛ أي: ذِكْرُ هٰؤلاء الأنبياء الصفوة، وذِكْر أوصافهم ﴿ذِكْرٌ﴾: في هٰذا القرآن ذي الذكر، يَتَذكَّرُ بأحوالهم المتذكِّرون، ويشتاقُ إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدةِ المقتدونَ، ويُعَرفُ ما منَّ اللّه عليهم به من الأوصاف الزكيَّة، وما نَشَرَ لهم من الثناء بين البريَّة. فهٰذا نوعٌ من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير.

ومن أنواع الذِّكْر ذِكْرُ جزاء أهل الخير وأهل الشرِّ ولهٰذا قال:

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿٤٩﴾ أي: ﴿وإنَّ للمتقين﴾: ربَّهم؛ بامتثال الأوامر واجتناب النواهي من كلِّ مؤمن ومؤمنة ﴿لَحُسْنَ مآب﴾؛ أي: لمآباً حسناً ومرجعاً مستحسناً.

﴿٥٠﴾ ثم فسَّره وفصَّله فقال: ﴿جناتِ عدنٍ﴾؛ أي: جنات إقامةٍ لا يبغي صاحبها بدلاً منها من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمُخْرَجينَ، ﴿مفتَّحةً لهم الأبوابُ﴾؛ أي: مفتحة لأجلهم أبوابُ منازِلها ومساكِنِها، لا يحتاجون

أن يَفتَحوها هم، بل هم مخدومونَ، وهٰذا دليلٌ أيضاً على الأمان التامِّ، وأنَّه ليس في جناتِ عدنٍ ما يوجِبُ أن تُغلَقَ لأجلِهِ أبوابُها.

﴿٥١﴾ ﴿متكئين فيها﴾: على الأرائك المزيَّنات والمجالس المزخرفات. ﴿يَدْعون فيها﴾؛ أي: يأمرون خدَّامهم أن يأتوا ﴿بفاكهةٍ كثيرةٍ وشرابٍ﴾: من كلِّ ما تشتهيه نفوسُهم وتلذُّه أعينُهم، وهٰذا يدلُّ على كمال النعيم وكمال الراحة والطُّمأنينة وتمام اللَّذَّة.

﴿٥٢﴾ ﴿وعندَهم﴾: من أزواجهم الحور العين ﴿قاصراتُ﴾ طرفهن على أزواجهنَّ، وطَرْفِ أزواجهنَّ عليهنَّ لجمالهم كلِّهم ومحبَّة كلٍّ منهما للآخر وعدم طموحِهِ لغيره، وأنَّه لا يبغي بصاحبه بدلاً ولا عنه عِوَضاً، ﴿أترابٌ﴾؛ أي: على سنٍّ واحدٍ، أعدل سنِّ الشباب وأحسنُه وألذُّه.

﴿٥٣﴾ ﴿هٰذا ما توعَدونَ﴾: أيُّها المتَّقونَ ﴿ليوم الحسابِ﴾: جزاء على أعمالِكُم الصالحة.

﴿٥٤﴾ ﴿إنَّ هٰذا لرزْقُنا﴾: الذين[1] أوردناه على أهل دار النعيم ﴿ما له من نفادٍ﴾؛ أي: انقطاع، بل هو دائمٌ مستقرٌّ في جميع الأوقات، متزايدٌ في جميع الآنات، وليس هٰذا بعظيم على الربِّ الكريم، الرءوف الرحيم، البرِّ الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف، الرحمٰن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر والكرم المتواتر، الذي لا تُحصى نعمُه ولا يُحاط ببعض برِّه.

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿هٰذا﴾ الجزاء للمتَّقين ما وصفناه، ﴿وإنَّ للطَّاغين﴾؛ أي: للمتجاوزين للحدِّ في الكفر والمعاصي ﴿لَشَرَّ مآبٍ﴾؛ أي: لشرِّ مرجع ومُنْقَلَب.

---

(١) كذا في النسختين.

﴿٥٦﴾ ثم فَصَّلَه فقال: ﴿جَهَنَّم﴾: التي جمع فيها كلَّ عذاب واشتدَّ حرُّها وانتهى قرُّها ﴿يَصْلَوْنها﴾؛ أي: يعذَّبون فيها عذاباً يحيطُ بهم من كل وجهٍ، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل. ﴿فبئس المِهادُ﴾: المعدُّ لهم مسكناً ومستقرًّا.

﴿٥٧﴾ ﴿هٰذا﴾: المهاد، هٰذا العذاب الشديد والخزي والفضيحة والنَّكالُ. ﴿فلْيَذوقوهُ حميمٌ﴾: ماءٌ حارٌّ قد اشتدَّ حرُّه، يشربونه فيقطِّع أمعاءهم، ﴿وغَسَّاقٌ﴾: وهو أكرهُ ما يكون من الشرابِ من قيح وصديدٍ، مرِّ المذاق، كريه الرائحة.

﴿٥٨﴾ ﴿وآخرُ من شكلِهِ﴾؛ أي: من نوعه ﴿أزواجٌ﴾؛ أي: عدَّة أصناف من أصناف العذاب، يعذَّبون بها ويُخْزَوْنَ بها.

﴿٥٩ ـ ٦٠﴾ وعند توارُدِهم على النار يشتُمُ بعضُهم بعضاً ويقول بعضُهم لبعضٍ: ﴿هٰذا فوجٌ مقتحمٌ معكم﴾: النار ﴿لا مرحباً بهم إنَّهم صالوا النار. قالوا﴾؛ أي: الفوج المقبِلُ المقتحم: ﴿بل أنتُم لا مرحباً بكم أنتم قدَّمْتُموه﴾؛ أي: العذاب ﴿لنا﴾: بدعوتِكُم لنا وفِتْنَتِكم وإضْلالِكُم وتسبُّبكم. ﴿فبئس القرارُ﴾: قرار الجميع قرار السُّوْء والشرِّ.

﴿٦١﴾ ثم دعوا على المغوين لهم: ﴿قالوا ربَّنا مَن قَدَّمَ لنا هٰذا فَزِدْهُ عذاباً ضِعْفاً في النارِ﴾. وقال في الآية الأخرى: ﴿قال لِكُلٍّ ضعفٌ ولٰكن لا تعلمون﴾.

﴿٦٢﴾ ﴿وقالوا﴾: وهم في النار: ﴿ما لَنا لا نرى رِجالاً كُنَّا نعدُّهم من الأشرارِ﴾؛ أي: كنَّا نزعُمُ أنَّهم من الأشرارِ المستحقِّين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تَفَقَّدَهُم أهلُ النار قبَّحهم الله؛ هل يَرَوْنَهم في النار؟

﴿٦٣﴾ ﴿أتَّخذْناهم سِخْرِيًّا أم زاغَتْ عنهُمُ الأبصارُ﴾؛ أي: عدم رؤيتنا لهم دائرٌ بين أمرينِ: إمَّا أنَّا غالِطونَ في عدِّنا إيَّاهم من الأشرارِ، بل هم من الأخيارِ، وإنَّما كلامُنا لهم من باب السُّخرية والاستهزاء بهم، وهٰذا هو الواقع؛ كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إنَّه كان فريقٌ من عِبادي يقولون رَبَّنا آمَنَّا فاغْفِرْ لنا، وارْحَمْنا وأنت خيرُ الراحمين. فاتَّخَذْتُموهم سِخْرِيًّا حتى أنسَوْكُم ذِكْري وكنتُم منهم تضحكونَ﴾.

**والأمرُ الثاني**: أنَّهم لعلَّهم زاغتْ أبصارُنا عن رؤيتهم معنا في العذاب، وإلَّا؛ فهم معنا معذَّبون، ولكن تجاوزَتْهُم أبصارُنا! فيُحتمل أنَّ هٰذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائدُ التي اعتقدوها في الدُّنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار تمكَّنتْ من قلوبِهم وصارتْ صبغةً لها، فدخلوا النار وهم بهٰذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويُحتمل أنَّ كلامَهم هٰذا كلامُ تمويهٍ؛ كما موَّهوا في الدُّنيا موَّهوا حتى في النار، ولهٰذا يقول أهلُ الأعراف لأهل النار: ﴿أهٰؤلاء الذين أقْسَمْتُم لا ينالُهُمُ الله برحمةٍ، ادْخُلوا الجنةَ لا خوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنونَ﴾.

﴿٦٤﴾ قال تعالى مؤكِّداً ما أخبر به، وهو أصدقُ القائلين: ﴿إنَّ ذٰلك﴾: الذي ذكرتُ لكم ﴿لَحقٌّ﴾: ما فيه شكٌّ ولا مِرْيةٌ ﴿تخاصُمُ أهل النارِ﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن
طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ
بِيَدَىَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾
قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ
وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٦٥﴾ ﴿قل﴾: يا أيُّها الرسولُ لهٰؤلاء المكذِّبين إنْ طَلَبوا منك ما ليس لك ولا بيدِكَ: ﴿إنَّما أنا منذرٌ﴾: هٰذا نهايةُ ما عندي، وأمَّا الأمرُ؛ فللَّه تعالى، ولكني آمرُكم وأنهاكُم وأحثُّكم على الخير وأزجُرُكم عن الشرِّ؛ فمنِ اهتدى فلنفسِهِ، ومن ضلَّ فعليها. ﴿وما مِنْ إلٰهٍ إلَّا اللَّه﴾؛ أي: ما أحدٌ يؤلَّه ويُعبدُ بحقٍّ إلَّا اللَّه، ﴿الواحدُ القهارُ﴾: هٰذا تقريرٌ لألوهيَّته بهٰذا البرهان القاطع، وهو وحدتُه تعالى وقهرُه لكلِّ شيء؛ فإنَّ القهر ملازمٌ للوحدة؛ فلا يكون قهَّارَيْنِ متساوِيَيْنِ في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياءِ هو الواحدُ الذي لا نظير له، وهو الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ وحدَه كما كان قاهراً وحدَه.

﴿٦٦﴾ وقرَّر ذٰلك أيضاً بتوحيد الربوبيَّة، فقال: ﴿ربُّ السمٰواتِ والأرضِ وما بينَهما﴾؛ أي: خالقُهما ومربِّيهما ومدبِّرُهما بجميع أنواع التدابير، ﴿العزيزُ﴾: الذي

له القوة التي بها خَلَقَ المخلوقاتِ العظيمة. ﴿الغفَّارُ﴾: لجميع الذنوب؛ صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها. فهٰذا الذي يحبُّ، ويستحقُّ أن يُعْبَدَ دونَ مَنْ لا يخلُق، ولا يرزُق ولا يضرُّ، ولا ينفعُ، ولا يملِكُ من الأمر شيئاً، وليس له قوَّةُ الاقتدار، ولا بيدِهِ مغفرةُ الذُّنوب والأوزار.

﴿٦٧ ـ ٦٨﴾ ﴿قل﴾: لهم مخوفاً ومحذِّراً ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هو نبأٌ عظيمٌ﴾؛ أي: ما أنبأتُكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال خبرٌ عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفالُه. ولٰكنْ ﴿أنتم عنه معرِضونَ﴾: كأنَّه ليس أمامكم حسابٌ ولا عقابٌ ولا ثوابٌ.

﴿٦٩ ـ ٧٠﴾ فإنْ شَكَكْتُم في قولي وامْتَرَيْتُم في خبري؛ فإني أخبركم بأخبارٍ لا علم لي بها ولا دَرَسْتُها في كتاب؛ فإخباري بها على وجهها من غير زيادةٍ ولا نقصٍ أكبرُ شاهدٍ لصدقي وأدلُّ دليل على حقِّ ما جئتُكم به، ولهٰذا قال: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى﴾؛ أي: الملائكة؛ ﴿إذ يختصِمونَ﴾؛ لولا تعليم اللّه إيَّاي وإيحاؤه إليَّ، ولهٰذا قال: ﴿إن يوحى إليَّ إلَّا أنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: ظاهر النذارة جليُّها؛ فلا نذير أبلغ من نذارتِهِ ﷺ.

﴿٧١ ـ ٧٢﴾ ثم ذَكَرَ اختصام الملأ الأعلى، فقال: ﴿إذ قال ربُّك للملائكة﴾: على وجه الإخبارِ، ﴿إنِّي خالقٌ بشراً من طينٍ﴾؛ أي: مادَّتُه من طين، ﴿فإذا سَوَّيْتُهُ﴾؛ أي: سويت جسمه وتمَّ، ﴿ونفختُ فيه من روحي فَقَعوا له ساجدينَ﴾.

﴿٧٣ ـ ٧٤﴾ فوطَّن الملائكةُ الكرامُ أنفسَهم على ذٰلك حين يتمُّ خلقُهُ ونفخُ الروح فيه امتثالاً لربِّهم وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تمَّ خلقُه في بدنِهِ وروحِهِ، وامتحنَ اللّه آدمَ والملائكةَ في العلم، وظهر فضلُه عليهم؛ أمرهم اللّه بالسجودِ، فسجدوا ﴿كلُّهم أجمعون، إلَّا إبليسَ﴾: لم يسجد، ﴿استكْبَرَ﴾: عن أمر ربِّه، واستكبر على آدم، ﴿وكان من الكافرينَ﴾: في علم اللّه تعالى.

﴿٧٥﴾ فقال اللّهُ له موبِّخاً ومعاتباً: ﴿ما مَنَعَكَ أن تسجدَ لما خلقتُ بيديَّ﴾؛ أي: شرَّفْتُه وكرَّمْتُه واختصصتُه بهٰذه الخصيصة التي اختصَّ بها عن سائر الخلق، وذٰلك يقتضي عدم التكبُّر عليه. ﴿أستكبرتَ﴾: في امتناعِك ﴿أم كنتَ من العالينَ﴾.

﴿٧٦﴾ ﴿قال﴾ إبليسُ معارضاً لربِّه مناقضاً: ﴿أنا خيرٌ منه خَلَقْتَني من نارٍ وخَلَقْتَهُ من طينٍ﴾: وبزعمِهِ أنَّ عنصر النار خيرٌ من عنصر الطين، وهٰذا من القياس الفاسدِ؛

فإنَّ عنصرَ النار مادَّةُ الشرِّ والفساد والعلوِّ والطيش والخفَّة، وعنصرُ الطِّين مادَّةُ الرزانة والتواضُع وإخراج أنواع الأشجارِ والنباتات، وهو يغلِبُ النار ويطفِئُها، والنارُ تحتاج إلى مادَّةٍ تقومُ بها والطينُ قائمٌ بنفسِهِ. فهٰذا قياسُ شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهيَّ من اللّه، قد تبيَّن غايةُ بطلانِهِ وفسادِهِ؛ فما بالُك بأقيسةِ التلاميذ الذين عارضوا الحقَّ بأقْيِسَتِهِم؛ فإنَّها كلَّها أعظمُ بطلاناً وفساداً من هٰذا القياس.

﴿٧٧ ـ ٧٨﴾ فقال اللّه له: اخرج ﴿منها﴾؛ أي: من السماء والمحلِّ الكريم، ﴿فإنَّك رجيمٌ﴾؛ أي: مبعد مدحور، ﴿وإنَّ عليك لعنتي﴾ أي: طردي وإبعادي ﴿إلى يوم الدين﴾: دائماً أبداً.

﴿٧٩﴾ ﴿قال ربِّ فأنظِرْني إلى يوم يبعثون﴾: لشدَّة عداوتِهِ لآدمَ وذرِّيَّته؛ ليتمكَّن من إغواء مَنْ قَدَّرَ اللّه أن يُغْوِيَه.

﴿٨٠ ـ ٨١﴾ فـ﴿قال﴾ اللّه مجيباً لدعوتِهِ حيث اقتضتْ حكمتُهُ ذٰلك: ﴿إنَّكَ من المُنظَرين. إلى يوم الوقتِ المعلوم﴾: حين تُسْتَكْمَلُ الذريَّةُ، ويتمُّ الامتحان.

﴿٨٢ ـ ٨٣﴾ فلما علم أنه مُنْظَرٌ؛ بادى ربَّه من خبثه بشدَّة العداوةِ لربِّه ولآدم وذُرِّيَّتِهِ، فقال: ﴿فبعزَّتِك لأغْوِيَنَّهُم أجمعينَ﴾:

**يُحتمل** أنَّ الباء للقسم، وأنَّه أقسم بعزَّةِ اللّه ليغوينَّهم كلَّهم أجمعين ﴿إلَّا عبادك منهم المخلَصين﴾: علم أنَّ اللّه سيحفظُهم من كيدِهِ. **ويُحتمل** أنَّ الباء للاستعانة، وأنَّه لما علم أنه عاجزٌ من كل وجهٍ، وأنه لا يضلُّ أحداً إلَّا بمشيئة اللّه تعالى، فاستعانَ بعزَّةِ اللّه على إغواءِ ذُرِّيَّةِ آدمَ. هٰذا وهو عدوُّ اللّه حقًّا، ونحن يا ربَّنا العاجزونَ المقصرونَ، المقرُّونَ لك بكل نعمةٍ، ذُرِّيَّةُ من شَرَّفْتَه وكرَّمْتَه؛ فنستعين بعزَّتك العظيمة، وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكلِّ مخلوق، ورحمتك التي أوصلتَ إلينا بها ما أوصلتَ من النعم الدينيَّة والدنيويَّة، وصرفتَ بها ما عنَّا صرفتَ من النِّقم، أن تعينَنا على محاربتِهِ وعداوتِهِ والسلامة من شرِّه وشركِهِ، ونحسنُ الظَّنَّ بك أن تجيبَ دعاءنا، ونؤمنُ بوعدِك الذي قلت لنا: ﴿وقال ربُّكم ادْعوني أَسْتَجِبْ لكُم﴾؛ فقد دَعَوْناك كما أمَرْتَنا، فاستجِبْ لنا كما وَعَدْتَنا. ﴿إنَّك لا تُخْلِفُ الميعاد﴾.

﴿٨٤ ـ ٨٥﴾ ﴿قال﴾ اللّه تعالى: ﴿فالحقُّ والحقَّ أقولُ﴾؛ أي: الحقُّ وصفي والحقُّ قولي، ﴿لأملأنَّ جهنَّم منك ومِمَّن تَبِعَكَ منهم أجمعينَ﴾.

﴿٨٦﴾ فلما بيَّنَ الرسول للناس الدليلَ، ووضَّح لهم السبيلَ؛ قال اللّه له: ﴿قل ما أسألُكم عليه﴾؛ أي: على دعائي إياكم ﴿من أجرٍ وما أنا من المتكلِّفين﴾: أدَّعي

أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علمٌ، لا أتَّبعُ إلَّا ما يُوحى إليَّ.

﴿٨٧﴾ ﴿إنْ هو﴾؛ أي: هٰذا الوحي والقرآن ﴿إلَّا ذِكْرٌ للعالَمين﴾: يتذكَّرون به كلَّ ما ينفعُهم من مصالح دينهم ودُنياهم، فيكون شرفاً ورفعةً للعالمين به وإقامةَ حجَّة على المعاندين.

فهٰذه السورة العظيمة مشتملةٌ على الذِّكْر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامةِ الحُجَج والبراهين على مَنْ كذَّب بالقرآن، وعارَضَه، وكذَّب مَنْ جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلَصين، وجزاء المتَّقين والطاغين؛ فلهٰذا أقسم في أولها بأنَّه ذو الذِّكْر، ووصفه في آخرها بأنَّه ذِكْرٌ للعالمين، وأكثَرَ التَّذْكيرَ بها فيما بين ذٰلك؛ كقوله: ﴿واذْكُرْ عَبْدَنا﴾، ﴿واذْكُرْ عِبادَنا﴾، ﴿رحمةً منّا وذِكْرى﴾، ﴿هٰذا ذكرٌ﴾. اللهمَّ علِّمْنا منه ما جهلنا، وذكِّرْنا منه ما نَسينا نِسيانَ غفلةٍ ونسيان تركٍ.

﴿٨٨﴾ ﴿ولَتَعْلَمُنَّ نبأه﴾؛ أي: خبره ﴿بعد حينٍ﴾: وذٰلك حين يقع عليهم العذابُ، وتتقطَّع عنهم الأسبابُ.

تم تفسير سورة صٓ بمنِّه تعالى وعونه.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الزمر

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآنِ وجلالةِ مَنْ تكلَّم به ونَزَلَ منه، وأنَّه نزل ﴿من الله العزيز الحكيم﴾؛ أي: الذي وصفه الألوهيَّة للخلق، وذٰلك لعظمتِهِ وكمالِهِ والعزَّة التي قهر بها كلَّ مخلوق، وذلَّ له كلُّ شيء والحكمة في خلقه وأمره؛ فالقرآنُ نازلٌ ممَّن هٰذا وصفه، والكلام وصفٌ للمتكلِّم، والوصفُ يتبعُ الموصوفَ؛ فكما أنَّ الله تعالى الكامل من كلِّ وجه الذي لا مثيل له؛ فكذٰلك كلامُهُ كاملٌ من كلِّ وجه لا

مثيل له؛ فهٰذا وحدَه كافٍ في وصف القرآن دالٌّ على مرتبته.

﴿٢﴾ولٰكنَّه مع هٰذا زاد بياناً لكماله بمن نَزَلَ عليه، وهو محمدٌ ﷺ، الذي هو أشرف الخلق، فعُلِمَ أنَّه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحقُّ، فنزل بالحقِّ الذي لا مِرْيَةَ فيه لإخراج الخلق من الظُّلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحقِّ في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة؛ فكلُّ ما دلَّ عليه؛ فهو أعظم أنواع الحقِّ من جميع المطالب العلميَّة، وما بعد الحقِّ إلَّا الضلال.

ولمَّا كان نازلاً من الحقِّ مشتملاً على الحقِّ لهداية الخَلْق على أشرف الخلق؛ عَظُمَتْ فيه النعمةُ، وجلَّت، ووجب القيامُ بشكرِها، وذٰلك بإخلاص الدين للّه؛ فلهٰذا قال: **﴿فاعْبُدِ اللّه مخلصاً له الدين﴾**؛ أي: أخلص للّه تعالى جميعَ دينِكَ من الشرائع الظاهرة والشرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان؛ بأنْ تُفرِدَ اللّه وحدَه بها، وتقصُدَ به وَجْهَهُ، لا غير ذٰلك من المقاصد.

﴿٣﴾ **﴿ألا للّه الدينُ الخالصُ﴾**: هٰذا تقريرٌ للأمر بالإخلاص، وبيانُ أنَّه تعالى كما أنَّه له الكمال كلُّه وله التفضُّل على عباده من جميع الوجوه؛ فكذٰلك له الدينُ الخالصُ الصافي من جميع الشوائب؛ فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه وارتضاه لصفوةِ خلقِهِ وأمَرَهُم به؛ لأنه متضمنٌ للتألُّه للّه في حبه وخوفه ورجائِهِ والإنابةِ إليه في عبوديَّته والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده، وذٰلك الذي يُصْلِحُ القلوبَ ويزكِّيها ويطهِّرها؛ دون الشرك به في شيء من العبادة؛ فإنَّ اللّه بريءٌ منه، وليس للّه فيه شيءٌ؛ فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسدٌ للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مشقٍ للنفوس غاية الشقاء.

فلذٰلك لمَّا أمر بالتوحيد والإخلاص؛ نهى عن الشرك به، وأخبر بذمِّ مَنْ أشرك به، فقال: **﴿والذين اتَّخذوا من دونِهِ أولياءَ﴾**؛ أي: يتولَّوْنَهم بعبادتهم ودعائهم، متعذِرين عن أنفسِهم، وقائلين: **﴿ما نعبُدُهم إلَّا لِيُقَرِّبونا إلى اللّه زُلْفَى﴾**؛ أي: لترفعَ حوائجنا للّه، وتشفعَ لنا عنده، وإلَّا؛ فنحن نعلمُ أنَّها لا تخلُقُ ولا ترزقُ ولا تملكُ من الأمر شيئاً؛ أي: فهٰؤلاء قد تركوا ما أمَرَ اللّه به من الإخلاص، وتجرؤوا على أعظم المحرَّمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثلِهِ شيءٌ الملك العظيم بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدةِ ورأيِهِم السقيم أنَّ الملوك كما أنَّه لا يوصَلُ إليهم إلَّا بوجهاء وشفعاء و وزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ويستعطِفونهم عليهم ويمهِّدونَ لهم الأمر في ذٰلك؛ أنَّ اللّه تعالى كذٰلك!

وهٰذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمَّن التسويةَ بين الخالق والمخلوق، مع ثُبوت الفرق العظيم عقلاً ونقلاً وفطرةً؛ فإنَّ الملوك إنَّما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم؛ لأنَّه[1] لا يعلمون أحوالَهم، فيُحتَاجُ مَنْ يُعْلِمُهُمْ بأحوالهم، وربَّما لا يكون في قلوبهم رحمةٌ لصاحب الحاجة، فيحتاج مَنْ يُعَطِّفُهم عليه، ويسترحِمُه لهم، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائجَ من توسَّطوا لهم مراعاةً لهم ومداراةً لخواطِرِهم، وهم أيضاً فقراءُ؛ قد يمنعون لما يخشَوْن من الفقر، وأمَّا الربُّ تعالى؛ فهو الذي أحاط علمُهُ بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاجُ مَنْ يخبِرُهُ بأحوال رعيَّته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاجُ إلى أحدٍ من خلقِهِ يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثُّهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريدُ من مصالِحِهم ما لا يريدونَه لأنفسِهِم، وهو الغنيُّ، الذي له الغنى التامُّ المطلقُ، الذي لو اجتمع الخلقُ من أولهم وآخرهم في صعيدٍ واحدٍ، فسألوه، فأعطى كلاً منهم ما سأل وتمنَّى؛ لم يَنقصوا غناه شيئاً، ولم يَنقصوا مما عنده إلَّا كما يَنْقُصُ البحرُ إذا غُمِسَ فيه المِخْيَطُ، وجميع الشفعاء يخافونه؛ فلا يشفعُ منهم أحدٌ إلَّا بإذنه، وله الشفاعةُ كلُّها؛ فبهٰذه الفروق يُعلم جهلُ المشركين به وسفهُهُم العظيمُ وشدَّةُ جراءتهم عليه، ويُعْلَم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره اللّه تعالى؛ لأنَّه يَتَضمَّن القدحَ في اللّه تعالى، ولهٰذا قال حاكماً بين الفريقين المخلِصين والمشركين وفي ضمنه التهديد للمشركين: ﴿إنَّ اللّه يَحْكُمُ بينَهم فيما هم فيه يختلفونَ﴾: وقد عُلِمَ أنَّ حُكْمَهُ أنَّ المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك باللّه؛ فقد حرَّم اللّه عليه الجنة ومأواه النار. ﴿إنَّ اللّه لا يهدي﴾؛ أي: لا يوفِّق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿من هو كاذبٌ كفَّارٌ﴾؛ أي: وصفه الكذبُ أو[2] الكفر؛ بحيث تأتيه المواعظُ والآيات ولا يزول عنه ما اتَّصف به، ويُريه اللّه الآياتِ فيَجْحَدُها ويكفرُ بها ويكذبُ؛ فهٰذا أنَّى له الهدى وقد سدَّ على نفسه الباب، وعوقِبَ بأن طَبَعَ اللّه على قلبِهِ فهو لا يؤمنُ.

---

(١) كذا في النسختين. وعُدِّلت في ( أ ): «لأنهم» بخطٍ مغاير.

(٢) في (ب): «و».

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: ﴿لو أراد الله أن يتَّخِذَ ولداً﴾: كما زعم ذٰلك من زَعَمَه من سفهاء الخلق ﴿لاصطفى مما يخلقُ ما يشاء﴾؛ أي: لاصطفى بعض مخلوقاتِهِ التي يشاء اصطفاءه واختصَّه لنفسه، وجَعَلَه بمنزلة الولد، ولم يكنْ حاجةٌ إلى اتِّخاذ الصاحبة. ﴿سبحانه﴾: عما ظنَّه به الكافرون أو نسبه إليه الملحدون. ﴿هو الله الواحد القهَّارُ﴾؛ أي: الواحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله؛ فلا شبيه له في شيء من ذٰلك ولا مماثل؛ فلو كان له ولدٌ؛ لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدتِهِ؛ لأنَّه بعضُه وجزءٌ منه. القهارُ لجميع العالم العلويِّ والسفليِّ؛ فلو كان له ولدٌ؛ لم يكنْ مقهوراً، ولكان له إدلالٌ على أبيه ومناسبةٌ منه، ووحدتُه تعالى وقهرُهُ متلازمانِ؛ فالواحد لا يكون إلَّا قهاراً، والقهارُ لا يكون إلَّا واحداً، وذٰلك ينفي الشركة له من كلِّ وجه.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿٥﴾ يخبر تعالى أنَّه ﴿خلَقَ السمٰواتِ والأرضَ﴾؛ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمرَ العبادَ وينهاهم ويثيبَهم ويعاقبَهم. ﴿يكوِّرُ الليلَ على النهار ويكوِّرُ النهارَ على الليل﴾؛ أي: يدخِلُ كلاً منهما على الآخر، ويُحِلُّه محلَّه؛ فلا يجتمعُ هٰذا وهٰذا، بل إذا أتى أحدُهما؛ انعزلَ الآخر عن سلطانه، ﴿وسخَّرَ الشمسَ والقمر﴾: بتسخير منظَّم وسيرٍ مقننٍ. ﴿كلٌّ﴾: من الشمس والقمر ﴿يجري﴾: متأثِّراً عن تسخيره تعالى ﴿لأجل مسمًّى﴾: وهو انقضاء هٰذه الدار وخرابُها، فيخرب الله آلاتِها وشمسَها وقمرَها، وينشىء الخلق نشأةً جديدةً؛ ليستقرُّوا في دار القرار الجنة أو

النار. ﴿ألا هو العزيزُ﴾: الذي لا يُغالَبُ، القاهرُ لكلِّ شيء، الذي لا يستعصي عليه شيءٌ، الذي من عزَّتِهِ أوجَدَ هٰذه المخلوقاتِ العظيمةَ، وسخَّرها، تجري بأمره. ﴿الغفارُ﴾: لذنوب عبادِهِ التوَّابين المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وإنِّي لَغفارٌ لِمَن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً ثم اهتدى﴾، الغفارُ لمن أشرك به بعد ما رأى من آياتِهِ العظيمةِ ثم تاب وأناب.

﴿٦﴾ ومن عزَّتِهِ أن ﴿خَلَقَكُم من نفس واحدةٍ﴾: على كثرتكم وانتشاركم في أنحاء الأرض، ﴿ثم جَعَلَ منها زَوْجَها﴾: وذٰلك ليسكنَ إليها وتسكنَ إليه وتتمَّ بذٰلك النعمة، ﴿وأنزل لكم من الأنعام﴾؛ أي: خلقها بقدرٍ نازلٍ منه رحمةً بكم ﴿ثمانيةَ أزواجٍ﴾: وهي التي ذكرها في سورة الأنعام: ﴿ثمانية أزواجٍ من الضَّأنِ اثنينِ ومن المَعْزِ اثنينِ ومن الإبِلِ اثنينِ ومن البقرِ اثنينِ﴾، وخصَّها بالذِّكر مع أنَّه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها؛ لكثرةِ نفعِها وعموم مصالِحِها ولشرفِها ولاختصاصِها بأشياء لا يَصْلُحُ غيرُها؛ كالأضحيَّة والهدي والعقيقةِ ووجوب الزكاة فيها واختصاصها بالدِّية. ولما ذَكَرَ خَلْقَ أبينا وأمنا؛ ذَكَرَ ابتداءَ خَلْقِنا، فقال: ﴿يخلُقُكُم في بطونِ أمَّهاتِكُم خَلْقاً من بعدِ خَلْق﴾؛ أي: طوراً بعد طورٍ، وأنتم في حال لا يَدَ مخلوق تمسُّكم ولا عينَ تنظرُ إليكم، وهو قد ربَّاكُم في ذٰلك المكان الضيق ﴿في ظُلُماتٍ ثلاثٍ﴾: ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة. ﴿ذٰلِكُم﴾: الذي خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وسخَّر الشمس والقمر، وخَلَقَكُم وخَلَقَ لكم الأنعامَ والنعم ﴿اللهُ ربُّكُم﴾؛ أي: المألوه المعبود الذي ربَّاكم ودبَّركم؛ فكما أنَّه الواحد في خلقِهِ وتربيتِهِ لا شريك له في ذٰلك؛ فهو الواحد في ألوهيَّتِهِ لا شريك له، ولهٰذا قال: ﴿لا إله إلَّا هو فأنَّى تُصْرَفونَ﴾: بعد هٰذا البيان، ببيانِ استحقاقِهِ تعالى الإخلاص وحده، إلى عبادةِ الأوثان التي لا تدبِّرُ شيئاً، وليس لها من الأمر شيء!!

﴿٧﴾ ﴿إن تَكْفُروا فإنَّ الله غنيٌّ عنكم﴾: لا يضرُّه كفرُكم كما لا ينتفع بطاعتكم، ولكنْ أمرُهُ ونهيُهُ لكم محضُ فضلِهِ وإحسانِهِ عليكم. ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾: لكمال إحسانِهِ بهم وعلمِهِ أنَّ الكفر يُشقيهم شقاوةً لا يسعدون بعدها، ولأنَّه خَلَقَهم لعبادتِهِ؛ فهي الغاية التي خَلَقَ لها الخلق؛ فلا يرضى أن يَدَعوا ما خلقهم لأجله.

﴿وإن تشكروا﴾: لله تعالى بتوحيدِهِ وإخلاص الدين له ﴿يَرْضَهُ لكم﴾: لرحمته

بكم ومحبَّته للإحسانِ عليكم ولِفعْلِكُم ما خَلَقَكُم لأجله، وكما أنَّه لا يَتَضرَّر بشِرْككم ولا يَنْتَفِعُ بأعمالكم وتوحيدكم؛ كذٰلك كلُّ أحدٍ منكم له عملُه من خير وشرٍّ. ﴿ولا تزرُ وازرةٌ وِزرَ أخرى ثم إلى ربِّكم مرجِعُكم﴾: في يوم القيامة، ﴿فينبِّئُكم بما كنتُم تعملون﴾: إخباراً أحاط به علمُه وجرى عليه قلمُه وكتبتْه عليكم الحفظةُ الكرامُ وشهدتْ[1] به عليكم الجوارحُ، فيجازي كلًّا منكم ما يستحقُّه. ﴿إنَّه عليمٌ بذات الصدور﴾؛ أي: بنفس الصدور وما فيها من وصفِ برٍّ أو فجورٍ. والمقصود من هٰذا الإخبار بالجزاء بالعدل التامِّ.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

﴿٨﴾ يخبر تعالى عن كرمه بعبده وإحسانه وبرِّه وقلَّةِ شُكْرِ عبدِهِ، وأنَّه حين يمسُّه الضُّرُّ من مرض أو فقرٍ أو وقوع في كُربةِ بحرٍ أو غيره؛ أنَّه يعلم أنَّه لا يُنَجِّيهِ في هٰذه الحال إلَّا اللّه، فيدعوه متضرِّعاً منيباً، ويستغيثُ به في كَشْفِ ما نزل به ويلحُّ في ذٰلك. ﴿ثم إذا خوَّلَه﴾: الله ﴿نعمةً منه﴾: بأن كشف ما به من الضُّرِّ والكربةِ، ﴿نسِيَ ما كان يدعو إليه مِن قَبْلُ﴾؛ أي: نسي ذٰلك الضُّرَّ الذي دعا اللّه لأجله، ومرَّ كأنَّه ما أصابه ضرٌّ، واستمرَّ على شركه، ﴿وجعل للّه أنداداً ليضلَّ عن سبيلِهِ﴾؛ أي: لِيَضِلَّ بنفسِهِ ويُضِلَّ غيرَه؛ لأنَّ الإضلال فرعٌ عن الضلال، فأتى بالملزوم ليدلَّ على اللازم. ﴿قل﴾: لهٰذا العاتي الذي بدَّلَ نعمة اللّه كفراً: ﴿تمتَّعْ بكفرِكَ قليلاً إنَّك من أصحابِ النار﴾: فلا يغنيكَ ما تتمتَّعُ به إذا كان المآل النار، ﴿أفرأيتَ إن متَّعْناهم سنينَ ثم جاءَهُم ما كانوا يوعدونَ. ما أغنى عنهُم ما كانوا يُمَتَّعونَ﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾.

﴿٩﴾ هٰذه مقابلةٌ بين العامل بطاعة اللّه وغيره، وبين العالم والجاهل، وأنَّ هٰذا من الأمور التي تَقَرَّر في العقول تباينُها، وعُلِمَ علماً يقيناً تفاوتُها؛ فليس المعرِضُ

(١) في (ب): «وشهد».

عن طاعة ربِّه المتَّبع لهواه كمن هو قانتٌ؛ أي: مطيعٌ للّه بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهي أوقات الليل، فوصَفَه بكثرة العمل وأفضله، ثم وَصَفَه بالخوف والرجاء، وذكر أنَّ متعلَّقَ الخوف عذابُ الآخرة على ما سَلَفَ من الذُّنوب، وأنَّ متعلَّقَ الرجاءِ رحمةُ اللّه، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن. ﴿قل هل يَسْتَوي الذين يعلمون﴾: ربَّهم ويعلمونَ دينَه الشرعيَّ ودينَه الجزائيَّ وما له في ذٰلك من الأسرار والحكم، ﴿والذين لا يعلمونَ﴾: شيئاً من ذٰلك، لا يستوي هٰؤلاء ولا هٰؤلاء؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضياء والظلام والماء والنار. ﴿إنَّما يَتَذَكَّرُ﴾: إذا ذُكِّروا ﴿أولو الألبابِ﴾؛ أي: أهل العقول الزكيَّة الذكيَّة؛ فهم الذين يُؤْثِرونَ الأعلى على الأدنى؛ فيؤثِرون العلمَ على الجهل، وطاعةَ اللّه على مخالفتِهِ؛ لأنَّ لهم عقولاً ترشِدُهم للنظر في العواقب؛ بخلاف مَنْ لا لبَّ له ولا عقلَ؛ فإنَّه يتَّخِذُ إلٰهه هواه.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: قل منادياً لأشرف الخَلْق، وهم المؤمنون، آمراً لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكراً لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبيَّة اللّه لهم وإنعامُه عليهم، المقتضي ذٰلك منهم أن يَتَّقوه، ومن ذٰلك ما منَّ الله عليهم به من الإيمان؛ فإنَّه موجبٌ للتقوى؛ كما تقولُ: أيُّها الكريم تصدَّقْ! وأيُّها الشجاع قاتل! وذكر لهم الثوابَ المنشِّطَ في الدُّنيا، فقال: ﴿للذين أحسنوا في هٰذه الدُّنيا﴾: بعبادة ربِّهم لهم ﴿حسنةٌ﴾: رزقٌ واسعٌ ونفسٌ مطمئنةٌ وقلبٌ منشرحٌ؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً من ذَكَرٍ أو أنثىٰ وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيبةً﴾. ﴿وأرضُ اللّه واسعةٌ﴾: إذا مُنِعْتُم من عبادتِهِ في أرض؛ فهاجِروا إلى غيرِها تعبُدون فيها ربَّكم وتتمكَّنون من إقامة دينِكم. ولـمَّا قال: ﴿للذين أحسنوا في هٰذه الدُّنيا حسنةٌ﴾؛ كان لبعض النفوس مجالٌ في هٰذا الموضع، وهو أنَّ النصَّ عامٌّ؛ أنَّه كل مَنْ أحسن؛ فله في الدُّنيا حسنةٌ؛ فما بالُ مَنْ آمن في أرض يُضْطَهَدُ فيها ويُمْتَهَنُ لا يحصل له ذٰلك؟ دَفَعَ هٰذا الظنَّ بقوله: ﴿وأرضُ اللّه واسعةٌ﴾: وهنا بشارةٌ نصَّ عليها النبيُّ ﷺ بقوله: «لا تزال طائفةٌ من أمَّتي على الحقِّ ظاهرين لا يضرُّهم مَنْ خَذَلَهم ولا من خالَفَهم حتى يأتي أمرُ اللّه وهم على ذٰلك»[1]. تشير إليه هٰذه الآية وترمي

---

(١) ورد عن جمع من الصحابة، وقد صرح عدد من العلماء بتواتر الحديث منهم =

إليه من قريب، وهو أنَّه تعالى أخبر أنَّ أرضَه واسعةٌ؛ فمهما مُنِعْتُم من عبادته في موضع؛ فهاجروا إلى غيرها. وهٰذا عامٌ في كلِّ زمان ومكان؛ فلا بدَّ أن يكونَ لكلِّ مهاجرٍ ملجأ من المسلمين يلجأ إليه وموضعٌ يتمكَّن من إقامة دينِهِ فيه.

﴿إنَّما يُوَفَّى الصابرون أجْرَهُم بغير حسابٍ﴾: وهٰذا عامٌ في جميع أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله المؤلمةِ؛ فلا يتسخَّطُها، والصبر عن معاصيه؛ فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤدِّيَها، فوعد الله الصابرينَ أجرهم بغير حسابٍ؛ أي: بغير حدٍّ ولا عدٍّ ولا مقدارٍ، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحلِّه عند الله، وأنَّه معينٌ على كلِّ الأمور.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١١﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيُّها الرسولُ، للناس: ﴿إنِّي أمرتُ أن أعْبُدَ اللَّهَ مخلصاً له الدين﴾: في قولِهِ في أول السورة: ﴿فاعْبُدِ الله مخلصاً له الدين﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وأُمِرْتُ لأن أكونَ أولَ المسلمينَ﴾: لأنِّي الدَّاعي الهادي للخلقِ إلى ربِّهم، فيقتضي أنِّي أولُ من ائتمَرَ بما أمرَ به وأولُ مَنْ أسلمَ، وهٰذا الأمرُ لا بدَّ من إيقاعِهِ من محمد ﷺ وممَّن زعم أنه من أتباعِهِ؛ فلا بدَّ من الإسلام في الأعمال الظاهرة والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿١٣﴾ ﴿قل إني أخافُ إن عَصَيْتُ ربِّي﴾: فيما أمرني به من الإخلاص والإسلام ﴿عذابَ يومٍ عظيمٍ﴾: يخلدُ فيه مَنْ أشرك ويعاقَبُ فيه من عصى.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿قلِ اللهَ أعْبُدُ مخلصاً له ديني. فاعْبُدوا ما شِئْتُم من دونِهِ﴾: كما قال تعالى: ﴿قل يا أيُّها الكافرونَ. لا أعْبُدُ ما تَعْبُدونَ. ولا أنتُم عابِدونَ ما أعْبُدُ. ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُم. ولا أنتم عابِدونَ ما أعْبُدُ. لكُم دينُكم ولي دينٌ﴾. ﴿قُلْ إنَّ الخاسرينَ﴾: حقيقة هم ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾: حيث حَرَموها الثوابَ،

---

= شيخ الإسلام ابن تيمية في «اقتضاء الصراط» (١/ ٦٩)، والكتاني في «نظم المتناثر» (٩٣)، والزبيدي في «لقط اللالىء المتناثرة» (٦٨)، والألباني في «صلاة العيدين» (ص٣٩ ـ ٤٠).

واستحقَّتْ بسببِهِم وخيمَ العقاب، ﴿وأهليهم يومَ القيامةِ﴾؛ أي: فُرِّق بينَهم وبينَهم، واشتدَّ عليهم الحزنُ، وعَظُمَ الخسرانُ. ﴿ألا ذٰلك هو الخسرانُ المبينُ﴾: الذي ليس مثلَه خسرانٌ، وهو خسرانٌ مستمرٌّ لا ربح بعده، بل ولا سلامةَ.

﴿١٦﴾ ثم ذكر شدَّةَ ما يحصلُ لهم من الشقاء، فقال: ﴿لهم من فوقِهِم ظُلَلٌ من النارِ﴾؛ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم، ﴿ومن تَحْتِهِم ظللٌ، ذٰلك﴾: الوصفُ الذي وَصفْنا به عذابَ أهل النار سوطٌ يسوقُ اللّه به عبادَه إلى رحمته، ﴿يُخَوِّفُ اللّهُ به عبادَه يا عبادِ فاتَّقونِ﴾؛ أي: جعل ما أعدَّه لأهل الشقاء من العذابِ داعٍ[1] يدعو عبادَه إلى التقوى وزجراً عمَّا يوجِبُ العذاب؛ فسبحانَ من رَحِمَ عبادَهُ في كل شيءٍ! وسَهَّلَ لهم الطرقَ الموصلة إليه، وحثَّهم على سلوكها، ورغَّبهم بكلِّ مرغِّب تشتاقُ له النفوسُ وتطمئنُّ له القلوب، وحذَّرهم من العمل لغيره[2] غايةَ التَّحذير، وذَكَرَ لهم الأسبابَ الزاجرةَ عن تركِهِ.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذَكَرَ تعالى حال المجرمين؛ ذَكَرَ حالَ المنيبين وثوابَهم، فقال: ﴿والذين اجْتَنَبوا الطاغوتَ أن يَعْبُدوها﴾: والمرادُ بالطاغوت في هٰذا الموضع عبادةُ غير اللّه؛ فاجْتَنَبوها في عبادتها، وهٰذا من أحسنِ الاحترازِ من الحكيم العليم؛ لأنَّ المدحَ إنَّما يتناولُ المجتنِبَ لها في عبادتها. ﴿وأنابوا إلى اللّهِ﴾: بعبادتِهِ وإخلاص الدينِ له، فانصرفتْ دواعيهم من عبادةِ الأصنام إلى عبادةِ الملكِ العلَّام، ومن الشركِ والمعاصي إلى التوحيدِ والطاعات. ﴿لهمُ البُشرى﴾: التي لا يُقادِرُ قَدْرَها ولا يَعْلَمُ وصْفَها إلَّا مَنْ أكْرَمَهم بها، وهٰذا شاملٌ للبُشرى في الحياة الدُّنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحةِ والعنايةِ الربَّانيَّة من اللّه، التي يرونَ في خلالها أنَّه مريدٌ لإكرامهم في الدُّنيا والآخرة، ولَهُمُ البشرى في الآخرة عند الموت وفي القبر وفي القيامة، وخاتمةُ البُشرى ما يبشِّرُهم به الربُّ الكريم من دوام رضوانِهِ وبرِّه وإحسانِهِ وحلول أمانِهِ في الجنة.

﴿١٨﴾ ولمَّا أخبر أنَّ لهم البُشرى؛ أمره اللّه ببشارَتِهِم، وذَكَرَ الوصفَ الذي

(١) كذا في النسختين والصواب «داعياً».　　(٢) في (ب): «من العمالة».

استحقُّوا به البشارةَ، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عبادِ. الذين يستَمِعون القولَ فيتَّبِعونَ أحْسَنَهُ﴾: وهٰذا جنسٌ يشملُ كلَّ قولٍ؛ فهم يستمعون جنس القول ليميِّزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابُه؛ فلهٰذا كان من حزمهم وعقلهم أنَّهم يتَّبِعون أحسنَه، وأحسنُه على الإطلاق كلامُ اللّه وكلامُ رسوله؛ كما قال في هٰذه السورة: ﴿اللّهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً. . .﴾ الآية.

وفي هٰذه الآية نكتةٌ، وهي أنَّه لما أخبر عن هٰؤلاء الممدوحين أنَّهم يستمعون القول فيتَّبِعون أحسنَه؛ كأنَّه قيل: هل من طريقٍ إلى معرفة أحسنِهِ حتى نتَّصِفَ بصفات أولي الألباب، وحتى نعرِفَ أنَّ مَنْ آثره عَلِمْنا أنَّه من أولي الألباب؟ قيل: نعم؛ أحسنُه ما نصَّ اللّه عليه بقوله: ﴿اللّهُ نَزَّلَ أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً. . .﴾ الآية. أولٰئك ﴿الذين يستمعونَ القولَ فيتَّبِعونَ أحسنَهُ أولٰئك الذين هداهُمُ اللّهُ﴾: لأحسنِ الأخلاق والأعمال، ﴿وأولٰئك هم أولو الألبابِ﴾؛ أي: العقول الزاكية، ومن لُبِّهم وحزمِهِم أنَّهم عَرَفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إيثارُهُ على ما سواه، وهٰذا علامةُ العقل، بل لا علامةَ للعقل سوى ذٰلك؛ فإنَّ الذي لا يميز بين الأقوال حسنِها وقبيحِها؛ ليس من أهل العقول الصحيحةِ، أو الذي يميِّزُ لٰكنْ غلبتْ شهوتُه عقلَه فبقي عقلُه تابعاً لشهوتِهِ فلم يؤثِرِ الأحسنَ؛ كان ناقصَ العقل.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: أفمن وجبتْ عليه كلمةُ العذاب باستمرارِهِ على غَيِّهِ وعناده وكفرِهِ؛ فإنَّه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدرُ تُنقِذُ مَنْ في النار لا محالة.

﴿٢٠﴾ لٰكنِ الغبنُ كلُ الغبن والفوزُ كلُّ الفوزِ للمتَّقين، الذين أعدَّ لهم من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ﴿لهم غُرَفٌ﴾؛ أي: منازل عاليةٌ مزخرفةٌ من حسنها وبهائها وصفائِها أنَّه يُرى ظاهرُها من باطنها وباطِنُها من ظاهرها، ومن علوِّها وارتفاعِها أنَّها تُرى كما يُرى الكوكبُ الغابرُ في الأفق الشرقيِّ أو الغربيِّ، ولهٰذا قال: ﴿مِن فوقِها غرفٌ﴾؛ أي: بعضُها فوقَ بعض ﴿مبنيةٌ﴾: بذهب وفضة ومِلاطُها المسكُ الأذفر، ﴿تجري من تحتها الأنهارُ﴾: المتدفقةُ المسقية للبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتُغِلُّ أنواع الثمار اللذيذة والفاكهة النضيجة. ﴿وَعْدَ اللّهِ لا يُخلِفُ اللّه الميعاد﴾: وقد وعد المتَّقين هٰذا الثواب؛ فلا بدَّ من الوفاء به؛ فَلْيوفوا بخصال التقوى؛ ليوفِّيَهُمْ أجورَهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ يُذَكِّرُ تعالى أولي الألباب ما أنزلَه من السماء من الماء، وأنَّه سلكه ينابيع في الأرض؛ أي: أودعه فيها ينبوعاً يُسْتَخْرَجُ بسهولةٍ ويسرٍ. ﴿ثم يخرِجُ به زرعاً مختلفاً ألوانُهُ﴾: من بُرٍّ وذرةٍ وشعيرٍ وأرزٍّ وغير ذلك، ﴿ثم يَهيجُ﴾: عند استكمالِهِ أو عند حدوث آفةٍ فيه، ﴿فتراه مصفرًا ثم يَجْعَلُه حطاماً﴾: متكسِّراً. ﴿إنَّ في ذلك لَذِكْرى لأولي الألبابِ﴾: يذكرون به عنايةَ ربِّهم ورحمتَه بعبادِهِ، حيث يَسَّرَ لهم هذا الماء وخَزَنَه بخزائنِ الأرض تبعاً لمصالحهم، ويذكرون به كمالَ قدرتِهِ، وأنَّه يُحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتِها، ويذكُرونَ به أنَّ الفاعلَ هو المستحقُّ للعبادة. اللهم! اجْعَلْنا من أولي الألباب، الذين نَوَّهْتَ بذِكْرِهم، وهديتَهم بما أعطيتَهم من العقول وأرَيْتَهم من أسرارِ كتابِكَ وبديع آياتِكَ ما لم يصِلْ إليه غيرُهم؛ إنَّك أنت الوهابُ.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: أفيستوى مَنْ شَرَحَ الله صدرَه للإسلام، فاتَّسع لتلقِّي أحكام الله والعمل بها منشرحاً قرير العين على بصيرةٍ من أمره، وهو المرادُ بقولِهِ: ﴿فهو على نورٍ من ربِّهِ﴾: كمن ليس كذلك؛ بدليل قوله: ﴿فويلٌ للقاسيةِ قلوبُهُم مِنْ ذكرِ اللهِ﴾؛ أي: لا تلين لكتابه ولا تتذكَّر آياتِهِ ولا تطمئنُّ بذكرِهِ، بل هي معرِضَةٌ عن ربِّها، ملتفتةٌ إلى غيره؛ فهؤلاء لهم الويلُ الشديدُ والشرُّ الكبير. ﴿أولئك في ضلال مبين﴾: وأيُّ ضلال أعظمُ من ضلال مَنْ أعرَضَ عن وليِّه، ومَنْ كلُّ السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبُهُ عن ذكرِهِ، وأقبل على كلِّ ما يضرُّه؟!

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزَّله أنَّه أحسنُ ﴿الحديث﴾ على الإطلاق؛ فأحسنُ الحديث كلامُ الله، وأحسنُ الكتبِ المنزلةِ من كلام الله هذا القرآن، وإذا

كان هو الأحسنَ؛ عُلِمَ أنَّ ألفاظه أفصحُ الألفاظ وأوضحُها، وأنَّ معانِيَه أجلُّ المعاني؛ لأنَّه أحسنُ الحديث في لفظه ومعناه. ﴿متشابهاً﴾: في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجهٍ من الوجوه، حتى إنه كلَّما تدبَّره المتدبِّر وتفكَّر فيه المتفكِّر؛ رأى من اتِّفاقه ـ حتى في معانيه الغامضة ـ ما يُبْهِرُ الناظرين ويجزم بأنَّه لا يصدُرُ إلَّا من حكيمٍ عليم، هٰذا المراد بالتَّشابُهِ في هٰذا الموضع، وأما في قوله تعالى: ﴿هو الذي أنْزَلَ عليك الكتابَ منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتابِ وأُخَرُ متشابهاتٌ﴾؛ فالمرادُ بها: التي تشتبهُ على فهوم كثيرٍ من الناس، ولا يزول هٰذا الاشتباه إلَّا بردِّها إلى المحكم، ولهٰذا قال: ﴿منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب وأُخَرُ متشابهاتٌ﴾: فجعل التشابه لبعضِهِ، وهنا جَعَلَه كلَّه متشابهاً؛ أي: في حسنه؛ لأنه قال: ﴿أحسنَ الحديثِ﴾، وهو سورٌ وآياتٌ، والجميعُ يشبِهُ بعضُه بعضاً؛ كما ذكرنا. ﴿مثانيَ﴾؛ أي: تُثَنَّى فيه القصصُ والأحكامُ والوعدُ والوعيدُ وصفاتُ أهل الخير وصفاتُ أهل الشرِّ، وتُثَنَّى فيه أسماءُ اللّه وصفاتُه، وهٰذا من جلالتِهِ وحسنِهِ؛ فإنَّه تعالى لمَّا عَلِمَ احتياجَ الخلقِ إلى معانيه المزكِّية للقلوب المكمِّلة للأخلاق، وأنَّ تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار؛ فكما أنَّ الأشجار كلَّما بَعُدَ عهدُها بسقي الماء؛ نقصت، بل ربَّما تَلِفَتْ، وكلَّما تكرَّر سقيُها؛ حَسُنَتْ وأثمرتْ أنواع الثمارِ النافعةِ؛ فكذٰلك القلبُ يحتاجُ دائماً إلى تكرُّر معاني كلام اللّه تعالى عليه، وأنَّه لو تكرَّر عليه المعنى مرةً واحدةً في جميع القرآن؛ لم يقعْ منه موقعاً، ولم تحصُلِ النتيجةُ منه.

ولهٰذا سلكتُ في هٰذا التفسير هٰذا المسلكَ الكريم؛ اقتداءً بما هو تفسيرٌ له؛ فلا تجدُ فيه الحوالةَ على موضع من المواضع، بل كلُّ موضع تجدُ تفسيرَه كاملَ المعنى غيرَ مراعٍ لما مضىٰ مما يُشْبِهُهُ، وإنْ كان بعضُ المواضع يكون أبسطَ من بعضٍ وأكثرَ فائدة، وهٰكذا ينبغي للقارىء للقرآنِ المتدبِّر لمعانيه أن لا يَدَعَ التدبُّرَ في جميعِ المواضع منه؛ فإنَّه يحصُلُ له بسبب ذٰلك خيرٌ كثيرٌ ونفعٌ غزيرٌ. ولما كان القرآنُ العظيمُ بهٰذه الجلالة والعظمةِ؛ أثَّر في قلوب أولي الألباب المهتدين؛ فلهٰذا قال تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ منه جلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم﴾: لما فيه من التخويف والترهيب المزعج، ﴿ثمَّ تَلينُ جلودُهم وقلوبُهم إلى ذِكْرِ اللّهِ﴾؛ أي: عند ذكر الرجاء والترغيب؛ فهو تارةً يرغِّبُهم لعمل الخير، وتارةً يرهِّبُهم من عمل الشر. ﴿ذٰلك﴾: الذي ذكره اللّه من تأثير القرآن فيهم ﴿هدى اللّه﴾؛ أي: هدايةٌ منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم، ﴿يَهْدي به﴾؛ أي: بسبب ذٰلك ﴿مَن

﴿يشاءُ﴾ من عبادِهِ. ويُحتَمَلُ أنَّ المرادَ بقوله: ﴿ذٰلك﴾؛ أي: القرآن الذي وَصَفْناه لكم ﴿هدى اللّه﴾: الذي لا طريقَ يوصِلُ إلى اللّه إلَّا منه. ﴿يَهْدي به مَن يَشاءُ﴾ من عبادِهِ، ممَّن حَسُنَ قصدُه؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَه سُبُلَ السلام﴾. ﴿ومَن يُضْلِلِ اللّهُ فما لَهُ من هادٍ﴾: لأنَّه لا طريق يوصِلُ إليه إلَّا توفيقُه، والتوفيقُ للإقبال على كتابِهِ، فإذا لم يحصُلْ هٰذا؛ فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلَّا الضلالُ المبين والشقاء.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: أفيستوي هٰذا الذي هداه اللّه، ووفَّقه لسلوك الطريق الموصلةِ لدارِ كرامتِهِ كمن كان في الضلال، واستمرَّ على عنادِهِ حتى قَدِمَ القيامة فجاءه العذابُ العظيم فجعلَ يتَّقي بوجهِهِ الذي هو أشرفُ الأعضاء، وأدنى شيءٍ من العذاب يؤثِّرُ فيه، فهو يتَّقي فيه سوء العذاب؛ لأنَّه قد غُلَّتْ يداه ورجلاه؟! ﴿وقيل للظالمين﴾: أنفسَهم بالكفرِ والمعاصي توبيخاً وتقريعاً: ﴿ذوقوا ما كنتُم تكسِبونَ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿كَذَّبَ الذين من قبلِهِم﴾: من الأمم كما كذَّبَ هٰؤلاء، ﴿فأتاهم العذابُ من حيثُ لا يشعُرونَ﴾: جاءهم في غفلةٍ أولَ نهار أو هم قائلون.

﴿٢٦﴾ ﴿فأذاقَهُم اللّهُ﴾: بذٰلك العذاب ﴿الخزيَ في الحياة الدُّنيا﴾: فافْتُضِحوا عند اللّه وعند خلقِهِ. ﴿ولَعَذابُ الآخرةِ أكبرُ لو كانوا يعلمونَ﴾: فليحذرْ هٰؤلاء من المُقامِ على التكذيبِ فيصيبَهم ما أصابَ أولٰئك من التعذيب.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى أنَّه ضربَ في القرآن من جميع الأمثال؛ أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشرِّ وأمثال التوحيد والشرك، وكلُّ مثل يقرِّبُ حقائق الأشياء والحكمة في ذٰلك؛ ﴿لعلَّهم يتذكَّرونَ﴾: عندما نوضِّحُ لهم الحقَّ، فيعلمون ويعملون.

﴿٢٨﴾ ﴿قرآناً عَرَبِيًا غير ذي عِوَجٍ﴾؛ أي: جعلناه قرآناً عَرَبِيًا واضحَ الألفاظ سهلَ المعاني، خصوصاً على العرب، غير ذي عوجٍ؛ أي: ليس فيه خللٌ ولا نقصٌ بوجهٍ من الوجوه؛ لا في ألفاظه ولا في معانيه. وهٰذا يستلزمُ كمالَ اعتدالِهِ واستقامتِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿الحمدُ لله الذي أنزَلَ على عبدِهِ الكتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ له عِوَجاً. قَيِّماً﴾. ﴿لعلَّهم يتَّقونَ﴾ الله تعالى؛ حيث سهَّلْنا عليهم طُرُقَ التقوى العلميَّة والعمليَّة بهٰذا القرآن العربيِّ المستقيم، الذي ضَرَبَ الله فيه من كلِّ مَثَل.

﴿٢٩﴾ ثم ضَرَبَ مثلاً للشرك والتوحيد، فقال: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلاً رجُلاً﴾؛ أي: عبداً. ﴿فيه شركاءُ متشاكِسونَ﴾: فهم كثيرون، وليسوا متَّفقينَ على أمرٍ من الأمور وحالةٍ من الحالات حتى تُمْكِنَ راحتُه، بل هم متشاكسونَ متنازِعون فيه، كلٌّ له مطلبٌ يريد تنفيذَه ويريدُ الآخرُ غيرَه؛ فما تظنُّ حال هٰذا الرجل مع هٰؤلاء الشركاء المتشاكسين؟! ﴿ورجلاً سَلَماً لرجل﴾؛ أي: خالصاً له قد عَرَفَ مقصودَ سيِّدِهِ وحصلتْ له الراحةُ التامةُ. ﴿هل يستويانِ﴾؛ أي: هٰذان الرجلان ﴿مثلاً﴾؟ لا يستويانِ، كذٰلك المشركُ فيه شركاءُ متشاكسون، يدعو هٰذا ثم يدعو هٰذا، فتراه لا يستقرُّ له قرارٌ ولا يطمئنُّ قلبُه في موضع، والموحِّدُ مخلصٌ لربِّه، قد خلَّصه الله من الشركةِ لغيرِهِ؛ فهو في أتمِّ راحة وأكمل طمأنينةٍ. فـ﴿هل يستويانِ مَثَلاً الحمدُ لله﴾: على تبيين الحقِّ من الباطل وإرشادِ الجهَّال. ﴿بل أكثرُهم لا يعلمونَ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿إنَّك ميتٌ وإنَّهم ميِّتون﴾؛ أي: كلُّكم لا بدَّ أن يموت، ﴿وما جَعَلْنا لبشرٍ من قبلِكَ الخُلْدَ أفإن متَّ فهم الخالدونَ﴾.

﴿٣١﴾ ﴿ثمَّ إنَّكم يومَ القيامةِ عندَ ربِّكم تختصمونَ﴾: فيما تنازعتُم فيه، فيفصلُ بينكم بحكمِهِ العادل، ويُجازي كلاً ما عَمِلَه، أحصاه الله ونَسوهُ.

﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقولُ تعالى محذراً ومخبراً أنَّه لا أظلمُ وأشدُّ ظلماً ﴿ممَّن كَذَبَ على الله﴾: إمَّا بنسبتِهِ إلى ما لا يليقُ بجلالِهِ، أو بادِّعاء النبوَّة، أو الإخبار بأن الله قال كذا أو أخبر بكذا أو حكم بكذا وهو كاذبٌ؛ فهٰذا داخلٌ في قولِهِ تعالى:

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾: إن كان جاهلاً وإلّا فهو أشنع وأشنع، أو ﴿كَذَّبَ [بالصدقِ][1] إذْ جاءَه﴾؛ أي: ما أظلم ممَّن جاءه الحقُّ المؤيَّد بالبيناتِ فكذَّبه، فتكذيبُهُ ظلمٌ عظيمٌ منه؛ لأنَّه ردَّ الحقَّ بعدما تبيَّن له؛ فإنْ كان جامعاً بين الكذب على اللّه والتكذيب بالحق؛ كان ظلماً على ظلم. ﴿أليس في جهنَّمَ مثوىً للكافرينَ﴾: يحصلُ بها الاشتفاءُ منهم وأخذُ حقِّ اللّه من كلِّ ظالم وكافرٍ، ﴿إنَّ الشركَ لظلمٌ عظيمٌ﴾.

﴿٣٣﴾ ولما ذَكَرَ الكاذبَ المكذِّب وجنايتَهُ وعقوبتَهُ؛ ذكر الصادقَ المصدِّقَ وثوابَه، فقال: ﴿والذي جاء بالصِّدْقِ﴾: في قوله وعمله، فدخل في ذٰلك الأنبياءُ ومَنْ قام مقامَهم ممن صَدَقَ فيما قاله عن خبرِ اللّه وأحكامِهِ، وفيما فَعَلَه من خصال الصدق، ﴿وصَدَّقَ به﴾؛ أي: بالصدق؛ لأنَّه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكنْ قد لا يصدِّقُ به بسبب استكبارِهِ أو احتقارِهِ لمن قاله وأتىٰ به؛ فلا بدَّ في المدح من الصدق والتصديق، فصدقُهُ يدلُّ على علمِهِ وعدلِهِ، وتصديقُهُ يدلُّ على تواضعه وعدم استكباره. ﴿أولٰئك﴾؛ أي: الذين وُفِّقوا للجمع بين الأمرين ﴿هم المتَّقونَ﴾: فإنَّ جميع خصال التقوى ترجعُ إلى الصدق بالحقِّ والتصديق به.

﴿٣٤﴾ ﴿لهم ما يشاؤون عند ربِّهم﴾: من الثواب مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بشرٍ؛ فكلُّ ما تعلَّقت به إرادتُهم ومشيئتُهم من أصناف اللذَّاتِ والمشتهياتِ؛ فإنَّه حاصلٌ لهم معدٌّ مهيَّأً. ﴿ذٰلك جزاء المحسنين﴾: الذين يعبُدون اللّه كأنَّهم يَرَوْنَه؛ فإنْ لم يكونوا يَرَوْنَه؛ فإنَّه يراهم، المحسنين إلى عباد اللّه.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيُكَفِّرَ اللّهُ عنهم أسوأ الذي عَمِلوا ويَجْزِيَهم أجْرَهُم بأحسن الذي كانوا يعملونَ﴾: عملُ الإنسانِ له ثلاثُ حالاتٍ: إمَّا أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن، والقسمُ الأخيرُ قسمُ المباحات وما لا يتعلَّق به ثوابٌ ولا عقابٌ، والأسوأ المعاصي كلُّها، والأحسنُ الطاعاتُ كلُّها. فبهٰذا التفصيل يتبيَّن معنى الآيةِ، وأنَّ قولَه ﴿لِيُكَفِّرَ اللّه عنهم أسوأ الذي عَمِلوا﴾؛ أي: ذنوبهم الصغارَ والكبار بسبب إحسانِهِم وتقواهم، ﴿ويَجْزِيَهم أجْرَهم بأحسنِ الذي كانوا يعملون﴾؛ أي: بحسناتِهِم كلِّها، ﴿إنَّ اللّه لا يَظْلِمُ مثقالَ ذَرَّةٍ وإن تَكُ حسنةً يضاعِفْها ويُؤْتِ من لَدُنْه أجراً عظيماً﴾.

(١) في النسختين «بالحق».

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ ﴿أليسَ اللّهُ بكافٍ عبدَه﴾؛ أي: أليس من كرمِهِ وجودِهِ وعنايتِهِ بعبده الذي قام بعبوديَّته وامتثل أمرَه واجتنب نهيَه، خصوصاً أكمل الخلق عبوديَّةً لربِّه، وهو محمدٌ ﷺ؛ فإنَّ اللّه تعالى سيكفيه في أمر دينه ودُنياه ويدفعُ عنه من ناوأه بسوءٍ. ﴿ويخوِّفونَكَ بالذين من دونِهِ﴾: من الأصنام والأندادِ أن تنالَكَ بسوءٍ، وهٰذا مِن غيِّهم وضلالهم. ﴿ومن يُضلِلِ اللّهُ فما له من هادٍ. ومَن يَهْدِ اللّهُ فما له من مُضِلٍ﴾: لأنه تعالى الذي بيدِهِ الهدايةُ والإضلالُ، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكنْ. ﴿أليس اللّه بعزيزٍ﴾: له العزةُ الكاملةُ التي قَهَرَ بها كلَّ شيء، وبعزَّتِهِ يكفي عبده، ويدفعُ عنه مكرَهم ﴿ذي انتقام﴾: ممَّنْ عصاه، فاحْذَروا موجباتِ نقمتِهِ.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: ولئن سألتَ هٰؤلاء الضلالَ الذين يخوِّفونَكَ بالذين من دونِهِ وأقمتَ عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلتَ: ﴿مَن خلَقَ السمٰواتِ والأرضَ﴾: لم يُثْبِتوا لآلهتهم من خَلْقِها شيئاً، ﴿لَيقولُنَّ اللّهُ﴾: الذي خلقها اللّه وحده. ﴿قل﴾: لهم مقرِّراً عجز آلهتهم بعدما بينت قدرة اللّه: ﴿أفرأيتُم﴾؛ أي: أخبروني ﴿ما تَدْعونَ من دون اللّه إنْ أرادَنِيَ اللّه بضُرٍّ﴾: أيَّ ضُرٍّ كان، ﴿هل هنَّ كاشفاتُ ضُرِّهِ﴾: بإزالته بالكلِّية أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أو أرادني برحمةٍ﴾: يوصل إليَّ بها منفعةً في ديني أو دنياي، ﴿هل هنَّ ممسكاتُ رحمتِهِ﴾: ومانعاتُها عني؟ سيقولونَ: لا يكشفون الضُرَّ ولا يمسِكونَ الرحمة، قل لهم بعدما تبيَّن الدليلُ القاطعُ على أنَّه وحدَه المعبودُ، وأنَّه الخالق للمخلوقات، النافعُ الضارُّ وحده، وأنَّ غيره عاجزٌ من كلِّ وجه عن الخَلْق والنفع والضرِّ، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مَكْرَهم وكيدَهم. ﴿قل حَسْبِيَ اللّه عليه يتوكَّلُ المتوكلون﴾؛ أي: عليه يعتمدُ المعتمدونَ في جلب مصالحهم ودفع مضارِّهم، فالذي بيدِهِ وحدَه الكفايةُ هو حسبي سيكفيني كلَّ ما أهمَّني، وما لا أهتمُّ به.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم يا أيُّها الرسولُ: ﴿يا قوم اعْمَلوا على مكانتكم﴾؛ أي: على حالتكم التي رَضيتُموها لأنفسِكُم من عبادة من لا يستحقُّ من العبادة شيئاً ولا له من الأمر شيءٌ، ﴿إنّي عاملٌ﴾: على ما دعوتُكم إليه من إخلاص الدين للّه تعالى وحده، ﴿فسوف تَعْلَمونَ﴾: لمن العاقبةُ و﴿مَن يأتيه عذابٌ يُخزيه﴾: في الدنيا، ﴿ويَحِلُّ عليه﴾: في الأخرى ﴿عذابٌ مقيمٌ﴾: لا يَحولُ عنه ولا يزولُ. وهٰذا تهديدٌ عظيمٌ لهم، وهم يعلمونَ أنَّهم المستحقُّونَ للعذابِ المقيم، ولٰكن الظلمَ والعنادَ حالَ بينَهم وبين الإيمانِ.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ يخبر تعالى أنَّه أنزل على رسولِهِ الكتابَ المشتمل على الحقِّ في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادَّةُ الهداية وبلاغٌ لمن أراد الوصول إلى اللّه وإلى دار كرامتِهِ، وأنَّه قامتْ به الحجةُ على العالمين. ﴿فَمَنِ اهْتَدى﴾: بنورِهِ واتَّبع أوامِرَه؛ فإنَّ نفع ذٰلك يعودُ إلى نفسه ﴿ومَن ضَلَّ﴾: بعدما تبيَّن له الهدى ﴿فإنَّما يَضِلُّ عليها﴾: لا يضرُّ اللّه شيئاً. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾: تحفظُ عليهم أعمالَهم وتحاسِبُهم عليها وتجبِرُهم على ما تشاءُ، وإنَّما أنت مبلغٌ تؤدِّي إليهم ما أمرت به.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ يخبر تعالى أنه المتفرِّدُ بالتصرُّف بالعباد في حال يقظتهم ونومهم وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللّه يتوفَّى الأنفسَ حين موتِها﴾: وهٰذه الوفاةُ الكبرى وفاةُ الموت، وإخباره أنَّه يتوفَّى الأنفس وإضافةُ الفعل إلى نفسِهِ لا ينافي أنَّه قد وَكَّلَ بذٰلك مَلَكَ الموت وأعوانه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتوفَّاكم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّل بكم﴾، ﴿حتى إذا جاء أحدَكُمُ الموتُ توفَّته رُسُلُنا وهم لا يفرِّطونَ﴾؛ لأنَّه تعالى يضيفُ الأشياء إلى نفسه باعتبار أنَّه الخالق المدبِّرُ، ويضيفُها إلى أسبابها باعتبار أنَّ من سننِهِ تعالى وحكمتِهِ أن جعل لكلِّ أمر من الأمور سبباً. وقوله:

﴿والتي لم تَمُتْ في منامها﴾: وهٰذه الموتةُ الصغرى؛ أي: ويمسك النفسَ التي لم تَمُتْ في منامها، ﴿فيُمْسِكُ﴾: من هاتين النفسين النفسَ ﴿التي قضى عليها الموتَ﴾، وهي نفسُ مَنْ كان ماتَ أو قُضِيَ أنْ يموتَ في منامه، ﴿ويرسلُ﴾ النفسَ ﴿الأخرى إلى أجل مسمًّى﴾؛ أي: إلى استكمال رِزْقِها وأجَلِها. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لقوم يتفكَّرونَ﴾: على كمال اقتدارِهِ وإحيائِهِ الموتى بعد موتهم.

وفي هٰذه الآية دليلٌ على أنَّ الرُّوح والنفس جسمٌ قائمٌ بنفسِهِ، مخالفٌ جوهرُهُ جوهَرَ البدن، وأنَّها مخلوقةٌ مدبَّرةٌ يتصرَّفُ الله فيها في الوفاةِ والإمساكِ والإرسال، وأنَّ أرواحَ الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ فتجتمعُ فتتحادثُ، فيرسِلُ الله أرواحَ الأحياء، ويُمْسِكُ أرواح الأمواتِ.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٣﴾ ينكر تعالى على مَنِ اتَّخذ من دونِهِ شفعاءَ يتعلَّق بهم ويسألُهم ويعبُدُهم، ﴿قل﴾ لهم مبيِّناً جهلَهم وأنَّها لا تستحقُّ شيئاً من العبادة: ﴿أوَلَوْ كانوا﴾؛ أي: مَنِ اتَّخذْتُم من الشفعاء ﴿لا يملِكونَ شيئاً﴾؛ أي: لا مثقال ذرة في السماواتِ ولا في الأرضِ ولا أصغرَ من ذٰلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقلٌ يستحقُّون أن يُمْدَحوا به؛ لأنَّها جماداتٌ من أحجارٍ وأشجارٍ وصورٍ وأمواتٍ؛ فهل يُقالُ: إنَّ لِمَنِ اتَّخذها عقلاً، أم هو من أضلِّ الناس وأجهلِهم وأعظمهم ظلماً؟!

﴿٤٤﴾ ﴿قل﴾: لهم: ﴿للّه الشفاعةُ جميعاً﴾: لأنَّ الأمر كلَّه للّه، وكلُّ شفيع؛ فهو يخافُه، ولا يقدِرُ أن يشفعَ عنده أحدٌ إلَّا بإذْنِهِ؛ فإذا أراد رحمةَ عبدِهِ؛ أذن للشفيع الكريم عندَه أن يشفعَ رحمةً بالاثنين. ثم قرَّرَ أنَّ الشفاعة كلَّها له بقوله: ﴿له ملكُ السماواتِ والأرضِ﴾؛ أي: جميع ما [فيهما][1] من الذوات والأفعال والصفات؛ فالواجب أن تُطْلَبَ الشفاعةُ ممَّنْ يملِكُها وتُخْلَصَ له العبادةُ. ﴿ثم إليه تُرْجَعونَ﴾: فيجازي المخلصَ له بالثواب الجزيل، ومَنْ أشرك به بالعذابِ الوبيل.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) في (ب): «ما فيها».

دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ يذكُرُ تعالى حالةَ المشركين وما الذي اقتضاه شركُهم: أنَّهم ﴿إذا ذُكِرَ اللَّه﴾ تعالى توحيداً له وأمرًا بإخلاص الدين له وتركِ ما يعبُد من دونه؛ أنهم يشمئزُّون وينفُرون ويكرهون ذٰلك أشدَّ الكراهة. ﴿وإذا ذُكِرَ الذين من دونِهِ﴾: من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها؛ ﴿إذا هم يستبشرونَ﴾: بذٰلك فرحاً بذِكْرِ معبوداتهم، ولكونِ الشرك موافقاً لأهوائهم وهٰذه الحال أشرُّ الحالات وأشنعها ولٰكن موعدَهم يومُ الجزاء؛ فهناك يؤخَذُ الحقُّ منهم ويُنْظَرُ: هل تنفعهُم آلهتُهم التي كانوا يَدْعون من دون اللَّه شيئاً؟! ولهٰذا قال: ﴿قل اللهمَّ فاطرَ السمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: خالقهما ومدبِّرهما، ﴿عالم الغيبِ﴾: الذي غاب عن أبصارِنا وعِلْمِنا ﴿والشَّهادةِ﴾: الذي نشاهده، ﴿أنت تحكُمُ بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفونَ﴾.

وإن من أعظم الاختلاف اختلافُ الموحِّدين المخلِصين القائلين: إنَّ ما هم عليه هو الحقُّ وإنَّ لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتَّخذوا من دونِكَ الأندادَ والأوثانَ وسَوَّوا بك[1] مَنْ لا يَسْوَى شيئاً، وتنقَّصوك غايةَ التنقُّص، واستبشروا عند ذِكْرِ آلهتهم، واشمأزوا عند ذكرك وزعموا مع هٰذا أنَّهم على الحقِّ وغيرهم على الباطل وأنَّ لهم الحسنى؛ قال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمَنوا والذينَ هادوا والصَّابِئينَ والنَّصارى والمَجوسَ والذين أشْرَكوا إنَّ اللَّه يَفْصِلُ بينَهم يومَ القيامةِ إنَّ اللَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾، وقد أخبرنا بالفصل بينَهم بعدَها بقوله: ﴿هٰذانِ خصمانِ اختَصَموا في ربِّهم فالذين كَفَروا قُطِّعَتْ لهم ثيابٌ من نارٍ يُصَبُّ من فوقِ رؤوسهم الحميمُ يُصْهَرُ به ما في بُطونِهِم والجلودُ ولهم مقامِعُ من حديدٍ...﴾ إلى أن قال: ﴿إنَّ اللَّه يُدْخِلُ الذين آمنوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ جناتٍ تَجْري من تحتِها الأنهارُ يُحَلَّوْنَ فيها من أساوِرَ من ذهبٍ ولُؤْلُؤاً ولباسُهُم فيها حريرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانَهم بِظُلْمٍ أولٰئكَ لهم الأمنُ وهم مهتدونَ﴾، ﴿إنَّه مَن يُشرِكْ باللَّه فقد حرَّمَ اللَّه عليه الجنَّةَ ومأواه النارُ﴾؛ ففي هٰذه الآية بيانُ عموم خلقِهِ تعالى وعموم علمِهِ وعموم حكمِهِ بين عباده؛ فقدرتُهُ التي نشأت عنها المخلوقات،

(١) في (ب): «فيك».

وعلمُهُ المحيطُ بكلِّ شيءٍ دالٌّ على حكمه بين عبادِهِ وبعثِهِم وعلمِهِ بأعمالهم خيرِها وشَرِّها وبمقاديرِ جزائها، وخلقُهُ دالٌّ على علمِهِ، ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧﴾ لما ذكر تعالى أنَّه الحاكم بين عباده، وذكر مقالة المشركين وشناعَتَها، كأنَّ النفوس تشوَّفَتْ إلى ما يفعل اللّه بهم يوم القيامةِ، فأخبر أنَّ لهم سوءَ ﴿العذابِ﴾؛ أي: أشدَّه وأفظعه؛ كما قالوا أشدَّ الكفر وأشنعَه، وأنَّهم على الفرض والتقدير لو كان لهم ما في الأرض جميعاً من ذهبها وفضَّتها ولُؤلُئِها وحيواناتها وأشجارِها وزروعِها وجميع أوانيها وأثاثها، ومثلُهُ معه، ثم بَذَلوه ﴿يوم القيامةِ﴾ ليفتدوا به من العذابِ ويَنْجوا منه؛ ما قُبِلَ منهم، ولا أغنى عنهم من عذاب اللّه شيئاً، يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلَّا مَنْ أتى اللّه بقلبٍ سليم. ﴿وبَدا لهم من اللّهِ ما لم يكونوا يَحْتَسِبونَ﴾؛ أي: يظنُّون من السخطِ العظيم والمقتِ الكبيرِ، وقد كانوا يحكُمون لأنفسهم بغير ذُلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وبدا لهم سيئاتُ ما كَسَبوا﴾؛ أي: الأمور التي تسوؤُهم بسبب صَنيعهم وكَسْبِهِم، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزِئونَ﴾: من الوعيدِ والعذابِ، نزلَ بهم، وحلَّ عليهم العقابُ.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته أنَّه حين يَمَسُّه ضرٌّ من مرض أو شدَّة أو كربٍ، ﴿دعانا﴾: ملحًّا في تفريج ما نَزَلَ به، ﴿ثم إذا خوَّلْناه نعمةً مِنَّا﴾: فكشفنا ضُرَّه، وأزَلْنا مَشَقَّته؛ عاد بربِّه كافراً ولمعروفه منكراً، و﴿قال إنَّما أوتيتُهُ على علمٍ﴾؛ أي: علم من اللّه أنِّي له أهلٌ وأنِّي مستحقٌّ له؛ لأني كريم عليه، أو على علم منِّي بطُرُق تحصيله، قال تعالى: ﴿بل هي فتنةٌ﴾: يبتلي اللّهُ به عباده

لينظرَ من يَشْكُرُه ممَّن يكفُرُه. ﴿ولٰكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ﴾: فلذٰلك يعدُّون الفتنة منحةً، ويشتبهُ عليهم الخيرُ المحضُ بما قد يكون سبباً للخير أو للشرّ.

﴿٥٠﴾ قال تعالى: ﴿قد قالَها الذين من قَبْلِهم﴾؛ أي: قولهم: ﴿إنَّما أوتيتُهُ على علم﴾؛ فما زالت متوارثةً عند المكذِّبين، لا يقرُّون بنعمةِ ربِّهم، ولا يَرَوْنَ له حقًّا، فلم يزل دأبُهم حتى أهلِكوا، ولم يغنِ ﴿عنهم ما كانوا يكسِبونَ﴾: حين جاءهم العذابُ!

﴿٥١﴾ ﴿فأصابَهم سيئاتُ ما كَسَبوا﴾: والسيئاتُ في هٰذا الموضع العقوباتُ؛ لأنَّها تَسوءُ الإنسانَ وتُحزِنُه. ﴿والذين ظلموا من هٰؤلاء سَيصيبُهم سيئاتُ ما كَسَبوا﴾: فليسوا خيراً من أولٰئك، ولم يُكْتَبْ لهم براءةٌ في الزُّبُر.

﴿٥٢﴾ ولما ذكر أنهم اغترُّوا بالمال وزعموا بِجَهْلِهِم أنَّه يدلُّ على حسن حال صاحبه؛ أخبرهم تعالى أنَّ رزقَه لا يدلُّ على ذٰلك، وأنه ﴿يَبْسُطُ الرزقَ لِمَن يشاءُ﴾: من عبادِهِ، سواء كان صالحاً أو طالحاً. ﴿ويَقْدِرُ﴾: الرزق؛ أي: يضيِّقُه على مَنْ يشاء صالحاً أو طالحاً؛ فرِزقُهُ مشتركٌ بين البريَّة، والإيمانُ والعملُ الصالح يخصُّ به خَيْرَ البريَّة ﴿إن في ذٰلك لآيات لقوم يؤمنون﴾؛ أي: بَسْطُ الرزق وقبضُه؛ لعلمهم أنَّ مرجع ذٰلك عائدٌ إلى الحكمةِ والرحمةِ، وأنَّه أعلمُ بحال عبيدِهِ؛ فقد يضيِّقُ عليهم الرزقَ لطفاً بهم؛ لأنَّه لو بَسَطَه؛ لَبَغَوْا في الأرض، فيكون تعالى مراعياً في ذٰلك صلاح دينهم الذي هو مادةُ سعادتِهم وفلاحِهم. والله أعلم.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عبادَه المسرفينَ بسعةِ كرمِهِ، ويحثُّهم على الإنابة قبل أن لا يمكِنَهم ذٰلك، فقال: ﴿قل﴾ يا أيُّها الرسولُ ومَنْ قام مقامَه من الدُّعاة لدين الله

مخبراً للعبادِ عن ربِّهم: ﴿يا عبادي الذينَ أسرَفوا على أنفسِهم﴾: باتِّباع ما تَدْعوهم إليه أنفسُهم من الذُّنوب والسعي في مساخِطِ علّام الغُيوب، ﴿لا تَقْنَطوا من رحمةِ اللّه﴾؛ أي: لا تيأسوا منها، فَتُلْقوا بأيديكم إلى التَّهْلُكة، وتقولوا: قد كَثُرَتْ ذنوبُنا وتراكَمَتْ عيوبُنا؛ فليس لها طريقٌ يزيلُها ولا سبيلٌ يصرِفها فتبقون بسبب ذٰلك مصرِّين على العصيان، متزوِّدين ما يغضب عليكم الرحمٰن، ولٰكن اعرفوا ربَّكم بأسمائِهِ الدالَّةِ على كرمِهِ وجودِهِ، واعلَموا أنَّه يَغْفِرُ الذُّنوبَ جميعاً من الشرك والقتل والزِّنا والربا والظلم وغير ذٰلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ﴾؛ أي: وصفُه المغفرةُ والرحمةُ وصفان لازمانِ ذاتيّانِ لا تنفكُّ ذاتُه عنهما، ولم تزلْ آثارُهما ساريةً في الوجود، مالئةً للموجودِ، تسحُّ يداه من الخيراتِ آناءَ الليل والنهار، ويوالي النِّعم على العبادِ والفواضلَ في السرِّ والجهار، والعطاءُ أحبُّ إليه من المنع، والرحمةُ سبقتِ الغضبَ وغلبَته.

﴿٥٤﴾ ولٰكنْ لمغفرتِهِ ورحمتِهِ ونَيْلِهِما أسبابٌ؛ إنْ لم يأتِ بها العبدُ؛ فقدْ أغلقَ على نفسه بابَ الرحمةِ والمغفرة، أعظمُها وأجلُّها ـ بل لا سببَ لها غيره ـ الإنابةُ إلى اللّه تعالى بالتوبةِ النصوح، والدُّعاءُ والتضرُّعُ والتألُّهُ والتعبُّدُ؛ فهلمَّ إلى هٰذا السبب الأجلِّ والطريق الأعظم، ولهٰذا أمَرَ تعالى بالإنابة إليه والمبادرةِ إليها، فقال: ﴿وأنيبوا إلى ربِّكُم﴾: بقلوبِكم، ﴿وأسْلِموا له﴾: بجوارِحِكم، إذا أُفرِدَتِ الإنابةُ؛ دخلتْ فيها أعمالُ الجوارح، وإذا جُمِعَ بينَهما كما في هٰذا الموضع؛ كان المعنى ما ذكرنا. وفي قوله: ﴿إلى ربِّكُم وأسْلِموا له﴾: دليلٌ على الإخلاص، وأنَّه من دون إخلاص لا تفيدُ الأعمالُ الظاهرةُ والباطنةُ شيئاً ﴿من قبل أن يأتِيَكُم العذابُ﴾: مجيئاً لا يُدْفَع، ﴿ثم لا تُنصَرونَ﴾.

﴿٥٥﴾ فكأنه قيل: ما هي الإنابةُ والإسلامُ، وما جزئياتُها وأعمالها؟ فأجاب تعالى بقوله: ﴿واتَّبِعوا أحسنَ ما أُنزِلَ إليكم مِن ربِّكُم﴾: مما أَمَرَكم من الأعمال الباطنةِ؛ كمحبَّة اللّه وخشيَتِهِ وخوفِهِ ورجائِهِ والنصح لعبادِهِ ومحبَّة الخير لهم وتركِ ما يضادُّ ذٰلك، ومن الأعمال الظاهرة؛ كالصلاة والزكاة [والصيام] والحجِّ والصدقةِ وأنواع الإحسان ونحو ذٰلك مما أمَرَ اللّه به، وهو أحسنُ ما أُنزِلَ إلينا من ربِّنا، فالمتتبِّع لأوامر ربِّه في هٰذه الأمور ونحوها هو المنيبُ المسلمُ ﴿من قَبْلِ أن يأتِيَكُمُ العذابُ بغتةً وأنتم لا تشعرُونَ﴾: وكلُّ هٰذا حثٌّ على المبادرةِ وانتهازِ الفرصة.

﴿٥٦﴾ ثم حذَّرهم ﴿أن﴾ لا يستمرُّوا على غفلتِهِم حتى يأتِيَهُمْ يومٌ يندمون فيه ولا تنفعُ الندامةُ، و﴿تقول نفسٌ يا حسرتىٰ على ما فرَّطْتُ في جَنبِ الله﴾؛ أي: في جانبِ حقِّه. ﴿وإن كُنتُ﴾: في الدُّنيا ﴿لَمِنَ السَّاخِرينَ﴾: في إتيانِ الجزاء حتى رأيتُه عياناً.

﴿٥٧﴾ ﴿أو تقولَ لو أنَّ اللّه هداني لكنتُ من المتَّقينَ﴾: و﴿لو﴾ في هٰذا الموضع للتمنِّي؛ أي: ليت أنَّ اللّه هداني، فأكون متقياً له، فأسلم من العقاب، وأستحقُّ الثواب، وليست ﴿لو﴾ هنا شرطيَّةً؛ لأنَّها لو كانت شرطيَّة؛ لكانوا محتجِّين بالقضاء والقدر على ضلالهم، وهي حجةٌ باطلةٌ، ويوم القيامةِ تضمحلُّ كل حجةٍ باطلةٍ.

﴿٥٨﴾ ﴿أو تقولَ حين تَرى العذابَ﴾: وتجزِمَ بورودِهِ: ﴿لو أنَّ لي كَرَّةً﴾؛ أي: رجعةً إلى الدنيا: لكنت ﴿من المحسنينَ﴾.

﴿٥٩﴾ قال تعالى في أنَّ ذٰلك غير ممكنٍ ولا مفيدٍ، وأنَّ هٰذه أماني باطلةٌ لا حقيقةَ لها؛ إذ لا يتجدَّد للعبد لو رُدَّ بيانٌ بعد البيان الأول: ﴿بلى قد جاءَتْك آياتي﴾: الدالةُ دلالةً لا يُمْتَرى فيها على الحقِّ، ﴿فكذَّبْتَ بها واستكبرتَ﴾: عن اتِّباعِها، ﴿وكنتَ من الكافرينَ﴾: فسؤالُ الردِّ إلى الدنيا نوعُ عبثٍ، فلو رُدُّوا؛ لعادوا لِما نُهوا عنه، وإنَّهم لَكاذِبون.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿٦٠﴾ يخبر تعالى عن خِزْيِ ﴿الذين كَذَبوا﴾ عليه، وأنَّ وجوهَهم يوم القيامةِ ﴿مسودَّةٌ﴾: كأنَّها الليلُ البهيمُ، يعرِفُهم بذٰلك أهلُ الموقف، فالحقُّ أبلجُ واضحٌ كأنه الصبح؛ فكما سوَّدوا وجهَ الحقِّ بالكذبِ؛ سَوَّدَ اللّه وجوهَهم جزاءً من جنس عملهم؛ فلهم سوادُ الوجوهِ ولهم العذابُ الشديدُ في جهنَّم، ولهٰذا قال: ﴿أليس في جَهَنَّمَ مثوىً للمتكبِّرينَ﴾: عن الحقِّ، وعن عبادةِ ربِّهم، المفترين عليه، بلى واللّه؛ إنَّ فيها لعقوبةً وخزياً وسخطاً يبلُغُ من المتكبِّرين كلَّ مبلغ، ويؤخَذُ الحقُّ منهم بهما[1]، والكذبُ على اللّه يَشْمَلُ الكذبَ عليه باتِّخاذِ الشريك والولدِ والصاحبةِ، والإخبار عنه بما لا يليقُ بجلالِهِ، أو ادِّعاء النبوَّة، أو القول في شرعِهِ بما لم يَقُلْهُ والإخبارِ بأنَّه قاله وشَرَعَه.

(١) في (ب): «بها».

﴿٦١﴾ ولما ذَكَرَ حالَةَ المتكبِّرين؛ ذَكَرَ حالةَ المتَّقين، فقال: ﴿وَيُنَجِّي اللّه الذين اتَّقَوْا بمفازَتِهِم﴾؛ أي: بنجاتهم، وذٰلك لأنَّ معهم آلَةَ النجاةِ، وهو تقوى اللّه تعالى، التي هي العُدَّةُ عند كلِّ هول وشدَّة. ﴿لا يَمَسُّهُم السوءُ﴾؛ أي: العذاب الذي يسوؤهم، ﴿ولا هُم يَحْزَنونَ﴾: فنفَى عنهم مباشرةَ العذابِ وخوفَه، وهٰذا غايةُ الأمان؛ فلهم الأمنُ التامُّ يصحَبُهم حتى يوصِلَهم إلى دار السلام؛ فحينئذٍ يأمَنون من كلِّ سوءٍ ومكروهٍ، وتجري عليهم نَضْرَةُ النعيم، ويقولون: الحمدُ للّه الذي أذْهَبَ عنَّا الحزن، إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكورٌ.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿٦٢﴾ يخبرُ تعالى عن عظمتِهِ وكمالِهِ الموجبِ لخسرانِ مَنْ كَفَرَ به، فقال: ﴿اللّه خالِقُ كلِّ شيءٍ﴾: هٰذه العبارة وما أشْبَهَها مما هو كثيرٌ في القرآن تدلُّ على أنَّ جميعَ الأشياءِ ـ غيرَ اللّهِ ـ مخلوقةٌ؛ ففيها ردٌّ على كلِّ مَنْ قال بقدم بعض المخلوقاتِ؛ كالفلاسفة القائلين بقدم الأرضِ والسماواتِ، وكالقائلينَ بقِدَم الأرواح، ونحو ذٰلك من أقوال أهل الباطل المتضمِّنة تعطيلَ الخالق عن خَلْقِهِ، وليس كلامُ اللّهِ من الأشياء المخلوقةِ؛ لأنَّ الكلام صفةُ المتكلم ـ واللّه تعالى بأسمائِهِ وصفاته أولٌ ليس قبلَه شيءٌ ـ؛ فأخذُ أهل الاعتزال من هٰذه الآية ونحوها أنَّه مخلوقٌ من أعظم الجهل؛ فإنَّه تعالى لم يَزَلْ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ولم يَحْدُثْ له صفةٌ من صفاتِهِ، ولم يكنْ معطَّلاً عنها بوقتٍ من الأوقات.

والشاهدُ من هٰذا أنَّ اللّه تعالى أخبر عن نفسِهِ الكريمةِ أنَّه خالقٌ لجميع العالَم العلويِّ والسفليِّ، وأنَّه ﴿على كلِّ شيءٍ وكيلٌ﴾، والوكالةُ التامةُ لا بدَّ فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطتِهِ بتفاصيلِهِ، ومن قدرةٍ تامَّةٍ على ما هو وكيلٌ عليه؛ ليتمكَّن من التصرُّف فيه، ومن حفظٍ لما هو وكيلٌ عليه، ومن حكمةٍ ومعرفةٍ بوجوه التصرُّفات ليصرِّفَها ويدبِّرَها على ما هو الأليقُ؛ فلا تتمُّ الوكالةُ إلَّا بذٰلك كله؛ فما نَقَصَ من ذٰلك؛ فهو نقصٌ فيها. ومن المعلوم المتقرِّرِ أنَّ اللّه تعالى منزَّهٌ عن كل نقصٍ في صفةٍ من صفاتِهِ؛ فإخبارُهُ بأنَّه على كلِّ شيء وكيلٌ؛ يدلُّ على إحاطةِ علمِهِ بجميع الأشياء، وكمال قدرتِهِ على تدبيرِها، وكمال تدبيرِهِ، وكمال حكمتِهِ التي يَضَعُ بها الأشياءَ مواضِعَها.

﴿٦٣﴾ ﴿له مقاليدُ السمواتِ والأرضِ﴾؛ أي: مفاتيحُها علماً وتدبيراً؛ فـ ﴿ما

يَفْتَحِ اللَّهُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مرسلَ له من بعدِهِ وهو العزيزُ الحكيم﴾. فلما بَيَّنَ من عظمتِهِ ما يقتضي أنْ تمتلىء القلوبُ له إجلالاً وإكراماً؛ ذَكَرَ حالَ من عكسَ القضيةَ فلم يَقْدِرْهُ حقَّ قَدْرِهِ، فقال: ﴿والذين كفروا بآياتِ اللَّه﴾: الدالَّة على الحقِّ اليقين والصراطِ المستقيم؛ ﴿أولئك هم الخاسرونَ﴾: خسروا ما به تَصْلُحُ القلوبُ من التألُّه والإخلاص للَّه، وما به تَصْلُحُ الألسنُ من إشغالها بذِكْرِ اللَّه، وما تَصْلُحُ به الجوارحُ من طاعةِ اللَّه، وتعوَّضوا عن ذلك كلَّ مفسدٍ للقلوب والأبدانِ، وخَسِروا جناتِ النعيم، وتعوَّضوا عنها بالعذابِ الأليم.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿قل﴾ يا أيُّها الرسولُ لهؤلاء الجاهلين الذين دَعَوْكَ إلى عبادةِ غير اللَّه: ﴿أفغيرَ اللَّه تأمروني أعبدُ أيُّها الجاهلونَ﴾؛ أي: هذا الأمرُ صَدَرَ من جهلِكم، وإلَّا؛ فلو كان لكم علمٌ بأنَّ اللَّه تعالى الكاملَ من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم هو المستحقُّ للعبادة دون مَنْ كان ناقصاً من كلِّ وجهٍ لا ينفعُ ولا يضرُّ؛ لم تأمروني بذلك، وذلك لأنَّ الشركَ باللَّه محبِطٌ للأعمال، مفسدٌ للأحوال.

﴿٦٥﴾ ولهذا قال: ﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلِكَ﴾: من جميع الأنبياء، ﴿لَئِنْ أشركتَ لَيَحْبَطَنَّ عملُكَ﴾: هذا مفردٌ مضافٌ يعمُّ كلَّ عمل، ففي نبوة جميع الأنبياءِ أنَّ الشرك محبطٌ لجميع الأعمال؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام لما عدَّد كثيراً من أنبيائِهِ ورسلِهِ؛ قال عنهم: ﴿ذلك هدى اللَّهِ يَهْدي به مَن يشاءُ من عبادِهِ ولو أشركوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملونَ﴾، ﴿ولَتكونَنَّ من الخاسرينَ﴾: دينَك وآخرتَك؛ فبالشركِ تُحْبَطُ الأعمال، ويُسْتَحَقُّ العقابُ والنَّكال.

﴿٦٦﴾ ثم قال: ﴿بل اللَّهَ فاعْبُدْ﴾: لما أخبر أنَّ الجاهلين يأمرونَه بالشركِ، وأخبر عن شناعتِهِ؛ أمَرَه بالإخلاص، فقال: ﴿بل اللَّه فاعْبُدْ﴾؛ أي: أخلِصْ له العبادةَ وحدَه لا شَريك له، ﴿وكُن من الشاكرينَ﴾: اللَّهَ على توفيقِ اللَّه تعالى؛ فكما أنَّه [تعالى] يُشْكَرُ على النعم الدنيويَّة كصحَّة الجسم وعافيتِهِ وحصول الرزقِ وغير ذلك؛ كذلك يُشْكر ويُثنى عليه بالنعم الدينيَّة؛ كالتوفيق للإخلاص والتقوى، بل نعم الدين هي النعم على الحقيقة، وفي تدبُّر أنَّها من اللَّه تعالى، والشكرِ للَّه عليها سلامةٌ من آفة العُجْبِ التي تَعْرِضُ لكثير من العاملين بسبب جهلِهِم، وإلَّا؛

فلو عرف العبدُ حقيقة الحال؛ لم يُعْجَبْ بنعمةٍ تستحقُّ عليه زيادة الشكر.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٧﴾ يقول تعالى: وما قَدَر هٰؤلاء المشركون ربَّهم ﴿حقَّ قدرِهِ﴾: ولا عظَّموه حقَّ تعظيمِهِ، بل فعلوا ما يناقِضُ ذٰلك من إشراكِهِم به مَنْ هو ناقصٌ في أوصافِهِ وأفعالِهِ؛ فأوصافُهُ ناقصةٌ من كلِّ وجهٍ، وأفعالُهُ ليس عنده نفعٌ ولا ضرٌّ ولا عطاءٌ ولا منعٌ ولا يملِكُ من الأمر شيئاً، فسوَّوْا هٰذا المخلوقَ الناقصَ بالخالِق الربِّ العظيم، الذي من عظمتِهِ الباهرةِ وقدرتِهِ القاهرةِ أنَّ جميعَ الأرض يوم القيامةِ قبضةٌ للرحمٰن، وأنَّ السماواتِ على سَعَتِها وعظمها مطوياتٌ بيمينِهِ، فلا عَظَّمه حقَّ عظمته مَنْ سوَّى به غيرَه، ولا أظلمَ منه. ﴿سبحانه وتعالى عما يشرِكونَ﴾؛ أي: تنزَّه، وتعاظم عن شركهم به.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨﴾ لما خوَّفهم تعالى من عظمتِهِ؛ خوَّفهم بأحوال يوم القيامة، ورغَّبهم ورهَّبهم، فقال: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ﴾: وهو قرنٌ عظيمٌ لا يَعْلَمُ عظمتَه إلَّا خالقُه ومن أطلعهُ اللّٰه على علمِهِ من خلقِهِ، فينفُخُ فيه إسرافيلُ عليه السلام أحدُ الملائكة المقرَّبينَ وأحدُ حملةِ عرش الرحمٰن؛ ﴿فَصَعِقَ﴾؛ أي: غُشِي أو ماتَ على اختلاف القولين، ﴿مَن في السمٰواتِ ومَن في الأرضِ﴾؛ أي: كلُّهم، لمَّا سَمِعوا نفخةَ الصور؛ أزعجتْهم من شدَّتها وعِظَمِها، وما يعلمونَ أنَّها مقدِّمةٌ له، ﴿إلَّا مَن شاء اللّٰه﴾: ممن ثبَّته اللّٰهُ عند النفخة، فلم يُصْعَقْ؛ كالشهداء أو بعضهم وغيرهم، وهٰذه النفخةُ الأولى نفخةُ الصَّعْقِ ونفخةُ الفزع، ﴿ثم نُفِخَ فيه﴾: النفخة الثانية؛ نفخةُ البعثِ، ﴿فإذا هم قيامٌ ينظرون﴾؛ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابِهم ينظرون قد تمَّتْ منهم الخلقةُ الجسديَّة والأرواح، وشخصتْ أبصارُهم؛ ﴿ينْظُرونَ﴾: ماذا يفعلُ اللّٰه بهم؟

﴿٦٩﴾ ﴿وأشرقتِ الأرضُ بنورِ ربِّها﴾: علم من هٰذا أنَّ الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامةِ وتضمحلُّ، وهو كذٰلك؛ فإنَّ اللّه أخبر أنَّ الشمس تُكوَّرُ والقمرَ يُخْسَفُ والنُّجومَ تُنْتَثَرُ ويكون الناس في ظلمةٍ؛ فتشرقُ عند ذٰلك الأرضُ بنورِ ربِّها عندما يتجلَّى وينزلُ للفصل بينهم، وذٰلك اليوم يَجْعَلُ اللّه للخلق قوَّةً، وينشئهم نشأةً يَقْوَوْن على أن لا يحرِقَهم نورُه ويتمكَّنون أيضاً من رؤيتِهِ، وإلَّا؛ فنوره تعالى عظيمٌ، لو كَشَفَه؛ لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بصرُهُ من خلقِهِ[1]. ﴿ووُضِعَ الكتابُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال وديوانُه، وُضِعُ ونُشِرَ ليقرأ ما فيه من الحسناتِ والسيئاتِ؛ كما قال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مشفِقينَ ممَّا فيه ويقولونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهٰذا الكتابِ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها ووَجَدوا ما عمِلوا حاضراً ولا يَظْلِمُ ربُّك أحداً﴾، ويقالُ للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿اقرأ كتابَكَ كفى بنفسِكَ اليوم عليك حسيباً﴾. ﴿وجيء بالنَّبِيِّين﴾: لِيُسألوا عن التبليغ وعن أممهم ويشهدوا عليهم، ﴿والشهداءِ﴾: من الملائكةِ والأعضاء والأرض، ﴿وقُضِيَ بينَهم بالحقِّ﴾؛ أي: العدل التامِّ والقسطِ العظيم؛ لأنَّه حسابٌ صادرٌ ممَّن لا يظلِمُ مثقالَ ذرَّةٍ ومَنْ هو محيطٌ بكلِّ شيءٍ وكتابُه الذي هو اللوح المحفوظ محيطٌ بكلِّ ما عملوه، والحَفَظَة الكرام الذين لا يعصونَ ربَّهم قد كَتَبَتْ عليهم ما عَمِلوه، وأعدلُ الشهداء قد شَهِدوا على ذٰلك الحكم، فَحَكَم بذٰلك من يعلم مقاديرَ الأعمال ومقاديرَ استحقاقِها للثواب والعقاب، فيحصُلُ حكمٌ يُقِرُّ به الخلقُ، ويعترفون للّه بالحمدِ والعدلِ، ويعرفونَ به من عظمتِهِ وعلمِهِ وحكمتِهِ ورحمتِهِ ما لم يَخْطُرْ بقلوبهم، ولا تعبِّرُ عنه ألسنتُهم.

﴿٧٠﴾ ولهٰذا قال: ﴿ووُفِّيَت كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ وهم لا يُظْلَمونَ﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٧٩) عن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه.

ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿٧١﴾ لما ذَكَرَ تعالى حُكْمَه بين عبادِهِ الذين جَمَعَهم في خلقه ورزقِهِ وتدبيرِهِ واجتماعهم في موقف القيامة؛ فرَّقَهم تعالى عند جزائِهِم كما افترقوا في الدُّنيا بالإيمان والكفرِ والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيقَ الذين كَفَروا إلى جهنَّمَ﴾؛ أي: سوقاً عنيفاً، يُضربون بالسياط الموجعة من الزَّبانيةِ الغلاظِ الشدادِ، إلى شرِّ محبسٍ وأفظع موضعٍ، وهي جهنَّم، التي قد جَمَعَتْ كلَّ عذاب، وحَضَرها كلُّ شقاءٍ، وزال عنها كلُّ سرورٍ؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّم دعًّا﴾؛ أي: يُدفعون إليها دفعاً، وذلك لامتناعهم من دخولِها ويُساقون إليها، ﴿زمراً﴾؛ أي: فرقاً متفرِّقة، كلُّ زمرة مع الزمرةِ التي تناسب عَمَلها وتشاكِلُ سَعْيَها، يلعنُ بعضُهم بعضاً ويبرأ بعضُهم من بعضٍ، ﴿حتى إذا جاؤوها﴾؛ أي: وصلوا إلى ساحتها، ﴿فُتِحَتْ﴾: لهم؛ أي: لأجلهم ﴿أبوابُها﴾: لقدومِهم وقرى لنزولهم، ﴿وقال لهم خزَنَتُها﴾: مهنِّين لهم بالشقاءِ الأبديِّ والعذاب السرمديِّ، وموبِّخين لهم على الأعمال التي أوصلتْهم إلى هذا المحلِّ الفظيعِ: ﴿ألم يأتِكُمْ رُسُلٌ منكم﴾؛ أي: من جِنْسِكُم، تعرِفونهم وتعرِفون صِدْقَهم، وتتمكَّنون من التلقِّي عنهم، ﴿يتْلونَ عليكم آياتِ ربِّكُم﴾: التي أرْسَلَهم الله بها، الدالَّةُ على الحقِّ اليقين بأوضح البراهين، ﴿ويُنذِرونَكم لقاءَ يومِكُم هذا﴾؛ أي: وهذا يوجِبُ عليكم اتِّباعهم والحَذر من عذابِ هذا اليوم باستعمال تَقْواه، وقد كانت حالُكم بخلافِ هذه الحال، ﴿قالوا﴾: مقرِّين بذنبهم وأنَّ حُجَّةَ الله قامتْ عليهم: ﴿بلى﴾: قد جاءتْنا رسُلُ ربِّنا بآياتِهِ وبيناتِهِ، وبيَّنوا لنا غايةَ التبيينِ، وحذَّرونا من هذا اليوم. ﴿ولكنْ حَقَّتْ كلمةُ العذابِ على الكافرينَ﴾؛ أي: بسبب كفرِهم وَجَبَتْ عليهم كلمةُ العذابِ التي هي لكلِّ مَنْ كَفَرَ بآيات الله وجَحَدَ ما جاءتْ به المرسلونَ، فاعْتَرَفوا بذَنْبِهم وقيام الحجَّةِ عليهم.

﴿٧٢﴾ فقيل لهم على وجهِ الإهانة والإذلال: ﴿ادْخُلوا أبوابَ جَهَنَّم﴾: كلُّ طائفةٍ تدخُلُ مع الباب الذي يناسِبُها ويوافقُ عملَها، ﴿خالدينَ فيها﴾: أبداً لا يَظْعَنون عنها ولا يُفَتَّرُ عنهم العذابُ ساعةً ولا يُنْظَرونَ، ﴿فبئس مثوى المتكبِّرينَ﴾؛ أي: بئس المَقَرُّ النارُ مقرُّهم، وذلك لأنَّهم تكبَّروا على الحقِّ، فجازاهم الله من جنس عملهم بالإهانة والذُّلِّ والخِزْي.

﴿٧٣﴾ ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتَّقَوا ربَّهم﴾: بتوحيده والعمل بطاعتِهِ سَوْقَ إكرام وإعزازٍ يُحشرون وَفْداً على النجائب ﴿إلى الجنَّةِ زُمراً﴾: فرحين مستبشرينَ، كلُّ زمرةٍ مع الزمرةِ التي تناسِبُ عَمَلَها وتشاكِلُه، ﴿حتى إذا جاؤوها﴾؛ أي: وصلوا لتلك الرحابِ الرحيبةِ والمنازل الأنيقةِ، وهبَّ عليهم ريحها ونسيمُها وآنَ خلودُها ونعيمُها، ﴿وفُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أبوابُها﴾: فَتْحَ إكرام لكرام الخَلْقِ لِيُكْرَموا فيها، ﴿وقال لهم خَزَنَتُها﴾: تهنئةً لهم وترحيباً: ﴿سلامٌ عليكم﴾؛ أي: سلامٌ من كلِّ آفةٍ وشرٍّ حالٌّ عليكم ﴿طِبْتُمْ﴾؛ أي: طابت قلوبُكم بمعرفة اللّه ومحبَّتِهِ وخشيتِهِ، وألسنتُكم بذكرِهِ وجوارِحُكم بطاعتِهِ. ﴿فـ﴾ بسبب طِيبِكُم ﴿ادْخُلوها خالدينَ﴾: لأنَّها الدارُ الطيِّبةُ، ولا يَليقُ بها إلا الطَّيِّبونَ. وقال في النار: ﴿فُتِحَتْ أبوابُها﴾، وفي الجنة ﴿وَفُتِحَتْ﴾: بالواو؛ إشارةً إلى أنَّ أهل النارِ بمجرَّدِ وصولهم إليها؛ فُتِحَتْ لهم أبوابُها من غير إنظارٍ ولا إمهال، وليكونَ فَتْحُها في وجوههم وعلى وصولِهِم أعظَمَ لحرِّها وأشدَّ لعذابِها، وأمَّا الجنةُ؛ فإنَّها الدارُ العاليةُ الغاليةُ، التي لا يوصَلُ إليها ولا ينالُها كلُّ أحدٍ إلَّا مَنْ أتى بالوسائل الموصلةِ إليها، ومع ذلك؛ فيحتاجون لِدُخولها لشفاعةِ أكرم الشفعاءِ عليه، فلم تُفْتَحْ لهم بمجرَّد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى اللّه بمحمدٍ ﷺ، حتى يشفعَ، فيشفِّعَه اللّه تعالى[(١)].

وفي الآيات دليلٌ على أنَّ النارَ والجنةَ لهما أبوابٌ تُفْتَحُ وتُغْلَقُ، وأنَّ لكلٍّ منهما خزنة، وهما الدارانِ الخالصتانِ اللتانِ لا يَدْخُلُ فيهما إلا مَنِ استَحَقَّهما؛ بخلاف سائر الأمكنةِ والدُّورِ.

﴿٧٤﴾ ﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارِهِم حامدينَ ربَّهم على ما أوْلاهم ومَنَّ عليهم وهداهم: ﴿الحمدُ للّه الذي صَدَقَنا وَعْدَه﴾؛ أي: وَعَدَنا الجنة على ألسنةِ رسلِهِ أنْ آمنَّا وصَلَحْنا؛ فوفى لنا بما وَعَدَنا وأنجزَ لنا ما مَنَّانا، ﴿وأوْرَثَنا الأرضَ﴾؛ أي: أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ من الجنَّةِ حيثُ نشاءُ﴾؛ أي: ننزل منها أيَّ مكان شِئْنا، ونتناول منها أيَّ نعيم أرَدْنا، ليس ممنوعاً عنَّا شيءٌ نريدُه، ﴿فنعم أجرُ العاملينَ﴾: الذين اجْتَهَدوا بطاعةِ ربِّهم في زمنٍ قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمرًّا. وهذه الدارُ التي تستحقُّ المدحَ على الحقيقة، التي يُكْرِمُ اللّه

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٧١٢)، و«صحيح مسلم» (١٩٤).

فيها خواصّ خَلْقِهِ، ورضِيَها الجوادُ الكريمُ لهم نُزُلاً، وبنى أعلاها وأحسَنها وغَرَسَها بيدِهِ وحشاها من رحمتِهِ وكرامتِهِ ما ببعضِه يفرح الحزينُ، ويزولُ الكَدَرُ، ويتمُّ الصفاءُ.

﴿٧٥﴾ ﴿وترى الملائكةَ﴾: أيُّها الرائي ذٰلك اليوم العظيم ﴿حافِّينَ من حول العرشِ﴾؛ أي: قد قاموا في خدمةِ ربِّهم واجتمعوا حولَ عرشِهِ خاضعين لجلالِهِ معترِفين بكمالِهِ مستغرِقين بجمالِهِ، ﴿يسبِّحونَ بحمدِ ربِّهم﴾؛ أي: ينزِّهونه عن كلِّ ما لا يَليقُ بجلالِهِ مما نَسَبَ إليه المشركون وما لم يَنسبوا. ﴿وقُضِيَ بينَهم﴾؛ أي: بين الأوَّلين والآخرين من الخلق ﴿بالحقِّ﴾: الذي لا اشْتِباه فيه ولا إنكارَ ممَّنْ عليه الحقُّ. ﴿وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمينَ﴾: لم يَذْكُرِ القائلَ مَنْ هو؛ ليدلَّ ذٰلك على أنَّ جميعَ الخلق نَطَقوا بحمد ربِّهم وحكمتِهِ على ما قضى به على أهل الجنةِ وأهل النارِ، حَمْدَ فضل وإحسانٍ، وحَمْدَ عدل وحكمةٍ.

تم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة المؤمن

## مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ يخبر تعالى عن كتابِهِ العظيم وأنَّه صادرٌ ومنزَّلٌ من الله المألوه المعبود لكمالِهِ وانفرادِهِ بأفعالِهِ. ﴿العزيز﴾: الذي قَهَرَ بعزَّته كلَّ مخلوق. ﴿العليم﴾: بكل شيء، ﴿غافرِ الذنبِ﴾: للمذنبين، ﴿وقابلِ التَّوبِ﴾: من التائبين، ﴿شديدِ العقابِ﴾: على من تجرَّأ على الذُّنوب ولم يَتُبْ منها، ﴿ذي الطَّوْلَ﴾؛ أي: التفضُّل والإحسان الشامل. فلمَّا قرَّر ما قرَّر من كماله، وكان ذٰلك موجباً لأن يكون وحدَه المألوهَ الذي تُخْلَصُ له الأعمالُ؛ قال: ﴿لا إله إلَّا هو إليه المصيرُ﴾.

ووجهُ المناسبة بذِكْر نزول القرآن من الله الموصوفِ بهٰذه الأوصافِ أنَّ هٰذه الأوصافَ مستلزمةٌ لجميع ما يشتملُ عليه القرآنُ من المعاني؛ فإنَّ القرآن: إما إخبارٌ

عن أسماء اللّهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، وهٰذه أسماءٌ وأوصافٌ وأفعالٌ. **وإمَّا إخبارٌ** عن الغيوبِ الماضيةِ والمستقبلةِ؛ فهي من تعليم العليم لعبادِهِ. **وإمَّا إخبارٌ** عن نعمه العظيمة وآلائِهِ الجسيمة وما يوصِلُ إلى ذٰلك من الأوامر؛ فذٰلك يدلُّ عليه قوله: **﴿ذي الطَّوْل﴾**. **وإما إخبارٌ** عن نقمِهِ الشديدةِ وعمَّا يوجِبُها ويقتضيها من المعاصي؛ فذٰلك يدلُّ عليه قولُه: **﴿شديد العقاب﴾**. **وإما دعوةٌ** للمذنبين إلى التوبةِ والإنابةِ والاستغفار؛ فذٰلك يدلُّ عليه قوله: **﴿غافرِ الذَّنْبِ وقابلِ التَّوْبِ شديدِ العقابِ﴾**. **وإما إخبارٌ** بأنَّه وحدَه المألوهُ المعبودُ وإقامةُ الأدلةِ العقليةِ والنقليةِ على ذٰلك والحث عليه والنهي عن عبادة ما سوى اللّه وإقامةِ الأدلة العقليَّة والنقليَّة على فسادِها والترهيب منها؛ فذٰلك يدلُّ عليه قولُهُ تعالى: **﴿لا إلٰه إلَّا هو﴾**. **وإمَّا إخبارٌ** عن حكمِهِ الجزائيِّ العدل وثواب المحسنين وعقاب العاصينَ؛ فهٰذا يدلُّ عليه قوله: **﴿إليه المصيرُ﴾**. فهٰذا جميعُ ما يشتملُ عليه القرآنُ من المطالبِ العالياتِ.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

**﴿٤﴾** يخبر تبارك وتعالى أنَّه ما يجادِلُ في آياتِه إلَّا الذينَ كَفَروا، والمرادُ بالمجادلة هنا المجادلةُ لردِّ آيات اللّه ومقابلَتِها بالباطل؛ فهٰذا من صنيع الكفارِ، وأمَّا المؤمنونَ؛ فيخضعون للحقِّ لِيُدْحِضوا به الباطلَ[1]، ولا ينبغي للإنسان أن يغترَّ بحالةِ الإنسان الدنيويَّة ويظنَّ أنَّ إعطاء اللّهِ إيَّاه في الدُّنيا دليلٌ على محبَّتِهِ له وأنَّه على الحقِّ، ولهٰذا قال: **﴿فلا يَغْرُرْكَ تقلُّبهم في البلادِ﴾**؛ أي: تردُّدهم فيها بأنواع التجاراتِ والمكاسبِ، بل الواجبُ على العبدِ أن يَعْتَبِرَ الناس بالحقِّ وينظُرَ إلى الحقائق الشرعيَّةِ ويزنَ بها الناسَ، ولا يزنُ الحقَّ بالناس كما عليه مَنْ لا علم ولا عقلَ له.

**﴿٥﴾** ثم هدَّدَ مَنْ جادَلَ بآيات اللّه لِيُبْطِلَها كما فعل مَنْ قَبْلَه من الأمم من **﴿قوم نوحٍ﴾** وعاد **﴿والأحزاب من بعدِهِم﴾**، الذين تحزَّبوا وتجمَّعوا على الحقِّ ليبطلوه

---

(١) كذا في (أ). وفي (ب): «فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق ليدحض به الباطل».

وعلى الباطل لينصُروه، ﴿و﴾ أنَّه بلغت بهم الحالُ وآلَ بهم التحزُّبُ إلى أنَّه ﴿همَّتْ كلُّ أمةٍ﴾: من الأمم ﴿برسولهم ليأخذوهُ﴾؛ أي: يقتلوه، وهٰذا أبلغ ما يكون للرسل، الذين هم قادةُ أهل الخير، الذين معهم الحقُّ الصرفُ، الذي لا شك فيه ولا اشتباه، همُّوا بقتلهم؛ فهل بعد هٰذا البغي والضلال والشقاء إلَّا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟! ولهٰذا قال في عقوبتهم الدنيويَّة والأخرويَّة: ﴿فأخذْتُهم﴾؛ أي: بسبب تكذيبهم وتحزُّبهم ﴿فكيف كان عقاب﴾: كان أشدَّ العقاب وأفظَعَه، إنْ هو[1] إلا صيحةٌ أو حاصبٌ ينزل عليهم، أو يأمر الأرضَ أن تأخُذَهم أو البحرَ أن يُغرقَهم؛ فإذا هم خامدونَ.

﴿٦﴾ ﴿وكذٰلك حقَّتْ كلمةُ ربِّك على الذين كَفَروا﴾؛ أي: كما حقَّتْ على أولٰئك حقَّتْ عليهم كلمةُ الضلال التي نشأت عنها كلمةُ العذاب، ولهٰذا قال: ﴿إنَّهم أصحابُ النارِ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾

﴿٧﴾ يخبرُ تعالى عن كمال لطفِهِ تعالى بعباده المؤمنين، وما قيَّض لأسباب سعادتِهِم من الأسباب الخارجة عن قُدَرِهم من استغفار الملائكةِ المقرَّبين لهم ودعائِهِم لهم بما فيه صلاحُ دينِهِم وآخرتِهِم، وفي ضمن ذٰلك الإخبار عن شرف حملة العرشِ ومَنْ حولَه وقُربِهِم من ربِّهم وكثرة عبادتهم ونُصحهم لعبادِ الله لعلمهم أنَّ الله يحبُّ ذٰلك منهم، فقال: ﴿الذين يحملونَ العرشَ﴾؛ أي: عرش الرحمٰن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسماوات والكرسيَّ، وهٰؤلاء الملائكة قد وَكَلَهُمُ الله تعالى بحمل عرشه العظيم؛ فلا شكَّ أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، واختيار الله لهم لحمل عرشه وتقديمهم في الذكر وقربهم منه يدلُّ على أنهم أفضل

(١) في (ب): «ما هو».

أجناس الملائكة عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿ويحملُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذٍ ثمانيةٌ﴾، ﴿ومَنْ حولَه﴾: من الملائكة المقرَّبين في المنزلة والفضيلة، ﴿يسبِّحون بحمد ربِّهم﴾: هٰذا مدح لهم بكثرة عبادتهم للّه تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح اللّه وتحميده؛ لأنها تنزيهٌ له عن كون العبد يصرفها لغيره وحمدٌ له تعالى، بل الحمدُ هو العبادة للّه تعالى، وأما قول العبد: «سبحان اللّه وبحمده»؛ فهو داخلٌ في ذٰلك، وهو من جملة العبادات، ﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾: وهٰذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جدًّا؛ أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان؛ فالمؤمن بإيمانه تسبَّب لهٰذا الفضل العظيم.

ولمَّا كانت المغفرةُ لها لوازمُ لا تتمُّ إلا بها ـ غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان أنَّ سؤالَها وطلبَها غايتُهُ مجرّد مغفرة الذنوب ـ ذكر تعالى صفةَ دعائهم لهم بالمغفرة بذكر ما لا تتمُّ إلَّا به، فقال: ﴿ربَّنا وسعتَ كل شيء رحمة وعلماً﴾: فعلمك قد أحاط بكلِّ شيء، لا يخفى عليك خافيةٌ ولا يعزُبُ عن علمك مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذٰلك ولا أكبر، ورحمتُك وسعتْ كلَّ شيء؛ فالكون علويُّه وسفليُّه قد امتلأ برحمة اللّه تعالى، ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه، ﴿فاغفِرْ للذين تابوا﴾: من الشرك والمعاصي، ﴿واتَّبعوا سبيلك﴾: باتِّباع رسلك بتوحيدك وطاعتك، ﴿وقِهِمْ عذابَ الجحيم﴾؛ أي: قهم العذاب نفسه، وقِهِم أسباب العذاب.

﴿٨﴾ ﴿ربَّنا وأدْخِلْهم جناتِ عدن التي وَعَدتَهم﴾: على ألسنة رسلك ﴿ومَن صَلَحَ﴾؛ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿من آبائهم وأزواجهم﴾: زوجاتهم وأزواجهنَّ وأصحابهم ورفقائهم ﴿وذُرِّيَّاتهم إنَّك أنت العزيز﴾: القاهر لكلِّ شيء؛ فبعزَّتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصِلُهم بها إلى كلِّ خير. ﴿الحكيم﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فلا نسألك يا ربَّنا أمراً تقتضي حكمتك خلافه، بل من حكمتك التي أخبرت بها على ألسنة رسلك واقتضاها فضلُك المغفرة للمؤمنين.

﴿٩﴾ ﴿وقِهِمُ السيئاتِ﴾؛ أي: الأعمال السيئة وجزاءها؛ لأنها تسوء صاحبها، ﴿ومَن تَقِ السيئاتِ يومئذٍ﴾؛ أي: يوم القيامةِ ﴿فقد رحمتَه﴾: لأنَّ رحمتك لم تزل مستمرةً على العباد، لا يمنعها إلَّا ذنوب العباد وسيئاتُهم؛ فمن وقيته السيئات؛

وفَّقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وذٰلك﴾؛ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات وحصول المحبوب بحصول الرحمة؛ ﴿هو الفوزُ العظيم﴾: الذي لا فوز مثله، ولا يتنافسُ المتنافسون بأحسن منه.

**وقد تضمَّن هٰذا الدعاء** من الملائكة: كمال معرفتهم بربِّهم، والتوسُّل إلى الله بأسمائه الحسنى التي يحبُّ من عباده التوسُّل بها إليه، والدُّعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه. فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نَقْصَها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي ونحو ذٰلك من المبادىء والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً؛ توسَّلوا بالرحيم العليم. وتضمَّن كمالَ أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيَّته لهم الربوبيَّة العامَّة والخاصَّة، وأنه ليس لهم من الأمر شيءٌ، وإنَّما دعاؤهم لربِّهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه لا يُدلي على ربِّه بحالة من الأحوال، إن هو إلَّا فضلُ الله وكرمه وإحسانه. وتضمَّن موافقتهم لربِّهم تمام الموافقة؛ بمحبَّة ما يحبُّه من الأعمال، التي هي العبادات التي قاموا بها واجتهدوا اجتهاد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبُّهم الله تعالى من بين خلقه؛ فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم؛ فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله واجتهدوا في صلاح أحوالهم؛ لأن الدعاء للشخص من أدلِّ الدلائل على محبته؛ لأنَّه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله، وفصَّله من دعائهم ـ بعد قوله: ﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾ ـ التنبيهَ اللطيفَ على كيفيَّة تدبُّر كتابه، وأن لا يكون المتدبِّر مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبَّر معنى اللفظ؛ فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه؛ نظر بعقله إلى ذٰلك الأمر والطرق الموصلة إليه، وما لا يتمُّ إلا به، وما يتوقَّف عليه؛ وجزم بأنَّ الله أراده؛ كما يجزم أنه أراد المعنى الخاصَّ الدالَّ عليه اللفظ، والذي يوجب الجزم له، بأنَّ الله أراده **أمران**: **أحدهما**: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقَّف عليه. **الثاني**: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبُّر والتفكُّر في كتابه. وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدىً ونورٌ وتبيانٌ لكل شيء، وأنَّه أفصح الكلام وأجلُّه إيضاحاً؛ فبذٰلك يحصلُ للعبد من العلم العظيم والخير الكثير بحسب ما وفَّقه الله له.

وقد كان في تفسيرنا هٰذا كثيرٌ من هٰذا منَّ به الله علينا، وقد يخفى في بعض

الآيات مأخذه على غير المتأمِّل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلُّق بكرمه والتوسُّل بإحسانه الذي لا نزال نتقلَّب فيه في كل الآنات وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شرَّ أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته؛ إنَّه الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها. وتضمَّن ذٰلك أن المقارن من زوج وولد وصاحب يَسْعَدُ بقرينه ويكون اتِّصاله به سبباً لخير يحصل له خارج عن عمله، وسبب عمله؛ كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بدَّ من وجود صلاحهم؛ لقوله: ﴿ومَن صَلَحَ﴾؛ فحينئذ يكون ذٰلك من نتيجة عملهم. والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَـٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٠﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين وسؤالهم الرجعةَ والخروجَ من النار، وامتناع ذٰلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا﴾: أطلقه ليشملَ أنواع الكفر كلِّها من الكفر بالله أو بكتبه أو برسله أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويُقِرُّون أنهم مستحقُّونها؛ لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذٰلك أشدَّ المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادَوْن عند ذٰلك ويقال لهم: ﴿لَمَقْتُ الله﴾؛ أي: إياكم إذ تُدْعَون إلى الإيمان فتكفرون؛ أي: حين دعتْكُم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البيناتِ ما تبين به الحقُّ، فكفرتم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتُم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم؛ فهٰذا ﴿أكبر من مقتِكُم أنفسَكم﴾؛ أي: فلم يزل هٰذا المقت مستمرًا عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت؛ فاليوم حلَّ عليكم غضبُ الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوانَ الله وثوابه.

﴿١١﴾ فتمنَّوا الرجوع و﴿قالوا ربَّنا أمتَّنا اثنتين﴾: يريدون الموتةَ الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم المحض قبل إيجادهم ثم أماتهم بعد ما أوجدهم، ﴿وأحْيَيْتنا اثنتين﴾: الحياة الدنيا والحياة الأخرى، ﴿فاعترَفْنا بذُنوبنا فهل إلى خروج

من سبيل﴾؛ أي: تحسَّروا وقالوا ذٰلك، فلم يفد ولم ينجعْ.

﴿١٢﴾ ووبِّخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: ﴿ذٰلكم بأنَّه إذا دُعِيَ الله وحده﴾؛ أي: إذا دعي لتوحيده وإخلاص العمل له ونُهي عن الشرك به، ﴿كفرتم﴾: به، واشمأزَّتْ لذٰلك قلوبكم ونفرتُم غاية النفور، ﴿وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا﴾؛ أي: هٰذا الذي أنزلكم هٰذا المنزل وبوأكم هٰذا المقيل والمحلَّ أنكم تكفرونَ بالإيمان وتؤمنون بالكفر، ترضَوْن بما هو شرٌّ وفسادٌ في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خيرٌ وصلاحٌ في الدنيا والآخرة، تؤثرون سبب الشقاوة والذلِّ والغضب، وتزهدون بما هو سببُ الفوز والفلاح والظفر: ﴿وإن يَرَوْا سبيل الرُّشْدِ لا يتَّخذوه سبيلاً وإن يَرَوْا سبيل الغَيِّ يتَّخذوه سبيلاً﴾. ﴿فالحكم لله العليِّ الكبير﴾: العلي: الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، ومن علو قدره كمالُ عدله تعالى، وأنَّه يضع الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار. الكبير الذي له الكبرياء والعظمة والمجد في أسمائه وصفاته وأفعاله، المتنزِّه عن كل آفة وعيب ونقص؛ فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم؛ فحكمه[1] لا يغيَّر ولا يبدَّل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٣﴾ يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده بتبيين الحقِّ من الباطل بما يُري عباده من آياته النفسيَّة والآفاقيَّة والقرآنيَّة الدالَّة على كل مطلوب مقصودٍ، الموضِّحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والمتأمِّل لها أدنى شكٍّ في معرفة الحقائق، وهٰذا من أكبر نعمه على عباده حيث لم يبق الحق مشتبهاً ولا الصواب ملتبساً بل نوَّع الدلالات ووضَّح الآيات؛ ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنة، وكلما كانت المسائل أجلَّ وأكبر؛ كانت الدلائل عليها أكثر

(١) في (ب): «وحكمه».

وأيسر؛ فانظر إلى التوحيد، لما كانت مسألتُه من أكبر المسائل، بل أكبرها؛ كثرت الأدلة عليها العقليَّة والنقليَّة وتنوَّعت، وضرب اللّه لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهٰذا ذكرها في هٰذا الموضع، ونبَّه على جملة من أدلتها، فقال: ﴿فادْعوا اللّهَ مخلصينَ له الدينَ﴾.

ولما ذكر أنَّه يري عباده آياته؛ نبَّه على آية عظيمة، فقال: ﴿وينزِّلُ لكم من السماء رزقاً﴾؛ أي: مطراً به ترتزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذٰلك يدلُّ على أن النعم كلَّها منه؛ فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينيَّة والأدلة عليها وما يتبع ذٰلك من العمل بها، والنعم الدنيويَّة كلها كالنعم الناشئة عن الغيث الذي تحيا به البلاد والعباد، وهٰذا يدلُّ دلالةً قاطعةً أنه وحده هو المعبودُ الذي يتعيَّن إخلاص الدين له؛ كما أنه وحده المنعم. ﴿وما يتذكَّرُ﴾: بالآيات حين يُذَكَّر بها ﴿إلَّا مَن ينيبُ﴾: إلى اللّه تعالى بالإقبال على محبَّته وخشيته وطاعته والتضرُّع إليه؛ فهٰذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمةً في حقِّه، ويزداد بها بصيرة.

﴿١٤﴾ ولما كانتِ الآياتُ تثمر التذكُّر، والتذكُّر يوجب الإخلاص للّه؛ رتَّب الأمر على ذٰلك بالفاء الدالة على السببية، فقال: ﴿فادعوا اللّه مخلصين له الدِّينَ﴾: وهٰذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة. والإخلاص معناه تخليصُ القصدِ للّه تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق اللّه وحقوق عباده؛ أي: أخلصوا للّه تعالى في كلِّ ما تدينونه به، وتتقرَّبون به إليه، ﴿ولو كره الكافرونَ﴾: لذٰلك؛ فلا تبالوا بهم، ولا يثنكم ذٰلك عن دينِكم، ولا تأخذكم باللّه لومةُ لائم؛ فإنَّ الكافرين يكرهون الإخلاصَ لله وحدَه غايةَ الكراهة؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا ذُكِرَ اللّه وحده اشمأزَّتْ قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ الذين من دونِهِ إذا هم يَسْتَبْشِرون﴾.

﴿١٥﴾ ثم ذَكَرَ من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: ﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾؛ أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختصَّ به وارتفعتْ درجاتُه ارتفاعاً بايَنَ به مخلوقاتِهِ وارتفع به قدرُهُ وجلَّت أوصافُهُ وتعالت ذاتُه أن يتقرَّب إليه إلا بالعمل[1] الزكي الطاهر المطهَّر، وهو الإخلاص الذي يرفع درجات أصحابه ويقرِّبهم إليه ويجعلهم فوق خلقِهِ. ثم ذكر نعمته على عباده

---

(١) في (ب): «العمل».

بالرسالة والوحي، فقال: ﴿يُلقي الرُّوحَ﴾؛ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد؛ فكما أنَّ الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش؛ فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يَصْلُحُ ولا يفلحُ؛ فهو تعالى ﴿يُلقي الرُّوحَ من أمرِهِ﴾: الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم ﴿على مَن يشاءُ من عبادِهِ﴾: وهم الرسل الذين فضَّلهم، واختصَّهم لوحيه ودعوة عباده.

**والفائدة في إرسال الرسل** هو تحصيل سعادة العبادِ في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهٰذا قال: ﴿لِيُنذِرَ﴾: من ألقى الله إليه الوحي ﴿يَوْمَ التَّلاقِ﴾؛ أي: يخوِّف العباد بذٰلك ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه؛ وسمَّاه يوم التلاق لأنَّه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضُهم مع بعض، والعاملون وأعمالُهم وجزاؤهم.

﴿١٦﴾ ﴿يومَ هم بارزونَ﴾؛ أي: ظاهرون على الأرض، وقد[1] اجتمعوا في صعيدٍ واحدٍ لا عوجَ ولا أمتَ فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. ﴿لا يخفى على الله منهم شيءٌ﴾: لا من ذواتهم ولا من أعمالهم ولا من جزاء تلك الأعمال ﴿لِمَنِ الملكُ اليومَ﴾؛ أي: من هو المالك لذٰلك اليوم العظيم الجامع للأوَّلين والآخرين، أهل السماواتِ وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك وتقطَّعت الأسباب، ولم يبقَ إلا الأعمال الصالحة أو السيئة، الملك ﴿لله الواحدِ القهارِ﴾؛ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فلا شريك له في شيءٍ منها بوجه من الوجوه. القهارُ لجميع المخلوقات، الذي دانتْ له المخلوقات وذلَّت وخضعتْ، خصوصاً في ذٰلك اليوم الذي عَنَتْ فيه الوجوهُ للحيِّ القيُّوم، يومئذٍ لا تَكَلَّم نفسٌ إلا بإذنه.

﴿١٧﴾ ﴿اليومَ تُجزى كلُّ نفس بما كَسَبَتْ﴾: في الدنيا من خيرٍ وشرٍّ قليل وكثير. ﴿لا ظُلْمَ اليوم﴾: على أحد بزيادة في سيئاته أو نقص من حسناته. ﴿إنَّ الله سريعُ الحساب﴾؛ أي: لا تستبطئوا ذٰلك اليوم؛ فإنَّه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريب، وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامةِ لإحاطة علمِهِ وكمال قدرتِهِ.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن

(١) في (ب): «قد».

دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿١٨﴾ يقول تعالى لنبيِّه محمد ﷺ: ﴿وأنذِرْهم يومَ الآزفةِ﴾؛ أي: يوم القيامةِ التي قد، أزفت وقرُبت، وآن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها. ﴿إذِ القلوبُ لدى الحناجر﴾؛ أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتُهم هواءً ووصلت القلوبُ من الروع والكرب إلى الحناجر شاخصةً أبصارهم ﴿كاظمين﴾: لا يتكلَّمون إلَّا مَنْ أذن له الرحمٰن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد والمزعجات الهائلة. ﴿ما للظالمينَ من حميم﴾؛ أي: قريب ولا صاحب ﴿ولا شفيع يُطاع﴾: لأنَّ الشُّفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قُدِّرَتْ شفاعتُهم؛ فاللّه تعالى لا يرضى شفاعتَهم فلا يقبلُها.

﴿١٩﴾ ﴿يعلم خائنةَ الأعين﴾: وهو النظرُ الذي يُخفيه العبد من جليسِهِ ومقارِنِهِ، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تُخفي الصدورُ﴾: مما لم يبيِّنه العبد لغيره؛ فاللّه تعالى يعلم ذٰلك الخفيَّ؛ فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿٢٠﴾ ﴿واللّه يقضي بالحقِّ﴾: لأنَّ قوله حقٌّ وحكمَه الشرعيَّ حقٌّ وحكمَه الجزائيَّ حقٌّ، وهو المحيط علماً وكتابةً وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزَّه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدريَّ، الذي إذا شاء شيئاً كان، وما لم يشأ لم يكنْ، وهو الذي يقضي بين عبادِهِ المؤمنين والكافرين في الدنيا ويفصِلُ بينهم بفتح ينصُرُ به أولياءه وأحبابه. ﴿والذين يدعون من دونِهِ﴾: وهٰذا شاملٌ لكلِّ ما عُبد من دون اللّه، ﴿لا يقضون بشيء﴾: لعجزِهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله. ﴿إنَّ اللّه هو السميع﴾: لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنُّن الحاجات. ﴿البصير﴾[1]: بما كان، وما يكون، وما يُبْصَرُ، وما لا يُبْصَرُ، وما يعلم العبادُ وما لا يعلمونَ.

قال في أول هاتين الآيتين: ﴿وأنذِرْهم يومَ الآزفة﴾، ثم وصفها بهٰذه الأوصاف المقتضيةِ للاستعداد لذٰلك اليوم العظيم؛ لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ

(١) في النسختين: «العليم».

بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾؛ أي: بقلوبهم وأبدانهم سَيْرَ نظرٍ واعتبار وتفكُّر في الآثار، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من المكذِّبين، فسيجدونها شرَّ العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة، وقد كانوا أشدَّ قوَّةً من هؤلاء في العدد والعُدد وكبر الأجسام، ﴿و﴾ أشدَّ ﴿آثاراً في الأرض﴾: من البناء والغرس، وقوةُ الآثار تدلُّ على قوة المؤثِّر فيها وعلى تمنُّعه بها، ﴿فأخذهم الله﴾: بعقوبته ﴿بذنوبهم﴾: حين أصرُّوا واستمرُّوا عليها. ﴿إنَّه قويٌّ شديد العقاب﴾: فلم تغنِ قوتهم عند قوةِ الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة قومُ عاد الذين قالوا مَنْ أشدُّ منا قوَّة؟! أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم ودمَّرتهم كلَّ تدمير.

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسل وهو فرعون وجنوده فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ[1] ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ
﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ
آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا
لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ
﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا
مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ
﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ
﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ
وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ
الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ
الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا﴾: إلى جنس هؤلاء المكذِّبين ﴿موسى﴾: ابن عمران ﴿بآياتنا﴾: العظيمة الدالَّة دلالة قطعيةً على حقيقة(١) ما أُرسِل به وبطلان ما عليه مَنْ أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وسلطانٍ مبين﴾؛ أي: حجة بيِّنة تتسلَّط على القلوب فتذعِنُ لها كالحيَّة والعصا ونحوهما من الآيات البيِّنات التي أيَّد الله بها موسى، ومكَّنه من ما دعا إليه من الحقِّ.

﴿٢٤﴾ والمبعوث إليهم ﴿فرعون وهامان﴾: وزيره ﴿وقارون﴾: الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم بمالِهِ، فكلُّهم ردُّوا عليه أشدَّ الردِّ، وقالوا: ﴿ساحرٌ كذابٌ﴾.

---

(١) في (ب): «حقيَّة».

﴿٢٥﴾ ﴿فلمَّا جاءَهم بالحقِّ من عندِنا﴾: وأيَده اللّه بالمعجزات الباهرةِ الموجبة لتمام الإذعانِ؛ لم يقابلوها بذلك، ولم يكفِهِم مجرَّدُ الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم، بل وصلتْ بهم الحالُ الشنيعة إلى أن ﴿قالوا اقْتُلوا أبناءَ الذين آمنوا معه واسْتَحْيوا نساءَهم وما كَيْدُ الكافرينَ﴾: حيث كادوا هذه المكيدَة وزعموا أنَّهم إذا قَتَلوا أبناءَهم لم يَقْوَوْا، وبَقُوا في رقِّهم وتحت عبوديَّتهم. فما كيدهم ﴿إلَّا في ضلال﴾: حيث لم يتمَّ لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضدُّ ما قصدوا، أهلكهم اللّهُ، وأبادَهم عن آخرِهم.

**قاعدة:** وتدبَّر هذه النكتة التي يكثر مرورُها بكتاب اللّه تعالى إذا كان السياقُ في قصَّة معيَّنة أو على شيء معيَّن، وأراد اللّه أن يحكُمَ على ذلك المعيَّن بحكم لا يختصُّ به؛ ذَكَرَ الحُكْمَ وعلَّقه على الوصف العامِّ؛ ليكون أعمَّ، وتندرج فيه الصورةُ التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعيَّن؛ فلهذا لم يقلْ: وما كيدُهم إلَّا في ضلال، بل قال: ﴿وَما كَيْدُ الكافرين إلَّا في ضلال﴾.

﴿٢٦﴾ و﴿قال فرعونُ﴾: متكبِّراً متجبِّراً مغرِّراً لقومه السفهاء: ﴿ذَروني أقْتُلْ موسى ولْيَدْعِ ربَّه﴾؛ أي: زعم قبَّحه اللّه أنه لولا مراعاةُ خواطر قومه؛ لقتله، وأنه لا يمنعُه منه دعاءُ ربِّه. ثم ذكر الحاملَ له على إرادةِ قتلِهِ، وأنه نصحٌ لقومه وإزالةٌ للشرِّ في الأرض، فقال: ﴿إنِّي أخافُ أن يُبَدِّلَ دينَكُم﴾: الذي أنتم عليه ﴿أو أن يُظْهِرَ في الأرض الفساد﴾: وهذا من أعجب ما يكون! أن يكون شرُّ الخلق ينصحُ الناسَ عن اتِّباع خير الخلق. هذا من التمويه والترويج الذي لا يدخُلُ إلَّا عقل مَنْ قال اللّه فيهم: ﴿فاستخفَّ قومَه فأطاعوه إنَّهم كانوا قوماً فاسقينَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿وقال موسى﴾: حين قال فرعونُ تلك المقالَة الشنيعةَ التي أوجَبَها له طغيانُه واستعان فيها بقوَّته واقتدارِهِ مستعيناً بربِّه: ﴿إنِّي عذتُ بربِّي وربِّكم﴾؛ أي: امتنعتُ بربوبيَّته التي دبَّر بها جميع الأمور ﴿من كل متكبِّرٍ لا يؤمنُ بيوم الحساب﴾؛ أي: يحمله تكبُّره وعدمُ إيمانه بيوم الحساب على الشرِّ والفسادِ، يدخُلُ فيه فرعونُ وغيره كما تقدَّم قريباً في القاعدة، فمنعه اللّه تعالى بلطفه من كلِّ متكبِّرٍ لا يؤمن بيوم الحساب، وقيَّض له من الأسباب ما اندفع به عنه شرُّ فرعونَ وملئه.

﴿٢٨﴾ ومن جملة الأسباب هذا الرجل المؤمن الذي من آل فرعون من بيت المملكةِ، لا بدَّ أن يكونَ له كلمةٌ مسموعةٌ، وخصوصاً إذا كان يظهِرُ موافقتَهم ويكتُمُ إيمانه؛ فإنهم يراعونَه في الغالب ما لا يراعونَه لو خالفهم في الظاهر؛ كما

منع اللّه رسولَه محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قريش؛ حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً؛ لم يحصلْ منه ذٰلك المنع، فقال ذٰلك الرجل المؤمن الموفَّق العاقل الحازم مقبِّحاً فعل قومه وشناعة ما عزموا عليه: ﴿**أَتقتُلونَ رجلاً أن يقولَ ربِّيَ اللّهُ**﴾؛ أي: كيف تستحلُّون قتلَه وهٰذا ذنبُه وجرمُه أنَّه يقولَ ربِّيَ اللّه، ولم يكن أيضاً قولاً مجرَّداً عن البيناتِ، ولهٰذا قال: ﴿**وقد جاءكم بالبيِّناتِ من ربِّكم**﴾: لأنَّ بيِّنته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغيرُ والكبيرُ؛ أي: فهٰذا لا يوجب قتله؛ فهلاً أبطلتم قبل ذٰلك ما جاء به من الحقِّ، وقابلتم البرهان ببرهان يردُّه ثم بعد ذٰلك نظرتُم هل يحلُّ قتلُه إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟! فأما وقد ظهرت حجَّته واستعلى برهانه؛ فبينكم وبين حِلِّ قتله مفاوزُ تنقطع بها أعناق المطيِّ.

ثم قال لهم مقالةً عقليةً تقنِعُ كلَّ عاقل بأيِّ حالة قُدِّرت، فقال: ﴿**وإنْ يكُ كاذباً فعليه كذِبُه وإن يكُ صادقاً يصِبْكُم بعض الذي يعدكم**﴾: أي: موسى بين أمرين إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه وضرره مختصٌّ به، وليس عليكم في ذٰلك ضررٌ؛ حيث امتنعتُم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً، وقد جاءكم بالبينات وأخبركم أنَّكم إنْ لم تجيبوه عذَّبَكم اللّه عذاباً في الدُّنيا وعذاباً في الآخرة؛ فإنَّه لا بدَّ أن يصيبَكم بعضُ الذي يعِدُكم، وهو عذاب الدنيا. وهٰذا من حسن عقلِهِ ولطف دفعِهِ عن موسى؛ حيث أتى بهٰذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعلَ الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كلِّ تقدير؛ فقتله سفهٌ وجهلٌ منكم.

ثم انتقل ـ رضي اللّه عنه وأرضاه وغفرْ له ورحمه ـ إلى أمرٍ أعلى من ذٰلك وبيان قرب موسى من الحقِّ فقال: ﴿**إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ**﴾؛ أي؛ متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل، ﴿**كذابٌ**﴾: بنسبته ما أسرف فيه إلى اللّه؛ فهٰذا لا يهديه اللّه إلى طريق الصواب؛ لا في مدلوله، ولا في دليله، ولا يوفَّق للصراط المستقيم؛ أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحقِّ وما هداه اللّه إلى بيانِهِ من البراهين العقليَّة والخوارق السماويَّة؛ فالذي اهتدى هٰذا الهدى لا يمكنُ أن يكون مسرفاً ولا كاذباً. وهٰذا دليلٌ على كمال علمِهِ وعقلِهِ ومعرفتِهِ بربِّه.

﴿٢٩﴾ ثم حذَّر قومه ونَصَحهم وخوَّفهم عذابَ الآخرة ونهاهم عن الاغترار بالمُلْك الظاهر، فقال: ﴿**يا قوم لكم الملكُ اليومَ**﴾؛ أي: في الدنيا ﴿ظاهرين في

**الأرض﴾**: على رعيَّتِكم تنفِّذون فيهم ما شئتم من التدبير؛ فهَبْكم حصل لكم ذٰلك وتمَّ ولن يتمَّ؛ **﴿فَمن ينصرُنا من بأس اللّه﴾**؛ أي: عذابه **﴿إن جاءنا﴾**. وهٰذا من حسن دعوتِهِ؛ حيث جعلَ الأمرَ مشتركاً بينه وبينهم بقوله: **﴿فمن ينصُرُنا﴾**، وقوله: **﴿إن جاءنا﴾**؛ ليفهِمَهم أنَّه ينصحُ لهم كما ينصحُ لنفسه ويرضى لهم ما يرضى لنفسه، فَـ**﴿قالَ فرعونُ﴾**: معارضاً له في ذٰلك ومغرِّراً لقومه أن يتَّبعوا موسى: **﴿ما أريكم إلَّا ما أرى وما أهديكم إلَّا سبيل الرشادِ﴾**: وصدق في قوله: **﴿ما أريكم إلَّا ما أرى﴾**، ولٰكن ما الذي رأى؟! رأى أن يستخفَّ قومَه فيتابعوه ليقيمَ بهم رياسته، ولم يَرَ الحقَّ معه، بل رأى الحقَّ مع موسى وجحد به مستيقناً له، وكذب في قوله: **﴿ما أهديكم إلَّا سبيل الرشادِ﴾**؛ فإنَّ هٰذا قلبٌ للحقِّ؛ فلو أمرهم باتِّباعه اتِّباعاً مجرداً على كفره وضلاله؛ لكان الشرُّ أهونَ، ولٰكنه أمرهم باتِّباعه، وزعم أنَّ في اتِّباعه اتِّباعَ الحقِّ، وفي اتِّباع الحقِّ اتباعَ الضلال.

﴿٣٠﴾ **﴿وقال الذي آمنَ﴾**: مكرِّراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم؛ كما هي حالةُ الدُّعاة إلى اللّه تعالى؛ لا يزالون يدعون إلى ربِّهم، ولا يردُّهم عن ذٰلك رادٌّ، ولا يثنيهم عتوُّ مَنْ دَعَوْه عن تكرار الدعوة، فقال لهم: **﴿يا قوم إنِّي أخاف عليكم مثلَ يوم الأحزاب﴾**؛ يعني: الأمم المكذِّبين الذين تحزَّبوا على أنبيائهم واجتمعوا على معارضتهم.

﴿٣١﴾ ثم بيَّنهم فقال: **﴿مثل دأب قوم نوح وعادٍ وثمودَ والذين من بعدِهم﴾**؛ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة اللّه فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، **﴿وما اللّه يريدُ ظلماً للعبادِ﴾**: فيعذِّبُهم بغير ذنب أذنبوه ولا جرم أسْلَفوه.

﴿٣٢﴾ ولمَّا خوَّفهم العقوباتِ الدنيويةَ؛ خوَّفهم العقوباتِ الأخرويةَ، فقال: **﴿ويا قوم إنِّي أخاف عليكم يومَ التَّناد﴾**؛ أي: يوم القيامة؛ حين ينادي أهلُ الجنة أهلَ النار: ﴿أن قد وجَدْنا ما وعَدَنا ربُّنا حقًّا. . .﴾ إلى آخر الآيات، ﴿ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنَّة أن أفيضوا علينا من الماءِ أو ممَّا رزَقَكُم اللّه قالوا إنَّ اللّه حرَّمَهما على الكافرين﴾، وحين ينادي أهلُ النار مالكاً: ﴿ليقضِ علينا ربُّك﴾، فيقول: ﴿إنَّكم ماكثون﴾، وحين ينادون ربَّهم: ﴿ربَّنا أخْرِجْنا منها فإنْ عُدْنا فإنَّا ظالمون﴾، فيجيبهم: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ﴾، وحين يُقالُ للمشركين: ﴿ادْعوا شركاءَكم فَدَعَوْهم فلم يستجيبوا لهم﴾.

﴿٣٣﴾ فخوَّفهم رضي اللّٰه عنه هٰذا اليوم المهول، وتوجَّع لهم إن أقاموا على شركِهِم بذٰلك، ولهٰذا قال: ﴿يوم تولُّون مدبرينَ﴾؛ أي: قد ذهب بكم إلى النار. ﴿ما لكم من اللّٰه من عاصم﴾: لا من أنفسكم قوَّة تدفعون بها عذابَ اللّٰه ولا ينصرُكم من دونِهِ من أحدٍ، ﴿يوم تُبلى السرائرُ. فما له من قوَّةٍ ولا ناصرٍ﴾. ﴿ومن يُضْلِلِ اللّٰه فما له من هادٍ﴾: لأن الهدى بيد اللّٰه تعالى. فإذا منع عبدَه الهدى لعلمِهِ أنه غير لائق به لخبثه؛ فلا سبيل إلى هدايته.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد جاءكم يوسفُ﴾: بنُ يعقوب عليهما السلام ﴿من قبل﴾: إتيان موسى بالبينات الدَّالَّة على صدقه، وأمركم بعبادة ربِّكم وحده لا شريك له، ﴿فما زلتُم في شكٍّ مما جاءكم به﴾: في حياته، ﴿حتى إذا هَلَكَ﴾: ازداد شكُّكم وشرككم، ﴿وقلتم لن يبعثَ اللّٰه من بعده رسولاً﴾؛ أي: هٰذا ظنكم الباطل وحسبانكم الذي لا يليق باللّٰه تعالى؛ فإنَّه تعالى لا يترك خلقه سدى لا يأمرهم وينهاهم، بل يرسل[1] إليهم رسله؛ وظنُّ أنَّ اللّٰه لا يرسل رسولاً ظنُّ ضلال، ولهٰذا قال: ﴿كذٰلك يضلُّ اللّٰه من هو مسرفٌ [مرتابٌ][2]﴾: وهٰذا هو وصفهم الحقيقيُّ الذي وصفوا به موسى ظلماً وعلوًّا؛ فهم المسرفون بتجاوزهم الحقَّ وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبةُ حيث نسبوا ذٰلك إلى اللّٰه وكذَّبوا رسوله؛ فالذي وصفُه السرفُ والكذبُ لا ينفكُّ عنهما لا يهديه الله ولا يوفِّقه للخير؛ لأنه ردَّ الحقَّ بعد أن وصل إليه وعرفه؛ فجزاؤه أن يعاقِبَه الله بأن يَمْنَعَه الهدى؛ كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغَ اللّٰه قلوبَهم﴾، ﴿ونقلِّبُ أفئدتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمِنوا به أولَ مرَّةٍ ونَذَرُهم في طغيانهم يَعْمَهون﴾، ﴿واللّٰهُ لا يهدي القوم الظالمينَ﴾.

﴿٣٥﴾ ثم ذكر وصفَ المسرف الكذاب، فقال: ﴿الذين يجادلونَ في آياتِ اللّٰه﴾: التي بينت الحقَّ من الباطل وصارت من ظهورها بمنزلة الشمس للبصر؛ فهم يجادلون فيها على وضوحها لِيَدْفعوها ويُبْطِلوها ﴿بغير سلطانٍ أتاهم﴾؛ أي: بغير حجَّة وبرهان، وهٰذا وصفٌ لازمٌ لكلِّ من جادل في آيات اللّٰه؛ فإنَّه من المحال أن يجادلَ بسلطان؛ لأن الحقَّ لا يعارضه معارضٌ؛ فلا يمكن أن يعارَضَ بدليل شرعيٍّ أو عقليٍّ أصلاً. ﴿كَبُرَ﴾: ذٰلك القول المتضمِّن لردِّ الحقِّ بالباطل

---

(١) في (ب): «ويرسل».

(٢) في النسختين: «كذاب». وعليه سار المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في تفسيره للآية.

﴿مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾: فالله أشدُّ بغضاً لصاحبه؛ لأنَّه تضمَّن التكذيب بالحقِّ والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهٰذه أمورٌ يشتدُّ بغض الله لها ولمن اتَّصف بها، وكذٰلك عباده المؤمنون يمقتون على ذٰلك أشدَّ المقت موافقةً لربهم، وهٰؤلاء خواصُّ خلق الله تعالى؛ فمقتُهم دليلٌ على شناعة مَن مقتوه. ﴿كذٰلك﴾؛ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون، ﴿يطبعُ الله على كلِّ قلبِ متكبرٍ جبارٍ﴾: متكبر في نفسه على الحقِّ بردِّه وعلى الخلق باحتقارِهم، جبارٍ بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ ﴿وقال فرعونُ﴾: معارضاً لموسى ومكذِّباً له في دعوته إلى الإقرار بربِّ العالمين الذي على العرش استوى وعلى الخلق اعتلى: ﴿يا هامانُ ابنِ لي صرحاً﴾؛ أي: بناءً عظيماً مرتفعاً، والقصد منه: لعلي أطلع ﴿إلى إلٰه موسى وإنِّي لأظنُّه كاذباً﴾: في دعواه أن لنا ربًّا، وأنه فوق السماواتِ، ولٰكنه يريد أن يحتاط فرعون ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هٰذا القول: ﴿وكذٰلك زُيِّنَ لفرعونَ سوءُ عملِهِ﴾: فزُيِّن له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزيِّنه وهو يدعو إليه ويحسِّنه حتى رآه حسناً ودعا إليه وناظر مناظرة المحقِّين وهو من أعظم المفسدين. ﴿وصُدَّ عن السبيل﴾: الحق بسبب الباطل الذي زُيِّن له. ﴿وما كيدُ فرعونَ﴾: الذي أراد أن يكيد به الحقَّ ويوهم به الناس أنه محقٌّ وأن موسى مبطلٌ ﴿إلَّا في تبابٍ﴾؛ أي: خسارٍ وبوارٍ، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿٣٨﴾ ﴿وقال الذي آمنَ﴾: معيداً نصيحته لقومه: ﴿يا قوم اتَّبعونِ أهْدِكم سبيل الرشادِ﴾: لا كما يقولُ لكم فرعونُ؛ فإنه لا يهديكم إلا طريق الغيِّ والفساد.

﴿٣٩﴾ ﴿يا قوم إنَّما هٰذه الحياةُ الدنيا متاعٌ﴾: يُتَمَتَّع بها ويُتَنَعَّم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحلُّ؛ فلا تغرَّنَّكم وتخدعنَّكم عما خلقتم له. ﴿وإن الآخرةَ هي دارُ القرارِ﴾: التي هي محلُّ الإقامة ومنزل السكون والاستقرار؛ فينبغي لكم أن تؤثروها وتعملوا لها عملاً يسعِدُكم فيها.

﴿٤٠﴾ ﴿من عمل سيئةً﴾: من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فلا يُجزى إلا مثلَها﴾؛ أي: لا يجازَى إلا بما يسؤوه ويحزنه؛ لأن جزاء السيئة السوء. ﴿ومن عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى﴾: من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان؛ ﴿فأولٰئك يدخُلون الجنةَ يُرزقون فيها بغير حسابٍ﴾؛ أي: يعطَوْن أجرهم بلا حدٍّ ولا عدٍّ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿٤١﴾ ﴿ويا قوم مالي أدعوكُم إلى النجاةِ﴾: بما قلت لكم، ﴿وتدعونَني إلى النار﴾: بترك اتِّباع نبيِّ اللّه موسى عليه السلام.

﴿٤٢﴾ ثم فسر ذٰلك فقال: ﴿تدعونني لأكفرَ باللّه وأشركَ به ما ليس لي به علمٌ﴾: أنَّه يستحقُّ أن يُعْبَدَ من دون اللّه، والقول على اللّه بلا علم من أكبرِ الذُّنوب وأقبحها. ﴿وأنا أدعوكُم إلى العزيز﴾: الذي له القوةُ كلُّها، وغيره ليس بيدِهِ من الأمر شيء: ﴿الغفَّار﴾: الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرؤون على مساخطه، ثم إذا تابوا وأنابوا إليه؛ كفَّر عنهم السيئاتِ والذنوبَ ودفع موجباتها من العقوبات الدنيويَّة والأخرويَّة.

﴿٤٣﴾ ﴿لا جَرَمَ﴾؛ أي: حقاً يقيناً ﴿أنَّ ما تدعونني إليه ليس له دعوةٌ في الدنيا ولا في الآخرة﴾؛ أي: لا يستحقُّ [مِن] الدعوة إليه والحثُّ على اللجأ إليه في الدُّنيا ولا في الآخرة لعجزه ونقصه، وأنَّه لا يملك نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ﴿وأنَّ مردَّنا إلى اللّه﴾: تعالى فسيجازي كلَّ عامل بعمله، ﴿وأنَّ المسرفين هم أصحابُ النار﴾: وهم الذين أسرفوا على أنفسِهم بالتجرِّي على ربِّهم بمعاصيه والكفر به دون غيرهم.

﴿٤٤﴾ فلما نصحهم وحذَّرهم وأنذرهم ولم يطيعوه ولا وافقوه؛ قال لهم: ﴿فستذكرونَ ما أقول لكم﴾: من هٰذه النصيحة، وسترون مغبَّة عدم قبولها حين يحلُّ بكم العقاب وتحرمون جزيل الثواب، ﴿وأفوِّضُ أمري إلى اللّه﴾؛ أي: ألجأ إليه وأعتصمُ وألقي أموري كلَّها لديه وأتوكَّل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إنَّ اللّه بصيرٌ بالعباد﴾: يعلمُ أحوالكم وما يستحقُّون: يعلم حالي وضَعْفي فيمنعني منكم ويكفيني شرَّكم، ويعلم أحوالَكم فلا تتصرَّفون إلَّا بإرادتِهِ ومشيئتِهِ؛ فإنْ سلَّطكم عليَّ؛ فبحكمة منه تعالى وعن إرادتِهِ ومشيئتِهِ صَدَرَ ذٰلك.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ ﴿فوقاه اللّه سيئاتِ ما مَكَروا﴾؛ أي: وقى اللّه القويُّ الرحيم ذٰلك الرجلَ المؤمن الموفَّق عقوباتِ ما مكر فرعونُ وآله له من إرادة إهلاكه وإتلافه لأنه بادأهم بما يكرهون وأظهر لهم الموافقةَ التامَّة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهٰذا أمرٌ لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرةُ إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتدَّ حَنَقُهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه اللّه من كيدهم ومكرهم، وانقلب كيدُهم ومكرُهم على أنفسهم. ﴿وحاق بآل فرعونَ سوءُ العذاب﴾:

أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدةٍ عن آخرهم، وفي البرزخ: ﴿النار يُعْرَضون عليها غدُوًّا وعشيًا ويوم تقومُ الساعة أدخِلوا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب﴾: فهٰذه العقوبات الشنيعة التي تحل بالمكذِّبين لرسل الله المعاندين لأمره.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار وعتاب بعضهم بعضاً واستغاثتهم بخَزَنَةِ النار وعدم الفائدة في ذٰلك، فقال: ﴿وإذْ يتحاجُّون في النار﴾: يحتجُّ التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فيقولُ الضعفاءُ﴾؛ أي: الأتباع للقادة الذين استكبروا على الحق ودَعَوْهم إلى ما استكبروا لأجله: ﴿إنَّا كنَّا لكم تبعاً﴾: أنتم أغويتُمونا وأضللتُمونا، وزيَّنتم لنا الشرك والشرَّ، ﴿فهل أنتم مُغنونَ عنَّا نصيباً من النارِ﴾؛ أي: ولو قليلاً.

﴿٤٨﴾ ﴿قال الذين استكْبروا﴾: مبيِّنين لعجزهم ونفوذِ الحكم الإلٰهيِّ في الجميع: ﴿إنَّا كلٌّ فيها إنَّ الله قد حكم بين العباد﴾: وجعل لكلٍّ قسطَه من العذاب؛ فلا يزاد في ذٰلك ولا ينقص منه ولا يغيَّر ما حكم به الحكيم.

﴿٤٩﴾ ﴿وقال الذين في النار﴾: من المستكبرين والضعفاء ﴿لخزنةِ جهنَّم ادْعوا ربَّكم يخفِّفْ عنَّا يوماً من العذاب﴾: لعله تحصُلُ بعض الراحة.

﴿٥٠﴾ فَـ﴿قالُوا﴾ لهم موبِّخين ومبيِّنين أن شفاعتهم لا تنفعهم ودعاؤهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أولم تكُ تأتيكم رسلُكُم بالبيناتِ﴾: التي تبيَّنتم بها الحقَّ والصراط المستقيم وما يقرِّب من الله وما يُبعِدُ منه، ﴿قالوا بلى﴾: قد جاؤونا بالبينات، وقامت علينا حجَّةُ الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحقَّ بعدما تبيَّن، ﴿قالوا﴾؛ أي: الخزنة لأهل النار متبرِّئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فادعوا﴾: أنتم، ولٰكن هٰذا الدعاء هل يغني شيئاً أم لا؟ قال تعالى: ﴿وما دعاءُ الكافرين إلَّا في ضلال﴾؛ أي: باطل لاغٍ؛ لأنَّ الكفر محبطٌ لجميع الأعمال صادٌّ لإجابة الدعاء.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥١﴾ لما ذَكَرَ عقوبةَ آل فرعون في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة، وذَكَرَ حالةَ أهل النار الفظيعة الذين نابذوا رسله وحاربوهم؛ قال: ﴿**إنَّا لننصرُ رُسُلَنا والذين آمنوا في الحياة الدُّنيا**﴾؛ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم ولأتباعهم بالثواب ولمن حاربهم بشدَّة العذاب.

﴿٥٢﴾ ﴿**يوم لا ينفعُ الظالمين معذِرَتُهم**﴾: حين يعتذرون، ﴿**ولهم اللعنةُ ولهم سوءُ الدار**﴾؛ أي: الدار السيئة التي تَسوء نازليها.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٣ ـ ٥٤﴾ لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون وما آل إليه أمرُ فرعون وجنودِهِ، ثم ذكر الحكم العامَّ الشامل له ولأهل النار؛ ذكر أنه أعطى موسى ﴿**الهدى**﴾؛ أي: الآيات والعلم الذي يهتدي به المهتدون، ﴿**وأوْرَثْنا بني إسرائيل الكتابَ**﴾؛ أي: جعلناه متوارثاً بينهم من قرن إلى آخر، وهو التوراة، وذلك الكتاب مشتملٌ على الهدى، الذي هو العلم بالأحكام الشرعيَّة وغيرها، وعلى التذكُّر للخير بالترغيب فيه وعن الشرِّ بالترهيب عنه، وليس ذلك لكلِّ أحدٍ، وإنما هو ﴿**لأولي الألباب**﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿**فاصبرْ**﴾: يا أيها الرسولُ كما صبر مَنْ قبلك من أولي العزم المرسلين، ﴿**إنَّ وعدَ الله حقٌّ**﴾؛ أي: ليس مشكوكاً فيه أو فيه ريبٌ أو كذبٌ حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحقُّ المحض والهدى الصِّرف الذي يصبر عليه الصابرون ويجتهد في التمسُّك به أهل البصائر؛ فقوله: ﴿**إنَّ وعد الله حقٌّ**﴾: من الأسباب التي تحثُّ على الصبر على طاعة الله وعن ما يكره الله، ﴿**واستغفرْ لذنبِكَ**﴾: المانع لك من تحصيل فوزِك وسعادتِك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصُلُ المحبوب، وبالاستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى، خصوصاً ﴿**بالعشيِّ والإبكارِ**﴾: اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبَّة ما فيهما؛ لأنَّ في ذلك عوناً على جميع الأمور.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنَّ من جادل في آياته لِيُبْطِلَها بالباطل بغير بيِّنةٍ من أمره ولا حجَّةٍ أنَّ هٰذا صادرٌ من كبرٍ في صدورهم على الحقِّ وعلى مَنْ جاء به؛ يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل؛ فهٰذا قصدهم ومرادُهم، ولكنَّ هٰذا لا يتمُّ لهم، وليسوا ببالغيه؛ فهٰذا نصٌّ صريح وبشارةٌ بأن كل من جادل الحقَّ أنه مغلوبٌ، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليلٌ، ﴿فاستعذْ﴾؛ أي: اعتصم والجأ ﴿بالله﴾: ولم يذكرْ ما يستعيذ منه إرادةً[1] للعموم؛ أي: استعذْ بالله من الكبر الذي يوجب التكبُّر على الحقِّ، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجنِّ، واستعذ بالله من جميع الشرور. ﴿إنَّه هو السميع﴾: لجميع الأصوات على اختلافها. ﴿البصيرُ﴾: بجميع المرئياتِ بأيِّ محلٍّ وموضع وزمان كانت.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى بما تقرَّر في العقول أنَّ ﴿خلق السماواتِ والأرض﴾ على عظمهما وسعتهما أعظمُ و﴿أكبرُ من خلق الناس﴾؛ فإنَّ الناس بالنسبة إلى خلقِ السماوات والأرض من أصغر ما يكون؛ فالذي خَلَقَ الأجرام العظيمة وأتقنها قادرٌ على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى، وهٰذا أحد الأدلَّة العقليَّة الدالَّة على البعث دلالة قاطعةً بمجرَّد نظر العاقل إليها، يستدلُّ بها استدلالاً لا يقبل الشكَّ والشُّبهة بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث؛ وليس كلُّ أحد يجعل فكره لذٰلك، ويقبل بتدبُّرِه، ولهٰذا قال: ﴿ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمونَ﴾: ولذٰلك لا يعتبرون بذٰلك، ولا يجعلونه منهم على بالٍ.

﴿٥٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصيرُ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات ولا المسيءُ﴾؛ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير؛ كذٰلك لا يستوي مَن آمنَ بالله وعمل الصالحات ومَن كان مستكبراً على عبادة ربِّه، مقدِماً على

---

(١) في (ب): «ما يستعيذ إرادةً».

معاصيه، ساعياً في مساخطه، ﴿قليلاً ما تتذكَّرونَ﴾؛ أي: تذكُّركم قليلٌ، وإلَّا؛ فلو تذكَّرتم مراتبَ الأمور ومنازل الخير والشرِّ والفرق بين الأبرار والفجار، وكانت لكم هِمَّةٌ عليَّةٌ؛ لآثرتم النافع على الضارِّ، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

﴿٥٩﴾ ﴿إنَّ الساعة لآتيةٌ[1] لا ريبَ فيها﴾: قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق، ونطقت بها الكتب السماويَّة التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهدُ المرئيَّة والآيات الأفقيَّة. ﴿ولٰكنَّ أكثر الناس لا يؤمنونَ﴾ مع هٰذه الأمور التي توجب كمال التصديق والإذعان.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ هٰذا من لطفه بعباده ونعمته العظيمة؛ حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة ووعدهم أن يستجيبَ لهم، وتوعَّد من استكبر عنها، فقال: ﴿إنَّ الذين يستكبِرونَ عن عبادتي سَيَدْخلونَ جهنَّمَ داخِرين﴾؛ أي: ذليلين حقيرين، يجتمعُ عليهم العذابُ والإهانة جزاءً على استكبارهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

تدبَّرْ هٰذه الآيات الكريمات الدالَّة على سعة رحمة الله، وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتِّصافه بالحمد على كلِّ ما اتَّصف به من الصفات الكاملة وما فعله

(١) في (ب): «آتية».

من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيَّته، وانفراده فيها، وأن جميع التَّدبير في العالم العلويِّ والسفليِّ في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد اللّه تعالى، ليس لأحدٍ من الأمر شيء ولا من القدرة شيء. **فينتجُ** من ذلك أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ وحدَه الذي لا يستحقُّ أحدٌ من العبوديَّة شيئاً كما لم يستحقَّ من الربوبيَّة شيئاً، **وينتجُ** من ذلك امتلاءُ القلوب بمعرفة اللّه تعالى ومحبَّته وخوفه ورجائه. وهذان الأمران ـ **وهما** معرفتُه وعبادتُه ـ هما اللذان خلقَ اللّه الخلقَ لأجلهما، **وهما** الغايةُ المقصودة منه تعالى لعبادِهِ، **وهما** الموصلان إلى كلِّ خير وفلاح وصلاح وسعادة دنيويَّة وأخرويَّة، **وهما** [اللذان هما] أشرفُ عطايا الكريم لعباده، **وهما** أشرفُ اللذَّات على الإطلاق، **وهما** اللذان إن فاتا فات كل خير وحضر كل شرٍّ. فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفتِهِ ومحبته، وأن يجعل حركاتِنا الباطنةَ والظاهرةَ خالصةً لوجهه تابعةً لأمره؛ إنه لا يتعاظمه سؤالٌ، ولا يحفيه نوالٌ.

﴿٦١﴾ فقوله تعالى: ﴿اللّه الذي جعل لكم الليل﴾؛ أي: لأجلكم جعل اللّه الليل مظلماً، ﴿لتسكنوا فيه﴾: من حركاتكم التي لو استمرَّت لضرَّت؛ فتأوون إلى فرشكم، ويلقي اللّه عليكم النوم الذي يستريحُ به القلبُ والبدنُ، وهو من ضروريات الآدميِّ، لا يعيش بدونه، ويسكن فيه[1] أيضاً كلُّ حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقلُّ الشواغل. ﴿و﴾ جعل تعالى ﴿النهار مبصراً﴾: منيراً بالشمس المستمرَّة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالِكم الدينيَّة والدنيويَّة؛ هذا لذكرِهِ وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراستِهِ، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفرِهِ برًّا وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته. ﴿إنَّ اللّه لَذو فضل﴾؛ أي: عظيم كما يدلُّ عليه التنكيرُ ﴿على الناس﴾: حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجبُ عليهم تمام شكره وذكره. ﴿ولٰكنَّ أكثر الناس لا يشكرونَ﴾: بسبب جهلهم وظلمهم. ﴿وقليلٌ من عبادي الشكورُ﴾، الذين يقرُّون بنعمة ربِّهم ويخضعون للّه ويحبُّونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿٦٢﴾ ﴿ذٰلكم﴾[2]: الذي فعلَ ما فعلَ ﴿اللّه ربُّكم﴾؛ أي: المنفرد بالإلٰهية والمنفرد بالرُّبوبية؛ لأنَّ انفراده بهذه النعم من ربوبيَّته، وإيجابها للشكر من ألوهيَّته.

---

(١) في (ب): «ويسكن أيضاً». (٢) في (ب): «ذلك».

﴿خالقُ كلِّ شيءٍ﴾: تقريرٌ لربوبيته[1]، ﴿لا إله إلا هو﴾: تقريرٌ أنَّه المستحقُّ للعبادة وحده لا شريكَ له. ثم صرح بالأمر بعبادتِهِ، فقال: ﴿فأنَّى تؤفكونَ﴾؛ أي: كيف تُصرفون عن عبادتِهِ وحدَه لا شريك له بعدما أبانَ لكم الدليلَ، وأنار لكم السبيل.

﴿٦٣﴾ ﴿كذٰلك يُؤفَكُ الذين كانوا بآيات اللّه يَجْحَدونَ﴾؛ أي: عقوبةً على جحدهم لآيات اللّه وتعدِّيهم على رسله؛ صُرِفوا عن التوحيد والإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورةٌ نَظَرَ بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحدٍ ثم انصرفوا صَرَفَ اللّه قلوبَهم بأنَّهم قومٌ لا يفقهون﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿اللّه الذي جَعَلَ لكم الأرضَ قراراً﴾؛ أي: قارَّةً ساكنةً مهيأةً لكلِّ مصالحكم، تتمكَّنون من حرثها وغرسها والبناء عليها والسفر والإقامة فيها، ﴿والسماء بناء﴾: سقفاً للأرض الذي أنتم فيها، قد جعل اللّه فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات، التي يُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ﴿وصوَّركم فأحسن صُوَرَكم﴾: فليس في جنس الحيوانات أحسنُ صورةً من بني آدم؛ كما قال تعالى: ﴿لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسن تقويم﴾، وإذا أردت أن تعرفَ حسنَ الآدميِّ وكمال حكمةِ اللّه تعالى فيه؛ فانظُرْ إليه عضواً عضواً؛ هل تجدُ عضواً من أعضائه يليقُ به ويصلحُ أن يكون في غير محلِّه، وانظر أيضاً إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض؛ هل تجدُ ذٰلك في غير الآدميِّين، وانظر إلى ما خصَّه اللّه به من العقل والإيمان والمحبَّة والمعرفة التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور. ﴿ورزَقَكُم من الطيباتِ﴾: وهٰذا شاملٌ لكلِّ طيِّب من مأكل ومشربٍ ومنكح وملبسٍ ومنظرٍ ومسمع وغير ذٰلك من الطيِّبات التي يسَّرها اللّه لعبادِهِ ويسَّر لهم أسبابها ومنعهم من الخبائث التي تضادُّها وتضرُّ أبدانهم وقلوبَهم وأديانَهم. ﴿ذٰلكم﴾: الذي دبَّر الأمور وأنعم عليكم بهٰذه النعم، ﴿اللّهُ ربُّكم فتبارَكَ اللّه ربُّ العالمين﴾؛ أي: تعاظم وكَثُر خيرُه وإحسانُه، المربِّي جميع العالمين بنعمه.

﴿٦٥﴾ ﴿هو الحيُّ﴾: الذي له الحياة الكاملة التامةُ المستلزمةُ لما تستلزمه من صفاتِهِ الذاتيَّة التي لا تتمُّ حياته إلَّا بها؛ كالسمع والبصر والقدرة والعلم والكلام وغير ذٰلك من صفات كمالِهِ ونعوتِ جلالِهِ. ﴿لا إله إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود بحقٍّ إلَّا وجهه الكريم، ﴿فادْعوه﴾: وهٰذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مخلصينَ

(١) في النسختين قدم قوله: «لا إله إلا هو» على قوله: «خالق كل شيء».

له الدينَ﴾؛ أي: اقصدوا بكلِّ عبادة ودعاءٍ وعملٍ وجهَ اللّه تعالى؛ فإنَّ الإخلاص هو المأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿وما أمِروا إلَّا لِيَعْبُدوا اللّه مخلصينَ له الدينَ حنفاء﴾. ﴿الحمدُ للّه ربِّ العالمينَ﴾؛ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء؛ بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل كعبادتِهِم له؛ كل ذٰلك للّه تعالى وحده لا شريك له؛ لكماله في أوصافه وأفعاله وتمام نعمِهِ.

﴿۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿٦٦﴾ لما ذَكَرَ الأمر بإخلاص العبادة للّه وحده، وذَكَرَ الأدلَّة على ذٰلك والبينات؛ صرَّح بالنهي عن عبادة ما سواه، فقال: ﴿قل﴾ يا أيُّها النبيُّ، ﴿إنِّي نهيتُ أن أعبدَ الذين تدعونَ من دونِ اللّه﴾: من الأوثان والأصنام، وكلُّ ما عُبِدَ من دون اللّه، ولستُ على شكٍّ من أمري، بل على يقينٍ وبصيرةٍ، ولهٰذا قال: ﴿لَمَّا جاءنِيَ البيناتُ من ربِّي وأمرتُ أن أسلم لربِّ العالمين﴾: بقلبي ولساني وجوارحي؛ بحيث تكون منقادةً لطاعتِهِ مستسلمةً لأمره، وهٰذا أعظم مأمورٍ به على الإطلاق؛ كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظمُ منهيٍّ عنه على الإطلاق.

﴿٦٧﴾ ثم قرَّر هٰذا التوحيدَ بأنه الخالق لكم والمطوِّر لخلقتِكم؛ فكما خلقكم وحدَه؛ فاعبدوه وحدَه، فقال: ﴿هو الذي خَلَقَكم من تراب﴾: وذٰلك بخلقة أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفةٍ﴾: وهٰذا ابتداءُ خلْق سائر النوع الإنسانيِّ ما دام في بطن أمِّه، فنبَّه بالابتداء على بقيَّة الأطوار من العلقة فالمضغة فالعظام فنفخ الروح، ﴿ثم يخرِجُكم طفلاً ثم﴾: هٰكذا تنتقلون في الخلقة الإلٰهية حتى ﴿تبلغوا أشدَّكم﴾: من قوة العقل والبدن وجميع قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ثم لِتكونوا شيوخاً ومنكم مَنْ يُتَوفَّى من قبلُ﴾: بلوغ الأشدِّ، ﴿ولِتَبْلُغوا﴾: بهٰذه الأطوار المقدَّرة [إلى] أجَلٍ ﴿مسمًّى﴾: تنتهي عنده أعمارُكم. ﴿ولعلَّكم تعقلونَ﴾: أحوالكم فتعلمونَ أنَّ المطورَ لكم في هٰذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنَّه الذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّكم ناقصون من كلِّ وجه.

﴿٦٨﴾ ﴿هو الذي يُحيي ويميتُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة؛ فلا تموت نفسٌ بسبب أو بغير سبب إلّا بإذنِهِ ﴿وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّرٍ ولا يَنْقُصُ من عمرِهِ إلّا في كتاب إنَّ ذلك على الله يسيرٌ﴾. ﴿فإذا قضى أمراً﴾: جليلاً أو حقيراً ﴿فإنَّما يقول له كن فيكونُ﴾: لا ردَّ في ذلك ولا مثنويَّة ولا تمنُّع.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يجادِلون في آيات الله﴾: الواضحة البيِّنة متعجباً من حالهم الشنيعة، ﴿أنَّى يُصْرَفونَ﴾؛ أي: كيف ينعدِلون عنها؟! وإلى أيِّ شيء يذهبونَ بعد البيانِ التامِّ؟! هل يجدون آياتٍ بيِّنات تعارض آيات الله؟! لا والله. أم يجدون شُبهاً توافقُ أهواءهم ويصولون بها لأجل باطِلِهم؟!

﴿٧٠ ـ ٧٢﴾ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله وبما أرسل الله به رسله الذين هم خيرُ الخلق وأصدقُهم وأعظمُهم عقولاً؛ فهٰؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهٰذا توعَّدهم الله بعذابها، فقال: ﴿فسوف يعلمونَ إذِ الأغلالُ في أعناقِهِم﴾: التي لا يستطيعون معها حركةً، ﴿والسلاسلُ﴾: التي يقرنون بها هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبونَ. في الحميم﴾؛ أي: الماء الذي اشتدَّ غليانُه وحرُّه، ﴿ثم في النار يُسْجَرونَ﴾: يوقدُ عليهم اللهبُ العظيم، فيُصْلَون[1] بها، ثم يوبَّخون على شركهم وكذبهم.

﴿٧٣ ـ ٧٤﴾ ويقال ﴿لهم أين ما كنتُم تشركونَ. من دونِ الله﴾: هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعضَ العذاب؟! ﴿قالوا ضلُّوا عنَّا﴾؛ أي: غابوا ولم يحضُروا، ولو حَضَروا؛ لم ينفعوا. ثم إنَّهم أنكروا فقالوا: ﴿بل لم نكنْ ندعو من قبلُ شيئاً﴾:

---

(١) في (ب): «ويصلون».

يُحتمل أنَّ مرادهم بذٰلك الإنكار، وظنُّوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويُحتمل ـ وهو الأظهر ـ أنَّ مرادهم بذٰلك الإقرار على بطلان إلٰهيَّة ما كانوا يعبدون، وأنَّه ليس للّه شريكٌ في الحقيقة، وإنَّما هم ضالُّون مخطئون بعبادة معدوم الإلٰهية، ويدلُّ على هٰذا قوله تعالى: ﴿كذٰلك يُضِلُّ اللّه الكافرين﴾؛ أي: كذٰلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا الضلال الواضح لكلِّ أحدٍ، حتى إنهم بأنفسهم يقرُّون ببطلانه يوم القيامة، ويتبيَّن لهم معنى قوله تعالى: ﴿وما يَتَّبِعُ الذين يدعونَ من دون اللّه شركاءَ إن يَتَّبِعونَ إلَّا الظنَّ﴾، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ويوم القيامةِ يكفُرون بشِرْكِكُم﴾، ﴿ومن أضلُّ ممَّن يدعو من دون اللّه مَنْ لا يستجيبُ له إلى يوم القيامةِ...﴾ الآيات.

﴿٧٥﴾ ويقال لأهل النار: ﴿ذٰلكم﴾: العذابُ الذي نُوِّعَ عليكم ﴿بما كنتُم تفرحون في الأرض بغير الحقِّ وبما كنتُم تمرحونَ﴾؛ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه وبالعلوم الذي خالفتم بها علوم الرسل، وتمرحون على عبادِ اللّه بغياً وعدواناً وظلماً وعصياناً؛ كما قال تعالى في آخر هٰذه السورة: ﴿فلمَّا جاءَتْهم رسلُهُم بالبيناتِ فَرِحوا بما عندَهم من العلم﴾، وكما قال قومُ قارون له: ﴿لا تَفْرَحْ إنَّ اللّه لا يحبُّ الفرحين﴾، وهٰذا هو الفرح المذمومُ الموجبُ للعقاب؛ بخلاف الفرح الممدوح، الذي قال اللّه فيه: ﴿قل بفضل اللّهِ وبرحمتِهِ فبذٰلك فَلْيَفْرَحوا﴾، وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿٧٦﴾ ﴿ادْخُلوا أبوابَ جهنَّمَ﴾: كلٌّ بطبقةٍ من طبقاتها على قدرِ عمله ﴿خالدين فيها﴾: لا يخرجون منها أبداً. ﴿فبئس مثوى المتكبِّرينَ﴾: مثوىً يُخْزَوْن فيه ويهانون ويُحبسون ويُعذَّبون، ويتردَّدون بين حرِّها وزمهريرها.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿٧٧﴾ أي: ﴿فاصبِرْ﴾: يا أيها الرسولُ على دعوة قومِك وما ينالُك منهم من أذىً، واستعِنْ على صبرك بإيمانك. ﴿إنَّ وعد اللّه حقٌّ﴾: سينصر دينَه ويُعلي كلمتَه وينصرُ رسلَه في الدُّنيا والآخرة، واستعِنْ على ذٰلك أيضاً بتوقُّع العقوبة بأعدائك في الدُّنيا والآخرة، ولهٰذا قال: ﴿فإمَّا نُرِيَنَّك بعضَ الذي نَعِدُهم﴾: في الدُّنيا؛ فذاك، ﴿أو نتوفَّيَنَّك﴾: قبل عقوبتهم، ﴿فإلينا يُرجَعون﴾: فنجازيهم بأعمالهم؛ فلا تحسبنَّ اللّهَ غافلاً عما يعملُ الظالمون.

ثم سلَّاه وصبَّره بذكر إخوانه المرسلين، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٨﴾ أي: ﴿ولقد أرسلْنا من قبلِكَ رسلاً﴾: كثيرين إلى قومهم يَدْعونَهم ويصبرونَ على أذاهم. ﴿منهم مَن قَصَصْنا عليك﴾: خبرهم، ﴿ومنهم مَن لم نَقْصُصْ عليك﴾: وكل الرسل مدبَّرُون ليس بيدهم شيء من الأمر. ﴿وما كان﴾ لأحدٍ ﴿منهم أن يأتي بآيةٍ﴾: من الآيات السمعيَّة والعقليَّة ﴿إلَّا بإذن الله﴾؛ أي: بمشيئته وأمره؛ فاقتراح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات ظلمٌ منهم وتعنُّتٌ وتكذيبٌ بعد أن أيَّدهم الله بالآيات الدالَّة على صدقهم وصحَّة ما جاؤوا به. ﴿فإذا جاء أمر الله﴾: بالفصل بين الرسل وأعدائِهم والفتح، ﴿قُضِيَ﴾: بينهم ﴿بالحقِّ﴾: الذي يقع الموقع ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم وإهلاك المكذِّبين، ولهٰذا قال: ﴿وخسر هنالك﴾؛ أي: وقت القضاء المذكور ﴿المبطلونَ﴾: الذين وصفُهم الباطلُ وما جاؤوا به من العلم والعمل باطلٌ، وغايتهم المقصودة لهم باطلةٌ، فليحذر هٰؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسر أولٰئك؛ فإنَّ هٰؤلاء لا خير منهم ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿٧٩ ـ ٨٠﴾ يمتنُّ تعالى على عبادِهِ بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملةٌ من الإنعام: **منها** منافعُ الركوب عليها والحمل، **ومنها** منافعُ الأكل من لحومها والشربِ من ألبانها، **ومنها** [منافع] الدفءُ واتِّخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها. . . إلى غير ذٰلك من المنافع. ﴿ولتبلغوا عليها حاجةً في صدوركم﴾: من الوصول إلى الأقطار البعيدة، وحصول السرور بها والفرح عند أهلها. ﴿وعليها وعلى الفُلْكِ تُحْمَلون﴾؛ أي: على الرواحل البريَّة والفلك البحريَّة يحملكم الله، الذي سخَّرها، وهيَّأ لها ما هيَّأ من الأسباب، التي لا تتمُّ إلَّا بها.

﴿٨١﴾ ﴿ويريكم آياتِهِ﴾: الدالَّة على وحدانيَّته وأسمائه وصفاته، وهٰذا من أكبر نعمه؛ حيث أشهد عباده آياتِهِ النفسيَّة وآياته الأفقيَّة ونعمَه الباهرة وعدَّدها عليهم ليعرِفوه ويشكُروه ويذكُروه. ﴿فأيَّ آيات الله تُنكِرونَ﴾؛ أي: أيُّ آية من آياته لا

تعترفون بها؟! فإنَّكم قد تقرَّر عندكم أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبقَ للإنكار محلٌّ، ولا للإعراض عنها موضعٌ، بل أوجبت لذوي الألباب بَذْلَ الجهد واستفراغَ الوسع للاجتهاد في طاعته والتبتُّل في خدمته والانقطاع إليه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿٨٢﴾ يحثُّ تعالى المكذِّبين لرسولهم على السَّير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين، ﴿فينظروا﴾: نظرَ فكرٍ واستدلال لا نظر غفلةٍ وإهمال ﴿كيف كان عاقبةُ الذين من قبلِهم﴾: من الأمم السالفة؛ كعاد وثمود وغيرهم ممن كانوا أعظم منهم قوَّة وأكثر أموالاً وأشدَّ آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة والغراس الأنيقة والزروع الكثيرة. ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسِبونَ﴾: حين جاءهم أمرُ الله، فلم تغن عنهم قوَّتُهم، ولا افتَدَوا بأموالهم، ولا تحصَّنوا بحصونهم.

﴿٨٣﴾ ثم ذَكَرَ جرمَهم الكبير، فقال: ﴿فلمَّا جاءتْهم رسلُهم بالبيناتِ﴾: من الكتب الإلهيَّة والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبيِّن للهدى من الضلال والحق من الباطل، ﴿فرحوا بما عندَهم من العلم﴾: المناقض لدين الرسل، ومن المعلوم أنَّ فرحهم به يدلُّ على شدَّة رضاهم به وتمسُّكهم ومعاداة الحقِّ الذي جاءت به الرسل وجعل باطلهم حقًّا، وهٰذا عامٌّ لجميع العلوم التي نوقِضَ بها ما جاءتْ به الرسل، ومن أحقِّها بالدُّخول في هٰذا، علوم الفلسفة والمنطق اليوناني الذي رُدَّت به كثيرٌ من آيات القرآن، ونَقَّصتْ قدرَه في القلوب، وجَعَلَتْ أدلَّته اليقينيَّة القاطعة أدلَّة لفظيَّة لا تفيدُ شيئاً من اليقين، ويقدَّم عليها عقولُ أهل السَّفه والباطل، وهٰذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة؛ فالله المستعانُ، ﴿وحاق بهم﴾؛ أي: نزل ما كانوا يستهزئون به من العذاب.

﴿٨٤﴾ ﴿فلمَّا رأوا بأسَنا﴾؛ أي: عذابنا؛ أقرُّوا حيث لا ينفعهم الإقرار، و﴿قالوا آمنَّا بالله وحدَه وكَفَرْنا بما كُنَّا به مشركين﴾: من الأصنام والأوثان، وتبرَّأنا من كلِّ ما خالف الرسل من علم أو عمل.

﴿٨٥﴾ ﴿فلم يكُ ينفعُهم إيمانُهم لما رأوا بأسَنا﴾؛ أي: في تلك الحال، وهٰذه ﴿سنة اللّه﴾ وعادتُه ﴿التي خَلَتْ في عبادِهِ﴾: أنَّ المكذِّبين حين ينزل بهم بأسُ اللّه وعقابُه إذا آمنوا؛ كان إيمانُهم غيرَ صحيح ولا منجياً لهم من العذاب، وذٰلك لأنَّه إيمانُ ضرورةٍ؛ قد اضطرُّوا إليه، وإيمانُ مشاهدة، وإنَّما الإيمان [النافع] الذي ينجي صاحبه هو الإيمان الاختياريُّ الذي يكون إيماناً بالغيب، وذٰلك قبل وجودِ قرائن العذاب، ﴿وخَسِرَ هنالك﴾؛ أي: وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿الكافرون﴾: دينَهم ودُنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرَّد الخسارة في تلك الدار، بل لا بدَّ من خسران يشقي في العذاب الشديد والخلود فيه دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد اللّه ولطفه ومعونته لا بحولنا وقوتنا. فله الشكر والثناء.

* * *

# تفسير سورة السجدة(١)

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿٢﴾ يخبر تعالى عبادَه أنَّ هٰذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيلٌ﴾: صادر ﴿من الرحمٰنِ الرحيم﴾: الذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلِّها إنزال هٰذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير ما هو من أجلِّ نعمِهِ على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

---

(١) وهي سورة فصلت.

﴿٣﴾ ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان، فقال: ﴿فُصِّلَتْ آياته﴾؛ أي: فُصِّلَ كلُّ شيء من أنواعه على حِدَتِهِ، وهٰذا يستلزمُ البيان التامَّ والتفريق بين كلِّ شيء وتمييز الحقائق، ﴿قرآناً عربيًّا﴾؛ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياتُهُ وجُعِلَ عربيًّا. ﴿لقوم يَعْلَمونَ﴾؛ أي: لأجل أن يتبيَّنَ لهم معناه كما يتبيَّن لفظه، ويتَّضِحَ لهم الهدى من الضلال والغيُّ من الرشاد، وأمَّا الجاهلون الذين لا يزيدُهم الهدى إلَّا ضلالاً ولا البيانُ إلا عمىً؛ فهٰؤلاء لم يَسُقِ الكلامَ لأجلهم، و﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذِرْهم لا يؤمنون﴾.

﴿٤﴾ ﴿بشيراً ونذيراً﴾؛ أي: بشيراً بالثواب العاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلَهما، وذكر الأسبابَ والأوصاف التي تحصل بها البشارةُ والنذارةُ، وهٰذه الأوصاف للكتاب مما يوجب أن يُتَلَقَّى بالقَبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فهم لا يسمعون﴾: له سماع قبول وإجابةٍ، وإن كانوا قد سمِعوه سماعاً تقوُم عليهم به الحجَّة الشرعيَّة.

﴿٥﴾ ﴿وقالوا﴾؛ أي: هٰؤلاء المعرضون عنه مبيِّنين عدم انتفاعهم به بسدِّ الأبواب الموصلة إليه: ﴿قلوبُنا في أكِنَّةٍ﴾؛ أي: أغطية مغشَّاة، ﴿مما تَدْعونا إليه وفي آذاننا وقرٌ﴾؛ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿ومن بيننا وبينِك حجابٌ﴾: فلا نراك؛ القصدُ من ذٰلك أنَّهم أظهروا الإعراض عنه من كلِّ وجه، وأظهروا بُغْضَه والرِّضا بما هم عليه، ولهٰذا قالوا: ﴿فاعْمَلْ إنَّنا عاملون﴾؛ أي: كما رضيت بالعمل بدينك؛ فإنَّنا راضون كلَّ الرضا بالعمل في ديننا، وهٰذا من أعظم الخذلان؛ حيث رضوا بالضَّلال عن الهدى، واستبدلوا الكفرَ بالإيمان، وباعوا الآخرةَ بالدنيا.

﴿٦ ـ ٧﴾ ﴿قل﴾: لهم يا أيُّها النبيُّ: ﴿إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم يوحى إليَّ﴾؛ أي: هٰذه صفتي ووظيفتي: أني بشرٌ مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجِلون به، وإنَّما فضَّلني الله عليكم وميَّزني وخصَّني بالوحي الذي أوحاه إليَّ وأمرني باتِّباعه ودعوتِكم إليه. ﴿فاستَقيموا إليه﴾؛ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى بتصديقِ الخبر الذي أخبر به واتِّباع الأمر واجتناب النهي، هٰذا حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذٰلك، وفي قوله: ﴿إليه﴾: تنبيهٌ على الإخلاص، وأنَّ العامل ينبغي له أن يَجْعَلَ مقصودَه وغايتَه التي يعمل لأجلها الوصولَ إلى الله وإلى دار كرامتِهِ؛ فبذٰلك يكون عملُه خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواتِهِ يكون عملُه باطلاً.

ولمَّا كان العبدُ ولو حَرَصَ على الاستقامةِ لا بدَّ أن يحصلَ منه خللٌ بتقصير بمأمور أو ارتكاب منهيٍّ؛ أمره بدواء ذٰلك بالاستغفار المتضمِّن للتوبة، فقال: ﴿واستغفِروه﴾، ثم توعَّد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وويلٌ للمشركينَ. الذين لا يُؤتونَ الزَّكاةَ﴾؛ أي: الذين عَبَدوا من دونِهِ مَنْ لا يملك نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ودسُّوا⁽¹⁾ أنفسهم فلم يزكُّوها بتوحيد ربِّهم والإخلاص له، ولم يُصَلُّوا ولا زكَّوْا؛ فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاةِ، ولا نفع للخلق بالزَّكاة وغيرها. ﴿وهم بالآخرةِ هم كافرونَ﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار؛ فلذٰلك لما زال الخوفُ من قلوبهم؛ أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرُّهم في الآخرة.

﴿٨﴾ ولما ذَكَرَ الكافرين؛ ذَكَرَ المؤمنين ووَصْفَهم وجزاءهم، فقال: ﴿إن الذين آمنوا﴾: بهٰذا الكتاب وما اشتمل عليه ممَّا دعا إليه من الإيمان وصدَّقوا إيمانَهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص والمتابعة، ﴿لهم أجرٌ﴾؛ أي: عظيم ﴿غيرُ ممنونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع ولا نافذٍ، بل هو مستمرٌّ مدى الأوقات، متزايدٌ على الساعات، مشتملٌ على جميع اللذَّات والمشتَهيات.

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٩ ـ ١٠﴾ ينكرُ تعالى ويَعَجَب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً، يُشْرِكونهم معه، ويبذُلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوُّونهم بالربِّ العظيم الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين؛ بأن جعل فيها رواسيَ من فوقها تُرْسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار؛ فكمَّل خلقها ودحاها وأخرج أقواتها وتوابعَ ذٰلك ﴿في أربعةِ أيام سواءً للسائلين﴾: عن ذٰلك؛ فلا ينبِّئك مثلُ خبير؛ فهٰذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

---

(١) في (ب): «ودنَّسوا».

﴿١١﴾ ﴿ثم﴾: بعد أن خَلَقَ الأرض ﴿استوى﴾؛ أي: قصد ﴿إلى﴾: خلق ﴿السماء وهي دخانٌ﴾: قد ثار على وجه الماء، ﴿فقال لها﴾: ولمَّا كان هٰذا التخصيصُ يوهِمُ الاختصاص؛ عَطَفَ عليه بقوله: ﴿وللأرض ائتِيا طوعاً أو كَرْهاً﴾؛ أي: انقادا لأمري طائعتين أو مُكْرَهَتَيْن؛ فلا بدَّ من نفوذه، ﴿قالتا أتَيْنا طائعينَ﴾؛ أي: ليس[1] لنا إرادةٌ تخالف إرادتك.

﴿١٢﴾ ﴿فقضاهنَّ سبعَ سمٰواتٍ في يومين﴾: فتمَّ خلقُ السماواتِ والأرض في ستة أيام؛ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أنَّ قدرةَ اللّه ومشيئتَه صالحةٌ لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولٰكن مع أنَّه قدير؛ فهو حكيمٌ رفيقٌ؛ فمن حكمته ورفقه أن جعل خَلْقَها في هٰذه المدة المقدرة. واعلم أنَّ ظاهر هٰذه الآية مع قوله تعالى في النازعات لما ذَكَرَ خَلْقَ السماواتِ؛ قال: ﴿والأرضَ بعد ذٰلك دحاها﴾: يَظْهَرُ منهما التعارضُ! مع أنَّ كتاب اللّه لا تعارض فيه ولا اختلاف! والجواب عن ذٰلك ما قاله كثير من السلف: أنَّ خلقَ الأرض وصورتَها متقدِّم على خلق السماواتِ كما هنا. ودَحْيُ الأرض بأن ﴿أخرجَ منها ماءها ومَرْعاها. والجبالَ أرساها﴾: متأخِّرٌ على[2] خلقِ السماوات؛ كما في سورة النازعات، ولهٰذا قال [فيها]: ﴿والأرضَ بعد ذٰلك دَحاها. أَخْرَجَ منها...﴾ إلى آخره، ولم يقلْ: والأرضَ بعد ذٰلك خَلَقَها. وقوله: ﴿وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرَها﴾؛ أي: الأمر والتدبير اللائقَ بها، التي اقتضتْه حكمةُ أحكم الحاكمين، ﴿وزيَّنَّا السماء الدُّنيا بمصابيحَ﴾: هي النجوم؛ يُستنار بها ويُهتدى، وتكون زينةً وجمالاً للسماء ظاهراً وجمالاً لها باطناً بجعلها رجوماً للشياطين؛ لئلاَّ يسترق السمعَ فيها. ﴿ذٰلك﴾: المذكور من الأرض وما فيها والسماء وما فيها ﴿تقديرُ العزيز العليم﴾: الذي عزَّتُه قَهَرَ بها الأشياء ودبَّرها وخَلَق بها المخلوقات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمُهُ بالمخلوقات والغائب والشاهد.

فترك المشركين الإخلاصَ لهٰذا الربِّ العظيم الواحد القهَّار، الذي انقادتِ المخلوقاتُ لأمره، ونفذَ فيها قدرُه من أعجب الأشياء، واتِّخاذهم له أنداداً يسوُّونهم به وهم ناقصون في أوصافهم وأفعالهم أعجب وأعجب، ولا دواء لهٰؤلاء إن استمرَّ إعراضُهم إلَّا العقوبات الدنيويَّة والأخرويَّة؛ فلهٰذا خوَّفهم بقوله:

---

(١) في (ب): «ليس».
(٢) في (ب): «عن».

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ أي: فإن أعرض هؤلاء المكذِّبون بعدما بُيِّنَ لهم من أوصافِ القرآن الحميدة ومن صفات الإله العظيم، ﴿فقل أنذرتُكم صاعقةً﴾؛ أي: عذاباً يستأصِلكم ويجتاحُكم، ﴿مثل صاعقة عادٍ وثمودَ﴾: القبيلتين المعروفتين؛ حيث اجتاحهم العذابُ، وحلَّ عليهم وَبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم؛ حيث ﴿جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم﴾؛ أي: يَتْبَع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتُهم جميعاً واحدة: ﴿أن لا تَعْبُدوا إلَّا الله﴾؛ أي: يأمرون بالإخلاص لله، ويَنْهَوْنَهم عن الشرك به، فردُّوا رسالتهم وكذَّبوهم، و﴿قالوا لو شاء ربُّنا لأنزل ملائكةً﴾؛ أي: وأما أنتم؛ فبشرٌ مثلنا، ﴿فإنَّا بما أرسِلْتم به كافرون﴾: وهذه الشبهة لم تزل متوارثةً بين المكذِّبين بالأمم، وهي من أوهى الشُّبه؛ فإنَّه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل ملكاً، وإنَّما شرط الرسالة أن يأتي الرسول بما يدلُّ على صدقه، فليقدحوا إن استطاعوا بصدقِهم بقادح عقليٍّ أو شرعيٍّ، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

هذا تفصيلٌ لقصة هاتين الأمتين عادٍ وثمود:

﴿١٥﴾ فأمَّا عادٌ؛ فكانوا مع كفرهم بالله وجحدهم بآيات الله وكفرهم برسله مستكبرين ﴿في الأرض﴾ قاهرين لمن حولَهم من العباد ظالمين لهم قد أعجبتهم قُوَّتُهم، ﴿وقالوا مَنْ أشـدُّ منا قُوَّةً﴾: قال تعالى ردًّا عليهم بما يعرفه كلُّ أحدٍ: ﴿أولم يَرَوا أنَّ الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوةً﴾: فلولا خلقُه إيَّاهم؛ لم يوجدوا؛ فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً؛ لم يغترُّوا بقوَّتِهم.

﴿١٦﴾ فعاقبهم الله عقوبةً تناسب قوَّتهم التي اغترُّوا بها، ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً﴾؛ أي: ريحاً عظيمةً من قوتها وشدَّتها، لها صوتٌ مزعجٌ كالرعد

القاصف، فسخَّرها اللّه ﴿عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّام حسوماً فترى القومَ فيها صرعى كأنَّهم أعجازُ نخل خاويةٍ﴾، ﴿نحسات﴾: فدمَّرتهم وأهلكتهم فأصبحوا لا يُرى إلَّا مساكنُهم، وقال هنا: ﴿لنذيقَهم عذابَ الخِزْي في الحياة الدُّنيا﴾: الذي اختزوا به وافتُضِحوا بين الخليقة، ﴿ولَعذابُ الآخرة أخزى وهم لا يُنصَرونَ﴾؛ أي: لا يُمنعون من عذاب اللّه، ولا يَنْفعون[1] أنفسَهم.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وأما ثمودُ﴾: وهم القبيلة المعروفة، الذين سكنوا الحجرَ وحواليه، الذين أرسل اللّه إليهم صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيدِ ربِّهم وينهاهم عن الشرك، وآتاهم اللّه الناقةَ آيةً عظيمةً لها شِربٌ ولهم شِربُ يوم معلوم، يشربون لبنَها يوماً ويشربون من الماء يوماً، وليسوا ينفقون عليها، بل تأكل من أرض اللّه، ولهٰذا قال هنا: ﴿وأمَّا ثمودُ فهَدَيناهم﴾؛ أي: هداية بيان، وإنما نصَّ عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة قد قامتْ عليهم الحجَّةُ وحصل لهم البيانُ؛ لأن آية ثمودَ آيةٌ باهرةٌ قد رآها صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم، وكانت آيةً مبصرةً، فلهٰذا خصَّهم بزيادة البيان والهدى، ولٰكنَّهم من ظلمهم وشرِّهم استحبُّوا ﴿العمى﴾ الذي هو الكفر والضلال ﴿على الهدى﴾ الذي هو العلم والإيمان، فأخذهم ﴿العذاب﴾ بما كانوا يكسِبون، لا ظُلماً من اللّه لهم.

﴿١٨﴾ ﴿ونجَّينا الذين آمنوا وكانوا يتَّقونَ﴾؛ أي: نجَّى اللّه صالحاً عليه السلام ومن اتَّبعه من المؤمنين المتَّقين للشرك والمعاصي.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟

(١) في (ب): «ولا يمنعون».

فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿١٩﴾ يخبر تعالى عن أعدائه الذين بارزوه بالكفر به وبآياتِهِ وتكذيب رسلِهِ ومعاداتهم ومحاربتهم وحالِهم الشنيعةِ حين يُحشرونَ؛ أي: يجمعون ﴿إلى النار فهم يُوزَعونَ﴾؛ أي: يردُّ أولهم على آخرهم، ويتبعُ آخرُهم أوَّلهم، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، لا يستطيعون امتناعاً ولا يَنصرون أنفسَهم ولا هم يُنصرون.

﴿٢٠﴾ ﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾؛ أي: حتى إذا وردوا على النار وأرادوا الإنكارَ أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، ﴿شَهِدَ عليهم سمعُهم وأبصارُهم وجلودُهم﴾: عمومٌ بعد خصوص، ﴿بما كانوا يعملونَ﴾؛ أي: شهد عليهم كلُّ عضو من أعضائهم؛ فكل عضو يقول: أنا فعلتُ كذا وكذا يوم كذا وكذا، وخصَّ هٰذه الأعضاء الثلاثة؛ لأنَّ أكثر الذُّنوب إنما تقع بها أو بسببها.

﴿٢١﴾ فإذا شهدتْ عليهم، عاتبوها ﴿وقالوا لجلودِهِم﴾: هٰذا دليلٌ على أنَّ الشهادة تقع من كلِّ عضو كما ذكرنا، ﴿لم شهِدتُم علينا﴾: ونحن ندافعُ عنكنَّ؟ ﴿قالوا أنطَقَنا اللهُ الذي أنطق كلَّ شيءٍ﴾: فليس في إمكاننا الامتناعُ عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يَستعصي أحد عن مشيئتِهِ[1]، ﴿وهو خَلَقَكم أولَ مرةٍ﴾: فكما خلقكم بذواتكم وأجسامِكم؛ خلق أيضاً صفاتِكم، ومن ذٰلك الإنطاق. ﴿وإليه تُرْجَعون﴾: في الآخرة، فيجزيكم بما عملتُم. ويُحتمل أنَّ المراد بذٰلك الاستدلال على البعثِ بالخَلْقِ الأول كما هو طريقة القرآن.

﴿٢٢﴾ ﴿وما كنتُم تستَتِرونَ أن يشهدَ عليكم سمعُكم ولا أبصارُكم ولا جلودُكم﴾؛ أي: وما كنتُم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم ولا تحاذِرون من ذٰلك. ﴿ولٰكن ظننتُم﴾: بإقدامِكم على المعاصي ﴿أنَّ الله لا يعلمُ كثيراً مما تعمَلونَ﴾: فلذٰلك صَدَرَ منكم ما صَدَرَ.

﴿٢٣﴾ وهٰذا الظنُّ صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهٰذا قال: ﴿وذٰلكم ظنُّكم الذي ظَنَنتُم بربِّكم﴾: الظنَّ السيِّءَ؛ حيث ظننتُم به ما لا يليقُ بجلاله، ﴿أرداكم﴾؛ أي: أهلككم، ﴿فأصبحتُم من الخاسرين﴾: لأنفسهم وأهليهم وأديانهم؛ بسبب الأعمال التي أوجَبَها لكم ظنُّكم القبيح بربِّكم. فحقَّتْ عليكم كلمةُ العقاب[2]

---

(١) في (ب): «لا يستعصي عن مشيئته أحد».

(٢) في (ب): «العذاب».

والشقاءِ، ووجب عليكم الخلودُ الدائم في العذاب، الذي لا يُفَتَّر عنهم ساعة.

﴿٢٤﴾ ﴿فإن يَصْبِروا فالنارُ مثوىً لهم﴾: فلا جَلَدَ عليها ولا صبرَ، وكلُّ حالة قُدِّرَ إمكانُ الصبر عليها؛ فالنار لا يمكن الصبرُ عليها، وكيف الصبرُ على نار قد اشتدَّ حرُّها وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفاً وعظم غليانُ حميمها وزاد نَتَنُ صديدها وتضاعف بردُ زمهريرِها، وعظُمَتْ سلاسِلُها وأغلالها، وكَبُرَتْ مقامِعها، وغَلُظَ خُزَّانها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم، وختام ذٰلك سَخَطُ الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿اخسؤوا فيها ولا تُكَلِّمونِ﴾. ﴿وإن يَسْتَعْتِبوا﴾؛ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتبُ، فيرجعوا إلى الدنيا؛ ليستأنفوا العمل، ﴿فما هم من المُعْتَبين﴾: لأنَّه ذهب وقته، وعُمِّروا ما يُعَمَّر فيه من تذكَّر، وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم، مع أنَّ استعتابهم كذبٌ منهم، فلو رُدُّوا؛ لَعادوا لما نُهوا عنه وإنَّهم لَكاذبون.

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٥﴾ أي: ﴿وقيَّضْنا﴾: لهٰؤلاء الظالمين الجاحدين للحقِّ ﴿قرناءَ﴾: من الشياطين؛ كما قال تعالى: ﴿ألم تَرَ أنَّا أرسَلْنا الشياطينَ على الكافرين تَؤُزُّهم أزًّا﴾؛ أي: تزعِجُهم إلى المعاصي، وتحثُّهم عليها، بسبب ما زيّنوا ﴿لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾: فالدنيا زخرفوها بأعينهم ودَعَوْهم إلى لذاتها وشهواتها المحرَّمة، حتى افْتَتَنوا فأقدَموا على معاصي اللّه وسَلَكوا ما شاؤوا من محاربة اللّه ورسوله، والآخرة بَعَّدوها عليهم وأنسَوْهم ذِكْرَها، وربما أوقعوا عليهم الشُّبه بعدم وقوعها، فترحَّلَ خوفُها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي. وهٰذا التسليطُ والتقييضُ من اللّه للمكذِّبين الشياطين بسبب إعراضِهم عن ذِكْرِ اللّه وآياته وجحودِهم الحقَّ؛ كما قال تعالى: ﴿ومَنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحمٰن نُقَيِّضْ له شيطاناً فهو له قرينٌ. وإنَّهم لَيَصُدُّونَهم عن السبيل ويَحْسَبونَ أنَّهم مهتدونَ﴾. ﴿وحقَّ عليهم القولُ﴾؛ أي: وجب عليهم ونزل القضاءُ والقدرُ بعذابهم ﴿في﴾ جملة ﴿أمم قد خَلَتْ من قبلِهم من الجنِّ والإنس إنَّهم كانوا خاسرين﴾: لأديانهم وآخرتهم، ومن خَسِرَ؛ فلا بدَّ أن يَذِلَّ ويشقى ويعذَّب.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذٰلك، فقال: ﴿وقال الذين كَفَروا لا تَسْمَعوا لهٰذا القرآن﴾؛ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإيَّاكم أن تلتفتوا أو تُصْغوا إليه وإلى مَنْ جاء به؛ فإن اتَّفق أنكم سمعتموه أو سمعتُم الدعوة إلى أحكامه، فالغَوْا فيه؛ أي: تكلَّموا بالكلام الذي لا فائدةَ فيه، بل فيه المضرَّة، ولا تمكِّنوا مع قدرتكم أحداً يملكُ عليكم الكلام به وتلاوةَ ألفاظه ومعانيه، هٰذا لسانُ حالهم ولسانُ مقالهم في الإعراض عن هٰذا القرآن. ﴿لعلَّكم﴾: إن فعلتُم ذٰلك ﴿تغلِبونَ﴾: وهٰذا شهادةٌ من الأعداء، وأوضحُ الحقِّ ما شهدت به الأعداءُ؛ فإنَّهم لم يحكموا بغلبتهم لِمَنْ جاء بالحقِّ إلَّا في حال الإعراض عنه والتواصي بذٰلك، ومفهومُ كلامِهم أنَّهم إنْ لم يَلْغَوا فيه، بل استمعوا إليه وألقوا أذهانَهم؛ أنَّهم لا يغلبونَ؛ فإنَّ الحقَّ غالبٌ غير مغلوب، يعرِفُ هٰذا أصحابُ الحقِّ وأعداؤه.

﴿٢٧﴾ ولمَّا كان هٰذا ظلماً منهم وعناداً؛ لم يبقَ فيهم مطمعٌ للهداية، فلم يبقَ إلَّا عذابُهم ونَكالُهم، ولهٰذا قال: ﴿فَلَنُذيقَنَّ الذين كَفَروا عذاباً شديداً ولَنَجْزِيَنَّهم أسوأ الذي كانوا يعمَلون﴾: وهو الكفر والمعاصي؛ فإنَّها أسوأ ما كانوا يعملون؛ لكونهم يعملون المعاصي وغيرها؛ فالجزاء بالعقوبة إنَّما هو على عمل الشرك[1]، ولا يظلمُ ربُّك أحداً.

﴿٢٨﴾ ﴿ذٰلك جزاءُ أعداءِ الله﴾: الذين حاربوه وحاربوا أولياءه؛ بالكفر والتكذيب والمجادلة والمجالدةِ. ﴿[النار] لهم فيها دارُ الخلدِ﴾؛ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتَّر عنهم العذابُ ساعةً ولا هم يُنصرون، وذٰلك ﴿جزاءً بما كانوا بآياتِنا يجحَدونَ﴾؛ فإنَّها آياتٌ واضحةٌ وأدلةٌ قاطعةٌ مفيدةٌ لليقين، فأعظم الظُّلم وأكبر العناد جَحْدُها والكفر بها.

﴿٢٩﴾ ﴿وقال الذين كفروا﴾؛ أي: الأتباع منهم؛ بدليل ما بعدَه على وجه

---

(١) في (ب): «الشر».

الحنق على مَنْ أضلَّهم: ﴿ربَّنا أرِنا اللَّذَين أضلاَّنا من الجنِّ والإنس﴾؛ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضَّلال والعذاب من شياطين الجنِّ وشياطين الإنس الدعاة إلى جهنَّم، ﴿نجعلْهما تحتَ أقدامِنا ليكونا من الأسفلينَ﴾؛ أي: الأذلِّين المهانين؛ كما أضلُّونا وفتنونا وصاروا سبباً لنزولنا؛ ففي هٰذا بيانُ حنقِ بعضهم على بعض، وتبرِّي بعضهم من بعض.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى عن أوليائِهِ، وفي ضمن ذٰلك تنشيطُهم والحثُّ على الاقتداء بهم، فقال: ﴿إنَّ الذين قالوا ربُّنا الله ثم اسْتَقاموا﴾؛ أي: اعترفوا ونطقوا ورَضُوا بربوبيَّة الله تعالى واستَسْلَموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم علماً وعملاً؛ فلهم البُشرى في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرة. ﴿تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ﴾: الكرام؛ أي: يتكرَّر نزولهم عليهم مبشِّرين لهم عند الاحتضار ﴿أن لا تخافوا﴾: على ما يستقبلُ من أمركم، ﴿ولا تحزَنوا﴾: على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل. ﴿وأبشِروا بالجنَّة التي كنتُم توعدون﴾: فإنَّها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً.

﴿٣١﴾ ويقولون لهم أيضاً مثبِّتين لهم ومبشِّرين: ﴿نحنُ أولياؤكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرةِ﴾: يحثُّونهم في الدنيا على الخيرِ ويُزَيِّنونه لهم، ويرهِّبونهم عن الشرِّ ويقبِّحونه في قلوبهم، ويَدْعون الله لهم، ويثبِّتونهم عند المصائبِ والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشدَّته والقبر وظلمته وفي القيامة وأهوالِها، وعلى الصراط وفي الجنَّة؛ يهنِّئونهم بكرامة ربِّهم، ويدخُلون عليهم من كلِّ باب، سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعم عُقبى الدار، ويقولون لهم أيضاً: ﴿ولكم فيها﴾؛ أي: في الجنة، ﴿ما تشتهي أنفسُكم﴾: قد أُعِدَّ وهُيِّئ، ﴿ولكم فيها ما تَدَّعون﴾؛ أي: تطلبون من كلِّ ما تتعلَّق به إرادتُكم وتطلُبونه، من أنواع اللَّذَّات والمشتهيات، مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطرَ على قلب بشر.

﴿٣٢﴾ ﴿نزلاً من غفورٍ رحيم﴾؛ أي: هٰذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم نُزُلٌ وضيافةٌ من غفورٍ غفر لكم السيئات، رحيم حيث وفَّقكم لفعل الحسنات ثم قبِلَها

منكم؛ فبمغفِرَتِهِ أزال عنكم المحذورَ، وبرحمتِهِ أنالكم المطلوب.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٣﴾ هٰذا استفهامٌ بمعنى النفي المتقرِّر؛ أي: لا أحد ﴿أحسنُ قولاً﴾؛ أي: كلاماً وطريقةً وحالةً ﴿ممَّن دعا إلى اللّه﴾: بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرِضين، ومجادلةِ المبطِلين؛ بالأمر بعبادة اللّه بجميع أنواعها، والحثِّ عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى اللّه عنه، وتقبيحِهِ بكلِّ طريق يوجب تركَه، خصوصاً من هٰذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائِهِ بالتي هي أحسن، والنهي عما يضادُّه من الكفرِ والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. **ومن** الدعوة إلى اللّه تحبيبُهُ إلى عبادِهِ؛ بذِكْر تفاصيل نِعَمِهِ وسعةِ جودِهِ وكمال رحمتِهِ وذكرِ أوصاف كمالِهِ ونعوت جلاله.

**ومن الدعوة** إلى اللّه الترغيبُ في اقتباس العلم والهدى من كتاب اللّه وسنَّة رسوله، والحثُّ على ذٰلك بكلِّ طريق موصل إليه. **ومن ذٰلك** الحثُّ على مكارم الأخلاق، والإحسانُ إلى عموم الخلق، ومقابلةُ المسيء بالإحسان، والأمرُ بصلة الأرحام وبرِّ الوالدين. **ومن ذٰلك** الوعظُ لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب بما يناسبُ ذٰلك الحال، إلى غير ذٰلك ممَّا لا تنحصر أفرادُه بما يشمله الدعوة إلى الخير كله، والترهيبُ من جميع الشرِّ.

ثم قال تعالى: ﴿وعمل صالحاً﴾؛ أي: مع دعوته الخلق إلى اللّه بادَرَ هو بنفسِهِ إلى امتثال أمرِ اللّه بالعمل الصالح الذي يُرضي ربَّه، ﴿وقال إنَّني من المسلمين﴾؛ أي: المنقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهٰذه المرتبةُ تمامها للصدِّيقين الذين عملوا على تكميل أنفسِهم وتكميل غيرِهم وحصلت لهم الوراثةُ التامَّةُ من الرسل؛ كما أنَّ من أشرِّ الناس قولاً من كان من دعاة الضَّلال السالكين لسُبُله، وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعتْ إحداهما إلى أعلىٰ علِّيين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين، مراتبُ لا يعلمُها إلَّا اللّه، وكلها معمورةٌ بالخلق، ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا، وما ربُّك بغافل عما يعملون.

﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يقول تعالى: ﴿ولا تَسْتَوي الحسنةُ ولا السيئةُ﴾؛ أي: لا يستوي فعلُ

الحسنات والطاعاتِ لأجل رضا الله تعالى ولا فعل السيئات والمعاصي التي تُسْخِطُه ولا تُرضيه، ولا يستوي الإحسانُ إلى الخلق ولا الإساءة إليهم لا في ذاتها ولا في وصفها ولا في جزائها. ﴿هل جزاءُ الإحسان إلَّا الإحسانُ﴾. ثم أمر بإحسان خاصٍّ، له موقعٌ كبيرٌ، وهو الإحسان إلى مَنْ أساء إليك، فقال: ﴿ادفعْ بالتي هي أحسنُ﴾؛ أي: فإذا أساء إليك مسيءٌ من الخلق، خصوصاً من له حقٌّ كبيرٌ عليك؛ كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءةً بالقول أو بالفعل؛ فقابِلْه بالإحسان إليه؛ فإنْ قَطَعَكَ؛ فصِلْه، وإنْ ظلمكَ؛ فاعفُ عنه، وإن تكلَّم فيك غائباً أو حاضراً؛ فلا تقابِلْه، بل اعفُ عنه وعامِلْه بالقول الليِّن، وإن هَجَرَكَ وترك خطابك؛ فطيِّبْ له الكلام وابذلْ له السلام؛ فإذا قابلتَ الإساءة بالإحسان؛ حصل فائدةٌ عظيمةٌ. ﴿فإذا الذي بينَك وبينَه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميمٌ﴾؛ أي: كأنه قريبٌ شفيقٌ.

﴿٣٥﴾ ﴿وما يُلَقَّاها﴾؛ أي: وما يوفَّق لهٰذه الخصلة الحميدة ﴿إلَّا الذين﴾ صَبَّرُوا نفوسَهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبُّه الله؛ فإنَّ النفوس مجبولةٌ على مقابلة المسيء بإساءتِهِ، وعدم العفو عنه؛ فكيف بالإحسان؛ فإذا صبَّر الإنسان نفسَه وامتثل أمر ربِّه وعرف جزيلَ الثواب وعلمَ أنَّ مقابلته للمسيء بجنس عمله لا يفيده شيئاً ولا يزيدُ العداوة إلَّا شدة، وأنَّ إحسانه إليه ليس بواضع قدرَه، بل مَنْ تواضَعَ لله رَفَعَه؛ هان عليه الأمرُ وفعل ذٰلك متلذِّذاً مستحلياً له. ﴿وما يُلَقَّاها إلَّا ذو حظٍّ عظيمٍ﴾: لكونها من خصال خواصِّ الخلق، التي ينال بها العبد الرفعةَ في الدُّنيا والآخرة، التي هي من أكبرِ خصال مكارم الأخلاق.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى ما يُقابَلُ به العدوُّ من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان؛ ذكر ما يُدْفَعُ به العدوُّ الجنيُّ، وهو الاستعاذةُ بالله والاحتماء من شرِّه، فقال: ﴿وإمَّا ينزغَنَّك من الشيطانِ نزغٌ﴾؛ أي: أي وقت من الأوقات أحسستَ بشيءٍ من نَزَغات الشيطانِ؛ أي: من وساوسه وتزيينه للشرِّ وتكسيله عن الخير

وإصابة ببعض الذنوب وإطاعة له ببعض ما يأمر به، ﴿فاستَعِذْ بالله﴾؛ أي: اسأله مفتقراً إليه أن يعيذَكَ ويعصِمَك منه. ﴿إنَّه هو السميع العليم﴾: فإنَّه يسمعُ قولك وتضرُّعك، ويعلمُ حالك واضطرارك إلى عصمتِهِ وحمايتِهِ.

﴿٣٧﴾ ثم ذكر تعالى أن ﴿من آياتِهِ﴾: الدالَّة على كمال قدرته ونفوذِ مشيئتِهِ وسعةِ سلطانِهِ ورحمتِهِ بعباده وأنَّه الله وحده لا شريك له، ﴿الليلُ والنهارُ﴾: هٰذا بمنفعة ضيائِهِ وتصرُّف العباد فيه، وهٰذا بمنفعة ظُلَمِهِ وسكون الخلقِ فيه، ﴿والشمسُ والقمرُ﴾: اللذان لا تستقيم معايِشُ العباد ولا أبدانُهم ولا أبدانُ حيواناتهم إلَّا بهما، وبهما من المصالح ما لا يُحصى عَدَدُه. ﴿لا تسجُدوا للشمس ولا للقمرِ﴾: فإنَّهما مدبَّران مسخَّران مخلوقان، ﴿واسجُدوا لله الذي خَلَقَهُنَّ﴾؛ أي اعبدوه وحدَه؛ لأنَّه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كَبُر جرمه وكثرت مصالحه فإنَّ ذٰلك ليس منه، وإنَّما هو من خالقه تبارك وتعالى ﴿إن كنتُم إيَّاه تعبُدون﴾: فخصُّوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿٣٨﴾ ﴿فإن استكْبَروا﴾: عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها؛ فإنَّهم لن يضرُّوا الله شيئاً، والله غنيٌّ عنهم، وله عبادٌ مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرونَ، ولهٰذا قال: ﴿فالذين عند ربِّكَ﴾؛ يعني: الملائكة المقرَّبين، ﴿يسبِّحون له بالليل والنهارِ وهم لا يسأمونَ﴾؛ أي: لا يملُّون من عبادته؛ لقوَّتهم وشدَّة الداعي القويِّ منهم إلى ذٰلك.

﴿٣٩﴾ ﴿ومن آياتِهِ﴾: الدالَّة على كمال قدرته وانفراده بالمُلك والتَّدبير والوحدانيَّة، ﴿أنَّك ترى الأرضَ خاشعةً﴾؛ [أي]: لا نباتَ فيها، ﴿فإذا أنزلْنا عليها الماءَ﴾؛ أي: المطر، ﴿اهتزَّتْ﴾؛ أي: تحرَّكت بالنبات، ﴿وَرَبَتْ﴾: ثم أنبتت من كلِّ زوج بهيج؛ فحيي بها العبادُ والبلادُ. ﴿إنَّ الذي أحياها﴾: بعد موتها وهمودها ﴿لَمُحيي الموتى﴾: من قبورهم إلى يوم بعثِهِم ونشورِهِم. ﴿إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: فكما لم تعجزْ قدرتُه على إحياءِ الأرض بعد موتِها لا تعجزُ عن إحياء الموتى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠﴾ الإلحادُ في آيات اللّه: الميلُ بها عن الصواب بأيِّ وجه كان: إمَّا بإنكارها وجحودِها وتكذيبِ مَنْ جاء بها، وإمَّا بتحريفِها وتصريفِها عن معناها الحقيقيِّ وإثباتِ معانٍ ما أرادها اللّه منها، فتوعَّد تعالى مَنْ ألحد فيها بأنَّه لا يخفى عليه، بل هو مطَّلع على ظاهره وباطنه، وسيجازيه على إلحادِهِ بما كان يعملُ، ولهٰذا قال: ﴿أفمن يُلقَى في النار﴾: مثل الملحدِ بآيات اللّه ﴿خيرٌ أم من يأتي آمناً يوم القيامةِ﴾: من عذاب اللّه، مستحقًّا لثوابه؟ من المعلوم أنَّ هٰذا خيرٌ.

لمَّا تبيَّن الحقُّ من الباطل والطريق المنجي من عذابِهِ من الطريق المهلِكِ؛ قال: ﴿اعملوا ما شِئتُم﴾: إن شئتُم؛ فاسلكوا طريق الرُّشدِ الموصلة إلى رضا ربِّكم وجنته، وإن شئتُم؛ فاسْلُكوا طريق الغيِّ المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاءِ. ﴿إنَّه بما تعملون بصيرٌ﴾: يجازيكم بحسب أحوالِكم وأعمالكم؛ كقوله تعالى: ﴿وقُل الحقُّ من ربِّكم فمَن شاء فليؤمِن ومَن شاء فلْيَكْفُر﴾.

﴿٤١ ـ ٤٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿إنَّ الذين كفروا بالذِّكْر﴾؛ أي: يجحدون القرآن الكريم، المذكِّر للعباد جميع مصالحهم الدينيَّة والدنيويَّة والأخرويَّة، المعلي لِقَدْر من اتَّبعه، ﴿لمَّا جاءهم﴾: نعمة من ربِّهم على يد أفضل الخلقِ وأكملهم. ﴿و﴾ الحال ﴿إنَّه﴾: كتابٌ جامعٌ لأوصاف الكمال، ﴿عزيزٌ﴾؛ أي: منيعٌ مِن كلِّ مَن أراده بتحريف أو سوءٍ، ولهٰذا قال: ﴿لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفِهِ﴾؛ أي: لا يَقْرَبُهُ شيطانٌ من شياطين الإنس والجنِّ لا بسرقةٍ ولا بإدخال ما ليس منه به ولا بزيادةٍ ولا نقص؛ فهو محفوظٌ في تنزيله، محفوظةٌ ألفاظهُ ومعانيه، قد تكفَّل مَنْ أنزلَه بحفظِهِ؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكر وإنَّا له لحافظونَ﴾. ﴿تنزيلٌ من حكيم﴾: في خلقِهِ وأمرِهِ، يضع كلَّ شيء موضِعه وينزلها منازِلَها ﴿حميدٍ﴾: على ما له من صفات الكمال ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال؛ فلهٰذا كان كتابُهُ مشتملاً على تمام الحكمة وعلى تحصيل المصالح والمنافع ودفع المفاسدِ والمضارِّ التي يُحْمَدُ عليها.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ﴿ما يُقالُ لك﴾: أيُّها الرسول من الأقوال الصادرةِ ممَّن كذَّبك وعاندك ﴿إلَّا ما قد قيل للرسل من قبلِكَ﴾؛ أي: من جنسها، بل ربَّما إنهم تكلَّموا بكلام واحدٍ؛ كتعجبِ جميع الأمم المكذِّبة للرُّسل من دعوتهم إلى الإخلاص للّه وعبادتِهِ وحدَه لا شريك له، وردِّهم هٰذا بكلِّ طريق يقدرون عليه، وقولهم: ما أنتم

إلا بشرٌ مثلنا، واقتراحُهم على رسلهم الآياتِ التي لا يلزمُهُم الإتيانُ بها. . . ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب؛ لما تشابهت قلوبهم في الكفر؛ تشابهتْ أقوالهم، وصَبَرَ الرسلُ عليهم السلام على أذاهم وتكذيبِهِم؛ فاصْبِرْ كما صبر مَنْ قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبةِ والإتيانِ بأسباب المغفرة، وحذَّرهم من الاستمرار على الغيِّ، فقال: ﴿إنَّ ربَّك لذو مغفرةٍ﴾؛ أي: عظيمة يمحو بها كلَّ ذنب لمن أقلع وتاب، ﴿وذو عقابٍ أليم﴾: لمن أصرَّ واستكبر.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه؛ حيث أنزل كتابَه عربيًّا على الرسول العربيِّ بلسانِ قومه ليبيِّن لهم، وهٰذا مما يوجب لهم زيادةَ الاعتناء به والتلقِّي له والتسليم، وأنَّه لو جعله قرآناً أعجميًّا بلغة غير العرب؛ لاعترض المكذِّبون، وقالوا: ﴿لولا فُصِّلَتْ آياتُه﴾؛ أي: هلاَّ بُيِّنت آياته ووُضِّحت وفُسِّرت، ﴿أأعجميٌّ وعربيٌّ﴾؛ أي: كيف يكون محمدٌ عربيًّا والكتابُ أعجميًّا؟! هٰذا لا يكونُ. فنفى الله تعالى كلَّ أمر يكون فيه شبهةٌ لأهلِ الباطل عن كتابِهِ، ووصَفَه بكلِّ وصفٍ يوجب لهم الانقيادَ، ولكنِ المؤمنون الموفَّقون انتفعوا به وارتفعوا، وغيرُهم بالعكس من أحوالِهِم، ولهٰذا قال: ﴿قل هو للذين آمنوا هُدىً وشفاءٌ﴾؛ أي: يهديهم لطريق الرشدِ والصراط المستقيم، ويعلِّمهم من العلوم النافعة ما به تحصُل الهداية التامَّةُ، وشفاءٌ لهم من الأسقام البدنيَّة والأسقام القلبيَّة؛ لأنَّه يزجر عن مساوىء الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النَّصوح التي تغسل الذُّنوب وتشفي القلب. ﴿والذين لا يؤمنونَ﴾: بالقرآن ﴿في آذانِهِم وقرٌ﴾؛ أي: صممٌ عن استماعه وإعراضٌ، ﴿وهو عليهم عمىً﴾؛ أي: لا يبصرون به رشداً، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلَّا ضلالاً؛ فإنَّهم إذا ردُّوا الحقَّ؛ ازدادوا عمىً إلى عماهم وغيًّا إلى غيِّهم. ﴿أولئك ينادَوْن من مكانٍ بعيدٍ﴾؛ أي: ينادون إلى الإيمان ويُدْعَوْن إليه فلا يستجيبون؛ بمنزلة الذي ينادَى وهو في مكان بعيدٍ، لا يسمع داعياً ولا يجيب منادياً. والمقصودُ أنَّ الذين لا يؤمنون بالقرآن لا ينتفعون بهُداه ولا يبصِرون بنورِهِ ولا يستفيدونَ منه خيراً؛ لأنَّهم سدُّوا على أنفسهم أبواب الهدى بإعراضهم وكفرِهم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٥﴾ يقول تعالى: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ﴾: كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناسُ ما صنعوا معك؛ اختلفوا فيه: فمنهم من آمنَ به واهتدى وانتفع، ومنهم من كذَّبه ولم ينتفِعْ به، وإنَّ الله تعالى لولا حِلْمُهُ وكلمتُهُ السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمّى لا يتقدَّم عليه ولا يتأخر؛ ﴿لَقُضِيَ بينهم﴾: بمجرَّد ما يتميَّز المؤمنون من الكافرين؛ بإهلاك الكافرين بالحال؛ لأنَّ سبب الهلاك قد وَجَبَ وحقَّ. ﴿وإنَّهم لَفي شكٍّ منه مريبٍ﴾؛ أي: قد بلغ بهم إلى الريبِ الذي يُقْلِقُهم؛ فلذٰلك كذَّبوه وجحدوه.

﴿٤٦﴾ ﴿مَن عَمِلَ صالحاً﴾: وهو العملُ الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾: نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة. ﴿ومن أساء فعليها﴾: ضررُه وعقابُه في الدُّنيا والآخرة، وفي هٰذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشرِّ، وانتفاعُ العاملين بأعمالهم الحسنةِ، وضررُهم بأعمالهم السيئةِ، وأنَّه لا تزرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى. ﴿وما ربُّك بظلام للعبيدِ﴾: فيحمِّلُ أحداً فوق سيئاتِهِ.

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٧ ـ ٤٨﴾ هٰذا إخبارٌ عن سعة علمهِ تعالى واختصاصِهِ بالعلم الذي لا يطَّلع عليه سواه، فقال: ﴿إليه يُرَدُّ علمُ الساعةِ﴾؛ أي: جميع الخلق يَرُدُّ(١) علمها إلى الله تعالى، ويقرُّون بالعجز عنه؛ الرسلُ والملائكةُ وغيرُهم. ﴿وما تَخْرُجُ من ثمراتٍ من أكمامها﴾؛ أي: وعائها الذي تخرُجُ منه، وهٰذا شاملٌ لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري؛ فلا تخرُجُ ثمرةُ شجرةٍ من الأشجار إلَّا وهو يعلمُها علماً تفصيليًّا. ﴿وما تحمِلُ من أنثى﴾: من بني آدم وغيرهم من أنواع

(١) في (ب): «تَرُدُّ».

الحيوانات إلَّا بعلمه، ﴿ولا تضعُ﴾ [أنثى حملَها] ﴿إلاّ بعلمِهِ﴾؛ فكيف سوَّى المشركون به تعالى مَنْ لا علم عنده ولا سمعَ ولا بصرَ؟ ﴿ويوم يناديهم﴾؛ أي: المشركين به يوم القيامةِ توبيخاً وإظهاراً لكذِبِهم، فيقول لهم: ﴿أين شركائي﴾: الذين زعمتُم أنَّهم شركائي، فعبدتُموهم وجادلتُم على ذٰلك وعاديتُم الرسل لأجلهم[1]؟ ﴿قالوا﴾: مقرِّين ببطلان إلٰهيتهم وشركتهم مع اللّه: ﴿آذنَّاكَ ما مِنَّا من شهيدٍ﴾؛ أي: أعلمناك يا ربَّنا واشهدْ علينا أنه ما منَّا أحدٌ يشهد بصحة إلٰهيَّتهم وشركتهم؛ فكلُّنا الآن [قد] رجعنا إلى بطلان عبادتها وتبرَّأنا منها، ولهٰذا قال: ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يَدْعونَ﴾: من دون اللّه؛ أي: ذهبت عقائدُهم وأعمالُهم التي أفنَوا فيها أعمارهم على عبادة غير اللّه، وظنُّوا أنها تفيدُهم، وتدفعُ عنهم العذاب، وتشفع لهم عند اللّهِ، فخاب سعيُهم، وانتقض ظنُّهم، ولم تُغْنِ عنهم شركاؤهم شيئاً. ﴿وظنُّوا﴾؛ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿ما لهم من مَحيصٍ﴾؛ أي: منقذٍ ينقذُهم ولا مغيثٍ ولا ملجأٍ. فهٰذه عاقبةُ من أشركَ باللّه غيرَه، يُبيِّنُها اللّهُ لعباده، ليحذروا الشركَ به.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٩﴾ هٰذا إخبارٌ عن طبيعة الإنسان من حيثُ هو، وعدم صبرِه وجَلَدِه، لا على الخير ولا على الشرِّ، إلَّا مَن نقله اللّه من هٰذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأمُ الإنسانُ من دعاءِ الخيرِ﴾؛ أي: لا يملُّ دائماً من دعاء اللّه في الغنى والمال والولدِ وغير ذٰلك من مطالب الدُّنيا، ولا يزال يعملُ على ذٰلك، ولا يقتنعُ بقليل ولا بكثيرٍ[2] منها؛ فلو حصل له من الدُّنيا ما حصل؛ لم يزل طالباً للزيادة. ﴿وإن مَسَّهُ الشرُّ﴾؛ أي: المكروه كالمرض والفقر وأنواع البلايا، ﴿فيؤوسٌ قنوطٌ﴾؛ أي: ييأس من رحمة اللّه تعالى، ويظنُّ أن هٰذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاكِ، ويتشوَّشُ من إتيان الأسبابِ على غير ما يحبُّ ويطلبُ؛ إلَّا الذين آمنوا[3]

(١) في (ب): «لأجلي».
(٢) في (ب): «كثير».
(٣) في (ب): «صبروا».

وعملوا الصالحات؛ فإنَّهم إذا أصابهم الخيرُ والنعمةُ والمحابُّ؛ شكروا اللّه تعالى، وخافوا أن تكونَ نعمُ اللّه عليهم استدراجاً وإمهالاً، وإن أصابتْهم مصيبةٌ في أنفسهم وأموالهم وأولادِهم؛ صبروا ورَجَوا فضل ربِّهم فلم ييأسوا.

﴿٥٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولئِنْ أذقْناه﴾؛ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دُعاء الخير وإن مسَّه الشرُّ فيؤوسٌ قنوطٌ ﴿رحمةً منَّا﴾؛ أي: بعد ذٰلك الشرِّ الذي أصابه؛ بأنْ عافاه اللّه من مرضِهِ أو أغناه من فقرِهِ؛ فإنَّه لا يشكر اللّه تعالى؛ بل يبغي ويطغى ويقول: ﴿هٰذا لي﴾؛ أي: أتاني لأنّي له أهلٌ وأنا مستحقٌّ له، ﴿وما أظنُّ الساعةَ قائمةً﴾، وهٰذا إنكارٌ منه للبعث، وكفرٌ للنعمة والرحمة التي أذاقها اللّه له، ﴿ولئن رُجِعْتُ إلى ربِّي إنَّ لي عنده للحُسْنى﴾؛ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأنِّي سأرجع إلى ربي؛ إنَّ لي عنده للحسنى؛ فكما حصلت لي النعمة في الدُّنيا؛ فإنَّها ستحصُلُ لي في الآخرة! وهٰذا من أعظم الجرأة والقول على اللّه بلا علم؛ فلهٰذا توعَّده [اللّهُ] بقولِهِ: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الذين كفروا بما عَمِلوا ولَنُذيقَنَّهم من عذابٍ غليظٍ﴾؛ أي: شديد جدًّا.

﴿٥١﴾ ﴿وإذا أنعَمْنا على الإنسان﴾: بصحَّة أو رزقٍ أو غيرهما ﴿أعرضَ﴾: عن ربِّه وعن شكرِهِ، ﴿ونأى﴾؛ أي: ترفَّع ﴿بجانبِهِ﴾: عجباً وتكبراً، ﴿وإن مسَّه الشرُّ﴾: أي: المرضُ أو الفقرُ أو غيرُهما ﴿فذو دعاءٍ عريضٍ﴾؛ أي: كثير جدًّا؛ لعدم صبره؛ فلا صبر في الضرَّاء ولا شكر في الرَّخاء؛ إلَّا مَنْ هداه اللّه ومنَّ عليه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٢﴾ أي: ﴿قل﴾: لهٰؤلاء المكذِّبين بالقرآن المسارعين إلى الكُفران: ﴿أرأيتُم إن كانَ﴾: هٰذا القرآنُ ﴿من عندِ اللّه﴾: من غير شكٍّ ولا ارتياب، ﴿ثم كفرتُم به مَنْ أضلُّ ممَّنْ هو في شقاقٍ بعيدٍ﴾؛ أي: معاندة للّه ولرسوله؛ لأنَّه تبيَّن لكم الحقُّ والصوابُ، ثم عدلتُم عنه لا إلى حقٍّ، بل إلى باطل وجهل؛ فإذاً تكونون أضلَّ الناس وأظلَمَهم.

﴿٥٣﴾ فإنْ قلتُم أو شككتُم بصحَّته وحقيقتِهِ؛ فسيقيم اللّه لكم، ويريكم من آياتِهِ في الآفاق؛ كالآياتِ التي في السماء وفي الأرض وما يُحْدِثُه اللّه تعالى من الحوادثِ العظيمة الدالَّة للمستبصر على الحقِّ. ﴿وفي أنفسِهِم﴾: مما اشتملتْ عليه أبدانُهم من بديع آياتِ اللّه وعجائبِ صنعتِهِ وباهر قدرتِهِ، وفي حلول العقوبات والمَثُلات في المكذِّبين ونصر المؤمنين، ﴿حتى يتبيَّن لهم﴾: من تلك الآياتِ بياناً لا يقبل الشكَّ، ﴿أنَّه الحقُّ﴾: وما اشتمل عليه حقٌّ، وقد فعل تعالى؛ فإنَّه أرى عباده من الآيات ما به تبيَّن [لهم] أنه الحقُّ، ولٰكن اللّه هو الموفِّق للإيمان مَنْ شاء، والخاذل لمن يشاء. ﴿أو لم يكفِ بربِّك أنَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾؛ أي: أولم يكفِهم ـ على أنَّ القرآن حقٌّ، ومن جاء به صادقٌ ـ شهادةُ اللّه تعالى؛ فإنَّه قد شهد له بالصدق، وهو أصدقُ الشاهدين، وأيَّده ونصره نصراً متضمِّناً لشهادته القوليَّة عند من شكَّ فيها.

﴿٥٤﴾ ﴿ألا إنَّهم في مِرْيَةٍ من لقاءِ ربِّهم﴾؛ أي: في شكٍّ من البعث والقيامةِ، وليس عندَهم دارٌ سوى الدار الدُّنيا؛ فلذٰلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنَّه بكلِّ شيءٍ محيطٌ﴾: علماً وقدرةً وعزةً.

تم تفسير سورة السجدة بمنه تعالى.

* * *

# تفسير سورة الشورى

## مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟
مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ
﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ يخبر تعالى أنَّه أوحى هٰذا القرآن العظيم على النبيِّ الكريم كما أوحى إلى مَنْ قبلَه من الأنبياء والمرسلين؛ ففيه بيانُ فضلِهِ بإنزال الكتبِ وإرسال الرُّسل سابقاً ولاحقاً، وأنَّ محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وأنَّ طريقَته طريقةُ مَنْ قبلَه، وأحوالَه تناسِبُ أحوالَ مَن قبلَه من المرسلين، وما جاء به يشابِهُ ما جاؤوا به؛ لأنَّ الجميع حقٌّ وصدقٌ، وهو تنزيلُ من اتَّصف بالألوهيَّة والعزَّة العظيمة والحكمة البالغةِ، وأنَّ جميع العالم العلويِّ والسفليِّ مُلْكُه وتحت تدبيرِهِ القدريِّ والشرعيِّ، وأنَّه ﴿العليُّ﴾ بذاتِهِ وقدرِهِ وقهرِهِ. ﴿العظيم﴾: الذي من عظمتِهِ ﴿تكادُ السمٰواتُ يتفطَّرْنَ[1] من فوقِهِنَّ﴾: على عظمها وكونها جماداً، ﴿والملائكةُ﴾: الكرامُ المقرَّبون خاضعون لعظمتِهِ مستكينون لعزَّته مذعنون بربوبِيَّته، ﴿يسبِّحونَ بحمد ربِّهم﴾: ويعظِّمونه عن كل نقص، ويصِفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرونِ لِمَن في الأرض﴾: عما يصدُرُ منهم مما لا يليقُ بعظمة ربِّهم وكبريائِهِ، مع أنَّه تعالى ﴿الغفورُ الرحيمُ﴾: الذي لولا مغفرتُه ورحمتُه؛ لعاجَلَ الخلقَ بالعقوبةِ المستأصِلَةِ.

وفي وصفِهِ تعالى بهٰذه الأوصاف بعد أن ذَكَرَ أنَّه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً وإلى محمدٍ ـ صلى الله عليهم وسلم ـ خصوصاً إشارةٌ إلى أنَّ هٰذا القرآن الكريم فيه من الأدلةُ والبراهينُ والآياتُ الدالَّةُ على كمال الباري تعالى ووصفِهِ بهٰذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاءِ القلوب من معرفتِهِ ومحبتِهِ وتعظيمِهِ وإجلالِهِ وإكرامِهِ وصرف جميع أنواع العبوديَّة الظاهرة والباطنة له تعالى، وأنَّ من أكبر الظُّلم وأفحش القول اتِّخاذ أندادٍ من دونِهِ، ليس بيدِهِم نفعٌ ولا ضرٌّ[2]، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم.

﴿٦﴾ ولهٰذا عقَّبه بقوله: ﴿والذين اتَّخذوا من دونِهِ أولياءَ﴾: يتولَّوْنَهم بالعبادة والطاعة؛ كما يعبدون الله ويطيعونَه؛ فإنَّما اتَّخذوا الباطلَ، وليسوا بأولياءِ على الحقيقة. ﴿اللهُ حفيظٌ عليهم﴾: يحفظُ عليهم أعمالَهم فيجازيهم بخيرها وشرِّها، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾: فتسألُ عن أعمالهم، وإنَّما أنت مبلغٌ أديتَ وظيفتَك.

﴿٧﴾ ثم ذكر منَّته على رسوله وعلى الناس حيث أنزل اللهُ ﴿قرآناً عربيًّا﴾ بيِّنَ الألفاظِ والمعاني، ﴿لتنذرَ أمَّ القرى﴾: وهي مكةُ المكرمةُ، ﴿ومَنْ حولَها﴾: من قُرى العرب، ثم يسري هٰذا الإنذارُ إلى سائرِ الخَلْق، ﴿وتنذرَ﴾: الناس ﴿يوم

---

(١) في (ب): «تتفطر». (٢) في (ب): «ضرر».

الجَمْع﴾: الذي يجمعُ اللّه به الأوَّلين والآخرين، وتخبِرُهم أنَّه ﴿لا ريبَ فيه﴾، وأنَّ الخلق ينقسمون فيه فريقين: فريقًا ﴿في الجنة﴾: وهم الذين آمنوا باللّه وصدَّقوا المرسلين، وفريقًا ﴿في السعيرِ﴾: وهم أصنافُ الكفرة المكذِّبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هٰذا فلو شاءَ اللّهُ لَجَعَلَ الناس ﴿أمَّةً واحدةً﴾: على الهدى؛ لأنَّه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يُدْخِلَ في رحمتِهِ مَنْ شاء من خواصِّ خلقِهِ، وأمَّا الظالمون الذين لا يَصْلُحون لصالح؛ فإنَّهم محرومون من الرحمة؛ فما لهم من دون اللّه من وليٍّ يتولَّاهم فيحصِّلُ لهم المحبوب، ولا نصيرٍ يدفعُ عنهم المكروهَ.

﴿٩﴾ والذين اتَّخذوا من دونه أولياءَ يتولَّوْنهم بعبادتِهم إيَّاهم؛ فقد غلطوا أقبح غلط؛ ﴿فاللّه هو الوليُّ﴾ الذي يتولَّاه عبدُه بعبادته وطاعته والتقرُّب إليه بما أمكن من أنواع التقرُّبات، ويتولَّى عباده عموماً بتدبيره ونفوذِ القدر فيهم، ويتولَّى عباده المؤمنين خصوصاً بإخراجهم من الظُّلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم. ﴿وهو يُحيي الموتى وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾؛ أي: هو المتصرِّف بالإحياء والإماتة ونفوذِ المشيئة والقدرةِ؛ فهو الذي يستحقُّ أن يُعْبَدَ وحدَه لا شريك له.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ
﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ
لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيءٍ﴾: من أصول دينِكم وفروعِهِ مما لم تتَّفقوا عليه ﴿فحكمُهُ إلى اللّه﴾: يُرَدُّ إلى كتابِهِ وإلى سنَّة رسوله؛ فما حكما به؛ فهو الحقُّ، وما خالف ذٰلك؛ فباطلٌ. ﴿ذٰلكم اللّه ربِّي﴾؛ أي: فكما أنَّه تعالى الربُّ الخالق الرازق المدبِّر؛ فهو تعالى الحاكمُ بين عبادِهِ بشرعِهِ في جميع أمورهم. ومفهومُ الآية الكريمة أنَّ اتِّفاق الأمَّة حجَّةٌ قاطعةٌ؛ لأنَّ اللّه تعالى لم يأمُرْنا أن نَرُدَّ إليه إلَّا ما اخْتَلَفْنا فيه؛ فما اتَّفقنا عليه يكفي اتِّفاق الأمة عليه؛ لأنَّها معصومةٌ عن الخطأ، ولا بدَّ أن يكون اتِّفاقها موافقاً لما في كتاب اللّه وسنَّة رسوله. وقوله: ﴿عليه توكلتُ﴾؛ أي: اعتمدتُ بقلبي عليه في جَلْب المنافع ودَفْع المضارِّ، واثقاً

به تعالى في الإسعاف بذلك، ﴿وإليه أنيبُ﴾؛ أي: أتوجَّه بقلبي وبدني إليه وإلى طاعته وعبادتِهِ، وهٰذان الأصلان كثيراً ما يذكُرُهما اللّه في كتابِهِ؛ لأنَّهما يحصُلُ بمجموعهما كمال العبدِ، ويفوتُهُ الكمال بفَوْتِهِما أو فَوْتِ أحدِهما؛ كقوله تعالى: ﴿إيَّاكَ نعبدُ وإيَّاكَ نستعينُ﴾، وقوله: ﴿فاعبُدْه وتوكَّلْ عليه﴾.

﴿١١﴾ ﴿فاطرُ السمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: خالقُهما بقدرتِهِ ومشيئتِهِ وحكمتِهِ. ﴿جَعَلَ لكم من أنفسِكم أزواجاً﴾: لِتَسْكنوا إليها وتنتشرَ منكم الذُّرِّيَّة ويحصُلُ لكم من النفع ما يحصُل، ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾؛ أي: ومن جميع أصنافِها نوعين ذكراً وأنثى؛ لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهٰذا عدَّاها باللام الدالَّة على التعليل؛ أي: جعل ذٰلك لأجلكم ولأجل النِّعمة عليكم، ولهٰذا قال: ﴿يذرؤُكم فيه﴾؛ أي: يبثُّكم ويكثركم ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً. ﴿ليس كمثلِهِ شيءٌ﴾: أي: ليس يشبِهُه تعالى ولا يماثِلُه شيء من مخلوقاتِهِ لا في ذاته ولا في أسمائِهِ ولا في صفاتِهِ ولا في أفعالِهِ؛ لأنَّ أسماءه كلَّها حسنى، وصفاتِهِ صفاتُ[1] كمال وعظمة، وأفعالَه تعالى أوجد بها المخلوقاتِ العظيمةَ من غير مشارك؛ فليس كمثله شيءٌ؛ لانفرادِهِ وتوحُّده بالكمال من كلِّ وجه. ﴿وهو السميعُ﴾: لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنُّن الحاجات. ﴿البصير﴾: يرى دبيبَ النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصمَّاء، ويرى سَرَيانَ القوتِ في أعضاء الحيوانات الصغيرةِ جدًّا، وسريانَ الماء في الأغصان الدقيقة.

وهٰذه الآية ونحوها دليلٌ لمذهب أهل السنة والجماعة من إثبات الصفاتِ ونفي مماثلة المخلوقات، وفيها ردٌّ على المشبِّهة في قوله: ﴿ليس كمثلِهِ شيءٌ﴾، وعلى المعطِّلة في قوله: ﴿وهو السميعُ البصيرُ﴾.

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿له مقاليدُ السمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: له ملك السماواتِ والأرضِ، وبيدِهِ مفاتيحُ الرحمةِ والأرزاق والنِّعم الظاهرة والباطنة؛ فكلُّ الخلق مفتقرون إلى اللّه في جَلْب مصالحهم ودَفْع المضارِّ عنهم في كلِّ الأحوال، ليس بيد أحدٍ من الأمر شيء، واللّه تعالى هو المعطي المانع الضارُّ النافع، الذي ما بالعباد من نعمةٍ إلَّا منه، ولا يدفع الشرَّ إلَّا هو، وما يفتح اللّهُ للناس من رحمةٍ فلا ممسكَ لها وما يمسك فلا مرسلَ له من بعدِهِ، ولهٰذا قال هنا: ﴿يبسُطُ الرزقَ لِمَن

---

(١) في (ب): «صفة».

يشاءُ﴾؛ أي: يوسِّعه ويعطيه من أصناف الرزقِ ما شاء، ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيِّق على مَنْ يشاء حتى يكونَ بقدر حاجتِهِ، لا يزيدُ عنها، وكلُّ هٰذا تابعٌ لعلمه وحكمتِهِ؛ فلهٰذا قال: ﴿إنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾: فيعلم أحوالَ عبادِهِ، فيعطي كلاًّ ما يَليقُ بحكمتِهِ، وتقتضيه مشيئتُه.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٣﴾ هٰذه أكبرُ منَّةٍ أنعم اللّه بها على عباده أنْ شَرَعَ لهم من الدين خيرَ الأديان وأفضلَها وأزكاها وأطهرَها، دين الإسلام، الذي شَرَعَه اللّه للمصطَفَيْن المختارين من عباده، بل شَرَعَه اللّه لخيار الخيار وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين، المذكورون في هٰذه الآية، أعلىٰ الخلق درجة وأكملهم من كلِّ وجه؛ فالدين الذي شرعه اللّه لهم لا بدَّ أن يكون مناسباً لأحوالهم موافقاً لكمالهم، بل إنَّما كَمَّلَهم اللّه، واصطفاهم بسبب قيامهم به؛ فلولا الدين الإسلاميُّ؛ ما ارتفع أحدٌ من الخلق؛ فهو روح السعادة وقطبُ رحى الكمال، وهو ما تضمَّنه هٰذا الكتاب الكريم ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب. ولهٰذا قال: ﴿أنْ أقيموا الدِّين﴾؛ أي: أمركم أن تقيموا جميعَ شرائع الدِّين أصوله وفروعه؛ تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البرِّ والتَّقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان، ﴿ولا تتفرَّقوا فيه﴾؛ أي: ليحصل منكم الاتِّفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرِّقكم المسائل وتحزِّبكم أحزاباً، فتكونون شيعاً يعادي بعضُكم بعضاً مع اتِّفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه ما أمر به الشارعُ من الاجتماعات العامَّة؛ كاجتماع الحجِّ والأعياد والجُمَع والصَّلوات الخمس والجهاد وغير ذٰلك من العبادات التي لا تتمُّ ولا تَكْمُلُ إلَّا بالاجتماع لها وعدم التفرُّق. ﴿كَبُرَ على المشركين ما تَدْعوهم إليه﴾؛ أي: شقَّ عليهم غايةَ المشقَّة؛ حيث دعوتَهم إلى الإخلاص للّه وحدَه؛ كما قال عنهم: ﴿وإذا ذُكِرَ اللّهُ وحدَه اشمأزَّت قلوبُ الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكِرَ الذين من دونِهِ إذا هم يستبشرونَ﴾، وقولهم: ﴿أجَعَلَ الآلهةَ إلٰهاً واحداً إنَّ هٰذا لشيءٌ عُجابٌ﴾. ﴿اللّه يَجْتبي إليه مَن

يشاءُ﴾؛ أي: يختار من خليقتِهِ مَنْ يعلم أنَّه يَصْلُحُ للاجتباء لرسالتِهِ وولايتِهِ، ومنه أنِ اجْتَبى هٰذه الأمَّة وفضَّلها على سائر الأمم واختارَ لها أفضلَ الأديان وخيرَها. ﴿ويَهْدي إليه من ينيبُ﴾: هٰذا السبب الذي من العبد يتوصَّل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابتُه لربِّه، وانجذابُ دواعي قلبِهِ إليه، وكونُه قاصداً وجهه؛ فحسنُ مقصدِ العبد مع اجتهادِهِ في طلب الهدايةِ من أسباب التيسير لها؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدي بِهِ اللّه من اتَّبَعَ رضوانَه سُبُلَ السلامِ﴾.

وفي هٰذه الآية أنَّ الله ﴿يَهْدي إليه مَن يُنيبُ﴾، مع قولِهِ: ﴿واتَّبِعْ سبيلَ من أنابَ إليَّ﴾، مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم وشدَّة إنابتهم: دليلٌ على أنَّ قولهم حجَّة، خصوصاً الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤﴾ لما أمَرَ تعالى باجتماع المسلمين على دينِهِم، ونهاهم عن التفرُّق؛ أخبرهم أنَّهم لا يَغْتَرُّوا بما أنزل الله عليهم[1] من الكتاب؛ فإنَّ أهل الكتاب لم يتفرَّقوا حتى أنزل الله عليهم الكتابَ الموجبَ للاجتماع، ففعلوا ضدَّ ما يأمر به كتابُهم، وذٰلك كلُّه بغياً وعدواناً منهم؛ فإنَّهم تباغضوا، وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنةُ والعداوةُ، فوقع الاختلافُ؛ فاحذَروا أيُّها المسلمون أن تكونوا مثلهم. ﴿ولولا كلمةٌ سبقتْ من ربِّك﴾؛ أي: بتأخير العذاب القاضي إلى أجل مسمًّى، ﴿لَقُضِيَ بينهم﴾: ولكنَّ حكمتَه وحلمه اقتضى تأخيرَ ذٰلك عنهم. ﴿وإنَّ الذين أُورِثوا الكتابَ من بعدِهم﴾؛ أي: الذين ورثوهم، وصاروا خَلَفاً لهم ممَّن ينتسب إلى العلم منهم، ﴿لَفي شك منهُ مريبٍ﴾؛ أي: لفي اشتباهٍ كثيرٍ يوقعُ في الاختلاف؛ حيث اختلف سَلَفُهم بغياً وعناداً؛ فإنَّ خلفهم اختلفوا شكًّا وارتياباً، والجميعُ مشتركون في الاختلاف المذموم.

---

(١) في (ب): «أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم».

﴿١٥﴾ ﴿فلذٰلك فادعُ﴾؛ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كُتُبَه وأرسل رُسُله؛ فادعُ إليه أمَّتك، وحضِّهم عليه، وجاهد عليه مَنْ لم يقبَلْه. ﴿واستَقِمْ﴾: بنفسك ﴿كما أمرتَ﴾؛ أي: استقامةً موافقةً لأمر الله؛ لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله، واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذٰلك؛ فأمَرَه بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيرِهِ بالدَّعوة إلى ذٰلك. ومن المعلوم أنَّ أمر الرسولِ ﷺ أمرٌ لأمَّته إذا لم يَرِدْ تخصيصٌ له. ﴿ولا تتَّبِعْ أهواءهم﴾؛ أي: أهواء المنحرفين عن الدِّين من الكفرة والمنافقين، إمَّا باتِّباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدَّعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة؛ فإنَّك إن اتَّبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنَّك إذاً لَمِنَ الظالمين، ولم يقل ولا تتَّبِع دينَهم؛ لأنَّ حقيقة دينهم الذي شَرَعَه الله لهم هو دينُ الرسل كلِّهم، ولٰكنَّهم لم يتَّبِعوه، بل اتَّبعوا أهواءهم واتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً. ﴿وقل﴾: لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتابٍ﴾؛ أي: لتكنْ مناظرتُك لهم مبنيةً على هٰذا الأصل العظيم، الدالِّ على شرف الإسلام وجلالته وهيمنتِهِ على سائر الأديان، وأنَّ الدين الذي يزعُمُ أهل الكتاب أنَّهم عليه جزءٌ من الإسلام، وفي هٰذا إرشادٌ إلى أنَّ أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنيَّة على الإيمان ببعض الكتب أو ببعض الرسل دون غيرِهِ؛ فلا يسلَّمُ لهم ذٰلك؛ لأنَّ الكتابَ الذي يدعون إليه والرسولَ الذي ينتسبونَ إليه من شرطِهِ أن يكون مصدِّقاً بهٰذا القرآن وبمن جاء به؛ فكتابُنا ورسولُنا لم يأمرنا إلَّا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل التي أخبر بها وصدَّق بها وأخبر أنَّها مصدقة له ومقرَّة بصحته، وأما مجرَّدُ التوراة والإنجيل وموسى وعيسى الذين لم يوصفوا لنا ولم يوافِقوا لكتابِنا؛ فلم يأمرْنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وأمِرْتُ لأعدلَ بينكم﴾؛ أي: في الحكم فيما اختلفتُم فيه؛ فلا تَمْنَعُني عداوتُكم وبُغضكم يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم بين أهل الأقوال المختلفة من أهل الكتاب وغيرهم أن يُقْبَلَ ما معهم من الحقِّ ويردَّ ما معهم من الباطل. ﴿الله ربُّنا وربُّكم﴾؛ أي: هو ربُّ الجميع، لستم بأحقَّ به منا، ﴿لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكم﴾: من خيرٍ وشرٍّ، ﴿لا حجَّةَ بيننا وبينكم﴾؛ أي: بعدما تبيَّنت الحقائق واتَّضح الحقُّ من الباطل والهدى من الضلال؛ لم يبقَ للجدال والمنازعة محلٌّ؛ لأنَّ المقصود من الجدال إنَّما هو بيانُ الحقِّ من الباطل؛ ليهتدي الراشدُ، ولتقومَ الحجةُ على الغاوي. وليس المرادُ بهٰذا أنَّ أهلَ الكتاب لا يجادَلون، كيف والله يقولُ: ﴿ولا تجادِلوا أهلَ الكتابِ إلَّا بالتي هي أحسنُ﴾؟!

وإنَّما المرادُ ما ذكرنا. ﴿اللّه يجمعُ بينَنا وإليه المصير﴾: يوم القيامةِ، فيجزي كلاً بعملِهِ، ويتبيَّن حينئذٍ الصادق من الكاذب.

﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٦﴾ وهٰذا تقريرٌ لقوله: ﴿لا حجَّة بيننا وبينكم﴾؛ فأخبر هنا أنَّ ﴿الذين يحاجُّون في اللّه﴾: بالحجج الباطلة والشُّبه المتناقضة ﴿من بعد ما استُجيبَ﴾: للّه؛ أي: من بعد ما استجاب للّه أولو الألباب والعقول لما بيَّن لهم من الآيات القاطعة والبراهين الساطعة؛ فهٰؤلاء المجادلون للحقِّ من بعدما تبيَّن ﴿حجَّتُهم داحضةٌ﴾؛ أي: باطلةٌ مدفوعةٌ ﴿عند ربِّهم﴾؛ لأنَّها مشتملةٌ على ردِّ الحقِّ، وكلُّ ما خالف الحقَّ؛ فهو باطلٌ، ﴿وعَلَيهم غضَبٌ﴾: بعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبيناته وتكذيبها، ﴿ولهم عذابٌ شديدٌ﴾: هو أثر غضبِ اللّه عليهم؛ فهٰذه عقوبة كلِّ مجادل للحقِّ بالباطل.

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى أنَّ حججه واضحةٌ بينةٌ بحيث استجاب لها كلُّ مَن فيه خيرٌ؛ ذكر أصلَها وقاعدتَها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد ترجعُ إليه، فقال: ﴿اللّه الذي أنزل الكتابَ بالحقِّ والميزانِ﴾: فالكتاب هو هٰذا القرآنُ العظيم الذي نزل بالحقِّ، واشتمل على الحقِّ والصدق واليقين، وكلُّه آياتٌ بيناتٌ وأدلَّة واضحاتٌ على جميع المطالب الإلٰهيَّة والعقائد الدينيَّة، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدَّلائل.

**وأما الميزان**؛ فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح؛ فكلُّ الدلائل العقليَّة من الآيات الأفقيَّة[1] والنفسيَّة والاعتبارات الشرعيَّة والمناسبات والعلل والأحكام والحِكَم داخلةٌ في الميزان الذي أنزله اللّه تعالى ووضعه بين عبادِهِ

(١) في (ب): «الآفاقية».

لِيَزِنوا به ما أثبته وما نفاه من الأمور، ويعرفوا به صدقَ ما أخبر به وأخبرتْ به رسلُه. **فما خرج** عن هٰذين الأمرين ـ عن الكتاب والميزان ـ مما قيل: إنَّه حجةٌ أو برهانٌ أو دليلٌ أو نحو ذٰلك من العبارات؛ فإنَّه باطلٌ متناقضٌ قد فسدت أصولُه وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرِفُ ذٰلك مَنْ خَبَرَ المسائل ومآخِذَها، وعرف التمييز بين راجح الأدلَّة من مرجوحِها، والفرق بين الحجج والشُّبه.

وأما من اغترَّ بالعبارات المزخرفة والألفاظ المموَّهة ولم تنفذْ بصيرتُه إلى المعنى المراد؛ فإنَّه ليس من أهل هٰذا الشأن، ولا من فرسانِ هٰذا الميدانِ؛ فوِفاقه وخلافُه سيان. ثم قال تعالى مخوِّفاً للمستعجلين لقيام الساعةِ المنكرينَ لها، فقال: ﴿**وما يدريكَ لعلَّ الساعةَ قريبٌ**﴾؛ أي: ليس بمعلوم بُعدها ولا متى تقومُ؛ فهي في كلِّ وقتٍ متوقَّع وقوعُها مخوفٌ وجبتُها.

﴿١٨﴾ ﴿**يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها**﴾: عناداً وتكذيباً وتعجيزاً لربِّهم، ﴿**والذين آمنوا مشفِقونَ منها**﴾؛ أي: خائفون؛ لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم لمعرفتهم بربِّهم أنْ لا تكون أعمالُهم منجيةً [لهم] ولا مسعدةً، ولهٰذا قال: ﴿**ويعلمون أنَّها الحقُّ**﴾: الذي لامِرْيَةَ فيه، ولا شكَّ يعتريه. ﴿**ألا إنَّ الذين يُمارونَ في الساعةِ**﴾؛ أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها؛ فهم في شقاق[1] ﴿**بعيدٍ**﴾؛ أي: معاندةٌ ومخاصمةٌ غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق. وأيُّ بعد أبعد ممَّن كذَّب بالدار التي هي الدار على الحقيقة؟ وهي الدار التي خُلِقَتْ للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دارُ الجزاء التي يُظْهِرُ اللّه فيها عدلَه وفضلَه، وإنَّما هٰذه الدار بالنسبة إليها كراكبٍ قال في ظلِّ شجرةٍ ثم رَحَلَ[2] وتركَها، وهي دار عبورٍ وممرٌ لا محلُّ استقرارٍ، فصدقوا في الدار المضمحلَّة الفانية حيث رأوها وشاهدوها، وكذَّبوا بالدار الآخرة التي تواترت بالأخبار عنها الكتب الإلٰهية والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلقِ عقولاً وأغزرُهم علماً وأعظمُهم فطنةً وفهماً.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

---

(١) كذا في النسختين والآية: في «ضلال بعيد».

(٢) في (ب): «راح».

﴿١٩﴾ يخبر تعالى بلطفه بعبادِهِ: ليعرفوه ويحبُّوه ويتعرَّضوا للطفه وكرمه، واللُّطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرِكُ الضمائر والسرائر، الذي يوصِلُ عباده ـ وخصوصاً المؤمنين ـ إلى ما فيه الخيرُ لهم من حيثُ لا يعلمون ولا يحتسبون. فمن لطفِهِ بعبدِهِ المؤمن أنْ هداه إلى الخير هدايةً لا تخطُرُ ببالِهِ بما يسَّر له من الأسباب الدَّاعية له إلى ذلك من فطرته على محبَّة الحقِّ والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكتِهِ الكرام أن يُثَبِّتوا عبادَهُ المؤمنين ويحثُّوهم على الخير ويُلْقوا في قلوبهم من تزيين الحقِّ ما يكون داعياً لاتِّباعه. ومن لطفِهِ أن أمر المؤمنين بالعباداتِ الاجتماعية التي بها تقوى عزائِمُهُم وتنبعثُ هِمَمُهم ويحصُلُ منهم التنافس على الخير والرغبة فيه واقتداء بعضهم ببعض. ومن لطفِهِ أن قَيَّضَ كلَّ سبب يعوقُه ويحولُ بينه وبين المعاصي، حتى إنَّه تعالى إذا علم أنَّ الدُّنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهلُ الدُّنيا تقطعُ عبدَه عن طاعتِهِ أو تحمِلُه على الغفلة عنه أو على معصيتِهِ؛ صرفها عنه، وقَدَرَ عليه رِزْقَه، ولهذا قال هنا: ﴿يرزُقُ مَن يشاءُ﴾: بحسب اقتضاء حكمته ولطفه، ﴿وهو القويُّ العزيزُ﴾: الذي له القوَّة كلُّها؛ فلا حول ولا قوة لأحدٍ من المخلوقين إلَّا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

﴿٢٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿من كان يريدُ حَرْثَ الآخرةِ﴾؛ أي: أجرها وثوابَها، فآمن بها وصدَّق وسعى لها سعيها، ﴿نَزِدْ له في حرثِهِ﴾: بأن نضاعِف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿ومَنْ أراد الآخرةَ وسعى لها سَعْيَها وهو مؤمنٌ فأولٰئكَ كان سَعْيُهُمْ مَشْكوراً﴾، ومع ذلك؛ فنصيبه من الدُّنيا لا بدَّ أن يأتِيَهُ، ﴿ومَن كانَ يريدُ حَرْثَ الدُّنيا﴾: بأن كانت الدُّنيا هي مقصودَه وغايةَ مطلوبِهِ، فلم يقدِّم لآخرته، ولا رجا ثوابَها، ولم يخشَ عقابَها، ﴿نؤتِهِ منها﴾: نصيبَه الذي قُسِمَ له، ﴿وما له في الآخرةِ من نصيبٍ﴾: قد حُرِم الجنَّة ونعيمها، واستحقَّ النار وجحيمها. وهٰذه الآيةُ شبيهةٌ بقوله تعالى: ﴿مَن كان يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها نوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيها لا يُبْخسونَ...﴾ إلى آخر الآيات.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢١﴾ يخبر تعالى أنَّ المشركين اتَّخذوا شركاء يوالونهم ويشتركون هم وإيَّاهم في الكفر وأعمالِهِ من شياطين الإنس الدُّعاة إلى الكفر، ﴿شَرَعوا لهم من الدِّينِ ما لَمْ يأذَنْ به اللهُ﴾: من الشِّرك والبدع وتحريم ما أحلَّ اللهُ وتحليل ما حرَّم اللهُ ونحو ذٰلك ممَّا اقتضته أهواؤهم، مع أنَّ الدِّين لا يكون إلَّا ما شَرَعَه الله تعالى لِيَدينَ به العبادُ ويتقرَّبوا به إليه؛ فالأصلُ الحَجْرُ على كلِّ أحدٍ أن يَشْرَعَ شيئاً ما جاء عن اللهِ وعن رسولِهِ؛ فكيف بهٰؤلاء الفَسَقَةِ المشتركين هم [وآباؤهم] وهم على الكفر. ﴿ولولا كلمةُ الفصل لَقُضِيَ بينَهم﴾؛ أي: لولا الأجلُ المسمَّى الذي ضَرَبَه الله فاصلاً بين الطوائفِ المختلفة، وأنَّه سيؤخِّرهم إليه؛ لَقُضِي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحقِّ وإهلاك المبطل؛ لأن المُقتضي للإهلاك موجود، ولٰكنْ أمامهم العذابُ الأليمُ في الآخرة؛ هٰؤلاء وكلُّ ظالم.

﴿٢٢﴾ وفي ذٰلك اليوم ﴿ترى الظالمين﴾: أنفسَهم بالكفرِ والمعاصي، ﴿مشفقينَ﴾؛ أي: خائفين وجلين، ﴿مما كَسَبوا﴾: أن يعاقَبوا عليه، ولمَّا كان الخائفُ قد يقعُ به ما أشفق منه وخافه وقد لا يقعُ؛ أخبر أنَّه ﴿واقعٌ بهم﴾: العقابُ الذي خافوه؛ لأنهم أتوا بالسبب التامِّ الموجب للعقاب من غير معارض من توبةٍ ولا غيرِها، ووصلوا موضعاً فات فيه الإنظارُ والإمهالُ. ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم باللّه وبكتبِهِ ورسلِهِ وما جاؤوا به، ﴿وعملوا الصالحات﴾: يشمَلُ فيه كلَّ عمل صالح من أعمال القلوب وأعمال الجوارح من الواجباتِ والمستحبَّات؛ فهٰؤلاء ﴿في روضاتِ الجناتِ﴾؛ أي: الرَّوضات المضافة إلى الجنَّات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه؛ فلا تسألْ عن بهجةِ تلك الرياض المونقةِ، وما فيها من الأنهار المتدفِّقة، والفياض المُعْشِبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيورِ المغرِّدة، والأصوات الشجيَّة المطرِبة، والاجتماع بكلِّ حبيب، والأخذ من المعاشرةِ والمنادمةِ بأكمل نصيب؛ رياض لا تزداد على طول المدى إلَّا حسناً وبهاءً، ولا يزدادُ أهلُها إلَّا اشتياقاً إلى لَذَّاتِها ووداداً. ﴿لهم ما يشاؤونَ﴾: فيها؛ أي: في الجنات؛ فمهما أرادوا؛ فهو حاصل، ومهما طلبوا؛ حصل، مما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ. ذلك ﴿الفضلُ الكبيرُ﴾: وهل فوز أكبرُ من الفوز برضا اللّه تعالى والتنعُّم بقربِهِ في دار كرامته؟!

﴿٢٣﴾ ﴿ذٰلك الذي يبشِّر اللّه به عبادَه الذين آمنوا وعمِلوا الصالحاتِ﴾؛ أي: هٰذه البشارة العظيمة التي هي أكبرُ البشائر على الإطلاق بَشَّرَ بها الرحيم الرحمٰن

على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح؛ فهي أجلُّ الغايات، والوسيلةُ الموصلةُ إليها أفضلُ الوسائل، ﴿قل لا أسألُكم عليه﴾؛ أي: على تبليغي إيَّاكم هٰذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أجراً﴾؛ فلستُ أريدُ أخذَ أموالكم ولا التولِّي عليكم والترأس ولا غير ذٰلك من الأغراض ﴿إلَّا المودَّةَ في القُربى﴾.

**يُحتمل** أنَّ المراد: لا أسألُكم عليه أجراً؛ إلَّا أجراً واحداً، هو لكم، وعائدٌ نفعُه إليكم، وهو أن تَوَدُّوني وتحبُّوني في القرابة؛ أي: لأجل القرابة، ويكون على هٰذا المودَّة الزائدة على مودَّة الإيمان؛ فإنَّ مودَّة الإيمان بالرسول وتقديم محبَّته على جميع المحابِّ بعد محبَّة الله فرضٌ على كلِّ مسلم، وهٰؤلاء طَلَبَ منهم زيادةً على ذٰلك أن يحبُّوه لأجل القرابةِ؛ لأنَّه ﷺ قد باشر بدعوته أقربَ الناس إليه، حتى إنَّه قيل: إنَّه ليس في بطون قريش أحدٌ إلَّا ولرسول اللهِ ﷺ فيه قرابةٌ.

**ويُحتملُ** أنَّ المرادَ: إلَّا مودة الله تعالى المودة الصادقة، وهي التي يصحبُها التقرُّب إلى الله والتوسُّل بطاعته الدالَّة على صحَّتها وصدقها، ولهٰذا قال: ﴿إلَّا المودَّة في القربى﴾؛ أي: في التقرُّب إلى الله.

وعلى كلا القولين؛ فهٰذا الاستثناءُ دليلٌ على أنَّه لا يسألكم عليه أجراً بالكلِّيَّة؛ إلَّا أن يكون شيئاً يعود نفعُه إليهم؛ فهٰذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ؛ كقوله تعالى: ﴿وما نَقَموا منهم إلَّا أن يؤمِنوا بالله العزيزِ الحميدِ﴾، وقولهم: ما لفلان عندك ذنبٌ إلَّا أنَّه محسنٌ إليك.

﴿ومَن يَقْتَرِفْ حسنةً﴾: من صلاةٍ أو صوم أو حجٍّ أو إحسانٍ إلى الخلق، ﴿نَزِدْ له فيها حُسناً﴾: بأن يشرحَ الله صدرَه وييسِّر أمره ويكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزدادَ بها عملُ المؤمن ويرتفعَ عند الله وعند خلقِهِ، ويحصُلَ له الثوابُ العاجل والآجل. ﴿إنَّ الله غفورٌ شكورٌ﴾: يغفر الذنوبَ العظيمةَ، ولو بلغتْ ما بلغتْ عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجرِ الكثيرِ؛ فبمغفرتِهِ يغفرُ الذنوبَ ويسترُ العيوبَ، وبشكرِهِ يتقبَّل الحسناتِ ويضاعِفُها أضعافاً كثيرةً.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يعني: أم يقولُ المكذِّبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿افترى على اللهِ كَذِباً﴾: فَرَمَوْكَ بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراءُ على الله بادِّعاء النبوَّة

والنسبة إلى اللّه ما هو بريءٌ منه، وهم يعلمونَ صِدْقَكَ وأمانَتَكَ؛ فكيف يتجرؤونَ على هٰذا الكذبِ الصُّراح؟! بل تجرؤوا بذٰلك على اللّه تعالى؛ فإنَّه قدحٌ في اللّه؛ حيث مكَّنك من هٰذه الدعوة العظيمة المتضمِّنة ـ على موجب زعمهم ـ أكبر الفسادِ في الأرض؛ حيث مكَّنه اللّه من التَّصريح بالدَّعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيِّده بالمعجزات الظاهرات والأدلَّة القاهرات والنصر المبين والاستيلاء على مَنْ خالَفَهُ، وهو تعالى قادرٌ على حسم هٰذه الدَّعوة من أصلها ومادَّتها، وهو أن يختِم على قلب الرسول ﷺ؛ فلا يعي شيئاً، ولا يدخل إليه خيرٌ، وإذا خُتِمَ على قلبه؛ انحَسَم الأمرُ كلُّه وانقطعَ؛ فهٰذا دليلٌ قاطعٌ على صحَّة ما جاء به الرسولُ، وأقوى شهادة من اللّهِ له على ما قال، ولا يوجُد شهادةٌ أعظم منها ولا أكبر، ولهٰذا من حكمته ورحمته وسنَّته الجارية أنه يمحو الباطل ويزيلُه، وإن كان له صولةٌ في بعض الأوقات؛ فإنَّ عاقبته الاضمحلال، ﴿ويُحِقُّ الحقَّ بكلماتِهِ﴾: الكونيَّة التي لا تبدَّل ولا تغيَّر(١)، ووعده الصادق، وكلماته الدينيَّة التي تحقِّق ما شرعه من الحقِّ وتثبِّته في القلوب وتبصِّر أولي الألباب، حتى إنَّ من جملة إحقاقِهِ تعالى الحقَّ أن يقيِّضَ له الباطلَ ليقاوِمَه؛ فإذا قاومه؛ صال عليه الحقُّ ببراهينِهِ وبيِّناتِهِ، فظهر من نوره وهداه ما به يضمحلُّ الباطل وينقمع ويتبيَّن بطلانُه لكلِّ أحدٍ، ويظهر الحقُّ كلَّ الظُّهور لكلِّ أحدٍ. ﴿إنَّه عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: بما فيها وما اتَّصفت به من خيرٍ وشرٍّ وما أكنَّته ولم تُبْدِهِ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥﴾ هٰذا بيانٌ لكمال كرم اللّه تعالى وسَعَةِ جودِهِ وتمام لطفِهِ بقبول التوبةَ الصادرة ﴿عن عبادِهِ﴾: حين يُقْلِعونَ عن ذُنوبهم ويندمون عليها ويعزِمون على أن لا يعاوِدوها إذا قَصَدوا بذٰلك وجهَ ربِّهم؛ فإنَّ اللّه يقبلُها بعدما انعقدتْ سبباً للهلاك ووقوع العقوباتِ الدنيويَّة والدينيَّة، فيعفو ﴿عن السَّيِّئاتِ﴾: ويمحوها، ويمحو أثرها

(١) في (ب): «لا تغير ولا تبدّل».

من العيوب، وما اقتضتْه من العقوباتِ، ويعودُ التائبُ عنده كريماً كأنَّه ما عمل سوءاً قطُّ، ويحبُّه ويوفِّقه لما يقرِّبه إليه.

**ولما** كانت التوبةُ من الأعمال العظيمة التي قد تكون كاملةً بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكونُ ناقصةً عند نقصِهما، وقد تكون فاسدةً إذا كان القصدُ منها بلوغَ غَرَضٍ من الأغراض الدنيويَّة، وكان محلُّ ذٰلك القلبَ الذي لا يعلمه إلَّا اللّه؛ ختم هٰذه الآية بقوله: ﴿**ويعلم ما تفعلونَ**﴾.

﴿٢٦﴾ فاللّه تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبةِ من التقصيرِ، فانقسموا بحسب الاستجابةِ له إلى **قسمين**: **مستجيبين**، وَصَفَهم بقوله: ﴿**ويستجيبُ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ**﴾؛ أي: يستجيبون لربِّهم لما دعاهم إليه، وينقادون له، ويلبُّون دعوته؛ لأنَّ ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحمِلُهم على ذٰلك؛ فإذا استجابوا له؛ شَكَرَ اللّه لهم، وهو الغفورُ الشَّكور، وزادهم ﴿**من فضلِهِ**﴾: توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفةً في الأجر زيادةً عن ما تستحقُّه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم. **وأما** غير المستجيبين للّه، وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله؛ فلهم عذابٌ شديدٌ في الدُّنيا والآخرة.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر أن من لطفِهِ بعبادِهِ أنَّه لا يوسِّع عليهم الدُّنيا سعةً تضرُّ بأديانهم، فقال: ﴿**ولو بَسَطَ اللّه الرزقَ لعبادِهِ لَبَغَوْا في الأرض**﴾؛ أي: لغفلوا عن طاعة اللّه، وأقبلوا على التمتُّع بشهوات الدُّنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسُهم، ولو كان معصيةً وظلماً. ﴿**ولٰكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ ما يشاءُ**﴾: بحسب ما اقتضاه لطفُه وحكمتُه، ﴿**إنَّه بعباده خبيرٌ بصيرٌ**﴾: كما في بعض الآثار أنَّ اللّه تعالى يقول: «إنَّ مِنْ عبادي من لا يُصْلِحُ إيمانَه إلاَّ الغنى، ولو أفقرتُه؛ لأفسده ذٰلك، وإنَّ من عبادي من لا يُصْلِحُ إيمانَه إلاَّ الفقرُ، ولو أغنيته؛ لأفسده ذٰلك، وإنَّ من عبادي من لا يُصْلِحُ إيمانَه إلَّا الصحةُ، ولو أمرضتُه؛ لأفسده ذٰلك، وإنَّ من عبادي من لا يُصْلِحُ إيمانَه إلَّا المرضُ، ولو عافيتُه؛ لأفسده ذٰلك، إنِّي أدبِّر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبيرٌ بصيرٌ»[(١)].

﴿٢٨﴾ ﴿**وهو الذي يُنَزِّل الغيثَ**﴾؛ أي: المطر الغزير الذي به يغيثُ البلاد والعباد ﴿**من بعدِ ما قَنَطوا**﴾: وانقطع عنهم مُدَّةً ظنُّوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا، وعملوا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الأولياء» (١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/٣١٨).

لذلك الجدب أعمالاً، فينزِلُ الله الغيث، ﴿وينشرُ﴾ به ﴿رحمتَه﴾ من إخراج الأقواتِ للآدميِّين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الوليُّ﴾: الذي يتولَّى عباده بأنواع التَّدبير، ويتولَّى القيام بمصالح دينهم ودنياهم ﴿الحميد﴾: في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٩﴾ أي: ومن أدلَّة قدرتِهِ العظيمة وأنَّه سيُحيي الموتى بعد موتهم: ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿السمواتِ والأرضِ﴾؛ على عِظَمِهما وسعتهما، الدالُّ على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دالٌّ على حكمته، وما فيهما من المنافع والمصالح دالٌّ على رحمتِهِ، وذلك يدلُّ على أنَّه المستحقُّ لأنواع العبادة كلِّها، وأنَّ إلهيَّة ما سواه باطلةٌ. ﴿وما بثَّ فيهما﴾؛ أي: نشر في السماواتِ والأرض من أصناف الدوابِّ، التي جعلها الله مصالحَ ومنافعَ لعبادِهِ. ﴿وهو على جمعهم﴾؛ أي: جمع الخلق بعد موتِهِم لموقفِ القيامةِ ﴿إذا يشاءُ قديرٌ﴾: فقدرتُه ومشيئتُه صالحان لذلك، ويتوقَّف وقوعُه على وجود الخبر الصادق، وقد عُلم أنَّه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يخبر تعالى أنَّه ما أصاب العبادَ من مصيبةٍ في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبُّون ويكون عزيزاً عليهم إلَّا بسبب ما قدَّمته أيديهم من السيئاتِ، وأنَّ ما يعفو الله عنه أكثرُ؛ فإنَّ الله لا يظلم العبادَ، ولكن أنفسَهم يظلمونَ، ﴿ولو يؤاخِذُ اللهُ الناس بما كَسَبوا ما تَرَكَ على ظهرها من دابَّةٍ﴾.

﴿٣١﴾ وليس إهمالاً منه تعالى تأخيرُ العقوباتِ ولا عجزاً: فما ﴿أنتُم بمعجزينَ في الأرضِ﴾؛ أي: معجزينَ قدرةَ الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناعٌ عما ينفذه الله فيكم، ﴿وما لكم من دونِ الله من وليٍّ﴾: يتولَّاكم، فيحصِّل لكم المنافع ﴿ولا نصيرٍ﴾: يدفع عنكم المضارَّ.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٢﴾ أي: ومن أدلَّة رحمته وعنايته بعباده ﴿الجواري في البحر﴾: من السُّفن والمراكب الناريَّة والشراعيَّة التي من عظمها ﴿كالأعلام﴾، وهي الجبالُ الكبارُ التي سخَّر لها البحر العجاج، وحفظها من التطام الأمواج، وجعلها تحمِلُكم وتحمِلُ أمتعتَكم الكثيرةَ إلى البلدان والأقطارِ البعيدة، وسخَّر لها من الأسباب ما كان معونةً على ذٰلك.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ ثم نبَّه على هٰذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشأ يُسْكِنِ الريحَ﴾: التي جعلها الله سبباً لمشيها، ﴿فيظْلَلْنَ﴾؛ أي: الجواري ﴿رواكدَ﴾: على ظهر البحر لا تتقدَّم ولا تتأخَّر. ولا ينتقض هٰذا بالمراكب الناريَّة؛ فإنَّ من شرط مشيِها وجودَ الريح، وإنْ شاء الله تعالى؛ أوبق الجواري بما كسب أهلها؛ أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولٰكنَّه يحلم ويعفو عن كثيرٍ. ﴿إنَّ في ذٰلك لآياتٍ لكلِّ صبارٍ شكورٍ﴾؛ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه، ويشقُّ عليها فيكرِهها عليه من مشقَّة طاعة أو رَدْع داعٍ إلى معصية أو رَدْع نفسِهِ عند المصائب عن التسخُّط، شكورٍ في الرخاء، وعند النعم يعترفُ بنعمةِ ربِّه، ويخضع له، ويصرِفُها في مرضاتِهِ؛ فهٰذا الذي ينتفع بآيات الله، وأمَّا الذي لا صبر عنده ولا شكر له عند[1] نعم الله؛ فإنَّه معرضٌ أو معاندٌ لا ينتفع بالآيات.

﴿٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا﴾: لِيُبْطِلوها بباطلهم، ﴿ما لهم من محيصٍ﴾؛ أي: لا ينقذهم منقذٌ مما حلَّ بهم من العقوبة.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦﴾ هٰذا تزهيدٌ في الدُّنيا وترغيبٌ في الآخرة وذكرُ الأعمال الموصلةِ إليها؛

---

(١) في (ب): «على».

فقال: ﴿فما أوتيتم من شيءٍ﴾: من ملكٍ ورياسةٍ وأموال وبنينَ وصحَّةٍ وعافيةٍ بدنيَّةٍ، ﴿فمتاعُ الحياةِ الدُّنيا﴾: لذَّةٌ منغصةٌ منقطعةٌ، ﴿وما عندَ اللهِ﴾: من الثواب الجزيل والأجر الجليل والنعيم المقيم ﴿خيرٌ﴾ من لَذَّات الدُّنيا، خيريَّة لا نسبةَ بينهما ﴿وأبقى﴾: لأنَّه نعيمٌ لا منغِّص فيه ولا كَدَرَ ولا انتقالَ.

ثم ذكر لمن هٰذا الثواب، فقال: ﴿للذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلونَ﴾؛ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكُّل الذي هو الآلةُ لكلِّ عمل؛ فكلُّ عمل لا يَصْحَبُه التوكُّل؛ فغير تامٍّ، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جَلْب ما يحبُّه العبد ودَفْع ما يكرهُهُ مع الثِّقة به تعالى.

﴿٣٧﴾ ﴿والذين يَجتنبونَ كبائرَ الإثم والفواحشَ﴾: والفرق بين الكبائرِ والفواحشِ ـ مع أنَّ جميعَهما كبائرُ ـ أنَّ الفواحشَ هي الذُّنوب الكبارُ التي في النفوس داعٍ إليها كالزِّنا ونحوه، والكبائرُ ما ليس كذٰلك، هٰذا عند الاقتران، وأمَّا مع إفرادِ كُلٍّ منهما عن الآخر؛ فإنَّ الآخر يدخُلُ فيه. ﴿وإذا ما غضبوا هم يغفِرونَ﴾؛ أي: قد تخلَّقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، فصار الحلم لهم سَجِيَّة وحسن الخلق لهم طبيعةً، حتى إذا أغضبَهم أحدٌ بمقاله أو فعاله؛ كظموا ذٰلك الغضب، فلم يُنْفِذوه، بل غفروه، ولم يقابِلوا المسيءَ إلَّا بالإحسان والعفو والصفح، فترتَّب على هٰذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيءٌ كثير؛ كما قال تعالى: ﴿ادفَعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَكَ وبينَه عدواةٌ كأنَّه وليٌّ حميمٌ. وما يُلَقَّاها إلَّا الذينَ صَبَروا وما يُلَقَّاها إلَّا ذو حَظٍّ عظيم﴾.

﴿٣٨﴾ ﴿والذين استجابوا لربِّهم﴾؛ أي: انقادوا لطاعته، ولبَّوْا دعوته، وصار قصدُهُم رضوانَه وغايتُهُم الفوزَ بقربِهِ، ومن الاستجابة لله إقامُ الصَّلاة وإيتاءُ الزَّكاة؛ فلذٰلك عطفَهما على ذٰلك من باب عطف العامِّ على الخاصِّ الدالِّ على شرفه وفضله، فقال: ﴿وأقاموا الصلاةَ﴾؛ أي: ظاهرها وباطنها فرضها ونفلها، ﴿ومما رَزَقْناهم يُنفِقونَ﴾: من النفقات الواجبة؛ كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبَّة؛ كالصدقات على عموم الخلق. ﴿وأمرُهُم﴾: الدينيُّ والدنيويُّ، ﴿شورى بينهم﴾؛ أي: لا يستبدُّ أحدٌ منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهٰذا لا يكون إلَّا فرعاً عن اجتماعهم وتوالُفِهم وتوادُدِهم وتحابُبِهم؛ وكمال عقولهم أنَّهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاجُ إلى إعمال الفكرِ والرأي فيها؛ اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبيَّنت لهم المصلحةُ؛ انتهزوها

وبادروها، وذٰلك كالرأي في الغزو والجهاد وتولية الموظَّفين لإمارةٍ أو قضاءٍ أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينيَّة عموماً؛ فإنَّها من الأمور المشتركة، والبحثُ فيها لبيان الصَّواب مما يحبُّه اللّه، وهو داخلٌ في هٰذه الآية.

﴿٣٩﴾ ﴿والذين إذا أصابَهُمُ البغيُ﴾؛ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿هم ينتصرونَ﴾: لقوَّتهم وعزَّتهم، ولم يكونوا أذلاَّء عاجزين عن الانتصارِ؛ فوصَفَهم بالإيمان، والتوكُّل على اللّه، واجتنابِ الكبائر والفواحش الذي تُكَفَّرُ به الصغائرُ، والانقياد التامِّ، والاستجابة لربِّهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوَّة، والانتصار على أعدائِهم؛ فهٰذه خصالُ الكمال قد جَمَعوها، ويلزم من قيامِها فيهم فِعْلُ ما هو دونَها وانتفاءُ ضدِّها.

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾.

﴿٤٠﴾ ذكر اللّه في هٰذه الآية مراتبَ العقوباتِ، وأنَّها على **ثلاث مراتب**: عدلٌ، وفضلٌ، وظلمٌ. **فمرتبةُ العدل**: جزاءُ السيئةِ بسيئةٍ مِثْلها؛ لا زيادة ولا نقص؛ فالنفسُ بالنفس، وكلُّ جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يُضْمَنُ بمثله.

**ومرتبةُ الفضل**: العفو والإصلاحُ عن المسيء، ولهٰذا قال: ﴿فمَنْ عفا وأصلَحَ فأجرُهُ على اللّه﴾؛ يجزيه أجراً عظيماً وثواباً كثيراً، وشَرَطَ اللّه في العفو الإصلاح فيه ليدلَّ ذٰلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يَليقُ بالعفوِ عنه، وكانت المصلحةُ الشرعيةُ تقتضي عقوبتَه؛ فإنَّه في هٰذه الحال لا يكون مأموراً به، وفي جعل أجرِ العافي على اللّه مما يهيجُ على العفوِ وأنْ يعامِلَ العبدُ الخَلْقَ بما يحبُّ أن يعامِلَه اللّه به؛ فكما يحبُّ أن يعفوَ اللّه عنه؛ فليعفُ عنهم، وكما يحبُّ أن يسامِحَه اللّه؛ فليسامِحْهم؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل.

**وأما مرتبةُ الظُّلم**؛ فقد ذَكَرَها بقوله: ﴿إنَّه لا يحبُّ الظالمين﴾: الذين يجنون على غيرِهم ابتداءً، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنايتِهِ؛ فالزيادة ظلمٌ.

﴿٤١﴾ ﴿ولَمَنِ انتصر﴾ من ﴿بعد ظلمِهِ﴾؛ أي: انتصر ممَّن ظَلَمه بعد وقوعِ الظُّلم عليه ﴿فأولٰئك ما عليهم من سبيل﴾؛ أي: لا حرج عليهم في ذٰلك. ودل قولُه: ﴿والذين إذا أصابَهُمُ البَغْيُ﴾، وقوله: ﴿ولَمَنِ انتصر بعد ظلمِهِ﴾: أنَّه لا بدَّ

من إصابة البغي والظُّلم ووقوعه، وأما إرادةُ البغي على الغير وإرادةُ ظلمه من غيرِ أن يَقَعَ منه شيءٌ؛ فهٰذا لا يجازَى بمثله، وإنَّما يؤدَّب تأديباً يردعُه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿٤٢﴾ ﴿إنَّما السبيلُ﴾؛ أي: إنَّما تتوجَّه الحجَّة بالعقوبة الشرعيَّة ﴿على الذين يظلِمونَ الناس ويَبْغونَ في الأرض بغير الحقِّ﴾: وهٰذا شاملٌ للظُّلم والبغي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أولٰئك لهم عذابٌ أليمٌ﴾؛ أي: موجعٌ للقلوب والأبدان بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾: على ما ينالُه من أذى الخلق، ﴿وغَفَرَ﴾: لهم بأن سمح لهم عمَّا يصدر منهم ﴿إنَّ ذٰلك لَمِنْ عزم الأمور﴾؛ أي: لمن الأمور التي حثَّ اللّٰهُ عليها وأكَّدها وأخبر أنَّه لا يُلَقَّاها إلَّا أهلُ الصبر والحظوظِ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفَّق لها إلَّا أولو العزائم والهمم وذوو الألباب والبصائر؛ فإنَّ تركَ الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشقِّ شيء عليها، والصبر على الأذى والصفح عنه ومغفرتِهِ ومقابلتِهِ بالإحسان أشقُّ وأشقُّ، ولٰكنَّه يسيرٌ على من يسَّره اللّٰه عليه وجاهد نفسَه على الاتِّصاف به، واستعانَ اللّٰهَ على ذٰلك، ثم إذا ذاقَ العبدُ حلاوته، ووجد آثارَه؛ تلقَّاه برحب الصدرِ وسعة الخُلُق والتلذُّذ فيه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يخبر تعالى أنَّه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنَّه ﴿مَن يُضلِلِ اللّٰهُ﴾: بسبب ظلمه ﴿فما له من وليٍّ من بعدِهِ﴾: يتولَّى أمره ويهديه، ﴿وترى الظالمين لمَّا رأوا العذابَ﴾: مرأى ومنظراً فظيعاً صعباً شنيعاً يُظْهِرونَ النَّدم العظيم والحزنَ على ما سَلَفَ منهم، و﴿يقولونَ هل إلى مَرَدٍّ من سبيل﴾؛ أي: هل لنا طريقٌ أو حيلةٌ إلى رجوعنا إلى الدُّنيا لنعملَ غير الذي كنَّا نعملُ، وهٰذا طلبٌ للأمر المُحال الذي لا يمكنُ.

﴿٤٥﴾ ﴿وتراهم يُعْرَضونَ عليها﴾؛ أي: على النار ﴿خاشعينَ من الذُّلِّ﴾؛ أي: ترى أجسامَهم خاشعةً للذُّلِّ الذي في قلوبهم، ﴿ينظُرونَ من طرفٍ خفيٍّ﴾؛ أي: ينظرون إلى النار مسارقةً وشزراً من هيبتها وخوفِها، ﴿وقال الذين آمنوا﴾: حين

ظهرتْ عواقبُ الخلق وتبيَّنَ أهلُ الصدق من غيرِهم: ﴿إنَّ الخاسرينَ﴾: على الحقيقة، ﴿الذين خَسِروا أنفسَهم وأهليهم يوم القيامةِ﴾: حيث فوَّتوا أنفسَهم جزيل الثواب وحصلوا على أليم العقاب وفُرِّقَ بينهم وبين أهليهم فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم. ﴿ألا إنَّ الظالمينَ﴾: أنفسَهم بالكفر والمعاصي ﴿في عذابٍ مقيم﴾؛ أي: في سوائه ووسطه منغمِرين لا يخرُجون منه أبداً، ولا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مُبْلِسونَ.

﴿٤٦﴾ ﴿وما كان لهم من أولياءَ يَنصُرونَهم من دونِ اللّه﴾: كما كانوا في الدُّنيا يُمَنُّون أنفسَهم بذلك[1]؛ ففي القيامةِ يتبيَّن لهم ولغيرِهم أنَّ أسبابهم التي أمَّلوها تقطَّعت، وأنَّه حين جاءهم عذابُ اللّه لم يُدْفَعْ عنهم، ﴿ومن يُضْلِلِ اللّه فما له مِن سبيل﴾: تحصُلُ به هدايتُه؛ فهؤلاء ضلُّوا حين زعموا في شركائِهم النفعَ ودفعَ الضُّرِّ، فتبيَّن حينئذٍ ضلالُهم.

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿٤٧﴾ يأمر تعالى عبادَه بالاستجابة له بامتثال ما أمَرَ به واجتنابِ ما نهى عنه وبالمبادرةِ بذلك وعدمِ التَّسويف ﴿مِن قبل أن يأتِيَ﴾: يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكنُ ردُّه واستدراكُ الفائتِ، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه فيفوتُ ربَّه ويهربُ منه، بل قد أحاطتِ الملائكةُ بالخليقة من خلفهم، ونودوا: ﴿يا معشرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَنفُذوا من أقطارِ السمٰواتِ والأرضِ فانفُذوا لا تَنفُذون إلَّا بسلطانٍ﴾: وليس للعبد في ذلك اليوم نكيرٌ لما اقترفه وأجرمَه، بل لو أنكر؛ لشهدتْ عليه جوارحُه. وهٰذه الآيةُ ونحوُها فيها ذمُّ الأمل والأمرُ بانتهازِ الفرصة في كلِّ عمل يَعْرِضُ للعبد؛ فإنَّ للتأخير آفاتٍ.

﴿٤٨﴾ ﴿فإنْ أعرَضوا﴾: عمَّا جئتُم به بعد البيانِ التامِّ ﴿فما أرسلناكَ عليهم حفيظاً﴾: تحفظُ أعمالَهم وتسألُ عنها، ﴿إنْ عليكَ إلَّا البلاغُ﴾: فإذا أديتَ ما عليك؛ فقد وجب أجرُكَ على اللّه، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابُهم على اللّه الذي يحفظُ عليهم صغير أعمالِهم وكبيرَها وظاهرَها وباطنها. ثم ذكر تعالى حالةَ الإنسان،

---

(١) في (ب): «يمنون بذلك أنفسهم».

وأنَّه إذا أذاقه اللّه رحمةً من صحَّةِ بدنٍ ورزقٍ رغدٍ وجاه ونحوه؛ ﴿فرِحَ بها﴾؛ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها لا يتعدَّاها، ويلزم من ذٰلك طمأنينته بها وإعراضه عن المنعم. ﴿وإن تُصِبْهم سيئةٌ﴾؛ أي: مرضٌ أو فقرٌ أو نحوهما ﴿بما قدَّمتْ أيديهم فإنَّ الإنسانَ كفورٌ﴾؛ أي: طبيعته كفرانُ النعمة السابقة والتسخُّط لما أصابه من السيِّئةِ.

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٩ ـ ٥٠﴾ هٰذه الآية فيها الإخبارُ عن سعةِ ملكِهِ تعالى ونفوذِ تصرُّفه في الملك في الخلق لما يشاء والتدبير لجميع الأمور، حتى إنَّ تدبيره تعالى من عمومِهِ أنَّه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشِرُها العباد؛ فإنَّ النِّكاحَ من الأسباب لولادة الأولاد؛ فاللّه تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاءُ؛ فمِنَ الخلق مَن يَهَبُ له إناثاً، ومنهم من يَهَبُ له ذكوراً، ومنهم من يزوِّجُه؛ أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم مَنْ يجعلُه عقيماً لا يولَد له. ﴿إنه عليمٌ﴾: بكلِّ شيءٍ. ﴿قديرٌ﴾: على كل شيءٍ. فيتصرَّف بعلمه وإتقانه الأشياء وبقدرتِهِ في مخلوقاته.

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥١﴾ لما قال المكذِّبون لرسل اللّه الكافرون باللّه: ﴿لولا يكلِّمُنا اللّه أو تأتينا آيةٌ﴾: من كِبرهم وتجبُّرهم؛ ردَّ اللّه عليهم بهٰذه الآية الكريمة، وأنَّ تكليمه تعالى لا يكونُ إلَّا لخواصِّ خلقه؛ للأنبياء والمرسلين وصفوته من العالمين، وأنَّه يكون على أحد هٰذه الأوجه: إمَّا أن يكلِّمَه اللّه وحياً، بأن يُلْقِيَ الوحيَ في قلبِ الرسول من غير إرسال مَلَكٍ ولا مخاطبةٍ منه شفاهاً، ﴿أو﴾ يكلِّمَه منه شفاهاً، لكنه ﴿من وراء حجابٍ﴾؛ كما حصل لموسى بن عمران كليم الرحمٰن، ﴿أو﴾ يكلِّمَه اللّه بواسطة الرسول الملكيِّ؛ فيرسل ﴿رسولاً﴾؛ كجبريل أو غيره من الملائكة، ﴿فيوحي بإذنه﴾؛ أي: بإذن ربِّه لا بمجرَّد هواه؛ إنَّه تعالى عليُّ الذات عليُّ الأوصاف، عظيمُها، عليُّ الأفعال، قد قهر كلَّ شيء، ودانت له المخلوقات، ﴿حكيمٌ﴾ في وضعه كلَّ شيء في موضعه من المخلوقات والشرائع.

﴿٥٢﴾ ﴿وكذٰلك﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك، ﴿أوحَينا إليك رُوحاً من أمرِنا﴾: وهو هٰذا القرآن الكريم، سمَّاه روحاً؛ لأنَّ الروح يحيا به الجسدُ، والقرآن تحيا به القلوبُ والأرواح، وتحيا به مصالحُ الدُّنيا والدين؛ لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير، وهو محضُ منَّة اللّه على رسولِهِ وعباده المؤمنين من غير سببٍ منهم، ولهٰذا قال: ﴿ما كنتَ تَدْري﴾؛ أي: قبل نزوله عليك ﴿ما الكتابُ ولا الإيمانُ﴾؛ أي: ليس عندك علمٌ بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمانٌ وعملٌ بالشرائع الإلٰهيَّة، بل كنت أميًّا لا تخطُّ ولا تقرأ، فجاءك هٰذا الكتابُ الذي ﴿جَعَلْناه نوراً نَهدي به من نشاءُ من عبادِنا﴾: يستضيئون به في ظُلُماتِ الكفر والبدع والأهواء المُرْدِيَة، ويعرِفون به الحقائقَ، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم. ﴿وإنَّك لَتَهْدي إلى صراط مستقيم﴾؛ أي: تبيِّنُه لهم، وتوضِّحه، [وتنيره] وترغِّبهم فيه، وتَنْهاهم عن ضدِّه، وترهِّبهم منه.

﴿٥٣﴾ ثم فسَّر الصراط المستقيم، فقال: ﴿صراطِ اللّه الذي له ما في السمٰواتِ وما في الأرضِ﴾؛ أي: الصراط الذي نَصَبَهُ اللّه لعبادِهِ وأخبرهم أنَّه موصلٌ إليه وإلى دار كرامتِهِ. ﴿ألا إلى اللّه تصيرُ الأمورُ﴾؛ أي: ترجِعُ جميع أمورِ الخير والشرِّ، فيجازي كلاً بعملِهِ[1]؛ إنْ خيراً فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ.

تم تفسير سورة الشورى.

والحمد للّه أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على تيسيره وتسهيله.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الزخرف

## مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾.

(١) في (ب): «بحسب عمله».

﴿١ ـ ٣﴾ هٰذا قسمٌ بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين، وأطلق، ولم يذكُرِ المتعلَّق؛ ليدلَّ على أنه مبينٌ لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدُّنيا والدِّين والآخرة. ﴿إنَّا جعَلْناه قرآناً عربيًّا﴾: هٰذا المقسَم عليه أنَّه جُعِلَ بأفصح اللغاتِ وأوضحِها وأبينها، وهٰذا من بيانه. وذكر الحكمةَ في ذٰلك، فقال: ﴿لعلَّكم تعقلونَ﴾؛ ألفاظَه ومعانيَه لتيسُّرها وقربها من الأذهان.

﴿٤﴾ ﴿وإنَّه﴾؛ أي: هٰذا الكتاب ﴿لدينا﴾ في الملأ الأعلى في أعلىٰ الرُّتب وأفضلها ﴿لَعَلِيٌّ حكيمٌ﴾؛ أي: لعليٌّ في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار؛ فليس فيه حكمٌ مخالفٌ للحكمة والعدل والميزان.

﴿٥﴾ ثم أخبر تعالى أنَّ حكمته وفضلَه يقتضي أنْ لا يتركَ عباده هملاً لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً ولو كانوا مسرفين ظالمين، فقال: ﴿أفنضرِبُ عنكم الذِّكرَ صفحاً﴾؛ أي: أفنعرض عنكم ونترك إنزال الذِّكر إليكم ونضرب عنكم صفحاً لأجل إعراضِكم وعدم انقيادِكم [له]، بل ننزل عليكم الكتابَ، ونوضِّح لكم فيه كلَّ شيءٍ؛ فإنْ آمنتُم به واهتديتُم؛ فهو من توفيقِكم، وإلَّا؛ قامت عليكم الحجَّة، وكنتُم على بيِّنة من أمركم.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٦ ـ ٨﴾ يقول تعالى: إنَّ هٰذه سنَّتُنا في الخلق أن لا نَترُكَهم هملاً؛ فكم ﴿أرسَلْنا من نبيٍّ في الأوَّلين﴾: يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيبُ موجوداً في الأمم. ﴿وما يأتيهم من نبيٍّ إلَّا كانوا به يستهزئونَ﴾: جَحْداً لما جاء به، وتكبرًا على الحقِّ، ﴿فأهلَكْنا أشدَّ﴾ من هٰؤلاء ﴿بطشاً﴾؛ أي: قوة وأفعالاً وآثاراً في الأرض، ﴿ومضى مَثَلُ الأوَّلين﴾؛ أي: مضت أمثالُهم وأخبارُهم وبيَّنَّا لكم منها ما فيه عبرةٌ ومزدجَرٌ عن التكذيب والإنكار.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا

وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ [وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾].

﴿٩﴾ يخبر تعالى عن المشركين أنَّك لو ﴿سألتهم مَنْ خلَقَ السمٰواتِ والأرضَ ليقولنَّ﴾: اللّه وحدَه لا شريك له. ﴿العزيز﴾: الذي دانت لعزَّته جميع المخلوقات. ﴿العليم﴾: بظواهر الأمور وبواطنها وأوائلها وأواخراها. فإذا كانوا مقرِّين بذٰلك؛ فكيف يجعلون له الولدَ والصاحبةَ والشريكَ؟! وكيف يشركون به من لا يَخْلُقُ ولا يرزقُ ولا يميتُ ولا يحيي؟!

﴿١٠﴾ ثم ذكر أيضاً من الأدلَّة الدالَّة على كمال نعمته واقتداره بما خَلَقه لعباده من الأرض التي مَهَدها وجعلها قراراً للعباد يتمكَّنون فيها من كلِّ ما يريدون، ﴿وجَعَلَ لكم فيها سُبُلاً﴾؛ أي: جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتَّصلة تنفُذون منها إلى ما ورائها من الأقطار، ﴿لعلَّكم تهتدونَ﴾: في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلَّكم أيضاً تهتدون[1] في الاعتبار بذٰلك والادِّكار فيه.

﴿١١﴾ ﴿والذي نَزَّلَ من السماءِ ماءً بقدرٍ﴾: لا يزيدُ ولا ينقُص، ويكون أيضاً بمقدار الحاجةِ؛ لا ينقُصُ بحيث لا يكون فيه نفعٌ، ولا يزيدُ بحيث يضرُّ العباد والبلاد، بل أغاث به العبادَ، وأنقذ به البلادَ من الشدَّة، ولهٰذا قال: ﴿فأنشَرْنا به بلدةً ميتاً﴾؛ أي: أحييناها بعد موتها، ﴿كذٰلك تُخْرَجونَ﴾؛ أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء؛ كذٰلك يحييكم بعدما تستكملونَ في البرزخ ليجازِيَكم بأعمالكم.

﴿١٢﴾ ﴿والذي خَلَقَ الأزواجَ كلَّها﴾؛ أي: الأصناف جميعها مما تُنْبِتُ الأرض ومن أنفسِهم ومما لا يعلمون؛ من ليل ونهار، وحرٍّ وبرد، وذكر وأنثى... وغير ذٰلك، ﴿وجعل لكم من الفُلْكِ﴾؛ أي: السفن البحريَّة الشراعيَّة والناريَّة ما تركبون، ﴿و﴾ من ﴿الأنعام ما تركبونَ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿لتستووا على ظهورِهِ﴾: وهٰذا شامل لظهورِ الفُلك ولظهور الأنعام؛ أي: لتستقرُّوا عليها. ﴿ثم تذكروا نعمةَ ربِّكم إذا استويتُم عليه﴾: بالاعتراف بالنعمة

(١) في (ب): «ولعلكم تهتدون أيضاً».

لمن سخَّرها والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: ﴿وتقولوا سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا وما كُنَّا له مقرنين﴾؛ أي: لولا تسخيره لنا ما سَخَّر من الفلك والأنعام؛ ما كنا مُطيقينَ لذلك وقادِرين عليه، ولكن من لطفِهِ وكرمِهِ تعالى سخَّرها وذلَّلها ويسَّر أسبابها. والمقصودُ من هذا بيانُ أن الربَّ الموصوفَ بما ذكره من إفاضة النِّعم على العبادِ هو الذي يستحقُّ أن يُعبد، ويصلَّى له ويُسجَد[1].

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعةِ قول المشركين الذين جعلوا للّه تعالى ولداً، وهو الواحد الأحدُ الفرد الصَّمد، الذي لم يتَّخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكنْ له كفُواً أحدٌ. وأنَّ ذلك باطلٌ من عدة أوجه: **منها**: أنَّ الخلقَ كلَّهم عباده، والعبوديَّة تنافي الولادة. **ومنها**: أنَّ الولد جزءٌ من والدِهِ، واللّه تعالى بائنٌ من خلقِهِ مباينٌ لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولدُ جزءٌ من الوالدِ؛ فمحالٌ أن يكون للّه تعالى ولدٌ.

﴿١٦﴾ **ومنها**: أنَّهم يزعُمون أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه، ومن المعلوم أنَّ البناتِ أدونُ الصنفينِ؛ فكيف يكون للّه البناتُ ويصطفيهم بالبنين ويفضِّلهم بها؟! فإذاً؛ يكونون أفضلَ من الله! تعالى اللّهُ عن ذلك علوًّا كبيراً!

﴿١٧﴾: **ومنها**: أنَّ الصنف الذي نَسبوه للّه ـ وهو البنات ـ أدون الصنفين وأكرههما لهم، حتى إنَّهم من كراهتهم لذلك ﴿إذا بُشِّرَ أحدُهم بما ضَرَبَ للرحمٰن

---

(١) الآية رقم (١٤) لم أجد لها تفسيراً في النسختين.

مثلاً ظلَّ وجهُهُ مسودًّا﴾؛ من كراهته وشدَّة بغضه؛ فكيف يجعلون للّه ما يكرهون؟!

﴿١٨﴾ ومنها: أنَّ الأنثى ناقصةٌ في وصفها وفي منطقها وبيانها، ولهٰذا قال تعالى: ﴿أوَمَن يُنَشَّأ في الحِلْيَةِ﴾؛ أي: يجمَّل فيها لنقص جمالِهِ، فيجمَّل بأمرٍ خارج منه[1]، ﴿وهو في الخصام﴾؛ أي: عند الخصام الموجب لإظهارِ ما عند الشخص من الكلام ﴿غيرُ مبينٍ﴾؛ أي: غير مبينٍ لحجَّته ولا مفصح عمَّا احتوى عليه ضميرُه؛ فكيف ينسبونهنَّ للّه تعالى؟!

﴿١٩﴾ ومنها: أنَّهم ﴿جعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمٰن[2] إناثاً﴾: فتجرؤوا على الملائكة العباد المقرَّبين، ورقَّوهم عن مرتبة العبادة والذُّلِّ إلى مرتبة المشاركة للّه في شيء من خواصِّه، ثم نزلوا بهم عن مرتبةِ الذُّكوريَّة إلى مرتبة الأنوثيَّة؛ فسبحان من أظهر تناقضَ مَنْ كَذَّبَ عليه وعاند رسله! ومنها: أنَّ اللّه ردَّ عليهم بأنَّهم لم يشهدوا خَلْقَ اللّه لملائكته؛ فكيف يتكلَّمون بأمرٍ من المعلوم عند كلِّ أحدٍ أنَّه ليس لهم به علمٌ؟! ولٰكن لا بدَّ أن يُسألوا عن هٰذه الشهادة، وستُكْتَبُ عليهم ويعاقَبون عليها.

﴿٢٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمٰنُ ما عَبَدْناهم﴾: فاحتجُّوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئةِ، وهي حجةٌ لم يزل المشركونَ يطرقونها، وهي حجةٌ باطلةٌ في نفسها عقلاً وشرعاً؛ فكلُّ عاقل لا يقبلُ الاحتجاج بالقدر، ولو سَلَكَه في حالةٍ من أحواله؛ لم يثبت عليها قدمه، وأمَّا شرعاً؛ فإنَّ اللّه تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكُرْه عن غير المشركين به المكذِّبين لرسله؛ فإنَّ اللّه تعالى قد أقام الحجَّة على العباد؛ فلم يبقَ لأحدٍ عليه حجةٌ أصلاً، ولهٰذا قال هنا: ﴿ما لهم بذٰلك من علم إنْ هم إلَّا يَخْرُصونَ﴾؛ أي: يتخرَّصون تخرُّصاً لا دليل عليه، ويتخبَّطون خَبْطَ عشواء.

﴿٢١﴾ ثم قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبلِهِ فهم به مستمسكون﴾: يخبِرُهم بصحَّة أفعالهم وصدق أقوالهم؟! ليس الأمر كذٰلك؛ فإنَّ اللّه أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذيرٌ غيره؛ أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران؛ فلا ثَمَّ إلَّا الباطل.

﴿٢٢﴾ نعم؛ لهم شبهةٌ من أوهى الشُّبه، وهي تقليد آبائهم الضالِّين، الذين ما

(١) في (ب): «عنه».

(٢) في (ب): «عباد الله».

زال الكفرة يردُّون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهٰذا قال هنا: ﴿بل قالوا إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على أمَّةٍ﴾؛ أي: على دين وملَّة، ﴿وإنَّا على آثارهم مهتدون﴾؛ أي: فلا نتَّبع ما جاء به محمدٌ ﷺ.

﴿٢٣﴾ ﴿وكذٰلك ما أرسلنا من قبلِكَ في قريةٍ من نذيرٍ إلَّا قال مترفوها﴾؛ أي: منعَّموها وملؤها الذين أطغَتْهم الدُّنيا وغرَّتهم الأموال واستكبروا على الحقِّ: ﴿إنَّا وجَدْنا آباءنا على أمَّةٍ وإنَّا على آثارهم مقتدون﴾؛ أي: فهٰؤلاء ليسوا ببدعٍ منهم، وليسوا بأول من قال هٰذه المقالة. وهٰذا الاحتجاج من هٰؤلاء المشركين الضالِّين بتقليدهم لآبائِهِم الضالِّين ليس المقصودُ به اتباعَ الحقِّ والهدى، وإنَّما هو تعصبٌ محضٌ، يُرادُ به نصرة ما معهم من الباطل.

﴿٢٤﴾ ولهٰذا كلُّ رسول يقول لِمَنْ عارَضَه بهٰذه الشُّبهة الباطلة: ﴿أولو جئتُكم بأهدى ممَّا وَجَدْتُم عليه آباءَكم﴾؛ أي: أفتتَّبعوني[1] لأجل الهُدى؟ ﴿قالوا إنَّا بما أرْسِلْتُم به كافرونَ﴾: فعُلِمَ بهٰذا أنَّهم ما أرادوا اتِّباعَ الحقِّ والهدى، وإنَّما قصدُهم اتِّباع الباطل والهوى.

﴿٢٥﴾ ﴿فانتَقَمْنا منهم﴾: بتكذيبِهم الحقَّ وردِّهم إيَّاه بهٰذه الشبهة الباطلة، ﴿فانظُرْ كيف كان عاقبةُ المكذِّبين﴾: فليحذرْ هٰؤلاء أن يستمرُّوا على تكذيبهم فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يخبر تعالى عن ملَّة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهلُ الكتاب والمشركون، وكلُّهم يزعم أنَّه على طريقته، فأخبر عن دينِهِ الذي ورَّثه في ذرِّيَّته، فقال: ﴿وإذْ قال إبراهيمُ لأبيه وقومِهِ﴾: الذين اتَّخذوا من دون الله آلهةً

(١) في (ب): «فهل تتَّبعوني؟».

يعبُدونهم ويتقرَّبون إليهم: ﴿إنَّني براءٌ ممَّا تعبدونَ﴾؛ أي: مبغضٌ له مجتنبٌ معادٍ لأهله.

﴿٢٧﴾ ﴿إلَّا الذي فَطَرني﴾؛ فإنِّي أتولَّاه وأرجو أن يَهْدِيَني للعلم بالحقِّ والعمل بالحقِّ[١]؛ فكما فَطَرني ودَبَّرَني بما يُصْلِحُ بدني ودُنياي، فسيهديني لما يُصْلِحُ ديني وآخرتي.

﴿٢٨﴾ ﴿وجَعَلَها﴾؛ أي: هٰذه الخصلَة الحميدَة التي هي أمُّ الخصال وأساسُها، وهي إخلاصُ العبادة للّٰه وحده، والتبرِّي من عبادة ما سواه ﴿كلمةً باقيةً في عقبِهِ﴾؛ أي: في ذرِّيَّتِهِ[٢]، ﴿لعلَّهم﴾: إليها ﴿يرجِعونَ﴾: لشهرتها عنه وتوصيته لذُرِّيَّتِهِ وتوصية بعض بنيه كإسحاق ويعقوب لبعض؛ كما قال تعالى: ﴿ومَن يرغَبُ عن مِلَّةِ إبراهيم إلَّا من سَفِهَ نفسه. . .﴾ إلى آخر الآيات.

﴿٢٩﴾ فلم تزلْ هٰذه الكلمة موجودةً في ذرِّيَّته عليه السلام حتى دخلهم التَّرفُ والطغيانُ، فقال تعالى: ﴿بل متَّعْتُ هٰؤلاء وآباءَهم﴾: بأنواع الشَّهَوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزلْ يتربَّى حبُّها في قلوبهم، حتى صارت صفاتٍ راسخةً وعقائدَ متأصلةً. ﴿حتى جاءهم الحقُّ﴾: الذي لا شكَّ فيه ولا مِرْيَةَ ولا اشتباه، ﴿ورسولٌ مبينٌ﴾؛ أي: بيِّن الرسالة، قامت أدلَّة رسالته قياماً باهراً بأخلاقه ومعجزاتِهِ، وبما جاء به، وبما صدَّق به المرسلين وبنفس دعوتِهِ ﷺ.

﴿٣٠﴾ ﴿ولمَّا جاءهم الحقُّ﴾: الذي يوجِبُ على من له أدنى دينٍ ومعقول أن يَقْبَلَه وينقادَ له، ﴿قالوا هٰذا سحرٌ وإنَّا به كافرونَ﴾: وهٰذا من أعظم المعاندة والمشاقَّة؛ فإنَّهم لم يكتفوا بمجرَّد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضَوْا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل الذي لا يأتي به إلَّا أخبثُ الخلق وأعظمُهم افتراءً، والذي حَمَلَهم على ذٰلك طغيانُهم بما متَّعهم اللّٰه به وآباءهم.

﴿٣١﴾ ﴿وقالوا﴾: مقترحينَ على اللّٰه بعقولهم الفاسدة: ﴿لولا نُزِّلَ هٰذا القرآنُ على رجل من القريتينِ عظيمٍ﴾؛ أي: معظَّم عندهم مبجَّل من أهل مكة أو أهل الطائف؛ كالوليد بن المغيرة ونحوه ممَّن هو عندَهم عظيم.

﴿٣٢﴾ قال اللّٰه ردًّا لاقتراحهم: ﴿أهم يقسِمونَ رحمةَ ربِّكَ﴾؛ أي: أهُم الخزَّانُ

---

(١) في (ب): «والعمل به».

(٢) في (ب): «أي: ذريته».

لرحمة اللّه، وبيدهم تدبيرُها، فيعطون النبوَّة والرسالة من يشاؤون، ويمنعونها ممَّن يشاؤون؟! ﴿**نحن قسَمْنا بينَهم معيشَتَهم في الحياة الدُّنيا ورَفَعْنا بعضَهم فوق بعض درجاتٍ**﴾؛ أي: في الحياة الدُّنيا، ﴿**و**﴾ الحال أنَّ رحمةَ ﴿**ربِّك خيرٌ ممَّا يجمعونَ**﴾: من الدُّنيا؛ فإذا كانت معايشُ العبادِ وأرزاقُهم الدنيويَّة بيد اللّه تعالى، هو الذي يقسِمُها بين عباده، فيبسِطُ الرزق على من يشاءُ ويضيِّقُه على مَن يشاءُ بحسب حكمته؛ فرحمتُه الدينيَّةُ ـ التي أعلاها النبوَّة والرسالة ـ أولى وأحرى أن تكونَ بيدِ اللّه تعالى؛ فاللّه أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه.

فعُلم أنَّ اقتراحهم ساقطٌ لاغٍ، وأنَّ التدبير للأمور كلِّها دينيِّها ودنيويِّها بيد اللّه وحده، هٰذا إقناعٌ لهم من جهة غَلطهم في الاقتراح الذي ليس في أيديهم منه شيءٌ، إن هو إلَّا ظلمٌ منهم وردٌّ للحقِّ. وقولهم: ﴿لولا نُزِّلَ هٰذا القرآنُ على رجل من القريتين عظيم﴾: لو عرفوا حقائقَ الرجال والصفاتِ التي بها يُعْرَفُ علوُّ قدر الرجل، وعِظَمُ منزلته عند اللّه وعند خلقِهِ؛ لعلموا أنَّ محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب هو أعظمُ الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملُهم عقلاً، وأغزرُهم علماً، وأجلُّهم رأياً وعزماً وحزماً، وأكملُهم خلقاً، وأوسعُهم رحمةً، وأشدُّهم شفقةً، وأهداهم وأتقاهم، وهو قطبُ دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجلُ العالم على الإطلاق؛ يعرف ذٰلك أولياؤه وأعداؤه؛ إلَّا من ضلَّ وكابَرَ؛ فكيف يُفَضِّلُ عليه المشركون مَنْ لم يَشُمَّ مثقال ذرَّةٍ مِنْ كَماله، ومَنْ حَزَمُه ومنتهى عقلِهِ أنْ جعل إلٰهه الذي يعبُدُه ويدعوه ويتقرَّبُ إليه صنماً أو شجراً أو حجراً لا يضرُّ ولا ينفع ولا يُعطي ولا يمنعُ، وهو كَلٌّ على مولاه، يحتاجُ لمن يقوم بمصالحه؟! فهل هٰذا إلا من فعل السُّفهاء والمجانين؟! فكيف يُجعلُ مثلُ هٰذا عظيماً؟! أم كيف يُفَضَّلُ على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟! ولكنَّ الذين كفروا لا يعقلون.

**وفي هٰذه الآية** تنبيهٌ على حكمة اللّه تعالى في تفضيل اللّه بعضَ العباد على بعض في الدُّنيا؛ ﴿**ليتَّخِذَ بعضُهم بعضاً سخريًّا**﴾؛ أي: ليسخِّر بعضُهم بعضاً في الأعمال والحِرَف والصنائع؛ فلو تساوى الناس في الغنى ولم يحتج بعضُهم إلى بعض؛ لتعطَّلَت كثيرٌ من مصالحهم ومنافعهم.

**وفيها دليلٌ** على أنَّ نعمتَه الدينيَّة خير من النعمة الدنيويَّة؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل بفضل اللّهِ وبرحمتِهِ فبذٰلك فَلْيَفْرَحوا هو خيرٌ ممَّا يجمعونَ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٣ ـ ٣٥﴾ يخبر تعالى بأنَّ الدُّنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنَّه لولا لطفُه ورحمتُه بعباده التي لا يقدم عليها شيئاً؛ لوسَّع الدُّنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، ولَجَعَلَ ﴿لبيوتهم سُقُفاً من فضَّة ومعارجَ﴾؛ أي: درجاً من فضة، ﴿عليها يظهرونَ﴾: إلى سطوحهم، ﴿ولبيوتِهِم أبواباً وسُرراً عليها يتَّكِئونَ﴾: من فضَّة، ولجعل لهم ﴿زُخرفاً﴾؛ أي: لزخرف لهم دُنياهم بأنواع الزخارف وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذٰلك رحمتُه بعباده؛ خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حبِّ الدُّنيا. ففي هٰذا دليلٌ على أنَّه يمنع العبادَ بعضَ أمور الدُّنيا منعاً عامًّا أو خاصًّا لمصالحهم، وأنَّ الدُّنيا لا تزن عند اللّه جناح بعوضة. وأنَّ كلَّ هٰذه المذكورات متاعُ الحياة الدُّنيا منغصة مكدرة فانية، وأنَّ الآخرة عند اللّه تعالى خيرٌ للمتَّقين لربِّهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه؛ لأنَّ نعيمَها تامٌّ كاملٌ من كلِّ وجهٍ، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين، وهم فيها خالدون. فما أشدَّ الفرقَ بين الدارين!

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يخبر تعالى عن عقوبَتهِ البليغةِ بمن أعرضَ عن ذكرِه، فقال: ﴿ومن يَعْشُ﴾؛ أي: يعرِضُ ويصدُّ ﴿عن ذِكْرِ الرحمٰن﴾: الذي هو القرآنُ العظيمُ، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمٰن عبادَه؛ فمن قَبِلَها؛ فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردَّها؛ فقد خاب وخسِرَ خسارةً لا يسعدُ بعدها أبداً، وقيَّض له الرحمٰن شيطاناً مريداً يقارِنُه ويصاحِبُه ويعِدُه ويمنِّيه ويؤزُّه إلى المعاصي أزًّا.

﴿٣٧﴾ ﴿وإنَّهم لَيَصُدُّونهم عن السبيل﴾؛ أي: الصراط المستقيم والدين القويم، ﴿ويحسَبون أنَّهم مهتدونَ﴾: بسبب تزيين الشيطانِ للباطل وتحسينِهِ له وإعراضِهم عن الحقِّ، فاجتمع هٰذا وهٰذا. **فإن قيل**: فهل لهٰذا من عذرٍ من حيث إنَّه ظنَّ أنَّه

مهتدٍ وليس كذلك؟ **قيل**: لا عذر لهذا وأمثاله الذين مصدرُ جهلهم الإعراضُ عن ذكرِ الله مع تمكُّنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغِبوا في الباطل؛ فالذنبُ ذنبُهم والجرم جرمُهم.

﴿٣٨﴾ فهذه حالةُ هذا المعرِض عن ذكرِ الله في الدُّنيا مع قرينه، وهو الضَّلال والغيُّ وانقلاب الحقائق، وأما حاله إذا جاء ربَّه في الآخرة؛ فهو شرُّ الأحوال، وهو الندم والتحسُّر والحزن الذي لا يُجْبَر مصابُه والتبرِّي من قرينه، ولهذا قال تعالى: **﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليتَ بيني وبينَكَ بُعْدَ المشرقينِ فبئس القرينُ﴾**؛ كما في قوله تعالى: ﴿ويومَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه يقولُ يا ليتني اتَّخذتُ مع الرسولِ سبيلاً. يا ويلتَىٰ ليتني لم أتَّخِذْ فلاناً خليلاً. لقدْ أضلَّني عن الذِّكْرِ بعد إذ جاءني وكان الشيطانُ للإنسانِ خَذولاً﴾.

﴿٣٩﴾ وقوله تعالى: **﴿ولَن يَنفَعَكُم اليومَ إذ ظلمتُم أنَّكم في العذابِ مشترِكونَ﴾**؛ أي: ولا ينفعكم يوم القيامةِ اشتراكُكم في العذاب أنتم وقرناؤكم وأخلاَّؤكم، وذلك لأنكم اشتركتُم في الظُّلم فاشتركتم في عقابه وعذابِهِ، ولن ينفَعَكم أيضاً روح التسلِّي في المصيبة؛ فإنَّ المصيبة إذا وقعت في الدُّنيا واشترك فيها المعاقَبون؛ هان عليهم بعضُ الهون، وتسلَّى بعضُهم ببعضٍ، وأما مصيبةُ الآخرة؛ فإنَّها جَمَعَتْ كلَّ عقابٍ ما فيه أدنى راحةٍ، حتى ولا هذه الراحة. نسألُك يا ربَّنا العافيةَ وأن تُريحنا برحمتِكَ.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يقولُ تعالى لرسولِهِ ﷺ مسلياً له عن امتناع المكذِّبين عن الاستجابة له وأنَّهم لا خيرَ فيهم ولا فيهم زكاءٌ يدعوهم إلى الهدى: **﴿أفأنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾**؛ أي: الذين لا يسمعون، **﴿أو تَهْدي العُمْيَ﴾**: الذين لا يبصرون أو تهدي مَنْ هو **﴿في ضلال مبين﴾**؛ أي: بيِّن واضح لعلمِهِ بضلالِهِ ورضاه به؛ فكما أنَّ الأصمَّ لا يسمعُ الأصوات، والأعمى لا يبصِر، والضالَّ ضلالاً مبيناً لا يهتدي؛ فهؤلاء قد فسدتْ فِطَرُهم وعقولُهم بإعراضهم عن الذِّكر، واستحدثوا عقائدَ فاسدةً وصفاتٍ

خبيثةً تمنعهم وتَحولُ بينَهم وبينَ الهُدى، وتوجِبُ لهم الازديادَ من الرَّدى.

﴿٤١﴾ فهٰؤلاء لم يبقَ إلَّا عذابُهم ونَكالُهم إمَّا في الدُّنيا أو في الآخرة، ولهٰذا قال تعالى: ﴿فإمَّا نَذْهَبَنَّ بك فإنَّا منهم منتَقِمونَ﴾؛ أي: فإنْ ذهَبْنا بك قبل أن نُرِيَك ما نعِدُهم من العذابِ؛ فاعلمْ بخبرنا الصادق أنَّا منهم منتقمون.

﴿٤٢﴾ ﴿أو نُرِيَنَّكَ الذي وَعَدْناهم﴾: من العذاب، ﴿فإنَّا عليهم مقتدرونَ﴾: ولٰكن ذٰلك متوقِّف على اقتضاءِ الحكمة لتعجيلِهِ أو تأخيرِهِ؛ فهٰذه حالك وحالُ هٰؤلاء المكذِّبين.

﴿٤٣﴾ وأمَّا أنت؛ ﴿فاستمسِكْ بالذي أوحِيَ إليك﴾: فعلاً واتِّصافاً بما يأمر بالاتِّصاف به، ودعوةً إليه، وحرصاً على تنفيذِهِ بنفسك وفي غيرك. ﴿إنَّك على صراطٍ مستقيم﴾: موصل إلى اللّهِ وإلى دارِ كرامتِهِ، وهٰذا مما يوجِبُ عليك زيادةَ التمسُّك به والاهتداء، إذا علمتَ أنَّه حقٌّ وعدلٌ وصدقٌ تكون بانياً على أصل أصيل، إذا بنى غيرُكَ على الشكوكِ والأوهام والظُّلم والجَوْر.

﴿٤٤﴾ ﴿وإنَّه﴾؛ أي: هٰذا القرآن الكريم، ذِكْرٌ ﴿لك ولقومِكَ﴾؛ أي: فخرٌ لكم ومنقبةٌ جليلةٌ ونعمةٌ لا يقادر قدرها ولا يعرف وصفها، ويذكِّركم أيضاً ما فيه من الخير الدنيويِّ والأخرويِّ، ويحثُّكم عليه، ويذكِّركم الشرَّ ويرهِّبُكم عنه. ﴿وسوف تُسألونَ﴾: عنه؛ هل قُمتم به فارتفعتُم وانتفعتُم؟ أم لم تقوموا به فيكون حجةً عليكم وكفراً منكم بهٰذه النعمة؟

﴿٤٥﴾ ﴿واسأل مَنْ أرسَلْنا من قبلك من رسِلنا أجعلنا من دونِ الرحمٰن آلهةً يُعْبَدون﴾: حتى يكون للمشركين نوعُ حجَّةٍ يتَّبِعون فيها أحداً من الرسل؛ فإنَّك لو سألتهم واستخبرت[1] عن أحوالهم؛ لم تجدْ أحداً منهم يدعو إلى اتِّخاذ إلٰهٍ آخر مع اللّه، وأنَّ كلَّ الرُّسل من أوَّلهم إلى آخرِهم يدعون إلى عبادةِ اللّه وحدَه لا شريك له؛ قال تعالى: ﴿ولقد بَعَثْنا في كلِّ أمَّةٍ رسولاً أنِ اعبُدوا اللّه واجْتَنِبوا الطاغوتَ﴾، وكلُّ رسول بعثه اللّه يقولُ لقومه: ﴿اعبُدوا اللّه ما لَكُم من إلٰهٍ غيرُه﴾، فدلَّ هٰذا أنَّ المشركين ليس لهم مستندٌ في شركهم لا من عقل صحيح ولا نقل عن الرسل.

(١) كذا في (ب) وفي (أ): «استخبرت».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ[1] فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ لما قال تعالى: ﴿واسألْ مَنْ أرسلْنا من قبلك من رسلنا أجعَلْنا من دونِ الرحمٰن آلهةً يُعْبَدون﴾؛ بيَّن تعالى حالَ موسى ودعوتَهُ التي هي أشهرُ ما يكونُ من دَعوات الرسل، ولأنَّ اللّه تعالى أكثر من ذِكْرِها في كتابه، فذكر حالَه مع فرعون [فقال]: ﴿ولقد أرسَلْنا موسى بآياتنا﴾: التي دلَّت دلالةً قاطعةً على صحَّة ما جاء به؛ كالعصا والحية وإرسال الجراد والقمَّل... إلى آخر الآيات، ﴿إلى فرعون وملئِهِ فقال إنِّي رسولُ ربِّ العالمين﴾: فدعاهم إلى الإقرار بربِّهم، ونهاهم عن عبادةِ ما سواه.

﴿٤٧ ـ ٤٨﴾ ﴿فلمَّا جاءهم بآياتِنا إذا هم منها يضحَكون﴾؛ أي: ردُّوها وأنكروها واستهزؤوا بها ظلماً وعلوًّا، فلم يكنْ لقصورٍ بالآيات وعدم وضوح فيها، ولهٰذا قال: ﴿وما نُريهم من آيةٍ إلَّا هي أكبرُ من أختِها﴾؛ أي: الآيةُ المتأخرةُ أعظم من السابقة، ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾: كالجراد والقمل والضفادع والدَّم آياتٍ مفصلاتٍ، ﴿لعلَّهم يرجِعون﴾: إلى الإسلام ويُذْعِنون له؛ ليزولَ شركهم وشرُّهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وقالوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يا أيُّها الساحرُ﴾: يعنون: موسى عليه السلام، وهٰذا إمَّا من باب التهكُّم به، وإمَّا أن يكون هٰذا الخطاب عندهم مدحاً، فتضرَّعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به مَنْ يزعُمون أنَّهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا: ﴿يا أيها الساحرُ ادعُ لنا ربَّك بما عَهِدَ عندك﴾؛ أي: بما

(١) في (ب): إلى آخر القصة.

خصَّك اللّه به وفضّلك به من الفضائل والمناقب أن يكشفَ عنَّا العذاب، ﴿إنَّنا لمهتدونَ﴾: إنْ كشف اللّه عنَّا ذٰلك.

﴿٥٠﴾ ﴿فلمَّا كَشَفْنا عنهم العذابَ إذا هم ينكُثون﴾؛ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمرُّوا على كفرهم، وهٰذا كقولِهِ تعالى: ﴿فأرسَلْنا عليهم الطُّوفان والجرادَ والقمَّلَ والضفادع والدَّم آياتٍ مفصَّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾، ولما وقع عليهم الرجزُ؛ قالوا: ﴿يا موسى ادعُ لنا ربَّكَ بما عهدَ عندك لئنْ كَشَفْتَ عنَّا الرجزَ لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بني إسرائيلَ. فلمَّا كَشَفْنا عنهم الرِّجْزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكُثونَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿ونادى فرعونُ في قومه قال﴾: مستعلياً بباطلِهِ قد غرَّه مُلكه وأطغاه ماله وجنودُه: ﴿يا قوم أليس لي ملكُ مصرَ﴾؛ أي: ألست المالك لذٰلك المتصرف فيه؟ ﴿وهٰذه الأنهار تجري من تحتي﴾؛ أي: الأنهار المنسحبة من النيل في وسط القصور والبساتين. ﴿أفلا تبصِرونَ﴾: هٰذا الملكَ الطويلَ العريضَ؟! وهٰذا من جهله البليغ؛ حيث افتخر بأمرٍ خارج عن ذاته، ولم يفخرْ بأوصافٍ حميدةٍ، ولا أفعال سديدةٍ.

﴿٥٢﴾ ﴿أم أنا خيرٌ من هٰذا الذي هو مَهينٌ﴾؛ يعني قبَّحه اللّه بالـمَهينِ موسى بن عمران كليم الرحمٰن الوجيه عند اللّه؛ أي: أنا العزيز وهو الذَّليل المهان المحتقر؛ فأيُّنا خيرٌ؟! ﴿و﴾ مع هٰذا؛ فلا ﴿يكادُ يُبينُ﴾ عما في ضميرِهِ بالكلام؛ لأنَّه ليس بفصيح اللسان، وهٰذا ليس من العيوب في شيءٍ، إذا كان يُبين ما في قلبِهِ، ولو كان ثقيلاً عليه الكلام.

﴿٥٣﴾ ثم قال فرعونُ: ﴿فلولا أُلقِيَ عليه أسورةٌ من ذهبٍ﴾؛ أي: فهلاً كان موسى بهٰذه الحالة: أن يكون مزيناً مجملاً بالحُلِيِّ والأساور، ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾: يعاونونه على دعوته ويؤيِّدونه على قوله.

﴿٥٤﴾ ﴿فاستخفَّ قومَه فأطاعوه﴾؛ أي: استخفَّ عقولَهم بما أبدى لهم من هٰذه الشُّبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حقٍّ ولا على باطل، ولا تروج إلَّا على ضعفاء العقول؛ فأيُّ دليل يدلُّ على أن فرعون محقٌّ لكون ملك مصرَ له وأنهاره تجري من تحته؟! وأيُّ دليل يدلُّ على بطلان ما جاء به موسى لقلَّة أتباعِهِ وثقل لسانِهِ وعدم تحليةِ الله له؟! ولٰكنَّه لقي ملأً لا معقول عندَهم؛ فمهما قال؛ اتَّبعوه؛ من حقٍّ وباطل. ﴿إنَّهم كانوا قوماً

فاسقين﴾: فبسبب فسقِهم قيَّض لهم فرعونَ، يزيِّن لهم الشركَ والشرَّ.

﴿٥٥ ـ ٥٦﴾ ﴿فلمَّا آسفونا﴾؛ أي: أغضبونا بأفعالهم، ﴿انتقَمْنا منهم فأغرقْناهم أجمعين. فجعلناهم سَلَفاً ومثلاً للآخرين﴾: ليعتبر بهم المعتبرونَ، ويتَّعِظَ بأحوالهم المتَّعظون.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٥٧﴾ يقول تعالى: ﴿ولما ضُرِبَ ابنُ مريم مثلاً﴾؛ أي: نُهي عن عبادته وجُعلت عبادتُه بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد، ﴿إذا قومُك﴾: المكذِّبون لك ﴿منه﴾؛ أي: من أجل هٰذا المثل المضروب، ﴿يَصُدُّون﴾؛ أي: يستلجُون في خصومتهم لك ويصيحون ويزعُمون أنَّهم قد غلَبوا في حجَّتهم وأفلجوا.

﴿٥٨﴾ ﴿وقالوا أآلهتُنا خيرٌ أم هو﴾؛ يعني: عيسى؛ حيث نُهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عَبَدهم، ونزل أيضاً قوله تعالى: ﴿إنَّكم وما تَعْبُدونَ من دونِ الله حَصَبُ جهنَّمَ أنتم لها وارِدونَ﴾. ووجه حجَّتهم الظالمة أنَّهم قالوا: قد تقرَّر عندنا وعندك يا محمدُ أنَّ عيسى من عبادِ الله المقرَّبين الذين لهم العاقبة الحسنة؛ فَلِمَ سوَّيْت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟! فلولا أن حجَّتك باطلةٌ؛ لم تتناقضْ؟! ولم قلت: ﴿إنَّكم وما تعبُدون من دون الله حَصَبُ جهنَّم أنتم لها وارِدونَ﴾؟! وهٰذا اللفظ بزعمهم يعمُّ الأصنام وعيسى؛ فهل هٰذا إلَّا تناقضٌ؟ وتناقضُ الحجَّة دليلٌ على بطلانها! هٰذا أنهى ما يقررون به هٰذه الشبهة الذين[1] فرحوا بها واستبشروا وجعلوا يصدُّون ويتباشرون. وهي ـ ولله الحمدُ ـ من

(١) كذا في (أ) و(ب): «الذي».

أضعف الشُّبه وأبطلها؛ فإنَّ تسوية اللّه بين النهي عن عبادة المسيح وبين النهي عن عبادة الأصنام؛ لأنَّ العبادة حقٌّ للّه تعالى، لا يستحقُّها أحدٌ من الخلق لا الملائكة المقرَّبون ولا الأنبياء المرسلون ولا من سواهم من الخلق؛ فأيُّ شبهةٍ في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟!

﴿٥٩﴾ وليس تفضيل عيسى [عليه] السلام وكونِهِ مقرّباً عند ربِّه ما يدلُّ على الفرق بينَه وبينَها في هٰذا الموضع، وإنَّما هو كما قال تعالى: ﴿إنْ هو إلَّا عبدٌ أنعَمْنا عليه﴾: بالنبوَّة والحكمة والعلم والعمل، ﴿وجَعَلْناه مثلاً لبني إسرائيل﴾: يعرِفون به قدرةَ اللّه تعالى على إيجادِهِ من دون أبٍ. **وأمَّا** قوله تعالى: ﴿إنَّكم وما تعبدونَ من دونِ اللّه حَصَبُ جهنَّم أنتم لها واردونَ﴾؛ فالجواب عنها من **ثلاثة أوجه: أحدها**: أنَّ قوله: ﴿إنَّكم وما تعبُدونَ من دونِ اللّه﴾ أنَّ ﴿ما﴾ اسمٌ لما لا يعقل لا يدخل فيه المسيح ونحوه. **الثاني**: أنَّ الخطاب للمشركين الذين بمكَّة وما حولها، وهم إنَّما يعبدون أصناماً وأوثاناً ولا يعبدون المسيح. **الثالث**: أنَّ اللّه قال بعد هٰذه الآية: ﴿إنَّ الذين سبقتْ لهم منَّا الحُسنى أولٰئك عنها مبعَدونَ﴾؛ فلا شكَّ أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلونَ في هٰذه الآية.

﴿٦٠﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولو نشاءُ لَجَعَلْنا منكم ملائكةً في الأرض يخلُفون﴾؛ أي: لجعلنا بَدَلَكم ملائكةً يخلُفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكةً من جنسهم، وأما أنتم يا معشرَ البشر؛ فلا تطيقونَ أن ترسل إليكم الملائكةُ؛ فمن رحمة اللّه بكم أن أرسلَ إليكم رُسُلاً من جنسكم تتمكَّنون من الأخذ عنهم.

﴿٦١﴾ ﴿وإنَّه لَعِلْمٌ للساعة﴾؛ أي: وإنَّ عيسى عليه السلام لدليلٌ على الساعة، وأنَّ القادر على إيجادِهِ من أمٍّ بلا أبٍ قادرٌ على بعثِ الموتى من قبورِهم، أو: وإنَّ عيسى عليه السلام سينزلُ في آخر الزمان ويكونُ نزولُه علامةً من علامات الساعة، ﴿فلا تَمْتَرُنَّ بها﴾؛ أي: لا تشكُّنَّ في قيام الساعة؛ فإنَّ الشكَّ فيها كفر، ﴿واتَّبعونِ﴾: بامتثال ما أمرتُكم واجتنابِ ما نهيتُكم، ﴿هٰذا صراطٌ مستقيمٌ﴾: موصلٌ إلى اللّه عزَّ وجلَّ.

﴿٦٢﴾ ﴿ولا يَصُدَّنَّكُمُ الشيطانُ﴾: عما أمركم اللّه به؛ فإنَّ الشيطانَ ﴿لكم عدوٌّ مبينٌ﴾: حريصٌ على إغوائكم، باذلٌ جهدَه في ذٰلك.

﴿٦٣﴾ ﴿ولمَّا جاء عيسى بالبيِّناتِ﴾: الدالَّة على صدق نبوَّته وصحَّة ما جاءهم

به من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذٰلك من الآيات، ﴿قال﴾: لبني إسرائيل: ﴿قد جئتكم بالحكمةِ﴾: النبوّة والعلم بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ﴿ولأبيِّنَ لكم بعضَ الذي تختلفون فيه﴾؛ أي: أبين لكم صوابَه وجوابَه، فيزول عنكم بذٰلك اللبس، فجاء عليه السلام مكمِّلاً ومتمِّماً لشريعة موسى عليه السلام ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلاتِ الموجبة للانقياد له وقَبول ما جاءهم به. ﴿فاتَّقوا الله وأطيعونِ﴾؛ أي: اعبدوا الله وحدَه لا شريك له، وامتثلوا أمره، واجتنبوا نهيَه، وآمنوا بي، وصدِّقوني، وأطيعون.

﴿٦٤﴾ ﴿إنَّ الله هو ربِّي وربُّكم فاعبُدوه هٰذا صراطٌ مستقيمٌ﴾: ففيه الإقرارُ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة بأنَّ الله هو المربِّي جميع خلقه بأنواع النِّعم الظاهرة والباطنة، والإقرارُ بتوحيد العبوديَّة بالأمر بعبادة الله وحدَه لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنَّه عبدٌ من عباد الله، ليس كما قال النصارى فيه[1]: إنَّه ابنُ الله أو ثالثُ ثلاثة، والإخبارُ بأنَّ هٰذا المذكور صراطٌ مستقيمٌ موصلٌ إلى الله وإلى جنَّته.

﴿٦٥﴾ فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهٰذا، ﴿اختلف الأحزابُ﴾: المتحزِّبون على التكذيب، ﴿من بينِهِم﴾: كلٌّ قال بعيسى عليه السلام مقالةً باطلةً وردَّ ما جاء به؛ إلَّا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدَّقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنَّه عبدُ الله ورسوله. ﴿فويلٌ للذين ظلموا [من عذاب يوم أليم]﴾؛ أي: ما أشدَّ حزن الظالمين! وما أعظم خسارَهم في ذٰلك اليوم!

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٦٦﴾ يقول تعالى: ما ينتظر المكذِّبون؟! وما يتوقَّعون ﴿إلَّا الساعة أن تأتِيَهم بغتةً وهم لا يشعرونَ﴾؛ أي: فإذا جاءت؛ فلا تسألوا عن أحوال من كذَّب بها واستهزأ بمن جاء بها.

(١) في (ب): «كما قال فيه النصارى».

﴿٦٧﴾ وإن الأخِلاَّء يومَ القيامةِ، المتخالِّين على الكفر والتكذيب ومعصية الله، ﴿بعضُهم لبعض عدوٌّ﴾: لأنَّ خُلَّتَهم ومحبَّتهم في الدُّنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة ﴿إلَّا المتَّقين﴾: للشرك والمعاصي؛ فإنَّ محبَّتهم تدوم وتتَّصل بدوام مَنْ كانت المحبَّة لأجلِهِ.

﴿٦٨﴾ ثُمَّ ذكر ثواب المتَّقين، وأنَّ الله تعالى يناديهم يوم القيامةِ بما يسرُّ قلوبَهم ويذهب عنهم كلَّ آفةٍ وشرٍّ، فيقول: ﴿يا عبادِ لا خوفٌ عليكُم اليومَ ولا أنتُم تَحزَنونَ﴾؛ أي: لا خوفٌ يلحقُكم فيما تستقبِلونه من الأمور، ولا حزنٌ يُصيبُكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كلِّ وجه؛ ثبت المحبوب المطلوب.

﴿٦٩﴾ ﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مُسلِمينَ﴾؛ أي: وصفهم الإيمانُ بآيات الله، وذٰلك يشمل للتصديق بها، وما[1] لا يتمُّ التصديق إلَّا به من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها، وكانوا مسلمينَ للَّه منقادينَ له في جميع أحوالِهِم، فجمعوا بين الاتِّصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿٧٠﴾ ﴿ادخُلوا الجنَّةَ﴾: التي هي دارُ القرارِ ﴿أنتُم وأزواجُكم﴾؛ أي: مَنْ كان على مثل عملِكُم من كلِّ مقارن لكم من زوجةٍ وولدٍ وصاحبٍ وغيرهم، ﴿تُحبَرونَ﴾؛ أي: تَنعمون وتُكْرمون، ويأتيكم من فضل ربِّكم من الخيرات والسرور والأفراح واللَّذَّات ما لا تُعَبِّرُ الألسنُ عن وصفه.

﴿٧١﴾ ﴿يطافُ عليهم بصحافٍ من ذهبٍ وأكوابٍ﴾؛ أي: تدور عليهم خدَّامهم من الولدانِ المخلَّدين بطعامِهم بأحسنِ الأواني وأفخرِها، وهي صحافُ الذهب، وبشرابهم بألطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، منٍ فضة أعظم من صفاءِ القوارير، ﴿وفيها﴾؛ أي: الجنة ﴿ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعينُ﴾: وهٰذا اللفظ جامعٌ، يأتي على كلِّ نعيم وفرح وقرَّة عين وسرور قلبٍ؛ فكلُّ ما تشتهيه النُّفوس من مطاعم ومشارب وملابس ومناكح، ولذَّته العيون من مناظر حسنةٍ وأشجارٍ محدقةٍ ونعم مونقةٍ ومبانٍ مزخرفةٍ؛ فإنَّه حاصلٌ فيها معدٌّ لأهلها على أكمل الوجوه وأفضلها؛ كما قال تعالى: ﴿لهم فيها فاكهةٌ ولهم ما يَدَّعونَ﴾. ﴿وأنتم فيها خالدونَ﴾: وهٰذا هو تمامُ نعيم أهل الجنة، وهو الخُلْدُ الدائمُ فيها، الذي يتضمَّن دوام نعيمِها وزيادتَه وعدم انقطاعه.

---

(١) في (ب): «وبما».

﴿٧٢﴾ ﴿وتلك الجنَّة﴾: الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿التي أورِثْتُموها بما كُنتُم تعملونَ﴾؛ أي: أورثكم اللَّه إيَّاها بأعمالكم، وجعلها من فضلِهِ جزاء لها، وأودع فيها من رحمتِهِ ما أودعَ.

﴿٧٣﴾[1] ﴿لكم فيها فاكهةٌ كثيرةٌ﴾؛ كما في الآية الأخرى: ﴿فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجانِ﴾، ﴿منها تأكلونَ﴾؛ أي: مما تتخيَّرون من تلك الفواكه الشهيَّة والثمار اللذَّيذة تأكلون.

ولما ذكر نعيم الجنة عقَّبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿٧٤﴾ ﴿إنَّ المجرمينَ﴾: الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿في عذاب جهنَّم﴾؛ أي: منغمرون فيه، محيطٌ بهم العذاب من كلِّ جانب، ﴿خالدونَ﴾: فيه لا يخرُجونَ منه أبداً.

﴿٧٥﴾ و﴿لا يُفَتَّرُ عنهم﴾: العذابُ ساعةً [لا بإزالته][2] ولا بتهوين عذابه، ﴿وهم فيه مُبلِسونَ﴾؛ أي: آيسون من كلِّ خير، غير راجين للفرج، وذٰلك أنَّهم ينادون ربَّهم، فيقولون: ﴿ربَّنا أخرِجْنا منها فإنْ عُدْنا فإنَّا ظالمونَ. قال اخسؤوا فيها ولا تُكَلِّمونَ﴾.

﴿٧٦﴾ وهٰذا العذابُ العظيم بما قدَّمت أيديهم وبما ظلموا به أنفسَهم، واللَّه لم يظلِمْهم ولم يعاقِبْهم بلا ذنبٍ ولا جرم.

﴿٧٧﴾ ﴿ونادوا﴾: وهم في النار لعلَّهم يحصل لهم استراحةٌ: ﴿يا مالِكُ ليقضِ علينا ربُّك﴾؛ أي: لِيُمِتْنا[3] فنستريحَ؛ فإنَّنا في غمٍّ شديدٍ وعذابٍ غليظٍ لا صبر لنا عليه ولا جَلَد، فَـ﴿قال﴾ لهم مالكٌ خازنُ النار حين طلبوا منه أنْ يَدْعُوَ اللَّه لهم أن يقضي عليهم: ﴿إنَّكم ماكثونَ﴾؛ أي: مقيمون فيها لا تخرجون عنها أبداً، فلم

---

(١) في (ب): «قدّم تفسير الآية (٧٣) على الآية (٧٢).

(٢) في (ب) بإزالته.

(٣) في (ب): «ليميتنا».

يحصُلْ لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدِهِم، وزادَهم غمًّا إلى غمِّهم.

﴿٧٨﴾ ثم وبَّخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لقد جئناكم بالحقِّ﴾: الذي يوجب عليكم أن تتَّبِعوه، فلو تبِعْتُموه؛ لفزتُم وسعدتُم، ﴿ولٰكنَّ أكثركم للحقِّ كارهونَ﴾: فلذٰلك شقيتُم شقاوةً لا سعادة بعدها.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿٧٩﴾ يقول تعالى: ﴿أم أبرموا﴾؛ أي: أبرمَ المكذِّبون بالحقِّ المعاندون له ﴿أمراً﴾؛ أي: كادوا كيداً ومكروا للحقِّ ولمن جاء بالحقِّ ليدحضوه بما موَّهوا من الباطل المزخرف المزوَّق، ﴿فإنَّا مبرِمون﴾؛ أي: محكمون أمراً ومدبِّرون تدبيراً يعلو تدبيرَهم وينقضُهُ ويبطِلُه. وهو ما قيَّضه اللّه من الأسباب والأدلَّة لإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿بل نَقْذِفُ بالحقِّ على الباطل فيدمغُهُ﴾.

﴿٨٠﴾ ﴿أم يحسبونَ﴾: بجهلهم وظلمِهِم ﴿أنّا لا نسمعُ سرَّهم﴾: الذي لم يتكلَّموا به، بل هو سرٌّ في قلوبهم، ﴿ونجواهم﴾؛ أي: كلامهم الخفيَّ الذي يتناجَوْن به؛ أي: فلذٰلك أقدموا على المعاصي، وظنُّوا أنَّها لا تبعةَ لها ولا مجازاة على ما خفي منها، فردَّ اللّه عليهم بقوله: ﴿بلى﴾؛ أي: إنا نعلم سرَّهم ونجواهم، ﴿ورسُلُنا﴾: الملائكة الكرام ﴿لديهم يكتُبونَ﴾: كلَّ ما عملوه، وسيحفظُ ذٰلك عليهم حتى يَرِدوا القيامةَ فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربُّك أحداً.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿٨١﴾ أي: قل يا أيُّها الرسول الكريم للذين جعلوا للّه ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصَّمد، الذي لم يتَّخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحدٌ: ﴿قل إن كان للرحمٰن ولدٌ فأنا أوَّلُ العابدينَ﴾: لذٰلك الولد؛ لأنه جزءٌ من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأوامر المحبوبة للّه، ولكنِّي أولُ المنكرين لذٰلك، وأشدُّهم له نفياً، فعلم بذٰلك بطلانه؛ فهٰذا احتجاجٌ عظيم عند من عرفَ أحوال الرسل، وأنَّه إذا علم أنَّهم أكملُ الخلق، وأنَّ كلَّ خير فهم أول الناس سبقاً إليه وتكميلاً له. وكلُّ شرٍّ فهم أولُ الناس تركاً له وإنكاراً له وبعداً منه؛ فلو كان للرحمٰن ولدٌ، وهو الحقُّ؛ لكان محمدُ بنُ عبد اللّه أفضلَ الرسل أول مَنْ عَبَدَه، ولم يسبقْه إليه المشركون.

**ويُحتمل** أنَّ معنى الآية: لو كان للرحمٰن ولدٌ؛ فأنا أولُ العابدين للّه، ومن عبادتي للّه إثباتُ ما أثبته ونفيُ ما نفاه؛ فهٰذا من العبادة القوليَّة الاعتقاديَّة، ويلزم من هٰذا لو كان حقًّا؛ لكنتُ أول مثبتٍ له، فعلم بذٰلك بطلانُ دعوى المشركين وفسادها عقلاً ونقلاً.

﴿٨٢﴾ **﴿سبحانَ ربِّ السمٰواتِ والأرض ربِّ العرش عمَّا يصفونَ﴾**: من الشريك والظَّهير والعوين والولد وغير ذٰلك مما نسبه إليه المشركون.

﴿٨٣﴾ **﴿فذَرْهم يخوضوا ويلعبوا﴾**؛ أي: يخوضوا بالباطل ويلعبوا بالمحال؛ فعلومُهم ضارةٌ غير نافعةٍ، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارِضون بها الحقَّ وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعبٌ وسفاهةٌ لا تزكِّي النفوس ولا تثمِرُ المعارفَ، ولهٰذا توعَّدهم بما أمامهم يوم القيامةِ، فقال: **﴿حتى يلاقوا يومَهم الذي يوعَدونَ﴾**: فسيعلمون فيه ماذا حَصَّلوا، وما حَصَلوا عليه من الشقاءِ الدائم والعذاب المستمرِّ.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿٨٤﴾ يخبر تعالى أنَّه وحده المألوهُ المعبودُ في السماواتِ والأرض، فأهل السماوات كلُّهم، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدُونَه ويعظِّمونه ويخضعون لجلاله ويفتِقرون لكماله، ﴿تسبِّحُ له السمٰواتُ السبع والأرضُ ومن فيهن﴾، ﴿وإن من شيءٍ إلَّا يسبِّحُ بحمدِه﴾، ﴿وللّه يسجُدُ من في السمٰواتِ والأرض طوعاً وكرهاً﴾. فهو تعالى المألوه المعبودُ الذي يألهه الخلائق كلُّهم طائعين مختارين وكارهين، وهٰذه كقولِهِ تعالى: ﴿وهو اللّه في السماواتِ وفي الأرض﴾؛ أي: ألوهيَّته ومحبته فيهما وأما هو فإنه فوق عرشه بائن من خلقه متوحدٌ بجلاله متمجدٌ بكماله. **﴿وهو الحكيمُ﴾**: الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه؛ فما خلق شيئاً إلَّا لحكمةٍ، ولا شرع شيئاً إلَّا لحكمةٍ، وحكمهُ القدريُّ والشرعيُّ والجزائيُّ مشتملٌ على الحكمة، **﴿العليم﴾**: بكلِّ شيء، يعلم السِّر وأخفى، ولا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرَّة في العالم العلويِّ والسفليِّ ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿٨٥﴾ **﴿وتبارك الذي له ملك السمٰواتِ والأرض وما بينهما﴾**: ﴿تبارك﴾؛

بمعنى. تعالى وتعاظم وكثُر خيرُه واتَّسعت صفاتُه وعظُم ملكه، ولهذا ذكر سَعَةَ ملكِهِ للسمواتِ والأرض وما بينهما، وسَعَةَ علمِهِ، وأنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، حتى إنه تعالى انفردَ بعلم الغيوب[1]، التي لم يطَّلع عليها أحدٌ من الخلق؛ لا نبيٌّ مرسلٌ ولا ملكٌ مقربٌ، ولهذا قال: ﴿وعنده علمُ الساعةِ﴾: قدَّم الظرفَ ليفيد الحصر؛ أي: لا يعلم متى تجيء الساعةُ إلَّا هو. ومن تمام ملكِهِ وسعته أنَّه مالك الدُّنيا والآخرة، ولهٰذا قال: ﴿وإليه ترجعون﴾؛ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمِهِ العدل.

﴿٨٦﴾ ومن تمام ملكِهِ أنَّه لا يملكُ أحدٌ من خلقِهِ من الأمر شيئاً، ولا يقدِم على الشفاعة عنده أحدٌ إلَّا بإذنه. ﴿ولا يملكُ الذين يدعونَ من دونِهِ الشفاعةَ﴾؛ أي: كلُّ مَنْ دُعِيَ من دون الله من الأنبياء والملائكة وغيرهم لا يملكونَ الشفاعةَ ولا يشفعونَ إلَّا بإذن الله ولا يشفعونَ إلَّا لِمن ارتضى، ولهٰذا قال: ﴿إلَّا مَنْ شَهِدَ بالحقِّ﴾؛ أي: نطق بلسانه مقرًّا بقلبه عالماً بما شهد به، ويشترطُ أن تكونَ شهادته بالحقِّ، وهو الشهادةُ لله تعالى بالوحدانيَّةِ، ولرسله بالنبوَّة والرسالة، وصحَّة ما جاؤوا به من أصول الدين وفروعه وحقائقه وشرائعه؛ فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعةُ الشافعين، وهٰؤلاء الناجون من عقاب الله، الحائزون لثوابه.

﴿٨٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتَهم مَن خَلَقَهم لَيقولنَّ اللهُ﴾؛ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبيَّة ومَن هو الخالق؛ لأقرُّوا أنَّه الله وحدَه لا شريك له، ﴿فأنَّى يُؤفَكونَ﴾؛ أي: فكيف يُصْرَفون عن عبادة الله والإخلاص له وحدَه؟! فإقرارهُم بتوحيد الرُّبوبيَّة يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلَّة على بطلان الشرك.

﴿٨٨﴾ ﴿وقيله ياربِّ إنَّ هٰؤلاء قومٌ لا يؤمنون﴾: هٰذا معطوف على قولِهِ: ﴿وعندهُ علمُ الساعةِ﴾؛أي: وعنده علم قيلِهِ؛ أي: الرسول ﷺ شاكياً لربِّهِ تكذيب قومِهِ، متحزِّناً على ذٰلك،متحسِّراً على عدم إيمانهم؛ فالله تعالى عالمٌ بهٰذه الحال، قادرٌ على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حليمٌ، يمهلُ العباد، ويستأني بهم لعلَّهم يتوبون ويرجِعون.

﴿٨٩﴾ ولهٰذا قال: ﴿فاصفحْ عنهم وقُلْ سلامٌ﴾؛ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من

(١) في (ب): «انفرد بعلم كثير من الغيوب». ثم ضربَ الشيخ على «كثير من» في (أ).

أذيَّتِهِمْ القوليَّة والفعليَّة، واعفُ عنهم، ولا يبدر منك لهم إلَّا السلامُ الذي يقابِل به أولو الألباب والبصائر للجاهلين؛ كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلونَ﴾؛ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم، ﴿قالوا سلاماً﴾. فامتثل ﷺ لأمر ربِّه، وتلقَّى ما يصدُرُ إليه من قومِهِ وغيرهم من الأذى بالعفو والصفح، ولم يقابِلْهم عليه السلام إلَّا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل؛ فصلوات الله وسلامُه على مَن خصه الله بالخُلُق العظيم الذي فَضَلَ به أهلَ الأرض والسماء، وارتفعَ به أعلى من كواكبِ الجوزاءِ، وقوله: ﴿فسوفَ يَعلمونَ﴾؛ أي: غِبَّ ذُنوبهم وعاقبةَ جُرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف. ولله الحمد والمنة.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الدخان

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ هٰذا قسمٌ بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكلِّ ما يحتاج إلى بيانه أنَّه أنزله ﴿في ليلةٍ مباركةٍ﴾؛ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلةُ القدرِ، التي هي خيرٌ من ألف شهرٍ، فأنزل أفضلَ الكلام بأفضل الليالي والأيام على أفضل الأنام بلغة العرب الكرام؛ لينذِرَ به قوماً عمَّتهم الجهالةُ وغلبت عليهم الشَّقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبِسوا من هُداه، ويسيروا وراءه، فيحصُلُ لهم الخير الدنيويُّ والخير الأخرويُّ، ولهٰذا قال: ﴿إنَّا كُنَّا منذِرينَ﴾.

﴿٤﴾ ﴿فيها﴾؛ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نَزَلَ فيها القرآن، ﴿يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم﴾؛ أي: يفصل ويميِّز ويُكتب كلُّ أمر قدريٍّ وشرعيٍّ حكم اللّه به. وهٰذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر إحدى[1] الكتابات التي تُكتب وتميَّز، فتطابق الكتابَ الأوَّلَ الذي كتبَ اللّه به مقاديرَ الخلائق وآجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم. ثم إنَّ اللّه تعالى قد وَكَلَ ملائكةً تكتب ما سيجري على العبد وهو في بطن أمِّه. ثم وَكَلَهم بعد خروجه[2] إلى الدنيا؛ وَكَلَ به كراماً كاتبين يكتبون ويحفظون عليه أعماله. ثم إنَّه تعالى يقدِّرُ في ليلة القدر ما يكونُ في السنةِ، وكلُّ هٰذا من تمام علمه وكمال حكمتِهِ وإتقان حفظِهِ واعتنائه تعالى بخلقه.

﴿٥﴾ ﴿أمراً من عندنا﴾؛ أي: هٰذا الأمر الحكيم أمرٌ صادرٌ من عندنا. ﴿إنَّا كنَّا مرسلينَ﴾: للرسل ومنزلينَ للكتب، والرسلُ تبلِّغ أوامر المرسَل وتخبِرُ بأقدارِهِ.

﴿٦﴾ ﴿رحمةً من ربِّك﴾؛ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلُها القرآن رحمةٌ من ربِّ العباد بالعباد؛ فما رحم اللّه عبادَه برحمةٍ أجلَّ من هدايتهم بالكتب والرسل، وكلُّ خير ينالونه في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّه من أجل ذٰلك وبسببه. ﴿إنَّه هو السميعُ العليم﴾؛ أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورةَ العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذٰلك ومنَّ عليهم؛ فللّه[3] تعالى الحمدُ والمنةُ والإحسان.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿ربِّ السمٰوات والأرض وما بينهما﴾؛ أي: خالق ذٰلك ومدبِّره والمتصرِّف فيه بما يشاء، ﴿إن كنتُم موقِنين﴾؛ أي: عالمين بذٰلك علماً مفيداً لليقين؛ فاعْلموا أنَّ الربَّ للمخلوقات هو إلٰهها الحقُّ، ولهٰذا قال: ﴿لا إلٰه إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود إلَّا وجهه، ﴿يحيي ويميتُ﴾؛ أي: هو المتصرِّف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيَجْزيكم بعَمَلِكم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ. ﴿ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين﴾؛ أي: ربُّ الأوَّلين والآخرين؛ مربِّيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

﴿٩﴾ فلما قرَّر تعالى ربوبيَّته وألوهيَّته بما يوجب العلم التامَّ ويدفعُ الشكَّ؛ أخبر أنَّ الكافرين مع هٰذا البيان: ﴿في شكٍّ يلعبونَ﴾؛ أي: منغمرون في الشُّكوك

---

(١) في النسختين: «أحد». وأضيفت الألف المقصورة في (أ) بخطٍ مغاير.

(٢) في (ب): «وجوده». (٣) في (ب): «فله».

والشُّبهات، غافلون عمَّا خُلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يُجدي عليهم إلَّا الضَّرر.

﴿١٠ ـ ١٦﴾ ﴿فارتقِبْ﴾؛ أي: انتظر فيهم العذابَ؛ فإنَّه قد قربَ وآنَ أوانه، ﴿يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مبينٍ. يغشى الناسَ﴾؛ أي: يعمُّهم ذٰلك الدخان، ويقال لهم: ﴿هٰذا عذابٌ أليمٌ﴾. واختلف المفسِّرون في المراد بهٰذا الدُّخان:

**فقيل**: إنَّه الدخان الذي يغشى الناسَ ويعمُّهم حين تقرب النار من المجرمين في يوم القيامة، وأنَّ الله توعَّدهم بعذاب يوم القيامةِ، وأمر نبيَّه أن ينتظر بهم ذٰلك اليوم. ويؤيد هٰذا المعنى أنَّ هٰذه الطريقة هي طريقةُ القرآن في توعُّد الكفَّار والتأنِّي بهم وترهيبهم بذٰلك اليوم وعذابه وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم. ويؤيِّده أيضاً أنَّه قال في هٰذه الآية: ﴿أنَّى لهم الذِّكرى وقد جاءَهُم رسولٌ مبينٌ﴾، وهٰذا يُقال يومَ القيامةِ للكفار حين يطلبون الرجوعَ إلى الدُّنيا، فيقال: قد ذهب وقتُ الرجوع.

**وقيل**: إنَّ المراد بذٰلك ما أصاب كفارَ قريش حين امتنعوا من الإيمان واستَكْبروا على الحقِّ، فدعا عليهم النبيُّ ﷺ، فقال: «اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسنينَ كَسِني يوسُفَ»[1]. فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يَرَوْنَ الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذٰلك من شدَّة الجوع، فيكون على هٰذا قولُه: ﴿يوم تأتي السماءُ بدخانٍ﴾: أن ذٰلك بالنسبة إلى أبصارهم وما يشاهدون، وليس بدخانٍ حقيقةً، ولم يزالوا بهٰذه الحالة حتى استَرْحموا رسولَ الله ﷺ، وسألوه أن يَدْعُوَ اللهَ لهم أن يكشِفَه الله عنهم، [فدَعا ربَّه]؛ فكشفه الله عنهم، وعلى هٰذا فيكون قوله: ﴿إنَّا كاشِفو العذابِ قليلاً إنَّكم عائدونَ﴾: إخبارٌ بأنَّ الله سيصرِفُه عنهم[2]، وتوعُّدٌ لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبارٌ بوقوعه، فوقع، وأنَّ الله سيعاقِبُهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعةُ بدرٍ. وفي هٰذا القول نظرٌ ظاهرٌ.

**وقيل**: إنَّ المراد بذٰلك أن ذٰلك من أشراط الساعة، وأنَّه يكون في آخرِ الزَّمان دخانٌ يأخذُ بأنفاس الناس ويصيبُ المؤمنين منه كهيئةِ الدُّخان.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤ و٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٧) من حديث ابن مسعود.

(٢) في (ب): «عنكم». وقد صوّبها الشيخ في (أ): «عنهم».

والقول هو الأول[1]. وفي الآية احتمالُ أنَّ المراد بقوله: ﴿فارْتَقِبْ يوم تأتي السماءُ بدُخانٍ مبينٍ. يغشى الناسَ هٰذا عذابٌ أليمٌ. ربَّنا اكشِفْ عنَّا العذابَ إنَّا مؤمنونَ. أنَّى لهم الذِّكرى وقد جاءهُم رسولٌ مبينٌ. ثم تولَّوا عنه وقالوا معلمٌ مجنونٌ﴾: أنَّ هٰذا كلَّه [يكون] يوم القيامةِ، وأنَّ قولَه تعالى: ﴿إنَّا كاشفو العذابِ قليلاً إنَّكم عائدونَ. يوم نَبْطِشُ البطشةَ الكُبرى إنَّا منتقمونَ﴾: أنَّ هٰذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا أنزلت[2] هٰذه الآيات على هٰذين المعنيين؛ لم تجد في اللفظ ما يمنعُ من ذٰلك، بل تَجِدُها مطابقةً لهما أتمَّ المطابقة، وهٰذا الذي يظهر عندي ويترجَّح. واللّٰه أعلم.

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ[3] وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى تكذيبَ من كذَّب الرسول محمداً ﷺ؛ ذكر أن لهم سلفاً من المكذِّبين، فذكر قصَّتهم مع موسى، وما أحلَّ اللّٰه بهم؛ ليرتدعَ هٰؤلاء المكذِّبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿ولقد فتنَّا قبلهم قوم فرعون﴾؛ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

---

(١) قال ابن كثير: «وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهٰذا ـ وأن الدخان مضى ـ جماعة من السلف كمجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفي وهو اختيار ابن جرير» «تفسير ابن كثير» ط الشعب (٧/ ٢٣٣).

(٢) في (ب): «نزلت».

(٣) في (ب): إلى آخر القصة.

﴿١٨﴾ ﴿أنْ أدُّوا إليَّ عبادَ اللّه﴾؛ أي: قال لفرعون وملئهِ: أدُّوا إليَّ عباد اللّه؛ يعني بهم: بني إسرائيل؛ أي: أرسلوهم وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إيَّاهم سوء العذاب؛ فإنَّهم عشيرتي وأفضل العالمين في زمانهم، وأنتم قد ظلمتُموهم واستعبدتُموهم بغير حقٍّ، فأرسلوهم ليعبدوا ربَّهم. ﴿إنِّي لكم رسولٌ أمينٌ﴾؛ أي: رسول من ربِّ العالمين، أمينٌ على ما أرسلني به، لا أكتُمُكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقُصُ، وهٰذا يوجبُ تمامَ الانقياد له.

﴿١٩﴾ ﴿وأن لا تَعْلوا على اللّه﴾: بالاستكبار عن عبادتِهِ والعلوِّ على عباد اللّه. ﴿إنِّي آتيكُم بسلطانٍ مبينٍ﴾؛ أي: بحجَّة بيِّنةٍ ظاهرةٍ، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات والأدلَّة القاهرات.

﴿٢٠﴾ فكذَّبوه وهمُّوا بقتله، فلجأ إلى اللّه[1] من شرِّهم، فقال: ﴿وإنِّي عذتُ بربِّي وربِّكم أن تَرْجُمونِ﴾؛ أي: تقتلوني أشرَّ القِتلاتِ بالرجم بالحجارة.

﴿٢١﴾ ﴿وإن لم تؤمنوا لي فاْعَتزِلونِ﴾؛ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمانُ بي، وهو مقصودي منكم. فإنْ لم تَحْصُل منكم هٰذه المرتبة؛ فاعتزلون لا عليَّ ولا لي؛ فاكفوني شرَّكم. فلم تحْصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمرِّدين عاتين على اللّه محاربين لنبيِّه موسى عليه السلام غير ممكِّنين له من قومه بني إسرائيل.

﴿٢٢﴾ ﴿فدعا ربَّه أنَّ هٰؤلاء قومٌ مجرمونَ﴾؛ أي: قد أجرموا جرماً يوجب تعجيل العقوبةِ، فأخبر عليه السلام بحالهم، وهٰذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال؛ كما قال عن نفسه عليه السلام: ﴿ربِّ إنِّي لما أنزلتَ إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾.

﴿٢٣﴾ فأمره اللّه أن يسريَ بعباده ليلاً، وأخبره أنَّ فرعون وقومه سيتَّبِعونه.

﴿٢٤﴾ ﴿واتْرُكِ البحرَ رهواً﴾؛ [أي: بحاله]، وذٰلك أنَّه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره اللّه، ثم تبعهم فرعونُ، فأمر اللّه موسى أن يضربَ البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمةِ، فسلكه موسى وقومُه، فلما خرجوا منه؛ أمره اللّه أن يترُكَه ﴿رهواً﴾؛ أي: بحاله؛ ليسلُكَه فرعونُ وجنودُه. ﴿إنَّهم جندٌ مغرَقون﴾: فلمَّا تكامل قومُ موسى خارجين منه وقومُ فرعونَ داخلينَ فيه؛ أمره اللّه تعالى أن يَلْتَطِمَ عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما

(١) في (ب): «فلجأ بالله».

مُتِّعوا به من الحياة الدُّنيا، وأورثه اللّه بني إسرائيل الذين كانوا مستعبَدِين لهم.

﴿٢٥ ـ ٢٨﴾ ولهٰذا قال: ﴿كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ. وزروع ومقام كريم. ونعمةٍ كانوا فيها فاكهينَ. كذٰلك وأوْرَثْناها﴾؛ أي: هٰذه النعمة[1] المذكورة ﴿قوماً آخرينَ﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿كذٰلك وأوْرَثْناها بني إسرائيلَ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿فما بكتْ عليهم السماءُ والأرضُ﴾؛ أي: لمَّا أتلفهم اللّه وأهلكهم لم تبكِ عليهم السماء والأرض؛ أي: لم يُحزنْ عليهم ولم يُؤس على فراقهم، بل كلٌّ استبشر بهلاكِهِم وتلفِهِم، حتى السماء والأرض؛ لأنَّهم ما خَلَّفوا من آثارِهم إلَّا ما يسوِّدُ وجوهَهم ويوجبُ عليهم اللعنةَ والمقتَ من العالمين. ﴿وما كانوا مُنظَرين﴾؛ أي: ممهَلين عن العقوبة، بل اصطلمتْهم في الحال.

﴿٣٠ ـ ٣١﴾ ثم امتنَّ تعالى على بني إسرائيلَ، فقال: ﴿ولقد نَجَّينا بني إسرائيلَ من العذابِ المهينِ﴾: الذي كانوا فيه ﴿من فرعونَ﴾: إذ يذبحُ أبناءَهم ويستحيي نساءَهم، ﴿إنَّه كان عالياً﴾؛ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحقِّ، ﴿من المسرفين﴾: المتجاوزين لحدودِ اللّه المتجرِّئين على محارمه.

﴿٣٢﴾ ﴿ولقد اختَرْناهم﴾؛ أي: اصطفيناهم وانتقَيْناهم ﴿على علم﴾: منَّا بهم وباستحقاقهم لذٰلك الفضل ﴿على العالَمين﴾؛ أي: عالمي زمانهم ومَنْ قبلهم وبعدَهم، حتى أتى اللّهُ بأمة محمدٍ ﷺ ففضَلوا العالمينَ كلَّهم، وجعلهم اللّه خير أمَّة أخرجت للناس، وامتنَّ عليهم بما لم يمتنَّ به على غيرهم.

﴿٣٣﴾ ﴿وآتيناهم﴾؛ أي: بني إسرائيل ﴿من الآياتِ﴾: الباهرة والمعجزات الظاهرةِ ﴿ما فيه بلاءٌ مبينٌ﴾؛ أي: إحسانٌ كثيرٌ ظاهرٌ منَّا عليهم وحجَّة عليهم على صحَّة ما جاءهم به نبيُّهم موسى عليه السلام.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ يخبر تعالى ﴿إنَّ هٰؤلاءِ﴾: المكذِّبين، يقولون: مستبعِدين للبعث والنُّشور: ﴿إن هي إلَّا موتَتُنا الأولى وما نحنُ بمُنشَرينَ﴾؛ أي: ما هي إلَّا الحياة الدُّنيا؛ فلا بعثَ ولا نشورَ، ولا جنةَ ولا نارَ.

---

(١) في (ب): «النعم».

﴿٣٦﴾ ثم قالوا متجرِّئين على ربِّهم معجزين له: ﴿فأتوا بآبائِنا إن كنتُم صادقينَ﴾: وهٰذا من اقتراح الجَهَلَةِ المعانِدين في مكان سحيقٍ؛ فأيُّ ملازمة بين صدق الرسول ﷺ وأنَّه متوقِّف على الإتيان بآبائهم؛ فإنَّ الآيات قد قامت على صدِق ما جاءهم به وتواترتْ تواتراً عظيماً من كلِّ وجه؟!

﴿٣٧﴾ قال تعالى: ﴿أهم خيرٌ﴾؛ أي: هٰؤلاء المخاطبون، ﴿أم قومُ تُبَّع والذين من قبلِهِم أهلَكْناهم إنَّهم كانوا مجرمين﴾؟ فإنَّهم ليسوا خيراً منهم، وقد اشتركوا في الإجرام؛ فليتوقَّعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٣٨ ـ ٣٩﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرتِهِ وتمام حكمتِهِ، وأنَّه ما خَلَقَ السماواتِ والأرض لاعباً، ولا لهواً، وسدىً من غير فائدة، وأنَّه ما خلقهما ﴿إلاَّ بالحقِّ﴾؛ أي: نفسُ خلقهما بالحقِّ، وخلقُهما مشتملٌ على الحقِّ، وأنه أوجدهما لِيَعبدوه وحدَه لا شريك له، وليأمر العبادَ وينهاهم ويثيبَهم ويعاقِبَهم. ﴿ولٰكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ﴾؛ فلذٰلك لم يتفكَّروا في خَلْقِ السماواتِ والأرض.

﴿٤٠﴾ ﴿إنَّ يوم الفصل﴾: وهو يوم القيامة، الذي يفصِلُ اللّه به بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين، ﴿ميقاتُهم﴾؛ أي: الخلائق ﴿أجمعين﴾: كلُّهم سيجمعُهم اللّه فيه، ويحضِرُهم ويحضِرُ أعمالهم، ويكون الجزاء عليها.

﴿٤١﴾ لا ينفع ﴿مولى عن مولى شيئاً﴾: لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿ولا هم يُنصَرونَ﴾؛ أي: يمنعون من عذاب اللّه عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ أحداً من الخلق لا يملك من الأمر شيئاً.

﴿٤٢﴾ ﴿إلَّا مَن رَحِمَ اللّهُ إنَّه هو العزيزُ الرحيمُ﴾: فإنَّه هو الذي ينتفع ويرتفع برحمةِ اللّه تعالى التي تسبَّب إليها، وسعى لها سعيها في الدنيا. ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٣ ـ ٥٠﴾ لما ذَكَرَ يوم القيامة، وأنه يفصِلُ بين عباده فيه؛ ذَكَرَ افتراقهم إلى فريقين: فريقٍ في الجنة، وفريقٍ في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، وأنَّ طعامهم ﴿شجرة الزَّقُّوم﴾: شرُّ الأشجار وأفظعُها، وأنَّ طعامها ﴿كالمهل﴾؛ أي: كالصديد المنتن خبيث الريح والطعم شديد الحرارة، ﴿يَغْلي في﴾ بطونهم ﴿كغَلْي الحميم﴾، ويُقال للمعذَّب: ﴿ذُقْ﴾: هٰذا العذاب الأليم والعقاب الوخيم، ﴿إنَّك أنتَ العزيزُ الكريمُ﴾؛ أي: بزعمك أنك عزيزٌ ستمتنع من عذاب الله، وأنك كريم على الله لا يصيبُك بعذابٍ؛ فاليوم تبيَّن لك أنَّك أنت الذَّليل المهان الخسيس. ﴿إنَّ هٰذا﴾ العذاب العظيم، ﴿ما كنتُم به تمترونَ﴾؛ أي: تشكُّون؛ فالآن صار عندكم حقَّ اليقين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥١ ـ ٥٣﴾ هٰذا جزاءُ المتَّقين لله، الذي اتَّقوا سَخَطه وعذابه بتركهم المعاصي وفعلهم الطاعات، فلمَّا انتفى السخط عنهم والعذابُ؛ ثبت لهم الرِّضا من الله والثواب العظيم في ظلٍّ ظليل من كثرة الأشجار والفواكه، وعيونٍ سارحةٍ تجري من تحتهم الأنهار يفجِّرونها تفجيراً، في جنات النعيم، فأضاف الجناتِ إلى النعيم؛ لأن كُلَّ ما اشتملت عليه، كله نعيمٌ وسرورٌ كامل من كلِّ وجهٍ، ما فيه منغصٌ ولا مكدرٌ بوجه من الوجوه، ولباسُهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق؛ أي: غليظ الحرير ورقيقه ممَّا تشتهيهُ أنفسُهم، ﴿متقابلين﴾: في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة والطمأنينة والمحبَّة والعشرة الحسنة والآداب المستحسنة.

﴿٥٤﴾ ﴿كذٰلك﴾: النعيم التام والسرور الكامل، ﴿وزوَّجْناهم بحورٍ﴾[1]؛ أي: نساء جميلات من جمالهنَّ وحسنهنَّ أنه يَحارُ الطرفُ في حسنهنَّ، وينبهر العقل بجمالهنَّ وينخلبُ اللبُّ لكمالهن، ﴿عينٍ﴾؛ أي: ضخام الأعين حسانها.

﴿٥٥﴾ ﴿يَدْعون فيها﴾: أي: الجنة ﴿بكلِّ فاكهةٍ﴾: مما له اسمٌ في الدُّنيا ومما

---

(١) في (ب): «بحور عين».

لا يوجدُ له اسمٌ ولا نظير في الدنيا؛ فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها؛ أحضر لهم في الحال من غير تعبٍ ولا كلفةٍ، آمنين من انقطاع ذٰلك، وآمنين من مضرَّته، وآمنين من كلِّ مكدِّر، وآمنين من الخروج منها والموت.

﴿٥٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿لا يذوقون فيها الموتَ إلَّا الموتةَ الأولى﴾؛ أي: ليس فيها موتٌ بالكلِّية، ولو كان فيها موتٌ يُستثنى؛ لم يستثنِ الموتةَ الأولى التي هي الموتة في الدنيا، فتمَّ لهم كلُّ محبوب مطلوب، ﴿ووقاهم عذابَ الجحيم﴾.

﴿٥٧﴾ ﴿فضلاً من ربِّك﴾؛ أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم من فضل الله عليهم وكرمِهِ؛ فإنَّه تعالى هو الذي وفَّقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة وأعطاهم أيضاً ما لم تبلُغْه أعمالُهم. ﴿ذٰلك هو الفوزُ العظيمُ﴾: وأيُّ فوزٍ أعظمُ من نيل رضوان الله وجنَّته والسلامة من عذابه وسخطِهِ.

﴿٥٨﴾ ﴿فإنما يَسَّرْناه﴾؛ أي: القرآن ﴿بلسانِكَ﴾؛ أي: سهَّلْناه بلسانك الذي هو أفصحُ الألسنةِ على الإطلاق وأجلُّها، فتيسر به لفظه، وتيسر به معناه، ﴿لعلَّهم يتذكَّرون﴾: ما فيه نفعُهم فيفعلونَه، وما فيه ضررُهم فيترُكونه.

﴿٥٩﴾ ﴿فارتَقِبْ﴾؛ أي: انتظرْ ما وعدك ربُّك من الخير والنصر. ﴿إنَّهم مرتقبونَ﴾: ما يحلُّ بهم من العذاب، وفرقٌ بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدُّنيا والآخرة، وضدُّهم يرتقبون الشرَّ في الدُّنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان. ولله الحمد والمنة.

* * *

## تفسير سورة الجاثية

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا

هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ۝١١ ﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يخبرُ تعالى خبراً يتضمَّن الأمرَ بتعظيم القرآن والاعتناء به؛ أنَّه ﴿تنزيلٌ من اللهِ﴾: المألوه المعبود؛ لما اتَّصف به من صفاتِ الكمال، وانفردَ به من النعم، الذي له العزَّة الكاملة والحكمة التَّامَّة.

﴿٣ ـ ٥﴾ ثم أيَّد ذٰلك بما ذكره من الآيات الأفقيَّة والنفسيَّة؛ من خلق السماوات والأرض، وما بثَّ فيهما من الدوابِّ، وما أودعَ فيهما من المنافع، وما أنزل اللهُ من الماءِ الذي يحيي به اللهُ البلاد والعباد؛ فهٰذه كلُّها آياتٌ بيناتٌ وأدلة واضحاتٌ على صدقِ هٰذا القرآن العظيم وصحَّة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالَّات أيضاً على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنُّشور.

﴿٦ ـ ١٠﴾ ثم قسَّم تعالى الناسَ بالنسبة إلى الانتفاع بآياتِهِ وعدمِهِ إلى قسمين:

قسمٌ يستدلُّون بها، ويتفكَّرون بها، وينتفعون فيرتفعون، وهم المؤمنون باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر إيماناً تامًّا، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكَّى منهم العقول، وازدادتْ به معارفُهم وألبابُهم وعلومُهم.

وقسمٌ يسمعُ آيات الله سماعاً تقومُ به الحجةُ عليه، ثم يعرِض عنها ويستكبرُ، كأنه ما سمعها؛ لأنها لم تزكِّ قلبه ولا طهَّرته، بل بسبب استكباره عنها؛ ازداد طغيانُهُ، وأنه إذا علِم من آيات الله شيئاً؛ اتَّخذها هزواً، فتوعَّده الله تعالى بالويل، فقال: ﴿ويلٌ لكلِّ أفَّاكٍ أثيم﴾؛ أي: كذابٍ في مقاله، أثيم في فعاله، وأخبر أن له عذاباً أليماً، وأن ﴿من ورائهم جهنَّم﴾: تكفي في عقوبتهمُ البليغة، وأنه ﴿لا يُغني عنهم ما كَسَبوا﴾: من الأموال ﴿شيئاً ولا ما اتَّخذوا من دون اللهِ أولياءَ﴾[1]: يستنصرون بهم، فخذلوهم أحوجَ ما كانوا إليهم لو نفعوا.

﴿١١﴾ فلمَّا بيَّن آياته القرآنيَّة والعيانيَّة، وأن الناس فيها على قسمين؛ أخبر أن القرآن المشتملَ على هٰذه المطالب العالية؛ أنَّه هدىً، فقال: ﴿هٰذا هدىً﴾: وهذا وصفٌ عامٌّ لجميع القرآن؛ فإنَّه يهدي إلى معرفة الله تعالى بصفاته المقدَّسة وأفعاله

(١) في (ب): «من أولياء».

الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله وأوليائهم وأعدائهم وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة، ويدعو إليها، ويبيِّن الأعمال السَّيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبيِّن الجزاء الدُّنيويَّ والأخرويَّ؛ فالمهتدون اهتَدَوا به فأفلحوا وسعدوا. ﴿والذين كَفروا بآيات ربِّهم﴾: الواضحة القاطعة، التي لا يكفرُ بها إلَّا من اشتدَّ ظلمُه، وتضاعف طغيانه، ﴿لهم عذابٌ من رجزٍ أليم﴾.

﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن فضله على عباده وإحسانه إليهم بتسخير البحر لسير المراكب والسُّفن بأمره وتيسيره[1]، ﴿لتَبْتَغوا من فضله﴾: بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ولعلَّكم تشكرون﴾: الله تعالى؛ فإنكم إذا شكرتُموه؛ زادكم من نعمِهِ وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

﴿١٣﴾ ﴿وسخَّر لكم ما في السمٰواتِ وما في الأرض جميعاً منه﴾؛ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماواتِ والأرض، ولما أودعَ الله فيهما من الشمس والقمر والكواكب الثَّوابت والسيَّارات وأنواع الحيوانات وأصناف الأشجار والثَّمرات وأجناس المعادن وغير ذلك ممَّا هو معدٌّ لمصالح بني آدم ومصالح ما هو من ضروراتِهِ؛ فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غايةَ جهدِهِم في شكر نعمته، وأن تغلغلَ أفكارهم في تدبُّر آياته وحكمِهِ، ولهذا قال: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكَّرون﴾. وجملة ذلك أنَّ خلقها وتدبيرها وتسخيرها دالٌّ على نفوذ مشيئة الله وكمال قدرتِهِ.

**وما فيها** من الإحكام والإتقان وبديع الصنعة وحسن الخِلْقة دالٌّ على كمال حكمته وعلمه.

**وما فيها** من السعة والعظمة والكثرة دالٌّ على سعة ملكه وسلطانه.

**وما فيها** من التخصيصات والأشياء المتضادَّات دليلٌ على أنه الفعَّال لما يريد.

**وما فيها** من المنافع والمصالح الدينيَّة والدنيويَّة دليلٌ على سعة رحمته وشمول فضلِهِ وإحسانِهِ وبديع لطفِهِ وبرِّه، وكلُّ ذلك دالٌّ على أنه وحدَه المألوه المعبودُ

(١) في (ب): «وتسييره».

الذي لا تنبغي العبادة والذُّلُّ والمحبَّة إلا له، وأنَّ رسله صادقون فيما جاؤوا به. فهذه أدلةٌ عقليةٌ واضحةٌ لا تقبل ريباً ولا شكًّا.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ يأمر تعالى عبادَه المؤمنين بحسن الخلق والصَّبر على أذيَّة المشركين به الذين ﴿لا يرجون أيام الله﴾؛ أي: لا يرجون ثوابَه ولا يخافون وقائعَه في العاصين؛ فإنَّه تعالى سيجزي كلَّ قوم ﴿بما كانوا يكسبون﴾: فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم ثواباً جزيلاً، وهم إن استمرُّوا على تكذيبهم؛ فلا يحلُّ بكم ما حلَّ بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿مَن عَمِلَ صالحاً فلنفسِهِ ومَن أساءَ فعليها ثم إلى ربِّكم تُرجعون﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصُل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الكتاب﴾؛ أي: التوراة والإنجيل والحكم بين الناس والنبوَّة التي امتازوا بها، وصارت النبوَّة في ذرِّيَّة إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ورزَقْناهم من الطيِّبات﴾: من المآكل والمشارب والملابس وإنزال المنِّ والسلوى عليهم، ﴿وفضَّلناهم على العالمين﴾؛ أي: على الخلق بهذه النعم. ويخرج من هذا العموم اللفظي هذه الأمة؛ فإنهم خير أمة أخرجت للناس، والسياق يدلُّ على أن المراد غير هذه الأمة؛ فإن الله يقصُّ علينا ما امتنَّ به على بني إسرائيل وميَّزهم على غيرهم.

وأيضاً؛ فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة وغيرها من النعوت قد حصلت كلُّها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة؛ فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها؛ فإنَّ هذا الكتاب مهيمنٌ على سائر الكتب السابقة، ومحمدٌ ﷺ مصدِّق لجميع المرسلين.

﴿١٧﴾ ﴿وآتيناهم﴾؛ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿بيناتٍ﴾؛ أي: دلالاتٍ تبيِّن الحقَّ من الباطل ﴿من الأمر﴾: القدريِّ الذي أوصله الله إليهم، وتلك الآيات هي

المعجزاتُ التي رأوها على يد موسى عليه السلام؛ فهٰذه النعم التي أنعم اللّه بها على بني إسرائيل تقتضي الحالُ أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأنْ يجتمعوا على الحقِّ الذي بيَّنه اللّه لهم، ولٰكن انعكسَ الأمر، فعاملوها بعكس ما يجبُ، وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهٰذا قال: ﴿فما اختلفوا إلَّا من بعدِ ما جاءهم العلمُ﴾؛ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنَّما حملهم على الاختلاف، البغيُ من بعضهم على بعض والظُّلم. ﴿إنَّ ربَّك يقضي بينهم يوم القيامةِ فيما كانوا فيه يختلفون﴾: فيميِّز المحقَّ من المبطل، والذي حمله على الاختلاف الهوى أو غيره.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٨﴾ أي: ثمَّ شرعنا لك شريعةً كاملةً تدعو إلى كلِّ خير، وتنهى عن كل شرٍّ من أمرنا الشرعيِّ، ﴿فاتَّبِعْها﴾؛ فإنَّ في اتِّباعها السعادة الأبديَّة والصلاح والفلاح، ﴿ولا تتَّبِعْ أهواء الذين لا يعلمونَ﴾؛ أي: الذين تكون أهويتُهم غيرَ تابعةٍ للعلم ولا ماشيةٍ خلفه، وهم كلُّ من خالف شريعةَ الرسول ﷺ هواه وإرادتُه؛ فإنَّه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿١٩﴾ ﴿إنَّهم لن يُغنوا عنك من اللّهِ شيئاً﴾؛ أي: لا ينفعونك عند اللّه، فيحصِّلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشرَّ إنِ اتَّبعتهم على أهوائهم، ولا تصلُحُ أن توافِقَهم وتواليَهم؛ فإنَّك وإياهم متباينون، وبعضهم وليٌّ لبعض. ﴿واللّه وليُّ المتَّقين﴾: يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿٢٠﴾ أي: ﴿هٰذا﴾ القرآن الكريم والذِّكر الحكيم ﴿بصائرُ للناس﴾؛ أي: يحصُلُ به التبصرةُ في جميع الأمور للناس، فيحصُلُ به الانتفاع للمؤمنين، ﴿و﴾ الهدى والرحمةُ ﴿لقوم يوقنونَ﴾: فيهتدون به إلى الصراط المستقيم في أصول الدِّين وفروعه، ويحصُلُ به الخير والسرور والسعادة في الدُّنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسُهم، وتزدادُ به عقولُهم، ويزيدُ به إيمانُهم ويقينُهم، وتقوم به الحجَّةُ على من أصرَّ وعاند.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢١﴾ أي: أم حسب المسيئون المكثِرون من الذُّنوب المقصِّرون في حقوق ربِّهم، ﴿أن نجعَلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: بأن قاموا بحقوق ربِّهم، واجتنبوا مساخِطَه، ولم يزالوا مؤثِرين رضاه على هوى أنفسهم؛ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سواءً﴾ في الدُّنيا والآخرة؟ ساء ما ظنُّوا وحسبوا، وساء ما حكموا به؛ فإنَّه حكمٌ يخالف حكمة أحكم الحاكمين وخير العادلين، ويناقِضُ العقول السليمة والفطر المستقيمة، ويضادُّ ما نزلت به الكتب وأخبرت به الرُّسل، بل الحكم الواقع القطعيُّ أنَّ المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النَّصر والفلاح والسعادة والثواب في العاجل والآجل؛ كلٌّ على قدر إحسانه، وأنَّ المسيئين لهم الغضبُ والإهانةُ والعذاب والشقاء في الدُّنيا والآخرة.

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: خلق اللّه السماواتِ والأرضَ بالحكمة، ولِيُعْبَدَ وحدَه لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنِّعم الظاهرة والباطنة؛ هل شكروا اللّه تعالى وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا فاستحقُّوا جزاء الكَفور؟

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً
فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا
ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ
أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا
رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿أفرأيتَ﴾: الرجل الضالَّ الذي، ﴿اتَّخذ إلٰهه هواهُ﴾: فما هَوِيَهُ سلكه؛ سواء كان يُرضي اللّه أم[1] يسخطه، ﴿وأضلَّه اللّه على علم﴾: من اللّه [تعالى] أنَّه لا تَليق به الهداية. ولا يزكو عليها، ﴿وختَمَ على سمعِهِ﴾: فلا يسمع ما ينفعُه، ﴿وقلبِهِ﴾: فلا يعي الخير، ﴿وجَعَلَ على بصرِهِ غشاوةً﴾: تمنعُه من نظر الحقِّ. ﴿فمن يهديه من بعد اللّه﴾؛ أي: لا أحد يهديه، وقد سدَّ اللّه عليه أبوابَ الهداية، وفتح له أبواب الغِواية، وما ظلمه اللّه، ولٰكن هو الذي ظلم نفسه،

(١) في (ب): «أو».

وتسبَّب لمنع رحمة اللّه عليه. ﴿أفلا تذكَّرون﴾: ما ينفعكم فتسلكونه وما يضرُّكم فتجتنبونه؟!

﴿٢٤﴾ ﴿وقالوا﴾؛ أي: منكرو البعث: ﴿ما هي إلَّا حياتُنا الدُّنيا نموت ونحيا وما يُهلِكُنا إلَّا الدَّهر﴾: إن هي إلَّا عاداتٌ وجريٌ على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس، وما مات؛ فليس براجع إلى اللّه ولا مجازيه بعمله. وقولهم هٰذا صادرٌ عن غير علم، ﴿إنْ هم إلَّا يظنُّون﴾: فأنكروا المعاد، وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلَّهم ولا برهان، إنْ هي إلَّا ظنون واستبعاداتٌ خالية عن الحقيقة.

﴿٢٥﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ ما كان حجَّتَهم إلَّا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتُم صادقين﴾: وهٰذا جراءة منهم على اللّه؛ حيث اقترحوا هٰذا الاقتراح، وزعموا أنَّ صدق رسل اللّه متوقِّف على الإتيان بآبائهم، وإنَّهم لو جاؤوهم بكلِّ آيةٍ؛ لم يؤمنوا؛ إلَّا إن اتَّبعتهم الرسل على ما قالوا، وهم كَذَبَةٌ فيما قالوا، وإنما قصدُهم دفع دعوة الرسل، لا بيانُ الحق.

﴿٢٦﴾ قال تعالى: ﴿قلِ اللّهُ يحييكم ثم يميتُكم ثم يجمعُكم إلى يوم القيامةِ لا ريبَ فيه ولٰكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾: وإلَّا؛ فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم؛ لعملوا له أعمالاً وتهيؤوا له.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةًۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يخبر تعالى عن سعة ملكِهِ وانفرادِهِ بالتصرُّف والتدبير في جميع الأوقات، وأنَّه ﴿يوم تقومُ الساعةُ﴾؛ ويَجمع الخلائق لموقف القيامة؛ يحصُلُ الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحِضوا به الحقَّ، وكانت أعمالهم باطلةً لأنَّها متعلِّقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين فيه[1] الحقائق واضمحلَّت عنهم، وفاتَهم الثوابُ، وحصلوا على أليم العقاب.

﴿٢٨﴾ ثم وصف تعالى شدَّة يوم القيامةِ وهَوْلَهُ ليحذره العباد ويستعدَّ له العُبَّاد، فقال: ﴿وترى﴾: أيُّها الرائي لذٰلك اليوم، ﴿كلَّ أمَّةٍ جاثيةً﴾: على ركبها خوفاً وذعراً وانتظاراً لحكم الملك الرحمٰن. ﴿كلُّ أمة تُدعى إلى كتابها﴾؛ أي: إلى شريعة نبيِّهم الذي جاءهم من عند اللّه، وهل قاموا بها فيحصُلُ [لهم] الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصُلُ لهم الخسران؟ فأمَّة موسى يُدعون إلى شريعة موسى، وأمَّة عيسى كذٰلك، وأمَّة محمد كذٰلك، وهٰكذا غيرهم؛ كلُّ أمة تُدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هٰذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيحٌ في نفسه، غير مشكوك فيه.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كلُّ أمَّة تُدعى إلى كتابها﴾؛ أي: إلى كتاب أعمالها وما سطر عليها من خير وشرٍّ، وأنَّ كلَّ أحدٍ يُجازى بما عمله بنفسه؛ كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

ويحتمل أن المعنيين كليهما مرادٌ من الآية.

﴿٢٩﴾ ويدل على هٰذا قولُه: ﴿هٰذا كتابُنا ينطِقُ عليكم بالحقِّ﴾؛ أي: هٰذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم يفصِلُ [بينكم] بالحقِّ الذي هو العدل، ﴿إنَّا كنا نَسْتَنسِخُ ما كنتُم تعملون﴾: فهٰذا كتابُ الأعمال.

﴿٣٠﴾ ولهٰذا فصَّل ما يفعل اللّه بالفريقين، فقال: ﴿فأمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: إيماناً صحيحاً، وصدَّقوا إيمانَهم بالأعمال الصالحة من واجبات ومستحبَّات، ﴿فيدخِلُهم ربُّهم في رحمتِهِ﴾: التي محلُّها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم. ﴿ذٰلك هو الفوزُ المبينُ﴾؛ أي: المفاز والنجاة والربح والفلاح الواضح البيِّن، الذي إذا حصل للعبد؛ حصل له كلُّ خير، واندفع عنه كلُّ شرٍّ.

---

(١) في (ب): «به».

﴿٣١﴾ ﴿وأمَّا الذين كفروا﴾: باللّه، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تُتْلى عليكم﴾، وقد دلَّتكم على ما فيه صلاحكم ونهتْكم عما فيه ضررُكم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم لو وفِّقتم لها، ولٰكن استكبرتُم عنها وأعرضتُم وكفرتُم بها، فجنيتُم أكبر جناية، وأجرمتم أشدَّ الجرم؛ فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.

﴿٣٢﴾ ويوبَّخون أيضاً بقوله: ﴿وإذا قيل إنَّ وعدَ اللّه حقٌّ والساعة لا ريبَ فيها قلتم﴾: منكرين لذٰلك: ﴿ما ندري ما الساعة إن نظنُّ إلَّا ظنًّا وما نحن بمستيقنينَ﴾: فهٰذه حالهم في الدُّنيا، وحال البعث الإنكار له، وردُّوا[1] قولَ مَنْ جاء به.

﴿٣٣﴾ قال تعالى: ﴿وبدا لهم سيئاتُ ما عملوا﴾؛ أي: وظهر لهم يوم القيامةِ عقوباتُ أعمالهم، ﴿وحاق بهم﴾؛ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزِئون﴾؛ أي: نزل بهم العذابُ الذي كانوا في الدُّنيا يستهزئون بوقوعه وبمن جاء به.

﴿٣٤﴾ ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾؛ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتُم لقاء يومكم هٰذا﴾؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل، ﴿ومأواكم النارُ﴾؛ أي: هي مقرُّكم ومصيركم. ﴿وما لكم من ناصرينَ﴾: ينصرونَكم من عذابِ اللّه ويدفعون عنكم عقابه.

﴿٣٥﴾ ﴿ذٰلكم﴾: الذي حصل لكم من العذاب. بسبب ﴿أنَّكم اتَّخذتم آياتِ اللّه هزواً﴾: مع أنها موجبةٌ للجدِّ والاجتهاد وتلقِّيها بالسرور والاستبشار والفرح، ﴿وغرَّتْكُم الحياة الدُّنيا﴾: بزخارفها ولذَّاتها وشهواتها، فاطمأننتُم إليها، وعملتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية. ﴿فاليومَ لا يُخْرَجونَ منها ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾؛ أي: ولا يُمْهَلون ولا يردُّون إلى الدُّنيا ليعملوا صالحاً.

﴿٣٦﴾ ﴿فللّه الحمدُ﴾: كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم[2] سلطانه، ﴿ربِّ السمٰواتِ وربِّ الأرض ربِّ العالمين﴾؛ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلق[3]؛ حيث خلقهم وربَّاهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿٣٧﴾ ﴿وله الكبرياءُ في السمٰواتِ والأرض﴾؛ أي: له الجلال والعظمة والمجدُ؛ فالحمد فيه الثناء على اللّه بصفات الكمال ومحبَّته تعالى وإكرامه،

(١) في (ب): «و رَدُّ».
(٢) في (ب): «لجلاله وعظيم».
(٣) في (ب): «الخلائق».

والكبرياء فيها عظمتُه وجلالُه، والعبادة مبنيَّة على ركنين: محبة اللّه والذُّلِّ له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد اللّه وجلاله وكبريائه، ﴿وهو العزيز﴾: القاهر لكلِّ شيء. ﴿الحكيم﴾: الذي يضعُ الأشياء مواضِعَها؛ فلا يشرع ما يشرعُه إلَّا لحكمة ومصلحة، ولا يخلُقُ ما يخلُقُه إلَّا لفائدةٍ ومنفعةٍ.

تم تفسير سورة الجاثية. وللّه الحمد والمنة[1] والفضل.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الأحقاف

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

﴿٢﴾ هٰذا ثناءٌ منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيمٌ له، وفي ضمن ذٰلك إرشادُ العباد إلى الاهتداء بنوره والإقبال على تدبُّر آياته واستخراج كنوزِهِ.

﴿٣﴾ ولـمَّا بيَّن إنزال كتابه المتضمِّن للأمر والنهي؛ ذكر خلقه السماواتِ والأرض، فجمع بين الخَلْق والأمر، ﴿ألا له الخلقُ والأمر﴾؛ كما قال تعالى: ﴿اللّه الذي خَلَقَ سبع سماواتٍ ومن الأرض مِثْلَهُنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينَهُنَّ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ينزِّلُ الملائكة بالرُّوح من أمرِهِ على مَن يشاءُ من عبادِهِ أنْ أنذِروا أنَّه لا إلٰه إلا أنا فاتَّقونِ. خلقَ السمٰواتِ والأرض بالحقِّ﴾؛ فاللّه تعالى هو الذي خَلَقَ المكلَّفين، وخلق مساكِنَهم، وسخَّر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أنَّ هٰذه الدارَ دارُ أعمال وممرٌّ للعمال، لا دار إقامة لا يرحلُ عنها أهلُها، وهم[2] سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرارة وموطن الخلود والدوام، وإنَّما أعمالُهم التي عملوها في هٰذه الدار سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موفَّراً، وأقام تعالى الأدلَّة الدالَّة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل؛ ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب والهرب من المرهوب، ولهٰذا قال هنا: ﴿ما خَلَقْنا السمٰواتِ

(١) في (ب): «والنعمة».

(٢) في (ب): «وأنهم».

**والأرضَ وما بينهما إلَّا بالحقِّ﴾**؛ أي: لا عبثاً ولا سدىً، بل ليعرف العبادُ عظمة خالقهما، ويستدلُّوا على كماله، ويعلموا أنَّ الذي خلقهما على عظمهما قادرٌ على أن يعيدَ العباد بعد موتِهِم للجزاء، وأنَّ خلقهما وبقاءهما مقدرٌ إلى أجل مسمًّى.

فلما أخبر بذٰلك، وهو أصدق القائلين، وأقام الدليل، وأنار السبيل؛ أخبر مع ذٰلك أنَّ طائفةً من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحقِّ وصدوفاً عن دعوة الرسل، فقال: **﴿والذين كفروا عمَّا أُنذروا معرضون﴾**. وأمَّا الذين آمنوا؛ فلمَّا علموا حقيقة الحال؛ قبلوا وصايا ربِّهم، وتلقَّوْها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، ففازوا بكلِّ خير، واندفع عنهم كلُّ شرٍّ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

**﴿٤﴾** أي: **﴿قل﴾**: لهٰؤلاء الذين أشركوا بالله أوثاناً وأنداداً لا تملك نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، قل لهم مبيناً عجز أوثانهم، وأنَّها لا تستحقُّ شيئاً من العبادة: **﴿أروني ماذا خلَقوا من الأرض أمْ لهم شِرْكٌ في السمٰواتِ﴾**: هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجرَوْا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل أنبتوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونةٌ على خلق شيءٍ من ذٰلك؟ لا شيء من ذٰلك بإقرارهم على أنفسهم[1] فضلاً عن غيرهم. فهٰذا دليلٌ عقليٌّ قاطعٌ على أنَّ كلَّ من سوى الله؛ فعبادتُه باطلةٌ.

ثم ذكر انتفاء الدليل النقليِّ، فقال: **﴿ائتوني بكتابٍ من قبل هٰذا﴾**: الكتاب، يدعو إلى الشرك، **﴿أو أثارةٍ من علم﴾**: موروث عن الرسل يأمر بذٰلك. من المعلوم أنَّهم عاجزون أن يأتوا عن أحدٍ من الرسل بدليل يدلُّ على ذٰلك، بل نجزم ونتيقَّن أنَّ جميع الرسل دَعَوْا إلى توحيد ربِّهم ونَهَوْا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثَر عنهم من العلم؛ قال تعالى: **﴿ولقد بَعَثْنا في كلِّ أمةٍ رسولاً أنِ اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوتَ﴾**، وكلُّ رسول قال لقومه: **﴿اعبُدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه﴾**،

(١) في (ب): «بأنفسهم».

فعُلِمَ أنَّ جدال المشركين في شركهم غير مستندين[1] على برهانٍ ولا دليل، وإنَّما اعتمدوا على ظنونٍ كاذبةٍ وآراءٍ كاسدةٍ وعقولٍ فاسدةٍ، يدلك على فسادها استقراء أحوالهم وتتبُّع علومهم وأعمالهم والنظرُ في حال من أفنَوْا أعمارهم بعبادته؛ هل أفادهم شيئاً في الدُّنيا أو في الآخرة.

﴿٥ ـ ٦﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿ومن أضلُّ ممَّن يدعو من دونِ اللّه من لا يستجيبُ له إلى يوم القيامةِ﴾؛ أي: مدة مقامه في الدنيا لا ينتفع به مثقال ذرَّة، ﴿وهم عن دعائهم غافلون﴾: لا يسمعون منهم دعاءً ولا يجيبون لهم نداءً. هٰذا حالهم في الدُّنيا، ويوم القيامة يكفرون بشرككم، وإذا حُشِرَ الناس كانوا لهم أعداء يلعن بعضُهم بعضاً، ويتبرأ بعضُهم من بعض وكانوا بعبادتهم كافرين.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: ﴿وإذا تُتلى﴾: على المكذِّبين ﴿آياتُنا بيناتٍ﴾: بحيث تكون على وجهٍ لا يُمترى بها، ولا يشكُّ في وقوعها وحقِّها؛ لم تفِدْهم خيراً، بل قامت عليهم بذٰلك الحجة، ويقولون من إفكهم وإفترائهم ﴿للحقِّ لمَّا جاءهم هٰذا سحرٌ مبينٌ﴾؛ أي: ظاهرٌ لا شكَّ فيه. وهٰذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروجُ إلَّا على ضعفاء العقول، وإلَّا؛ فبين الحقِّ الذي جاء به الرسولُ ﷺ وبين السحر من المنافاة والمخالفة أعظم ممَّا بين السماء والأرض، وكيف يقاسُ الحقُّ ـ الذي علا وارتفع ارتفاعاً علا على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلَّة الأفقيَّة والنفسيَّة عليه، وأقرَّت به، وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزينة بالباطل الذي هو السحرُ الذي لا يصدُرُ إلَّا من ضالٍّ ظالم خبيث النفس خبيث العمل؛ فهو مناسبٌ له وموافقٌ لحاله؟! وهل هٰذا إلَّا من البهرجة؟!

﴿٨﴾ ﴿أم يقولون افتراه﴾؛ أي: افترى محمدٌ هٰذا القرآن من عند نفسه؛ فليس

(١) في (ب): «مستندين فيه».

من عند اللّه، ﴿قل﴾ لهم: ﴿إن افتريتُهُ﴾؛ فاللّه عليَّ قادرٌ وبما تفيضون فيه عالمٌ؛ فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؛ فهل ﴿تملِكون لي من اللّه شيئاً﴾: إنْ أرادني اللّه بضرٍّ أو أرادني برحمةٍ؟ ﴿كفى به شهيداً بيني وبينَكم﴾: فلو كنت متقولاً عليه؛ لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كلُّ أحدٍ؛ لأنَّ هٰذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقوِّلاً. ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحقِّ ومخاصمته، فقال: ﴿وهو الغفورُ الرحيم﴾؛ أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم فيوفقكم للخير، ويثيبكم جزيل الأجر.

﴿٩﴾ ﴿قلْ ما كنتُ بدعاً من الرُّسل﴾؛ أي: لست بأول رسول جاءكم حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي؛ فقد تقدَّم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم؛ فلأيِّ شيء تنكرون[1] رسالتي؟! ﴿وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم﴾؛ أي: لست إلَّا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، واللّه تعالى [هو] المتصرِّفُ بي وبكم، الحاكم عليَّ وعليكم، ولست آتي بالشيء من عندي. ﴿وما أنا إلَّا نذيرٌ مبينٌ﴾: فإنْ قبلتُم رسالتي وأجبتُم دعوتي؛ فهو حظُّكم ونصيبُكم في الدُّنيا والآخرة، وإن رددتُم ذٰلك عليَّ؛ فحسابُكم على اللّه، وقد أنذرْتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٠﴾ ﴿قل أرأيتُم إن كان من عندِ اللّه وكفرتُم به وشَهِدَ شاهدٌ من بني إسرائيل على مثلِهِ فآمن واستكبرتُم﴾؛ أي: أخبروني لو كان هٰذا القرآن من عند اللّه، وشهد على صحَّته الموفَّقون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحقِّ ما يعرفون أنَّه الحقُّ، فآمنوا به واهتدَوْا، فتطابقتْ أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء واستكبرتُم أيُّها الجهلاء الأغبياء؛ فهل هٰذا إلا أعظم الظلم وأشدُّ الكفر؟! ﴿إنَّ اللّه لا يهدي القوم الظالمين﴾: ومن الظُّلم الاستكبار عن الحقِّ بعد التمكُّن منه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١١ ـ ١٢﴾ أي: قال الكفار بالحقِّ معاندين له ورادِّين لدعوته: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾؛ أي: ما سَبَقَنا إليه المؤمنون، أي: لكنَّا أول مبادرٍ به وسابقٍ إليه!

(١) في (ب): «تُنْكِر».

وهٰذا من البهرجة في مكان؛ فأيُّ دليل يدلُّ على أنَّ علامة الحقِّ سبق المكذبين به للمؤمنين؟! هل هم أزكى نفوساً؟! أم أكمل عقولاً؟! أم الهدى بأيديهم؟! ولٰكن هٰذا الكلام الذي صدر منهم يعزُّون به أنفسهم، بمنزلة من لم يقدرْ على الشيء ثم طَفِقَ يذمُّه، ولهٰذا قال: ﴿وإذْ لم يَهْتَدوا به فسيقولونَ هٰذا إفكٌ قَديمٌ﴾؛ أي: هٰذا السبب الذي دعاهم إليه أنهم لما لم يهتدوا بهٰذا القرآن، وفاتهم أعظمُ المواهب وأجلُّ الرغائب؛ قدحوا فيه بأنَّه كذبٌ، وهو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه ولا امتراء يعتريه، ﴿الذي﴾ قد وافق الكتب السماويَّة، خصوصاً أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي(١) التوراة التي أنزلها اللّه على ﴿موسى إماماً ورحمة﴾؛ أي: يقتدي بها بنو إسرائيل ويهتدون بها، ويحصُلُ لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهٰذا﴾: القرآن ﴿كتابٌ مصدقٌ﴾: للكتب السابقة، شهد بصدِقها وصدَّقها بموافقته لها، وجَعَلَه اللّه ﴿لساناً عربيًا﴾: ليسهل تناوله ويتيسر تذكُّره؛ ﴿لينذر الذين ظلموا﴾: أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان إن استمرُّوا على ظلمهم بالعذاب الوبيل، ويبشر المحسنين في عبادة الخالق وفي نفع المخلوقين بالثواب الجزيل في الدُّنيا والآخرة، ويذكُر الأعمال التي ينذر عنها والأعمال التي يبشر بها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: إنَّ الذين أقرُّوا بربِّهم، وشهدوا له بالوحدانيَّة، والتزموا طاعته، وداموا على ذٰلك، و﴿استقاموا﴾ مدَّة حياتهم؛ ﴿فلا خوفٌ عليهم﴾: من كل شرٍّ أمامهم، ﴿ولا هم يحزنونَ﴾: على ما خلَّفوا وراءهم.

﴿١٤﴾ ﴿أولٰئك أصحابُ الجنَّة﴾؛ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبغون عنها حِوَلاً ولا يريدونَ بها بدلاً، ﴿خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملونَ﴾: من الإيمان باللّه، المقتضي للأعمال الصالحة، التي استقاموا عليها.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ

(١) في (ب): «وهو».

وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿١٥﴾ هٰذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين أن وصّى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف والكلام الليّن وبَذْل المال والنفقة وغير ذٰلك من وجوه الإحسان، ثم نبَّه على ذكر السبب الموجب لذٰلك، فذكر ما تحمَّلته الأمُّ من ولدها، وما قاسته من المكاره وقت حَمْلِها، ثم مشقَّة ولادتها المشقَّة الكبيرة، ثم مشقَّة الرضاع وخدمة الحضانة، وليست المذكوراتُ مدة يسيرة ساعة أو ساعتين، وإنما ذٰلك مدة طويلة قدرها ﴿ثلاثون شهراً﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هٰذا الغالب. ويستدلُّ بهٰذه الآية مع قوله: ﴿والوالداتُ يرضِعْن أولادهنَّ حولينِ كاملينِ﴾: أنَّ أقلَّ مدَّة الحمل ستة أشهر؛ لأنَّ مدَّة الرضاع وهي سنتان إذا سقطت[1] منها السنتان؛ بقي ستة أشهر مدة للحمل، ﴿حتى إذا بلغ أشُدَّه﴾؛ أي: نهاية قوَّته وشبابه وكمال عقله، ﴿وبلَغَ أربعين سنةً قال ربِّ أوْزِعْني﴾؛ أي: ألهمني ووفقني، ﴿أنْ أشكر نعمتَك التي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ﴾؛ أي: نعم الدين ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها ومُوليها ومقابلة منَّته بالاعتراف والعجز عن الشكر والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذُرِّيَّتهم لأنَّهم لا بدَّ أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً نعم الدين؛ فإنَّ صلاح الوالدين بالعلم والعمل من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم، ﴿وأنْ أعمل صالحاً ترضاه﴾: بأنْ يكونَ جامعاً لما يصلِحُه سالماً مما يفسِدُه؛ فهٰذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله ويثيبُ عليه، ﴿وأصلِحْ لي في ذُرِّيَّتي﴾: لما دعا لنفسه بالصلاح؛ دعا لذرِّيَّته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أنَّ صلاحهم يعود نفعه على والديهم؛ لقوله: ﴿وأصلِحْ لي﴾. ﴿إني تبتُ إليك﴾: من الذُّنوب والمعاصي ورجعت إلى طاعتك، ﴿وإنِّي من المسلمين﴾.

﴿١٦﴾ ﴿أولٰئك﴾: الذين ذكرت أوصافهم ﴿الذين نتقبَّلُ عنهم أحسنَ ما عملوا﴾: وهو الطاعاتُ؛ لأنَّهم يعملون أيضاً غيرها، ﴿ونتجاوزُ عن سيِّئاتِهم في﴾: جملة ﴿أصحاب الجنة﴾: فحصل لهم الخيرُ والمحبوبُ، وزال عنهم الشرُّ

(١) أي من الثلاثين شهراً.

والمكروه. ﴿وعدَ الصِّدْقِ الذي كانوا يوعدونَ﴾؛ أي: هٰذا الوعدُ الذي وعَدْناهم هو وعدٌ صادقٌ من أصدق القائلين الذي لا يُخلف الميعادَ.

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٧﴾ لما ذكر تعالى حالَ الصالح البارِّ لوالديه؛ ذكر حالة العاقِّ، وأنَّها شرُّ الحالات، فقال: ﴿والذي قال لوالديه﴾: إذ دعياه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوَّفاه الجزاء، وهٰذا أعظم إحسان يصدُرُ من الوالدين لولدهما أن يَدْعُواه إلى ما فيه سعادتُه الأبديَّة وفلاحه السرمديُّ، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال[1]: ﴿أُفٍّ لكُما﴾؛ أي: تبًّا لكما، ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعادِه وإنكاره لذٰلك، فقال: ﴿أتعدانِني أنْ أُخرَجَ﴾: من قبري إلى يوم القيامة ﴿وقد خلتِ القرونُ من قبلي﴾: على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمَّة المقتدى بهم لكلِّ كفورٍ وجهول ومعانِدٍ. ﴿وهما﴾؛ أي: والداه ﴿يستغيثان اللّه﴾: عليه ويقولان له: ﴿ويلكَ آمِنْ﴾؛ أي: يبذلان غاية جهدهما ويسعيان في هدايته أشدَّ السعي، حتى إنَّهما من حرصهما عليه إنهما يستغيثان اللّه له استغاثةَ الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدهما، ويتوجَّعان له، ويبيِّنان له الحقَّ، فيقولان: ﴿إنَّ وعد اللّه حقٌّ﴾، ثم يقيمان عليه من الأدلَّة ما أمكنهما، وولدُهما لا يزداد إلا عتوًّا ونفوراً واستكباراً عن الحقِّ وقدحاً فيه، ﴿فيقول ما هٰذا إلَّا أساطير الأولينَ﴾؛ أي: إلا منقولٌ من كتب المتقدِّمين، ليس من عند اللّه، ولا أوحاه اللّه إلى رسوله، وكل أحدٍ يعلم أنَّ محمداً ﷺ أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ، ولا يتعلَّم[2] من أحد؛ فمن أين يتعلَّمه، وأنَّى للخلق أن يأتوا بمثل هٰذا القرآن ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً؟!

﴿١٨﴾ ﴿أولٰئك الذين﴾: بهٰذه الحالة الذَّميمة ﴿حقَّ عليهم القولُ﴾؛ أي: حقَّت عليهم كلمة العذاب ﴿في﴾ جملة ﴿أمم قد خَلَتْ من قبلهم من الجنِّ والإنس﴾:

---

(١) في (ب): «وقال».

(٢) في (ب): «تعلَّم».

على الكفر والتكذيب، فسيدخل هٰؤلاء في غمارهم، ويغرقون في تيَّارهم. ﴿إنَّهم كانوا خاسرينَ﴾: والخسران فواتُ رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأسَ مالِهِ؛ فالأرباح من باب أولى وأحرى؛ فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصِّلوا شيئاً[1] من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم.

﴿١٩﴾ ﴿ولكلٍّ﴾: من أهل الخير وأهل الشرِّ ﴿درجاتٌ مما عملوا﴾؛ أي: كلٌّ على حسب مرتبته من الخير والشرِّ، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهٰذا قال: ﴿ولِيُوَفِّيهم أعمالَهم وهم لا يُظْلَمونَ﴾: بأن لا يزاد في سيِّئاتهم ولا ينقصَ من حسناتِهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يُوَبَّخون ويُقَرَّعون، فيقال لهم: ﴿أذهبتم طيباتِكُم في حياتكم الدُّنيا﴾؛ حيث اطمأننتم إلى الدُّنيا، واغتررتم بلذَّاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طيِّباتُها عن السعي لآخرتكم، وتمتَّعتم تمتُّع الأنعام السارحة؛ فهي حظُّكم من آخرتكم. ﴿فاليوم تُجْزَوْنَ عذاب الهون﴾؛ أي: العذاب الشديد الذي يهينكم، ويفضحكم [بما كنتُم تقولون على الله غير الحقِّ][2]؛ أي: تنسبون الطريق الضالَّة التي أنتم عليها إلى الله وإلى حكمِهِ وأنتم كَذَبة في ذٰلك، ﴿وبما كنتُم تفسُقونَ﴾؛ أي: تتكبَّرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل والعمل بالباطل والكذب على الله بنسبته إلى رضاه والقدح في الحقِّ والاستكبار عنه، فعوقبوا أشدَّ العقوبة.

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ[3] وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا

(١) في (ب): «على شيء».
(٢) كذا في النسختين.
(٣) في (ب): إلى آخر القصة.

مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿٢١﴾ أي: ﴿واذكر﴾: بالثناء الجميل ﴿أخا عادٍ﴾: وهو هودٌ عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضَّلهم اللّه تعالى بالدَّعوة إلى دينه وإرشاد الخلق إليه، ﴿إذْ أنذر قومَه﴾: وهم عادٌ ﴿بالأحقافِ﴾؛ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن، ﴿وقد خلَتِ النُّذُر من بين يديه ومن خلفِهِ﴾: فلم يكن بدعاً منهم ولا مخالفاً لهم، قائلاً لهم: ﴿أن لا تعبُدوا إلَّا اللّه إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يوم عظيم﴾: فأمرهم بعبادة اللّه الجامعة لكلِّ قول سديدٍ وعمل حميدٍ، ونهاهم عن الشِّرْكِ والتَّنديد، وخوفهم إنْ لم يطيعوه العذابَ الشَّديد، فلم تُفِدْ فيهم تلك الدعوة.

﴿٢٢﴾ فَـ﴿قالوا أجئتنا لِتأفِكَنا عن آلهتنا﴾؛ أي: ليس لك من القصد ولا معك من الحقِّ إلَّا أنك حِدتنا على آلهتنا، فأردتَ أن تصرِفَنا عنها، ﴿فأتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين﴾: وهٰذا غاية الجهل والعناد.

﴿٢٣﴾ ﴿قال إنَّما العلمُ عند اللّهِ﴾: فهو الذي بيده أزمَّةُ الأمور ومقاليدُها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء، ﴿وأبلِّغُكم ما أرسلتُ به﴾؛ أي: ليس عليَّ إلَّا البلاغُ المبين، ﴿ولٰكنِّي أراكم قوماً تجهلونَ﴾: فلذٰلك صدر منكم ما صدر من هٰذه الجرأة الشديدة.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ فأرسل اللّهُ عليهم العذاب العظيم، وهو الريحُ التي دمَّرتهم وأهلكتهم، ولهٰذا قال: ﴿فلما رأوْه﴾؛ أي: العذاب، ﴿عارضاً مستقبلَ أوديَتِهِم﴾؛ أي: معترضاً كالسَّحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيلُ فتسقي نوابتهم ويشربون من آبارها وغدرانها، ﴿قالوا﴾: مستبشرين: ﴿هٰذا عارضٌ ممطِرُنا﴾؛ أي: هٰذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿بل هو ما استعجَلْتُم به﴾؛ أي: هٰذا الذي جنيتُم به على أنفسِكم حيث قلتُم: ﴿فأتِنا بما تَعِدُنا إن كنتَ من الصادقين﴾. ﴿ريحٌ فيها عذابٌ أليمٌ. تدمِّرُ كلَّ شيءٍ﴾: تمرُّ عليه من شدَّتها ونحسها، فسلَّطها اللّه ﴿عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً، فترى القوم فيها صَرْعى كأنَّهم أعجازُ نخل خاويةٍ﴾، ﴿بأمر ربِّها﴾؛ أي: بإذنه ومشيئته، ﴿فأصبحوا لا يرى إلَّا مساكِنُهم﴾: قد تلفتْ

مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾: بسبب جرمِهِم وظُلمهم.

﴿٢٦﴾ هٰذا مع أنَّ اللّه قد أدرَّ عليهم النِّعم العظيمة فلم يشكُروه ولا ذكَروه، ولهٰذا قال: ﴿ولقد مكَّنَّاهم فيما إن مَكَّنَّاكم فيه﴾؛ أي: مكنَّاهم في الأرض يتناولون طيباتها، ويتمتَّعون بشهواتها، وعمَّرناهم عمراً يتذكَّر فيه من تذكَّر ويتَّعظ فيه المهتدي؛ أي: ولقد مكَّنَّا عاداً كما مكَّنَّاكم يا هٰؤلاء المخاطبون؛ أي: فلا تحسبوا أنَّ ما مَكَّنَّاكم فيه مختصٌّ بكم، وأنَّه سيدفع عنكم من عذاب اللّه شيئاً، بل غيرُكم أعظمُ منكم تمكيناً، فلم تُغنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم ولا جنودُهم من اللّه شيئاً، ﴿وجَعَلْنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدةً﴾؛ أي: لا قصور في أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم حتى يقال: إنَّهم تركوا الحقَّ جهلاً منهم وعدم تمكُّن من العلم به ولا خلل في عقولهم، ولٰكنَّ التوفيقَ بيدِ اللّه، ﴿فما أغنى عنهم سمعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئدتُهم من شيءٍ﴾: لا قليل ولا كثير، وذٰلك بسبب أنهم يجحدون آيات اللّه الدَّالَّة على توحيدِهِ وإفرادِهِ بالعبادة، ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزِئون﴾؛ أي: نزل بهم العذاب الذي يكذِّبون بوقوعه، ويستهزِئون بالرسل الذين حذَّروهم منه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ يحذِّر تعالى مشركي العرب وغيرهم بإهلاك الأمم المكذِّبين الذين هم حول ديارهم، بل كثيرٌ منهم في جزيرة العرب؛ كعادٍ وثمودَ ونحوهم، وأنَّ اللّه تعالى صَرَّفَ لهم ﴿الآياتِ﴾؛ أي: نوَّعها من كل وجه، ﴿لعلهم يرجِعونَ﴾: عمَّا هم عليه من الكفر والتكذيب، فلمَّا لم يؤمنوا؛ أخذهم اللّهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، ولم تنفعْهم آلهتُهم التي يَدْعون من دون اللّه من شيءٍ، ولهٰذا قال هنا: ﴿فلولا نَصرَهُم الذين اتَّخذوا من دون اللّه قُرباناً آلهةً﴾؛ أي: يتقرَّبون إليهم ويتألَّهونهم لرجاء نفعهم. ﴿بل ضلُّوا عنهم﴾: فلم يُجيبوهم ولا دَفَعوا عنهم، ﴿وذٰلك إفكُهُمْ وما كانوا يفترونَ﴾[1]: من الكذب الذي يُمَنُّون به أنفسَهم؛ حيث يزعُمون أنَّهم على الحقِّ، وأنَّ أعمالهم ستنفعُهم، فضلَّت وبطلت.

---

(١) في (ب): «وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون».

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟
إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ
لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٩﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسولَه محمداً ﷺ إلى الخلق إنسهم وجنهم، وكان لا بدَّ من إبلاغ الجميع لدعوة النبوَّة والرسالة؛ فالإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتُهم وإنذارُهم، وأمَّا الجنُّ؛ فصَرَفَهم الله إليه بقدرته وأرسل إليه ﴿نفراً من الجنِّ يستمعونَ القرآن فلمَّا حَضَروه قالوا أنصِتوا﴾؛ أي: وصَّى بعضُهم بعضاً بذلك، ﴿فلما قُضِيَ﴾: وقد وَعَوْه وأثَّر ذلك فيهم، ﴿ولَّوْا إلى قومِهِم منذِرين﴾: نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجَّة الله عليهم، وقيَّضهم الله معونةً لرسوله ﷺ في نشر دعوتِهِ في الجنِّ.

﴿٣٠﴾ ﴿قالوا يا قومَنا إنَّا سَمِعْنا كتاباً أنزِلَ من بعدِ موسى﴾: لأنَّ كتاب موسى أصلٌ للإنجيل وعمدةٌ لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنَّما الإنجيل متمِّم ومكمِّل ومغيِّر لبعض الأحكام، ﴿مصدِّقاً لما بين يديه يَهْدي﴾: هذا الكتاب الذي سَمِعْناه، ﴿إلى الحقِّ﴾: وهو الصوابُ في كلِّ مطلوبٍ وخبرٍ، ﴿وإلى طريقٍ مستقيمٍ﴾: موصل إلى الله وإلى جنَّته من العلم بالله وبأحكامه الدينيَّة وأحكام الجزاء.

﴿٣١﴾ فلمَّا مَدَحوا القرآن وبيَّنوا محلَّه ومرتبته؛ دَعَوْهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يا قومَنا أجيبوا داعيَ اللهِ﴾؛ أي: الذي لا يدعو إلَّا إلى ربِّه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضِهِ ولا هوى، وإنَّما يدعوكم إلى ربِّكم لِيُثيبَكم، ويزيلَ عنكم كلَّ شرٍّ ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿يغفرْ لكم من ذُنوبِكم ويُجِرْكُم من عذابٍ أليمٍ﴾: وإذا أجارهم من العذاب الأليم؛ فما ثَمَّ بعد ذلك إلَّا النعيم؛ فهذا جزاءُ من أجاب داعي الله.

﴿٣٢﴾ ﴿ومَن لا يُجِبْ داعيَ الله فليس بمعجزٍ في الأرضِ﴾: فإنَّ الله على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فلا يفوته هاربٌ ولا يغالِبُه مغالبٌ، ﴿وليس له من دونِهِ أولياءُ أولئك في ضلالٍ مبينٍ﴾، وأيُّ ضلال أبلغُ من ضلال مَنْ نادَتْه الرسل، ووصلتْ إليه النُّذُر بالآيات البيِّنات والحجج المتواتراتِ فأعرض واستكبر؟!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ الْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٣﴾ هٰذا استدلالٌ منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغُ منها، وهو ﴿أنّه الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ﴾ على عظمهما وسعتهما وإتقان خلقهما من دون أن يَكْتَرِثَ بذٰلك، ولم يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ؛ فكيف تعجِزُه إعادتُكم بعد موتكم وهو ﴿على كل شيءٍ قديرٌ﴾؟!

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضِهم على النار التي كانوا يكذِّبون بها، وأنَّهم يوبَّخون ويُقال لهم: ﴿أليس هٰذا بالحقِّ﴾؛ فقد حضرتُموه وشاهدتُموه عياناً، ﴿قالوا بلى وربِّنا﴾: فاعترفوا بذنوبهم وتبين كذبهم، ﴿قال فَذُوقُوا العَذابَ بما كنتُم تكفُرون﴾؛ أي: عذاباً لازماً دائماً كما كان كفرُكم صفةً لازمةً.

﴿٣٥﴾ ثم أمر تعالى رسوله أن يصبِرَ على أذيَّة المكذِّبين المعادين له، وأن لا يزال داعياً لهم إلى الله، وأن يقتديَ بصبرِ أولي العزم من المرسَلين سادات الخَلْق أولي العزائم والهِمَم العالية، الذين عَظُم صَبْرُهم وتمَّ يقينُهم؛ فهم أحقُّ الخلق بالأسوة بهم والقفو لآثارهم والاهتداء بمنارِهم، فامتثل ﷺ لأمر ربِّه، فصبر صبراً لم يصبِرْه نبيٌّ قبله، حتى رماه المعادون له عن قوسٍ واحدةٍ، وقاموا جميعاً بصدِّه عن الدَّعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما ينالُه من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينَه على سائر الأديان وأمَّته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿ولا تستعجل لهم﴾؛ أي: لهٰؤلاء المكذِّبين المستعجلين للعذاب؛ فإنَّ هٰذا من جهلهم وحمقهم؛ فلا يستخفنَّكَ بجهلهم ولا يَحْمِلْك ما ترى من استعجالهم على أنْ تدعُوَ الله عليهم بذٰلك؛ فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، و﴿كأنَّهم﴾ حين ﴿يَرَوْنَ ما يوعدونَ لم يَلْبَثوا﴾ في الدُّنيا ﴿إلَّا ساعةً من نهارٍ﴾؛ فلا يحزُنْك تمتُّعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل، ﴿بلاغٌ﴾؛ أي: هٰذه الدنيا متاعها

وشهواتها ولـذَّاتها بلغةٌ منغصةٌ ودفعُ وقتٍ حاضر قليل، أو هٰذا القرآن العظيم ـ الذي بيَّنَّا لكم فيه البيانَ التامَّ ـ بلاغٌ لكم وزادٌ إلى الدار الآخرة، ونِعْم الزادُ والبلغةُ، زادٌ يوصل إلى دار النعيم، ويعصِمُ من العذابِ الأليم؛ فهو أفضل زاد يتزوَّده الخلائقُ، وأجلُّ نعمة أنعم الله بها عليهم، ﴿فهل يُهلَكُ﴾: بالعقوبات ﴿إلَّا القومُ الفاسقون﴾؛ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربِّهم، ولم يَقْبَلوا الحقَّ الذي جاءتهم به الرسل، وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرُّون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف. والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة القتال

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝٣﴾.

﴿١﴾ هٰذه الآياتُ مشتملاتٌ على ذكرِ ثواب المؤمنين، وعقاب العاصين، والسببُ في ذٰلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذٰلك، فقال: ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله﴾: وهٰؤلاء رؤساءُ الكفر وأئمَّة الضلال، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياتِهِ والصدِّ لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمانُ بما دعت إليه الرُّسل واتِّباعه؛ فهٰؤلاء ﴿أضلَّ الله أعمالَهم﴾؛ أي: أبطلها وأشقاهم بسببها، وهٰذا يشمَلُ أعمالهم التي عملوها لِيَكيدوا بها الحقَّ وأولياء الله، إنَّ الله جَعَلَ كيدَهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالُهم التي يرجون أن يثابوا عليها؛ إنَّ الله سيُحْبِطُها عليهم، والسبب في ذٰلك أنَّهم اتَّبعوا الباطل، وهو كلُّ غايةٍ لا يُراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثانِ. والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلةً؛ كانت الأعمال لأجلها باطلة.

﴿٢﴾ وأما ﴿الذين آمنوا﴾ بما أنزل اللهُ على رسلِهِ عموماً وعلى محمدٍ ﷺ

خصوصاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾: بأن قاموا بما عليهم من حقوق اللّه وحقوق العباد الواجبة والمستحبَّة، ﴿كفَّر اللّه عنهم سيئاتِهم﴾: صغارها وكبارها، وإذا كُفِّرَتْ سيئاتُهم؛ نَجَوْا من عذاب الدُّنيا والآخرة، ﴿وأصلح بالَهم﴾؛ أي: أصلح دينهم ودنياهم وقلوبهم وأعمالهم، وأصلَحَ ثوابَهم بتنميتِهِ وتزكيتِهِ، وأصلح جميع أحوالهم.

﴿٣﴾ والسبب في ذٰلك أنهم اتَّبعوا الحقَّ الذي هو الصدق واليقين وما اشتمل عليه هٰذا القرآن العظيم الصادر من ربهم الذي ربَّاهم بنعمته ودبَّرهم بلطفه، فربَّاهم تعالى بالحقِّ، فاتَّبعوه، فصلحت أمورُهم، فلمَّا كانت الغايةُ المقصودة لهم متعلقةً بالحقِّ المنسوب إلى اللّه الباقي الحقِّ المبين؛ كانت الوسيلة صالحةً باقيةً، باقٍ ثوابها. ﴿كذٰلك يضرِبُ اللّه للناس أمثالَهم﴾؛ حيث بيَّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشرِّ، وذكر لكلٍّ منهم صفةً يُعرفَون بها ويتميَّزون؛ لِيَهْلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنة ويحيا من حَيَّ عن بينةٍ.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾.

﴿٤﴾ يقول تعالى مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحُهم ونصرُهم على أعدائهم: ﴿فإذا لقيتُم الذين كفروا﴾: في الحرب والقتال؛ فاصدُقوهم القتال واضرِبوا منهم الأعناق حتى تُثْخِنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شِرَّتهم؛ فإذا فعلتم ذٰلك ورأيتم الأسر أولى وأصلح؛ ﴿فشدُّوا الوثاقَ﴾؛ أي: الرباط، وهٰذا احتياط لأسرهم لئلاَّ يهربوا؛ فإذا شُدَّ منهم الوَثاق؛ اطمأنَّ المسلمون من حربهم[2] ومن شرِّهم؛ فإذا كانوا تحت أسرِكم؛ فأنتُم بالخيار بين المنِّ عليهم وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإمّا أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشترِيَهم أصحابُهم بمال أو بأسير مسلم عندهم، وهٰذا الأمر مستمرٌّ ﴿حتى تَضَعَ الحربُ أوزارها﴾؛ أي: حتى لا يبقى حربٌ وتبقَون في المسالمة والمهادنة؛ فإنَّ لكلٍّ مقام مقالاً، ولكلٍّ حال حكماً.

---

(١) في (ب): «باقياً».

(٢) كذا في (أ). وفي (ب): «هربهم».

فالحال المتقدِّمة إنَّما هي إذا كان قتالٌ وحربٌ؛ فإذا كان في بعض الأوقات لا حرب فيه لسبب من الأسباب؛ فلا قتل ولا أسر. ﴿ذٰلك﴾: الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ومداولة الأيام بينهم وانتصار بعضهم على بعض، ﴿ولو يشاءُ اللّه لانتصَرَ منهم﴾: فإنه تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وقادرٌ على أن لا ينتصرَ الكفار في موضع واحدٍ أبداً، حتى يبيدَ المسلمونَ خضراءهم، ﴿ولٰكن لِيَبْلُوَ بعضَكم ببعض﴾: ليقوم سوقُ الجهاد، وتتبيَّن بذٰلك أحوال العباد الصادق من الكاذب، وليؤمن مَنْ آمن إيماناً صحيحاً عن تبصرةٍ[1] لا إيماناً مبنيًّا على متابعة أهل الغلبة؛ فإنَّه إيمانٌ ضعيفٌ جدًّا، لا يكاد يستمرُّ لصاحبه عند المحن والبلايا. ﴿والذين قُتِلوا في سبيل اللّه﴾: لهم ثوابٌ جزيلٌ وأجرٌ جميلٌ، وهم الذين قاتلوا مَنْ أُمِروا بقتالهم؛ لتكون كلمة اللّه هي العليا؛ فهٰؤلاء لن ﴿يضِلَّ﴾ اللّه ﴿أعمالَهم﴾؛ أي: لن يحبِطَها ويبطلها، بل يتقبَّلها وينمِّيها لهم ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا والآخرة.

﴿٥﴾ ﴿سيهديهم﴾: إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة، ﴿ويصلِحُ بالَهم﴾؛ أي: حالهم وأمورهم، وثوابُهم يكون صالحاً كاملاً لا نَكَدَ فيه ولا تنغيصَ بوجه من الوجوه.

﴿٦﴾ ﴿ويدخِلُهم الجنةَ عرَّفَها لهم﴾؛ أي: عرَّفها أولاً بأن شوَّقهم إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي من جملتها القتل في سبيل اللّه، ووفَّقهم للقيام بما أمرهم به ورغَّبهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة؛ عرَّفهم منازلهم وما احتوتْ عليه من النعيم المقيم والعيش السليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾﴾.

﴿٧﴾ هٰذا أمرٌ منه تعالى للمؤمنين أن يَنْصُروا اللّه بالقيام بدينِهِ والدعوة إليه وجهاد أعدائه، والقصد بذٰلك وجه اللّه؛ فإنَّهم إذا فعلوا ذٰلك؛ نصرهم وثبَّت أقدامهم؛ أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة والثبات، ويصبِّر أجسادهم على ذٰلك، ويعينُهم على أعدائهم؛ فهٰذا وعدٌ من كريم صادق الوعد أنَّ الذي ينصُرُه بالأقوال والأفعال سينصُرُه مولاه، وييسِّر له أسباب النصر من الثبات وغيره.

(١) في (ب): «بصيرة».

﴿٨﴾ وأمَّا الذين كفروا بربِّهم ونصروا الباطل؛ فإنَّهم في تعس؛ أي: انتكاس من أمرهم وخذلانٍ، ﴿وأضلَّ أعمالَهم﴾؛ أي: أبطل أعمالهم التي يَكيدونَ بها الحقَّ، فرجع كيدُهم في نحورهم، وبطلت أعمالُهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه اللّه.

﴿٩﴾ ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا بسبب أنَّهم ﴿كرهوا ما أنزل اللّه﴾ من القرآن الذي أنزله [اللّه] صلاحاً للعباد وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، ﴿فأحبط أعمالهم﴾.

﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ أي: أفلا يسير هٰؤلاء المكذِّبون بالرسول ﷺ، ﴿فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم﴾: فإنَّهم لا يجدون عاقبتهم إلَّا شرَّ العواقب؛ فإنَّهم لا يلتفتون يمنةً ولا يسرةً إلَّا وجدوا ما حولهم قد بادوا وهلكوا واستأصلهم التكذيبُ والكفرُ، فخمدوا، ودمَّر اللّه عليهم أموالهم وديارهم، بل دمَّر أعمالهم ومكرهم، وللكافرين في كلِّ زمان ومكان أمثالُ هٰذه العواقب الوخيمة والعقوبات الذميمة، وأما المؤمنونَ؛ فإنَّ اللّه تعالى يُنجيهم من العذاب، ويُجزِلُ لهم كثير الثواب.

﴿١١﴾ ﴿ذٰلك بأنَّ اللّه مولى الذين آمنوا﴾: فتولَّاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولَّى جزاءهم ونصرهم، ﴿وأنَّ الكافرين﴾: باللّه تعالى؛ حيث قطعوا عنهم ولاية اللّه، وسدُّوا على أنفسهم رحمته ﴿لا مولى لهم﴾: يهديهم إلى سبل السلام، ولا يُنجيهم من عذاب اللّه وعقابه، بل أولياؤُهم الطاغوتُ؛ يخرِجونَهم من النورِ إلى الظُّلمات، أولٰئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى أنه وليُّ المؤمنين؛ ذكر ما يفعل بهم في الآخرة من دخول الجناتِ، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المثمرة؛ لكلِّ زوج بَهيج، وكل فاكهة لذيذة. ولمَّا ذَكَرَ أن الكافرين لا مولى لهم؛ ذكر أنَّهم وُكِلوا إلى أنفسهم، فلم يتَّصفوا بصفات المروءة ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركاتٍ، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها

ولا فضل، بل جلُّ همِّهم ومقصدهم التمتُّع بلذَّات الدُّنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرةً حولها غير متعدِّيةٍ لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهٰذا كانت النارُ مثوى لهم؛ أي: منزلاً معدًّا لا يخرجون منها ولا يفتَّر عنهم من عذابها.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: وكم من قرية من قُرى المكذِّبين هي أشدُّ قوةً من قريتك في الأموال والأولاد والأعوان والأبنية والآلات، أهلكناهم حين كذَّبوا رُسُلنا، ولم تُفِدْ فيهم المواعظُ؛ فلم نجدْ لهم ناصراً، ولم تغنِ عنهم قوتُهم من عذاب اللّه شيئاً؛ فكيف حال هٰؤلاء الضعفاء أهل قريتك إذ أخرجوك عن وطنك، وكذَّبوك وعادَوْك، وأنت أفضل المرسلين وخير الأولين والآخرين؟! أليسوا بأحقَّ من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أنَّ اللّه تعالى بعثَ رسوله بالرحمة والتأنِّي بكل كافرٍ وجاحدٍ.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: لا يستوي مَنْ هو على بصيرة من أمر دينِهِ علماً وعملاً قد علم الحقَّ واتَّبعه، ورجا ما وعده اللّه لأهل الحقِّ؛ كمن هو أعمى القلب، قد رَفَضَ الحقَّ وأضلَّه واتَّبع هواه بغير هدى من اللّه، ومع ذٰلك يرى أنَّ ما هو عليه هو الحقُّ؛ فما أبعد الفرق بين الفريقين! وما أعظم التفاوت بين الطائفتين! أهل الحقِّ وأهل الغيِّ.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: مثل الجنة التي أعدَّها اللّه لعباده الذين اتَّقوا سَخَطَه، واتَّبعوا رضوانه؛ أي: نعتها وصفتها الجميلة، ﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ﴾؛ أي: غير متغيِّر لا بوخم ولا بريح منتنةٍ ولا بمرارة ولا بكدورةٍ، بل هو أعذب المياه وأصفاها وأطيبها ريحاً وألذِّها شرباً، ﴿وأنهار من لبنٍ لم يتغيَّر طعمُه﴾: بحموضة ولا غيرها، ﴿وأنهار من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين﴾؛ أي: يلتذُّ بها[1] شاربه لذةً عظيمةً،

---

(١) في (ب): «به».

لا كخمر الدنيا الذي يُكره مذاقُه ويُصَدِّع الرأس ويغوّلُ العقلَ، ﴿وأنهار من عسل مصفًّى﴾: من شمعه وسائر أوساخه. ﴿ولهم فيها من كلِّ الثمرات﴾: من نخيل وعنبٍ وتفاح ورمانٍ وأترجٍّ وتينٍ وغير ذٰلك ممَّا لا نظير له في الدُّنيا؛ فهٰذا المحبوبُ المطلوبُ قد حَصَلَ لهم. ثم قال: ﴿ومغفرة من ربِّهم﴾: يزول بها عنهم المرهوبُ؛ فأيُّ هٰؤلاء خيرٌ أم ﴿من هو خالدٌ في النار﴾: التي اشتدَّ حرُّها وتضاعف عذابُها، ﴿وسُقوا﴾: فيها ﴿ماءً حميماً﴾؛ أي: حارًّا جدًّا، ﴿فقطَّع أمعاءهم﴾: فسبحان من فاوت بين الدارين والجزاءين والعاملين والعملين.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ يقول تعالى: ومن المنافقين ﴿مَن يستمعُ إليك﴾: ما تقول؛ استماعاً لا عن قَبول وانقيادٍ، بل معرضةٌ قلوبهم عنه، ولهٰذا قال: ﴿حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم﴾: مستفهمينَ عمَّا قلتَ وما سمعوا ممَّا لم يكنْ لهم فيه رغبةٌ: ﴿ماذا قال آنفاً﴾؛ أي: قريباً! وهٰذا في غاية الذمِّ لهم؛ فإنَّهم لو كانوا حريصين على الخير؛ لألقَوْا إليه أسماعهم ووعتْه قلوبُهم وانقادتْ له جوارحهم، ولٰكنَّهم بعكس هٰذه الحال، ولهٰذا قال: ﴿أولئك الذين طَبَعَ الله على قلوبهم﴾؛ أي: ختم عليها وسدَّ أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتِّباعهم أهواءهم التي لا يهوون فيها إلَّا الباطل.

﴿١٧﴾ ثم بيَّن حالَ المهتدين، فقال: ﴿والذين اهتدَوْا﴾: بالإيمان والانقياد واتِّباع ما يرضي الله ﴿زادهم هدىً﴾: شكراً منه تعالى لهم على ذٰلك، ﴿وآتاهم تقْواهم﴾؛ أي: وفَّقهم للخير، وحفِظَهم من الشرِّ. فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٨﴾ أي: فهل ينظر هٰؤلاء المكذِّبون أو[1] ينتظرون ﴿إلَّا الساعة أن تأتِيَهُم بغتةً﴾؛ أي: فجأة وهم لا يشعرون، ﴿فقد جاء أشراطُها﴾؛ أي: علاماتها الدالَّة على قربِها ﴿فأنى لهم إذا جاءتهم ذِكْراهم﴾؛ أي: من أين لهم إذا جاءتْهم الساعةُ

(١) في (ب): «و».

وانقطعتْ آجالهم أن يتذكَّروا ويستعتبوا؛ قد فات ذٰلك وذهب وقتُ التذكُّر؛ فقد عُمِّروا ما يتذكَّر فيه من تذكَّر وجاءهم النذير. ففي هٰذا الحثُّ على الاستعداد قبل مفاجأة الموت؛ فإنَّ موت الإنسان قيامُ ساعته.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٩﴾ العلم لا بدَّ فيه من إقرار القلب ومعرفتِهِ بمعنى ما طُلِبَ منه علمه، وتمامه أن يعملَ بمقتضاه. وهٰذا العلم الذي أمر اللّهُ به، وهو العلم بتوحيد اللّه، فرضُ عينٍ على كلِّ إنسان، لا يسقطُ عن أحدٍ كائناً مَن كان، بل كلٌّ مضطرٌّ إلى ذٰلك.

والطريق إلى العلم بأنَّه لا إلٰه إلَّا اللّه[1] أمورٌ:

**أحدُها** ـ بل أعظمها ـ: تدبُّر أسمائه وصفاته وأفعاله الدالَّة على كماله وعظمتِهِ وجلالِهِ؛ فإنَّها توجب بذل الجهد في التألُّه له والتعبُّد للربِّ الكامل الذي له كلُّ حمدٍ ومجدٍ وجلال وجمال.

**الثاني**: العلمُ بأنَّه تعالى المنفردُ بالخلق والتدبير، فيعلم بذٰلك أنَّه المنفرد بالألوهية.

**الثالث**: العلم بأنَّه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة الدينيَّة والدنيويَّة؛ فإنَّ ذٰلك يوجب تعلُّق القلب به ومحبَّته والتألُّه له وحده لا شريك له.

**الرابع**: ما نراه ونسمعه من الثوابِ لأوليائِهِ القائمين بتوحيدِهِ من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبتِهِ لأعدائِهِ المشركين به؛ فإنَّ هٰذا داعٍ إلى العلم بأنَّه تعالى وحده المستحقُّ للعبادة كلِّها.

**الخامس**: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عُبِدَتْ مع اللّه واتُّخِذت آلهة، وأنَّها ناقصةٌ من جميع الوجوه، فقيرةٌ بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولا ينصرون مَن عبدهم ولا ينفعونهم بمثقال ذرَّةٍ من جلب خيرٍ أو دفع شرٍّ؛ فإنَّ العلم بذٰلك يوجب العلم بأنَّه لا إلٰه إلا اللّه[1] وبطلان إلٰهيَّة ما سواه.

---

(١) في (ب): «هو».

**السادس**: اتِّفاق كتب اللّه على ذٰلك وتواطؤها عليه.

**السابع**: أن خواصَّ الخلق الذين هم أكملُ الخليقة أخلاقاً وعقولاً ورأياً وصواباً وعلماً ـ وهم الرسلُ والأنبياءُ والعلماء الربانيُّون ـ قد شهِدوا للّه بذٰلك.

**الثامن**: ما أقامه اللّه من الأدلَّة الأفقيَّة والنفسيَّة التي تدلُّ على التوحيد أعظم دلالةٍ وتنادي عليه بلسان حالها بما أوْدَعَها من لطائف صنعتِهِ وبديع حكمتِهِ وغرائب خلقِهِ؛ فهٰذه الطرق التي أكثر اللّه من دعوةِ الخلق بها إلى أنَّه لا إلٰه إلَّا اللّه، وأبداها في كتابه وأعادها، عند تأمُّل العبد في بعضها؛ لا بدَّ أن يكون عنده يقينٌ وعلمٌ بذٰلك؛ فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتَّفقت وقامت أدلَّة للتوحيد من كلِّ جانب؟! فهناك يرسخُ الإيمان والعلم بذٰلك في قلب العبد؛ بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزِلُه الشُّبه والخيالات، ولا يزداد على تكرُّر الباطل والشُّبه إلَّا نموًّا وكمالاً. هٰذا، وإن نظرتَ إلى الدليل العظيم والأمر الكبير ـ وهو تدبُّر هٰذا القرآن العظيم والتأمُّل في آياته؛ فإنَّه البابُ الأعظم إلى العلم بالتوحيد، ويحصُلُ به من تفاصيله وجمله ما لا تحصل في غيره.

وقوله: ﴿**واستغفر لذنبِك**﴾؛ أي: اطلب من اللّه المغفرة لذنبك؛ بأنْ تفعلَ أسباب المغفرةِ من التوبة والدُّعاء بالمغفرة والحسنات الماحية وترك الذُّنوب والعفو عن الجرائم، ﴿**و**﴾ استغفر أيضاً ﴿**للمؤمنين والمؤمناتِ**﴾؛ فإنَّهم بسبب إيمانهم كان لهم حقٌّ على كلِّ مسلم ومسلمةٍ، ومن جملة حقوقهم أن يُدعَى لهم ويُسْتَغْفَرَ لذُنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمِّن لإزالة الذُّنوب وعقوباتها عنهم؛ فإنَّ من لوازم ذٰلك النُّصح لهم، وأن يحبَّ لهم من الخير ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم من الشرِّ ما يكرهُ لنفسِهِ، ويأمرهم بما فيه الخيرُ لهم، وينهاهم عمَّا فيه ضررُهم، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم، ويحرصُ على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبُهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثُرُ ذنوبهم ومعاصيهم. ﴿**واللّهُ يعلم مُتَقَلَّبَكُم**﴾؛ أي: تصرُّفاتكم وحركاتكم وذهابكم ومجيئكم، ﴿**ومَثْواكم**﴾: الذي به تستقرُّون؛ فهو يعلمكم في الحركات والسَّكَنات، فيجازيكم على ذٰلك أتمَّ الجزاء وأوفاه.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ

مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿٢٠﴾ يقول تعالى: ﴿ويقولُ الذين آمنوا﴾: استعجالاً ومبادرةً للأوامر الشاقَّة: ﴿لولا نُزِّلَتْ سورةٌ﴾؛ أي: فيها الأمر بالقتال، ﴿فإذا أُنزِلَتْ سورةٌ محكمةٌ﴾؛ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذُكِرَ فيها القتالُ﴾: الذي هو أشقُّ شيءٍ على النفوس؛ لم يثبتْ ضعفاء الإيمان على امتثال هٰذه الأوامر، ولهٰذا قال: ﴿رأيتَ الذين في قلوبِهِم مرضٌ ينظُرون إليك نَظَرَ المغشيِّ عليه من الموت﴾: من كراهتهم لذٰلك وشدَّته عليهم، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿ألم تَرَ إلى الذين قيل لهم كُفُّوا أيدِيَكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزَّكاة فلمَّا كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشَوْن الناس كخشية اللّه أو أشدَّ خشيةً﴾.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليقُ بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم. طاعةٌ وقولٌ معروفٌ﴾؛ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتَّم عليهم، ويَجْمَعوا عليه هِمَمَهم، ولا يطلبوا أن يَشْرَعَ لهم ما هو شاقٌّ عليهم، وليفرَحوا بعافية اللّه تعالى وعفوِهِ، ﴿فإذا عزم الأمر﴾؛ أي: جاءهم أمر[1] جدٌّ وأمر محتَّم، ففي هٰذه الحال، لو ﴿صَدَقوا اللّه﴾: بالاستعانة به وبذل الجهد في امتثاله، ﴿لكانَ خيراً لهم﴾: من حالهم الأولى، وذٰلك من وجوه: **منها**: أنَّ العبد ناقصٌ من كلِّ وجه، لا قدرة له إلَّا إن أعانه اللّه؛ فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده. **ومنها**: أنَّه إذا تعلَّقت نفسُه بالمستقبل؛ ضعف عن العمل بوظيفة وقته الحاضر وبوظيفة المستقبل، أما الحال؛ فلأنَّ الهمَّة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبعٌ للهمَّة. وأما المستقبل؛ فإنَّه لا يجيء حتى تفتُرَ الهمَّة عن نشاطها، فلا يُعان عليه. **ومنها**: أنَّ العبد المؤمِّل للآمال المستقبلة، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيهٌ بالمتألِّي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره؛ فأحرى به أن يُخذَلَ ولا يقوم بما همَّ به و[وطَّن][2] نفسه عليه؛ فالذي ينبغي أن يجمع العبد همَّه وفكرتَه ونشاطَه على وقته الحاضر، ويؤدِّي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلَّما جاء وقتٌ؛ استقبله بنشاط وهمَّةٍ عاليةٍ مجتمعةٍ غير متفرِّقة، مستعيناً بربِّه في ذٰلك؛ فهٰذا حريٌّ بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

---

(١) في (ب): «الأمر».

(٢) كذا في هامش (ب) بعد أن صوّبها الشيخ: وأمّا في ( أ ) فقد بقيت: «توعّد».

﴿٢٢﴾ ثم ذكر تعالى حال المتولِّي عن طاعة ربِّه، وأنَّه لا يتولَّى إلى خيرٍ، بل إلى شرٍّ، فقال: ﴿فهل عسيتُم إن تَولَّيتُم أن تفسدوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم﴾؛ أي: فهما أمران: إمَّا التزامٌ لطاعة الله وامتثالٌ لأوامره؛ فثَمَّ الخيرُ والرشدُ والفلاح. وإمَّا إعراضٌ عن ذلك وتولي عن طاعةِ الله؛ فما ثَمَّ إلَّا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطيعة الأرحام.

﴿٢٣﴾ ﴿أولئك الذين﴾: أفسدوا في الأرض، وقطَّعوا أرحامهم. ﴿لعَنهم الله﴾: بأن أبعدهم عن رحمته وقربوا من سخط الله ﴿فأصمَّهم وأعمى أبصارَهم﴾؛ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعُهم ولا يبصِرونه؛ فلهم آذانٌ ولكن لا تسمعُ سماع إذعانٍ وقبولٍ، وإنَّما تسمع سماعاً تقومُ بها[1] حجةُ الله عليها، ولهم أعينٌ ولكن لا يبصِرون بها العبرَ والآيات، ولا يلتفتونَ بها إلى البراهين والبيِّنات.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فهلاَّ يتدبَّر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ويتأمَّلونه حقَّ التأمُّل؛ فإنهم لو تدبَّروه؛ لدلَّهم على كلِّ خيرٍ، ولحذَّرهم من كلِّ شرٍّ، ولملأ قلوبَهم من الإيمان وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية والمواهبِ الغالية، ولبيَّن لهم الطريقَ الموصلة إلى الله وإلى جنَّته ومكمِّلاتها ومفسداتها، والطريقَ الموصلة إلى العذابِ، وبأيِّ شيء يُحذر[2]، ولعرَّفهم بربِّهم وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهَّبهم من العقاب الوبيل، ﴿أم على قلوبٍ أقفالُها﴾؛ أي: قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة والاعتراض[3]، وأقفِلَت فلا يدخلها خيرٌ أبداً؟! هذا هو الواقع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدِّين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى

---

(١) في (ب): «به». (٢) في (ب): «تحذر».

(٣) في (ب): «على ما فيها من الشر».

الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلَّهم ولا برهان، وإنَّما هو تسويلٌ من عدوِّهم الشيطان، وتزيينٌ لهم وإملاءٌ منه لهم؛ ﴿يعِدُهم ويمنِّيهم وما يعِدُهم الشيطانُ إلَّا غروراً﴾.

﴿٢٦﴾ و﴿ذٰلك﴾: أنَّهم قد تبيَّن لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و﴿قالوا للذين كرِهوا ما نَزَّلَ اللّه﴾: من المبارزين العداوة للّه ولرسوله: ﴿سنُطيعكم في بعض الأمرِ﴾؛ أي: الذي يوافق أهواءهم؛ فلذٰلك عاقبهم اللّه بالضلال والإقامة على ما يوصِلُهم إلى الشقاء الأبديِّ والعذاب السرمديِّ، ﴿واللّهُ يعلمُ إسرارَهم﴾: فلذٰلك فضحهم، وبيَّنها لعباده المؤمنين؛ لئلَّا يغترُّوا بها.

﴿٢٧﴾ ﴿فكيف﴾ ترى حالَهم الشنيعة ورؤيتهم الفظيعة، ﴿إذا توفَّتْهم الملائكةُ﴾: الموكلون بقبض أرواحهم، ﴿يضرِبون وجوهَهم وأدبارَهم﴾: بالمقامع الشديدة.

﴿٢٨﴾ ﴿ذٰلك﴾: العذابُ الذي استحقُّوه ونالوه، بسبب ﴿أنَّهم اتَّبعوا ما أسخطَ اللّهَ﴾: من كل كفرٍ وفسوقٍ وعصيانٍ، ﴿وكرِهوا رِضْوانَه﴾: فلم يكن لهم رغبةٌ فيما يقرِّبهم إليه ولا يدنيهم منه، ﴿فأحبط أعمالَهم﴾؛ أي: أبطلها وأذهبها، وهٰذا بخلاف من اتَّبع ما يُرضي اللّه وكره سخطه؛ فإنَّه سيكفِّر عنه سيئاتِهِ ويضاعِفُ له أجره وثوابه.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

﴿٢٩﴾ يقول تعالى: ﴿أم حَسِبَ الذين في قلوبهم مرضٌ﴾: من شبهة أو شهوة؛ بحيث تخرِجُ القلب عن حال صحَّته واعتداله، أن اللّه لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغانِ والعداوةِ للإسلام وأهله! هٰذا ظنٌّ لا يَليقُ بحكمة اللّه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يميِّزَ الصادق من الكاذب، وذٰلك بالابتلاء بالمحنِ التي مَن ثَبَتَ عليها ودام إيمانُه فيها؛ فهو المؤمن حقيقةً، ومَن ردَّته على عقبيه، فلم يصبرْ عليها، وحين أتاه الامتحان جَزِعَ وضَعُفَ إيمانه وخرج ما في قلبِهِ من الضِّغَن وتبيَّن نفاقُه؛ هٰذا مقتضى الحكمة الإلٰهيَّة.

﴿٣٠﴾ مع أنَّه تعالى قال: ﴿لو نشاء لأريناكهم فلَعَرَفْتَهم بسيماهم﴾؛ أي:

بعلاماتهم التي هي كالرسم[1] في وجوههم، ﴿ولتعرِفنَّهم في لحنِ القول﴾؛ أي: لا بدَّ أن يظهرَ ما في قلوبهم ويتبيَّن بفلتاتِ ألسنتهم؛ فإنَّ الألسنَ مغارفُ القلوب، يظهر فيها ما في القلوب من الخير والشرِّ، ﴿والله يعلمُ أعمالَكم﴾: فيجازيكم عليها.

﴿٣١﴾ ثم ذَكَرَ أعظم امتحانٍ يمتحنُ به عبادَه، وهو الجهادُ في سبيل الله، فقال: ﴿ولَنَبْلُوَنَّكم﴾؛ أي: نختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حتى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخبارَكم﴾: فمن امتثل أمر الله وجاهدَ في سبيل الله بنصر دينِهِ وإعلاءِ كلمتِهِ؛ فهو المؤمن حقًّا، ومن تكاسل عن ذٰلك؛ كان ذٰلك نقصاً في إيمانه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٢﴾ هٰذا وعيدٌ شديدٌ لمن جمع أنواع الشرِّ كلَّها من الكفر بالله وصدِّ الخلق عن سبيل الله الذي نَصَبَه موصلاً إليه، ﴿وشاقُّوا الرسولَ من بعدِ ما تبيَّن لهم الهُدى﴾؛ أي: عاندوه وخالفوه عن عمدٍ وعنادٍ، لا عن جهلٍ وغيٍّ وضلال؛ فإنَّهم ﴿لن يضرُّوا الله شيئاً﴾؛ فلا ينقص به ملكه، ﴿وسيُحْبِطُ أعمالَهم﴾؛ أي: مساعيهم التي بذلوها في نصر الباطل؛ بأنْ لا تثمرَ لهم إلَّا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب لا تُقبل؛ لعدم وجودِ شرطها.

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٣٣﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمرٍ به تتمُّ [أمورُهم] وتحصل سعادتُهم الدينيَّة والدنيويَّة، وهو طاعتُه وطاعة رسولِهِ في أصول الدين وفروعه، والطاعةُ هي امتثال الأمر واجتنابُ النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة، وقوله: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾: يشملُ النهي عن إبطالها بعد عملها بما يفسِدُها مِن مَنٍّ بها وإعجابٍ وفخرٍ وسمعةٍ، ومن عملٍ بالمعاصي التي تضمحلُّ معها الأعمال ويحبطُ أجرُها. ويشمل النهي عن إفسادِها حال وقوعها بقطعها أو الإتيان بمفسدٍ من مفسداتها. فمبطلاتُ الصلاة والصيام والحجِّ ونحوها كلُّها داخلةٌ في هٰذا ومنهيٌّ عنها.

ويستدلُّ الفقهاء بهٰذه الآية على تحريم قطع الفرض وكراهةِ قطع النفل من غير موجبٍ لذٰلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال؛ فهو أمرٌ بإصلاحها

---

(١) في (ب): «كالوسم».

وإكمالها وإتمامها والإتيان بها على الوجهِ الذي تَصْلُحُ به علماً وعملاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٤﴾ هٰذه الآية والتي في البقرة[1] قوله: ﴿ومَن يرتَدِدْ منكم عن دينِهِ فيمتْ وهو كافرٌ فأولٰئك حبطتْ أعمالُهم في الدُّنيا والآخرةِ﴾: مقيَّدتانِ لكلِّ نصٍّ مطلق فيه إحباط العمل بالكفر؛ فإنَّه مقيدٌ بالموت عليه، فقال هنا: ﴿إنَّ الذين كفروا﴾: باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وصدُّوا﴾: الخلق ﴿عن سبيل اللّه﴾: بتزهيدهم إيَّاهم بالحقِّ، ودعوتهم إلى الباطل وتزيينه، ﴿ثم ماتوا وهم كفارٌ﴾: لم يتوبوا منه، ﴿فلن يَغفِرَ اللّهُ لهم﴾: لا بشفاعة ولا بغيرها؛ لأنَّه قد تحتَّم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسُدَّت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهومُ الآية الكريمة أنَّهم إن تابوا من ذٰلك قبل موتِهِم؛ فإنَّ اللّه يغفرُ لهم ويرحمهُم ويدخِلُهم الجنَّة، ولو كانوا مفنينَ أعمارَهم في الكفر به والصدِّ عن سبيله والإقدام على معاصيه. فسبحان من فَتَحَ لعبادِهِ أبوابَ الرحمة ولم يغلِقْها عن أحدٍ ما دام حيًّا متمكناً من التوبة. وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيهم ويرزقُهم كأنَّهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

﴿٣٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿فلا تَهِنوا﴾؛ أي: تضعفوا عن قتال عدوِّكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا، واثبتوا، ووطِّنوا أنفسَكم على القتال والجِلادِ طلباً لمرضاة ربِّكم ونصحاً للإسلام وإغضاباً للشيطان، ﴿و﴾ لا ﴿تَدْعوا إلى﴾: المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم طلباً للراحة، ﴿و﴾ الحال أنَّكم ﴿أنتم الأعْلَوْن واللّهُ معكم ولن يَتِرَكُم﴾؛ أي: ينقصكم ﴿أعمالَكم﴾: فهٰذه الأمور الثلاثة كلٌّ منها مقتضٍ للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلين؛ أي: قد توفرت لهم أسباب النصر ووعدوا من اللّه بالوعد الصادق؛ فإنَّ الإنسان لا يهن إلَّا إذا كان أذلَّ من غيره وأضعف عدداً أو عُدداً وقوةً داخليةً وخارجيةً.

الثاني: أنَّ اللّه معهم؛ فإنَّهم مؤمنون، واللّه مع المؤمنين بالعون والنصر والتأييد، وذٰلك موجبٌ لقوَّة قلوبهم وإقدامهم على عدوهم.

---

(١) البقرة: آية ٢١٧.

**الثالث**: أنَّ اللّه لا يَنْقُصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفِّيهم أجورهم ويزيدُهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد؛ فإنَّ النفقة تضاعَفُ فيه إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرةٍ، وقال تعالى: ﴿ذٰلك بأنَّهم لا يصيبُهم ظمأٌ ولا نصبٌ ولا مخمصةٌ في سبيلِ اللّه ولا يطؤون موطِئاً يَغيظُ الكفارَ ولا ينالون من عدوٍّ نيلاً إلَّا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ إنَّ اللّه لا يُضِيعُ أجرَ المحسنين. ولا ينفقونَ نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعونَ وادياً إلَّا كُتِبَ لهم لِيَجْزِيَهم اللّه أحسنَ ما كانوا يعملون﴾.

**فإذا عرف** الإنسان أنَّ اللّه تعالى لا يُضِيعُ عملَه وجهاده؛ أوجب له ذٰلك النشاط وبذل الجهد فيما يترتَّب عليه الأجر والثواب؛ فكيف إذا اجتمعتْ هٰذه الأمور الثلاثة؟! فإنَّ ذٰلك يوجب النشاط التامَّ. فهٰذا من ترغيب اللّه لعباده وتنشيطهم وتقويةِ أنفسهم على ما فيه صلاحُهم وفلاحُهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ هٰذا تزهيدٌ منه تعالى لعباده في الحياة الدُّنيا؛ بإخبارِهم عن حقيقة أمرِها؛ بأنها لعبٌ ولهوٌ؛ لعبٌ في الأبدان ولهوٌ في القلوب، فلا يزال العبدُ لاهياً في ماله وأولاده وزينتِهِ ولذاتِهِ من النساء والمآكل والمشارب والمساكن والمجالس والمناظر والرياسات، لاعباً في كلِّ عمل لا فائدةَ فيه، بل هو دائرٌ بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى يستكملَ[1] دُنياه ويَحْضُرَه أجلُه؛ فإذا هٰذه الأمورُ قد ولَّت وفارقتْ ولم يحصُلِ العبدُ منها على طائل، بل قد تبيَّن له خسرانُه وحرمانُه وحضر عذابُه؛ فهٰذا موجبٌ للعاقل الزهد فيها وعدم الرغبة فيها والاهتمام بشأنها، وإنَّما الذي ينبغي أن يهتمَّ به ما ذكره بقوله: ﴿وإن تؤمنوا وتَتَّقوا﴾: بأنْ تؤمنوا باللّه وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه؛ فهٰذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يُتنافسَ فيه وتُبذل الهمم والأعمالُ في طلبه، وهو

---

(١) في (ب): «تستكمل».

مقصودُ اللّه من عباده؛ رحمةً بهم ولطفاً؛ ليثيبَهم الثوابَ الجزيل، ولهٰذا قال: ﴿وإن تؤمنوا وتتَّقوا يؤتِكُم أجورَكم ولا يَسْألْكم أموالَكم﴾؛ أي: لا يريدُ تعالى أن يكلفكم ما يشقُّ عليكم ويُعْنِتَكم من أخذِ أموالكم وبقائكم بلا مال أو يَنْقُصَكم نقصاً يضرُّكم، ولهٰذا قال: ﴿إن يسألْكُموها فيُحْفِكُم تبخَلوا ويخرِجْ أضغانَكُم﴾؛ أي: ما في قلوبكم من الضِّغن إذا طُلِبَ منكم ما تكرهون بذلَه.

﴿٣٨﴾ والدليل على أنَّ اللّه لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها أنَّكم تمتنعون منها، أنَّكم ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا في سبيل اللّه﴾: على هٰذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينيَّة والدنيويَّة، ﴿فمنكم من يبخلُ﴾؛ أي: فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمرٍ تَرَوْنَه مصلحة عاجلة؟! أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذٰلك؟!

ثم قال: ﴿ومَن يبخلْ فإنَّما يبخلُ عن نفسِهِ﴾: لأنَّه حرم نفسه ثوابَ اللّه تعالى، وفاته خيرٌ كثيرٌ، ولن يضرَّ اللّه بترك الإنفاق شيئاً، فإن ﴿اللّه﴾: هو ﴿الغني وأنتم الفقراءُ﴾: تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم، ﴿وإن تَتَوَلَّوا﴾: عن الإيمان باللّه وامتثال ما يأمركم به؛ ﴿يستبدِلْ قوماً غيرَكم ثمَّ لا يكونوا أمثالَكم﴾: في التولِّي، بل يطيعونَ اللّه ورسولَه ويحبُّون اللّه ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا من يَرْتَدَّ منكم عن دينِهِ فسوف يأتي اللّه بقوم يحبُّهم ويحبُّونَه﴾.

تم تفسير سورة القتال. والحمد للّه رب العالمين.

* * *

# تفسير سورة الفتح

## وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

﴿١﴾ هٰذا الفتحُ المذكور هو صلحُ الحديبيةِ، حين صدَّ المشركون رسولَ اللّه ﷺ لمَّا جاء معتمراً في قصة طويلة[1]، صار آخر أمرها أن صالحهم

(١) كما في حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم عند البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢)، مرسلة إلّا أنه صرح بالسماع عن أصحاب رسول اللّه ﷺ انظر «الفتح»(٥/ ٣٣٣).

رسولُ اللّٰه ﷺ على وَضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمرَ من العام المقبل، وعلى أنَّ مَن أراد أن يَدْخُلَ في عهد قريش وحلفهم؛ دَخَلَ، ومن أحبَّ أن يدخُلَ في عهد رسول اللّٰه ﷺ وعقده؛ فعل. وسبب ذٰلك لما أَمِّنَ الناس بعضهم بعضاً؛ اتَّسعت دائرة الدعوة لدين اللّٰه عزَّ وجلَّ، وصار كلُّ مؤمن بأيِّ محلٍّ كان من تلك الأقطار يتمكَّن من ذٰلك، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناسُ في تلك المدَّة في دين اللّٰه أفواجاً؛ فلذٰلك سمَّاه اللّٰه فتحاً، ووصفه بأنَّه فتحٌ مبينٌ؛ أي: ظاهرٌ جليٌّ، وذٰلك لأنَّ المقصود في فتح بلدان المشركين إعزازُ دين اللّٰه وانتصار المسلمين، وهٰذا حصل بذلك الفتحُ.

﴿٢﴾ ورتَّب الله على هٰذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك اللّٰهُ ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخَّر﴾: وذٰلك ـ واللّٰه أعلم ـ بسبب ما حَصَلَ بسببه من الطاعات الكثيرة والدُّخول في الدين بكثرة، وبما تحمل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبرُ عليها إلَّا أولو العزم من المرسلين، وهٰذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ: أنْ غَفَرَ اللّٰه له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، ﴿ويتمَّ نعمته عليك﴾: بإعزاز دينك ونصرِك على أعدائك واتِّساع كلمتك، ﴿ويهدِيَك صراطاً مستقيماً﴾: تنال به السعادةَ الأبديَّة والفلاح السرمْديَّ.

﴿٣﴾ ﴿وينصُرَك اللّٰه نصراً عزيزاً﴾؛ أي: قويًّا لا يتضعضعُ فيه الإسلام، بل يحصُلُ الانتصار التامُّ وقمع الكافرين وذُلُّهم ونقصُهم، مع توفُّر قوى المسلمين ونموِّهم ونموِّ أموالهم؛ [ثم] ذكر آثار هٰذا الفتح على المؤمنين، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿٤﴾ يخبر تعالى عن منَّته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكونُ والطمأنينةُ والثباتُ عند نزول المحنِ المقلقةِ والأمور الصعبة التي تشوِّش

القلوبَ وتزعجُ الألباب وتضعِفُ النفوس؛ فمن نعمة اللّه على عبده في هٰذه الحال أن يثبِّتَه ويربطَ على قلبه، وينزِلَ عليه السكينةَ، ليتلقَّى هٰذه المشقَّاتِ بقلبٍ ثابتٍ ونفسٍ مطمئنةٍ، فيستعدَّ بذٰلك لإقامة أمر اللّه في هٰذه الحال، فيزداد بذٰلك إيمانُه، ويتمَّ إيقانُه. فالصحابةُ رضي اللّه عنهم لـمَّا جرى ما جرى بينَ رسول اللّهِ ﷺ والمشركين من تلك الشروطِ التي ظاهرُها أنَّها غضاضةٌ عليهم وحطٌّ من أقدارِهم، وتلك لا تكادُ تصبِرُ عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطَّنوا أنفسَهم لها؛ ازدادوا بذٰلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿ولله جنودُ السمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: جميعها في ملكه وتحت تدبيره وقهره؛ فلا يظنُّ المشركون أنَّ اللّه لا ينصُرُ دينَه ونبيَّه، ولٰكنَّه تعالى عليمٌ حكيمٌ، فتقتضي حكمته المداولةَ بين الناس في الأيام وتأخيرَ نصر المؤمنين إلى وقتٍ آخر.

﴿٥﴾ ﴿ليدخِلَ المؤمنين والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها ويكفِّرَ عنهم سيئاتِهِم﴾: فهٰذا أعظمُ ما يحصُلُ للمؤمنين؛ أي: يحصُلُ لهم المرغوبُ المطلوبُ بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات، ﴿وكان ذٰلك﴾: الجزاء المذكورُ للمؤمنينَ، ﴿عند اللّه فوزاً عظيماً﴾: فهٰذا ما يفعلُ بالمؤمنين في ذٰلك الفتح المبين.

﴿٦﴾ وأمَّا المنافقون والمنافقاتُ والمشركون والمشركاتُ؛ فإنَّ اللّه يعذِّبُهم بذٰلك ويريهم ما يسوؤُهم؛ حيث كان مقصودُهم خِذلان المؤمنين، وظنُّوا باللّه ظنَّ السَّوْءِ أنَّه لا ينصُرُ دينَه ولا يُعلي كلمته، وأنَّ أهلَ الباطل ستكونُ لهم الدائرةُ على أهل الحقِّ، فأدار اللّه عليهم ظَنَّهم، وكانت دائرةُ السوء عليهم في الدنيا، ﴿وغضبَ اللّه عليهم﴾: بما اقترفوه من المحادَّة للّه ولرسولِهِ، ﴿ولَعَنَهم﴾؛ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمتِهِ، ﴿وأعدَّ لهم جهنَّم وساءت مصيراً﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ كرَّر الإخبار بأنَّ له ملك السماواتِ والأرض وما فيهما من الجنود؛ ليعلم العبادُ أنَّه تعالى هو المعزُّ المذلُّ، وأنَّه سينصر جنودَه المنسوبة إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّ جندَنا لهم الغالبونَ﴾، ﴿وكان اللّه عزيزاً﴾؛ أي: قويًّا غالباً قاهراً لكلِّ شيءٍ، ومع عزَّته وقوَّته؛ فهو حكيمٌ في خلقه. وتدبيرُه يَجري على ما تقتضيه حكمتُه وإتقانُه.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿٨﴾ أي: ﴿إنَّا أرسلناكَ﴾: أيها الرسولُ الكريمُ، ﴿شاهداً﴾: لأمتك بما فعلوه من خير وشرٍّ، وشاهداً على المقالات والمسائل حقِّها وباطِلِها، وشاهداً للّه تعالى بالوحدانيَّة والانفراد بالكمال من كلِّ وجه، ﴿ومبشراً﴾: من أطاعك وأطاع اللّه بالثواب الدنيويِّ والدينيِّ والأخرويِّ، ومنذراً من عصى اللّه بالعقاب العاجل والآجل، ومن تمام البشارةِ والنِّذارة بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر؛ فهو المبيِّن للخير والشرِّ والسعادة والشقاوة والحقِّ من الباطل.

﴿٩﴾ ولهٰذا رتَّب على ذٰلك قوله: ﴿لتؤمِنوا باللّهِ ورسولِهِ﴾؛ أي: بسبب دعوة الرسول لكم وتعليمه لكم ما ينفعكم أرسلناه؛ لتقوموا بالإيمان باللّه ورسولِهِ، المستلزم ذٰلك لطاعتهما في جميع الأمور، ﴿وتعزِّروهُ وتوقِّروهُ﴾؛ أي: تعزِّروا الرسول ﷺ وتوقِّروه؛ أي: تعظِّموه، وتجلُّوه، وتقوموا بحقوقِهِ، كما كانت له المنَّة العظيمةُ برقابكم، ﴿وتسبِّحوه﴾؛ أي: تسبِّحوا للّه ﴿بكرةً وأصيلاً﴾: أول النهار وآخره.

فذكر اللّه في هٰذه الآية الحقَّ المشترك بين اللّه وبين رسوله، وهو الإيمان بهما، والمختصَّ بالرسول، وهو التعزير والتوقير، والمختصَّ باللّه، وهو التسبيح له والتقديس بصلاةٍ أو غيرها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ هٰذه المبايعةُ التي أشار اللّه إليها هي بيعة الرضوان، التي بايع الصحابةُ رضي اللّه عنهم فيها رسولَ اللّه ﷺ على أن لا يفرُّوا عنه؛ فهي عقدٌ خاصٌّ، من لوازمه أن لا يفرُّوا، ولو لم يبقَ منهم إلَّا القليلُ، ولو كانوا في حال يجوزُ الفرارُ فيها. فأخبر تعالى: ﴿إنَّ الذين يبايِعونَك﴾: حقيقةُ الأمرِ أنَّهم ﴿يبايِعونَ اللّه﴾: ويعقِدونَ العقد معه، حتى إنه من شدَّة تأكُّده أنَّه قال: ﴿يدُ اللّه فوق أيديهم﴾؛ أي: كأنهم بايعوا اللّه وصافحوه بتلك المبايعة، وكلُّ هٰذا لزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهٰذا قال: ﴿فمن نكث﴾: فلم يفِ بما عاهد اللّه عليه، ﴿فإنَّما ينكُثُ على نفسه﴾؛ أي: لأنَّ وَبال ذٰلك راجعٌ إليه وعقوبتَه واصلةٌ له،

﴿ومن أوفى بما عاهَدَ عليهُ اللّهَ﴾؛ أي: أتى به كاملاً موفراً، ﴿فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾: لا يعلم عِظَمَه وقَدْرَه إلَّا الذي آتاه إيَّاه.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١ ـ ١٣﴾ يذمُّ تعالى المتخلِّفين عن رسول[1] اللّه في الجهاد في سبيله من الأعراب، الذين ضَعُفَ إيمانُهم وكان في قلوبهم مرضٌ وسوء ظنٍّ باللّه تعالى، وأنهم سيعتذرون؛ بأنَّ أموالهم وأهليهم شغلتهم عن الخروج في سبيله، وأنَّهم طلبوا من رسول اللّهِ ﷺ أن يستغفرَ لهم؛ قال اللّه تعالى: ﴿يقولون بألسنَتِهِم ما ليس في قُلوبِهِم﴾: فإنَّ طلَبَهم الاستغفارَ من رسول اللّه ﷺ يدلُّ على ندمهم وإقرارهم على أنفسهم بالذَّنب، وأنَّهم تخلَّفوا تخلُّفاً يحتاجُ إلى توبة واستغفار؛ فلو كان هٰذا الذي في قلوبهم؛ لكان استغفارُ الرسول نافعاً لهم؛ لأنَّهم قد تابوا وأنابوا، ولٰكنَّ الذي في قلوبهم أنَّهم إنَّما تخلَّفوا لأنَّهم ظنُّوا باللّه ظنَّ السَّوْء، فظنُّوا ﴿أن لن يَنقَلِبَ الرسولُ والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾؛ أي: أنَّهم سيُقتلون ويُستأصلون، ولم يزلْ هٰذا الظنُّ يُزَيَّن في قلوبهم، ويطمئنُّون إليه حتى استحكَمَ، وسببُ ذٰلك أمران: **أحدُهما**: أنَّهم كانوا ﴿قوماً بوراً﴾؛ أي: هلكى لا خير فيهم؛ فلو كان فيهم خيرٌ؛ لم يكن هٰذا في قلوبهم. **الثاني**: ضَعْفُ إيمانهم ويقينهم بوعد اللّه ونصرِ دينِهِ وإعلاءِ كلمتِهِ، ولهٰذا قال: ﴿ومن لم يؤمن باللّه ورسولِهِ﴾؛ أي: فإنَّه كافرٌ مستحقٌّ للعقاب، ﴿فإنَّا أعتَدْنا للكافرين سعيراً﴾.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٤﴾ أي: هو تعالى المنفردُ بملك السماواتِ والأرضِ، يتصرَّف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريَّة والأحكام الشرعيَّة والأحكام الجزائيَّة، ولهٰذا ذكر حكم

(١) في (ب): «عن رسوله».

الجزاء المرتَّب على الأحكام الشرعيَّة، فقال: ﴿يَغفِرُ لِمَن يشاءُ﴾: وهو مَنْ قام بما أمره اللّه به، ﴿ويعذِّبُ مَن يشاءُ﴾: ممَّن تهاونَ بأمرِ اللّه، ﴿وكان اللّه غفوراً رحيماً﴾؛ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفكُّ عنه المغفرةُ والرحمةُ، فلا يزال في جميع الأوقات يغفِرُ للمذنبين، ويتجاوزُ عن الخطَّائين، ويتقبَّل توبة التائبين، ويُنزِل خيرَه المدرار آناء الليل والنهار.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكر تعالى المخلَّفين وذمَّهم؛ ذكر أنَّ من عقوبتهم الدنيويَّة أنَّ الرسول ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها؛ طلبوا منهم الصحبةَ والمشاركةَ، ويقولون: ﴿ذَرونا نَتَّبِعْكم يريدونَ﴾: بذلك ﴿أن يبدِّلوا كلامَ اللّه﴾؛ حيث حَكَمَ بعقوبتهم واختصاص الصحابةِ المؤمنين بتلك الغنائم شرعاً وقدراً، ﴿قل﴾: لهم: ﴿لن تَتَّبِعونا كذٰلِكم قال اللّهُ مِن قبلُ﴾: إنَّكم محرومون منها بما جنيتم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول مرة؛ ﴿فسيقولون﴾: مجيبين لهٰذا الكلام الذي مُنِعوا به عن الخروج: ﴿بل تحسُدوننا﴾: على الغنائم! هٰذا منتهى علمهم في هٰذا الموضع، ولو فَهموا رُشدَهم؛ لعلموا أنَّ حرمانهم بسبب عصيانهم، وأنَّ المعاصي لها عقوباتٌ دنيويَّةٌ ودينيَّةٌ، ولهٰذا قال: ﴿بل كانوا لا يفقهونَ إلَّا قليلاً﴾.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر تعالى أنَّ المخلَّفين من الأعراب يتخلَّفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذِرون بغير عذرٍ، وأنَّهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكةٌ ولا قتالٌ، بل لمجرَّد الغنيمة؛ قال تعالى ممتحناً لهم: ﴿قل للمخلَّفين من الأعراب سَتُدْعَوْنَ إلى قوم أولي بأس شديدٍ﴾؛ أي: سيدعوكم الرسولُ ومَنْ ناب منابَه من الخلفاء

الراشدين والأئمة، وهٰؤلاء القوم فارسٌ والرومُ ومَنْ نحا نحوَهم وأشبههم، ﴿تقاتِلونهم أو يُسْلِمونَ﴾؛ أي: إمَّا هٰذا وإمَّا هٰذا، وهٰذا هو الأمر الواقع؛ فإنَّهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولٰئك الأقوام إذا كانت شدتُهم وبأسُهم معهم؛ فإنَّهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذُلوا الجزيةَ، بل إمَّا أنْ يدخُلوا في الإسلام، وإمَّا أن يُقاتِلوا على ما هم عليه، فلما أثخنهم المسلمونَ وضَعُفوا وذلُّوا؛ ذهب بأسُهم، فصاروا إمَّا أنْ يسلِموا وإمَّا أن يبذُلوا الجزية، ﴿فإن تُطيعوا﴾: الداعي لكم إلى قتال هٰؤلاء، ﴿يؤتِكُمُ اللّه أجراً حسناً﴾: وهو الأجر الذي رتَّبه اللّه ورسولُهُ على الجهادِ في سبيل اللّه، ﴿وإن تَتَوَلَّوْا كما تولَّيتُم من قبلُ﴾: عن قتال مَنْ دعاكم الرسولُ إلى قتالِهِ، ﴿يعذِّبْكم عذاباً أليماً﴾. ودلَّت هٰذه الآية على فضيلة الخلفاء الرَّاشدين الداعين لجهادِ أهل البأس من الناس، وأنَّه تجب طاعتُهم في ذٰلك.

﴿١٧﴾ ثم ذكر الأعذار التي يُعْذَرُ بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿ليس على الأعمى حَرَجٌ ولا على الأعرج حَرَجٌ ولا على المريض حَرَجٌ﴾؛ أي: في التخلُّف عن الجهاد لعذرِهم المانع، ﴿ومن يطع اللّهَ ورسولَه﴾: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما، ﴿يُدْخِلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾: فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعينُ، ﴿ومن يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة اللّه ورسوله، ﴿يعذِّبْه عذاباً أليماً﴾: فالسعادةُ كلُّها في طاعة اللّه، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ
ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾
وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً
لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ يخبر تعالى بفضله ورحمته برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيَّضت وجوههم واكتسبوا بها سعادة الدُّنيا والآخرة. وكان سبب هٰذه البيعة ـ التي يقال لها: بيعةُ الرضوان؛ لرضا اللّه عن المؤمنين فيها. ويقال لها: بيعةُ أهل الشجرة ـ أنَّ رسول اللّه ﷺ لما دارَ الكلامُ بينه وبين المشركين يوم الحديبيةِ في شأن مجيئه، وأنَّه لم يجىء لقتال أحدٍ، وإنَّما جاء زائراً هٰذا البيت معظِّماً له، فبعث رسولُ اللّه ﷺ عثمان بن عفان لمكَّة في ذٰلك، فجاء

خبر غير صادق أنَّ عثمان قتله المشركون، فجمع رسولُ اللّه ﷺ مَنْ معه مِنَ المؤمنين، وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرةٍ على قتال المشركين وأنْ لا يفرُّوا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنَّه رضيَ عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجلِّ القُرُبات. ﴿**فعلم ما في قُلوبِهم**﴾: من الإيمان، ﴿**فأنزلَ السكينةَ عليهم**﴾: شكراً لهم على ما في قلوبهم، زادهم هدىً، وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شَرَطَها المشركون على رسولِهِ، فأنزل عليهم السكينة تثبِّتُهم، وتطمئنُّ بها قلوبهم، ﴿**وأثابهم فتحاً قريباً**﴾: وهو فتح خيبر، لم يحضُرْه سوى أهل الحديبية، فاختصُّوا بخيبر وغنائمها جزاءً لهم وشكراً على ما فعلوه من طاعة اللّه تعالى والقيام بمرضاته، ﴿**ومغانم كثيرةً يأخُذونها وكانَ اللّه عزيزاً حكيماً**﴾؛ أي: له العزَّة والقدرة، التي قهر بها الأشياء؛ فلو شاء؛ لانتصر من الكفَّار في كلِّ وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولٰكنَّه حكيمٌ يَبْتلي بعضَهم ببعض ويمتحنُ المؤمنَ بالكافر.

﴿٢٠﴾ ﴿**وعدكم اللّهُ مغانمَ كثيرةً تأخُذونها**﴾: وهٰذا يشمل كلَّ غنيمة غَنِمها المسلمين إلى يوم القيامة، ﴿**فعجَّلَ لكم هٰذهِ**﴾؛ أي: غنيمة خيبر؛ أي: فلا تحسَبوها وحدَها، بل ثَمَّ شيءٌ كثيرٌ من الغنائم سيتبعها، ﴿**و**﴾ احمدوا اللّه إذْ ﴿**كفَّ أيدِيَ الناسِ**﴾: القادرين على قتالكم الحريصين عليه ﴿**عنكم**﴾: فهي نعمةٌ وتخفيفٌ عنكم، ﴿**ولتكونَ**﴾: هٰذه الغنيمة ﴿**آيةً للمؤمنينَ**﴾: يستدلُّون بها على خبر اللّه الصادق ووعده الحقِّ وثوابه للمؤمنين، وأنَّ الذي قدَّرها سيقدِّر غيرها، ﴿**ويهدِيَكم**﴾: بما يُقَيِّضُ لكم من الأسباب ﴿**صراطاً مستقيماً**﴾: من العلم والإيمان والعمل.

﴿٢١﴾ ﴿**وأخرى**﴾؛ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى، ﴿**لم تقدِروا عليها**﴾: وقت هٰذا الخطاب، ﴿**قد أحاطَ اللّهُ بها**﴾؛ أي: هو قادر عليها وتحت تدبيره وملكه، وقد وعَدَكُموها؛ فلا بدَّ من وقوع ما وَعَدَ به؛ لكمال اقتدار اللّه تعالى، ولهٰذا قال: ﴿**وكان اللّه على كلِّ شيءٍ قديراً**﴾.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢﴾ هٰذه بشارةٌ من اللّه لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنَّهم لو قابلوهم وقاتلوهم؛ ﴿**لَوَلَّوا الأدبار ثمَّ لا يجدونَ وليًّا**﴾: يتولَّى أمرَهم،

﴿ولا نصيراً﴾: ينصُرهم ويعينُهم على قتالكم، بل هم مخذولونَ مغلوبونَ.

﴿٢٣﴾ وهٰذه سنةُ اللّهِ في الأمم السابقة أنَّ جندَ اللّه هم الغالبونَ، ﴿ولن تَجِدَ لِسُنَّة اللّه تبديلاً﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى ممتنًا على عباده بالعافية من شرِّ الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وهو الذي كَفَّ أيدِيَهم﴾؛ أي: أهل مكة ﴿عنكم وأيدِيَكم عنهم ببطنِ مكَّة من بعدِ أن أظفَرَكُم عليهم﴾؛ أي: من بعد ما قدرتُم عليهم وصاروا تحت ولايتكم بلا عقدٍ ولا عهدٍ، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غِرَّةً، فوجدوا المسلمين منتبهين، فأمسكوهم، فتركوهم ولم يقتُلوهم؛ رحمةً من اللّه بالمؤمنين إذْ لم يقتُلوهم، ﴿وكان اللّه بما تعملون بصيراً﴾: فيجازي كلَّ عامل بعملِهِ، ويدبِّركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

﴿٢٥﴾ ثم ذكر تعالى الأمور المهيِّجة على قتال المشركين، وهي كفرُهم باللّه ورسولِهِ، وصدُّهم رسولَ اللّه ومَنْ معه من المؤمنين أنْ يأتوا للبيت الحرام زائرين معظِّمين له بالحجِّ والعمرة، وهم الذين أيضاً صدُّوا ﴿الهديَ معكوفاً﴾؛ أي: محبوساً، ﴿أن يبلغَ مَحِلَّه﴾: وهو مَحِلُّ ذبحِهِ في مكة[1]، حيث تذبح هدايا العمرة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً. وكلُّ هٰذه أمورٌ موجبةٌ وداعيةٌ إلى قتالهم، ولٰكن ثَمَّ مانعٌ، وهو وجودُ رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا بمتميِّزين[2] بمحلةٍ أو مكانٍ يمكن أن لا ينالَهم أذى؛ فلولا هٰؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أن تطؤوهم﴾؛ أي: خشية أن تطؤوهم، ﴿فتصيبَكم منهم مَعَرَّةٌ بغير علم﴾: والمعرَّةُ ما يدخل تحت قتالهم من نيلِهِم بالأذى والمكروه، وفائدةٌ أخريَّةٌ، وهو أنه لِيُدْخِلَ

(١) في (ب): «وهو مكة المكرمة».
(٢) في (ب): «متميِّزين».

﴿في رحمته مَن يشاءُ﴾: فَيمُنَّ عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهٰذا السبب، ﴿لو تزيَّلوا﴾؛ أي: لو زالوا من بين أظهرهم، ﴿لعذَّبنا الذين كَفروا منهم عذاباً أليماً﴾: بأن نبيحَ لكم قتالَهم، ونأذنَ فيه، وننصرَكم عليهم.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى: ﴿إذْ جعلَ الذين كفروا في قلوبِهِمْ الحميَّةَ حميَّةَ الجاهليَّةِ﴾: حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة[1]؛ لئلَّا يقولَ الناس: دَخلوا مكَّة قاهرين لقريش! وهٰذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية لم تزلْ في قلوبِهِم حتَّى أوجبتْ لهم ما أوجبتْ من كثيرٍ من المعاصي، ﴿فأنزل الله سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين﴾: فلم يحمِلْهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به بل صبروا لحكم الله والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمات الله، ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين ولا لوم اللائمين، ﴿وألزَمَهم كلمةَ التَّقوى﴾، وهي لا إلٰه إلَّا الله وحقوقها، ألزمهم القيام بها، فالتزموها وقاموا بها، ﴿وكانوا أحقَّ بها﴾: من غيرهم، ﴿و﴾كانوا ﴿أهلَها﴾: الذين استأهلوها؛ لما يعلمُ الله عندَهم وفي قلوبهم من الخير، ولهٰذا قال: ﴿وكان الله بكلِّ شيءٍ عليماً﴾.

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يقول تعالى: ﴿لقد صدق اللهُ رسولَه الرُّؤيا بالحقِّ﴾: وذٰلك أنَّ رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه؛ أنَّهم سيدخلون مكَّة ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكَّة؛

(١) كذا في «صحيح البخاري» (٢٧٣١ و٢٧٣٢).

كَثُرَ في ذٰلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذٰلك لرسول الله ﷺ: ألم تُخبِرْنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟! فقال: «أخبرتكم أنَّه العام؟!»، قالوا: لا، قال: «فإنَّكم ستأتونَه وتطوفونَ به». قال الله تعالى هنا: ﴿لقد صَدَقَ اللهُ رسولَه الرؤيا بالحقِّ﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعها وصِدْقها، ولا يقدح في ذٰلك تأخُّر تأويلها، ﴿لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرام إن شاء اللهُ آمنينَ محلِّقينَ رؤوسَكم ومقصِّرين﴾؛ أي: في هٰذه الحال المقتضية لتعظيم هٰذا البيت الحرام وأدائكم للنُّسك وتكميلِهِ بالحلق والتَّقصير وعدم الخوفِ. ﴿فعلم﴾: من المصلحة والمنافع ﴿ما لم تَعْلَموا فجَعَلَ من دونِ ذٰلك﴾: الدخول بتلك الصفة ﴿فتحاً قريباً﴾.

﴿٢٨﴾ ولما كانت هٰذه الواقعة مما تشوَّشت بها قلوبُ بعض المؤمنين، وخفيتْ عليهم حكمتُها، فبيَّن تعالى حكمتَها ومنفعتَها، وهٰكذا سائر أحكامه الشرعيَّة؛ فإنَّها كلُّها هدى ورحمةٌ، أخبر بحكم عام، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى﴾: الذي هو العلمُ النافعُ، الذي يهدي من الضلالة، ويبيِّن طرقَ الخير والشرِّ، ﴿ودينِ الحقِّ﴾؛ أي: الدين الموصوف بالحقِّ، وهو العدل والإحسان والرحمة، وهو كلُّ عمل صالح مزكٍّ للقلوب مطهِّرٍ للنفوس مربٍّ للأخلاق معلٍ للأقدار، ﴿ليظهِرَه﴾: بما بعثَه الله به ﴿على الدِّين كلِّه﴾: بالحجَّة والبرهان، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان.

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾.

﴿٢٩﴾ يخبر تعالى عن رسوله محمد ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار؛ أنَّهم بأكمل الصفات وأجلِّ الأحوال، وأنَّهم ﴿أشداءُ على الكفَّارِ﴾؛ أي: جادِّين ومجتهدين في عداوتهم، وساعين في ذٰلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلَّا الغلظةَ والشِّدَّةَ؛ فلذٰلك ذلَّ أعداؤُهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون، ﴿رحماءُ بينَهم﴾؛ أي: متحابُّون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد، يحبُّ أحدُهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، هٰذه معاملتُهم مع الخلق، وأمَّا معاملتُهم مع الخالق؛ فتراهم ﴿رُكَّعاً سجداً﴾؛ أي: وصفهم كثرة الصلاة التي أجلُّ أركانها الركوع والسجود،

﴿يبتغونَ﴾: بتلك العبادة ﴿فضلاً من الله ورضواناً﴾؛ أي: هٰذا مقصودهم، بلوغُ رضا ربِّهم والوصول إلى ثوابِهِ ﴿سيماهم في وجوهِهِم من أثرِ السُّجودِ﴾؛ أي: قد أثَّرت العبادة مِنْ كثرتِها وحسنِها في وجوههم حتى استنارتْ، لمَّا استنارت بالصلاة بواطنهم؛ استنارتْ ظواهِرُهم. ﴿ذٰلك﴾: المذكور ﴿مَثَلُهم في التَّوراةِ﴾؛ أي: هٰذا وصفُهم الذي وصَفَهم الله به مذكورٌ بالتوراة هٰكذا.

وأما ﴿مثلهم في الإنجيل﴾؛ فإنَّهم موصوفون بوصف آخر، وأنَّهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كزرع أخْرَجَ شطأه فآزره﴾؛ أي: أخرج فراخه فوازرتْه فراخُهُ في الشباب والاستواء، ﴿فاستغلظَ﴾: ذٰلك الزرع؛ أي: قوي وغلظ، ﴿فاستوى على سوقِهِ﴾: جمع ساق، ﴿يعجِبُ الزُّرَّاعَ﴾: من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذٰلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق واحتياج الناس إليهم، فقوَّة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوَّة عروق الزرع وسوقِهِ، وكون الصغير والمتأخِّر إسلامه قد لَحِقَ الكبير السابق، ووازره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دينِ الله والدعوةِ إليه، كالزرع الذي أخْرَجَ شَطأه فآزره فاستغلظ، ولهٰذا قال: ﴿لِيَغيظَ بهم الكفارَ﴾: حين يَرَوْنَ اجتماعهم وشدَّتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النِّزال ومعامع القتال، ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات منهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾: فالصحابة رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرةِ التي من لوازمها وقايةُ شرور الدُّنيا والآخرة والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

وَلِنَسُق قصَّةَ الحديبية بطولها كما ساقها الإمامُ شمس الدين ابن القيم في «الهدي النبوي»؛ فإنَّ فيها إعانةً على فهم هٰذه السورة، وقد تكلَّم على معانيها وأسرارها. قال رحمه الله تعالى:

## فصل في قصة الحديبية[1]

قال نافعٌ: كانت سنة ستٍّ في ذي القعدة. وهٰذا هو الصحيح، وهو قول الزهريِّ وقَتادة وموسى بن عُقبة ومحمد بن إسحاق وغيرهم. وقال هشامُ بن عروة عن أبيه: خرج رسولُ اللهِ ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال. وهٰذا

---

(١) انظر «زاد المعاد» (٣/ ٢٨٦) ـ تحقيق الأرنؤوطيين ـ وما بين المعقوفتين زيادة من المطبوع على النسختين.

وهمٌ، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. [وقد] قال أبو الأسود عن عروة: إنَّها كانتْ في ذي القعدة على الصواب. وفي «الصحيحين»[١] عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ اعتمر أربع عمر، كلُّهن في ذي القعدة. فذكر منهنّ عمرة الحديبية.

وكان معه ألف وخمسمائة. هٰكذا في «الصحيحين»[٢] عن جابر. وعنه فيهما[٣]: كانوا ألفاً وأربعمائة. وفيهما[٤] عن عبداللّه بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاثمائة. قال قتادةُ: قلت لسعيد بن المسيّب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعةَ الرضوانِ؟ قال خمس عشرة مائة. قال: قلت: فإنَّ جابر بن عبد اللّه قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه اللّه وهم، هو حدثني أنَّهم كانوا خمس عشرة مائة. قلت: وقد صحَّ عن جابر القولان، وصحَّ عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بَدَنَةً، البدنة عن سبعة، فقيل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربعمائة بخيلنا ورجلنا؛ يعني: فارسهم وراجلهم. والقلب إلى هٰذا أميل، وهو قول البراء بن عازب ومعقلِ بن يسار وسلمة بن الأكوع في أصحِّ الروايتين وقول المسيب بن حزن. قال شعبةُ عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول اللّه ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة، وغلط غلطاً بيِّناً من قال: كانوا سبعمائة! وعذره أنهم نحروا يومئذ سبعينَ بدنةً، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة وعن عشرة! وهٰذا لا يدل على ما قاله هٰذا القائل؛ فإنَّه قد صرح بأن البدنة كانت في هٰذه الغزوة عن سبعة؛ فلو كانت السبعون عن جميعهم؛ لكانوا أربعمائة وتسعين رجلاً، وقد قال في تمام الحديث بعيْنِهِ أنَّهم كانوا ألفاً وأربعمائة.

## فصل

فلما كانوا بذي الحليفة؛ قلدَ رسولُ اللّه ﷺ الهَدْيَ وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة يخبِرُه عن قريش، حتى إذا كان قريباً من عسفان؛ أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤيٍّ قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت [ومانعوك]. واستشار النبيُّ ﷺ أصحابه [وقال]: أترون أن نميل إلى ذراري هٰؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فإنْ

(١) البخاري (٤١٤٨)، ومسلم (١٢٥٣).
(٢) البخاري (٤١٥٣)، ومسلم (١٨٥٦ و٧٢ و٧٣).
(٣) البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦). (٤) البخاري (٤١٥٥)، ومسلم (١٨٥٧).

قَعَدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا؛ تكنْ عنقاً قطعها اللّه، أم ترونَ أن نؤمَّ البيتَ فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: اللّه ورسوله أعلم، إنَّما جئْنا معتمرين، ولم نجيء لقتال أحدٍ، ولٰكن؛ منْ حال بيننا وبين البيت؛ قاتلناه. فقال النبيُّ ﷺ: «فرُوحوا إذاً»! فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش [طليعة]؛ فخذوا ذات اليمين». فواللّه ما شعر بهم خالدٌ، حتى إذا هم بغبرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنيَّة التي يهبط عليهم منها؛ بركت به راحلته، فقال الناسُ: حلْ حلْ! فألحَّتْ، فقالوا: خلأتِ القصواءُ، خلأتِ القصواء. فقال النبيُّ ﷺ: «ما خلأتِ القصواءُ وما ذاك لها بخلُقٍ، ولٰكن حبسها حابسُ الفيل». ثم قال: «والذي نفسي بيده؛ لا يسألوني خطَّة يعظِّمون فيها حرمات اللّه؛ إلَّا أعطيتموها». ثم زجرها، فوثبت به، فعدل، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ قليل الماء، إنَّما يتبرَّضه الناس تبرُّضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول اللّه ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. قال: فواللّه؛ ما زال يجيش لهم بالريِّ حتى صدروا عنها.

وفزعت قريشٌ لنزوله عليهم، فأحبَّ رسول اللّه ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم، فقال: يا رسول اللّه! ليس لي بمكة أحدٌ من بني كعب يغضب لي إن أوذيتُ؛ فأرسلْ عثمان بن عفان؛ فإنَّ عشيرته بها، وإنَّه مبلغٌ ما أردت. فدعا رسول اللّه ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبِرْهم أنا لم نأتِ لقتال، [و] إنما جئنا عمَّاراً، وادعُهم إلى الإسلام». وأمره أن يأتي رجالاً بمكَّة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشِّرهم بالفتح، ويخبرهم أنَّ اللّه عز وجل مظهرٌ دينه بمكة حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان.

فانطلق عثمان، فمرَّ على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسولُ اللّه ﷺ أدعوكم إلى اللّه وإلى الإسلام، وأخبركم أنا لم نأتِ لقتال، وإنَّما جئنا عمَّاراً. قالوا: قد سمعنا ما تقولُ؛ فانفذْ لحاجتك. وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحَّب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة. وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خَلَصَ عثمانُ قبلَنا إلى البيت وطاف به. فقال رسولُ اللّه ﷺ: «ما أظنُّه طاف بالبيت ونحن محصورونَ». فقالوا:

وما يمنعه يا رسول الله وقد خَلَصَ؟ قال: «ذاك ظنِّي به أن لا يطوفَ بالكعبة حتى نطوف معه».

واختلط المسلمون بالمشركينَ في أمر الصلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركةٌ، وترامَوْا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كلُّ واحدٍ من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه على ألاَّ يفروا فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسِهِ، وقال: «هٰذه عن عثمان».

ولما تمَّت البيعةُ؛ رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفيتَ يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت؟ فقال: بئسما ظننتُم بي، والذي نفسي بيده؛ لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيمٌ بالحديبية ما طفتُ بها حتى يطوفَ بها رسول الله ﷺ، ولقد دعتْني قريشٌ إلى الطواف بالبيت فأبيتُ. فقال المسلمون: رسولُ الله ﷺ كان أعلمنا بالله وأحسننا ظنًّا.

وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلَّا الجدَّ بن قيس، وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات في أول الناس وأوسطهم وآخرهم.

فبينما هم كذٰلك؛ إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعيُّ في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤيٍّ وعامر بن لؤيٍّ نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذُ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت. قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّا لم نجيء لقتال أحدٍ، ولٰكن جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتهمُ الحربُ وأضرَّت بهم؛ فإنْ شاؤوا أماددهم ويخلُّوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس؛ فعلوا، وإلَّا؛ فقد جموا، وإن [هم] أبوا إلَّا القتال؛ فوالذي نفسي بيده؛ لأقاتلنهم على أمري هٰذا حتى تنفردَ سالفتي أو لينفذنَّ الله أمره». قال بديل: سأبلغهم ما تقولُ. فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتُكم من عند هٰذا الرجل، وسمعته يقول قولاً؛ فإن شئتُم عرضتُه عليكم. فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدِّثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته! قال: سمعتُه يقول كذا وكذا.

[فحدثهم بما قال النبيُّ ﷺ]، فقال عروةُ بن مسعود الثقفي: إنَّ هٰذا قد عرض

عليكم خطةَ رشدٍ؛ فاقبلوها ودعوني آته. فقالوا: ائتِهِ! فأتاه، فجعل يكلمه، فقال النبيُّ ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذٰلك: أي محمدُ! أرأيت لو استأصلت قومك؛ هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى؛ فواللّه؛ إني لأرى وجوهاً وأرى أوباشًا من الناس خليقاً أن يفرُّوا ويدعوك. فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات! أنحن نفرُّ عنه وندعه؟! قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده؛ لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها لأجبتُك. وجعل يكلِّم النبيَّ ﷺ، وكلَّما كلَّمه؛ أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبيِّ ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ؛ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخِّرْ يدك عن لحية رسول اللّه ﷺ! فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة. فقال: أي غُدَرُ! أو لستُ أسعى في غدرتك؟! وكان المغيرة صحبَ قوماً فقتلهم وأخذَ أموالهم ثم جاء فأسلم، فقال النبيُّ ﷺ: «أمَّا الإسلامُ؛ فأقبل، وأما المالُ؛ فلست منه في شيء». ثم إنَّ عروة جعل يرمق أصحاب رسول اللّه ﷺ؛ بعينيه فواللّه؛ ما تنخَّم النبيُّ ﷺ نخامة؛ إلَّا وقعت في كفِّ رجل منهم، فدلك بها جلده ووجهه، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضَّأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلَّم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم! واللّه؛ لقد وفدت على الملوك؛ على كسرى، وقيصر والنجاشي. واللّه؛ ما رأيت ملكاً يعظِّمه أصحابُه ما يعظِّم أصحاب محمدٍ محمداً. واللّه؛ إن تنخم نخامةً إلَّا وقعت في كفِّ رجل منهم، فدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطةَ رشدٍ؛ فاقبلوها.

فقال رجل من بني كِنانة: دعوني آته! فقالوا: ائته! فلما أشرف على النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ قال رسول اللّه ﷺ: «هٰذا فلانٌ، وهو من قوم يعظِّمونَ البدنَ، فابعثوها له». فبعثوها، فاستقبله القوم يلبُّون، فلما رأى ذٰلك؛ قال: سبحان اللّه! لا ينبغي لهٰؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيتُ البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، وما أرى أن يصدُّوا عن البيت.

فقام مكرز بن حفص، [و] قال: دعوني آتِهِ! فقالوا: ائته! فلما أشرف عليهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «هٰذا مكرز بن حفص، وهو رجلٌ فاجرٌ». فجعل يكلِّم

رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلِّمه؛ إذ جاء سُهيل بن عمرو، فقال النبيُّ ﷺ: «قد سَهُلَ لكم من أمركم». فقال: هات اكتبْ بيننا وبينك كتاباً. فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم اللّه الرحمٰن الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمٰن؛ فواللّه ما ندري ما هو؟ ولٰكن اكتب: باسمك اللهم. كما كنتَ تكتبُ. فقال المسلمون: واللّه؛ لا نكتبُها إلَّا بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب باسمك اللهم». ثم قال: «اكتب: هٰذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ اللّه». فقال سهيلٌ: فواللّه؛ لو كنا نعلم أنك رسولُ اللّه ما صَدَدْناك عن البيت ولا قاتَلْناك، ولٰكن اكتبْ: محمدُ بنُ عبداللّه. فقال النبيُّ ﷺ: «إنِّي رسولُ اللّه وإن كذَّبْتُموني، اكتبْ: محمد بن عبداللّه». فقال النبيُّ ﷺ: «على أن تخلُّوا بيننا وبين البيت فنطوف به». فقال سهيلٌ: واللّه؛ لا تتحدَّث العرب أنَّا أخِذْنا ضغطةً. ولٰكن ذٰلك من العام المقبل. فكتب. فقال سهيلٌ: على أن لا يأتيك منَّا رجلٌ، وإن كان على دينِك؛ إلَّا رددْتَه علينا. فقال المسلمون: سبحان اللّه! كيف يردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذٰلك؛ إذ جاء أبو جندل بنُ سهيل [بن عمرو] يرسُفُ في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيلٌ: هٰذا يا محمدُ أول ما قاضيك[1] عليه أن تردَّه [إليّ]. فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّا لم نقضِ الكتابَ بعدُ». فقال: فواللّه؛ إذاً لا أصالحك على شيءٍ أبداً. فقال النبيُّ ﷺ: «فأجِزْه لي». فقال: ما أنا بمجيزه [لك]. فقال: «بلى فافعَلْ». قال: ما أنا بفاعل. قال مكرزٌ: [بلى] قد أجَزْناه. فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أردُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟! ألا ترون ما لقيت؟! وكان قد عذِّب في اللّه عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: واللّه؛ ما شككتُ منذ أسلمتُ إلَّا يومئذٍ، فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلت: يا رسول اللّه! ألستَ نبيَّ اللّه حقًّا؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحقِّ وعدوُّنا على الباطل؟ قال: «بلى». فقلت: علامَ نعطي الدنيَّة في ديننا [إذاً] ونرجعُ ولما يحكُم اللّه بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إنِّي رسولُ اللّه، وهو ناصري، ولست أعصيه». قلت: أولستَ كنت تحدِّثنا أنا سنأتي البيت ونطوفُ به؟ قال: «بلى، أفأخبرتُك أنك تأتيه العام؟». قلت: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوِّفٌ به». قال: فأتيت أبا بكر، فقلتُ له كما قلتُ لرسول اللّه ﷺ، وردَّ عليه أبو بكر كما ردَّ

(١) في المطبوع من زاد المعاد»: «أقاضيك».

عليه رسول الله سواء، وزاد: «فاستمسكْ بغرزه حتى تموت، فوالله؛ إنَّه لعلى الحقِّ». قال عمر: فعملتُ لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب؛ قال رسولُ الله ﷺ: «قوموا وانحروا ثم احلِقوا». فوالله ما قام منهم رجلٌ [واحدٌ]، حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحدٌ؛ قام فدخل على أمِّ سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت [أم سلمة]: يا رسول الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلِّمْ أحداً [منهم] كلمةً حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعُوَ حالقك فيحلق لك. فقام، فخرج، فلم يكلِّم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُدنه ودعا حالِقَه فحلَقَه. فلما رأى الناس ذلك؛ قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلقُ بعضاً، حتى كاد بعضُهم يقتُلُ بعضاً غمًّا. ثم جاءت نسوةٌ مؤمناتٌ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿[يا أيها الذين آمنوا] إذا جاءكم المؤمناتُ مهاجراتٍ فامتحنوهنَّ...﴾: حتى بلغ ﴿بعصم الكوافرِ﴾، فطلق عمر يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوَّج إحداهما معاوية والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إنَّا فَتَحْنا لك فتحاً مبيناً [ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً...]﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم». فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله؛ فما لنا؟ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين...﴾ الآية. انتهى.

وهذا آخر تفسير سورة الفتح. ولله الحمد [والمنة].

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٤٥، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، آمين.

بقلم الفقير إلى ربه، سليمان بن حمد العبد الله البسام، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

❁ ❁ ❁

قال الشاعر:

يا ناظراً فيه سل الله مرحمة    على المصنف واستغفر لكاتبه
واطلب لنفسك من خير تريد لها    وبعد ذلك غفراناً لصاحبه

# المجلد الثامن(١)

# من

# تيسير الكريم الرحمٰن

# في

# تفسير كلام الملك المنّان

لجامعه الفقير إلى اللّه

## عبد الرحمن بن ناصر بن عبد اللّه المعروف بابن سعدي

غفر اللّه له ولجميع المسلمين

---

(١) في (ب): «المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان، منّ به الله على عبده وابن عبده وابن أمته عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي».

# تفسير سورة الحجرات

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.

هٰذا متضمنٌ للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ والتعظيم والاحترام له[١] وإكرامه، فأمر الله عبادَه المؤمنين بما يقتضيه الإيمانُ بالله ورسوله[٢] من امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ؛ في جميع أمورهم، وأن لا[٣] يتقدَّموا بين يدي الله ورسوله؛ فلا[٤] يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمرَ، فإنَّ هٰذا حقيقةُ الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، وبفواته تفوته السعادةُ الأبديَّة والنعيم السرمديُّ. وفي هٰذا النهيُ الشديدُ عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله؛ فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ؛ وجبَ اتِّباعها وتقديمُها على غيرها كائناً من كان.

﴿١﴾ ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طَلْق بن حبيب: أن تعملَ بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخشى عقاب الله. وقوله: ﴿إنَّ الله سميعٌ﴾؛ أي: لجميع الأصوات، في جميع الأوقات، في خفيِّ المواضع والجهات، ﴿عليمٌ﴾: بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والجائزات[٥]. وفي ذكر الاسمين

(١) في (ب): «والتعظيم له واحترامه».
(٢) في (ب): «وبرسوله».
(٣) في (ب): «ولا».
(٤) في (ب): «ولا».
(٥) في (ب): «والممكنات».

الكريمين بعد النهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه حثٌّ على امتثال تلك الأوامر الحسنة والآداب المستحسنة وترهيبٌ عن ضدّه[1].

﴿٢﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتَكُم فوقَ صوتِ النبيِّ ولا تَجْهَروا له بالقولِ﴾: وهٰذا أدب مع الرسول ﷺ في خطابه؛ أي: لا يرفع المخاطِبُ له صوتَهُ معه فوق صوتِهِ، ولا يجهرْ له بالقول، بل يغضُّ الصوتَ ويخاطبُه بأدبٍ ولينٍ وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدهم، بل يميِّزونه في خطابهم كما تميَّز عن غيره في وجوبِ حقِّه على الأمَّة، ووجوب الإيمان به، والحبِّ الذي لا يتمُّ الإيمانُ إلا به؛ فإن في عدم القيام بذٰلك محذوراً وخشية أن يحبط عملُ العبد وهو لا يشعر؛ كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب وقبول الأعمال.

﴿٣﴾ ثم مدح من غضَّ صوته عند رسول الله ﷺ بأنَّ الله امتحن قلوبَهم للتقوى؛ أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجةُ ذٰلك بأن صَلَحَت قلوبهم للتقوى. ثم وَعَدَهم المغفرةَ لذنوبهم، المتضمِّنة لزوال الشرِّ والمكروه، وحصول الأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلَّا الله تعالى، وفيه حصولُ كل محبوب. وفي هٰذا دليلٌ على أن الله يمتحنُ القلوبَ بالأمر والنهي والمحن؛ فمَن لازمَ أمر الله واتَّبع رضاه وسارعَ إلى ذٰلك وقدَّمه على هواه؛ تمحَّض وتمحَّص للتقوى، وصار قلبُه صالحاً لها، ومَن لم يكن كذٰلك؛ علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ نزلت هٰذه الآيات الكريمة في ناس[2] من الأعراب، الذين وصفهم الله بالجفاء، وأنهم أجدرُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزل الله على رسوله؛ قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائِهِ، فلم يصبروا ويتأدَّبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد، يا محمد[3]؛ أي: اخرج إلينا. فذمَّهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه؛ كما أن من العقل استعمال الأدب؛ فأدب العبد عنوان عقله، وأنَّ الله مريدٌ به الخير.

---

(١) في (ب): «وترهيب عن عدم الامتثال». (٢) في (ب): «أناس».
(٣) انظر تفسير ابن جرير (٢٢/ ٢٨٥).

﴿٥﴾ ولهٰذا قال: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرجَ إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: غفورٌ لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالآداب، رحيمٌ بهم حيث لم يعاجلْهم بذنوبهم بالعقوبات والمَثُلات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦﴾.

﴿٦﴾ وهٰذا أيضاً من الآداب التي على أولي الألباب التأدُّبُ بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسقٌ بنبأ؛ أي: خبرٍ: أن يتثبَّتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً؛ فإن في ذٰلك خطراً كبيراً ووقوعاً في الإثم؛ فإنَّ خبره إذا جُعل بمنزلة خبر الصادق العدل؛ حكم بموجب ذٰلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حقٍّ بسبب ذٰلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجبُ عند خبر الفاسق التثبُّت والتبيُّن؛ فإن دلَّت الدلائل والقرائن على صدقه؛ عُمِلَ به وصُدِّق، وإن دلت على كذبه؛ كذِّب ولم يعمل به؛ ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقَّف فيه[1]، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فساقاً.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

﴿٧﴾ أي: وليكن لديكم معلومًا أنَّ ﴿رسول الله﴾ ﷺ بين أظهُرِكم، وهو الرسولُ الكريم البارُّ الراشدُ، الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشرِّ والمضرَّة ما لا يوافقكم الرسولُ عليه، و﴿لو يطيعكم في كثيرٍ من الأمر﴾ لشقَّ عليكم وأعنتكم، ولٰكن الرسول يرشدكُم، والله تعالى يحبِّب إليكم ﴿الإيمان﴾ ويزيِّنه ﴿في قلوبكم﴾ بما أودع في قلوبكم من محبة الحقِّ وإيثاره، وبما نصب على الحقِّ من الشواهد والأدلَّة الدالَّة على صحَّته وقبول القلوب والفِطَر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإنابة إليه، ويكرِّه ﴿إليكم الكفر والفسوق﴾؛ أي: الذنوبَ الكبار. ﴿والعصيان﴾؛ أي: الذنوبَ الصغار؛ بما أودع في قلوبكم من

(١) في (ب): «متوقف فيه كما ذكرنا».

كراهة الشرِّ وعدم إرادة فعله، وبما نَصَبَه من الأدلَّة والشواهد على فسادِه ومضرَّته وعدم قبول الفطر له، وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

﴿أولئك﴾؛ أي: الذين زيَّن الله الإيمان في قلوبهم وحبَّبه إليهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هم الراشدونَ﴾؛ أي: الذين صلحت علومُهم وأعمالُهم، واستقاموا على الدين القويم والصراط المستقيم، وضدُّهم الغاوون الذين حُبِّب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكُرِّه إليهم الإيمان، والذنب ذنبُهم؛ فإنهم لما فسقوا؛ طبعَ اللهُ على قلوبهم، ولما زاغوا؛ أزاغ اللهُ قلوبهم، ولما لم يؤمنوا بالحق لمَّا جاءهم أولَ مرة؛ قلب الله أفئدتهم.

﴿٨﴾ وقوله: ﴿فضلاً من اللهِ ونعمةً﴾؛ أي: ذٰلك الخير الذي حصل لهم هو بفضل الله عليهم وإحسانِهِ، لا بحولهم وقوَّتهم. ﴿واللهُ عليمٌ حكيمٌ﴾؛ أي: عليمٌ بمن يشكر النعمة فيوفِّقه لها ممَّن لا يشكرها ولا تليقُ به، فيضع فضلَه حيث تقتضيه حكمتُه.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٩﴾ هٰذا متضمِّنٌ لنهي المؤمنين عن أن يبغيَ بعضُهم على بعض ويقتلَ بعضُهم بعضاً، وأنه إذا اقتتلتْ طائفتان من المؤمنين؛ فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافَوْا هٰذا الشرَّ الكبير بالإصلاح بينهم والتوسُّط على أكمل وجه يقع به الصلحُ ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك؛ فإن صلحتا؛ فبها ونعمت. ﴿فإن بغتْ إحداهُما على الأخرى فقاتِلوا التي تبغي حتى تفيءَ إلى أمرِ اللهِ﴾؛ أي: ترجع إلى ما حدَّ الله ورسولُه من فعل الخير وترك الشرِّ الذي من أعظمه الاقتتال. وقولُه: ﴿فإن فاءتْ فأصْلِحوا بينهما بالعَدْلِ﴾: هٰذا أمرٌ بالصُّلح وبالعدل في الصلح؛ فإنَّ الصُّلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظُّلم والحيف على أحد الخصمين؛ فهذا ليس هو الصُّلح المأمورُ به، فيجب أن لا يراعَى أحدهما لقرابةٍ أو وطنٍ أو غير ذٰلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل. ﴿إنَّ اللهَ يحبُّ المُقْسِطينَ﴾؛ أي: العادلين في حكمهم بين الناس، وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذٰلك عدلُ الرجل في أهله وعيالِه في أداء حقوقهم،

وفي الحديث الصحيح: «المقسِطون عند الله على منابرَ من نورٍ؛ الذين يعدِلون في حكمِهم وأهليهم وما ولوا»[١].

﴿١٠﴾ ﴿إنّما المؤمنونَ إخوةٌ﴾: هٰذا عقدٌ عقدَه الله بين المؤمنين؛ أنَّه إذا وجد من أيِّ شخصٍ كان في مشرق الأرض ومغربها الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخرَ؛ فإنَّه أخٌ للمؤمنين أخوَّةً توجبُ أن يحبَّ له المؤمنون ما يحبُّون لأنفسهم، ويكرهوا له ما يكرهون لأنفسهم، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ آمراً بالأخوَّة الإيمانيَّة: «لا تَحاسدوا ولا تَناجشوا ولا تَباغضوا ولا تَدابروا، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً. المسلمُ أخو المسلم؛ لا يظلمُه ولا يخذُلُه ولا يكذبه». متفقٌ عليه[٢]. وفيهما عن النبيِّ ﷺ: «المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً، وشبك ﷺ بين أصابعه»[٣].

ولقد أمر اللهُ ورسولُه بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض وبما يحصُلُ به التآلفُ والتوادُدُ والتواصُلُ بينهم، كل هٰذا تأييدٌ لحقوق بعضهم على بعض؛ فمن ذٰلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرُّق القلوب وتباغُضها وتدابُرها؛ فَلْيُصْلِح المؤمنون بين إخوانهم، ولْيَسْعَوا فيما به يزول شَنَآنهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين الرحمةَ، فقال: ﴿لعلَّكم تُرْحَمونَ﴾، وإذا حصلت الرحمةُ؛ حصل خيرُ الدنيا والآخرة. ودلَّ ذٰلك على أنَّ عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

**وفي هاتين الآيتين من الفوائد غير ما تقدم**: أنَّ الاقتتال بين المؤمنين منافٍ للأخوَّة الإيمانيَّة، ولهٰذا كان من أكبر الكبائر. وأنَّ الإيمان والأخوَّة الإيمانيَّة لا يزولان مع وجود الاقتتال؛ كغيره من الذنوب الكبائر، التي دون الشرك، وعلى ذٰلك مذهب أهل السنة والجماعة. وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل. وعلى وجوب قتال البُغاة حتى يرجِعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله؛ بأن رجعوا على وجهٍ لا يجوز الإقرار عليه والتزامه؛ أنَّه لايجوز ذٰلك. وأنَّ أموالهم معصومةٌ؛ لأنَّ الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بَغْيِهم خاصةً دون أموالهم.

---

(١) كما في «صحيح مسلم» (١٨٢٧) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (١٩٩٩).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾.

﴿١١﴾ وهٰذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض؛ أن: ﴿لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ﴾: بكلِّ كلامٍ وقولٍ وفعلٍ دالٍّ على تحقير الأخ المسلم؛ فإنَّ ذٰلك حرامٌ لا يجوز، وهو دالٌّ على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخورُ به خيراً من الساخر، وهو الغالبُ والواقعُ؛ فإنَّ السخرية لا تقع إلَّا من قلب ممتلىءٍ من مساوىء الأخلاق، متحلٍّ بكل خلقٍ ذميم، متخلٍّ من كلِّ خلقٍ كريم، ولهٰذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرىءٍ من الشرِّ أن يحقِر أخاه المسلمَ»(١).

ثم قال: ﴿ولا تَلْمِزوا أنفُسَكُم﴾؛ أي: لا يعب بعضكم على بَعض، واللَّمزُ بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهيٌّ عنه حرامٌ متوعَّدٌ عليه بالنار؛ كما قال تعالى: ﴿ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ...﴾ الآية، وسمَّى الأخ المسلم نفساً لأخيهِ؛ لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هٰكذا حالُهم؛ كالجسد الواحد، ولأنَّه إذا همزَ غيرَه؛ أوجبَ للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبِّب لذٰلك، ﴿ولا تنابَزوا بِالألقابِ﴾؛ أي: لا يعيِّر أحدُكم أخاه ويلقِّبه بلقبٍ يكره أن يقالَ فيه، وهٰذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة؛ فلا تدخل في هٰذا. ﴿بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعدَ الإيمانِ﴾؛ أي: بئسما تبدَّلتم عن الإيمان والعمل بشرائعِهِ وما يقتضيه بالإعراض عن أوامرِهِ ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنابزُ بالألقاب، ﴿ومَن لَم يَتُبْ فأولٰئك هم الظَّالمونَ﴾: وهٰذا هو الواجب على العبد: أن يتوبَ إلى الله تعالى، ويخرجَ من حقِّ أخيه المسلم باستحلالِهِ والاستغفار والمدح له مقابلةً على ذمِّه. ﴿ومَن لم يَتُبْ فأولٰئك هم الظالمونَ﴾؛ فالناس قسمان: ظالمٌ لنفسه غيرُ تائبٍ، وتائبٌ مفلحٌ، ولا ثَمَّ غيرهما.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ۝١٢﴾.

﴿١٢﴾ نهى تعالى عن كثيرٍ من الظَّنِّ السيِّىءِ بالمؤمنين، ﴿إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثمٌ﴾:

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

وذٰلك كالظَّنِّ الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظنِّ السَّوْءِ الذي يقترن به كثيرٌ من الأقوال والأفعال المحرَّمة؛ فإنَّ بقاءَ ظنِّ السَّوْءِ بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرَّد ذٰلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذٰلك أيضاً إساءةُ الظنِّ بالمسلم وبغضُهُ وعداوتُهُ المأمور بخلافها منه، ﴿ولا تَجَسَّسوا﴾؛ أي: لا تفتِّشوا عن عورات المسلمين، ولا تَتَّبعوها، ودَعُوا المسلم على حاله، واستعملوا التغافُل عن زلَّاته، التي إذا فُتِّشَتْ؛ ظهرَ منها ما لا ينبغي، ﴿ولا يَغْتَب بعضُكُم بعضاً﴾: والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذِكْرُكَ أخاك بما يكرَهُ، ولو كان فيه»[1]. ثم ذَكَرَ مثلاً منفراً عن الغيبة، فقال: ﴿أيحبُّ أحدُكُم أن يأكُلَ لحمَ أخيه مَيْتاً فكَرِهتُموه﴾: شبَّه أكلَ لحمِهِ ميتاً المكروه للنفوس غايةَ الكراهةِ باغتيابه؛ فكما أنَّكم تكرهون أكل لحمه، خصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح؛ فكذٰلك فَلْتَكرهوا غيبته وأكل لحمه حيًّا، ﴿واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ توابٌ رحيمٌ﴾: والتوَّابُ: الذي يأذن بتوبة عبده، فيوفِّقه لها، ثم يتوبُ عليه بقبول توبته، رحيمٌ بعباده؛ حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة. وفي هٰذه الآية دليلٌ على التَّحذير الشديد من الغِيبة، وأنَّها من الكبائر؛ لأنَّ الله شبَّهها بأكل لحم الميت، وذٰلك من الكبائر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

﴿١٣﴾ يخبرُ تعالى أنَّه خلقَ بني آدم من أصل واحدٍ وجنسٍ واحدٍ، وكلُّهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعُهم إلى آدم وحواء، ولكنَّ الله تعالى بثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرَّقهم، وجعلهم ﴿شعوباً وقبائلَ﴾؛ أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذٰلك لأجل أن يتعارَفوا؛ فإنَّه لو استقلَّ كلُّ واحد منهم بنفسه؛ لم يحصُلْ بذٰلك التعارف الذي يترتَّب عليه التَّناصر والتَّعاون والتَّوارث والقيام بحقوق الأقارب، ولٰكنَّ الله جعلهم شعوباً وقبائل؛ لأجل أن تحصُلَ هٰذه الأمور وغيرها ممَّا يتوقَّف على التعارف ولحوق الأنساب، ولٰكن الكرمَ بالتَّقوى؛ فأكرمُهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرُهم طاعةً وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرُهم قرابةً وقوماً، ولا أشرفُهم نسباً، ولٰكن اللهَ تعالى ﴿عليمٌ خبيرٌ﴾، يعلمُ منهم مَن يقوم بتقوى الله ظاهراً وباطناً ممَّن لا يقوم بذٰلك ظاهراً ولا باطناً، فيجازي كلًّا بما يستحقُّ. وفي هٰذه الآية دليلٌ على

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة.

أنَّ معرفة الأنساب مطلوبةٌ مشروعةٌ؛ لأنَّ الله جعلهم شعوباً وقبائلَ لأجل ذٰلك.

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٤﴾ يخبرُ تعالى عن مقالةِ الأعراب، الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرةٍ ولا قيام بما يجبُ ويقتضيه الإيمان؛ أنَّهم مع هٰذا ادَّعوا وقالوا ﴿آمنَّا﴾؛ أي: إيماناً كاملاً مستوفياً لجميع أموره. هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يردَّ عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾؛ أي: لا تدَّعوا لأنفسِكُم مقامَ الإيمان ظاهراً وباطناً كاملاً، ﴿ولٰكن قولوا أسلَمْنا﴾؛ أي: دخلْنا في الإسلام، واقتَصِروا على ذٰلك، ﴿و﴾ السبب في ذٰلك أنه ﴿لمَّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبِكُم﴾: وإنَّما أسلمتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذٰلك مما هو السبب في إيمانكم؛ فلذٰلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم. وفي قوله: ﴿ولمَّا يدخلِ الإيمانُ في قلوبِكُم﴾؛ أي: وقتَ هٰذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارةٌ إلى أحوالهم بعد ذٰلك؛ فإنَّ كثيراً منهم منَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقيِّ والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تُطيعوا اللهَ ورسولَه﴾: بفعل خير أو ترك شرٍّ ﴿لا يَلِتْكُم من أعمالِكُمْ شيئاً﴾؛ أي: لا يَنْقُصْكم منها مثقال ذرَّةٍ، بل يوفيكم إيَّاها أكمل ما تكون، لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً. ﴿إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾؛ أي: غفورٌ لمَن تابَ إليه وأناب، رحيمٌ به؛ حيث قبل توبته.

﴿١٥﴾ ﴿إنَّما المؤمنون﴾؛ أي: على الحقيقة، ﴿الذين آمنوا بالله ورسولِهِ وجاهدوا في سبيلِ اللهِ﴾؛ أي: من جمعوا بينَ الإيمان بالله ورسولِهِ والجهادِ في سبيله؛ فإنَّ مَن جاهدَ الكفارَ؛ دلَّ ذٰلك على الإيمان التامِّ في قلبِهِ؛ لأنَّ من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه؛ فجهاده لنفسه على ذٰلك من باب أولى وأحرى، ولأنَّ من لم يقوَ على الجهاد؛ فإنَّ ذٰلك دليلٌ على ضعف إيمانه. وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب؛ أي: الشكِّ؛ لأنَّ الإيمان النافع هو الجزم اليقينيُّ بما

أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شكٌّ بوجه من الوجوه. وقوله: ﴿أولٰئك هم الصادقون﴾؛ أي: الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة؛ فإنَّ الصدقَ دعوى عظيمةٌ في كل شيء يُدَّعى، يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهانٍ، وأعظم ذٰلك دعوى الإيمان، الذي هو مدار السعادة والفوز الأبديِّ والفلاح السرمديِّ؛ فمن ادَّعاه وقام بواجباته ولوازمه؛ فهو الصادق المؤمن حقًّا. ومن لم يكن كذٰلك؛ عُلِم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة؛ فإنَّ الإيمان في القلب، لا يطلع عليه إلا الله تعالى؛ فإثباتُه ونفيُه من باب تعليم الله بما في القلب وهو سوءُ أدبٍ وظنٌّ بالله.

﴿١٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿قل أتُعَلِّمون اللهَ بِدينِكم واللهُ يعلمُ ما في السمٰواتِ وما في الأرضِ واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾: وهٰذا شاملٌ للأشياء كلِّها، التي من جملتِها ما في القلوب من الإيمان والكفران والبرِّ والفجور؛ فإنَّه تعالى يعلمُ ذٰلك كلَّه، ويجازي عليه، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

﴿١٧﴾ هٰذه حالةٌ من أحوال من ادَّعى لنفسه الإيمان وليس به؛ فإنَّه إمَّا أن يكون ذٰلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالمٌ بكلِّ شيء، وإمَّا أن يكون قصدُهم بهٰذا الكلام المنة على رسولِه، وأنَّهم قد بذلوا وتبرَّعوا بما ليس من مصالحهم بل هو من حظوظه الدنيويَّة، وهٰذا تجمُّلٌ بما لا يجمل، وفخرٌ بما لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله؛ فإنَّ المنَّة لله تعالى عليهم؛ فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فمنَّتُه عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومنَّتُه عليهم بالإيمان أفضلُ من كلِّ شيء، ولهٰذا قال: ﴿يَمُنُّونَ عليك أنْ أسلَموا قل لا تَمُنُّوا عليَّ إسلامكم بلِ اللهُ يمنُّ عليكم أنْ هداكُم للإيمانِ إن كنتُم صادقينَ﴾.

﴿١٨﴾ ﴿إنَّ اللهَ يعلمُ غَيبَ السَّمٰواتِ والأرضِ﴾؛ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق؛ كالذي في لُجَج البحار، ومَهامِهِ القِفار، وما جنَّهُ الليلُ أو واراهُ النهارُ؛ يعلمُ قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور، ﴿وما تَسقُطُ مِن ورقةٍ إلَّا يَعلَمُها ولا حبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرضِ ولا رَطْبٍ ولا يابس إلَّا في كتابٍ مبينٍ﴾. ﴿واللهُ بصيرٌ بما تعملون﴾: يُحصي عليكم أعمالَكم ويُوَفيكُم إيَّاها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومنه وجوده وكرمه. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة قٓ

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾.

﴿١﴾ يقسم تعالى بـ﴿القرآنِ المجيد﴾؛ أي: وسيع المعاني، عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بذلك هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملَها، ومن الألفاظ أجزلَها، ومن المعاني أعمَّها وأحسنها.

﴿٢﴾ وهذا موجب لكمال اتِّباعه وسرعة الانقياد له وشكر الله على المنَّة به، ولكن أكثر الناس لا يقدِّر نعمَ الله قَدْرَها، ولهذا قال تعالى: ﴿بلْ عَجِبوا﴾؛ أي: المكذِّبون للرسول ﷺ، ﴿أن جاءَهم منذرٌ منهم﴾؛ أي: يُنذرهم ما يضرُّهم ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنُهم التلقِّي عنه ومعرفة أحوالِه وصدقِه، فتعجَّبوا من أمرٍ لا ينبغي لهم التعجُّب منه، بل يتعجَّب من عَقل من تعجب منه، ﴿فقالَ الكافرون﴾؛ أي: الذين حَمَلَهم كفرُهم وتكذيبُهم لا نقص بذكائِهم وآرائِهم[1]: ﴿هذا شيءٌ عجيبٌ﴾؛ أي: مستغربٌ.

وهم في هذا الاستغراب بين أمرين: إمَّا صادقونَ في استغرابهم وتعجُّبهم؛ فهذا يدلُّ على غاية جهلهم وضعف عقولهم؛ بمنزلة المجنون الذي يستغربُ كلامَ العاقل، وبمنزلة الجبانِ الذي يتعجَّب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السَّخاء؛ فأيُّ ضررٍ يلحق من تعجب مَن هذه حالُه؟! وهل تعجُّبه إلا دليلٌ على زيادة جهله وظلمه[2]؟! وإما أن يكونوا متعجِّبين على وجهٍ يعلمون خطأهم فيه؛ فهذا من أعظمِ الظُّلم وأشنعِه.

﴿٣ ـ ٤﴾ ثم ذكر وجه تعجُّبهم، فقال: ﴿أإذا مِتْنا وكُنَّا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيدٌ﴾: فقاسوا قدرة من هو على كلِّ شيءٍ قديرٌ الكامل من كلِّ وجهٍ، بقدرة العبد الفقير

---

(١) في (ب): «بقلوبهم وعقولهم». (٢) في (ب): «ظلمه وجهله».

العاجز من جميع الوجوه! وقاسوا الجاهلَ الذي لا علمَ له، بمن هو بكلِّ شيءٍ عليمٌ، الذي يعلم ﴿ما تَنقُصُ الأرضُ﴾: من أجسادهم مدَّة مقامِهم في البرزخِ[1]، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده ـ محفوظٌ عن التغيير والتبديل ـ كلَّ ما يَجري عليهم في حياتهم ومماتهم. وهٰذا استدلالٌ بكمال سعة علمه[2]، التي لا يحيطُ بها إلَّا هو على قدرته على إحياء الموتى.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

﴿٥﴾ أي: ﴿بل﴾: كلامُهم الذي صدر منهم إنَّما هو عنادٌ وتكذيبٌ للحقِّ الذي هو أعلى أنواع الصدق. ﴿لمَّا جاءهم فهم في أمرٍ مَريجٍ﴾؛ أي: مختلطٍ مشتبهٍ، لا يثبتون على شيءٍ، ولا يستقرُّ لهم قرارٌ، فتارةً يقولونَ عنك: إنَّك ساحرٌ! وتارةً: مجنونٌ! وتارة: شاعرٌ! وكذٰلك جعلوا القرآن عِضين، كلٌّ قال فيه ما اقتضاه فيه رأيُه الفاسدُ. وهٰكذا كلُّ من كذَّب بالحقِّ؛ فإنَّه في أمرٍ مختلطٍ، لا يدرى له وجهٌ ولا قرارٌ، فترى أموره متناقضةً مؤتفكةً؛ كما أنَّ من اتَّبع الحقَّ وصدق به قد استقام أمرُه واعتدل سبيلُه، وصدق فعلُه قيلَه.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

﴿٦﴾ لمَّا ذكر تعالى حالة المكذِّبين وما ذمَّهم به؛ دعاهم إلى النَّظر في آياته الأفقيَّة كي يعتبروا ويستدلُّوا بها على ما جُعلت أدلةً عليه، فقال: ﴿أفلمْ ينظُروا إلى السماءِ فوقَهم﴾؛ أي: لا يحتاجُ ذٰلك النظرُ إلى كلفةٍ وشدِّ رحل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كيفَ بَنَيْناها﴾: قبةً مستويةَ الأرجاء ثابتة البناء مزيَّنةً بالنجوم الخُنَّس والجواري الكُنَّس، التي ضُرِبتْ من الأفق إلى الأفُق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيباً ولا فروجاً ولا خلالاً ولا إخلالاً، قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضروريَّة ما أودع.

(١) في (ب): «برزخهم».

(٢) في (ب): «علمه وسعته».

﴿٧﴾ وإلى الأرض كيف مَدَدْناها ووسَّعناها حتى أمكن كلَّ حيوانٍ السكونُ فيها والاستقرار[١] والاستعداد لجميع مصالحه، وأرساها بالجبال؛ لتستقرَّ من التَّزلزل والتموُّج. ﴿وأنبَتْنا فيها من كلِّ زوجٍ بهيجٍ﴾؛ أي: من كل صنفٍ من أصناف النبات التي تسرُّ ناظريها، وتُعجِب مبصرِيها، وتُقِرُّ عين رامقيها[٢] لأكل بني آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم.

﴿٨ ـ ١١﴾ وخصَّ من تلك المنافع [بالذكر] الجنَّات المشتملة على الفواكه اللَّذيذة من العنب والرُّمان والأترجِّ والتُّفاح وغير ذٰلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات؛ أي: الطوال، التي يطول نفعها[٣]، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثيرٌ من الأشجار، فتخرجَ من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهةً يأكلون منه ويدَّخرون هم ومواشيهم. وكذٰلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض و[التي] تحتها من ﴿حبَّ الحصيدِ﴾؛ أي: من الزَّرع المحصود من بُرٍّ وشعير وذرة وأرزٍّ ودخن وغيره؛ فإن في النظر في هٰذه الأشياء ﴿تبصرةً﴾: يُتَبَصَّر بها[٤] من عمى الجهل، ﴿وذكرى﴾: يُتَذَكَّر بها ما ينفع في الدين والدنيا، ويُتَذَكَّر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله، وليس ذٰلك لكلِّ أحدٍ، بل ﴿لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾ إلى الله؛ أي: مقبل عليه بالحبِّ والخوف والرجاء وإجابة داعيه، وأمَّا المكذِّب أو المعرض؛ فما تغني الآياتُ والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون.

**وحاصلُ** هٰذا أنَّ ما فيها من الخلق الباهر والقوَّة والشدَّة[٥] دليلٌ على كمال قدرة الله تعالى، **وما فيها** من الحسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع[٦] الخلقة دليلٌ على أنَّ اللهَ أحكمُ الحاكمين، وأنَّه بكلِّ شيء عليمٌ، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد دليلٌ على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عمَّ كلَّ حيٍّ، **وما فيها** من عظمة الخلقة وبديع النِّظام دليلٌ على أنَّ الله تعالى هو الواحدُ الأحدُ الفردُ الصمدُ الذي لم يتَّخذ صاحبةً ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحدٌ، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذُّلُّ والحبُّ إلَّا له، **وما فيها** من إحياء الأرض بعد موتها دليلٌ على

---

(١) في (ب): «والقرار».
(٢) في (ب): «تسرُّ ناظرها، وتعجب مبصرها، وتقرّ عين رامقها».
(٣) في (ب): «يستمر نفعها ويطول».
(٤) في (ب): «به».
(٥) في (ب): «والشدّة والقوّة».
(٦) في (ب): «وعجيب».

إحياء الله الموتى ليجازِيَهم بأعمالهم، ولهٰذا قال: ﴿وأحْيَيْنا به بلدةً ميتاً كذٰلك الخروجُ﴾.

ولـمَّا ذكَّرهم بهٰذه الآيات السماوية والأرضيَّة؛ خوَّفهم أخذات الأمم، وألَّا يستمرُّوا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانَهم من المكذِّبين، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٢ ـ ١٤﴾ أي: كذَّب الذين من قبلهم من الأمم رُسُلَهم الكرام وأنبياءَهم العظام؛ كنوح كذَّبه قومه، وثمود كذَّبوا صالحاً، وعاد كذَّبوا هوداً، وإخوان لوطٍ كذَّبوا لوطاً، وأصحابُ الأيكةِ كذَّبوا شعيباً، وقوم تُبَّع ـ وتُبَّعٌ كل ملكٍ مَلَكَ اليمن في الزمان السابق قبل الإسلام ـ فقوم تُبَّع كذَّبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبِرْنا اللهُ من هو ذٰلك الرسولُ، وأيُّ تُبَّعٍ من التَّبابعة؛ لأنه ـ والله أعلم ـ كان مشهوراً عند العرب العرباء[1]، الذين لا تخفَى ماجرياتهم على العرب، خصوصاً مثل هٰذه الحادثة العظيمة؛ فهٰؤلاء كلُّهم كذَّبوا الرُّسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحقَّ عليهم وعيدُ الله وعقوبته، ولستم أيُّها المكذِّبون لمحمدٍ ﷺ خيراً منهم، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم؛ فاحذروا جرمهم؛ لئلَّا يصيبكم ما أصابهم.

﴿١٥﴾ ثم استدل تعالى بالخلق الأول ـ وهو النشأة الأولى ـ على الخلق الآخر ـ وهو النشأة الآخرة ـ؛ فكما أنه الذي أوجدهم بعد العدم؛ كذٰلك يعيدهم بعد موتهم وصيرورتهم إلى الرُّفات والرِّمم، فقال: ﴿أفعَيينا﴾؛ أي: أفعَجَزْنا وضعفتْ قدرتُنا ﴿بالخلق الأوَّلِ﴾: ليس الأمر كذٰلك، فلم نعجز ونعيَ عن ذٰلك، وليسوا في شكٍّ من ذٰلك، وإنما ﴿هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جديدٍ﴾: هٰذا الذي شكُّوا فيه والتبس عليهم أمره، مع أنَّه لا محلَّ للَّبس فيه؛ لأنَّ الإعادة أهونُ من الابتداء؛ كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخَلْقَ ثمَّ يعيدُهُ وهو أهونُ عليه﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى

(١) في (ب): «كان مشهوراً عند العرب؛ لكونهم من العرب العرباء».

ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنَّه المتفرِّد بخلق(١) جنس الإنسان ذكورِهم وإناثِهم، وأنَّه يعلم أحواله وما يُسِرُّه وتوسوس به نفسه(٢)، وأنه ﴿أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ﴾: الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو [العرق](٣) المكتنف لثُغرة النحر. وهٰذا ممّا يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطَّلع على ضميره وباطنه، القريب إليه(٤) في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

﴿١٧﴾ وكذٰلك ينبغي له أن يجعل الملائكةَ الكرامَ الكاتبين منه على بال، فيجلُّهم ويوقِّرهم ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه ممَّا لا يرضي ربَّ العالمين، ولهٰذا قال: ﴿إذ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيانِ﴾؛ أي: يتلقَّيانِ عن العبد أعماله كلَّها، واحدٌ ﴿عن اليمين﴾: يكتب الحسنات، ﴿و﴾ الآخر ﴿عن الشمال﴾: يكتب السيئات، وكل منهما مقيدٌ بذٰلك، متهيىءٌ لعمله الذي أعدَّ له، ملازمٌ لذٰلك.

﴿١٨﴾ ﴿ما يَلْفِظُ من قولٍ﴾: خير أو شرٍّ ﴿إلَّا لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾؛ أي: مراقب له، حاضرٌ لحاله؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّ عليكم لحافظينَ . كراماً كاتبينَ . يعلمون ما تفعلون﴾.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿١٩﴾ أي: وجاءت هٰذا الغافل المكذِّب بآيات الله، ﴿سَكْرَةُ الموتِ بالحقِّ﴾: الذي لا مردَّ له ولا مناص. ﴿ذٰلك ما كنتَ منه تَحيدُ﴾؛ أي: تتأخَّر وتنكصُ(٥) عنه.

﴿٢٠﴾ ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ ذٰلك يَوْمُ الوعيدِ﴾؛ أي: اليوم الذي يلحقُ الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿٢١﴾ ﴿وجاءتْ كلُّ نفسٍ معها سائقٌ﴾: يسوقُها إلى موقف القيامة؛ فلا يمكنُها

---

(١) في (ب): «أنه الذي خلق». (٢) في (ب): «ويوسوس في صدره».
(٣) كذا في (ب) بعد أن صوبها الشيخ في الهامش. وفي ( أ ) بقيت كما هي: «العظم».
(٤) في (ب): «منه». (٥) في (ب): «وتحيد».

أن تتأخَّر عنه، ﴿وشهيدٌ﴾: يشهدُ عليها بأعمالها؛ خيرِها وشرِّها. وهٰذا يدلُّ على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل.

﴿٢٢﴾ فهٰذا الأمر مما يجب أن يجعله العبدُ منه على بالٍ، ولٰكن أكثر الناس غافلون، ولهٰذا قال: ﴿لقد كُنتَ في غفلةٍ من هٰذا﴾؛ أي: يقال للمعرض المكذِّب يوم القيامة هٰذا الكلام توبيخاً ولوماً وتعنيفاً؛ أي: لقد كنتَ مكذِّباً بهٰذا تاركاً للعمل له[1]. ﴿فـ﴾: الآن ﴿كَشفْنا عنك غِطاءَك﴾: الذي غطَّى قلبَك فكثر نومُك واستمرَّ[2] إعراضُك، ﴿فبصرُك اليومَ حديدٌ﴾: ينظر ما يزعجه ويروِّعه من أنواع العذاب والنَّكال، أو هٰذا خطابٌ من الله للعبد؛ فإنَّه في الدُّنيا في غفلةٍ[3] عما خُلِقَ له، ولٰكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وَسَنُه في وقت لا يمكِنُه أن يتداركَ الفارطَ ولا يستدركَ الفائتَ. وهٰذا كلُّه تخويفٌ من الله للعباد، وترهيبٌ بذكر ما يكون على المكذِّبين في ذٰلك اليوم العظيم.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى: ﴿وقال قرينُهُ﴾؛ أي: قرين هٰذا المكذِّب المعرض من الملائكة، الذين وَكَلَهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة، ويحضر أعماله، ويقول: ﴿هٰذا ما لديَّ عتيدٌ﴾؛ أي: قد أحضرتُ ما جعلتُ عليه من حفظه وحفظ عمله.

﴿٢٤﴾ فيجازى بعمله، ويقال لمن استحقَّ النار: ﴿أَلْقِيا في جَهَنَّم كلَّ كفَّارٍ عنيدٍ﴾؛ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثر من المعاصي، المتجرِّىء على المحارم والمآثم.

﴿٢٥﴾ ﴿منَّاع للخيرِ﴾؛ أي: يمنع الخير الذي قِبَله[4]، الذي أعظمه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، منَّاع لنفع ماله وبدنه، ﴿معتدٍ﴾: على عباد الله وعلى

---

(١) في (ب): «به».

(٢) في (ب): «ودام».

(٣) في (ب): «أنه في غفلة في الدنيا».

(٤) في (ب): «عنده».

حدوده، أثيم، أي: كثير الإثم، ﴿مريبٍ﴾؛ أي: شاكٍّ في وعد الله ووعيده؛ فلا إيمان ولا إحسان، ولكن وصفه الكفر والعدوان والشكُّ والريب والشحُّ واتِّخاذُ الآلهة من دون الرحمٰن.

﴿٢٦﴾ ولهٰذا قال: ﴿الذي جَعَلَ مع اللهِ إلٰهاً آخر﴾؛ أي: عبد معه غيره ممَّن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ﴿فألقياه﴾: أيُّها المَلَكان القرينان ﴿في العذابِ الشديدِ﴾: الذي هو معظمها وأشدُّها وأشنعُها.

﴿٢٧﴾ ﴿قال قرينُهُ﴾: الشيطان متبرِّئاً منه حاملاً عليه إثمه: ﴿ربَّنا ما أطْغَيْتُه﴾: لأنِّي لم يكن لي عليه سلطانٌ ولا حجةٌ ولا برهانٌ، ﴿ولٰكن كانَ في ضلالٍ بعيدٍ﴾: فهو الذي ضلَّ وبَعُدَ عن الحقِّ باختياره؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الشيطانُ لَمَّا قُضِيَ الأمرُ إن الله وَعَدَكم وَعْدَ الحقِّ ووعدتُكم فأخْلَفْتُكم[(١)] . . .﴾ الآية.

﴿٢٨﴾ قال الله تعالى مجيباً لاختصامهم: ﴿لا تَخْتَصِموا لديَّ﴾؛ أي: لا فائدة في اختصامكم عندي، ﴿و﴾ الحال أني ﴿قد قدَّمْتُ إليكم بالوعيدِ﴾؛ أي: جاءتكم رسلي بالآيات البيِّنات والحجج الواضحات والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجَّتي وانقطعت حجَّتُكم، وقدمتُم إليَّ بما أسلفتم من الأعمال التي وَجَبَ جزاؤها.

﴿٢٩﴾ ﴿ما يُبَدَّلُ القولُ لديَّ﴾؛ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به؛ لأنَّه لا أصدق من الله قيلاً، ولا أصدق حديثاً. ﴿وما أنا بظلَّامٍ للعبيدِ﴾: بل أجزيهم بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ؛ فلا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يقول تعالى مخوِّفاً لعباده: ﴿يومَ نقولُ لجهنَّم هلِ امتلأتِ﴾: وذٰلك من كثرةِ ما ألقيَ فيها، ﴿وتقولُ هلْ مِن مَزيدٍ﴾؛ أي: لا تزال تطلبُ الزيادة من المجرمين العاصين؛ غضباً لربِّها، وغيظاً على الكافرين، وقد[(٢)] وعدها الله ملأها؛ كما قال تعالى: ﴿لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّة والنَّاس أجمعينَ﴾: حتى يضعَ ربُّ العزَّة

(١) في (ب): ذكر المؤلف الآية إلى قوله تعالى: ﴿ولُوموا أنفسَكم﴾.

(٢) في (ب): «حتى وقد».

عليها قدمه الكريمة المنزَّهة عن التشبيه، فينزوي بعضُها على بعضٍ، وتقول: قط، قط[١]؛ قد اكتفيت وامتلأت.

﴿٣١﴾ ﴿وأزلِفَتِ الجنةُ﴾؛ أي: قرِّبت بحيث تشاهَد ويُنْظَرُ ما فيها من النعيم المقيم والحبرة والسرور، وإنما أزلِفَتْ وقُرِّبَتْ لأجل المتَّقين لربِّهم، التاركين للشرك كبيره وصغيره[٢]، الممتثِلينَ لأوامر ربهم، المنقادين له.

﴿٣٢﴾ ويقال لهم على وجه التَّهنئة: ﴿هٰذا ما توعدون لكلِّ أوَّابٍ حفيظٍ﴾؛ أي: هٰذه الجنة وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين هي التي وعدَ اللهُ كلَّ أوابٍ؛ أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأوقات؛ بذكرِه وحبِّه والاستعانةِ به ودعائِه وخوفِه ورجائِه. ﴿حفيظ﴾؛ أي: محافظ على ما أمر الله به؛ بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له على أتمِّ الوجوه، حفيظ لحدوده.

﴿٣٣﴾ ﴿مَنْ خَشِيَ الرحمٰنَ﴾؛ أي: خافه على وجه المعرفة بربِّه والرجاء لرحمته، ولازم على خشية الله في حال غيبه؛ أي: مغيبه عن أعين الناس. وهٰذه الخشية الحقيقيَّة، وأمَّا خشيتُه في حال نظر الناس وحضورهم؛ فقد يكون رياءً وسمعةً؛ فلا يدلُّ على الخشية، وإنما الخشية النافعة خشيته في الغيب والشهادة، [ويحتمل أنّ المراد بخشية اللّه بالغيب، كالمراد بالإيمان بالغيب. وأنّ هذا مقابل للشهادة حيث يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختيارياً حيث يعاين العذاب، وتأتي آيات اللّه وهذا هو الظاهر.] ﴿وجاء بقلبٍ منيبٍ﴾؛ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه.

﴿٣٤﴾ ويقال لهٰؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادْخـلـوهـا بِسلام﴾؛ أي: دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشرور، مأموناً فيه جميع مكاره الأمور؛ فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص. ﴿ذٰلك يومُ الخُلودِ﴾: الذي لا زوال له ولا موت ولا شيء من المكدِّرات.

﴿٣٥﴾ ﴿لهم ما يشاؤون فيها﴾؛ أي: كلُّ ما تعلَّقت به مشيئتهم؛ فهو حاصلٌ فيها، ﴿ولدَينا﴾: فوق ذٰلك ﴿مَزيدٌ﴾؛ أي: ثوابٌ يمدُّهم به الرحمٰن الرحيم، ممَّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ، وأعظم ذٰلك وأجلُّه وأفضله

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٧٣٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «صغيره وكبيره».

النظر إلى وجهه الكريم، والتمتُّع بسماع كلامه، والتنعُّم بقربه، فنسأله من فضله[١].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦﴾ يقول تعالى مخوفاً للمشركين المكذِّبين للرسول: ﴿وكمْ أهلَكْنا قبلَهم من قرنٍ﴾؛ أي: أمماً كثيرة ﴿هم أشدُّ منهم بَطْشاً﴾؛ أي: قوةً وآثاراً في الأرض، ولهٰذا قال: ﴿فنَقَّبوا في البلاد﴾؛ أي: بنوا الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعمَّروا، ودمَّروا، فلما كذَّبوا رسل الله وجحدوا آياته[٢]؛ أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد. ﴿هل من مَحيصٍ﴾؛ أي: لا مفرَّ لهم من عذاب الله حين نزل بهم ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوَّتُهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿٣٧﴾ ﴿إنَّ في ذٰلك لَذِكْرى لِمَن كان له قلبٌ﴾؛ أي: قلبٌ عظيمٌ حيٌّ ذكيٌّ زكيٌّ؛ فهٰذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله؛ تذكَّر بها وانتفع فارتفع، وكذٰلك من ألقى سمعه إلى آيات الله واستمعها استماعاً يسترشد به وقلبُه ﴿شهيدٌ﴾؛ أي: حاضرٌ؛ فهٰذا أيضاً له ذكرى وموعظةٌ وشفاءٌ وهدى، وأمَّا المعرض الذي لم يصغ[٣] سمعه إلى الآيات؛ فهٰذا لا تفيده شيئاً؛ لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمةُ الله هداية من هٰذا نعته[٤].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ وهٰذا إخبارٌ منه تعالى عن قدرته العظيمة ومشيئته النافذة، التي أوجد بها أعظم المخلوقات؛ ﴿السمٰواتِ والأرضَ وما بينَهما في ستَّة أيام﴾: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة؛ من غير تعبٍ ولا نصبٍ ولا لغوبٍ ولا إعياءٍ؛ فالذي أوجدها على كبرها وعظمها قادرٌ على إحياء الموتى من باب أولى وأحرى.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ﴿فاصبرْ على ما يقولونَ﴾: من الذمِّ لك والتكذيب بما جئتَ به، واشتغلْ عنهم والْهُ بطاعة ربِّك وتسبيحه أول النهار وآخره وفي أوقات الليل وأدبار

(١) في (ب): «فنسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم». (٢) في (ب): «آيات الله».
(٣) في (ب): «لم يلقِ». (٤) في (ب): «هذا وصفه ونعته».

الصلوات؛ فإن ذِكْرَ الله تعالى مسلٍ للنفس مؤنسٌ لها مهوِّنٌ للصبر.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿واستمعْ﴾: بقلبك نداء المنادي، وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخُ في الصور ﴿من مكانٍ قريبٍ﴾: من الأرض[(١)].

﴿٤٢﴾ ﴿يوم يسمعونَ الصَّيحَةَ﴾؛ أي: كلُّ الخلائق يسمعون تلك ﴿الصيحة﴾: المزعجة المهولة ﴿بالحقِّ﴾: الذي لا شكَّ فيه ولا امتراء. ﴿ذٰلك يومُ الخروج﴾: من القبور، الذي انفرد به القادر على كلِّ شيء.

﴿٤٣ ـ ٤٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿إنَّا نحن نحيي ونميتُ وإلينا المصيرُ. يومَ تَشَقَّقُ الأرضُ عنهم﴾؛ أي: عن الخلائق ﴿سراعاً﴾؛ أي: يسرعون لإجابة الدَّاعي لهم إلى موقفِ القيامة. ﴿ذٰلك حشرٌ علينا يسيرٌ﴾؛ أي: سهل على الله[(٢)]، لا تعبَ فيه ولا كلفةَ.

﴿٤٥﴾ ﴿نحنُ أعلمُ بما يقولون﴾: لك مما يحزنك من الأذى، وإذا كنَّا أعلم بذٰلك؛ فقد علمت كيف اعتناؤنا بك وتيسيرنا لأمورك ونصرنا لك على أعدائك؛ فليفرح قلبك، ولتطمئنَّ نفسُك، ولتعلم أنَّنا أرحم بك وأرأف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسِّي بأولي العزم من رسلِ الله. ﴿وما أنت عليهم بجبَّارٍ﴾؛ أي: مسلَّط عليهم، ﴿إنَّما أنت منذرٌ ولكلِّ قوم هادٍ﴾، ولهٰذا قال: ﴿فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾، والتذكير هو تذكير ما تقرَّر في العقول والفطر من محبَّة الخير وإيثاره وفعله ومن بغض الشرِّ ومجانبته، وإنما يتذكَّر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخفِ الوعيد ولم يؤمنْ به؛ فهٰذا فائدة تذكيره إقامة الحجَّة عليه لئلا يقول: ما جاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ.

آخر تفسير سورة قٓ.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

❁ ❁ ❁

---

(١) وفي هامش (ب) الخلق.

(٢) في (ب): «هين على الله يسير».

# تفسير سورة والذاريات

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ هٰذا قسمٌ من الله الصادق في قيله بهٰذه المخلوقات العظيمة، التي جعل اللهُ فيها من المصالح والمنافع ما جعل، على أنَّ وعدَه صدقٌ، وأنَّ الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال لواقعٌ لا محالةَ، ما له من دافع. فإذا أخبر به الصادقُ العظيم، وأقسم عليه، وأقام الأدلَّة والبراهين عليه؛ فلِمَ يكذِّب به المكذِّبون، ويعرِض عن العمل له العاملون؟! ﴿والذَّارياتِ﴾[1]: هي الرياح التي تذرو في هبوبها ﴿ذرواً﴾: بلينها ولطفها وقوَّتها وإزعاجها، ﴿فالحاملاتِ وِقراً﴾: هي السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به العباد والبلاد[2]، ﴿فالجارياتِ يُسراً﴾: النجوم التي تجري على وجه اليُسر والسُّهولة، فتتزيَّن بها السماواتُ، ويُهتدَى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ويُنتَفَعُ بالاعتبار بها، والمقسِّمات ﴿أمراً﴾: الملائكة التي تقسِّم الأمر وتدبِّره بإذن الله؛ فكلٌّ منهم قد جعله الله على تدبير أمرٍ من أمور الدنيا والآخرة لا يتعدَّى ما حُدَّ له وقُدِّر ورُسِم ولا ينقص منه.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾.

﴿٧﴾ أي: ﴿والسماء﴾: ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حُبُكَ الرمال ومياه الغدران حين يحركها النسيم.

﴿٨﴾ ﴿إنَّكم﴾: أيُّها المكذِّبون لمحمدٍ ﷺ، ﴿لفي قول مختلفٍ﴾: منكم من يقولُ: ساحر! ومنكم من يقول: كاهن! ومنكم من يقول: مجنون! إلى غير ذٰلك من الأقوال المختلفة الدالَّة على حيرتهم وشكِّهم، وأنَّ ما هم عليه باطلٌ.

﴿٩﴾ ﴿يؤفَكُ عنه من أُفِكَ﴾؛ أي: يُصْرَفُ عنه من صُرِف عن الإيمان وانصرف [قلبه] عن أدلَّة الله اليقينيَّة وبراهينه. واختلافُ قولهم دليلٌ على فساده وبطلانه؛ كما

---

(١) في (ب): «والمراد بـ﴿الذاريات﴾». (٢) في (ب): «البلاد والعباد».

أنَّ الحقَّ الذي جاء به محمد ﷺ متَّفق؛ يصدِّقُ بعضه بعضاً، لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليلٌ على صحَّته، وأنَّه من عند الله؛ فلو كان من عند غير الله؛ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿قُتِلَ الخرَّاصونَ﴾؛ أي: قاتل الله الذين كَذَبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل ليُدْحِضوا به الحقَّ، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

﴿١١﴾ ﴿الذين هم في غمرةٍ﴾؛ أي: في لُجَّةٍ من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾.

﴿١٢﴾ ﴿يسألون﴾: على وجه الشكِّ والتكذيب: ﴿أيَّان [يوم الدين][1]﴾: يبعثون؛ أي: متى يُبعثون؟! مستبعدين لذلك!

﴿١٣ ـ ١٤﴾ فلا تسألْ عن حالهم وسوء مآلهم! ﴿يوم هم على النار يُفتنون﴾؛ أي: يعذَّبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويُقالُ لهم: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾؛ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتنوا به من الابتلاء، الذي صيَّرهم إلى الكفر والضلال. ﴿هٰذا﴾: العذابُ الذي وصلتم إليه هو ﴿الذي كنتُم به تستعجلونَ﴾: فالآن تمتَّعوا بأنواع العقاب والنَّكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوَبال.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾.

﴿١٥﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتَّقين وأعمالهم التي وصلوا بها إلى ذلك الجزاء[2]: ﴿إنَّ المتَّقينَ﴾؛ أي: الذين كانت التَّقوى شعارهم وطاعةُ اللهِ دثارهم، ﴿في جناتٍ﴾: مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه، التي يوجد لها نظيرٌ في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظيرٌ، مما لم تنظر العيونُ إلى مثله، ولم تسمع

---

(١) في النسختين: «يبعثون».

(٢) في (ب): «التي أوصلتهم إلى ذلك الجزاء».

الآذانُ، ولم يخطرْ على قلب بشرٍ[1]، ﴿وعيونٍ﴾: سارحة تشرب منها تلك البساتين، ويشربُ بها عبادُ الله يفجِّرونها تفجيراً.

﴿١٦﴾ ﴿آخذينَ ما آتاهم ربُّهم﴾: يُحتملُ أنَّ المعنى أنَّ أهل الجنَّة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذٰلك راضين به، قد قرَّت به أعينُهم، وفرحتْ به نفوسُهم، ولم يطلبُوا منه بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً، وكلٌّ قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد. ويُحتمل أنَّ هٰذا وصف المتَّقين في الدُّنيا، وأنَّهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي؛ أي: قد تلقَّوها بالرحب وانشراح الصدر، منقادين لما أمر الله به بالامتثال على أكمل الوجوه، ولما نهى عنه بالانزجار عنه لله على أكمل وجه؛ فإنَّ الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حقُّها أن تُتَلَقَّى بالشُّكر لله عليها والانقياد.

والمعنى الأول ألصقُ بسياق الكلام؛ لأنَّه ذكر وصفهم في الدُّنيا وأعمالهم بقوله: ﴿إنَّهم كانوا قبل ذٰلك﴾: الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿محسنين﴾: وهٰذا شاملٌ لإحسانهم بعبادة ربِّهم؛ بأن يعبدوه كأنهم يرونه؛ فإنْ لم يكونوا يرونه؛ فإنَّه يراهم، وللإحسان إلى عباد اللّه ببذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاهٍ أو نصيحةٍ أوأمرٍ بمعروف أو نهيٍ عن منكرٍ، أو غير ذٰلك من وجوه البرِّ[2] وطرق الخيرات، حتى إنَّه يدخُلُ في ذٰلك الإحسان بالقول والكلام الليِّن والإحسان إلى المماليك والبهائم المملوكة وغير المملوكة[3].

﴿١٧﴾ ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق صلاةُ الليل الدالَّة على الإخلاص وتواطؤ القلب واللسان، ولهٰذا قال: ﴿كانوا﴾؛ أي: المحسنون، ﴿قليلاً من الليل ما يَهجَعونَ﴾؛ أي: كان هجوعهم؛ أي: نومهم بالليل قليلاً، وأمَّا أكثر الليل؛ فإنَّهم قانتون لربِّهم، ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرُّع.

﴿١٨﴾ ﴿وبالأسحار﴾: التي هي قبيل الفجر، ﴿هم يستغفرونَ﴾: الله تعالى، فمدُّوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل يستغفرون الله تعالى استغفار المذنبِ لذنبه. وللاستغفار بالأسحار فضيلةٌ وخصيصةٌ ليست لغيره؛ كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾.

---

(١) في (ب): «على قلوب العباد». (٢) في (ب): «وجوه الإحسان».

(٣) في (ب): «والبهائم التي تملك والتي لا تملك».

﴿١٩﴾ ﴿وفي أموالهم حقٌّ﴾: واجبٌ ومستحبٌّ ﴿للسائل والمحروم﴾؛ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس والذين لا يسألونهم.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿٢٠﴾ يقول تعالى داعياً عباده إلى التفكُّر والاعتبار: ﴿وفي الأرضِ آياتٌ للموقِنينَ﴾: وذٰلك شاملٌ لنفس الأرض وما فيها من جبال وبحارٍ وأنهارٍ وأشجارٍ ونباتٍ تدلُّ المتفكِّر فيها، المتأمِّل لمعانيها على عظمة خالقها وسعة سلطانه وعميم إحسانه وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن.

﴿٢١﴾ وكذٰلك في نفس العبد من العِبَرِ والحكمة والرحمة ما يدلُّ على أنَّ الله واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ[١]، وأنَّه لم يخلق الخلق سدىً.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وفي السماء رزقُكُم﴾؛ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار؛ الرزق الدينيُّ والدنيويُّ، وما توعدونه من الجزاء في الدنيا والآخرة؛ فإنَّه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

﴿٢٣﴾ فلما بيَّن الآيات ونبَّه عليها تنبيهاً ينتبه به الذكيُّ اللبيبُ؛ أقسم تعالى على أنَّ وعده وجزاءه حقٌّ، وشبَّه ذٰلك بأظهر الأشياء لنا، وهو النُّطق، فقال: ﴿فوربِّ السماءِ والأرضِ إنَّه لَحقٌّ مثلما أنَّكم تَنطِقونَ﴾؛ فكما أنَّكم لا تشكُّون في نطقكم؛ فكذٰلك ينبغي أن لا يعترِيَكم الشكُّ في البعث والجزاء[٢].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ[٣] ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ

---

(١) في (ب): «ما يدلُّ على أن الله وحده الأحد الفرد الصمد».
(٢) في (ب): «في البعث بعد الموت».
(٣) في (ب): لم تذكر الآيات التي بعدها.

رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ
﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿٢٤﴾ يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾؛ أي: أما جاءك؟ ﴿حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المُكْرَمينَ﴾: ونبأُهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوطٍ، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاؤوه في صورة أضياف.

﴿٢٥﴾ ﴿إذْ دَخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾: مجيباً لهم: ﴿سلامٌ﴾؛ أي: عليكم، ﴿قومٌ منكَرون﴾؛ أي: أنتم قوم منكَرون، فأحبُّ أن تعرِّفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلَّا بعد ذلك.

﴿٢٦﴾ ولهذا راغ ﴿إلى أهلِهِ﴾؛ أي: ذهب سريعاً في خفيةٍ ليحضر لهم قِراهم، ﴿فجاء بعجلٍ سمينٍ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿فقرَّبه إليهم﴾: وعرض عليهم الأكل، فـ﴿قَالَ ألا تأكُلونَ﴾؟

﴿٢٨﴾ ﴿فأوجسَ منهم خيفةً﴾: حين رأى أيديهم لا تصلُ إليه، ﴿قالوا لا تخفْ﴾: وأخبروه بما جاؤوا له، ﴿وبشَّروه بغلام عليم﴾: وهو إسحاق عليه السلام.

﴿٢٩﴾ فلمَّا سمعت المرأةُ البشارةَ؛ ﴿أقبلتْ﴾: فرحةً مستبشرةً ﴿في صَرَّةٍ﴾؛ أي: صيحة، ﴿فصكَّتْ وجهها﴾: وهذا من جنس ما يجري للنساء عند السرور ونحوه من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وقالتْ عجوزٌ عقيمٌ﴾؛ أي: أنَّى لي الولد وأنا عجوزٌ قد بلغتُ من السنِّ ما لا تلد معه النساء! ومع ذلك؛ فأنا عقيمٌ غير صالح رحمي للولادة أصلاً؛ فثمَّ مانعان، كلٌّ منهما مانعٌ من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هودٍ في قولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ﴾.

﴿٣٠﴾ ﴿قالوا كذلِكِ قال ربُّكِ﴾؛ أي: الله الذي قدَّر ذلك وأمضاه؛ فلا عجب في قدرة الله [تعالى]، ﴿إنَّه هو الحكيم العليم﴾؛ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسعَ كلَّ شيء علماً، فسلِّموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

﴿٣١﴾ ﴿قال فما خطبُكم أيُّها المرسلونَ﴾[1]؛ أي: قال لهم إبراهيم عليه

(١) في (ب): «الآيات».

السلام: ما شأنكم أيُّها المرسلون؟! وماذا تريدون؟! لأنَّه استشعر[١] أنهم رسلٌ أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمَّة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنَّا أرْسِلْنا إلى قوم مجرمينَ﴾: وهم قومُ لوطٍ، قد أجرموا بإشراكهم بالله وتكذيبهم لرسولهم وإتيانهم الفاحشة التي لم يَسْبِقْهم إليها[٢] أحدٌ من العالمين.

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ ﴿لنرسلَ عليهم حجارةً من طينٍ. مسوَّمةً عند ربِّكَ للمسرفينَ﴾؛ أي: معلَّمة على كلِّ حجرٍ اسم[٣] صاحبه؛ لأنَّهم أسرفوا وتجاوزوا الحدَّ. فجعل إبراهيمُ يجادِلُهم في قوم لوطٍ، لعلَّ الله يدفعُ عنهم العذاب، فقيل له[٤]: ﴿يا إبراهيمُ أعْرِضْ عن هٰذا إنَّه قد جاء أمرُ رَبِّك وإنَّهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ﴾.

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ ﴿فأخْرَجْنا من كان فيها من المؤمنينَ. فما وَجَدْنا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين﴾: وهم بيتُ لوطٍ عليه السلام؛ إلَّا امرأتَه؛ فإنَّها من المهلكين.

﴿٣٧﴾ ﴿وتركْنا فيها آيةً للذين يخافون العذابَ الأليمَ﴾: يعتبرون بها ويعلمون أنَّ الله شديدُ العقاب، وأنَّ رسلَه صادقون مصدوقون.

## فصل

## في ذكر بعض ما تضمَّنته هٰذه القصةُ من الحِكَم والأحكام

**منها**: أنَّ من الحكمة قصَّ الله على عباده نبأ الأخيار والفجَّار؛ ليعتبروا بهم[٥]، وأين وصلت بهم الأحوال.

**ومنها**: فضيلة[٦] إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث ابتدأ الله قصَّته بما يدلُّ على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

**ومنها**: مشروعيَّة الضيافة، وأنَّها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله محمداً[٧] وأمته أن يتَّبعوا ملَّته، وساقها الله في هٰذا الموضع على وجه المدح والثناء.

---

(١) في (ب): «أي ما شأنكم وما تريدون لأنه علم..

(٢) في (ب): «قد أجرموا وأشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم عليها».

(٣) في (ب): «سمة».

(٤) في (ب): «قال الله».

(٥) في (ب): «بحالهم».

(٦) في (ب): «فضل».

(٧) في (ب): «هذا النبي».

**ومنها**: أنَّ الضَّيف يُكْرَمُ بأنواع الإكرام؛ بالقول والفعل؛ لأنَّ الله وصف أضياف إبراهيم بأنَّهم مكرمون؛ أي: أكرمهم إبراهيم، ووصفَ الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلاً، ومكرمون أيضاً عند الله [تعالى].

**ومنها**: أنَّ إبراهيم عليه السلام قد كان بيته مأوىً للطارقين والأضياف؛ لأنَّهم دخلوا عليه من غير استئذانٍ، وإنَّما سلكوا طريق الأدب في ابتداء السلام، فردَّ عليهم إبراهيم سلاماً أكملَ من سلامهم وأتمَّ؛ لأنَّه أتى به جملة اسميَّة دالَّة على الثُّبوت والاستقرار.

**ومنها**: مشروعيَّة تعرُّف من جاء إلى الإنسان أو صار له فيه نوعُ اتِّصال؛ لأنَّ في ذٰلك فوائد كثيرة.

**ومنها**: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام؛ حيث قال: ﴿قومٌ منكرون﴾، ولم يقل: أنكرتكم، وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى.

**ومنها**: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها؛ لأن خير البرِّ عاجِلُه، ولهٰذا بادر إبراهيم بإحضار قِرى أضيافه.

**ومنها**: أنَّ الذَّبيحة الحاضرة التي قد أعدَّت لغير الضيف الحاضر إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانةٍ، بل ذٰلك من الإكرام؛ كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أنَّ ضيفه مكرمون.

**ومنها**: ما منَّ الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذٰلك حاضراً لديه[1] وفي بيته معدًا لا يحتاج إلى أن يأتي به[2] من السوق أو الجيران أو غير ذٰلك.

**ومنها**: أنَّ إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمٰن وسيِّد[3] من ضيَّف الضيفان.

**ومنها**: أنَّه قرَّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، فلم يجْعله في موضع ويقولُ لهم تفضَّلوا أو ائتوا عليه؛ لأنَّ هٰذا أيسر وأحسن.

**ومنها**: حسن ملاطفة الضيف في الكلام الليِّن، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه؛

---

(١) في (ب): «عنده».
(٢) في (ب): «أن يستلحقه».
(٣) في (ب): «وكبير».

فإنَّ إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، فقال: ﴿ألا تأكلونَ﴾، ولم يقل: كلوا! ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿ألا تأكلونَ﴾؛ فينبغي للمقتدي به أنْ يستعملَ من الألفاظ الحسنة ما هو المناسب واللائق بالحال؛ كقوله لأضيافه: ألا تأكلون؟ أو: ألا تتفضّلون؟ أو تشرِّفوننا وتحسنون إلينا... ونحو ذٰلك[1].

**ومنها**: أنَّ من خاف من أحدٍ لسبب من الأسباب؛ فإنَّ عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمِّن روعه ويسكِّن جأشه؛ كما قالت الملائكة لإبراهيم لمَّا خافهم: ﴿لا تخفْ﴾، وأخبروه بتلك البشارة السارَّة بعد الخوف منهم.

**ومنها**: شدَّة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صكِّ وجهها وصرَّتها غير المعهودة.

**ومنها**: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: ﴿وفي موسى﴾: وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات والمعجزات الظاهرات آيةٌ للذين يخافون العذاب الأليم.

﴿٣٩﴾ فلمَّا أتى موسى فرعون بذٰلك السلطان المبين؛ تولَّى فرعون ﴿بركنِهِ﴾؛ أي: أعرض بجانبه عن الحقِّ، ولم يلتفتْ إليه، وقدحوا فيه أعظم القدح، فقالوا: ﴿ساحرٌ أو مجنونٌ﴾؛ أي: إن موسى لا يخلوا إمَّا أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذةً ليس من الحقِّ في شيء، وإمَّا أن يكون مجنوناً لا يؤاخَذُ بما صدر منه لعدم عقله! هٰذا وقد علموا ـ خصوصاً فرعون ـ أنَّ موسى صادقٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وجَحَدوا بها واستَيْقَنَتْها أنفسُهم[2] ظلماً وعلوًّا﴾، وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمتَ ما أنزل هٰؤلاءِ إلَّا ربُّ السمٰواتِ والأرض بصائرَ...﴾ الآية.

﴿٤٠﴾ ﴿فأخذْناه وجنودَه فنبَذْناهم في اليمِّ وهو مُليمٌ﴾؛ أي: مذنبٌ طاغٍ عاتٍ على الله، فأخذه [اللَّهُ] أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

---

(١) في (ب): «... أو: ألا تتفضلون علينا، وتشرفونا، وتحسنون إلينا.. ونحوه».
(٢) في (ب): «.. الآية».

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: ﴿و﴾ آية لهم ﴿في عادٍ﴾[1]: القبيلة المعروفة، ﴿إذْ أرسَلْنا عليهم الريحَ العقيمَ﴾؛ أي: التي لا خير فيها، حين كذَّبوا نبيَّهم هوداً عليه السلام.

﴿٤٢﴾ ﴿ما تَذَرُ من شيءٍ أتتْ عليه إلَّا جعَلَتْهُ كالرَّميم﴾؛ أي: كالرِّمم البالية؛ فالذي أهلكهم على قوَّتهم وبطشهم دليلٌ على كمال قوَّته واقتداره، الذي لا يعجِزُه شيء، المنتقم ممَّن عصاه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: ﴿وفي ثمودَ﴾: آيةٌ عظيمةٌ حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذَّبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آيةً مبصرةً، فلم يزدْهم ذلك إلَّا عتوًّا ونفوراً، ﴿قيل لهم تمتَّعوا حتى حينٍ﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿فعَتَوْا عن أمرِ ربِّهم فأخَذَتْهُمُ الصَّاعقةُ﴾؛ أي: الصيحة العظيمة المهلكة، ﴿وهم ينظرونَ﴾: إلى عقوبتهم بأعينهم.

﴿٤٥﴾ ﴿فما استَطاعوا من قيامٍ﴾: ينجون به من العذاب، ﴿وما كانوا منتصِرينَ﴾: لأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذَّبوا نوحاً عليه السلام وفَسَقوا عن أمِر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بماءٍ منهمرٍ[2]، فأغرقهم عن آخرهم، ولم يُبْقِ من الكافرين ديَّاراً. وهذه عادة الله وسنَّته فيمَن عصاه.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿٤٧﴾ يقول تعالى مبيِّناً لقدرته العظيمة: ﴿والسماءَ بَنَيْناها﴾؛ أي: خلقناها

---

(١) في (ب): «أي: ﴿وفي عاد﴾».
(٢) في (ب): «بالماء المنهمر».

وأتقنَّاها وجَعَلْناها سقفاً للأرض وما عليها، ﴿بأيدٍ﴾؛ أي: بقوَّةٍ وقدرةٍ عظيمةٍ، ﴿وإنَّا لَموسعونَ﴾: لأرجائها وأنحائها، وإنَّا لموسعون أيضاً على عبادنا بالرِّزق الذي ما ترك دابَّة في مهامه القفارِ ولُجج البحارِ وأقطار العالم العلويِّ والسفليِّ إلَّا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يُغنيها. **فسبحان** من عمَّ بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعتْ رحمتُه جميع البريَّات.

﴿٤٨﴾ ﴿والأرضَ فَرَشْناها﴾؛ أي: جعلناها فراشاً للخلق يتمكَّنون فيها من كلِّ ما تتعلَّق به مصالحهم من مساكنَ وغراسٍ وزرعٍ وحرثٍ وجلوسٍ وسلوكٍ للسُّبل[1] الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم. ولمَّا كان الفَراشُ قد يكون صالحاً للانتفاع من كلِّ وجهٍ، وقد يكون من وجهٍ دون وجهٍ؛ أخبر تعالى أنه مَهَدَها أحسنَ مهادٍ على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذٰلك، فقال: ﴿فنعمَ الماهِدونَ﴾: الذي مَهَدَ لعبادِهِ ما اقتضتْه حكمتُه ورحمتُه[2].

﴿٤٩﴾ ﴿ومن كلِّ شيءٍ خَلَقْنا زوجين﴾؛ أي: صنفين ذكرٍ وأنثى من كلِّ نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلَّكم تذكَّرونَ﴾: لنعم اللهِ التي أنعم بها عليكم في تقدير ذٰلك وحكمتِهِ؛ حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها؛ لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذٰلك ما يحصل من المنافع.

﴿٥٠﴾ فلما دعا العبادَ إلى النظر إلى آياته[3] الموجبة لخشيته والإنابة إليه؛ أمر بما هو المقصود من ذٰلك، وهو الفرارُ إليه؛ أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبُّه ظاهراً وباطناً، فرارٌ من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، من الغفلة إلى الذِّكر؛ فمن استكمل هٰذه الأمور؛ فقد استكمل الدين كلَّه، وزال عنه المرهوب، وحصل له غايةُ[4] المراد والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فراراً؛ لأنَّ في الرجوع إلى غيره[5] أنواعَ المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواعَ المحابِّ والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفرُّ العبدُ من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكلُّ مَنْ خِفْتَ منه فررتَ منه إلَّا الله تعالى؛ فإنَّه بحسب الخوف منه يكون الفرارُ إليه، ﴿إنِّي لكُم منه نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: منذرٌ لكم من عذاب الله ومخوِّفٌ بيِّن النذارة.

---

(١) في (ب): «للطُّرق».
(٢) في (ب): «رحمته وإحسانه».
(٣) في (ب): «لآياته».
(٤) في (ب): «نهاية».
(٥) في (ب): «لغيره».

﴿٥١﴾ ﴿ولا تَجْعَلوا مع الله إلٰهاً آخرَ﴾: هٰذا من الفرار إلى الله، بل هٰذا أصلُ الفرارِ إليه: أنْ يَفِرَّ العبدُ من اتِّخاذ آلهةٍ غير الله من الأوثان والأندادِ والقبورِ وغيرها مما عُبِدَ من دون الله، ويخلِصَ [العبدُ] لربِّه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿٥٢﴾ يقول الله مسلياً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذِّبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزَّه عنه، وأنَّ هٰذه الأقوال ما زالتْ دأباً وعادةً للمجرمين المكذِّبين للرسل؛ فما أرسل اللهُ من رسول؛ إلَّا رماه قومُه بالسحر أو الجنون.

﴿٥٣﴾ يقول الله تعالى: هٰذه الأقوال التي صَدَرَتْ منهم ـ الأولين والآخرين ـ هل هي أقوالٌ تواصَوْا بها، ولقَّن بعضُهم بعضاً بها؛ فلا يُستغرب بسبب ذٰلك اتِّفاقهم عليها؟! أم ﴿هم قومٌ طاغونَ﴾؛ تشابهتْ قلوبُهم وأعمالهم بالكفر والطُّغيان، فتشابهت أقوالُهم الناشئة عن طغيانهم؟! وهٰذا هو الواقع؛ كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كَفَروا لولا يُكَلِّمُنا الله أو تأتينا آيةٌ كذٰلك قال الذينَ من قَبْلِهِم مثلَ قولِهِم تشابهتْ قلوبُهم﴾، وكذٰلك المؤمنون لـمَّا تشابهتْ قلوبُهم بالإذعان للحقِّ وطلبه والسعي فيه؛ بادروا إلى الإيمان برسُلِهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٤﴾ يقولُ تعالى آمراً رسولَه بالإعراض عن المعرضين المكذِّبين: ﴿فتولَّ عنهم﴾؛ أي: لا تبالِ بهم، ولا تؤاخِذْهم، وأقبِلْ على شأنك؛ فليس عليك لومٌ في ذنبهم، وإنَّما عليك البلاغُ، وقد أدَّيت ما حملتَ وبلَّغتَ ما أرسلت به.

﴿٥٥﴾ ﴿وذكِّرْ فإنَّ الذِّكرى تنفعُ المؤمنين﴾: والتَّذكير نوعان: تذكيرٌ بما لم يُعْرَفْ تفصيله مما عُرِفَ مجملُه بالفِطَر والعقول[1]؛ فإنَّ الله فطر العقول على محبَّة الخير وإيثاره وكراهة الشرِّ والزُّهد فيه، وشرعُه موافقٌ لذٰلك؛ فكل أمرٍ ونهيٍ من

(١) في (ب): «مما عرف في الفطر والعقول مجملة».

الشرع؛ فهو[١] من التذكير، وتمامُ التذكير أن يذكر ما في المأمور من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهيِّ عنه من المضارِّ. والنوع الثاني من التذكير: تذكيرٌ بما[٢] هو معلومٌ للمؤمنين، ولكن انسحبتْ عليه الغفلةُ والذُّهول، فيذكَّرون بذلك، ويكرَّر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا، ويعملوا بما تَذَكَّروه من ذلك، وليحدثَ لهم نشاطاً وهمَّة توجب لهم الانتفاع والارتفاع. وأخبر الله أنَّ الذِّكرى تنفع المؤمنين؛ لأنَّ ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتِّباع رضوان الله يوجب لهم أن تنفع فيهم الذِّكرى وتقع الموعظة منهم[٣] موقعها؛ كما قال تعالى: ﴿فذكِّرْ إن نفعتِ الذِّكرى. سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشى. وَيَتَجَنَّبُها الأشقى﴾، وأما من ليس معه إيمانٌ ولا استعدادٌ لقبول التذكير؛ فهٰذا لا ينفع تذكيره؛ بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً. وهٰؤلاء الصنف لو جاءتهم كلُّ آية؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿٥٦﴾ هٰذه الغاية التي خَلَقَ الله الجنَّ والإنس لها، وبعث جميعَ الرسل يدعون إليها، وهي[٤] عبادتُه المتضمِّنة لمعرفته ومحبَّته والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه، وذٰلك متوقِّف على معرفة الله تعالى[٥]؛ فإنَّ تمام العبادة متوقِّف على المعرفةِ بالله[٦]، بل كلَّما ازداد العبد معرفةً بربِّه[٧]؛ كانت عبادته أكمل؛ فهٰذا الذي خلق الله المكلَّفين لأجله؛ فما خَلَقَهم لحاجة منه إليهم.

﴿٥٧﴾ فما يريد ﴿منهم من رزقٍ وما﴾ يريدُ ﴿أن يطعمونِ﴾: تعالى الغنيُّ المغني عن الحاجة إلى أحدٍ بوجه من الوجوه، وإنَّما جميع الخلق فقراءُ إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضروريَّة وغيرها.

﴿٥٨﴾ ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الله هو الرزَّاقُ﴾؛ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابَّةٍ في الأرض ولا في السماء إلَّا على الله رزقُها، ويعلمُ مستقرَّها ومستودَعَها، ﴿ذو

(١) في (ب): «فكل ما أمر به ونَهَى من الشرع فإنه».
(٢) في (ب): «ما».
(٣) في (ب): «وتقع منهم الموعظة».
(٤) في (ب): «وهو».
(٥) في (ب): «وذلك يتضمن معرفته تعالى».
(٦) في (ب): «لله».
(٧) في (ب): «لربه».

القوّةِ المتينُ﴾؛ أي: الذي له القوة والقدرةُ كلُّها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفليَّة والعلويَّة، وبها تصرَّف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريَّات؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجِزُه هاربٌ، ولا يخرج عن سلطانه أحدٌ، ومن قوَّته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوَّته أنه يبعث الأموات بعدما مزَّقهم البِلى، وعصفت بهم[1] الرياحُ، وابتلعتْهم الطيور والسِّباع، وتفرَّقوا وتمزَّقوا في مهامه القفار ولُجج البحار؛ فلا يفوته منهم أحدٌ، ويعلم ما تَنْقُصُ الأرضُ منهم؛ فسبحان القويِّ المتين.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٥٩﴾ أي: ﴿فإنَّ للذين ظلموا﴾: بتكذيبهم محمداً ﷺ من العذاب والنَّكال ﴿ذَنوباً﴾؛ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فُعِلَ بأصحابهم من أهل الظُّلم والتكذيب، ﴿فلا يستعجلونَ﴾: بالعذاب؛ فإنَّ سنة الله في الأمم واحدةٌ؛ فكلُّ مكذِّب يدوم على تكذيبه من غير توبةٍ وإنابةٍ؛ فإنَّه لا بدَّ أن يقع عليه العذابُ ولو تأخَّر عنه مدَّة.

﴿٦٠﴾ ولهٰذا توعَّدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فويلٌ للذين كفروا من يومهمُ الذي يوعَدون﴾: وهو يومُ القيامةِ، الذي قد وُعِدوا فيه بأنواع العذاب والنَّكال [والسلاسل] والأغلال؛ فلا مغيثَ ولا منقذَ لهم من عذاب الله. نعوذ بالله منه.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة والطور

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ

---

(١) في (ب): «بترابهم».

يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١﴾ يقسم تعالى بهٰذه الأمور العظيمة المشتملة على الحِكَم الجليلة على البعث والجزاء للمتَّقين وللمكذِّبين[1]، فأقسم بالطور، وهو الجبلُ الذي كلَّم الله عليه موسى بن عمران عليه الصلاة السلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذٰلك من المنَّة عليه وعلى أمَّته ما هو من آيات الله العظيمة ونعمه التي لا يَقْدِرُ العباد لها على عدٍّ ولا ثمن.

﴿٢﴾ ﴿وكتابٍ مسطورٍ﴾: يُحتمل أنَّ المراد به اللوحُ المحفوظ، الذي كتب الله به كلَّ شيءٍ، ويُحتمل أنَّ المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل الكتب[2]، أنزله الله محتوياً على نبأ الأوَّلين والآخرين وعلوم السَّابقين واللاحقين.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿في رَقٍّ﴾؛ أي: ورقٍ ﴿منشورٍ﴾؛ أي: مكتوبٍ، مسطرٍ، ظاهرٍ غير خفيٍّ، لا تخفى حالُه على كلِّ عاقلٍ بصيرٍ.

﴿٤﴾ ﴿والبيت المعمورِ﴾: وهو البيتُ الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، [الذي] يدخُله كلَّ يوم سبعون ألف مَلَك، يتعبَّدون فيه لربِّهم، ثمَّ لا يعودون إليه إلى يوم القيامةِ، وقيل: إنَّ البيت المعمور هو بيت الله الحرام المعمور بالطائفين والمصلِّين والذَّاكرين كلَّ وقت وبالوفود إليه بالحجِّ والعمرة؛ كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهٰذا البلدِ الأمين﴾، وحقيقٌ ببيت هو أفضل بيوت الأرض، الذي يَقْصِدُه الناس بالحجِّ والعمرة، أحد أركان الإسلام ومبانيه العظام، التي لا يتمُّ إلَّا بها، وهو الذي بناه إبراهيمُ وإسماعيلُ، وجعله الله مثابةً للناس وأمناً؛ أنْ يُقْسِمَ الله به، ويبيِّن من عظمته ما هو اللائقُ به وبحرمته.

﴿٥﴾ ﴿والسقفِ المرفوع﴾؛ أي: السماء التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات وبناءً للأرض تستمدُّ منها أنوارها، ويُقتدى بعلاماتها ومنارها، ويُنْزِلُ اللهُ منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿٦﴾ ﴿والبحر المَسْجورِ﴾: أي: المملوء ماءً، قد سجره الله ومنعه من أن يَفيضَ على وجه الأرض، مع أنَّ مقتضى الطبيعة أن يغمرَ وجه الأرض، ولكنَّ

---

(١) في (ب): «والمكذبين».

(٢) في (ب): «الكتاب».

حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان؛ ليعيش مَنْ على وجه الأرض من أنواع الحيوان[١]. وقيل: إنَّ المراد بالمسجور: الموقَد، الذي يوقَدُ ناراً يوم القيامةِ، فيصير ناراً تَلَظَّى، ممتلئاً على سعته من أصناف العذاب.

﴿٧﴾ هٰذه الأشياء التي أقسم الله بها ممَّا يدلُّ على أنَّها من آيات الله وأدلَّة توحيده وبراهين قدرته وبعثه الأموات، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ عذابَ ربِّك لواقعٌ﴾؛ أي: لابدَّ أن يقع، ولا يخلفُ اللهُ وعده وقيله.

﴿٨﴾ ﴿ما له من دافع﴾: يدفعُه، ولا مانع يمنعُه، لأنَّ قدرة الله لا يغالبها مغالبٌ ولا يفوتها هاربٌ.

﴿٩﴾ ثم ذكر وصفَ ذٰلك اليوم الذي يقع فيه[٢] العذابُ، فقال: ﴿يوم تمورُ السَّماء مَوْراً﴾؛ أي: تدور السماء وتضطرب وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكونٍ.

﴿١٠﴾ ﴿وتسير الجبالُ سيراً﴾؛ أي: تزولُ عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلوَّن كالعهن المنفوش، وتبثُّ بعد ذٰلك حتى تصير مثل الهباء، وذٰلك كلُّه لعظم هول يوم القيامةِ؛ [وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة] فكيف بالآدميِّ الضعيف؟!

﴿١١﴾ ﴿فويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: والويل كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ عقوبةٍ وحزنٍ وعذابٍ وخوفٍ[٣].

﴿١٢﴾ ثم ذَكَرَ وصفَ المكذِّبين، الذين استحقُّوا به الويل، فقال: ﴿الذين هم في خَوْضٍ يلعبون﴾؛ أي: خوض بالباطل[٤] ولعب به؛ فعلومُهم وبحوثهم بالعلوم الضارَّة المتضمِّنة للتكذيب بالحقِّ والتصديق بالباطل، وأعمالُهم أعمال أهل الجهل والسَّفَه واللعب؛ بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ﴿يومَ يُدَعُّونَ إلى نار جهنَّم دعاً﴾؛ أي: [يوم] يُدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويجرون على وجوههم، ويُقال لهم توبيخاً ولوماً: ﴿هٰذه النارُ التي كنتمُ بها تكذِّبون﴾: فاليوم ذوقوا عذابَ الخُلد الذي لا يُبْلَغُ قدرهُ ولا يوصَفُ أمره.

---

(١) في (ب): «الحيوانات».
(٢) في (ب): «به».
(٣) في (ب): «وخوف وعذاب».
(٤) في (ب): «في الباطل».

﴿١٥﴾ ﴿أفسحرٌ هٰذا أم أنتم لا تُبصرونَ﴾: **يحتمل** أنَّ الإشارة إلى النار والعذاب؛ كما تدلُّ عليه سياق الآيات[(١)]؛ أي: لما رأوا النار والعذاب؛ قيل لهم من باب التقريع: أهٰذا سحرٌ لا حقيقة له؛ فقد رأيتموه؟! أم أنتم في الدُّنيا لا تبصرون؛ أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندَكم، بل كنتُم جاهلين بهٰذا الأمر، لم تقمْ عليكم الحجَّة؟! والجواب انتفاء الأمرين: أمَّا كونُه سحراً؛ فقد ظهر لهم أنَّه أحقُّ الحقِّ وأصدق الصدق المنافي[(٢)] للسحر من جميع الوجوه. وأمَّا كونُهم لا يبصرون؛ فإنَّ الأمر بخلاف ذٰلك، بل حجَّة اللّه قد قامت عليهم، ودعتهُمُ الرُّسل إلى الإيمان بذٰلك، وأقامت من الأدلَّة والبراهين على ذٰلك ما يجعله من أعظم الأمور المبرهَنَة الواضحة الجليَّة.

**ويُحتمل** أنَّ الإشارة بقولِهِ: ﴿أفسحرٌ هٰذا أم أنتُم لا تبصرونَ﴾: إلى ما جاء به محمدٌ ﷺ من الحقِّ المبين والصراط المستقيم؛ أي: أفيتصوَّر مَن له عقلٌ أن يقولَ عنه: إنَّه سحرٌ، وهو أعظم الحقِّ وأجلُّه، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا[(٣)].

﴿١٦﴾ ﴿اصْلَوْها﴾؛ أي: ادخلوا النار على وجهٍ تحيطُ بكم وتشملُ[(٤)] أبدانكم وتطَّلع على أفئدتكم، ﴿فاصْبِروا أو لا تصبروا سواءٌ عليكم﴾؛ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسَّى بعضُكم ببعض، ولا يخفَّف عنكم العذاب، وليست[(٥)] من الأمور التي إذا صبر العبدُ عليها هانت مشقَّتها وزالت شدَّتها، وإنَّما فُعِلَ بهم ذٰلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، ولهٰذا قال: ﴿إنَّما تُجزَوْن ما كنتم تعملونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٧﴾ لمَّا ذكر تعالى عقوبة المكذِّبين؛ ذكر نعيم المتَّقين؛ ليجمع بين الترغيب

---

(١) في (ب): «الآية». (٢) في (ب): «المخالف».

(٣) في (ب): «ويحتمل أن الإشارةَ إلى ما جاء به الرسول من الحقِّ المبين والصراط المستقيم؛ أي: أهذا الذي جاء به محمد ﷺ سحرٌ أم عدم بصيرة بكم حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقةُ الأمرِ أنه أوضحُ من كلِّ شيءٍ، وأحقُّ الحقِّ، وأنَّ حجة اللّهِ قامت عليهم».

(٤) في (ب): «وتستوعب جميع». (٥) في (ب): «وليس».

والترهيب، فتكون القلوبُ بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إنَّ المتَّقين﴾: لربِّهم، الذين اتَّقوا سخطه وعذابه بفعلِ أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي، ﴿في جنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفَّة والأنهار المتدفِّقة والقصور المُخْدِقة والمنازل المُزَخْرَفة، ﴿ونعيمٍ﴾: وهٰذا شاملٌ لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿١٨﴾ ﴿فاكهين بما آتاهم ربُّهم﴾؛ أي: معجبين به، متمتِّعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفُه، و ﴿لا تعلمُ نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرَّةِ أعينٍ﴾، ﴿ووقاهم ربُّهم عذابَ الجحيم﴾: فرزقهم المحبوب، ونجَّاهم من المرهوب، لمَّا فعلوا ما أحبَّه [اللَّهُ] وجانبوا ما يسخطه.

﴿١٩﴾ ﴿كلوا واشربوا﴾؛ أي: مما تشتهيه أنفسكم من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة ﴿هنيئاً﴾؛ أي: متهنِّئين بذٰلك[(١)] على وجه البهجة والفرح والسرور والحبور، ﴿بما كنتُم تعملون﴾؛ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة.

﴿٢٠﴾ ﴿متَّكِئينَ على سررٍ مصفوفةٍ﴾: الاتِّكاء هو الجلوس على وجه التمكُّن والراحة والاستقرار، والسرر هي الأرائك المزيَّنة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية. ووصف الله السُّرر بأنها مصفوفةٌ؛ ليدلَّ ذلك على كثرتها وحسن تنظيمها واجتماع أهلها وسرورهم بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضاً[(٢)]. فلمَّا اجتمع لهم من نعيم القلب والرُّوح والبدن ما لا يخطُرُ بالبال ولا يدور في الخيال من المآكل والمشارب اللذيذة[(٣)] والمجالس الحسنة الأنيقة؛ لم يبق إلَّا التمتُّع بالنساء اللاتي لا يتمُّ سرورٌ إلَّا بهنَّ، فذكر تعالى أنَّ لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهٰذا قال: ﴿وزوَّجْناهم بحورٍ عينٍ﴾: وهنَّ النساء اللواتي قد جَمَعْنَ جمال الصورة الظاهرة وبهاءها ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيِّرْنَ بحسنهنَّ الناظرين، ويسلبنَ عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطير[(٤)] شوقاً إليهن ورغبةً في وصالهنَّ، والعِيْن: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

---

(١) في (ب): «بتلك المآكل والمشارب».
(٢) في (ب): «ولطف كلام بعضهم لبعض».
(٣) في (ب): «لا يتم سرور بدونهنَّ».
(٤) في (ب): «تطيش».

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢١﴾ وهٰذا من تمام نعيم [أهلِ] الجنَّة: أنْ ألحقَ الله بهم ذُرِّيَّتهم الذين اتَّبعوهم بإيمان؛ أي: لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذُّرِّية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى؛ إذا تبعتهم ذُرِّيَّتهم بإيمانهم الصادر من أنفسهم؛ فهٰؤلاء المذكورون يُلْحِقُهُمُ اللهُ بمنازل آبائهم في الجنة، وإن لم يبلغوها؛ جزاءً لآبائهم، وزيادةً في ثوابهم، ومع ذٰلك؛ لا يَنْقُصُ اللهُ الآباء من أعمالهم شيئاً. ولمَّا كان ربَّما توهَّم متوهِّم أن أهل النار كذٰلك يُلْحِقُ اللهُ بهم ذرِّيَّتهم[1]؛ أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً؛ فإنَّ النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذِّب أحداً إلَّا بذنبٍ، ولهٰذا قال: ﴿كلُّ امرىءٍ بما كَسَبَ رهينٌ﴾؛ أي: مرتهنٌ بعمله؛ فلا[2] تزر وازرةٌ وزرَ أخرى، ولا يُحْمَلُ على أحدٍ ذنبُ أحدٍ، فهٰذا[3] اعتراضٌ من فوائده إزالة هٰذا الوهم المذكور.

﴿٢٢﴾ وقوله: ﴿وأمددْناهم﴾؛ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العميم، ﴿بفاكهةٍ﴾: من العنب والرُّمان والتُّفاح وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوَّتون، ﴿ولحمٍ ممَّا يشتهونَ﴾: من كلِّ ما طلبوه واشتهته أنفسُهم من لحوم[4] الطير وغيرها.

﴿٢٣﴾ ﴿يتنازَعون فيها كأساً﴾؛ أي: تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطَونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدانُ المخلَّدون بأكواب وأباريق. ﴿لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ﴾؛ أي: ليس في الجنَّة كلامُ لغوٍ، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثمٌ ومعصيةٌ. وإذا انتفى الأمران؛ ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامَهم فيها سلامٌ طيبٌ طاهرٌ مسرٌّ للنفوس مفرحٌ للقلوب، يتعاشرون أحسن

---

(١) في (ب): «أبناءَهم وذريتهم».
(٢) في (ب): «لا».
(٣) في (ب): «هذا».
(٤) في (ب): «لحم».

عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربِّهم إلَّا ما يُقِرُّ أعينَهم ويدلُّ على رضاه عنهم ومحبَّته لهم.

﴿٢٤﴾ ﴿ويطوف عليهم غلمانٌ لهم﴾؛ أي: خدمٌ شبابٌ، ﴿كأنَّهم لؤلؤٌ [مكنون][١]﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء أشغالهم[٢]، وهٰذا يدلُّ على كثرة نعيمهم وسعته وكمال راحتهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وأقبلَ بعضُهم على بعض يتساءلونَ﴾: عن أمور الدُّنيا وأحوالها.

﴿٢٦﴾ ﴿قالوا﴾: في ذكر بيان الذي أوصلَهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور: ﴿إنَّا كنَّا قبلُ﴾؛ أي: في دار الدُّنيا ﴿في أهلِنا مشفقينَ﴾؛ أي: خائفين وجِلين، فتركْنا من خوفه الذُّنوب، وأصلحنا لذٰلك العيوب.

﴿٢٧﴾ ﴿فمنَّ اللهُ علينا﴾: بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذابَ السَّموم﴾؛ أي: العذاب الحار الشديد حرُّه.

﴿٢٨﴾ ﴿إنَّا كنَّا من قبلُ ندعوه﴾: أن يَقِيَنا عذابَ السَّموم، ويوصِلَنا إلى النعيم، وهٰذا شاملٌ لدعاء العبادة ودعاء المسألة؛ أي: لم نزل نتقرَّب إليه بأنواع العبادات[٣]، وندعوه في سائر الأوقات. ﴿إنَّه هو البرُّ الرحيم﴾: فمن برِّه [بنا] ورحمته إيَّانا أنالَنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ
ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ
طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾
أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ
﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ
فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

(١) في النسختين: «منثور». وصوِّبت (أ) بخط مغاير إلى: «مكنون».

(٢) في (ب): «وقضاء ما يحتاجون إليه». (٣) في (ب): «القربات».

﴿٢٩﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يُذَكِّرَ الناس مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجَّة الله على الظَّالمين، ويهتدي بتذكيره الموفَّقون، وأن لا يبالي بقول المشركين المكذِّبين وأذيَّتهم وأقوالهم التي يَصدُّون بها الناس عن اتِّباعه، مع علمهم أنَّه أبعدُ الناس عنها، ولهٰذا نفى عنه كلَّ نقص رَمَوْه به، فقال: ﴿فما أنتَ بنعمةِ ربِّكَ﴾؛ أي: منَّه ولطفه ﴿بكاهنٍ﴾؛ أي: له رِئيٌّ من الجنِّ يأتيه بخبر[1] بعض الغيوب التي يضمُّ إليها مئة كذبةٍ، ﴿ولا مجنونٍ﴾: فاقد العقل[2]، بل أنت أكملُ الناس عقلاً، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقاً، وأجلُّهم، وأكملهم.

﴿٣٠﴾ وتارةً ﴿يقولون﴾ فيه: إنَّه ﴿شاعرٌ﴾: يقول الشعر، والذي جاء به شعرٌ، والله يقول: ﴿وما علَّمناه الشعرَ وما ينبغي له﴾، ﴿نتربَّصُ به ريبَ المَنونِ﴾؛ أي: ننتظر به الموتَ، فيبطُلُ[3] أمرُه ونستريح منه.

﴿٣١﴾ ﴿قل﴾: لهم جواباً لهٰذا الكلام السخيف: ﴿تربَّصوا﴾؛ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فإنِّي معكم من المتربِّصين﴾: نتربَّص بكم أن يصيبكم الله بعذابٍ من عنده، أو بأيدينا.

﴿٣٢﴾ ﴿أم تأمُرُهم أحلامُهم بهٰذا أم هم قومٌ طاغونَ﴾؛ أي: أهٰذا التكذيبُ لك والأقوال التي قالوها؛ هل صدرتْ عن عقولِهم وأحلامِهم؛ فبئس العقولُ والأحلامُ التي هٰذه نتائجها وهٰذه ثمراتها[4]؛ فإنَّ عقولاً جعلتْ أكملَ الخلق عقلاً مجنوناً، وجعلت أصدقَ الصِّدق وأحقَّ الحقِّ كذِباً وباطلاً؛ لهي العقول التي ينزَّه المجانين عنها؟ أم الذي حملهم على ذٰلك ظلمُهم وطغيانُهم؟ وهو الواقع؛ فالطغيانُ ليس له حدٌّ[5] يقف عليه؛ فلا يُستغرب من الطاغي المتجاوزِ الحدَّ[6]، كلُّ قول وفعل صَدَرَ منه.

﴿٣٣﴾ ﴿أم يقولون تَقَوَّلَه﴾؛ أي: تقوَّل محمدٌ القرآن وقاله من تلقاء نفسه، ﴿بل لا يؤمنونَ﴾؛ فلو آمنوا؛ لم يقولوا ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فلْيَأتوا بحديثٍ مثلِهِ إنْ كانوا صادقينَ﴾: إنَّه تقوَّله؛ فإنَّكم العرب الفصحاء والفحول البلغاء، وقد تحدَّاكم أن تأتوا بمثلِهِ؛ فتصدق معارضتكم، أو

---

(١) في (ب): «بأخبار». (٢) في (ب): «للعقل».
(٣) في (ب): «نتربص به الموت وننتظره فيه فسيبطل».
(٤) التي أثرت ما أثرت وصدر منها ما صدر». (٥) في (ب): «لا حدَّ له».
(٦) في (ب): «للحدِّ».

تقرُّوا بصدقه، وإنكم لو اجتمعتم أنتم والإنس والجنُّ؛ لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله؛ فحينئذٍ أنتم بين أمرين: إمَّا مؤمنون به مقتدون[١] بهديِهِ، وإمَّا معاندون متَّبعون لما علمتُم من الباطل.

﴿٣٥﴾ ﴿أم خُلِقوا من غير شيءٍ أم هُمُ الخالقونَ﴾: وهٰذا استدلالٌ عليهم بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلَّا التَّسليمُ للحقِّ، أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذٰلك أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذِّبون لرسوله، وذٰلك مستلزمٌ لإنكار أنَّ الله خَلَقَهم، وقد تقرَّر في العقل مع الشرع أنَّ ذٰلك لا يخلو[٢] من **أحد ثلاثة أمورٍ**: **إمَّا** أنهم ﴿خُلِقوا من غير شيءٍ﴾؛ أي: لا خالق خلقهم؛ بل وجدوا من غير إيجادٍ ولا موجدٍ؛ وهٰذا عينُ المحال. ﴿أم هم الخالقونَ﴾: لأنفسِهم؛ وهٰذا أيضاً محالٌ؛ فإنَّه لا يتصوَّر أن يوجِدَ أحدٌ نفسَه. فإذا بطل هٰذان الأمران وبانَ استحالتُهما؛ تعيَّن **القسم الثالثُ، وهو أنَّ الله** هو الذي خلقهم. وإذا تعين ذٰلك؛ عُلِمَ أنَّ الله[٣] تعالى هو المعبودُ وحدَه، الذي لا تنبغي العبادة ولا تَصْلُح إلَّا له تعالى.

﴿٣٦﴾ وقوله: ﴿أم خَلَقوا السمٰواتِ والأرضَ﴾: وهٰذا استفهامٌ يدلُّ على تقرير النفي؛ أي: ما خلقوا السماواتِ والأرضَ، فيكونوا شركاء لله، وهٰذا أمرٌ واضحٌ جدًّا. ﴿بل﴾ المكذبونَ[٤] ﴿لا يوقنونَ﴾؛ أي: ليس عندهم [علم تامٌّ و] يقينٌ يوجب لهم الانتفاع بالأدلَّة الشرعيَّة والعقليَّة.

﴿٣٧﴾ ﴿أمْ عندَهم خزائنُ ربِّك أم هم المُصَيطِرونَ﴾؛ أي: أعند هٰؤلاء المكذِّبين خزائنُ رحمة ربِّك، فيعطوا[٥] من يشاؤون ويمنعوا من يشاؤون[٦]؛ أي: فلذٰلك حجروا على الله أن يُعطي النبوَّة عبدَه ورسولَه محمداً ﷺ، وكأنَّهم الوكلاء المفوَّضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقرُ وأذلُّ من ذٰلك؛ فليس في أيديهم لأنفسهم نفعٌ ولا ضرٌّ ولا موتٌ ولا حياةٌ ولا نشورٌ؛ ﴿أهم يقسِمونَ رحمةَ ربِّك نحنُ قَسَمْنا بينهم معيشَتَهم في الحياة الدُّنيا﴾؟ ﴿أم هم المُصَيطِرُونَ﴾؛ أي: المتسلِّطون على خلق الله وملكه بالقهر والغلبة؟! ليس الأمر كذٰلك، بل هم العاجزون الفقراء.

---

(١) في (ب): «مهتدون».
(٢) في (ب): «أن الأمور لا تخلو».
(٣) في (ب): «علم أنه تعالى».
(٤) في (ب): «ولكن المكذبين».
(٥) في (ب): «فيعطون».
(٦) في (ب): «يريدون».

﴿٣٨﴾ ﴿أم لهم سُلَّمٌ يستمعون فيه﴾؛ أي: ألهم اطِّلاع على الغيب واستماعٌ له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمورٍ لا يعلمُها غيرُهم، ﴿فليأتِ مستمِعُهم﴾: المدَّعي لذلك ﴿بسلطانٍ مبينٍ﴾: وأنَّى له ذلك والله تعالى عالم الغيب والشهادة؛ فلا يُظْهِرُ على غيبه أحداً؛ إلَّا من ارتضى من رسولٍ يخبره بما أراد من علمِهِ، وإذا كان محمدٌ ﷺ، أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به من توحيد الله ووعده ووعيده وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذِّبون هم أهل الجهل والضَّلال والغيِّ والعناد؛ فأيُّ المخبرين أحقُّ بقَبول خبره، خصوصاً والرسول ﷺ قد أقام من الأدلَّة والبراهين على ما أخبر به ما يوجِبُ أن يكون ذلك[1] عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يُقيموا على ما ادَّعَوْه شبهةً فضلاً عن إقامة حجَّة؟!

﴿٣٩﴾ وقوله: ﴿أم له البناتُ﴾: كما زعمتُم، ﴿ولكم البنونَ﴾: فتجمعون بين المحذورَيْن: جَعْلُكُم له الولد، واختيارُكم له أنقص الصنفين؛ فهل بعد هذا التنقُّص لربِّ العالمين غايةٌ أو دونه نهايةٌ؟!

﴿٤٠﴾ ﴿أم تسألُهم﴾: يا أيُّها الرسولُ، ﴿أجراً﴾: على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ﴾: ليس الأمر كذلك، بل أنت الحريص على تعليمهم تبرُّعاً من غير شيءٍ، بل تبذلُ لهم الأموالَ الجزيلة على قَبول رسالتك والاستجابة لأمرِك ودعوتك[2]، وتعطي المؤلَّفة قلوبهم؛ ليتمكَّن العلم والإيمان من قلوبهم.

﴿٤١﴾ ﴿أم عندَهم الغيبُ فهم يكتبونَ﴾: ما كانوا يعلمونَه من الغُيوب، فيكونون قد اطَّلعوا على ما لم يطَّلع عليه رسولُ الله، فعارضوه وعاندوه بما عندَهم من علم الغيب، وقد عُلِمَ أنَّهم الأمَّة الأميَّة الجهَّال الضَّالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ من الخلق، وهذا كلُّه إلزامٌ لهم بالطرق العقليَّة والنقليَّة على فساد قولهم وتصوير بطلانِهِ بأحسن الطُّرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿أم يريدون﴾: بقدحِهِم فيك وفيما جئتَ به ﴿كيداً﴾: يُبْطلونَ به دينَك، ويفسدون به أمرَك. ﴿فالذين كفروا هُمُ المَكيدونَ﴾؛ أي: كيدُهم في نحورهم، ومضرَّته عائدةٌ إليهم، وقد فعل الله ذلك، ولله الحمد، فلم يُبْقِ الكفارُ

---

(١) في (ب): «خبره».

(٢) في (ب): «والاستجابة لدعوتك».

من مقدورهم من المكر شيئاً إلَّا فعلوه، فنصر الله نبيَّه عليهم، وأظهر دينَه[١]، وخَذَلَهم وانتصر منهم.

﴿٤٣﴾ ﴿أم لهم إلهٌ غير اللهِ﴾؛ أي: ألهم إلٰهٌ يُدعى ويرجى نفعُه ويُخاف من ضرِّه غير الله تعالى؟ ﴿سبحان اللهِ عمَّا يشرِكون﴾: فليس له شريكٌ في الملك، ولا شريكٌ في الوحدانيَّة والعبادة، وهٰذا هو المقصود من الكلام الذي سيق لأجله، وهو بطلانُ عبادة ما سوى الله، وبيانُ فسادها بتلك الأدلَّة القاطعة، وأنَّ ما عليه المشركون هو الباطلُ، وأنَّ الذي ينبغي أن يُعْبَدَ ويصلَّى له ويُسْجَدَ ويُخْلَصَ له دعاءُ العبادة ودعاءُ المسألة هو الله المألوهُ المعبود، كاملُ الأسماء والصفاتِ، كثيرُ النعوتِ الحسنة والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام والعزِّ الذي لا يُرام، الواحد الأحدُ، الفردُ الصمدُ، الكبيرُ الحميدُ المجيدُ.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٤﴾ يقول تعالى في ذكر بيان أنَّ المشركين المكذِّبين بالحقِّ الواضح قد عَتَوا عن الحقِّ وعسوا على الباطل، وأنَّه لو قام على الحقِّ كلُّ دليل؛ لما اتَّبعوه، ولخالفوه وعاندوه: ﴿وإنْ يروا كِسْفاً من السماء ساقطاً﴾؛ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كِسْفٌ[٢]؛ أي: قطعٌ كبارٌ[٣] من العذاب، ﴿يقولوا سحابٌ مركومٌ﴾؛ أي: هٰذا سحابٌ متراكمٌ على العادة؛ أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات، ولا يعتبرون بها!

﴿٤٥﴾ وهٰؤلاء لا دواء لهم إلَّا العذاب والنَّكال، ولهٰذا قال: ﴿فَذَرْهُم حتى يُلاقوا يومَهم الذي فيه يُصْعَقون﴾: وهو يوم القيامةِ، الذي يصيبهم فيه من العذاب ما لا يقادَرُ قَدْرُه ولا يوصَف أمرُه.

﴿٤٦﴾ ﴿يوم لا يُغْني عنهم كيدُهم شيئاً﴾؛ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإنْ كان في الدُّنيا قد يوجد منهم كيدٌ يعيشون به زمناً قليلاً؛ فيوم القيامةِ يضمحلُّ كيدُهم، وتبطلُ مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله، ﴿ولا هم يُنصَرون﴾.

---

(١) في (ب): «فنصر الله نبيه ودينه عليهم». (٢) في (ب): «كسفاً».

(٣) في (ب): «قطعاً كباراً».

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٧﴾ لما ذَكَرَ اللهُ عذابَ الظالمين في الآخرة؛ أخبر أنَّ لهم عذاباً قبل[1] عذاب يوم القيامةِ، وذٰلك شاملٌ لعذاب الدُّنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذابِ البرزخ والقبر. ﴿ولكنَّ أكثرهم لا يعلمونَ﴾؛ أي: فلذٰلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ ولمَّا بيَّن تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذِّبين؛ أمر رسوله ﷺ أن لا يعبأ بهم شيئاً، وأنْ يصبرَ لحكم ربِّه القدريِّ والشرعيِّ؛ بلزومه والاستقامة عليه، وَوَعَدَهُ الله الكفاية[2] بقوله: ﴿فإنَّك بأعيننا﴾؛ أي: بمرأى منَّا وحفظٍ واعتناءٍ بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿وسبِّح بحمد ربِّك حين تقومُ﴾؛ [أي]: من الليل؛ ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقومُ إلى الصلوات الخمس؛ بدليل قوله: ﴿ومن الليل فسبِّحْه وإدْبارَ النُّجومِ﴾؛ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر. والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة والنجم

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): «دون».

(٢) في (ب): «بالكفاية».

﴿١﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هُوِيِّه؛ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار؛ لأنَّ في ذٰلك من الآيات العظيمة ما أوجب أنْ أقسم به، والصحيحُ أنَّ النجم اسم جنسٍ شاملٍ للنُّجوم كلِّها. وأقسم بالنجوم على صحَّة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلٰهيِّ؛ لأنَّ في ذٰلك مناسبةً عجيبةً؛ فإنَّ اللّٰه تعالى جعل النجوم زينةً للسماء؛ فكذٰلك الوحي وآثاره زينةٌ للأرض؛ فلولا العلم الموروث عن الأنبياء؛ لكان الناس في ظلمة أشدَّ من ظلمة الليل البهيم.

﴿٢﴾ والمقسم عليه تنزيه الرسول [ﷺ] عن الضَّلال في علمه والغيِّ في قصده، ويلزم من ذٰلك أن يكون مهتدياً في علمه هادياً حسنَ القصدِ ناصحاً للخلق[(١)]، بعكس ما عليه أهل الضَّلال من فساد العلم وسوء[(٢)] القصد، وقال: ﴿صاحبُكم﴾؛ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصِّدق والهداية، وأنَّه لا يخفى عليهم أمره.

﴿٣ ـ ٤﴾ ﴿وما ينطِقُ عن الهوى﴾؛ أي: ليس نطقُه صادراً عن هوى نفسه. ﴿إن هو إلَّا وحيٌ يُوحى﴾؛ أي: لا يتَّبع إلَّا ما أوحي إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره. ودلَّ هٰذا على أنَّ السنَّة وحيٌ من اللّٰه لرسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وأنزل اللّٰه عليك الكتابَ والحكمةَ﴾. وأنَّه معصومٌ فيما يخبر به عن اللّٰه تعالى وعن شرعه؛ لأنَّ كلامه لا يصدُرُ عن هوى، وإنَّما يصدر عن وحي يوحى[(٣)].

﴿٥﴾ ثم ذكر المعلِّم للرسول [ﷺ]، وهو جبريل عليه السلام، أفضل الملائكة الكرام وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿علَّمه شديدُ القُوى﴾؛ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريلُ عليه السلام، شديدُ القُوى؛ أي: شديد القوَّة الظاهرة والباطنة، قويٌّ على تنفيذ ما أمره اللّٰه بتنفيذه، قويٌّ على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ ومنعه من اختلاس الشياطين له أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهٰذا من حفظ اللّٰه لوحيه؛ أنْ أرسلَه مع هٰذا الرسول القويِّ الأمين.

﴿٦﴾ ﴿ذو مِرَّةٍ﴾؛ أي: قوَّةٍ وخلقٍ حسنٍ وجمال ظاهرٍ وباطنٍ، ﴿فاستوى﴾: جبريلُ عليه السلام.

﴿٧﴾ ﴿وهو بالأفقُ الأعلى﴾؛ أي: أُفق السماء الذي هو أعلى من الأرض[(٤)]؛

---

(١) في (ب): «للأمة».
(٢) في (ب): «فساد».
(٣) في (ب): «عن الوحي».
(٤) في (ب): «الأعلى على الأرض».

فهو من الأرواح العلويَّة، التي لا تنالُها الشياطين ولا يتمكَّنون من الوصول إليها.

﴿٨﴾ ﴿ثم دنا﴾: جبريلُ من النبيِّ ﷺ لإيصال الوحي إليه، ﴿فتدلَّى﴾: عليه من الأفق الأعلى.

﴿٩﴾ ﴿فكان﴾: في قربه منه ﴿قابَ قوسينِ﴾؛ أي: قدر قوسين، والقوس معروفٌ، ﴿أو أدنى﴾؛ أي: أقرب من القوسين. وهٰذا يدلُّ[1] على كمال مباشرته للرسول ﷺ بالرسالة، وأنَّه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿١٠﴾ ﴿فأوحى﴾ اللّهُ بواسطةِ جبريل عليه السلام ﴿إلى عبدِهِ﴾ [محمد ﷺ] ﴿ما أوحى﴾؛ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم والنبأ المستقيم.

﴿١١ ـ ١٢﴾ ﴿ما كَذَبَ الفؤادُ ما رأى﴾؛ أي: اتَّفق فؤادُ الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه اللّه إليه، وتواطأ عليه سمعُه وبصرُه وقلبُه[2]، وهٰذا دليلٌ على كمال الوحي الذي أوحاه اللّه إليه، وأنَّه تلقَّاه منه تلقِّياً لا شكَّ فيه ولا شبهة ولا ريبَ، فلم يكذِبْ فؤادُه ما رأى بَصَرُه، ولم يشكَّ في ذٰلك[3].

ويُحتمل أنَّ المراد بذٰلك ما رأى ﷺ ليلة أسْرِيَ به من آيات اللّه العظيمة، وأنَّه تيقَّنه حقًّا بقلبه ورؤيته، هٰذا هو الصحيحُ في تأويل الآية الكريمة. وقيل: إنَّ المرادَ بذٰلك رؤيةُ الرسول ﷺ لربِّه ليلة الإسراء وتكليمه إيَّاه. وهٰذا اختيار كثيرٍ من العلماء رحمهم اللّه، فأثبتوا بهٰذا رؤية الرسول ﷺ لربِّه في الدنيا.

ولٰكنَّ الصحيح القول الأول، وأنَّ المراد به جبريل عليه السلام؛ كما يدلُّ عليه السياق، وأنَّ محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصليَّة التي هو عليها مرتين[4][5]: مرةً في الأفق الأعلى تحت السماء الدُّنيا كما تقدَّم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أُسْرِيَ برسول اللّه ﷺ.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿ولقد رآه نزلةً أخرى﴾؛ أي: رأى محمدٌ جبريل مرةً أخرى نازلاً إليه، ﴿عند سِدْرَةِ المُنتَهى﴾: وهي شجرةٌ عظيمةٌ جدًّا فوق السماء السابعة، سميت سدرةَ المنتهى؛ لأنَّه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها

---

(١) في (ب): «ليدلَّ».

(٢) في (ب): «قلبه وبصره».

(٣) في (ب): «بذلك».

(٤) أخرجه مسلم (١٧٧) عن حديث عائشة رضي اللّه عنها.

(٥) في (ب): «مرتين مرتين».

ما ينزل من اللّه من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم المخلوقات[١] إليها؛ أي: لكونها فوق السماواتِ والأرض؛ فهي المنتهى في علومها، أو لغير ذٰلك. واللّه أعلم. فرأى محمد ﷺ جبريلَ في ذٰلك المكان الذي هو محلُّ الأرواح العلويَّة الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطانٌ ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

﴿١٥﴾ عند تلك الشجرة، ﴿جنَّة المأوى﴾؛ أي: الجنة الجامعة لكلِّ نعيم؛ بحيث كانت محلًّا تنتهي إليه[٢] الأماني، وترغب فيها الإرادات، وتأوي إليها الرغبات. وهٰذا دليلٌ على أنَّ الجنة في أعلىٰ الأماكن وفوق السماء السابعة.

﴿١٦﴾ ﴿إذْ يغشى السِّدْرة ما يَغْشى﴾؛ أي: يغشاها من أمر اللّه شيءٌ عظيم لا يَعْلَمُ وصفَه إلَّا اللّه عز وجل.

﴿١٧﴾ ﴿ما زاغ البصرُ[٣]﴾؛ أي: ما زاغ يمنةً ولا يسرةً عن مقصوده ﴿وما طغى﴾؛ أي: وما تجاوز البصر. وهٰذا كمال الأدب منه صلوات اللّه وسلامه عليه؛ أنْ قام مقاماً أقامه اللّه فيه، ولم يقصِّرْ عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهٰذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأوَّلين والآخرين؛ فإنَّ الإخلال يكون بأحد هٰذه الأمور: إمَّا أن لا يقوم العبدُ بما أُمِر به، أو يقومَ به على وجه التفريط، أو على وجه الإفراط، أو على وجه الحيدةِ يميناً وشمالاً. وهٰذه الأمور كلُّها منتفيةٌ عنه ﷺ.

﴿١٨﴾ ﴿لقد رأى من آياتِ ربِّه الكُبرى﴾: من الجنَّة والنار وغير ذٰلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أُسْرِي به.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ لما ذَكَرَ تعالى ما جاء به محمدٌ ﷺ من الهدى ودين الحقِّ والأمر بعبادة اللّه وتوحيده؛ ذَكَرَ بطلان ما عليه المشركون من عبادة مَنْ ليس له من

(١) في (ب): «الخلق».
(٢) في (ب): «إليها».
(٣) في (ب): «ما زاغ البصر وما طغى».

أوصاف الكمال شيءٌ ولا تنفع ولا تضرُّ، وإنَّما هي أسماءٌ فارغة من المعنى سمَّاها المشركون هم وآباؤهم الجهَّال الضلاَّل، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقُّها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضُّلاَّل؛ فالآلهةُ التي بهٰذه الحال لا تستحقُّ مثقال ذرَّة من العبادة، وهٰذه الأنداد التي سمَّوها بهٰذه الأسماء زعموا أنها مشتقَّة من أوصاف هي متَّصفة بها، فسمَّوا اللات من الإلٰه المستحقِّ للعبادة، والعُزَّى من العزيز، ومناة من المنَّان؛ إلحاداً في أسماء اللّه، وتجرِّياً على الشرك به! وهٰذه أسماءٌ متجرِّدة من[1] المعاني؛ فكلُّ من له أدنى مُسكةٍ من عقل يعلم بطلان هٰذه الأوصاف فيها.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾؛ أي: أتجعلون للّه البنات بزعمكم ولكم البنون.

﴿٢٢﴾ ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾؛ أي: ظالمة جائرة. وأيُّ ظلم أعظم من قسمة تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟! تعالى عن قولهم علوًّا كبيراً.

﴿٢٣﴾ وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾؛ أي: من حجَّة وبرهان على صحَّة مذهبكم، وكلُّ أمرٍ ما أنزل اللّه فيه من سلطانٍ؛ فهو باطلٌ فاسدٌ لا يُتَّخذ ديناً، وهم في أنفسهم ليسوا بمتَّبعين لبرهان يتيقَّنون به ما ذهبوا إليه، وإنَّما دلُّهم على قولهم الظنُّ الفاسد والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسُهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحالُ أنَّه لا موجب لهم يقتضي اتِّباعهم الظنَّ من فقدِ العلم والهدى، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾؛ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوَّة وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد؛ فكلُّها قد بيَّنها اللّه أكمل بيان وأوضحه وأدلَّه على المقصود، وأقام عليه من الأدلَّة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتِّباعه، فلم يبق لأحدٍ حجَّة ولا عذر من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه غايته اتِّباع الظنِّ ونهايته الشقاءُ الأبديُّ والعذاب السرمديُّ؛ فالبقاء على هٰذه الحال من أسفه السَّفه وأظلم الظلم.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ ومع ذٰلك يتمنَّون الأماني ويغترُّون بأنفسهم[2]! ولهٰذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصلُ له ما تمنَّى وهو كاذبٌ في ذٰلك، فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا

---

(١) في (ب): «عن».
(٢) في (ب): «بأنفسكم».

تمنَّى. فللّهِ الآخرةُ والأولى﴾: فيعطي منهما مَن يشاء ويمنع مَن يشاء؛ فليس الأمر تابعاً لأمانيِّهم ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يقول تعالى منكراً على مَن عَبَدَ غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنَّها تنفعه وتشفع له عند اللّه يوم القيامةِ: ﴿وكم من مَلَكٍ في السمٰواتِ﴾: من الملائكة المقرَّبين وكرام الملائكة، ﴿لا تُغْني شفاعتُهم شيئاً﴾؛ أي: لا تفيد من دعاها وتعلَّق بها ورجاها، ﴿إلَّا من بعدِ أن يأذنَ اللّه لمن يشاءُ ويرضى﴾؛ أي: لا بدَّ من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرِّر أنَّه لا يقبل من العمل إلَّا ما كان خالصاً لوجه اللّه، موافقاً فيه صاحبُه الشريعةَ؛ فالمشركون إذاً لا نصيبَ لهم من شفاعة الشافعين؛ [وقد][1] سدُّوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني: أنَّ المشركين باللّه، المكذِّبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ [و] بسبب عدم إيمانهم بالآخرة؛ تجرَّؤوا على ما تجرؤوا عليه من الأقوال والأفعال المحادَّة للّه ولرسوله؛ من قولهم: الملائكة بناتُ اللّه! فلم ينزِّهوا ربَّهم عن الولادة، ولم يكرِموا الملائكة ويُجِلُّوهم عن تسميتهم إيَّاهم إناثاً، والحال أنَّه ليس لهم بذٰلك علمٌ لا عن اللّه ولا عن رسوله ولا دلَّت على ذٰلك الفطر والعقول، بل العلمُ كلُّه دالٌّ على نقيض قولهم، وأنَّ اللّه منزَّهٌ عن الأولاد والصاحبة؛ لأنَّه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلدْ ولم يولدْ، ولم يكن له كفواً أحدٌ، وأنَّ الملائكة كرامٌ مقرَّبون إلى اللّه قائمون بخدمته، ﴿لا يعصون اللّه ما أمَرَهم ويفعلونَ ما يُؤمرون﴾.

(١) في (أ): بياض. وما بين المعقوفتين من (ب).

﴿٢٨﴾ والمشركون[١] إنَّما يتَّبعون في ذٰلك القول القبيح، وهو الظنُّ[٢] الذي لا يُغني من الحقِّ شيئاً؛ فإنَّ الحقَّ لا بدَّ فيه من اليقين المستفاد من الأدلَّة [القاطعة] والبراهين الساطعة.

﴿٢٩﴾ ولما كان هٰذا دأب هٰؤلاء المذكورين، أنَّهم لا غرض لهم في اتِّباع الحقِّ، وإنَّما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسُهم؛ أمر اللّٰه رسوله بالإعراض عن من تولَّى عن ذكرِهِ، الذي هو الذكرُ الحكيم والقرآنُ العظيم [والنبأ الكريم]، فأعرضَ عن العلوم النافعة، ولم يُرِدْ إلَّا الحياة الدنيا؛ فهٰذا منتهى إرادتِه. ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلَّا للشيء الذي يريدُه؛ فسعيُ هٰؤلاء[٣] مقصورٌ على الدُّنيا ولذَّاتها وشهواتها كيف حصلتْ حَصَّلوها، وبأيِّ طريق سنحت ابتدروها.

﴿٣٠﴾ ﴿ذٰلك مبلغُهم من العلم﴾؛ أي: هٰذا منتهى علمهم وغايته، وأمَّا المؤمنون بالآخرة المصدِّقون بها أولو الألباب والعقول؛ فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومُهم أفضلُ العلوم وأجلُّها، وهو العلم المأخوذُ من كتاب اللّٰه وسنَّة رسوله ﷺ، واللّٰه تعالى أعلمُ بمن يستحقُّ الهداية فيهديه ممَّن لا يستحقُّ ذٰلك فيكِلُه إلى نفسه ويخذُلُه فيضلُّ عن سبيل اللّٰه، ولهٰذا قال تعالى: ﴿إنَّ ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بمنِ اهتدى﴾: فيضع فضلَه حيث يعلم المحلَّ اللائقَ به.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣١﴾ يخبر تعالى أنَّه مالك الملك، المتفرِّدُ بملك الدنيا والآخرة، وأنَّ جميع ما فيهما[٤] ملكٌ للّٰه، يتصرَّف فيهم تصرُّف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفِّذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعَه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه، فيثيب المطيع ويعاقب العاصي، ﴿لِيَجْزِيَ الذين أساؤوا﴾ العمل من سيئات[٥] الكفر فما دونَه من المعاصي، وبما عملوه من أعمال الشرِّ بالعقوبة الفظيعة[٦]، ﴿ويجزِيَ الذين أحسنوا﴾: في عبادة اللّٰه، وأحسنوا إلى خلق اللّٰه

---

(١) في (ب): «وهم إنما».
(٢) في (ب): «إلا الظن».
(٣) في (ب): «فسعيهم».
(٤) في (ب): «مَنْ في السماوات والأرض».
(٥) في (ب): «السيئات من الكفر».
(٦) في (ب): «البليغة».

بأنواع المنافع ﴿بالحُسْنى﴾؛ أي: بالحالة الحسنة في الدُّنيا والآخرة، وأكبر ذٰلك وأجلُّه رضا ربِّهم والفوزُ بالجنة وما فيها من النعيم[١].

﴿٣٢﴾ ثم ذكر وصفَهم، فقال: ﴿الذين يَجْتَنِبون كبائرَ الإثم والفواحشَ﴾؛ أي: يفعلون ما أمرهم اللّهُ به من الواجبات، التي يكون تركُها من كبائر الذُّنوب، ويتركون المحرَّمات الكبار من الزِّنا[٢] وشرب الخمر وأكل الرِّبا والقتل ونحو ذٰلك من الذُّنوب العظيمة، ﴿إلَّا اللَّمم﴾: وهو الذُّنوب الصغارُ التي لا يصرُّ صاحبها عليها، أو التي يلمُّ العبدُ بها المرَّة بعد المرَّة على وجه الندرة والقلَّة؛ فهٰذه ليس مجرَّد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين؛ فإنَّ هٰذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات تدخُلُ تحت مغفرة اللّه التي وسعتْ كلَّ شيءٍ، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ ربَّك واسعُ المغفرةِ﴾: فلولا مغفرتُه؛ لهلكتِ البلادُ والعبادُ، ولولا عفوُه وحلمه؛ لسقطتِ السماء على الأرض، ولَمَا ترك على ظهرها من دابَّةٍ، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان؛ مكفراتٌ لما بينهنَّ ما اجتُنِبَتِ الكبائر»[٣]. وقوله: ﴿هو أعلم بكم إذْ أنشأكُم من الأرضِ وإذْ أنتُم أجنَّةٌ في بطون أمَّهاتِكم﴾؛ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلِّها، وما جبلكم عليه من الضَّعف والخَوَر عن كثيرٍ مما أمركم اللّه به، ومن كثرة الدواعي إلى فعل[٤] المحرَّمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القويَّة، والضعف موجودٌ مشاهدٌ منكم حين أخرجكم اللّه من الأرض، وإذ كنتم في بطونِ أمَّهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإنْ كان اللّه تعالى قد أوجدَ فيكم قوَّةً على ما أمركم به. ولٰكنَّ الضعف لم يزلْ؛ فلعلمه تعالى بأحوالكم هٰذه؛ ناسبت الحكمةُ الإلٰهيَّة والجود الربانيُّ أن يتغمَّدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمرَكم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبدُ مقصودُه مرضاة ربِّه في جميع الأوقات، وسعيُه فيما يقربُ إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذُّنوب التي يمقتُ بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة؛ فإنَّ اللّه تعالى أكرم الأكرمين[٥] وأجود الأجودين، أرحم بعبادِهِ من الوالدةِ بولدِها؛ فلا بدَّ لمثل هٰذا أن يكون من مغفرة ربِّه قريباً، وأن يكونَ اللّه له في جميع أحوالِهِ مجيباً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿فلا تزكُّوا

(١) في (ب): «والفوز بنعيم الجنة».
(٢) في (ب): «كالزنا».
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٣).
(٤) في (ب): «إلى بعض».
(٥) في (ب): «أرحم الراحمين».

أنفسكم﴾؛ أي: تخبرون الناس بطهارتها(١) على وجه التمدُّح عندهم، ﴿هو أعلم بمن اتَّقى﴾؛ فإنَّ التَّقوى محلُّها القلبُ، واللّٰه هو المطَّلع عليه، المجازي على ما فيه من برٍّ وتقوى، وأما النَّاسُ؛ فلا يغنون عنكم من اللّٰه شيئاً.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ (٢)وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ(٣) ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿٣٣ ـ ٣٥﴾ يقول تعالى: أفرأيت قُبْحَ حالة من أُمِرَ بعبادة ربِّه وتوحيده فتولَّى عن ذٰلك وأعرض عنه؟! فإنْ سمحتْ نفسُه ببعض الشيء القليل؛ فإنَّه لا يستمرُّ عليه، بل يبخل ويُكْدي ويمنعُ؛ فإنَّ الإحسان(٤) ليس سجيَّةً له وطبعاً، بل طبعه التولِّي عن الطاعة وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هٰذا؛ فهو يزكِّي نفسه وينزلها غير منزلتها التي أنزلها اللّٰه بها. ﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾: الغيبَ فيخبر(٥) به؟! أم هو متقوِّلٌ على اللّٰه متجرِّىء عليه جامعٌ(٦) بين المحذورين الإساءة والتزكية؟! كما هو الواقع؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّه ليس عنده علمٌ من الغيب، وأنَّه لو قدِّر أنَّه ادَّعى ذٰلك؛ فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبيِّ المعصوم تدلُّ على نقيض قوله، وذٰلك دليل على بطلانه.

﴿٣٦ ـ ٣٧﴾ ﴿أم لم يُنَبَّأْ﴾: هٰذا المدَّعي ﴿بما في صُحُف موسى. وإبراهيم

---

(١) في (ب): «أي: تطهرونها وتخبرون الناس بذلك».
(٢) في ( أ ) إلى آخر السورة.
(٣) في (ب): إلى آخر السورة.
(٤) في (ب): «المعروف».
(٥) في (ب): «ويخبر».
(٦) في (ب): «على الجمع».

الذي وَفَّى﴾؛ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

﴿٣٨ ـ ٤١﴾ وفي تلك الصحف أحكامٌ كثيرةٌ، من أهمِّها ما ذكره الله بقوله: ﴿أن لا تزرَ وازرةٌ وِزرَ أخرى. وأن ليس للإنسان إلَّا ما سَعى﴾؛ أي: كلُّ عامل له عمله الحسن والسيئ؛ فليس له من عمل غيره وسعيه شيء، ولا يتحمَّل أحدٌ عن أحدٍ ذنباً، ﴿وأنَّ سعيَه سوف يُرى﴾: في الآخرة، فيميَّز حسنُه من سيِّئه، ﴿ثم يُجْزاه الجزاءَ الأوفى﴾؛ أي: المستكمل لجميع العمل، الخالص الحسن[1] بالحسنى، والسيء الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه؛ جزاء تُقِرُّ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتَحْمَدُ الله عليه، حتى إنَّ أهل النار ليدخلون[2] النار، وإنَّ قلوبهم مملوءةٌ من حمد ربِّهم والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنَّهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شرَّ الموارد. وقد استدل بقوله [تعالى]: ﴿وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى﴾: من يرى أنَّ القُرَب لا يجوز[3] إهداؤها للأحياء ولا للأموات، قالوا: لأنَّ الله قال: ﴿وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى﴾؛ فوصول سعي غيره إليه منافٍ لذلك. وفي هذا الاستدلال نظرٌ؛ فإنَّ الآية إنما تدلُّ على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حقٌّ لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدلُّ على أنَّه لا ينتفع بسعي غيره إذا أهداه ذلك الغير إليه[4]؛ كما أنَّه ليس للإنسان من المال إلَّا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك أن لا يملِكَ ما وَهَبَه الغير له من مالِهِ الذي يملِكُه.

﴿٤٢﴾ وقوله: ﴿وأنَّ إلى ربِّك المنتهى﴾؛ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائقُ بالبعث والنُّشور، وإلى الله المنتهى في كلِّ حال؛ فإليه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿٤٣﴾ ﴿وأنَّه هو أضحكَ وأبكى﴾؛ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشرُّ والفرح والسرور والهمُّ والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغةُ في ذلك.

﴿٤٤﴾ ﴿وأنَّه هو أماتَ وأحيا﴾؛ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي

(١) في (ب): «الحسن الخالص».
(٢) في (ب): «يدخلون».
(٣) في (ب): «لا يفيد».
(٤) في (ب): «له».

أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدُهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدُّنيا.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ ﴿وأنَّه خَلَقَ الزوجين﴾: فسَّرهما[1] بقوله: ﴿الذَّكر والأنثى﴾: وهٰذا اسمُ جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيمها؛ فهو المنفرد بخلقها ﴿من نُطفةٍ إذا تُمنى﴾: وهٰذا من أعظم الأدلَّة على كمال قدرته وانفراده بالعزَّة العظيمة؛ حيث أوجد تلك الحيوانات صغيرها وكبيرها من نطفةٍ ضعيفةٍ[2] من ماءٍ مَهينٍ، ثم نمَّاها وكمَّلها حتى بلغت ما بلغتْ، ثم صار الآدميُّ منها إمَّا إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإمَّا إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

﴿٤٧﴾ ولهٰذا استدلَّ بالبداءة على الإعادة، فقال: ﴿وأنَّ عليه النشأةَ الأخرى﴾: فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿٤٨﴾ ﴿وأنَّه هو أغنى وأقنى﴾؛ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التِّجارات وأنواع المكاسب من الحِرَف وغيرها، ﴿وأقنى﴾؛ أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها ما يصيرون به مقتنين لها ومالكين لكثيرٍ من الأعيان، وهٰذا من نعمه تعالى؛ أنْ أخبرهم[3] أنَّ جميع النعم منه، وهٰذا يوجِب للعبادِ أنْ يشكُروه ويعبدُوه وحدَه لا شريك له.

﴿٤٩﴾ ﴿وأنَّه هو ربُّ الشِّعرى﴾: وهو[4] النجم المعروف بالشِّعْرى العبور، المسماة بالمرزم، وخصَّها اللّه بالذِّكر وإن كان هو ربُّ كلِّ شيء؛ لأنَّ هٰذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أنَّ جنس ما يعبد[5] المشركون مربوبٌ مدبَّرٌ مخلوقٌ؛ فكيف يُتَّخَذُ مع اللّه آلهة؟!

﴿٥٠﴾ ﴿وأنَّه أهلك عاداً الأولى﴾: وهم قوم هودٍ عليه السلام حين كذَّبوا هوداً، فأهلكهم اللّه بريح صرصرٍ عاتيةٍ.

﴿٥١﴾ ﴿وثمودَ﴾: قومُ صالح عليه السلام؛ أرسله اللّه إلى ثمود، فكذَّبوه،

---

(١) في (ب): «فسَّر الزوجين».
(٢) في (ب): «كبيرها وصغيرها من نطفة قليلة».
(٣) في (ب): «وهذا من نعمه على عباده أنّ جميع . . .».
(٤) في (ب): «وهي».
(٥) في (ب): «يعبده».

فبعث الله إليهم الناقة آية، فعقروها وكذَّبوه، فأهلكهم الله [تعالى]، ﴿فما أبقى﴾: منهم أحداً، بل أبادهم[١] عن آخرهم.

﴿٥٢﴾ ﴿وقومَ نوحٍ من قبلُ إنَّهم كانوا هم أظلَمَ وأطْغى﴾: من هٰؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم[٢].

﴿٥٣ ـ ٥٤﴾ ﴿والمؤتفكةَ﴾: وهم قومُ لوطٍ عليه السلام، ﴿أهوى﴾؛ أي: أصابهم الله بعذابٍ ما عذَّب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارةً من سجِّيل، ولهٰذا قال: ﴿فغشَّاها ما غشَّى﴾؛ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشي؛ أي: شيءٌ عظيمٌ لا يمكن وصفه.

﴿٥٥﴾ ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّك تتمارى﴾؛ أي: فبأيِّ نعم الله وفضله تشكُّ أيُّها الإنسان؛ فإنَّ نعم الله ظاهرةٌ لا تقبل الشكَّ بوجه من الوجوه؛ فما بالعباد من نعمةٍ إلَّا منه تعالى، ولا يدفع النِّقَم إلَّا هو.

﴿٥٦﴾ ﴿هٰذا نذيرٌ من النُّذُر الأولى﴾؛ أي: هٰذا الرسول القرشيُّ الهاشميُّ محمد بن عبد الله ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدَّمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه؛ فلأيِّ شيءٍ تنكر رسالته؟! وبأيِّ حجَّة تبطل دعوته؟! أليست أخلاقه أعلىٰ أخلاق الرسل الكرام؟! أليس يدعو إلى كلِّ خير وينهى عن كل شرٍّ[٣]؟! ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديهِ ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ؟! ألم يُهلك الله مَن كَذَّب مَن قبله من الرسل الكرام؟! فما الذي يمنَع العذابَ عن المكذِّبين لمحمد سيِّد المرسلين وإمام المتَّقين وقائد الغرِّ المحجَّلين؟!

﴿٥٧﴾ ﴿أزِفَتِ الآزفةُ﴾؛ أي: قربت القيامة ودنا وقتُها وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دونِ الله كاشفةٌ﴾؛ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذابُ الموعود به.

﴿٥٨﴾ ثم توعَّد المنكرين لرسالة الرسول محمدٍ ﷺ، المكذِّبين لما[٤] جاء به من القرآن الكريم، فقال:

﴿٥٩﴾ ﴿أفمِنْ هٰذا الحديث تعجبونَ﴾؛ أي: أفمن هٰذا الحديث الذي هو خير

---

(١) في (ب): «أهلكهم الله». (٢) في (ب): «وأغرقهم في اليمِّ».

(٣) في (ب): «أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كلِّ شرٍّ».

(٤) في (ب): «بما».

الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة؟! هٰذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلَّا؛ فهو الحديث الذي إذا حَدَّث صَدَق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل، ليس بالهزل، وهو القرآن[١] العظيم، الذي لو أُنزِل على جبل لرأيتَه خاشعاً متصدعاً من خشية اللّه، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً وتسديداً وثباتاً وإيقاناً وإيماناً، بل الذي[٢] ينبغي العَجَبُ من عقل من تعجَّب منه وسفهه وضلاله.

﴿٦٠﴾ ﴿وتضحكون ولا تبكونَ﴾؛ أي: تستعجلون الضَّحك والاستهزاء به، مع أنه الذي ينبغي أن تتأثَّر منه النفوس وتلين له القلوب وتبكي له العيون؛ سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاءً لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الصادقة الحسنة[٣].

﴿٦١﴾ ﴿وأنتُم سامدونَ﴾؛ أي: غافلون لاهون عنه وعن تدبُّره[٤]، وهٰذا من قلَّة عقولكم وأديانكم؛ فلو عبدتم اللّه وطلبتم رضاه في جميع الأحوال؛ لما كنتُم بهٰذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب.

﴿٦٢﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿فاسجُدوا للّه واعبدوا﴾: الأمر بالسجود للّه خصوصاً يدلُّ على فضله، وأنَّه سرُّ العبادة ولبُّها؛ فإنَّ روحها الخشوع للّه والخضوع له، والسجود [هو] أعظم حالة يخضع بها [العبد][٥]؛ فإنَّه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام. ثم أمر بالعبادة عموماً الشاملة لجميع ما يحبُّه اللّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم.

والحمد للّه [الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وصلّى الله على محمد وسلّم تسليماً كثيراً].

❊ ❊ ❊

(١) في (ب): «الكلام».
(٢) في (ب): «وإيماناً ويقيناً، والذي».
(٣) في (ب): «الحسنة الصادقة».
(٤) في (ب): «أي: غافلون عنه لاهون عن تدبره».
(٥) في (ب): «القلب». والكلمة في ( أ ) غير واضحة ولعلّها: «العبد» كما هي في الطبعة الأولى.

# تفسير سورة اقتربت الساعة

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾.

﴿١﴾ يخبر تعالى أنَّ الساعة ـ وهي القيامة ـ اقتربت، وآن أوانُها، وحان وقتُ مجيئها، ومع هٰذا[1]؛ فهٰؤلاء المكذِّبون لم يزالوا مكذِّبين بها غير مستعدين لنزولها، ويريهم اللّه من الآيات العظيمة الدالَّة على وقوعها ما يؤمنُ على مثله البشرُ؛ فمن أعظمِ الآياتِ الدالَّة على صحَّة ما جاء به محمد بن عبداللّه ﷺ أنَّه لما طلب منه المكذِّبون أن يُرِيَهم من خوارق العادات ما يدلُّ على صحَّة ما جاء به وصدقه[2]؛ أشار ﷺ إلى القمر، فانشقَّ بإذن اللّه فلقتين؛ فلقةً على جبل أبي قُبيس، وفلقةً على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هٰذه الآية العظيمة[3] الكائنة في العالم العلويِّ، التي لا يقدر الخلقُ على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثلَه، بل ولم يسمعوا أنَّه جرى لأحدٍ من المرسلين قبلَه نظيره، فانبهروا لذٰلك، ولم يدخُل الإيمانُ في قلوبهم، ولم يردِ اللّه بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمدٌ! ولٰكنَّ علامة ذٰلك أنكم تسألون من وَرَدَ عليكم[4] من السفر؛ فإنَّه إن قدر على سحركم؛ لم يقدِرْ أن يسحرَ مَن ليس مشاهداً مثلكم! فسألوا كلَّ من قدم، فأخبروهم بوقوع ذٰلك، فقالوا: ﴿سحرٌ مستمرٌّ﴾! سحرنا محمدٌ وسحر غيرنا!! وهٰذا من البَهْتِ الذي لا يروج إلَّا على أسفه الخلق وأضلِّهم عن الهدى والعقل.

﴿٢﴾ وهٰذا ليس إنكاراً منهم لهٰذه الآية وحدَها، بل كلُّ آية تأتيهم؛ فإنَّهم مستعدُّون لمقابلتها بالتكذيب[5] والردِّ لها، ولهٰذا قال: ﴿وإن يَرَوا آية يعرِضوا﴾:

---

(١) في (ب): «ذلك».
(٢) في (ب): «ما يدلُّ على صدقه».
(٣) في (ب): «الكبرى».
(٤) في (ب): «من قدم إليكم».
(٥) في (ب): «بالباطل».

فلم يعدْ الضمير على انشقاق القمر، [فلم يقل: وإن يروها]، بل قال: ﴿وإن يَرَوا آيةً يعرضوا﴾؛ فليس[١] قصدهم اتِّباع الحق والهدى، وإنَّما مقصودهم اتِّباع الهوى.

﴿٣﴾ ولهٰذا قال: ﴿وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءهم﴾؛ كقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعْلَمْ أنَّما يتَّبِعون أهواءَهم﴾؛ فإنَّه لو كان قصدُهم اتِّباعَ الهدى؛ لآمنوا قطعاً واتَّبعوا محمداً ﷺ؛ لأنه أراهم اللّه على يديه من البينات والبراهين والحجج القواطع ما دلَّ على جميع المطالب الإلٰهيَّة والمقاصد الشرعيَّة، ﴿وكلُّ أمرٍ مستقرٌ﴾؛ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره؛ فالمصدِّق يتقلَّب في جنَّات النعيم ومغفرة اللّه ورضوانه، والمكذِّب يتقلَّب في سخط اللّه وعذابِهِ خالداً مخلداً أبداً.

﴿٤﴾ وقال تعالى مبيِّناً أنَّهم ليس لهم قصدٌ صحيحٌ واتباعٌ للهدى[٢]: ﴿ولقد جاءهم من الأنباءِ﴾؛ [أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة] ﴿ما فيه مُزْدَجَرٌ﴾؛ أي: زاجر يزجرهم عن غيِّهم وضلالهم.

﴿٥﴾ وذٰلك ﴿حكمةٌ﴾: منه تعالى ﴿بالغةٌ﴾؛ أي: لتقوم حجَّته على العالمين[٣]، ولا يبقى لأحدٍ على اللّه حجَّةٌ بعد الرسل، ﴿فما تغني النُّذُر﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ لا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾.

﴿٦﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أنَّ المكذِّبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلَّا الإعراضُ عنهم[٤]، فقال: ﴿فتولَّ عنهم﴾: وانتظرْ بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذٰلك حين ﴿يَدعُ الداعِ﴾؛ وهو إسرافيلُ عليه السلام ﴿إلى شيء نُكُرٍ﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظراً أفظع ولا أوجع منه، فينفخُ إسرافيل نفخةً يخرج بها[٥] الأمواتُ من قبورهم لموقف القيامة.

﴿٧﴾ ﴿خُشَّعاً أبصارُهم﴾؛ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم،

---

(١) في (ب): «وليس».
(٢) في (ب): «ولا اتباع الهدى».
(٣) في (ب): «المخالفين».
(٤) في (ب): «الإعراض عنهم والتولي عنهم. فتولَّ عنهم».
(٥) في (ب): «فينفخ إسرائيل في الصور نفخة يخرج منها».

فخضعت وذلّت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يخرجون من الأجداثِ﴾: وهي القبورُ ﴿كأنَّهم﴾: من كثرتهم وروَجان بعضهم ببعض ﴿جرادٌ منتشرٌ﴾؛ أي: مبثوثٌ في الأرض متكاثرٌ جدًّا.

﴿٨﴾ ﴿مهطعينَ إلى الدَّاعِ﴾؛ أي: مسرعين لإجابة نداء[1] الدَّاعي، وهٰذا يدلُّ على أنَّ الدَّاعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبُّون دعوته ويسرعون إلى إجابته، ﴿يقول الكافرون﴾: الذين قد حَضَرَ عذابُهم: ﴿هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿على الكافرين غيرُ يسيرٍ﴾: مفهوم ذٰلك أنَّه يسيرٌ سهلٌ على المؤمنين.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾[2] فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿٩﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حالَ المكذِّبين لرسوله وأنَّ الآياتِ لا تنفع فيهم ولا تُجدي عليهم شيئاً؛ أنذرهم وخوَّفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذِّبة للرسل وكيف أهلكهم اللّٰهُ وأحلَّ بهم عقابه، فذكر قومَ نوحٍ؛ أول رسول بعثه اللّٰه إلى قوم يعبُدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد اللّٰه وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك، وقالوا: ﴿لا تَذَرُنَّ آلهتكم ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويَعوقَ ونَسْراً﴾، ولم يزل نوحٌ يدعوهم إلى اللّٰه ليلاً ونهاراً سرًّا وجهاراً، فلم يزدْهم ذٰلك إلَّا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيِّهم، ولهٰذا قال هنا: ﴿فكذَّبوا عبدَنا وقالوا مجنونٌ﴾: لزعمهم أنَّ ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدلُّ عليه العقل، وأنَّ ما جاء به نوحٌ عليه السلام جهلٌ وضلالٌ لا يصدُر إلَّا من المجانين، وكَذَبوا في ذٰلك، وقَلَبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً[3]؛ فإنَّ ما جاء به هو الحقُّ الثابت الذي يرشد العقول النيِّرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرُّشد، وما هم عليه جهلٌ وضلالٌ مبينٌ. وقوله: ﴿وازْدُجِرَ﴾؛ أي: زجره قومه وعنَّفوه لما دعاهم إلى اللّٰه تعالى، فلم

(١) في (ب): «مسرعين لنداء».
(٢) في (أ): إلى آخر قصته. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر...﴾.
(٣) في (ب): «عقلاً وشرعاً».

يكفِهِم قبَّحَهُمُ اللّٰهُ عدمُ الإيمان به ولا تكذيبُهم إيَّاه، حتى أوصلوا إليه من أذيَّتهم ما قدروا عليه، وهٰكذا جميع أعداء الرسل هٰذه حالهم مع أنبيائهم.

﴿١٠﴾ فعند ذٰلك دعا نوحٌ ربَّه، فقال: ﴿إنِّي مغلوبٌ﴾: لا قدرةَ لي على الانتصار منهم؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلَّا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتَصِرْ﴾: اللهمَّ لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين دَيَّاراً...﴾ الآيات.

﴿١١﴾ فأجاب اللّٰه سؤاله، فانتصر[1] له من قومه؛ قال تعالى: ﴿ففَتَحْنا أبوابَ السماءِ بماءٍ منهمرٍ﴾؛ أي: كثير جدًّا متتابع.

﴿١٢﴾ ﴿وفجَّرْنا الأرض عُيوناً﴾: فجعلتِ السماءُ ينزل منها من الماء شيءٌ خارقٌ للعادة، وتفجَّرت الأرضُ كلُّها، حتى التنُّور الذي لم تَجْرِ العادةُ بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونِهِ منبعاً للماء؛ لأنَّه موضع النار، ﴿فالتقى الماء﴾؛ أي: ماء السماء والأرض، ﴿على أمرٍ﴾: من اللّٰه له بذٰلك، ﴿قد قُدِرَ﴾؛ أي: قد كتبه اللّٰه في الأزل وقضاه عقوبةً لهٰؤلاء الظالمين الطاغين.

﴿١٣﴾ ﴿وحَمَلْناه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ﴾؛ أي: ونجَّينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدُّسُر[2]؛ أي: المسامير التي قد سُمِرَتْ بها ألواحُها وشُدَّ بها أسرها.

﴿١٤﴾ ﴿تجري بأعْيُنِنا﴾؛ أي: تجري بنوح ومَنْ آمن معه ومَنْ حمله مِن أصناف المخلوقات برعايةٍ من اللّٰه وحفظٍ منه لها عن الغرق ونظرٍ وكلاءةٍ منه تعالى، وهو نعم الحافظُ الوكيلُ، ﴿جزاءً لِمَن كان كُفِرَ﴾؛ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النَّجاة من الغرق العامِّ جزاءً له؛ حيث كذَّبه قومُه وكفروا به، فصبر على دعوتِهِم، واستمرَّ على أمر اللّٰه، فلم يردَّه عنه رادٌّ ولا صدَّه عن ذٰلك[3] صادٌّ؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قيل يا نوحُ اهبطْ بسلام مِنَّا وبَرَكاتٍ عليك وعلى أمم مِمَّن معك...﴾ الآية. ويُحتمل أنَّ المراد أنَّا أهلَكنا قومَ نوح وفعلنا بهم ما فَعَلنا مِن العذاب والخزي جزاءً لهم على كفرِهم وعنادهم. وهٰذا متوجِّهٌ على قراءة من قرأها بفتح الكاف.

---

(١) في (ب): «وانتصر».
(٢) في (ب): «ودسر».
(٣) في (ب): «ولا صدّه عنه».

﴿١٥﴾ ﴿ولقد تركناها آيةً فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آيةً يتذكَّر بها المتذكِّرون على أنَّ من عصى الرُّسل وعاندهم أهْلَكَه اللّه بعقابٍ عامٍّ شديدٍ، أو أنَّ الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأنَّ أصل صنعتها تعليمٌ من اللّه لرسوله[1] نوح عليه السلام، ثم أبقى اللّه صنعتها وجنسها بين الناس؛ ليدلَّ ذلك على رحمته بخلقه وعنايته وكمال قدرته وبديع صنعته. ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: فهل متذكِّر للآيات ملقٍ ذهنَه وفكرته لما يأتيه منها؛ فإنَّها في غاية البيان واليُسر؟

﴿١٦﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾؛ أي: فكيف رأيتَ أيها المخاطَبُ عذابَ اللّه الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحدٍ عليه حجة.

﴿١٧﴾ ﴿ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْرِ فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: ولقد يسَّرْنا وسهَّلْنا هٰذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنَّه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقُه معنىً، وأبينه تفسيراً؛ فكلُّ من أقبل عليه؛ يَسَّرَ اللّه عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهَّله عليه، والذِّكر شاملٌ لكل ما يتذكَّر به العالمون من الحلال والحرام وأحكام الأمرِ والنَّهي وأحكام الجزاء والمواعظ والعِبَرِ والعقائِد النَّافعة والأخبار الصادقة، ولهٰذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم وأجلُّها على الإطلاق، وهو العلمُ النافعُ الذي إذا طلبه العبدُ؛ أُعِينَ عليه. قال بعضُ السَّلف عند هٰذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه. ولهٰذا يدعو اللّه عباده إلى الإقبال عليه والتذكُّر بقوله: ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ وعادٌ هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل اللّه إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد اللّه وعبادته، فكذَّبوه، فأرسل اللّه عليهم ﴿ريحاً صرصراً﴾؛ أي: شديدة جدًّا. ﴿في يوم نحسٍ﴾؛ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مستمِرّ﴾: عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً.

﴿٢٠﴾ ﴿تنزِعُ الناسَ﴾: من شدَّتها فترفعهم إلى جوِّ السماء، ثم تدمغهم

---

(١) في (ب): «العبده».

بالأرض، فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنَّهم أعجازُ نخل مُنقعِرٍ﴾؛ أي: كأنَّ جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعته[1] الريح فسقط على الأرض؛ فما أهون الخلق على الله إذا عَصَوْا أمرَه!

﴿٢١﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾: كان والله العذاب الأليم والنِّذارة التي ما أبقت لأحدٍ عليه حجة.

﴿٢٢﴾ ﴿ولقد يَسَّرْنا القرآن للذِّكْر فهل من مُدَّكِرٍ﴾: كرَّر تعالى ذٰلك رحمة بعباده وعناية بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يصلِحُ دنياهم وأُخراهم.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٢٣﴾ أي: ﴿كذَّبت ثمودُ﴾: وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحِجْر نبيَّهم صالحاً عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إنْ هم خالفوه.

﴿٢٤﴾ فكذَّبوه واستكبروا عليه وقالوا كبراً وتيهاً: ﴿أبشراً مِنَّا واحداً نَتَّبِعُهُ﴾؛ أي: كيف نتَّبع بشراً لا مَلَكاً، منَّا لا من غيرنا ممَّن هو أكبر عند الناس منَّا، ومع ذٰلك؛ فهو شخصٌ واحدٌ. ﴿إنَّا إذاً﴾؛ أي: إن اتَّبعناه وهو في هٰذه[2] الحالة ﴿لفي ضلال وسُعُرٍ﴾؛ أي: [إنَّا] لضالُّون أشقياء. وهٰذا الكلام من ضلالهم وشقائهم؛ فإنهم أنِفوا أن يَتَّبِعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصُّوَر.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿أألقي الذِّكر عليه من بيننا﴾؛ أي: كيف يخصُّه الله من بيننا وينزِّل عليه الذِّكر؛ فأيُّ مزيَّةٍ خصَّه من بيننا؟! وهٰذا اعتراضٌ من المكذِّبين على الله لم يزالوا يُدلون به ويصولون [ويحولون] ويردُّون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هٰذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قالت رسُلُهم إن نحنُ إلَّا بشرٌ مثلُكم

---

(١) في (ب): «أصابته».
(٢) في (ب): «وهو بهذه».

ولٰكنَّ اللّه يَمُنُّ على مَنْ يشاءُ من عبادِهِ﴾: فالرسل مَنَّ اللّه عليهم بصفاتٍ وأخلاق وكمالاتٍ بها صلحوا لرسالات ربِّهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر؛ فلو كانوا من الملائكة؛ لم يمكن البشر أن يتلقَّوا عنهم، ولو جعلَهم من الملائكة؛ لعاجل المكذِّبين لهم بالعقاب العاجل. والمقصود من هٰذا[1] الكلام الصادر من ثمود لنبيِّهم صالح تكذيبه، ولهٰذا حكموا عليه بهٰذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذَّابٌ أشِرٌ﴾؛ أي: كثير الكذب والشرّ! فقبَّحهم اللّه ما أسفه أحلامهم وأظلمهم وأشدَّهم مقابلةً للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع.

﴿٢٧﴾ لا جرم عاقبهم اللّه حين اشتدَّ طغيانُهم، فأرسل اللّه الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم آية من آيات اللّه ونعمة؛ يحلبونَ من دَرِّها[2] ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنةً لهم﴾؛ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً، ﴿فارتَقِبْهم واصْطَبِر﴾؛ أي: اصبر على دعوتك إيَّاهم وارتقبْ ما يحلُّ بهم، أو ارتقبْ هل يؤمنون أو يكفُرون.

﴿٢٨﴾ ﴿ونبِّئْهم أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهم﴾؛ أي: وأخبرهم أنَّ الماء؛ أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمةٌ بينهم وبين الناقة، لها شِرْبُ يوم ولهم شِرْبُ يوم آخر معلوم. ﴿كلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾؛ أي: يحضره من كان قسمته، ويُحْظَر على من ليس بقسمة له.

﴿٢٩﴾ ﴿فنادوا صاحبَهم﴾: الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة، ﴿فتعاطى﴾؛ أي: انقاد لما أمروه به من عقرها، ﴿فعقر﴾.

﴿٣٠ ـ ٣٢﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾: كان أشدَّ عذاب، أرسل اللّه عليهم صيحةً ورجفةً أهلكتهم عن آخرهم، ونجَّى اللّه صالحاً ومَن آمن معه، ﴿ولقد يَسَّرْنا القرآنَ للذِّكْر فهل من مُدَّكِرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٣ ـ ٤٠﴾ أي: ﴿كذَّبت قومُ لوط﴾: لوطاً عليه السلام حين دعاهم إلى

(١) في (ب): «بهذا».

(٢) في (ب): «ضرعها».

عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحدٌ من العالمين، فكذَّبوه واستمرُّوا على شركهم وقبائحهم، حتى إنَّ الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف، حين سمع بهم قومُه؛ جاؤوا مسرعين يريدون إيقاع الفاحشة فيهم لعنهم الله وقبَّحهم وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيُّهم بطشة الله وعقوبته، ﴿فتماروْا بالنُّذُر﴾، ﴿ولقد صبَّحهم بُكرةً عذابٌ مستقرٌّ﴾: قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبَّعهم بحجارة من سِجِّيل منضودٍ مسوَّمة عند ربِّك للمسرفين، ونجَّى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم؛ جزاء لهم على شكرهم لربِّهم وعبادته وحدَه لا شريك له.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ[1] ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٤١ ـ ٤٢﴾ أي: ﴿ولقد جاء آلَ فرعونَ﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿النُّذُر﴾: فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيَّده بالآيات البيِّنات والمعجزات الباهرات[2]، وأشهدهم من العبر ما لم يشهدْ غيرهم[3]، فكذَّبوا بآيات الله كلِّها، فأخذهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فأغرقه وجنوده في اليمِّ.

﴿٤٣﴾ والمراد من ذِكر هٰذه القصص تحذير الناس والمكذِّبين لمحمد ﷺ، ولهٰذا قال: ﴿أكفَّاركم خيرٌ من أولٰئكم﴾؛ أي: أهٰؤلاء الذين كذَّبوا أفضل الرسل خيرٌ من أولٰئك[4] المكذِّبين الذين ذكر الله هلاكَهم وما جرى عليهم؟ فإنْ كانوا

---

(١) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى نهاية السورة.
(٢) في (ب): «بالآيات الباهرات والمعجزات القاهرات».
(٣) في (ب): «ما لم يشهد عليهم أحداً غيرهم». (٤) في (ب): «هؤلاء».

خيراً منهم؛ أمكن أن يَنجوا من العذاب ولم يصبهم ما أصاب أولٰئك الأشرار، وليس الأمر كذٰلك؛ فإنَّهم إن لم يكونوا شرًّا منهم؛ فليسوا بخير منهم. ﴿أم لكم بَرَاءَةٌ في الزُّبُرِ﴾؛ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذٍ أنَّكم الناجون بأخبار الله ووعده؟! وهٰذا غير واقع، بل غير ممكنٍ عقلاً وشرعاً أن تُكتب براءتهم في الكُتب الإلٰهية المتضمِّنة للعدل والحكمة؛ فليس من الحكمة نجاةُ أمثال هٰؤلاء المعاندين المكذِّبين لأفضل الرسل وأكرمهم على الله.

﴿٤٤﴾ فلم يبق إلَّا أن يكون بهم قوَّةٌ ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نحن جميعٌ منتصرٌ﴾.

﴿٤٥﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سيُهزَمُ الجمعُ ويولُّون الدُّبُرَ﴾: فوقع كما أخبر؛ هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدرٍ، وقُتلت صناديدُهم وكبراؤهم، فأذلُّوا[1]، ونصر الله دينه ونبيَّه وحزبه المؤمنين.

﴿٤٦﴾ ومع ذٰلك؛ فلهم موعدٌ يجمع به أولهم وآخرهم ومن أصيب في الدُّنيا منهم ومن متع بلذاته، ولهٰذا قال: ﴿بل الساعةُ موعدُهم﴾: الذي يجازون به ويؤخذ منهم الحقُّ بالقسط، ﴿والساعةُ أدهى وأمرُّ﴾؛ أي: أعظم وأشقُّ وأكبر من كلِّ ما يتوهَّم أو يدور في الخيال[2].

﴿٤٧﴾ ﴿إنَّ المجرمينَ﴾؛ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة؛ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿في ضلال وسُعُرٍ﴾؛ أي: هم ضالُّون في الدُّنيا، ضُلَّالٌ عن العلم وضُلَّالٌ عن العمل الذي ينجِّيهم من العذاب، ويوم القيامةِ في العذاب الأليم والنار التي تستعر بهم وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿يوم يُسْحَبون في النار على وجوهِهِم﴾: التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشدُّ من [ألَم] غيرها، فيُهانون بذٰلك ويُخْزَون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مَسَّ سَقَرَ﴾؛ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿٤٩﴾ ﴿إنَّا كلَّ شيءٍ خَلَقْناه بقدرٍ﴾: وهٰذا شاملٌ للمخلوقات والعوالم العلويَّة والسفليَّة؛ إنَّ الله تعالى وحدَه خلَقَها، لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في

---

(١) في (ب): «وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلُّوا به».

(٢) في (ب): «بالبال».

خلقه[١]، وخلقها بقضاءٍ سبق به علمُه وجرى به قلمُه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

﴿٥٠﴾ وذلك على الله يسيرٌ؛ فلهذا قال: ﴿وما أمرُنا إلَّا واحدةٌ كلمحٍ بالبصرِ﴾: فإذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكونُ؛ كما أراد؛ كلمح البصر؛ من غير ممانعةٍ ولا صعوبةٍ.

﴿٥١﴾ ﴿ولقد أهلَكْنا أشياعَكم﴾: من الأمم السابقين، الذين عملوا كما عملتُم وكذَّبوا كما كذَّبتم، ﴿فهل من مُدَّكِرٍ﴾؛ أي: متذكِّرٍ يعلم أن سنَّة الله في الأولين والآخرين واحدةٌ، وأن حكمتَه كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإنَّ هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

﴿٥٢﴾ ﴿وكلُّ شيءٍ فعلوه في الزُّبر﴾؛ أي: كل ما فعلوه من خيرٍ وشرٍّ مكتوبٌ عليهم في الكتب القدريَّة.

﴿٥٣﴾ ﴿وكلُّ صغيرٍ وكبيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾؛ أي: مسطَّرٌ مكتوبٌ، وهذه حقيقة القضاء والقدر، وأنَّ جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكنْ؛ فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطِئَه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه.

﴿٥٤ ـ ٥٥﴾ ﴿إنَّ المتَّقين﴾: لله بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتَّقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿في جناتٍ ونَهَرٍ﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحور الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضا[٢] الملك الدَّيَّان والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ﴾؛ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربُّهم من كرامته وجوده ويمدُّهم به من إحسانه ومنَّته! جعلنا الله منهم، ولا حرمنا خير ما عنده بشرِّ ما عندنا.

تم تفسير هذه السورة[٣]. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «خلقها». (٢) في (ب): «ورضوان».

(٣) في (ب): «تمَّ تفسير سورة اقتربت».

# تفسير سورة الرحمن

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾.

﴿١﴾ هٰذه السورة الكريمة الجليلةُ افتتحها باسمه الرحمٰن، الدالِّ على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل برِّه وواسع فضله، ثم ذَكَرَ ما يدلُّ على رحمته وأثرها الذي أوصله اللّه إلى عباده من النعم الدينيَّة والدنيويَّة والأخرويَّة، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبِّه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تـكذِّبان﴾.

﴿٢﴾ فذكر أنه: ﴿علم القرآن﴾؛ أي: علَّم عباده ألفاظه ومعانيه ويسَّرها على عباده، وهٰذا أعظم منَّة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن الألفاظ وأوضح المعاني[1]، مشتملٌ على كلِّ خير، زاجرٌ عن كلِّ شرٍّ.

﴿٣ ـ ٤﴾ ﴿خلق الإنسان﴾: في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفَى الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البارىء تعالى البديع خلقه أيَّ إتقان، وميَّزه على سائر الحيوانات بأن ﴿علَّمه البيانَ﴾؛ أي: التبيين عمَّا في ضميره. وهٰذا شاملٌ للتعليم النُّطقيِّ والتعليم الخطِّيِّ؛ فالبيان الذي ميَّز اللّه به الآدميَّ على غيره من أجلِّ نعمه وأكبرها عليه.

﴿٥﴾ ﴿الشمسُ والقمرُ بحُسْبانٍ﴾؛ أي: خلق اللّه الشمس والقمر وسخَّرهما يجريان بحساب مقنَّن وتقدير مقدَّر رحمةً بالعباد وعنايةً بهم، وليقوم بذٰلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرفوا عدد السنين والحساب.

﴿٦﴾ ﴿والنجم والشجر يسجُدان﴾؛ أي: نجوم السماء وأشجار الأرض تعرِفُ

(١) في (ب): «وأحسن تفسيرٍ».

ربَّها وتسجُد له وتطيع وتخضع[١] وتنقاد لما سخَّرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿والسماء رفعها﴾: سقفاً للمخلوقات الأرضيَّة، ﴿ووضع﴾ [اللّٰه] ﴿الميزان﴾؛ أي: العدل بين العبادِ في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا؛ يدخل فيه الميزان المعروف والمكيال الذي تُكال به الأشياء والمقادير والمساحات التي تُضبَط بها المجهولات والحقائق التي يُفْصَل بها بين المخلوقات ويُقام بها العدل بينهم، ولهٰذا قال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا في الميزان﴾؛ أي: أنزل اللّٰه الميزان لئلَّا تتجاوزوا الحدَّ في الميزان؛ فإنَّ الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم؛ لحصل من الخلل ما اللّٰه به عليم، ولفسدت السماواتُ والأرض ومن فيهنَّ.

﴿٩﴾ ﴿وأقيموا الوزنَ بالقسطِ﴾؛ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم، ﴿ولا تُخسِروا الميزانَ﴾؛ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضدِّه، وهو الجور والظلم والطغيان.

﴿١٠﴾ ﴿والأرضَ وضعها﴾: اللّٰه على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها ﴿للأنام﴾؛ أي: للخلق؛ لكي يستقرُّوا عليها، وتكون لهم مهاداً وفراشاً، يبنون بها ويحرُثون ويغرِسون ويحفرون، ويسلكون سُبُلَها فجاجاً، وينتفعون بمعادنها، وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال:

﴿١١﴾ ﴿فيها فاكهةٌ﴾: وهي[٢] جميع الأشجار التي تثمر الثمراتِ التي يتفكَّه بها العبادُ من العنب والتين والرمان والتُّفاح وغير ذٰلك، ﴿والنَّخلُ ذاتُ الأكمام﴾؛ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القِنْوان التي تَخْرُجُ شيئاً فشيئاً حتى تتمَّ فتكون قوتاً يدَّخر ويؤكل[٣] ويتزوَّد منه المقيم والمسافر وفاكهةً لذيذةً من أحسن الفواكه.

﴿١٢﴾ ﴿والحبُّ ذو العصفِ﴾؛ أي: ذو الساق الذي يُداس فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها، ويدخل في ذٰلك حبُّ البُرِّ والشعير والذُّرة والأرز والدخن وغير ذٰلك، ﴿والريحانُ﴾: يُحتمل أنَّ المراد به[٤] جميع الأرزاق التي يأكلها الآدميُّون، فيكون هٰذا من باب عطف العامِّ على الخاصِّ، ويكون اللّٰه [تعالى] قد امتنَّ على عباده

---

(١) في (ب): «وتخشع».

(٢) في (ب): «وهو».

(٣) في (ب): «يؤكل ويدَّخر».

(٤) في (ب): «بذلك».

بالقوت والرزق عموماً وخصوصاً. ويُحتمل أنَّ المراد بالريحان الريحان المعروف، وأنَّ اللّه امتنَّ على عباده بما يسَّره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة والمشامِّ الفاخرة التي تسرُّ الأرواح وتنشرح لها النفوس.

﴿١٣﴾ ولما ذَكَرَ جملةً كثيرةً من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطابُ للثَّقلين الجن والإنس؛ قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؛ أي: فبأيِّ نعم اللّه الدينيَّة والدنيويَّة تكذِّبان؟ وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبيُّ ﷺ هٰذه السورة؛ فكلَّما مرَّ بقوله: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؛ قالوا[1]: ولا بشيءٍ من آلائك ربنا نكذِّبُ؛ فلك الحمد[2]. فهٰكذا[3] ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم اللّه وآلاؤه أن يُقِرَّ بها ويشكر ويحمد اللّه عليها.

ثم قال تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٤﴾ وهٰذا من نعمه تعالى على عباده؛ حيث أراهم من آثارِ قدرتِهِ وبديع صنعته أنْ ﴿خلَقَ﴾ أبا ﴿الإنسان﴾، وهو آدم عليه السلام، ﴿من صلصالٍ كالفخَّارِ﴾؛ أي: من طينٍ مبلول، قد أحكم بلَّه وأتقن، حتى جفَّ فصار له صلصلةٌ وصوتٌ يشبه صوت الفخَّار، وهو الطين المشويُّ[4].

﴿١٥﴾ ﴿وخلق الجانَّ﴾؛ أي: أبا الجنِّ، وهو إبليس لعنه اللّه[5] ﴿من مارجٍ من نارٍ﴾؛ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان. وهٰذا يدلُّ على شرف عنصر الآدميِّ المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع؛ بخلاف عنصر الجانِّ، وهو النار، التي هي محلُّ الخفَّة والطيش والشرِّ والفساد.

---

(١) في (ب): «فما مرَّ بقوله: ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ إلّا قالوا».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم (٢/٤٧٣) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٥٠).

(٣) في (ب): «فهذا الذي».

(٤) في (ب): «صوت الفخار الذي طبخ على النار».

(٥) في (ب): «وهو إبليس اللعين».

﴿١٦﴾ ولما بيَّن خَلْقَ الثَّقَلَين ومادة ذٰلك[١]، وكان ذٰلك مِنَّةً منه تعالى عليهم[٢]؛ قال: ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؟!

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ أي: هو تعالى ربُّ كلِّ ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيِّرة، وكلِّ ما غربت عليه، وكلِّ ما كانا فيه؛ فالجميع تحت[٣] تدبيره وربوبيته، وثنَّاهما هنا باعتبار مشارقها شتاءً وصيفاً. والله أعلم[٤].

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿١٩ ـ ٢٣﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح؛ فهما يلتقيان [كلاهما]، فيصبُّ العذب في البحر المالح ويختلطان ويمتزجان، ولٰكنَّ الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصُلَ النفع بكلٍّ منهما؛ فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيبُ الهواء ويتولَّد الحوت والسمك واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرًّا مسخراً للسفن والمراكب، ولهٰذا قال:

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ أي: وسخَّر تعالى لعباده السفن الجواري التي تمخرُ البحر وتشقُّه بإذن الله، التي ينشئها الآدميون، فتكون من عِظَمِها وكبرها[٥] كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجاراتهم وغير ذٰلك ممّا تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظُ السماواتِ والأرض، وهٰذه من نعم الله الجليلة، ولهٰذا[٦] قال: ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان﴾؟!

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ولما بين مادة الثقلين». (٢) في (ب): «على عباده».
(٣) في (ب): «وكلما غربت عليه فهي تحت».
(٤) في (ب): «وثناهما هنا لإرادة العموم مشرقي الشمس شتاء وصيفاً ومغربها كذلك».
(٥) في (ب): «من كبرها وعظمها». (٦) في (ب): «فلذلك».

﴿٢٦ ـ ٢٨﴾ أي: كلُّ مَن على الأرض من إنسٍ وجنٍّ ودوابٍّ وسائر المخلوقات يفنى [ويموت] ويبيد، ويبقى الحيُّ الذي لا يموت، ﴿ذو الجلال والإكرام﴾؛ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظَّم ويبجَّل ويجلُّ لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، الذي يكرم أولياءه وخواصَّ خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرِمُه أولياؤه ويجلُّونه ويعظِّمونه ويحبُّونه وينيبون إليه ويعبدونه. ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبانِ﴾؟!

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٠﴾ أي: هو الغنيُّ بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسعُ الجود والكرم، فكلُّ الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ من ذٰلك، وهو تعالى ﴿كلَّ يوم هو في شأنٍ﴾: يغني فقيراً ويجبرُ كسيراً ويعطي قوماً، ويمنع آخرينَ، ويميتُ، ويُحيي، ويخفض، ويرفع[١]، لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ، ولا تغلِّطُه المسائل، ولا يبرِمُه إلحاح الملحين، ولا طول مسألةِ السائلين. فسبحان الكريم الوهَّاب، الذي عمَّت مواهبه أهل الأرض والسماواتِ، وعمَّ لطفه جميعَ الخلق في كلِّ الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء[٢] معصيةُ العاصين ولا استغناءُ الفقراء الجاهلين به وبكرمِهِ.

وهٰذه الشؤون التي أخبر أنَّه [تعالى] ﴿كلَّ يوم هو في شأنٍ﴾: هي تقاديره وتدابيره التي قدَّرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمته، وهي أحكامُه الدينيَّة التي هي الأمر والنهي، والقدريَّة التي يُجريها على عباده مدَّة مقامهم في هٰذه الدار، حتى إذا تمَّتْ هٰذه الخليقة، وأفناهم[٣] اللّه تعالى، وأراد أن ينفِّذَ فيهم أحكام الجزاء ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه ما به يعرِفونه ويوحِّدونه؛ نقل المكلَّفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان، وفرغ حينئذٍ لتنفيذ هٰذه الأحكام التي جاء وقتُها، وهو المراد بقولِهِ:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ويرفع ويخفض». (٢) في (ب): «العطاء».
(٣) في (ب): «وأفنى».

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ أي: سَنَفْرُغُ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدُّنيا.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ [لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾]﴾[1].

﴿٣٣ ـ ٣٤﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة؛ أخبرهم بعجزهم وضَعْفهم وكمال سلطانِهِ ونفوذ مشيئتِهِ وقدرتِهِ، فقال معجِّزاً لهم: ﴿**يا معشر الجنّ والإنس إنِ اسْتَطَعْتُم أن تَنفُذوا من أقطارِ السمٰواتِ والأرضِ**﴾؛ أي: تجدون مسلكاً ومنفذاً[2] تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿**فانفُذوا لا تَنفُذونَ إلَّا بسلطانٍ**﴾؛ أي: لا تخرجون منه إلَّا بقوَّةٍ وتسلُّطٍ منكم وكمال قدرةٍ، وأنَّى لهم ذٰلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؛ ففي ذٰلك الموقف لا يتكلَّم أحدٌ إلَّا بإذنه، ولا تسمعُ إلَّا همساً، وفي ذٰلك الموقف يستوي الملوك والمماليك والرؤساء والمرؤوسون والأغنياء والفقراء.

ثم ذكر ما أعدَّ لهم في ذٰلك اليوم[3]، فقال:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾[4].

﴿٣٥ ـ ٣٦﴾ أي: ﴿**يرسَل عليكما**﴾ لهبٌ صافٍ من النار ﴿**ونحاسٌ**﴾ وهو اللهب الذي قد خالَطَه الدخانُ. والمعنى: أنَّ هٰذين الأمرين الفظيعين يرسلانِ عليكما [يا معشر الجن والإنس] ويحيطانِ بكما فلا تنتصران؛ لا بناصرٍ من أنفسكم، ولا بأحدٍ ينصُرُكم من دون الله. ولما كان تخويفُهُ لعباده نعمةً منه عليهم وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب؛ ذكر منَّته بذٰلك فقال[5]: ﴿**فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ**﴾؟!

[﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ

---

(١) ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

(٢) في (ب): «منفذاً أو مسلكاً».

(٣) في (ب): «في ذلك الموقف العظيم».

(٤) ذكرت الآيات في (أ). ولم تذكر في (ب).

(٥) في (ب): «امتن عليهم فقال».

فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾][1].

﴿٣٧ ـ ٣٨﴾ ﴿فإذا انشقَّتِ السماءُ﴾؛ أي: يوم القيامة من الأهوال وكثرة البلبال وترادُف الأوجال، فانخسفتْ شمسُها وقمرُها، وانتثرتْ نجومُها؛ ﴿فكانت﴾: من شدَّة الخوفِ والانزعاج ﴿وردةً كالدِّهانِ﴾؛ أي: كانت كالمهل والرصاص المذابِ ونحوه. ﴿فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان﴾؟!

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ﴿فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جانٌّ﴾؛ أي: سؤال استعلام بما وقع؛ لأنَّه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخيرِ والشرِّ يوم القيامةِ علاماتٍ يُعرفون بها؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ﴾.

﴿٤١ ـ ٤٢﴾ وقال هنا: ﴿يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم فيؤخَذُ بالنواصي والأقدام. فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؛ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيُلْقَوْنَ في النار ويُسحبون إليها. وإنَّما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقريرٍ بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنَّه تعالى يريد أن تَظْهَرَ للخلق حجَّته البالغة وحكمته الجليلة.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣ ـ ٤٥﴾ أي: يقالُ للمكذِّبين بالوعد والوعيد حين تُسَعَّر الجحيم: ﴿هذه جهنَّمُ التي يكذِّبُ بها المجرمون﴾: فلْيهنهم تكذيبُهم بها، ولْيذوقوا من عذابها ونَكالها وسعيرها وأغلالها ما هو جزاءٌ لهم على تكذيبهم[2]، يطوفون بين أطباق الجحيم ولهبها، ﴿وبين حميم آنٍ﴾؛ أي: ماء حارٌّ جدًّا قد انتهى حرُّه، وزمهريرٍ قد اشتدَّ بردُه وقرُّه. ﴿فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبانِ﴾؟!

ولما ذكر ما يُفعل بالمجرمين؛ ذكر جزاء المتَّقين الخائفين، فقال:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ [3]ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ

(١) الآيات زيادة على النسختين.
(٢) في (ب): «ما هو جزاء لتكذيبهم».
(٣) في النسختين: إلى آخر السورة.

﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ
ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ
خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ
خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾».

﴿٤٦ ـ ٤٧﴾ أي: وللذي خاف ربَّه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به؛ له ﴿جنَّتانِ﴾ من ذهبٍ آنيتهما وحليتهما وبنيانهما وما فيهما، إحدى الجنتين جزاءً على ترك المنهيَّات، والأخرى على فعل الطَّاعات.

﴿٤٨ ـ ٤٩﴾ ومن أوصاف تلك الجنتين أنَّهما ﴿ذواتا أفنانٍ﴾؛ أي: فيهما من ألوان النَّعيم المتنوِّعة؛ نعيم الظاهر والباطن؛ ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلب بشرٍ؛ أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة، ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللَّذيذة.

﴿٥٠ ـ ٥١﴾ وفي تلك الجنتين ﴿عينانِ تجريانِ﴾: يفجِّرونَهما على ما يريدون ويشتهون.

﴿٥٢ ـ ٥٣﴾ ﴿فيهما من كلِّ فاكهةٍ﴾: من جميع أصناف الفواكه ﴿زوجان﴾؛ أي: صنفان؛ كلُّ صنف له لَذَّةٌ ولونٌ ليس للنوع الآخر.

﴿٥٤ ـ ٥٥﴾ ﴿متكئين على فرشٍ بطائنُها من إستبرقٍ﴾: هذه صفة فُرُشِ أهل الجنَّة وجلوسهم عليها، وأنَّهم متَّكئون عليها؛ أي: جلوسَ تمكُّن واستقرار وراحةٍ؛ كجلوس الملوك على الأسرَّة، وتلك الفُرُش لا يعلم وصفَها وحسنَها إلَّا اللَّه تعالى[1]، حتى إنَّ بطائنها التي تلي الأرض منها من إستبرقٍ وهو أحسن الحرير

---

(١) في (ب): «عزّ وجلّ».

وأفخره؛ فكيف بظواهرها التي يباشرون[١]، ﴿وجنى الجنَّتينِ دانٍ﴾: الجنى هو الثمر المستوي؛ أي: وثمر هاتين الجنتين قريبُ التناول، ينالُه القائم والقاعدُ والمضطجع.

﴿٥٦ ـ ٥٩﴾ ﴿فيهنَّ قاصراتُ الطرفِ﴾؛ أي: قد قصرنَ طرفهنَّ على أزواجهنَّ من حسنهم وجمالهم وكمال محبتهنَّ لهم، وقصرنَ أيضاً طرفَ أزواجهنَّ عليهنَّ من حسنهنَّ وجمالهنَّ ولَذَّةِ وصالهنَّ وشدَّة محبَّتهنَّ، ﴿لم يطمثهنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ﴾؛ أي: لم ينلهنَّ أحدٌ قبلهم[٢] من الإنس والجنِّ، بل هنَّ أبكارٌ عربٌ متحبِّباتٌ إلى أزواجهنَّ؛ بحسن التبعُّل والتغنُّج والملاحة والدَّلال، ولهٰذا قال: ﴿كأنهنَّ الياقوت والمرجان﴾، وذٰلك لصفائهنَّ وجمال منظرهنَّ وبهائهنَّ.

﴿٦٠ ـ ٦١﴾ ﴿هل جزاءُ الإحسان إلَّا الإحسان﴾؛ أي: هل جزاء مَن أحسن في عبادة الخالق، ونفع عبيدَه إلَّا أن يُحْسَنَ إليه بالثواب الجزيل والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم؟ فهاتان الجنَّتان العاليتان للمقرَّبين.

﴿٦٢ ـ ٦٩﴾ ﴿ومن دونِهما جنَّتانِ﴾: من فضَّة بنيانهما وحليتهما وآنيتهما[٣] وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتانِ ﴿مدهامَّتان﴾؛ أي: سوداوان من شدَّة الخضرة والريِّ[٤]، ﴿فيهما عينان نَضَّاختانِ﴾؛ أي: فوَّارتان، ﴿فيهما فاكهةٌ﴾: من جميع أصناف الفواكه، وأخصُّها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما.

﴿٧٠ ـ ٧٥﴾ ﴿فيهنَّ﴾؛ أي: في الجنات كلِّها ﴿خيراتٌ حسانٌ﴾؛ أي: خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعنَ بين جمال الظاهر والباطن وحسن الخَلْق والخُلُق. ﴿حورٌ مقصوراتٌ في الخيام﴾؛ أي: محبوسات في خيام اللؤلؤ، قد تهيأنَ وأعددنَ أنفسهنَّ لأزواجهنَّ، ولا ينفي ذٰلك خروجهنَّ في البساتين ورياض الجنة كما جرت العادةُ لبنات الملوك المخدَّرات الخَفِرات[٥]، ﴿لم يطمثهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ. فبأيِّ آلاء ربِّكما تكذِّبان﴾؟!

﴿٧٦ ـ ٧٧﴾ ﴿متَّكئين على رفرفٍ خضرٍ﴾؛ أي: أصحاب هاتين الجنتين متَّكأهم على الرفرف الأخضر، وهي الفرش التي تحت[٦] المجالس العالية، التي قد زادت على مجالسهم، فصار لها رفرفة من وراء مجالسهم؛ لزيادة البهاء وحسن

---

(١) في (ب): «التي تلي بشرتهم».
(٢) في (ب): «لم ينلهنّ قبلهم أحد».
(٣) في (ب): «وآنيتهما وحليتهما».
(٤) في (ب): «الخضرة التي هي أثر الرّي».
(٥) في (ب): «ونحوهنّ الخَفِرات».
(٦) في (ب): «فوق».

المنظر، ﴿وعبقريٍّ حسانٍ﴾: العبقريُّ نسبةٌ لكلِّ منسوج نسجاً حسناً فاخراً، ولهٰذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة و [حسن] المنظر ونعومة الملمس وهاتان الجنتان دون الجنتين الأولَيَيْن؛ كما نصَّ اللّه على ذٰلك بقوله: ﴿ومن دونِهما جنَّتانِ﴾، وكما وصف الأوليين بعدَّة أوصاف لم يصِفْ به[1] الأخريين، فقال في الأوليين: ﴿فيهما عينان تجريانِ﴾، وفي الأخريين: ﴿عينان نضَّاختان﴾: ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضَّاخة، وقال في الأوليين: ﴿ذواتا أفنانٍ﴾، ولم يقلْ ذٰلك في الأخريين، وقال في الأوليين: ﴿فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجانِ﴾، وفي الأخريين: ﴿فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمانٌ﴾، وقد عُلِمَ ما بين الوصفين من التفاوت. وقال في الأوليين: ﴿متَّكئين على فرشٍ بطائنها من إستبرقٍ وجنى الجنَّتين دانٍ﴾، ولم يقلْ ذٰلك في الأخريين، بل قال: ﴿متكئينَ على رفرفٍ خضرٍ وعبقريٍّ حسانٍ﴾، وقال في الأوليين في وصف نسائهم وأزواجهم: ﴿فيهن قاصراتُ الطرفِ [لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان]﴾، وفي الأخريين: ﴿حور مقصوراتٌ في الخيام﴾، وقد عُلم التفاوت بين ذٰلك، وقال في الأوليين: ﴿هل جزاءُ الإحسان إلَّا الإحسانُ﴾، فدلَّ ذٰلك أنَّ الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذٰلك في الأخيرتين، ومجرَّد تقديم الأوليين على الأخريين يدلُّ على فضلهما.

فبهٰذه الأوجه يُعْرَفُ فضلُ الأوليين على الأخريين، وأنهما معدَّتان للمقرَّبين من الأنبياء والصدِّيقين وخواصِّ عباد اللّه الصالحين، وأنَّ الأخريين معدَّتان لعموم المؤمنين. وفي كلٍّ من الجنات المذكورات ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب بشرٍ، وفيهنَّ ما تشتهيه الأنفسُ وتلذُّ الأعين، وأهلهنَّ في غاية الراحة والرضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إنَّ كلَّ واحدٍ منهم[2] لا يرى أحداً أحسن حالاً منه ولا أعلى من نعيمِهِ الذي هو فيه.

﴿٧٨﴾ ولـمَّا ذكر سعةَ فضله وإحسانه؛ قال: ﴿تبارك اسمُ ربِّك ذي الجلال والإكرام﴾؛ أي: تعاظم وكثر خيره الذي له الجلال الباهر والمجدُ الكامل والإكرام لأوليائه.

تم تفسير سورة الرحمٰن. وللّه الحمد والشكر والثناء الحسن

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «بها».

(٢) في (ب): «حتى إنّ كلًّا منهم لا يرى».

# تفسير سورة الواقعة

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ [ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾](١).

﴿١ ـ ٣﴾ يخبر تعالى بحال الواقعة التي لا بدَّ من وقوعها، وهي القيامة، التي ﴿ليس لوقعتها كاذِبةٌ﴾؛ أي: لا شكَّ فيها؛ لأنَّها قد تظاهرت عليها الأدلَّة العقليَّة والسمعيَّة، ودلَّت عليها حكمته تعالى ﴿خافضةٌ رافعةٌ﴾؛ أي: خافضةٌ لأناس في أسفل سافلين، رافعةٌ لأناس في أعلى عليين، أو: خفضت بصوتها فأسمعت القريب، ورفعتْ فأسمعتِ البعيد.

﴿٤ ـ ٦﴾ ﴿إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا﴾؛ أي: حُركت واضطربتْ، ﴿وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا﴾؛ أي: فتت، ﴿فكانت هباءً منبثًّا﴾: فأصبحت ليس عليها جبلٌ ولا مَعْلَمٌ، قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

﴿٧ ـ ٩﴾ ﴿وكنتم﴾: أيُها الخلق، ﴿أزواجاً ثلاثةً﴾؛ أي: انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة. ثم فصَّل أحوال الأزواج الثلاثة، فقال: ﴿فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ﴾: تعظيمٌ لشأنهم وتفخيمٌ لأحوالهم، ﴿وأصحابُ المشأمةِ﴾؛ أي: الشمال، ﴿ما أصحابُ المشأمةِ﴾: تهويلٌ لحالهم.

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ ﴿والسابقون السابقون. أولٰئك المقرَّبون﴾؛ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات، أولٰئك الذين هٰذا وصفهم المقرَّبون عند الله ﴿في جنات النعيم﴾: في أعلى علِّيين، في المنازل العاليات التي لا منزلة فوقها، وهٰؤلاء المذكورون ﴿ثُلَّةٌ من الأوَّلين﴾؛ أي: جماعة كثيرون من المتقدِّمين من هٰذه الأمة وغيرهم. ﴿وقليلٌ من الآخِرينَ﴾: وهٰذا يدلُّ على فضل صدر هٰذه الأمَّة في الجملة على متأخِّريها[١]؛ لكون المقرَّبين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقرَّبون هم خواصُّ الخلق.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ﴿على سررٍ موضونةٍ﴾؛ أي: مرمولةٍ بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذٰلك من الحليِّ والزينة التي لا يعلمها إلَّا الله تعالى، ﴿متكئين عليها﴾؛ أي: على تلك السرر، جلوس تمكُّن وطمأنينةٍ وراحةٍ واستقرارٍ، ﴿متقابلين﴾: وجه كلٍّ منهم إلى وجه صاحبه؛ من صفاء قلوبهم وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم[٢].

﴿١٧ ـ ١٩﴾ ﴿يطوفُ عليهم ولدانٌ مخلَّدونَ﴾؛ أي: يدور على أهل الجنة لخدمتهم[٣] وقضاء حوائجهم ولدانٌ صغارُ الأسنانِ في غاية الحسن والبهاء. ﴿كأنَّهم لؤلؤٌ مكنونٌ﴾؛ أي: مستورٌ لا يناله ما يغيِّره، مخلوقون للبقاء والخلد؛ لا يهرمون ولا يتغيَّرون ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شرابهم؛ ﴿بأكوابٍ﴾: وهي التي لا عُرى لها، ﴿وأباريقَ﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وكأسٍ من مَعينٍ﴾؛ أي: من خمرٍ لذيذِ المشربِ لا آفة فيه، ﴿لا يُصَدَّعونَ عنها﴾؛ أي: لا تصدِّعهم رؤوسُهم كما تصدِّعُ خمرة الدُّنيا رأس شاربها، ولا هم عنها ﴿يُنزِفونَ﴾؛ أي: لا تُنْزَفُ عقولهم ولا تذهب أحلامُهم منها كما يكون لخمر الدنيا. والحاصلُ أنَّ كلَّ[٤] ما في الجنة من [أنواع] النعيم الموجود جنسه في الدُّنيا لا يوجد في الجنة فيه آفةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُه وأنهارٌ من خمرٍ لَذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسل مُصَفًّى﴾، وذكر هنا خمر الجنَّة، ونفى عنه كلَّ آفة توجد في الدُّنيا.

﴿٢٠﴾ ﴿وفاكهةٍ مما يتخيَّرون﴾؛ أي: مهما تخيَّروا وراق في أعينهم واشتهته

(١) في (ب): «متأخرها».
(٢) في (ب): «وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم».
(٣) في (ب): «للخدمة».
(٤) في (ب): «أن جميع ما».

نفوسُهم من أنواع الفواكه الشهيَّة والجنى اللذيذة؛ حَصَلَ لهم على أكمل وجهٍ وأحسنه.

﴿٢١﴾ ﴿ولحم طيرٍ ممَّا يشتهون﴾؛ أي: من كلِّ صنف من الطيور يشتهونه، ومن أيِّ جنس من لحمه أرادوا؛ إن شاؤوا[1] مشويًّا أو طبيخاً أو غير ذٰلك.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ﴿وحورٌ عينٌ كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾؛ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحلٌ وملاحةٌ وحسنٌ وبهاءٌ، والعِينُ حسانُ الأعين ضخامها[2]، وحسنُ عين الأنثى[3]، من أعظم الأدلَّة على حسنها وجمالها. ﴿كأمثال اللُّؤلؤ المكنونِ﴾؛ أي: كأنَّهن اللؤلؤ [الأبيض] الرطبُ الصافي البهيُّ المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونُه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجهٍ من الوجوه؛ فكذٰلك الحور العين، لا عيبَ فيهنَّ بوجهٍ، بل هنَّ كاملاتُ الأوصاف جميلاتُ النُّعوت؛ فكلُّ ما تأمَّلته منها؛ لم تجدْ فيه إلَّا ما يسرُّ القلب[4] ويروق الناظر.

﴿٢٤﴾ وذٰلك النعيم المعدُّ لهم ﴿جزاءً بما كانوا يعملون﴾؛ فكما حَسُنَتْ منهم الأعمال؛ أحسن الله لهم الجزاء، ووفَّر لهم الفوز والنعيم.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾؛ أي: لا يسمعون في جنَّاتِ النعيم كلاماً يُلغي، ولا يكون فيه فائدةً ولا كلاماً يؤثم صاحبه ﴿إلَّا قيلاً سلاماً سلاماً﴾؛ أي: إلَّا كلاماً طيباً، وذٰلك لأنَّها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلَّا كلُّ طيبٍ، وهٰذا دليلٌ على حسن أدب أهل الجنَّة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيبُ كلامٍ وأسرُّه للقلوب[5] وأسلمه من كلِّ لغوٍ وإثم، نسأل الله من فضله.

[﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾][6].

---

(١) في (ب): «وإن شاؤوا».
(٢) في (ب): «والعين ضخام الأعين».
(٣) في (ب): «وحسن العين في الأنثى».
(٤) في (ب): «الخاطر».
(٥) في (ب): «للنفوس».
(٦) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

﴿٢٧ ـ ٣٤﴾ ثم ذَكَرَ ما أعدَّ لأصحاب اليمين[1]، فقال: ﴿وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين﴾؛ أي: شأنُهم عظيمٌ وحالهم جسيمٌ، ﴿في سدرٍ مخضودٍ﴾؛ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرَّديئة المضرَّة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب. وللسِّدْرِ من الخواصِّ الظلُّ الظَّليل وراحة الجسم فيه، ﴿وطلح منضودٍ﴾: والطَّلح معروفٌ، وهو شجرٌ كبارٌ يكون بالبادية تُنَضَّدُ أغصانه من الثمر اللذيذ الشهي، ﴿وماءٍ مسكوبٍ﴾؛ أي: كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفِّقة، ﴿وفاكهةٍ كثيرةٍ. لا مقطوعةٍ ولا ممنوعةٍ﴾؛ أي: ليست بمنزلة فاكهة الدُّنيا؛ تنقطعُ في وقتٍ من الأوقات وتكون ممتنعةً؛ أي: متعسِّرة على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودةٌ، وجناها قريبٌ يتناوله العبد على أيِّ حال يكون، ﴿وفُرُشٍ مرفوعةٍ﴾؛ أي: مرفوعة فوق الأسرَّة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلَّا الله.

﴿٣٥ ـ ٣٨﴾ ﴿إنَّا أنشأناهنَّ إنشاءً﴾؛ أي: إنَّا أنشأنا نساءَ أهل الجنة نشأةً غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأةً كاملةً، لا تقبل الفناء، ﴿فَجَعَلْناهنَّ أبكاراً﴾: صغارهنَّ وكبارهنَّ، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأنَّ هذا الوصف ـ وهو البكارةُ ـ ملازم لهنَّ في جميع الأحوال؛ كما أنَّ كونهنَّ ﴿عُرُباً أتراباً﴾: ملازمٌ لهنَّ في كلِّ حال، والعَروبُ هي المرأة المتحبِّبة إلى بعلها بحسن لفظها وحسن هيئتها ودلالها وجمالها ومحبَّتها؛ فهي التي إن تكلَّمت سبتِ العقول، ووَدَّ السامعُ أنَّ كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهنَّ بتلك الأصوات الرخيمة والنَّغمات المطربة، وإنْ نَظَرَ إلى أدبها وسمتها ودلِّها؛ ملأت قلبَ بعلها فرحاً وسروراً، وإن انتقلت[2] من محلٍّ إلى آخر؛ امتلأ ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخُلُ في ذلك الغنجة عند الجماع، والأتراب: اللاتي على سنٍّ واحدةٍ ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غايةُ ما يتمنَّى ونهاية سنِّ الشباب؛ فنساؤهم عربٌ أترابٌ متفقاتٌ مؤتلفاتٌ راضياتٌ مرضياتٌ لا يَحْزَنَّ ولا يُحْزِنَّ، بل هنَّ أفراح النفوس وقُرَّة العيون وجلاء الأبصار، ﴿لأصحاب اليمين﴾؛ أي: معدات لهم مهيَّآت.

﴿٣٩ ـ ٤٠﴾ ﴿ثلَّةٌ من الأوَّلين. وثُلَّةٌ من الآخرين﴾؛ أي: هذا القسم، وهم[3]

---

(١) في (ب): «ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين». (٢) في (ب): «برزت».

(٣) في (ب): «من».

أصحاب اليمين، عددٌ كثيرٌ من الأوَّلين وعدد كثيرٌ من الآخرينِ.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿٤١ ـ ٤٤﴾ المرادُ بأصحاب الشمال هم أصحابُ النارِ والأعمال المشؤومة، فذكر اللّه لهم من العقاب ما هم حقيقون به، فأخبر أنَّهم ﴿في سَموم﴾؛ أي: ريح حارَّة من حرِّ نار جهنَّم؛ تأخذ[1] بأنفاسِهِم، وتقلِقُهم[2] أشدَّ القلق، ﴿وحميم﴾؛ أي: ماءٍ حارٍّ يقطِّع أمعاءهم، ﴿وظِلٍّ من يَحْموم﴾؛ أي: لهب نارٍ يختلط[3] بدخان، ﴿لا باردٍ ولا كريم﴾؛ أي: لا بردَ فيه ولا كرم. والمقصودُ أنَّ هناك الهمَّ والغمَّ والحزنَ والشرَّ الذي لا خير فيه؛ لأنَّ نفي الضدِّ إثباتٌ لضدِّه.

﴿٤٥ ـ ٤٨﴾ ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هٰذا الجزاء، فقال: ﴿إنَّهم كانوا قبل ذٰلك مُتْرَفينَ﴾؛ أي: قد ألهتْهم دنياهم وعمِلوا لها وتنعَّموا وتمتَّعوا بها، فألهاهم الأملُ عن إحسان العمل؛ فهٰذا الترفُ الذي ذمَّهم اللّه عليه، ﴿وكانوا يُصِرُّونَ على الحِنثِ العظيم﴾؛ أي: وكانوا يفعلون الذُّنوب الكبار ولا يتوبون منها ولا يندمون عليها، بل يصرُّون على ما يُسْخِطُ مولاهم، فقَدِموا عليه بأوزارٍ كثيرةٍ غير مغفورةٍ، وكانوا يُنْكِرونَ البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أإذا مِتْنا وكُنَّا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثونَ. أوَ آباؤنا الأوَّلونَ﴾؛ أي: كيف نُبْعَثُ بعد موتنا وقد بلينا فكُنَّا تراباً وعظاماً! هٰذا من المحال[4].

قال تعالى في جوابهم[5]:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾

---

(١) في (ب): «يأخذ». (٢) في (ب): «يقلقهم».
(٣) في (ب): «مختلط».
(٤) في (ب): «فكنا تراباً وعظاماً ﴿أإنا لمبعثون. أو آباؤنا الأولون﴾».
(٥) في (ب): «قال تعالى جواباً لهم وردًّا عليهم».

فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾][1].

﴿٤٩ ـ ٥٠﴾ أي: قل: إنَّ متقدِّم الخلق ومتأخِّرهم؛ الجميع سيبعثهم اللّه ويجمعهم لميقات يوم معلوم قدَّره اللّه لعباده حين تنقضي الخليقة، ويريد اللّه [تعالى] جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

﴿٥١ ـ ٥٣﴾ ﴿ثم إنَّكم أيُّها الضالُّون﴾: عن طريق الهدى، التابعون لطريق الرَّدى، ﴿المكذِّبون﴾: بالرسول ﷺ وما جاء به من الحقِّ والوعد والوعيد، ﴿لآكلون من شجرٍ من زَقوم﴾: وهو أقبح الأشجار وأخسُّها وأنتنُها ريحاً وأبشعها منظراً، ﴿فمالِئونَ منها البطونَ﴾: والذي أوجب لهم أكلها مع ما هي عليه من الشناعة، الجوعُ المفرِطُ الذي يلتهبُ في أكبادِهم وتكادُ تنقطعُ منه أفئدتهم، هٰذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمِنُ ولا يُغْني من جوع.

﴿٥٤ ـ ٥٦﴾ وأما شرابهم؛ فهو بئس الشرابُ، وهو أنهم يشربون على هٰذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون ﴿شُرْبَ الهيم﴾: وهي الإبل العطاش[2]، التي قد اشتدَّ عَطَشها، أو أنَّ الهَيَم داءٌ يصيب الإبل لا تَرْوَى معه من شرب الماء. ﴿هٰذا﴾: الطعام والشراب ﴿نُزُلهم﴾؛ أي: ضيافتهم ﴿يومَ الدِّين﴾: وهي الضيافة التي قدَّموها لأنفسهم وآثروها على ضيافةِ اللّه لأوليائه؛ قال تعالى: ﴿إنَّ الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحاتِ كانتْ لهم جنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً. خالدين فيها لا يَبْغونَ عنها حِوَلاً﴾.

﴿٥٧﴾ ثم ذكر الدليل العقليَّ على البعث، فقال: ﴿نحن خَلَقْناكم فلولا تصدِّقونَ﴾؛ أي: نحن الذين أوجَدْناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً من غير عجزٍ ولا تعبٍ، أفليس القادر على ذٰلك بقادرٍ على أن يُحيي الموتى؟ بلى إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ولهٰذا وبَّخهم على عدم تصديقهم بالبعث وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

---

(١) الآيات ما بين المعقوفتين زيادة على النسختين.

(٢) في (ب): «شرب الإبل الهيم أي: العطاش».

﴿٥٨ ـ ٦٢﴾ أي: ﴿أفرأيتم﴾ ابتداء خَلْقِكُم من المنيِّ الذي ﴿تُمنون﴾ فهل أنتم خالقون ذٰلك المنيِّ، وما ينشأ منه أم اللّه تعالى الخالق؟ الذي خَلَقَ فيكم من الشهوة وآلتها في[1] الذكر والأنثى، وهدى كلاً منهما لما هنالك، وحبَّب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودَّة والرَّحمة ما هو سبب التناسل[2]، ولهٰذا أحالهم اللّهُ تعالى بالاستدلال[3] بالنَّشأة الأولى على النشأة الأخرى، فقال: ﴿ولقد علمتُمُ النَّشأةَ الأولى فلولا تَذَكَّرونَ﴾: أنَّ القادر على ابتداء خلقكم قادرٌ على إعادتكم.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿٦٣ ـ ٦٧﴾ وهٰذا امتنانٌ منه على عباده؛ يدعوهم به إلى توحيدِهِ وعبادتِهِ والإنابةِ إليه؛ حيث أنعم عليهم بما يسَّره لهم من الحرث للزُّروع والثمار، فيخرجُ من ذٰلك من الأقوات والأرزاق والفواكه ما هو من ضروراتهم وحاجاتهم ومصالحهم التي لا يقدِرون أن يُحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقِّها، فقرَّرهم بمنَّته، فقال: ﴿أأنتُم تَزْرَعونَه أم نحنُ الزَّارِعونَ﴾؛ أي: أنتم أخرجْتُموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتُم الذي نمَّيتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سُنْبله وثمرَه حتى صار حبًّا حصيداً وثمراً نضيجاً؟ أم اللّه الذي انفرد بذٰلك وحدَه وأنعم به عليكم، وأنتم غايةُ ما تفعلون أن تحرُثوا الأرض، وتشقُّوها، وتُلْقوا فيها البذرَ، ثم[4] لا علم عِندكم بما يكون بعد ذٰلك ولا قدرةَ لكم على أكثر من ذٰلك؟ ومع ذٰلك؛ فنبَّههم على أنَّ ذٰلك الحرثَ معرضٌ للأخطار لولا حفظُ اللّه وإبقاؤه بُلغةً لكم ومتاعاً إلى حين. فقال: ﴿لو نشاء لجعلناه﴾؛ أي: الزرع المحروث وما فيه من الثمار ﴿حُطاماً﴾؛ أي: فتاتاً متحطِّماً لا نفع فيه ولا رزق، ﴿فظَلْتُمْ﴾؛ أي: فصرتُم بسبب جعله حطاماً بعد أن تعبتم فيه، وأنفقتم النفقات الكثيرة، ﴿تفكَّهونَ﴾؛ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم، ويزول بذٰلك فرحُكم وسرورُكم وتفكُّهكم، فتقولون: ﴿إنَّا لَمُغْرَمونَ﴾؛ أي: إنَّا قد نقصنا وأصابتنا مصيبةٌ اجتاحَتْنا. ثم تعرفون بعد ذٰلك من أين أتيتُم، وبأيِّ سبب دُهيتم؟ فتقولون: ﴿بل نحنُ محرومونَ﴾! فاحْمَدوا اللّه تعالى حيث زَرَعَه [اللّهُ] لكم، ثم أبقاه وكمَّله لكم، ولم يرسلْ عليه من الآفات ما به تُحرمون من نفعِهِ وخيرِهِ.

(١) في (ب): «من».
(٢) في (ب): «للتناسل».
(٣) في (ب): «على الاستدلال».
(٤) في (ب): «ثم بعد ذلك».

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿٦٨ ـ ٧٠﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام؛ ذَكَرَ نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنَّه لولا أنَّ اللّه يسَّره وسهَّله؛ لما كان لكم إليه سبيلٌ[1]، وأنَّه الذي أنزله ﴿من المزنِ﴾: وهو السحابُ والمطرُ الذي يُنْزِلُه اللّه تعالى، فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدرانُ المتدفِّقة، ومن نعمته تعالى أن جعله عذباً فراتاً تُسيغُه النفوس، ولو شاء؛ لَجَعَلَهُ ملحاً ﴿أجاجاً﴾: لا يُنتفع به[2]، ﴿فلولا تشكرون﴾: اللّه تعالى على ما أنعم به عليكم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿٧١ ـ ٧٣﴾ وهٰذه نعمةٌ تدخل في الضروريَّات التي لا غنى للخلق عنها؛ فإنَّ الناس محتاجون إليها في كثيرٍ من أمورهم وحوائجهم، فقرَّرهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأنَّ الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها، وإنَّما اللّه تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر؛ فإذا هي نارٌ توقد بقدر حاجة العباد؛ فإذا فرغوا من حاجتهم؛ أطفؤوها وأخمدوها. ﴿نحن جَعَلْناها تذكرةً﴾: للعباد بنعمة ربِّهم، وتذكرةً بنار جهنَّم التي أعدَّها اللّه للعاصين، وجعلها سوطاً يسوقُ به عبادَه إلى دار النعيم، ﴿ومتاعاً للمُقْوِين﴾؛ أي المنتفعين أو المسافرين، وخصَّ اللّه المسافرين؛ لأنَّ نفع المسافر بها أعظم من غيره، ولعلَّ السبب في ذٰلك لأنَّ الدُّنيا كلَّها دارُ سفرٍ، والعبدُ من حين ولد فهو مسافرٌ إلى ربِّه؛ فهٰذه النار جعلها اللّه متاعاً للمسافرين في هٰذه الدار وتذكرةً لهم بدار القرار.

﴿٧٤﴾ فلما بيَّن من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته؛ أمر بتسبيحه وتعظيمه[3]، فقال: ﴿فسبِّحْ باسم ربِّك العظيم﴾؛ أي: نزِّهْ ربَّك العظيم كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحْمَدْه بقلبك ولسانك وجوارِحكَ؛ لأنَّه أهلٌ لذٰلك، وهو المستحقُّ لأن يُشكَرَ فلا يُكْفَرَ ويُذْكَرَ فلا ينسى ويُطاعَ فلا يُعْصَى.

---

(١) في (ب): «سبيل إليه».

(٢) في (ب): «ملحاً أجاجاً مكروهاً للنفوس».

(٣) في (ب): «وتحميده».

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ
كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾
وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ
مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿٧٥ ـ ٧٦﴾ أقسم تعالى بالنُّجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاربها وما يُحدِثُ اللّه في تلك الأوقات من الحوادث الدالَّة على عظمته وكبريائه وتوحيده، ثم عظَّم هٰذا المقسم به، فقال: ﴿وإنَّه لقسمٌ لو تعلمون عظيمٌ﴾، وإنَّما كان القسم عظيماً؛ لأنَّ في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغاربها آياتٍ وعبراً لا يمكن حصرها.

﴿٧٧﴾ وأمَّا المقسَمُ عليه؛ فهو إثبات القرآن، وأنَّه حقٌّ لا ريب فيه ولا شكَّ يعتريه، وأنَّه ﴿كريمٌ﴾؛ أي: كثير الخير غزير العلم، فكلُّ خيرٍ وعلم؛ فإنَّما يُستفادُ من كتاب اللّه ويُستَنبَطُ منه.

﴿٧٨﴾ ﴿في كتابٍ مكنونٍ﴾؛ أي: مستورٍ عن أعين الخلق، وهٰذا الكتاب المكنون هو اللوحُ المحفوظُ؛ أي: أنَّ هٰذا القرآن مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، معظَّم عند اللّه وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويُحتمل أنَّ المراد بالكتاب المكنون هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين يُنْزِلُهُمُ اللّه لوحيه ورسالته[1]، وأنَّ المرادَ بذٰلك أنَّه مستورٌ عن الشياطين، لا قدرةَ لهم[2] على تغييره ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

﴿٧٩﴾ ﴿لا يَمَسُّهُ إلَّا المُطَهَّرونَ﴾؛ أي: لا يَمَسُّ القرآن إلَّا الملائكةُ الكرام، الذينَ طهَّرهم اللّه تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسُّه إلَّا المطهَّرون، وأنَّ أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم ولا يدان إلى مسِّه؛ دلَّت الآية تنبيهاً[3] على أنَّه لا يجوز أن يَمَسَّ القرآن إلَّا طاهرٌ [كما ورد بذلك الحديثُ، ولهذا قيل: إنّ الآية خبرٌ بمعنى النهي؛ أي: لا يمسُّ القرآن إلَّا طاهر].

(١) في (ب): «بوحيه وتنزيله».
(٢) في (ب): «لها».
(٣) في (ب): «بتنبيهها».

﴿٨٠﴾ ﴿تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾؛ أي: إنَّ هٰذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيلُ ربِّ العالمين، الذي يربِّي عباده بنعمه الدينيَّة والدنيويَّة، وأجلُّ[١] تربيةٍ ربَّى بها عباده إنزالُه هٰذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدَّارين، ورحم اللّه به العباد رحمةً لا يقدرون لها شكوراً، ومما يجب عليهم[٢] أن يقوموا به، ويعلنوه، ويدعوا إليه، ويصدعوا به.

﴿٨١﴾ ولهٰذا قال: ﴿أفبهٰذا الحديث أنتم مُدْهِنونَ﴾؛ أي: أفبهٰذا الكتاب العظيم والذِّكرِ الحكيم ﴿أنتم مُدْهِنون[٣]﴾؛ أي: تختفون وتدلِّسون خوفاً من الخلق وعارِهم وألسنتهم! هٰذا لا ينبغي ولا يَليقُ! إنَّما يليق أن يُداهَنَ بالحديث الذي لا يثقُ صاحبه منه، وأمَّا القرآن الكريم؛ فهو الحقُّ الذي لا يغالِبُ به مغالِبٌ إلَّا غَلَبَ، ولا يصول به صائلٌ إلَّا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يُداهَنُ به ويُختفى[٤]، بل يُصْدَعُ به ويُعْلَن.

﴿٨٢﴾ وقوله: ﴿وتجعلون رِزْقَكم أنَّكم تكذِّبون﴾؛ أي: تجعلون مقابلة منَّة اللّه عليكم بالرزق التكذيبَ والكفرَ لنعمة اللّه، فتقولون: مُطِرْنا بِنَوْء كذا وكذا![٥] وتضيفون النعمة لغير مُسديها ومُوليها؛ فهلَّا شكرتُم اللّه على إحسانه إذْ أنزله إليكم ليزيدَكم من فضله؛ فإنَّ التكذيب والكفر داعٍ لرفع النِّعم وحلول النِّقم.

﴿٨٣ ـ ٨٥﴾ ﴿فلولا إذا بلغتِ الحلقوم. وأنتم حينئذٍ تنظرونَ. ونحنُ أقربُ إليه منكُم ولٰكن لا تُبْصِرونَ﴾؛ أي: فهلَّا إذا بلغت الروحُ الحلقومَ، وأنتم تنظُرون المحتضر في هٰذه الحالة، والحال أنَّا نحن أقربُ إليه منكم بعلمنا وملائكتنا، ولٰكن لا تبصرون.

﴿٨٦ ـ ٨٧﴾ ﴿فلولا إن كنتُم غير مَدينينَ﴾؛ أي: فهلَّا إذ[٦] كنتُم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتُم صادقين﴾: وأنتم تقرُّون أنكم عاجزون عن ردِّها إلى موضعها؛ فحينئذٍ إمَّا أن تقرُّوا بالحقِّ الذي جاء[٧] به محمدٌ ﷺ، وإمَّا أن تعانِدوا فتعلم حالكم وسوء مآلكم.

---

(١) في (ب): «ومن أَجلِّ».
(٢) في (ب): «عليهم به».
(٣) في (ب): «تدهنون».
(٤) في (ب): «ولا يختفى».
(٥) كما في حديث زيد بن خالد الجهني: أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).
(٦) في (ب): «إذا».
(٧) في (ب): «جاءكم».

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصْحَٰبِ
ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ
مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

﴿٨٨ ـ ٨٩﴾ ذكر اللّه تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقرَّبين، وأصحاب اليمين، والمكذِّبين الضالِّين في أول السورةِ في دارِ القرارِ، ثم ذكر أحوالَهم في آخرها عند الاحتضارِ والموتِ، فقال: ﴿فأمّا إن كان من المقرَّبين﴾؛ أي: إن كان الميِّت من المقرَّبين إلى اللّه، المتقرِّبين إليه بأداء الواجبات والمستحبَّات وترك المحرَّمات والمكروهات[1] وفضول المباحات، ﴿فـ﴾ لهم ﴿روحٌ﴾؛ أي: راحةٌ وطمأنينةٌ وسرورٌ وبهجةٌ ونعيمُ القلب والروح، ﴿ورَيحانٌ﴾: وهو اسم جامعٌ لكل لذَّةٍ بدنيَّةٍ من أنواع المآكل والمشارب وغيرها، وقيل: الريحانُ هو الطيبُ المعروف، فيكون من باب التعبير[2] بنوع الشيء عن جنسه العام، ﴿وجنَّةُ نعيم﴾: جامعةٌ للأمرين كليهما، فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيبشَّر المقرَّبون عند الاحتضار بهٰذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحاً وسروراً[3]؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللّه ثم استقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبْشِروا بالجنَّةِ التي كُنتُم توعَدونَ. نحنُ أولياؤكم في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخرةِ ولكم فيها ما تَشْتَهي أنفسُكم ولكم فيها ما تدَّعونَ. نُزُلاً من غفورٍ رحيم﴾، وقد فُسِّرَ[4] قولُه [تبارك و] تعالى: ﴿لهم البُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة﴾: أنَّ هٰذه البشارة المذكورة هي البُشرى في الحياة الدنيا.

﴿٩٠ ـ ٩١﴾ وقوله: ﴿وأمّا إن كان من أصحابِ اليمين﴾؛ وهم الذين أدَّوا الواجبات وتركوا المحرَّمات، وإن حَصَلَ منهم بعضُ التقصير[5] في بعض الحقوق التي لا تُخِلُّ بإيمانهم وتوحيدهم، فيقالُ لأحدهم: ﴿سلامٌ لك من أصحابِ اليمين﴾؛ أي: سلامٌ حاصلٌ لك من إخوانك أصحاب اليمين؛ أي: يسلِّمون عليه،

---

(١) في (ب): «﴿فأما إن كان﴾ الميت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات».
(٢) في (ب): «فيكون تعبيراً بنوع».
(٣) في (ب): «من الفرح والسرور».
(٤) في (ب): «أوّل».
(٥) في (ب): «وحصل منهم التقصير».

ويحيُّونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلامٌ لك من الآفات والبليَّات والعذاب؛ لأنَّك من أصحاب اليمين، الذين سَلِموا من الموبقات.

﴿٩٢ ـ ٩٤﴾ ﴿وأمَّا إن كان من المكذِّبين الضَّالِّين﴾ أي: الذين كذَّبوا بالحقِّ وضلُّوا عن الهدى، ﴿فنُزُلٌ من حميم. وتصليةُ جَحيم﴾؛ أي: ضيافتهم يومَ قدومهم على ربِّهم تصليةُ الجحيم التي تَحيط بهم وتصِلُ إلى أفئدتهم، وإذا استغاثوا من شدَّة العطش والظمأ؛ ﴿يغاثوا بماءٍ كالمهل يَشْوي الوجوهَ بئس الشرابُ وساءتْ مُرْتَفَقاً﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿إنَّ هٰذا﴾: الذي ذكره اللّه تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرها وشرِّها وتفاصيل ذٰلك ﴿لَهُوَ حقُّ اليقينِ﴾؛ أي: الذي لا شكَّ فيه ولا مريةَ، بل هو الحقُّ الثابتُ الذي لا بدَّ من وقوعه، وقد أشهد اللّهُ عبادَه الأدلَّة القواطع على ذٰلك، حتى صار عند أولي الألباب كأنَّهم ذائقون له مشاهدونَ لحقيقتِهِ[1]، فحمدوا اللّه تعالى على ما خصَّهم من هٰذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

﴿٩٦﴾ ولهٰذا قال تعالى: ﴿فسبِّحْ باسم ربِّك العظيم﴾؛ فسبحان ربِّنا العظيم، وتعالى وتنزَّه عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً، والحمدُ للّه ربِّ العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

تم تفسير سورة الواقعة.

❃ ❃ ❃

# سورة الحديد

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

(١) في (ب): «مشاهدون له».

بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿١﴾ يخبرُ تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانِهِ أنَّ جميع ﴿ما في السمٰواتِ والأرض﴾ من الحيوانات الناطقة [والصامتة] وغيرها والجوامد تسبِّحُ بحمد ربِّها وتنزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله، وأنها قانتةٌ لربِّها، منقادةٌ لعزَّته، قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهٰذا قال: ﴿وهو العزيز الحكيم﴾؛ فهٰذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات العلويَّة والسفليَّة لربِّها في جميع أحوالها، وعموم عزَّته وقهره للأشياء كلِّها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

﴿٢﴾ ثم أخبر عن عموم ملكه، فقال: ﴿له ملكُ السمٰواتِ والأرضِ يحيي ويميتُ﴾؛ أي: هو الخالق لذٰلك، الرازق المدبِّر لها بقدرته، ﴿وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾.

﴿٣﴾ ﴿هو الأولُ﴾: الذي ليس قبلَه شيءٌ. ﴿والآخر﴾: الذي ليس بعدَه شيءٌ. ﴿والظاهر﴾: الذي ليس فوقَه شيءٌ. ﴿والباطن﴾: الذي ليس دونَه شيءٌ. ﴿وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾: قد أحاط علمُه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدِّمة والمتأخِّرة.

﴿٤﴾ ﴿هو الذي خلق السمٰواتِ والأرضَ في ستَّة أيام﴾: أولُها يومُ الأحد، وآخرُها يومُ الجمعة، ﴿ثم استوى على العرش﴾: استواءً يَليقُ بجلاله فوق جميع خلقه، ﴿يعلم ما يَلِجُ في الأرض﴾: من حبٍّ وحيوانٍ ومطرٍ وغير ذٰلك، ﴿وما يخرج منها﴾: من نبتٍ[1] وشجرٍ وحيوان وغير ذٰلك، ﴿وما ينزِلُ من السماء﴾: من الملائكة والأقدار والأرزاق، ﴿وما يَعْرُجُ فيها﴾: من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذٰلك، ﴿وهو معكم أينما كُنتم﴾؛ كقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلَّا هو رابِعُهم ولا خمسةٍ إلَّا هو سادسُهم ولا أدنى من ذٰلك ولا أكثر إلَّا هو معهم أينما كانوا﴾: وهٰذه المعيَّة معيَّةُ العلم والاطِّلاع، ولهٰذا توعَّد ووعد بالمجازاة[2] بالأعمال بقوله: ﴿والله بما تعلمون بصيرٌ﴾؛ أي: هو تعالى بصيرٌ بما يصدر منكم من الأعمال وما صدرت عنه تلك الأعمال من برٍّ وفجورٍ؛ فمجازيكم عليها وحافظها عليكم.

---

(١) في (ب): «نبات». (٢) في (ب): «على المجازاة».

﴿٥﴾ ﴿له ما في السمٰواتِ والأرضِ﴾: ملكاً وخلقاً وعبيداً يتصرَّف فيهم بما شاءه من أوامره القدريَّة والشرعيَّة الجارية على الحكمة الربَّانيَّة، ﴿وإلى اللّه تُرْجَعُ الأمور﴾: من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العبادُ، فيميز الخبيثُ من الطيِّب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

﴿٦﴾ ﴿يولِجُ الليل في النَّهار ويولِجُ النهارَ في الليل﴾؛ أي: يدخِلُ الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يُدْخِلُ النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرَّك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم، ولا يزال اللّهُ يكوِّر الليلَ على النهار والنهارَ على الليل، ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر، حتى تقومَ بذٰلك الفصول وتستقيمَ الأزمنة ويحصلَ من المصالح بذٰلك ما يحصل[1]، فتبارك اللّه ربُّ العالمين، وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وهو عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: بما يكون في صدور العالمين، فيوفِّق مَنْ يعلم أنَّه أهلٌ لذٰلك، ويخذُلُ من يعلم أنَّه لا يَصْلُحُ لهدايتِهِ[2].

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿٧﴾ يأمر تعالى عبادَه بالإيمان به، وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله من الأموال التي جعلها اللّه في أيديهم واستخْلَفَهم عليها؛ لينظر كيف يعملونَ. ثم لمَّا أمرهم بذٰلك؛ رغَّبهم وحثَّهم عليه بذكر ما رتَّب عليه من الثواب، فقال: ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ﴾؛ أي: الذين جمعوا بين الإيمان باللّه ورسوله

(١) في (ب): «ما يحصل بذلك».

(٢) في (ب): «ويخذل من يعلمه لا يصلح لذلك».

والنفقة في سبيله لهم أجرٌ كبيرٌ، أعظمه وأجلُّه رِضا ربِّهم والفوزُ بدار كرامته وما فيها من النعيم المقيم الذي أعدَّه اللّه للمؤمنين والمجاهدين.

﴿٨﴾ ثم ذكر السَّبب الداعي لهم إلى الإيمان وعدم المانع منه، فقال: ﴿وما لكم لا تؤمنونَ باللّه والرسولُ يَدْعوكم لِتُؤْمِنوا بربِّكُم وقد أخذ ميثاقَكُم إن كنتُم مؤمنينَ﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من الإيمانِ والحالُ أنَّ الرسول محمداً ﷺ أفضلُ الرسل وأكرمُ داعٍ دعا إلى اللّه يدعوكم؟! فهٰذا مما يوجِبُ المبادرة إلى إجابة دعوتِهِ والتلبيةِ والإجابةِ للحقِّ الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهدَ والميثاق بالإيمان إن كنتُم مؤمنين.

﴿٩﴾ ومع ذٰلك من لطفه وعنايته بكم أنَّه لم يكتفِ بمجرَّد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالَم، بل أيَّده بالمعجزات، ودلَّكم على صدق ما جاء به بالآيات البيِّنات؛ فلهٰذا قال: ﴿هو الذي يُنَزِّلُ على عبدِهِ آياتٍ بيناتٍ﴾؛ أي: ظاهرات تدلُّ أهل العقول على صحَّة جميع[1] ما جاء به، وأنَّه الحقُّ[2] اليقين؛ ﴿لِيُخْرِجَكم﴾: بإرسال الرسول إليكم وما أنزله اللّه على يده من الكتاب والحكمة ﴿من الظُّلُمات إلى النور﴾؛ أي: من ظلمات الجهل والكفر[3] إلى نور العلم والإيمان. وهٰذا من رحمته بكم ورأفته؛ حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها، ﴿وإنَّ اللّه بكم لَرءوفٌ رحيمٌ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألَّا تُنفِقوا[4] في سبيلِ اللّهِ وللّهِ ميراثُ السمٰواتِ والأرض﴾؛ أي: وما الذي يمنعكم من النَّفقة في سبيل اللّه؟ وهي[5] طرق الخير كلُّها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿و﴾ الحال أنَّه ليس لكم شيءٌ، بل ﴿للّه ميراثُ السمٰواتِ والأرض﴾: فجميع[6] الأموال ستنتقلُ من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود الملك إلى مالكه تبارك وتعالى؛ فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهِزوا الفرصة. ثم ذَكَرَ تعالى تفاضُلَ الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلٰهيَّة، فقال: ﴿لا يستوي منكم من أنفقَ من قبل الفتح وقاتَلَ أولٰئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتَلوا﴾: المراد بالفتح هنا هو فتحُ الحُدَيْبِيَةِ، حين جرى من الصُّلح بين

---

(١) في (ب): «على صدق كلِّ ما جاء به».
(٢) في (ب): «وأنه حق اليقين».
(٣) في (ب): «الكفر والجهل».
(٤) في (ب): «وما لكم لا تنفقون».
(٥) في (ب): «وهو».
(٦) في (ب): «جميع».

الرسول وبين قريش، مما هو أعظم الفتوحات التي حصل فيها نشرُ الإسلام واختلاطُ المسلمين بالكافرين والدَّعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذٰلك الوقت في دين اللّه أفواجاً، واعتزَّ الإسلام عزًّا عظيماً، وكان المسلمون قبل هٰذا الفتح لا يقدرون على الدَّعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلُها كالمدينة وتوابعها، وكان مَنْ أسلم من أهل مكَّة وغيرها من ديار المشركين يُؤذَى ويَخَافُ؛ فلذٰلك كان مَنْ أسلم قبل الفتح [وأنفق] وقاتل أعظمَ درجةً وأجراً وثواباً ممَّن لم يسلمْ ويقاتِلْ وينفقْ إلَّا بعد ذٰلك؛ كما هو مقتضى الحكمة، ولهٰذا[1] كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح. ولمَّا كان التفضيلُ بين الأمور قد يُتَوَهَّم منه نقصٌ وقدحٌ في المفضول؛ احترز تعالى من هٰذا بقوله: ﴿**وكلًّا وَعَدَ اللّه الحسنى**﴾؛ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده كلُّهم وَعَدَه اللّه الجنة. وهٰذا يدلُّ على فضل الصحابة كلِّهم رضي اللّه عنهم، حيث شهد اللّه لهم بالإيمان ووعَدَهم الجنة. ﴿**واللّه بما تعملون خبيرٌ**﴾: فيجازي كلًّا منكم على ما يعلمه من عمله.

﴿١١﴾ ثم حثَّ على النفقة في سبيله؛ لأنَّ الجهاد متوقِّف على النفقة فيه وبذل الأموال في التجهُّز له، فقال: ﴿**مَن ذا الذي يُقْرِضُ اللّه قرضاً حسناً**﴾: وهي النفقة الطيِّبة التي تكون خالصةً لوجه اللّه موافقةً لمرضاة اللّه من مال حلال طيبٍ طيبةً به نفسه، وهٰذا من كرم اللّه تعالى؛ حيث سمَّاه قرضاً، والمال ماله، والعبيد عبيده[2]، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرةً، وهو الكريم الوهَّابُ، وتلك المضاعفة محلُّها وموضعها يوم القيامةِ، يوم كلٌّ يتبيَّن فقرُه، ويحتاج إلى أقلِّ شيءٍ من الجزاء الحسن، ولهٰذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم[3] بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ

---

(١) في (ب): «ولذلك».	(٢) في (ب): «والعبد عبده».
(٣) في ( أ ) إلى قوله: «وبئس المصير»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١٢﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامةِ: ﴿يوم ترى المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانِهم﴾؛ أي: إذا كان يوم القيامةِ، وكوِّرَتِ الشمسُ وخسفَ القمرُ وصار الناس في الظُّلمة، ونُصِبَ الصراط على متن جهنم؛ فحينئذٍ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بينِ أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بنورهم وأيمانهم[١] في ذٰلك الموقف الهائل الصعب كلٌّ على قَدْرِ إيمانه، ويبشَّرون عند ذٰلك بأعظم بشارة، فيُقالُ: ﴿بُشراكم اليومَ جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ذٰلك هو الفوزُ العظيمُ﴾: فللّه ما أحلى هٰذه البشارة بقلوبهم وألذَّها لنفوسهم؛ حيث حصل لهم كلُّ مطلوب محبوب، ونجوا من كلِّ شرٍّ ومرهوب.

﴿١٣﴾ فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم[٢]، وهم قد طُفِيءَ نورُهم وبقوا في الظُّلمات حائرين؛ قالوا للمؤمنين: ﴿انظُرونا نَقْتَبِسْ من نورِكم﴾؛ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به لننجوَ من العذاب، فـ﴿قيلَ﴾ لهم: ﴿ارجِعوا وراءَكُم فالْتَمِسوا نوراً﴾؛ أي: إن كان ذٰلك ممكناً، والحال أنَّ ذٰلك غير ممكن، بل هو من المحالات، فضُرِبَ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بسورٍ﴾؛ أي: حائط منيع وحصنٍ حصينٍ ﴿له بابٌ باطنُه فيه الرحمةُ﴾: وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وظاهِرُهُ من قِبَلِهِ العذابُ﴾: وهو الذي يلي المنافقين.

﴿١٤﴾ فينادي المنافقونَ المؤمنين، فيقولونَ[٣] تضرُّعاً وترحُّماً: ﴿ألم نكن معكُمْ﴾: في الدُّنيا نقول: لا إله إلَّا اللّه، ونصلِّي ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟ ﴿قالوا بلى﴾: كنتم معنا في الدنيا وعملتُم في الظاهر مثلَ عملنا، ولٰكنَّ أعمالَكم أعمالُ المنافقين من غيرِ إيمانٍ ولا نيَّةٍ صادقةٍ صالحةٍ، ﴿بل فَتَنتُم أنفسَكم [وتربَّصتُم][٤] وارْتَبْتُم﴾؛ أي: شككتم في خبر اللّه الذي لا يقبل شكًّا، ﴿وغرَّتْكم الأماني﴾: الباطلة؛ حيث[٥] تمنَّيتم أن تنالوا منالَ المؤمنين وأنتم غير موقنين،

---

(١) في (أ): «بأيمانهم ونورهم. وقد استدركها الشيخ في (ب) فقدم وأخّر بوضع الحرف «م».
(٢) في (ب): «فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به».
(٣) في (ب): «ويقولون».
(٤) زيادة على النسختين.
(٥) في (ب): «التي».

﴿حتى جاء أمرُ اللّه﴾؛ أي: حتى جاءكم الموتُ وأنتم بتلك الحالة الذَّميمة، ﴿وغرَّكم باللّه الغَرورُ﴾: وهو الشيطانُ الذي زين لكم الكفر والريبَ فاطمأننتم به، ووثقتم بوعدِهِ وصدَّقتم خبره.

﴿١٥﴾ ﴿فاليومَ لا يؤخَذُ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا﴾: ولو[١] افتديتم بملء الأرض ذهباً ومثله معه؛ لما تقبل منكم. ﴿مأواكُم النارُ﴾؛ أي: مستقرُّكم، ﴿هي مولاكم﴾: التي تتولَّاكم وتضمُّكم إليها، ﴿وبئس المصير﴾: النار؛ قال تعالى: ﴿وأمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينُه. فأمُّه هاويةٌ وما أدراك ما هيه. نارٌ حاميةٌ﴾.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿١٦﴾ لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة؛ كان ذٰلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربِّها والاستكانة لعظمته، فعاتب اللّه المؤمنين على عدم ذٰلك، فقال: ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تَخْشَعَ قلوبُهم لذِكْرِ اللّه وما نَزَلَ من الحقِّ﴾؛ أي: ألم يأتِ[٢] الوقتُ الذي به تلينُ[٣] قلوبهم وتخشعُ لذِكْر اللّه الذي هو القرآن وتنقادُ لأوامره وزواجره وما نَزَلَ من الحقِّ الذي جاء به محمدٌ ﷺ، وهٰذا فيه الحثُّ على الاجتهاد على خشوع القلب للّه تعالى ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكَّر المؤمنون المواعظ الإلٰهيَّة والأحكام الشرعيَّة كلَّ وقت ويحاسبوا أنفسَهم على ذٰلك، ﴿ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قَبْلُ فطال عليهم الأمدُ﴾؛ أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتابَ الموجبَ لخشوع القلب والانقياد التامِّ، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثَبَتوا، بل طال عليهم الزمان، واستمرَّتْ بهم الغفلةُ، فاضمحلَّ إيمانُهم وزال إيقانهم؛ ﴿فقستْ قلوبُهم وكثيرٌ منهم فاسقونَ﴾: فالقلوب تحتاجُ في كلِّ وقتٍ إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزل[٤] الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذٰلك؛ فإنَّه[٥] سببٌ لقسوة القلب وجمود العين.

---

(١) في (ب): «فلو».
(٢) في (ب): «يجيء».
(٣) في (ب): «الذي تلين به قلوبهم».
(٤) في (ب): «أنزله».
(٥) في (ب): «فإن ذلك».

﴿١٧﴾ ﴿اعلموا أنَّ الله يُحيي الأرض بعد موتِها قد بَيَّنَّا لكم الآياتِ لعلَّكم تَعْقِلونَ﴾: فإن الآيات تدلُّ العقول على المطالب[١] الإلْهيَّة، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على أن يُحْيِيَ الأموات بعد موتهم فيجازِيَهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المَطرِ، قادرٌ على أن يُحْيِيَ القلوب الميتة بما أنزله من الحقِّ على رسوله. وهٰذه الآية تدلُّ على أنه لا عقل لمن لَم يهتدِ بآيات الله ولم ينقدْ لشرائع الله.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٨﴾ ﴿إنَّ المصَّدِّقينَ والمُصَّدِّقاتِ﴾: بالتشديد؛ أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعيَّة والنفقات المرضيَّة، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾: بأن قدَّموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون ذخراً[٢] لهم عند ربِّهم، ﴿يضاعَفُ لهم﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ﴿ولهم أجرٌ كريمٌ﴾: وهو ما أعدَّه الله لهم في الجنة ممَّا لا تعلمُه النفوس.

﴿١٩﴾ ﴿والذين آمنوا باللهِ ورسلِهِ﴾: والإيمانُ عند أهل السُّنَّة ما[٣] دلَّ عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذٰلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا [بين] هٰذه الأمور ﴿هم الصدِّيقون﴾؛ أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء. وقوله: ﴿والشهداءُ عند ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم﴾؛ كما ورد في الحديث الصحيح[٤]: «إنَّ في الجنَّة مائةَ درجةٍ، ما بين كلِّ درجتين[٥] كما بين السماء والأرض، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيله». وهٰذا يقتضي شدَّة علوِّهم ورفعتهم وقربهم من[٦] الله تعالى، ﴿والذين كفروا وكَذَّبوا بآياتنا أولٰئك أصحابُ الجحيم﴾: فهٰذه الآيات جمعت أصناف الخلق المتصدِّقين والصِّديقين والشهداء وأصحاب

---

(١) في (ب): «على العلم بالمطالب». (٢) في (ب): «مدَّخراً».

(٣) في (ب): «هو ما».

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) في (ب): «ما بين الدرجتين». (٦) في (ب): «إلى».

الجحيم، فالمتصدِّقون الذين [كان] جُلُّ عملهم الإحسان إلى الخلق وبذلُ النفع لهم[١] بغاية ما يمكنهم، خصوصاً بالنفع بالمال في سبيل الله، والصِّدِّيقون هم الذين كمَّلوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وبَذَلوا أنفسَهم وأموالهم فقُتِلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذَّبوا بآيات الله. وبقي قسمٌ ذكرهم[٢] الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدَّوا الواجبات وتركوا المحرمات؛ إلَّا أنَّهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله[٣] وحقوق عباده؛ فهؤلاء مآلهم الجنة[٤]، وإن حصل لبعضهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدُّنيا وما هي عليه، ويبيِّن غايتها وغاية أهلها؛ بأنَّها ﴿لعبٌ ولهوٌ﴾: تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقُه ما هو موجودٌ وواقعٌ من أبناء الدُّنيا؛ فإنَّك تجِدُهم قد قطعوا أوقاتَ عُمُرِهم بلهوِ قلوبهم وغفلتهم[٥] عن ذكر الله وعمَّا أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتَّخذوا دينَهم لعباً ولهواً؛ بخلاف أهل اليقظة وعُمَّال الآخرة؛ فإنَّ قلوبَهم معمورةٌ بذكر الله ومعرفته ومحبَّته، وقد شغلوا[٦] أوقاتهم بالأعمال التي تقرِّبهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدِّي. وقوله: ﴿وزينةٌ﴾؛ أي: تزين في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدُّور والقصور والجاه وغير ذلك. ﴿وتفاخرٌ بينكم﴾؛ أي: كلُّ واحدٍ من أهلها يريد مفاخرةَ الآخر، وأن يكونَ هو الغالبَ في أمورها، والذي له الشهرةُ

(١) في (ب): «إليهم». (٢) في (ب): «ذكره».
(٣) في (ب): «إلاَّ أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله».
(٤) في (ب): «إلى الجنة».
(٥) في (ب): «قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب والغفلة».
(٦) في (ب): «أشغلوا».

في أحوالها، ﴿وتكاثرٌ في الأموال والأولادِ﴾؛ أي: كلٌّ يريدُ أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهٰذا مصداقُهُ وقوعُهُ من محبِّي الدُّنيا والمطمئنين إليها؛ بخلاف مَنْ عَرَفَ الدُّنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً، ولم يجعلها مستقرًّا، فنافس فيما يقرِّبُه إلى اللّه، واتَّخذ الوسائل التي توصلُه إلى دار كرامته[1]، وإذا رأى من يكاثُره وينافسه في الأموال[2] والأولاد؛ نافَسَه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدُّنيا مثلاً بغيثٍ نزل على الأرض، فاختلط به نباتُ الأرض مما يأكُلُ الناسُ والأنعام، حتى إذا أخذتِ الأرضُ زُخْرُفَها، وأعجب نباتُه الكفارَ الذين قَصَروا نَظَرَهم وهِمَمَهم على الدُّنيا[3]؛ جاءها من أمرِ اللّه ما أتلفها، فهاجتْ ويبستْ وعادتْ إلى حالها الأولى[4]؛ كأنَّه لم ينبتْ فيها خضراءُ ولا رُإِيَ لها مَرْأًى أنيق، كذٰلك الدُّنيا؛ بينما هي زاهيةٌ لصاحبها زاهرةٌ؛ مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجَّه لأمر من أمورها؛ وجد أبوابه مفتَّحة؛ إذ أصابها القَدَرُ، فأذهبها[5] من يده، وأزال تسلُّطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين؛ لم يتزوَّد منها سوى الكفن، فتبًّا لمن أضحتْ هي غايةَ أمنيَّته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة؛ فهو الذي ينفع ويُدَّخر لصاحبه ويصحب العبدَ على الأبد، ولهٰذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من اللّه ورضوانٌ﴾؛ أي: حال الآخرة ما يخلو من هٰذين الأمرين: إمَّا العذابُ الشديدُ في نار جهنَّم وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدُّنيا هي غايتَهُ ومنتهى مطلبِهِ، فتجرَّأ على معاصي اللّه، وكذَّب بآيات اللّه، وكفر بأنعم اللّه، وإمَّا مغفرةٌ من اللّه للسيئات، وإزالةُ العقوبات، ورضوانٌ من اللّه يُحِلُّ من أحَلَّه عليه[6] دارَ الرضوان لمن عرف الدُّنيا وسعى للآخرة سعيها؛ فهٰذا كلُّه مما يدعو إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة، ولهٰذا قال: ﴿وما الحياةُ الدُّنيا إلَّا متاعُ الغُرور﴾؛ أي: إلَّا متاعٌ يُتَمَتَّعُ به ويُنْتَفَعُ به ويُسْتَدْفَعُ به الحاجات؛ لا يغترُّ به ويطمئنُّ إليه إلَّا أهل العقول الضعيفة، الذين يغرُّهم باللّه الغرور.

﴿٢١﴾ ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة اللّه ورضوانه وجنته، وذٰلك يكون بالسعي

---

(١) في (ب): «إلى الله». (٢) في (ب): «بالأموال».
(٣) في (ب): «هممهم ونظرهم إلى الدنيا».
(٤) في (ب): «ما هاجت به ويبست فعادت على حالها الأولى».
(٥) في (ب): «بما أذهبها». (٦) في (ب): «يحل ما أحلَّه به».

بأسباب المغفرةِ من التوبة النَّصوح، والاستغفار النَّافع، والبعد عن الذُّنوب ومظانِّها، والمسابقة إلى رضوان اللّه بالعمل الصالح، والحرص على ما يُرضي اللّه على الدَّوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر اللّه الأعمالَ الموجبةَ لذلك، فقال: ﴿وجنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ أعِدَّتْ للذين آمنوا باللهِ ورسلِهِ﴾، والإيمانُ باللّه ورُسُلِهِ[1] يدخلُ فيه أصولُ الدِّين وفروعها. ﴿ذلك فضلُ اللّه يؤتيهِ مَن يشاءُ﴾؛ أي: هذا الذي بيَّنَّاه لكم وذَكَرْنا [لكم فيه] الطُّرُقَ الموصلة إلى الجنة والطُّرُقَ الموصلة إلى النار، وأنَّ ثواب اللّه بالأجر الجزيل والثواب الجميل[2] من أعظم منَّته على عباده وفضله، ﴿واللّه ذو الفضل العظيم﴾: الذي لا يُحصى ثناءٌ عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني عليه أحدٌ من خلقه[3].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائِهِ وقدرِهِ: ﴿ما أصابَ من مصيبةٍ في الأرض ولا في أنفسِكم﴾: وهذا شاملٌ لعموم المصائب التي تُصيبُ الخلق من خيرٍ وشرٍّ؛ فكلُّها قد كُتِبَتْ في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها، وهذا أمرٌ عظيمٌ لا تحيطُ به العقول، بل تَذْهلُ عنده أفئدةُ أولي الألباب، ولكنَّه على اللّه يسيرٌ.

﴿٢٣﴾ وأخبر اللّه عبادَه بذلك لأجل أن تتقرَّرَ هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشرِّ؛ فلا يأسَوْا، ويحزنوا على ما فاتهم، مما طَمِحَتْ له أنفسُهم وتشوَّفوا إليه؛ لعلمِهِم أنَّ ذلك مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، لا بدَّ من نفوذه ووقوعه؛ فلا سبيل إلى دفعِهِ، ولا يفرحوا بما آتاهم اللّه فرحَ بَطَرٍ وأشَرٍ؛ لعلمهم أنَّهم ما أدركوه بحولهم وقوَّتهم، وإنَّما أدركوه بفضل اللّه ومنِّه، فيشتغلوا بشكر مَن أولى النِّعم ودفع النِّقم، ولهذا قال: ﴿واللّهُ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ﴾؛

(١) في (ب): «ورسوله».
(٢) في (ب): «وأنَّ فضلَ الله بالثواب الجزيل والأجر الجميل».
(٣) في (ب): «عليه عباده».

أي: متكبِّر فظٌّ غليظٍ معجبٍ بنفسه فخورٍ بنعم اللّه ينسبها إلى نفسه وتُطغيه وتُلهيه؛ كما قال تعالى: ﴿وإذا أذقْناه رحمةً منَّا قال إنَّما أوتيتُهُ على علم بَلْ هي فتنةٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿الذين يَبْخلونَ ويأمُرونَ الناس بالبُخْلِ﴾؛ أي: يجمعون بين الأمرين الذَّميمين اللذين كلٌّ منهما كافٍ في الشرِّ: البخل، وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذٰلك، فلم يكفِهِم بُخْلُهم، حتى أمروا الناس بذٰلك، وحثُّوهم [على][1] هٰذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهٰذا من إعراضهم عن طاعة ربِّهم وتولِّيهم عنها، ﴿ومن يَتَوَلَّ﴾: عن طاعة اللّهِ؛ فلا يضرُّ إلَّا نفسه، ولن يضرَّ اللّه شيئاً، ﴿فإنَّ اللّه هو الغنيُّ الحميدُ﴾: الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له مُلْكُ السماواتِ والأرض، وهو الذي أغنى عبادَه وأقْناهم، الحميدُ الذي له كلُّ اسم حسنٍ ووصفٍ كامل وفعل جميل يستحقُّ أن يُحْمَدَ عليه ويُثْنى ويُعَظَّم.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا[2] وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٥﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ﴾: وهي الأدلَّة والشواهد والعلامات الدَّالَّة على صدق ما جاؤوا به وحقِّيَّتِهِ، ﴿وأنزلنا معهم الكتابَ﴾: وهو اسم جنس يَشْمَلُ سائر الكتب التي أنزلها اللّه لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ﴿والميزانَ﴾: وهو العدلُ في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرُّسل كلُّه عدلٌ وقسطٌ في الأوامر والنَّواهي وفي معاملات الخَلْق وفي الجنايات والقِصاص والحدود والمواريث وغير ذٰلك، وذٰلك ﴿ليقومَ الناسُ بالقسطِ﴾: قياماً بدين اللّه، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكنُ حصرُها وعدُّها، وهٰذا دليلٌ على أنَّ الرسل متَّفقون في قاعدة الشرع، وهو القيامُ بالقسط، وإنِ

---

(١) كذا في (ب). وفي (أ): «عليه».

(٢) في (أ) إلى قوله: «وكثير منهم فاسقون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

اختلفتْ صورُ[١] العدل بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿**وأنزلْنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ**﴾: من آلات الحرب؛ كالسلاح والدُّروع وغير ذٰلك، ﴿**ومنافعُ للناس**﴾: وهو ما يشاهَدُ من نفعه في أنواع الصِّناعات والحِرف والأواني وآلات الحَرْثِ، حتى إنَّه قَلَّ أن يوجَدَ شيءٌ إلَّا وهو يحتاجُ إلى الحديد، ﴿**ولِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَن يَنصُرُه ورُسُلَه بالغيب**﴾؛ أي: ليقيم تعالى سوقَ الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبيَّن من ينصُرُه وينصُرُ رسله في حالة[٢] الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها؛ لأنَّه حينئذٍ يكون ضروريًا. ﴿**إنَّ اللّٰه لَقَويٌّ عزيزٌ**﴾؛ أي: لا يعجِزُه شيءٌ ولا يفوته هاربٌ، ومن قوَّته وعزَّته أن أنزل الحديدَ الذي منه الآلاتُ القويَّة، ومن قوَّته وعزَّته أنه قادرٌ على الانتصار من أعدائه، ولٰكنَّه يبتلي أولياءه بأعدائه؛ ليعلم من ينصرُهُ بالغيب.

وقَرَنَ تعالى بهٰذا[٣] الموضع بين الكتاب والحديد؛ لأنَّ بهٰذين الأمرين ينصر اللّٰه دينه ويُعلي كلمته: بالكتاب الذي فيه الحجَّة والبرهان، والسيف الناصر بإذن اللّٰه، وكلاهما قيامُهُ بالعدل والقِسْط، الذي يستدلُّ به على حكمةِ الباري وكماله وكمال شريعتِهِ التي شرعها على ألسنة رسله.

﴿٢٦﴾ ولما ذكر نبوَّة الأنبياء عموماً؛ ذكر من خواصِّهم النَّبيَّيْنِ الكريمينْ نوحاً وإبراهيم، اللَّذين جعل اللّٰه النبوَّة والكتاب في ذُرِّيَّتهما، فقال: ﴿**ولقد أرسَلْنا نوحاً وإبراهيم وجَعَلْنا في ذُرِّيَّتِهِما النبوَّةَ والكتابَ**﴾؛ أي: الأنبياء المتقدِّمين والمتأخِّرين، كلُّهم من ذُرِّيَّة نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذٰلك الكتب كلُّها نزلت على ذُرِّيَّة هٰذين النبيَّيْنِ الكريميْنِ. ﴿**فمنهم**﴾؛ أي: ممَّن أرسلنا إليهم الرسل ﴿**مهتدٍ**﴾: بدعوتهم، منقادٌ لأمرهم، مسترشدٌ بهداهم، ﴿**وكثيرٌ منهم فاسقون**﴾؛ أي: خارجون عن طاعة اللّٰه وطاعة رسله[٤]؛ كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصْتَ بمؤمنينَ﴾.

﴿٢٧﴾ ﴿**ثم قَفَّينا**﴾؛ أي: أتبعنا ﴿**على آثارِهم برُسُلِنا وقفَّينا بعيسى ابن مريم**﴾: خصَّ اللّٰه عيسى عليه السلام؛ لأنَّ السياق مع النصارى، الذين يزعُمون اتِّباع عيسى، ﴿**وآتيناه الإنجيل**﴾: الذي هو من كتب اللّٰه الفاضلة، ﴿**وجَعَلْنا في قلوب الذين اتَّبعوه رأفةً ورحمةً**﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أشدَّ الناس عداوةً للذين آمنوا

---

(١) في (ب): «أنواع».
(٢) في (ب): «حال».
(٣) في (ب): «في هذا».
(٤) في (ب): «خارجون عن طاعة الرسل والأنبياء».

اليهودَ والذين أشركوا ولَتَجِدَنَّ أقربَهم مودَّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذٰلك بأنَّ منهم قِسِّيسينَ ورُهْباناً وأنَّهم لا يستكبرونَ...﴾ الآيات، ولهٰذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام، ﴿ورهبانيةً ابْتَدَعوها﴾: والرهبانيَّة العبادةُ؛ فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادةً، ووظَّفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم؛ قصْدُهم بذٰلك رضا الله، ومع ذٰلك؛ ﴿فما رَعَوْها حقَّ رعايتها﴾؛ أي: ما قاموا بها، ولا أدَّوْا حقوقها، فقصَّروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فَرَضوه على أنفسهم. فهٰذه الحالُ هي الغالبُ من أحوالهم، ومنهم من هو مستقيمٌ على أمر الله، ولهٰذا قال: ﴿فآتَينا الذين آمنوا منهم أجْرَهُم﴾؛ أي: الذين آمنوا بمحمدٍ ﷺ مع إيمانهم بعيسى؛ كلٌّ أعطاه الله على حسب إيمانِهِ، ﴿وكثيرٌ منهم فاسقونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ **وهٰذا الخطابُ يُحتمل** أنه خطابٌ لأهل الكتاب، الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام؛ يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم؛ بأن يتَّقوا الله فيتركوا معاصِيَه ويؤمنوا برسوله محمدٍ ﷺ، وأنَّهم إن فعلوا ذٰلك؛ أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ من رحمتِهِ﴾؛ أي: نصيبين من الأجر؛ نصيبٍ على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيبٍ على إيمانهم بمحمدٍ ﷺ. **ويُحتمل** أن يكون الأمرُ عامًّا؛ يدخل فيه أهلُ الكتابِ وغيرُهم، وهٰذا الظاهر، وأنَّ الله أمرَهم بالإيمان والتَّقوى، الذي يدخُلُ فيه جميع الدين ظاهره وباطنه أصوله وفروعه، وأنَّهم إن امتثلوا هٰذا الأمر العظيم؛ أعطاهم [الله] ﴿كِفْلَيْنِ من رحمتِهِ﴾؛ لا يعلم قدرهما ولا وصفَهما[1] إلَّا الله تعالى: أجرٌ على الإيمان وأجرٌ على التقوى، أو أجرٌ على امتثال الأوامر وأجرٌ على اجتناب النَّواهي، أو أنَّ التَّثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرةً بعد أخرى. ﴿ويَجْعَل لكم نوراً تمشون به﴾؛ أي: يعطيكم علماً وهدىً ونوراً تمشون به في ظُلُمات الجهل، ويغفر لكم السيئات، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾: فلا يُسْتَغْرَبُ[2] كثرةُ هٰذا الثواب على

---

(١) في (ب): «وصفهما وقدرهما».
(٢) في (ب): «فلا يستكثر».

فضلِ ذي الفضل العظيم، الذي عمَّ فضلُه أهلَ السماواتِ والأرض؛ فلا يخلو مخلوقٌ من فضله طرفةَ عينٍ ولا أقلَّ من ذلك.

﴿٢٩﴾ وقوله: ﴿لئلَّا يعلم أهلُ الكتاب ألَّا يقدِرونَ على شيءٍ من فضل اللّه﴾؛ أي: بيَّنا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عامًّا واتَّقى اللّه وآمن برسوله؛ لأجل أن يكونَ عند أهل الكتاب علمٌ بأنَّهم لا يقدرونَ على شيءٍ من فضل اللّه؛ أي: لا يحجُرون على اللّه بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان هوداً أو نَصارى﴾، ويَتَمَنَّوْنَ على اللّه الأمانيَّ الفاسدةَ، فأخبر اللّه تعالى [أن] المؤمنين برسوله محمدٍ ﷺ، المتَّقين للّه أنَّ لهم كِفْلَيْنِ من رحمته ونوراً ومغفرةً؛ رغماً على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أنَّ الفضلَ بيد اللّه يؤتيه من يشاءُ﴾: ممَّنِ اقتضت حكمتُه تعالى أن يؤتِيَه من فضله، ﴿واللّه ذو الفضل العظيم﴾: الذي لا يقادَرُ قدرُه.

تم تفسير [سورة الحديد. وللَّه الحمد والمنّة. والحمد للّه].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة قد سمع اللّه

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا(١) وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ نزلت هٰذه الآيات الكريماتُ في رجل من الأنصار اشتكتْه زوجته إلى اللّه وجادلته إلى رسول اللّه ﷺ لمَّا حرَّمها على نفسه بعد الصُّحبة الطويلة والأولاد،

---

(١) في (أ) إلى قول: «وللكافرين عذاب أليم»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

وكان هو رجلاً شيخاً كبيراً، فشكتْ حالَها وحالَه إلى الله وإلى رسول الله ﷺ، وكرَّرت ذٰلك، وأبدتْ فيه وأعادتْ، فقال تعالى: ﴿قد سَمِعَ اللّه قولَ التي تجادِلُك في زوجها وتَشتكي إلى الله واللّهُ يسمعُ تحاوُرَكما﴾؛ أي: تخاطُبَكما فيما بينكما. ﴿إنَّ اللّه سميعٌ﴾: لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفنُّن الحاجات. ﴿بصيرٌ﴾: يبصر دبيبَ النملة السوداء، على الصَّخرة الصمَّاء، في الليلة الظلماء[١].

وهٰذا إخبارٌ عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمور الدَّقيقة والجليلة، وفي ضمن ذٰلك الإشارة بأنَّ اللّه [تعالى] سيزيلُ شكواها ويرفع بلواها، ولهٰذا ذكر حكمها وحكمَ غيرها[٢] على وجه العموم، فقال:

﴿٢﴾ ﴿الذين يظاهِرونَ منكم من نسائِهِم ما هنَّ أمَّهاتِهِم إن أمَّهاتُهم إلَّا اللَّائي وَلَدْنَهم﴾: المظاهرة من الزوجة أن يقولَ الرجل لزوجته: أنت عليَّ كظهرِ أمِّي، أو غيرها من محارمه، أو أنت عليَّ حرامٌ. وكان المعتاد عندَهم في هٰذا اللفظ الظهر، ولهٰذا سماه اللّه ظِهاراً، فقال: ﴿الذين يظاهِرون منكم من نسائِهِم ما هنَّ أمَّهاتِهِم﴾؛ أي: كيف يتكلَّمون بهٰذا الكلام الذي يعلمون[٣] أنَّه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمَّهاتِهم اللَّاتي ولدنهم؟! ولهٰذا عظَّم اللّه أمره وقبَّحه، فقال: ﴿وإنَّهم لَيقولونَ منكراً من القول وزوراً﴾؛ أي: قولاً شنيعاً وكذباً[٤]، ﴿وإنَّ اللّه لَعَفُوٌّ غفورٌ﴾: عمَّن صَدَرَ منه بعضُ المخالفات فتداركَها بالتَّوْبَةِ النَّصوح.

﴿٣﴾ ﴿والذين[٥] يظاهِرونَ من نسائِهِم ثم يعودونَ لِما قالوا﴾: اختلف العلماء في معنى العَوْد، فقيل معناه العزمُ على جماع مَنْ ظاهر منها، وأنَّه بمجرَّد عزمِهِ؛ تجب عليه الكفَّارة المذكورة، ويدلُّ على هٰذا أنَّ اللّه تعالى ذَكَرَ في الكفَّارة أنَّها[٦] تكون قبل المسيس، وذٰلك إنَّما يكون بمجرَّد العزم، وقيل: معناه حقيقةُ الوطءِ، ويدلُّ على ذٰلك أنَّ اللّه قال: ﴿ثم يعودونَ لِما قالوا﴾، والذي قالوا إنَّما هو الوطءُ، وعلى كلٍّ من القولين؛ فإذا وُجِدَ العَوْدُ؛ صار كفارةُ هٰذا التحريم ﴿تحرير

---

(١) في (ب): «في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء».

(٢) في (ب): «ولهذا ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره».

(٣) في (ب): «يعلم».

(٤) في (ب): «﴿منكراً من القول﴾؛ أي: قولاً شنيعاً. ﴿وزوراً﴾؛ أي: كذباً».

(٥) في (ب): «فالذين». (٦) في (ب): «أن».

رقبةٍ﴾: مؤمنةٍ؛ كما قُيِّدَتْ في آية القتل[١]؛ ذكرٍ أو أنثى؛ بشرط أن تكون سالمةً من العيوب الضارَّة[٢] بالعمل ﴿من قبل أن يَتَماسَّا﴾؛ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفِّرَ برقبة. ﴿ذٰلكم﴾: الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿توعظونَ به﴾؛ أي: يبيِّن لكم حكمه مع الترهيب المقرون به؛ لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب فالذي يريد أن يظاهر؛ إذا ذَكَرَ أنَّ[٣] عليه عتقَ رقبةٍ؛ كفَّ نفسه عنه. ﴿واللّٰه بما تعملونَ خبيرٌ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله.

﴿٤﴾ ﴿فمن لم يجِدْ﴾: رقبةً يُعْتِقُها؛ بأن لم يجِدْها أو لم يجِدْ ثَمَنَها، ﴿فـ﴾ عليه ﴿صيامُ شهرين متتابعين من قبل أن يَتَماسَّا فَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ﴾: الصيام، ﴿فإطعامُ ستينَ مسكيناً﴾: إمَّا أنْ[٤] يطعِمَهم من قوت بلده ما يكفيهم؛ كما هو قول كثيرٍ من المفسِّرين، وإمَّا أنْ[٤] يطعِمَ كلَّ مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصفَ صاع من غيره مما يُجْزِي في الفطرة؛ كما هو قول طائفة أخرى. ﴿ذٰلك﴾: الحكم الذي بيَّنّاه لكم ووضَّحناه، ﴿لتؤمِنوا باللّٰه ورسولِهِ﴾: وذٰلك بالتزام هٰذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به؛ فإنَّ التزام أحكام اللّٰه والعمل بها من الإيمانِ، بل هي المقصودةُ، ويزداد بها[٥] الإيمانُ ويكمُلُ وينمو. ﴿وتلك حدودُ اللّٰهِ﴾: التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تُتَعَدَّى ولا يُقَصَّرَ عنها. ﴿وللكافرين عذابٌ أليمٌ﴾.

وفي هٰذه الآيات عدَّة أحكام:

**منها**: لطفُ اللّٰه بعباده واعتناؤه بهم؛ حيث ذَكَرَ شكوى هٰذه المرأة المصابة، وأزالها، ورَفَعَ عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمِهِ العامِّ لكلِّ مَن ابتلي بمثل هٰذه القضيَّة.

**ومنها**: أن الظِّهار مختصٌّ بتحريم الزوجة؛ لأنَّ اللّٰه قال: ﴿من نسائهم﴾؛ فلو حرم أمته؛ لم يكن ذٰلك ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطيبات كالطعام والشراب؛ تجب فيه كفارة اليمين فقط.

**ومنها**: أنه لا يصحُّ الظِّهار من امرأة قبل أن يتزوَّجها؛ لأنَّها لا تدخل في نسائه وقت الظهار؛ كما لا يصح طلاقها؛ سواء نجز ذٰلك أو علقه.

---

(١) في (ب): «آية أخرى». (٢) في (ب): «المضرّة».
(٣) في (ب): «أنه يجب عليه». (٤) في (ب): «بأن».
(٥) في (ب): «ومما يزيد به».

**ومنها**: أن الظِّهار محرَّم؛ لأن اللّه سماه ﴿منكراً من القولِ وزُوراً﴾.

**ومنها**: تنبيه اللّه على الحكم وحكمته؛ لأن اللّه قال: ﴿ما هُنَّ أمَّهاتِهم﴾.

**ومنها**: أنَّه يُكره للرجل أن ينادي زوجته ويدعوها[1] باسم محارمه؛ كقوله: يا أمي يا أختي ونحو ذٰلك؛ لأنَّ ذٰلك يشبه المحرَّم.

**ومنها**: أنَّ الكفَّارة إنَّما تجب بالعَوْدِ؛ لما قال المظاهِرُ على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرَّد الظهار.

**ومنها**: أنَّه يجزئ في كفارة الرَّقبة الصغير والكبير والذَّكر والأنثى؛ لإطلاق الآية في ذٰلك.

**ومنها**: أنَّه يجب إخراجها إذا[2] كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس؛ كما قيَّده اللّه؛ بخلاف كفَّارة الإطعام؛ فإنَّه يجوز المسيس والوطءُ في أثنائها.

**ومنها**: أنَّه لعلَّ الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس أنَّ ذٰلك أدعى لإخراجها؛ فإنَّه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنَّه لا يمكَّن من ذٰلك إلَّا بعد الكفارة؛ بادرَ بإخراجها[3].

**ومنها**: أنَّه لا بدَّ من إطعام ستين مسكيناً؛ فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحدٍ أو أكثر من ذٰلك دون الستين؛ لم يجزْ ذٰلك؛ لأنَّ اللّه قال: ﴿فإطعامُ ستينَ مسكيناً﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ محادَّة اللّه ورسوله مخالفتُهما ومعصيتُهما، خصوصاً في الأمور الفظيعة؛ كمحادَّة اللّه ورسوله بالكفر ومعاداة أولياء اللّه. وقوله: ﴿كُبِتُوا كما كُبِتَ الذين من قبلهم﴾؛ أي: أذِلُّوا وأهينوا كما فُعِلَ بمن قبلَهم جزاءً وِفاقاً، وليس لهم حجَّةٌ على اللّه؛ فإنَّ اللّه قد قامت حجَّته البالغةُ على الخلق، وقد أنزل من الآيات البيِّناتِ والبراهين ما يبيِّنُ الحقائق ويوضِّحُ المقاصدَ؛ فمن اتَّبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين. ﴿وللكافرين﴾: بها ﴿عذابٌ مهينٌ﴾؛ أي: يهينهم ويُذِلُّهم؛

---

(١) في (ب): «ويسميها».

(٢) في (ب): «إن».

(٣) في (ب): «لإخراجها».

فكما[١] تكبَّروا عن آيات الله؛ أهانهم وأذلَّهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿٦﴾ يقول الله تعالى: ﴿يوم يبعثهم اللهُ﴾ الخلقَ جميعاً فيقومون[٢] من أجداثهم سريعاً، فيجازيهم بأعمالهم؛ وينبِّئُهم بما عملوا من خيرٍ وشرٍّ؛ لأنَّه علم ذٰلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحَفَظَة بكتابته، هٰذا والعاملون قد نسوا ما عملوه والله أحصى ذٰلك. ﴿والله على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾: على الظَّواهر[٣] والسَّرائر والخبايا والخفايا.

﴿٧﴾ ولهٰذا أخبر عن سعةِ علمه وإحاطته بما في السماواتِ والأرض من دقيق وجليل، وأنَّه ﴿ما يكون من نَجْوى ثلاثةٍ إلَّا هو رابِعُهم ولا خمسةٍ إلَّا هو سادِسُهم ولا أدنى مِن ذٰلك ولا أكثر إلَّا هو مَعَهُم أينما كانوا﴾: والمراد بهٰذه المعيَّة معيَّةُ العلم والإحاطة بما تناجَوْا به وأسرُّوه فيما بينَهم، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٨ ـ ٩﴾ النَّجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير وتكونُ في الشرِّ، فأمر الله المؤمنين أنْ يَتناجَوْا بالبرِّ، وهو اسمٌ جامعٌ لكلِّ خيرٍ وطاعةٍ وقيام بحقِّ الله وحقِّ عباده[٤]، والتَّقوى، وهي هنا اسمٌ جامعٌ لترك جميع المحارم والمآثم؛ فالمؤمن يمتثل هٰذا الأمر الإلٰهيَّ؛ فلا تجده مناجياً ومتحدثاً إلَّا بما يقرِّبه

(١) في (ب): «كما».
(٢) في (ب): «ويقومون».
(٣) في (ب): «بالظواهر».
(٤) في (ب): «وقيام بحقِّ لله ولعباده».

إلى[١] اللّه ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاونُ بأمر اللّه ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول؛ كالمنافقين الذين هٰذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وإذا جاؤوك حَيَّوْكَ بما لَمْ يُحَيِّكَ به اللّه﴾؛ أي: يسيئون الأدب في تحيَّتهم لك، ﴿ويقولونَ في أنفسِهم﴾؛ أي: يسرُّون فيها[٢] ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لولا يُعَذِّبنا اللّه بما نقولُ﴾: ومعنى ذٰلك[٣] أنَّهم يتهاونون بذٰلك، ويستدلُّون بعدم تعجيل العقوبة عليهم أنَّ ما يقولونه[٤] غيرُ محذورٍ، قال تعالى في بيان أنَّه يمهِلُ ولا يهمِلُ: ﴿حَسْبُهُم جهنَّمُ يَصْلَوْنها فبئس المصيرُ﴾؛ أي: تكفيهم جهنَّم التي جمعت كلَّ عذابٍ وشقاء[٥] عليهم، تحيط بهم ويعذَّبون بها؛ فبئس[٦] المصير. وهٰؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين، يظهِرون الإيمان ويخاطبون الرسول ﷺ بهٰذا الخطاب[٧] الذي يوهمون أنَّهم أرادوا به خيراً، وهم كذبةٌ في ذٰلك، وإما أناسٌ من أهل الكتاب الذين إذا سلَّموا على رسول اللّه ﷺ؛ قالوا: السام عليك يا محمد[٨]. يعنون: الموت.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿١٠﴾ يقول تعالى: ﴿إنَّما النَّجوى﴾؛ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكرِ والخديعة وطلب السوءِ من الشيطان الذي كيدُهُ ضعيفٌ، [ومكره غير مفيد] ﴿ليحزنَ الذين آمنوا﴾: هٰذا غايةُ هٰذا المكر ومقصوده، ﴿وليس بضارِّهم شيئاً إلَّا بإذنِ اللّه﴾: فإنَّ اللّه [تعالى] وَعَدَ المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿ولا يَحيقُ المكرُ السيِّئُ إلَّا بأهلِهِ﴾: فأعداء اللّه ورسوله والمؤمنين مهما تَناجَوْا ومَكَروا؛ فإنَّ ضَرَرَ ذٰلك عائدٌ إلى أنفسهم[٩]، ولا يضرُّ المؤمنين إلَّا شيءٌ قدَّره اللّه وقضاه. ﴿وعلى اللّه فَلْيَتَوكَّلِ المؤمنون﴾؛ أي: ليعتمدوا[١٠] عليه ويثِقوا

---

(١) في (ب): «مِن».
(٢) في (ب): «يسرون في أنفسهم».
(٣) في (ب): «ومعنى هذا».
(٤) في (ب): «يقولون».
(٥) في (ب): «كل شقاء وعذاب».
(٦) في (ب): «وبئس».
(٧) في (ب): «والخطاب للرسول ﷺ».
(٨) كما في «صحيح البخاري» (٦٣٥٦)، ومسلم (٢١٦٥) من حديث عائشة.
(٩) في (ب): «فإن ضررهم عائد على أنفسهم».
(١٠) في (ب): «يعتمدوا».

بوعده؛ فإنَّ مَن توَكّلَ على الله؛ كَفاه وكَفاه[١] أمرَ دينِهِ ودُنياه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿١١﴾ هٰذا أدبٌ[٢] من الله لعباده [المؤمنين] إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاجَ بعضُهم أو بعضُ القادمين [عليهم] للتفسُّح له في المجلس؛ فإنَّ من الأدب أن يَفْسَحوا له؛ تحصيلاً لهٰذا المقصود، وليس ذٰلك بضارٍّ للفاسح[٣] شيئاً، فيحصلُ مقصود أخيه من غير ضررٍ يلحقه، والجزاء من جنس العمل؛ فإنَّ من فَسَحَ؛ فَسَحَ الله له، ومن وسَّع لأخيه؛ وسَّع الله عليه، ﴿وإذا قيل انشُزوا﴾؛ أي: ارتفعوا وتَنَحَّوْا عن مجالسكم لحاجةٍ تعرِضُ، ﴿فانشُزوا﴾؛ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة؛ فإنَّ القيام بمثل هٰذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفعُ أهل العلم والإيمان درجاتٍ بحسب ما خصَّهم [الله] به من العلم والإيمان. ﴿والله بما تعملونَ خبيرٌ﴾: فيجازي كلَّ عامل بعمله؛ إن خيراً فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ. وفي هٰذه الآية فضيلة العلم، وأنَّ زينته وثمرتَه التأدُّب بآدابه والعمل بمقتضاه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةًۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٢﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصَّدقة أمام مناجاة رسوله محمدٍ ﷺ تأديباً لهم وتعليماً وتعظيماً للرسول ﷺ؛ فإنَّ هٰذا التعظيم خيرٌ للمؤمنين وأطهر؛ أي: بذٰلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصُلُ لكم الطهارة من الأدناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدبِ معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرةَ تحتها؛ فإنَّه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاتِهِ؛ صار هٰذا ميزاناً لمن كان حريصاً على العلم والخير[٤]؛ فلا يُبالي بالصدقة، ومَنْ لم يكن له حرصٌ ولا رغبةٌ في الخير، وإنَّما مقصودُه مجرَّدُ كثرة الكلام، فينكفُّ بذٰلك عن الذي يشقُّ على الرسول، هٰذا في الواجد

---

(١) في (ب): «كفاه وتولّى».
(٢) في (ب): «تأديب».
(٣) في (ب): «للجالس».
(٤) في (ب): «الخير والعلم».

للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة؛ فإنَّ اللّه لم يضيِّقْ عليه الأمر، بل عفا عنه وسامَحه وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقةٍ لا يقدِرُ عليها.

﴿١٣﴾ ثم لما رأى [تبارك و] تعالى شفقةَ المؤمنين ومشقَّةَ الصدقاتِ عليهم عند كلِّ مناجاةٍ؛ سهَّل الأمر عليهم، ولم يؤاخِذْهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم يُنْسَخْ؛ لأنَّ هٰذا [الحكمَ] من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنَّما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبارِ المقصودةِ بنفسها، فقال: ﴿فإذْ لم تفعَلوا﴾؛ أي: لم يهنْ عليكم تقديم الصدقةِ، ولا يكفي هٰذا؛ فإنَّه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهٰذا قيَّده بقوله: ﴿وتاب اللّه عليكم﴾؛ أي: عفا لكم عن ذٰلك، ﴿فأقيموا الصلاة﴾: بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وآتوا الزَّكاةَ﴾: المفروضة في أموالكم إلى مستحقِّيها.

وهاتان العبادتان هما أمُّ العبادات البدنيَّة والماليَّة؛ فمن[1] قام بهما على الوجه الشرعيِّ؛ فقد قام بحقوق اللّه وحقوق عباده، ولهٰذا قال بعده: ﴿وأطيعوا اللّهَ ورسولَه﴾: وهٰذا أشملُ ما يكون من الأوامر، فيدخُلُ في ذٰلك طاعة اللّه وطاعة رسوله بامتثال أوامرِهما واجتنابِ نواهيهما وتصديق ما أخبرا به والوقوفِ عند حدودِ الشرع[2]، والعبرةُ في ذٰلك على الإخلاص والإحسان؛ فلهٰذا قال: ﴿واللّه خبيرٌ بما تعملون﴾: فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أيِّ وجه صَدَرَتْ، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم[3] مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ومن». (٢) في (ب): «حدود الله».

(٣) في ( أ ) إلى قوله: «هم الخاسرون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين، الذين يَتَوَلَّوْنَ الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم ممَّن غَضِبَ اللّه عليهم ونالوا من لعنةِ اللّه أوفى نصيب، وأنَّهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين: ﴿مُذَبْذَبين بين ذٰلك لا إلى هٰؤلاءِ ولا إلى هٰؤلاءِ﴾: فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً؛ لأنَّ باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً؛ لأنَّ ظاهرهم مع المؤمنين، وهٰذا وصفهم الذي نعتهم اللّه به، والحالُ أنَّهم يحلفون على ضدِّه الذي هو الكذب، فيحلفون أنَّهم مؤمنون، والحال[١] أنَّهم ليسوا مؤمنين، فجزاءُ هٰؤلاء الخونة الفجرة الكَذَبة أنَّ اللّه أعدَّ لهم عذاباً شديداً لا يقادَرُ قدرُه ولا يُعْلَم وصفُه؛ ﴿إنَّهم ساء ما كانوا يعملون﴾: حيث عملوا بما يُسْخِطُ[٢] اللّه ويوجِبُ عليهم العقوبة واللعنة.

﴿١٦﴾ ﴿اتَّخذوا أيمانَهم جُنَّةً﴾؛ أي: ترساً ووقايةً يتَّقون بها من لوم اللّه ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذٰلك صدُّوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل اللّه، وهو[٣] الصراط الذي مَن سَلَكَه؛ أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صدَّ عنه؛ فليس إلَّا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فلهم عذابٌ مهينٌ﴾: حيث استَكْبَروا عن الإيمان باللّه والانقياد لآياته؛ أهانهم بالعذاب السرمديِّ الذي لا يُفَتَّر عنهم ساعةً ولا هم يُنْظَرونَ.

﴿١٧﴾ ﴿لن تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من اللّه شيئاً﴾؛ أي: لا[٤] تَدْفَعُ عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصِّلُ لهم قسطاً من الثواب، ﴿أولئك أصحابُ النار﴾: الملازمون لها، الذين لا يخرُجون عنها، و﴿هم فيها خالدون﴾.

﴿١٨﴾ ومن عاش على شيءٍ؛ مات عليه؛ فكما أنَّ المنافقين في الدُّنيا يموِّهون على المؤمنين ويحلفون لهم أنَّهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامةِ وبعثَهم اللّه جميعاً؛ حلفوا للّه كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هٰذا ﴿أنَّهم على شيءٍ﴾: لأنَّ كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تَزَلْ تَرْسخُ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرَّتهم وظنُّوا أنَّهم على شيءٍ يعتدُّ به ويعلَّقُ عليه الثواب، وهم كاذبون في ذٰلك، ومن المعلوم أن الكذِبَ لا يروجُ على عالم الغيب والشهادة.

﴿١٩﴾ وهٰذا الذي جرى عليهم من استحواذِ الشيطان الذي استولى عليهم وزَيَّنَ

---

(١) في (ب): «وهم يعلمون أنهم».
(٢) في (ب): «يسخطه».
(٣) في (ب): «وهي».
(٤) في (ب): «فلا».

لهم أعمالهم وأنساهم ذِكْرَ اللّه، وهو العدوُّ المبينُ الذي لا يريدُ بهم إلَّا الشرَّ، إنَّما يدعو حِزْبَه ليكونوا من أصحاب السعير، ﴿أولئك حزبُ الشيطان ألا إنَّ حزبَ الشيطانِ هم الخاسرون﴾: الذين خسروا دينَهم ودُنياهم وأنفُسَهم وأهليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ هٰذا وعدٌ ووعيدٌ، وعيدٌ لمن حادَّ اللّه ورسوله بالكفر والمعاصي أنَّه مخذولٌ مذلولٌ لا عاقبةَ له حميدةٌ، ولا رايةَ له منصورةٌ، ووعدٌ لمن آمن به وبرسله واتَّبع ما جاء به المرسلون فصار من حزبِ اللّه المفلحين أنَّ لهم الفتحَ والنصرَ[1] والغلبةَ في الدُّنيا والآخرة، وهٰذا وعدٌ لا يُخْلَفُ ولا يغيَّر؛ فإنَّه من الصادق القويِّ العزيز الذي لا يعجِزُه شيءٌ يريده.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ[2] وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ يقول تعالى: ﴿لا تَجِدُ قوماً يؤمنون باللّه واليوم الآخرِ يوادُّونَ من حادَّ اللّه ورسولَه﴾؛ أي: لا يجتمع هٰذا وهٰذا، فلا يكون العبدُ مؤمناً باللّه واليوم الآخر حقيقةً إلَّا كان عاملاً على مقتضى إيمانه[3] ولوازمه من محبَّةِ مَنْ قام بالإيمان وموالاته وبُغْضِ مَنْ لم يَقُمْ به ومعاداتِهِ، ولو كان أقربَ الناس إليه، وهٰذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هٰذا الوصف هم الذين ﴿كَتَبَ﴾ اللّه ﴿في قلوبهم الإيمان﴾؛ أي: رسمه وثبَّته وغرسه غرساً لا يتزلزلُ ولا تؤثِّر فيه الشُّبه والشُّكوك، وهم الذين قواهم الله ﴿بروح منه﴾؛ أي: بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هٰذه الدار، ولهم جناتُ النعيم في دار القرار، التي فيها كلُّ[4] ما تشتهيه الأنفس وتلذُّ

(١) في (ب): «النصرة».
(٢) في ( أ ) إلى آخر السورة، وفي (ب) ذكر الآيات إلى نهاية السورة.
(٣) في (ب): «الإيمان».
(٤) في (ب): «من كلٍّ».

الأعين وتختارُ، ولهم أفضل النعيم وأكبره[١]، وهو أنَّ اللّهَ يُحِلُّ عليهم رضوانَه؛ فلا يَسخطُ عليهم أبداً، ويرضَوْن عن ربِّهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات ووافر المَثوبات وجزيلِ الهِبات ورفيع الدَّرجات؛ بحيث لا يَرَوْنَ فوق ما أعطاهم مولاهم غايةً ولا وراءه[٢] نهايةً، وأما مَنْ يزعُمُ أنَّه يؤمن باللّه واليوم الآخر، وهو مع ذٰلك موادٌّ لأعداء اللّه محبٌّ لمن نَبَذَ[٣] الإيمان وراء ظهرِهِ؛ فإنَّ هٰذا إيمانٌ زعميٌّ لا حقيقة له؛ فإنَّ كلَّ أمرٍ لا بدَّ له من برهانٍ يصدِّقه؛ فمجرَّدُ الدعوى لا تفيدُ شيئاً ولا يصدَّقُ صاحبها. والحمد للّه[٤].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الحشر

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا[٥] وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ

---

(١) في (ب): «ولهم أكبر النعيم وأفضله». (٢) في (ب): «فوقه».

(٣) في (ب): «ترك».

(٤) في (ب): «تمّ تفسير: قد سمع الله. بحمد الله وعونه وتسديده. والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمدٍ وسلم تسليماً».

(٥) في (أ) إلى آخر ما ذكر الله من قصتهم، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾. ثم قال: إلى آخر القصة.

مِنكُمْۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾
لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ
إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ
وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا
ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ
لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ
شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا
كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ
خَٰلِدَيْنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

هٰذه السورة تُسمَّى سورة بني النضير، وهم طائفةٌ كبيرةٌ من اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ، فلمَّا بُعث النبيُّ ﷺ[1] وهاجر إلى المدينة؛ كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فهادن النبيُّ ﷺ طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد وقعةِ بدرٍ بستة أشهر أو نحوها؛ خرج إليهم النبيُّ ﷺ، وكلَّمهم أن يعينوه في دِيَةِ الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضَّمريُّ، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم! اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك! فخلا بعضهم ببعض، وسوَّل لهم الشيطانُ الشقاء الذي كُتِبَ عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، فقالوا[2]: أيُّكم يأخُذُ هٰذه

(١) في (ب): «فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود».

(٢) في (ب): «وقالوا».

الرحى فيصعد[١] فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سلامُ بن مشكمٍ: لا تفعلوا؛ فوالله؛ لَيُخْبَرَنَّ بما هممتم به، وإنَّه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه.

وجاء الوحي على الفور إليه من ربِّه بما همُّوا به، فنهض مسرعاً، فتوجَّه إلى المدينة، ولحقه أصحابُه، فقالوا: نهضتَ ولم نشعرْ بك! فأخبرهم بما همَّتْ يهودُ به، وبعث إليهم رسولُ الله ﷺ أنِ اخْرُجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجَّلْتُكم عشراً؛ فمن وجدتُ بعد ذٰلك؛ ضربتُ عُنُقه. فأقاموا أياماً يتجهَّزون، وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبيٍّ بن سلول أن لا تخرجوا من دياركم؛ فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم، وتنصُرُكم قريظةُ وحلفاؤكم من غطفان. وطمع رئيسهم حييُّ بن أخطبَ فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنَّا لا نخرج من ديارنا؛ فاصنعْ ما بدا لك! فكبَّر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحملُ اللواء، وأقاموا على حصونهم يرمون بالنَّبْل والحجارة، واعتزلتهم قريظةُ، وخانهم ابنُ أبيٍّ وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلَهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرجُ من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريِّهم وأنَّ لهم ما حملتْ إبِلُهم إلَّا السلاحَ. وقبض رسولُ الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصةً لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمِّسْها؛ لأن الله أفاءها عليه ولم يوجِفِ المسلمون عليها بخيل ولا ركابٍ، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حييُّ بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضةً وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هٰذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير[٢].

﴿١﴾ فافتتح تعالى هٰذه السورة بالإخبار أنَّ جميع مَن في السماوات والأرض تسبِّح بحمد ربِّها وتنزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله وتعبُدُه وتخضعُ لعظمتِهِ[٣]؛ لأنه العزيز الذي قد قهر كلَّ شيء؛ فلا يمتنعُ عليه شيءٌ، ولا يستعصي عليه عسيرٌ[٤]، الحكيم

---

(١) في (ب): «ويصعد».

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» (٣/ ٢٥٧)، و«الطبقات» لابن سعد (٢/ ٥٧).

(٣) في (ب): «لجلالته». (٤) في (ب): «مستعصٍ».

في خلقِه وأمرِه؛ فلا يخلُقُ شيئاً عبثاً، ولا يُشْرِّعُ ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته.

﴿٢﴾ ومن ذٰلك نصرُه لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غَدَروا برسوله فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألِفوها وأحبوها، وكان إخراجهم منها أولَ حشرٍ وجلاءٍ كتبه الله عليهم على يد رسولِه محمدٍ ﷺ، فجلوا إلى خيبر. ودلَّت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاءً غير هٰذا؛ فقد وقع حين أجلاهم النبيُّ ﷺ من خيبر، ثم عمرُ رضي الله عنه أخرج بقيتهم منها. ﴿ما ظننتُم﴾: أيها المسلمون ﴿أن يخرُجوا﴾: من ديارهم؛ لحصانتها ومنعتها وعزِّهم فيها، ﴿وظنوا أنهم مانعتُهم حصونُهم من اللهِ﴾: فأعجبوا بها، وغرَّتْهم، وحسبوا أنهم لا يُنالون بها، ولا يقدِرُ عليها أحدٌ، وقدَرُ الله وراء ذٰلك كلِّه، لا تغني عنه الحصونُ والقلاعُ ولا تجدي فيه[1] القوةُ والدفاع، ولهٰذا قال: ﴿فأتاهمُ اللهُ من حيثُ لم يحتسِبوا﴾؛ أي: من الأمر والباب الذي لم[2] يخطر ببالهم أن يُؤتَوا منه، وهو أنَّه تعالى: ﴿قذَفَ في قلوبِهِم الرعبَ﴾: وهو الخوف الشديدُ، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عددٌ ولا عدةٌ ولا قوةٌ ولا شدةٌ؛ فالأمر الذي يحتسبونه، ويظنُّون أنَّ الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التي تحصَّنوا بها واطمأنتْ نفوسُهم إليها، ومن وَثِقَ بغير الله؛ فهو مخذولٌ، ومن ركن إلى غير الله؛ كان وبالاً عليه[3]، فأتاهم أمرٌ سماويٌّ نزل على قلوبهم، التي هي محلُّ الثبات والصبر أو الخور والضعف، فأزال قوَّتها وشدَّتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً لا حيلة لهم في دفعه[4]، فصار ذٰلك عوناً عليهم، ولهٰذا قال: ﴿يُخرِبونَ بيوتَهم بأيديهِم وأيدي المُؤمنينَ﴾، وذٰلك أنَّهم صالحوا النبيَّ ﷺ على أنَّ لهم ما حملتِ الإبلُ، فنقضوا لذٰلك كثيراً من سقوفهم التي استحسنوها، وسلَّطوا المؤمنين بسبب بغيهم على إخراب ديارِهم وهدم حصونِهم، فهم الذين جَنَوا على أنفسهم وصاروا أكبر[5] عونٍ عليها. ﴿فاعْتَبِروا يا أولي الأبصارِ﴾؛ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة؛ فإنَّ في هٰذا معتبراً يُعْرَف به صنع الله [تعالى] في المعاندين للحقِّ، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزَّتهم ولا مَنَعَتهم قوتُهم ولا حصَّنتهم

(١) في (ب): «فيهم».
(٢) في (ب): «لا».
(٣) في (ب): «فهو عليه وبال».
(٤) في (ب): «لا حيلة لهم ولا منعة معه».
(٥) في (ب): «من أكبر».

حصونهم، حين جاءهم أمرُ الله؛ وصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم المعنى[1] لا بخصوص السبب؛ فإنَّ هٰذه الآية تدلُّ على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظير بنظيره، وقياس الشيء على ما يشابهه[2]، والتفكُّر فيما تضمَّنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محلُّ العقل والفكرة، وبذٰلك يكمُلُ[3] العقل، وتتنور البصيرة، ويزداد الإيمان، ويحصل الفهم الحقيقيُّ.

﴿٣﴾ ثم أخبر تعالى أنَّ هٰؤلاء اليهود لم يصِبْهم جميع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفَّف عنهم، فلولا أنه كتبَ عليهم الجلاءَ الذي أصابهم وقضاه عليهم [وقدره] بقدره الذي لا يُبَدَّلُ ولا يُغَيَّرُ؛ لكان لهم شأنٌ آخر من عذاب الدُّنيا ونَكالها، ولٰكنهم وإن فاتهم العذابُ الشديد الدنيويُّ؛ فإنَّ لهم في الآخرة عذابَ النار الذي لا يمكن أن يعلم شدَّته إلَّا الله؛ فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم [قد] انقضتْ وفرغتْ ولم يبقَ لهم منها بقيةٌ؛ فما أعدَّ الله لهم من العذابِ في الآخرة أعظم وأطمُّ.

﴿٤﴾ و﴿ذٰلك﴾ لأنَّهم ﴿شاقُّوا اللهَ ورسولَه﴾: وعادَوْهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهٰذه سنته وعادته فيمن شاقَّه. ﴿ومن يُشاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ﴾.

﴿٥﴾ ولما لام بنو النضير رسولَ الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذٰلك من الفساد وتوصلوا بذٰلك[4] إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أنَّ قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إيَّاه إن أبقَوْه؛ أنه بإذنه [تعالى] وأمره، ﴿ولِيُخْزِيَ الفاسقين﴾: حيث سلَّطكم على قطع نخلهم وتحريقها؛ ليكون ذٰلك نكالاً لهم وخزياً في الدُّنيا وذلاً يُعرف به عجزُهم التامُّ الذي ما قدروا على استنقاذ نخلهم الذي هو[5] مادة قوتهم. واللِّينة تشمل[6] سائرَ النخيل على أصحِّ الاحتمالات وأولاها؛ فهٰذه حال بني النضير وكيف عاقبهم الله [تعالى] في الدُّنيا.

﴿٦﴾ ثم ذكر مَن انتقلت إليه أموالُهم وأمتعتُهم، فقال: ﴿وما أفاء اللهُ على رسولِهِ منهم﴾؛ أي: من أهل هٰذه القرية، وهم بنو النضير، ﴿فـ﴾: إنَّكم يا معشر المسلمين، ﴿ما أوجَفْتُم عليه من خيل ولا ركابٍ﴾؛ أي: ما أجلبتم وحشدتم[7]؛

---

(١) في (ب): «اللفظ».
(٢) في (ب): «على مثله».
(٣) في (ب): «يزداد».
(٤) في (ب): «به».
(٥) في (ب): «التي هي».
(٦) في (ب): «واللينة اسم يشمل».
(٧) في (ب): «ما أوجفتم؛ أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم عليه من خيل ولا ركاب».

أي: لم تتعبوا بتحصيلها لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعبَ، فأتتكم صفواً عفواً، ولهٰذا قال: ﴿ولٰكنَّ الله يسلِّطُ رسله على من يشاءُ والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ﴾: من تمام قدرته أنَّه لا يمتنع عليه[1] ممتنعٌ ولا يتعزَّز من دونه قويٌّ.

﴿٧﴾ وتعريف الفيء باصطلاح الفقهاء: هو ما أخِذَ من مال الكفار بحقٍّ من غير قتال؛ كهٰذا المال الذي فرُّوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسُمِّي فيئاً؛ لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقِّين له إلى المسلمين الذين لهم الحقُّ الأوفر فيه. وحكمه العامُّ كما ذكره الله بقوله[2]: ﴿ما أفاءَ اللهُ على رسولهِ من أهلِ القُرى﴾: عموماً، سواء كان في وقت الرسول[3] أو بعده على مَن تَوَلَّى من بعدِهِ من أمَّته، ﴿فللهِ وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل﴾: وهٰذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال[4]، وهي قوله[5]: ﴿واعلموا أنَّما غَنِمْتُم من شيءٍ فأنَّ لله خُمُسَه وللرسول ولذي القُربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ﴾؛ فهٰذا الفيء يُقسم خمسة أقسام: لله ولرسوله يُصْرَفُ في مصالح المسلمين العامة. وخمسٌ لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب؛ حيث كانوا، يسوَّى فيه بين ذكورهم وإناثهم، وإنَّما دخل بنو المطَّلب في خمس الخمس مع بني هاشم ولم يدخُلْ بقية بني عبد مناف؛ لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعبَ حين تعاقدتْ قريشٌ على هجرهم[6] وعداوتهم، فنصروا[7] رسولَ الله ﷺ؛ بخلاف غيرهم، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ في بني عبد المطلب: «إنَّهم لم يفارِقوني في جاهليَّة ولا إسلام»[8]. وخمسٌ لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغْ. وخمسٌ للمساكين. وخمسٌ[9] لأبناء السبيل، وهم الغرباء المنقطَع بهم في غير أوطانهم.

وإنَّما قدَّر الله هٰذا التقدير وحصر الفيء في هٰؤلاء المعيَّنين؛ لكي ﴿لا يكونَ

---

(١) في (ب): «منه».
(٢) في (ب): «في قوله».
(٣) في (ب): «سواء أفاء الله في وقت رسوله».
(٤) آيه: (٤١).
(٥) في (ب): «في قوله».
(٦) في (ب): «حين تعاقدت على هجرهم قريش».
(٧) في (ب): «ونصروا».
(٨) كما في «المسند» (٤/ ٨١)، والنسائي (٧/ ١٣١)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٧٨).
(٩) في (ب): «وسهم».

دُولَةً﴾؛ أي: مداولةً واختصاصاً ﴿بين الأغنياءِ منكم﴾: فإنَّه لو لم يقدِّره؛ لتداولته الأغنياءُ الأقوياء، ولما حَصَلَ لغيرهم من العاجزين منه شيءٌ، وفي ذٰلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله؛ كما أنَّ في اتِّباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذٰلك أمر الله بالقاعدة الكلِّيَّة والأصل العام، فقال: ﴿وما آتاكُمُ الرسولُ فخذوهُ وما نَهاكم عنهُ فانتهوا﴾: وهٰذا شاملٌ لأصول الدين وفروعه ظاهره وباطنه، وأنَّ ما جاء به الرسول يتعيَّن على العباد الأخذ به واتِّباعه، ولا تحلُّ مخالفته، وأنَّ نصَّ الرسول على حكم الشيء كنصِّ الله تعالى؛ لا رخصةَ لأحدٍ ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحدٍ على قوله. ثم أمر بتقواه التي بها عِمارةُ القلوب والأرواح والدُّنيا والآخرة، وبها السعادة الدائمة والفوزُ العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبديُّ والعذاب السرمديُّ، فقال: ﴿واتَّقوا الله إنَّ الله شديدُ العقابِ﴾: على من ترك التقوى وآثر اتِّباع الهوى.

﴿٨ ـ ٩﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى أموال[1] الفيء لمن قدَّرها له، وأنَّهم حقيقون بالإعانة، مستحقُّون لأن تُجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين؛ قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال رغبةً في الله ونصرةً لدين الله ومحبةً لرسول الله؛ فهٰؤلاء هم الصادقون؛ الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدَّقوا إيمانَهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقَّة؛ بخلاف مَنِ ادَّعى الإيمان وهو لم يصدِّقه بالجهاد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار، وهم الأوس والخزرج، الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبةً واختياراً، وآووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوَّءوا دار الهجرة والإيمان، حتى صارت موئلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون؛ إذ كانت البلدانُ كلُّها بلدانَ حربٍ وشركٍ وشرٍّ، فلم يزل أنصارُ الدين يأوون[2] إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي وجعل يزداد[3] شيئاً فشيئاً، [وينمو قليلاً قليلاً] حتى فتحوا القلوبَ بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدانَ بالسيف والسنان، الذين من جُملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يحبُّون مَن هاجَر إليهم﴾، وهٰذا لمحبَّتهم لله ورسوله، أحبُّوا أحبابه، وأحبُّوا من نصر دينه. ﴿ولا يجِدونَ في صدورهم حاجةً مما أوتوا﴾؛ أي: لا

---

(١) في (ب): «لجعله تعالى الأموال أموال الفيء».

(٢) في (ب): «تأوي». (٣) في (ب): «يزيد».

يحسُدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضلِهِ وخصَّهم به من الفضائل والمناقب الذين[1] هم أهلها.

وهٰذا يدلُّ على سلامة صدورهم وانتفاء الغلِّ والحقد والحسد عنها، ويدلُّ ذٰلك على أنَّ المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأنَّ الله قدَّمهم بالذِّكر، وأخبر أنَّ الأنصارَ لا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا، فدلَّ على أنَّ الله تعالى آتاهم ما لم يؤتِ الأنصارَ ولا غيرهم، ولأنَّهم جمعوا بين النصرة والهجرة، وقوله: ﴿ويؤثِرونَ على أنفسِهِم ولو كان بهم خَصاصةٌ﴾؛ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم وتميَّزوا بها عمَّن سواهم الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحابِّ النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغيرِ، مع الحاجة إليها، بل مع الضَّرورة والخَصاصة، وهٰذا لا يكون إلا من خُلُقٍ زكيٍّ ومحبَّة لله تعالى مقدَّمة على [محبة] شهوات النفس ولذَّاتها. ومن ذٰلك قصَّة الأنصاريِّ[2] الذي نزلت الآية بسببه حين آثر ضيفَه بطعامه وطعام أهله وأولادِهِ وباتوا جياعاً.

والإيثار عكس الأَثَرَةِ؛ فالإيثارُ محمودٌ، والأَثَرَةُ مذمومةٌ؛ لأنَّها من خصال البخل والشحِّ، ومن رُزِق الإيثار؛ فقد وُقِيَ شُحَّ نفسِه، ﴿ومَن يوقَ شُحَّ نفسهِ فأولٰئك هُمُ المفلحونَ﴾: ووقايةُ شحِّ النفس يشمل وقايتها الشحَّ في جميع ما أمر[3] به؛ فإنَّه إذا وُقِيَ العبدُ شحَّ نفسه؛ سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً منشرحاً بها صدرُه، وسمحت نفسه بترك ما نهى اللهُ عنه، وإنْ كان محبوباً للنفس؛ تدعو إليه وتطلَّع إليه، وسمحتْ نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاءِ مرضاتِه، وبذٰلك يحصُلُ الفلاح والفوزُ؛ بخلاف مَنْ لم يوقَ شحَّ نفسه، بل ابْتُلِيَ بالشُّحِّ بالخير الذي هو أصل الشرِّ ومادته.

﴿١٠﴾ فهٰذان[4] الصنفان الفاضلان الزكيَّان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سَبَقوا به مَن بعدَهم وأدركوا به مَن قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتَّقين، وحسب من بعدهم من الفضل أن يسيرَ خلفَهم ويأتمَّ بهُداهم، ولهٰذا ذكر الله من اللاحقين مَن هو مؤتمٌّ بهم [وسائر خلفهم]، فقال: ﴿والذين جاؤوا من بعدِهم﴾؛ أي: من بعد

---

(١) في (ب): «التي».
(٢) كما في «صحيح البخاري» (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) في (ب). «أمرت». (٤) في (ب): «فهؤلاء».

المهاجرين والأنصارِ، ﴿يقولون﴾: على وجه النُّصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين: ﴿ربَّنا اغْفِرْ لنا ولإخوانِنا الذين سَبَقونا بالإيمانِ﴾: وهٰذا دعاءٌ شاملٌ لجميع المؤمنين من السابقين من الصحابة ومَن قبلَهم ومَن بعدهم، وهٰذا من فضائل الإيمان؛ أنَّ المؤمنين ينتفعُ بعضُهم ببعض ويدعو بعضُهم لبعض؛ بسبب المشاركةِ في الإيمان، المقتضي لعقد الأخوَّة بين المؤمنين، التي من فروعها أن يدعوَ بعضُهم لبعض، وأن يحبَّ بعضُهم بعضاً، ولهٰذا ذكر الله في هٰذا الدعاء نفي الغلِّ عن القلب، الشامل لقليلِه[1] وكثيرِه، الذي إذا انتفى؛ ثبت ضدُّه، وهو المحبَّة بين المؤمنين[2] والموالاة والنصح ونحو ذٰلك مما هو من حقوق المؤمنين، فوصفَ الله مَن بعد الصحابة بالإيمان؛ لأنَّ قولهم: ﴿سَبَقونا بالإيمان﴾: دليلٌ على المشاركة فيه[3]، وأنَّهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هٰذا الوصف التامُّ إلَّا عليهم، وَوَصَفَهم بالإقرار بالذُّنوب والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض واجتهادهم في إزالة الغلِّ والحقدِ [عن قلوبهم] لإخوانهم المؤمنين؛ لأنَّ دعاءهم بذٰلك مستلزمٌ لما ذكرنا ومتضمِّنٌ لمحبَّة بعضهم بعضاً، وأنْ يحبَّ أحدُهم لأخيه ما يحبُّ لنفسه، وأن ينصحَ له حاضراً وغائباً حيًّا وميتاً.

ودلَّت الآية الكريمة على أنَّ هٰذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض. ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمينِ دالَّين على كمال رحمة الله وشدَّة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته: بل [من] أَجَلِّه توفيقُهم للقيام بحقوقه[4] وحقوق عباده.

فهٰؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هٰذه الأمة، وهم المستحقُّون للفيء، الذي مصرفه راجعٌ إلى مصالح الإسلام، وهٰؤلاء أهله الذين هم أهلُه، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه.

﴿١١﴾ ثم تعجَّب تعالى من حال المنافقين، الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنَّهم يقولون لهم: ﴿لَئِنْ أُخرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ معكم ولا نُطيعُ فيكم أحداً أبداً﴾؛ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذِلُنا أو يخوِّفنا، ﴿وإن[5] قوتِلْتُم لننصُرَنَّكم واللهُ يشهدُ إنَّهم لَكاذبونَ﴾: في هٰذا الوعد الذي غرُّوا به إخوانهم، ولا يستكثرُ هٰذا عليهم؛ فإنَّ الكذبَ وصفهم،

---

(١) في (ب): «للمؤمنين».
(٢) في (ب): «الشامل لقليل الغل وكثيره».
(٣) في (ب): «في الإيمان».
(٤) في (ب): «بحقوق الله».
(٥) في (ب): «ولئن».

والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم.

﴿١٢﴾ ولهٰذا كذَّبهم الله بقوله الذي وُجِدَ مخبرُه كما أخبر به ووقع طِبْقَ ما قال، فقال: ﴿لَئِنْ أخرِجوا﴾؛ أي: من ديارهم جلاءً ونفياً ﴿لا يخرُجون معهم﴾: لمحبَّتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بالوعد[1]، ﴿ولَئِن قوتلوا لا يَنصُرونهم﴾: بل يستولي عليهم الجبنُ ويملكهم الفشل ويَخْذُلون إخوانَهم أحوج ما كانوا إليهم، ﴿ولئِن نَصَروهم﴾: على الفرض والتقدير[2]، ﴿لَيُوَلُّنَّ الأدبارَ ثم لا يُنصرون﴾؛ أي: سيحصل[3] منهم الإدبار عن القتال والنُّصرة، ولا يحصُل لهم نصرٌ من الله.

﴿١٣﴾ والسبب الذي حملهم على[4] ذٰلك أنَّكم أيُّها المؤمنون ﴿أشدُّ رهبةً في صدورِهم من اللهِ﴾: فخافوا منكم أعظم ممَّا يخافون الله، وقدَّموا مخافَة المخلوق الذي لا يملك لنفسه [ولا لغيره] نفعاً ولا ضرًّا على مخافة الخالق الذي بيده الضرُّ والنفع[5] والعطاء والمنع. ﴿ذٰلك بأنَّهم قومٌ لا يفقهون﴾: مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصوَّرون العواقب، وإنَّما الفقه كلُّ الفقه أن يكون خوفُ الخالق ورجاؤه ومحبَّتُه مقدمةً على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لا يقاتِلونَكم جميعاً﴾؛ أي: في حال الاجتماع ﴿إلَّا في قرىً محصَّنةٍ أو من وراءِ جُدُرٍ﴾؛ أي: لا يثبتون على قتالكم[6] ولا يعزِمون عليه إلَّا إذا كانوا متحصِّنين في القرى أو من وراء الجدر والأسوار؛ فإنهم إذ ذاك ربَّما يحصُل منهم امتناعٌ اعتماداً على حصونهم وجُدُرهم لا شجاعةً بأنفسهم، وهٰذا من أعظم الذَّمِّ. ﴿بأسُهم بينَهم شديدٌ﴾؛ أي: بأسهم فيما بينهم شديدٌ، لا آفة في أبدانهم ولا في قوَّتهم، وإنَّما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كَلِمَتهم، ولهٰذا قال: ﴿تحسَبُهُم جميعاً﴾: حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين، ﴿و﴾ لٰكن ﴿قلوبُهم شتَّى﴾؛ أي: متباغضة متفرِّقة متشتِّتة. ﴿ذٰلك﴾: الذي أوجب لهم اتِّصافهم بما ذُكِرَ ﴿بأنَّهم قومٌ لا يعقلونَ﴾؛ أي: لا عقل عندهم ولا لبَّ؛ فإنَّهم لو كانت لهم عقولٌ؛ لآثروا الفاضل على المفضول، ولَما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطَّتين،

(١) في (ب): «بوعدهم».
(٢) في (ب): «على ضرب المثل».
(٣) في (ب): «ليحصل».
(٤) في (ب): «أوجب لهم».
(٥) في (ب): «النفع والضر».
(٦) في (ب): «لقتالكم».

ولكانت كلمتُهم مجتمعةً وقلوبهم مؤتلفةً؛ فبذٰلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم [ومنافعهم] الدينيَّة والدنيويَّة؛ مثل هٰؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقَهم الخزيَ في الحياة الدنيا، وعدمَ نصرِ مَنْ وعدَهم بالمعاونة.

﴿١٥﴾ ﴿كمثل الذين من قبلِهم قريباً﴾: وهم كفارُ قريش، الذين ﴿زيَّن لهمُ الشَّيطانُ أعمالهم، وقال: لا غالِبَ لَكُمُ اليومَ من النَّاس، وإنِّي جَارٌ لكم، فَلَمَّا تَراءتِ الفئتانِ؛ نكص على عقبيهِ[(١)]، وقَالَ: إنِّي بَرِيءٌ منكم، إنِّي أرى ما لا تَرَوْنَ﴾! فغرَّتهم أنفسهم، وغرَّهم مَن غرَّهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب، حتى أتوا بدراً بفخرهم وخُيَلائِهم، ظانِّين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانيهم، فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا مَن أسروا منهم، وفرَّ من فرَّ، وذاقوا بذٰلك وبالَ أمرِهم وعاقبةَ شِركهم وبغيهم. هٰذا في الدُّنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذابُ النارِ.

﴿١٦﴾ ومَثَلُ هٰؤلاء المنافقين الذين غرُّوا إخوانهم من أهل الكتاب، ﴿كمَثَل الشيطان إذ قال للإنسانِ اكْفُرْ﴾؛ أي: زيَّن له الكفر وحسَّنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر وحصل له الشقاء لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه بل تبرَّأ منه، ﴿وقال إني بريءٌ منك إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين﴾؛ أي: ليس لي قدرةٌ على دفع العذاب عنك، ولستُ بمغنٍ عنك مثقال ذرَّةٍ من الخير.

﴿١٧﴾ ﴿فكان عاقِبَتَهما﴾؛ أي: الداعي الذي هو الشيطان والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه، ﴿أنهما في النار خالدَيْنِ فيها﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يدعو حزبَه ليكونوا من أصحابِ السعيرِ﴾. ﴿وذٰلك جزاءُ الظالمين﴾: الذين اشتركوا في الظُّلم والكفر، وإن اختلفوا في شدَّة العذاب وقوته. وهٰذا دأب الشيطان مع كل أوليائِه؛ فإنَّه يَدْعوهم ويدلِّيهم بغرور إلى ما يضرُّهم[(٢)]، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاق[(٣)] بهم أسبابُ الهلاك؛ تبرأ منهم وتخلَّى عنهم، واللَّوم كلُّ اللَّوم على من أطاعه؛ فإنَّ الله قد حذَّر منه وأنذر، وأخبرَ بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدِم على طاعته عاصٍ على بصيرةٍ لا عذر له.

---

(١) في (ب): «ذكر الآية حتى عقبيه، وقال: الآية».
(٢) في (ب): «ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور».
(٣) في (ب): «وحاقت».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

﴿١٨﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًّا وعلانيةً في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامرِهِ وشرائعهِ وحدودِه، وينظُروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرُّهم في يوم القيامةِ؛ فإنَّهم إذا جعلوا الآخرة نصبَ أعينهم وقبلةَ قلوبهم، واهتمُّوا للمقام[1] بها؛ اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها وتصفيتها من القواطع والعوائق، التي توقِفُهم عن السير أو تَعوقُهم أو تصرِفهم، وإذا علموا أيضاً أنَّ ﴿الله خبيرٌ بما﴾: يعملون، لا تخفى عليه أعمالُهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها؛ أوجب لهم الجدَّ والاجتهاد.

وهٰذه الآية الكريمةُ أصلٌ في محاسبة العبد نفسَه، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها؛ فإنْ رأى زللاً؛ تداركه بالإقلاع عنه والتوبة النصوح والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله؛ بذل جهدَه واستعانَ بربِّه في تتميمه وتكميله[2] وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيرِهِ؛ فإن ذٰلك يوجب له الحياء لا[3] محالة.

﴿١٩﴾ والحرمانُ كلُّ الحرمان أن يغفل العبد عن هٰذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله، وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فُرُطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغُبِنوا غبناً لا يمكن تداركه ولا يُجبر كسرُه؛ لأنهم ﴿هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة ربِّهم، وأوضعوا في معاصيه.

---

(١) في (ب): «بالمقام».
(٢) في (ب): «تكميله وتتميمه».
(٣) في (ب): «بلا».

﴿٢٠﴾ فهل يستوي مَنْ حافظ على تقوى الله، ونظر لما قدَّم لغده فاستحقَّ جناتِ النعيم والعيش السليم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصالحين، ومن غَفَل عن ذكره ونسي حقوقَه فشقي في الدُّنيا، واستحقَّ العذاب في الآخرة؛ فالأوَّلون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

﴿٢١﴾ ولمَّا بيَّن تعالى لعباده ما بيَّن، وأمر عباده[1] ونهاهم في كتابه العزيز؛ كان هٰذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثَّهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي؛ فإنَّ هٰذا القرآن لو أنزله ﴿**على جبل؛ لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله**﴾؛ أي: لكمال تأثيره في القلوب؛ فإنَّ مواعظَ القرآن أعظمُ المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتويةٌ على الحكم والمصالح المقرونة بها وهي من أسهل شيء على النفوس وأيسرها على الأبدان، خاليةٌ من التكلُّف[2]، لا تناقض فيها ولا اختلاف ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلُحُ لكل زمانٍ ومكانٍ، وتليقُ لكلِّ أحدٍ. ثم أخبر تعالى أنه يضرِبُ للناس الأمثال، ويوضِّح لعباده [في كتابه] الحلال والحرام؛ لأجل أن يتفكَّروا في آياته ويتدبَّروها؛ فإنَّ التفكر فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيِّن له طرق الخير والشرِّ، ويحثُّه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، ويزجرُه عن مساوىء الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القرآن والتدبُّر لمعانيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٢﴾ هٰذه الآياتُ الكريماتُ قد اشتملت[3] على كثيرٍ من أسماء الله الحسنى وأوصافه العُلى؛ عظيمة الشأن، وبديعة البرهان. فأخبر أنَّه ﴿الله﴾: المألوه المعبودُ الذي ﴿لا إله إلَّا هو﴾: وذٰلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العامِّ، وكلُّ إله غيره[4]؛ فإنَّه باطلٌ لا يستحقُّ من العبادة مثقال ذرَّةٍ؛ لأنه فقيرٌ عاجزٌ ناقصٌ لا يملك

---

(١) في (ب): «وأمرهم».
(٢) في (ب): «وأقلها تكلُّفاً».
(٣) في (ب): «اشتملن».
(٤) في (ب): «سواه».

لنفسه ولا لغيره شيئاً. ثم وصف نفسه بعموم العلم، الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه. وبعموم رحمته، التي وسعتْ كلَّ شيء، ووصلتْ إلى كلِّ حيٍّ.

﴿٢٣﴾ ثم كرَّر ذِكْر عموم إلٰهيَّته وانفراده بها، وأنَّه المالك لجميع الممالك؛ فالعالَم العلويُّ والسفليُّ وأهله، الجميع مماليكُ لله فقراءُ مدَبَّرون. ﴿القدُّوسُ السلامُ﴾؛ أي: المقدَّس السالم من كل عيبٍ [وآفة] ونقص المعظَّم الممجَّد؛ لأنَّ القدوس يدلُّ على التنزيه من كل نقص والتعظيم لله في أوصافه وجلاله. ﴿المؤمن﴾؛ أي: المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البيِّنات والبراهين القاطعات والحجج الواضحات. ﴿العزيز﴾: الذي لا يغالَب ولا يمانَع، بل قد قهر كلَّ شيءٍ، وخضع له كلُّ شيءٍ. ﴿الجبار﴾: الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائرُ الخلق، الذي يجبرُ الكسيرَ ويغني الفقير. ﴿المتكبِّر﴾: الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزِّه عن جميع العيوب والظُّلم والجور. ﴿سبحان الله عمَّا يشركونَ﴾: وهٰذا تنزيهٌ عامٌّ عن كلِّ ما وصفه به من أشرك به وعانده.

﴿٢٤﴾ ﴿هو اللهُ الخالقُ﴾: لجميع المخلوقات. ﴿البارىء﴾: للمبروءات. ﴿المصوِّر﴾: للمصوَّرات. وهٰذه الأسماء متعلِّقةٌ بالخلق والتدبير والتقدير، وأنَّ ذٰلك كله قد انفرد الله به لم يشارِكْه فيه مشاركٌ. ﴿له الأسماءُ الحسنى﴾؛ أي: له الأسماء الكثيرة جدًّا، التي لا يُحصيها ولا يعلمها أحدٌ إلا هو[1]، ومع ذٰلك؛ فكلُّها حسنى؛ أي: صفات كمال، بل تدلُّ على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجهٍ من الوجوه، ومن حسنها أنَّ الله يحبُّها ويحبُّ من يحبُّها ويحبُّ من عباده أن يدعوه ويسألوه بها[2]. ومن كماله وأنَّ له الأسماء الحسنى والصفات العليا أنَّ جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدَّوام؛ يسبِّحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمتُه وحكمتُه. ﴿وهو العزيزُ الحكيم﴾: الذي لا يريد شيئاً إلَّا ويكون، ولا يكوِّن شيئاً إلَّا لحكمةٍ ومصلحةٍ.

تم تفسير هٰذه السورة[3].

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «الله».
(٢) في (ب): «أن يدعوه بها ويسألوه».
(٣) في (ب): «تم تفسير سورة الحشر. فلله الحمد على ذلك والمنة والإحسان».

# تفسير سورة الممتحنة

## وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ[1] تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا
جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي
وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ
سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ
تَكۡفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ
۝٣ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا
تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا
قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ
ٱلۡمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٥ لَقَدۡ
كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ
۝٦ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧
لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ
عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾.

ذكَرَ كثيرٌ من المفسِّرين رحمهم الله أنَّ سبب نزول هٰذه الآيات الكريمات في قصَّة حاطب بن أبي بلتعة؛ حين غزا النبيُّ ﷺ غزاة الفتح[2]، فكتب حاطبٌ إلى المشركين[3] من أهل مكَّة يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم؛ ليتَّخِذَ بذٰلك يداً

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿ومن يتولهم منكم فأولٰئك هم الظالمون﴾، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿فأولٰئك هم الظالمون﴾.

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) في (ب): «قريش».

عندهم، لا شكًّا ونفاقاً، وأرسله مع امرأةٍ، فأُخْبِرَ النبيُّ ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها، وأخذ منها الكتاب، وعاتب حاطباً، فاعتذر بعذرٍ[١] قبله النبيُّ ﷺ.

وهٰذه الآيات فيها النهيُ الشديد عن موالاة الكفَّار من المشركين وغيرهم وإلقاءِ المودَّةِ إليهم، وأنَّ ذٰلك منافٍ للإيمان ومخالفٌ لملَّة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقضٌ للعقل الذي يوجِبُ الحذر كلَّ الحذر من العدوِّ الذي لا يُبقي من مجهوده في العداوة شيئاً وينتهز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوِّه.

﴿١﴾ فقال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا﴾؛ أي: اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولايةِ مَنْ قام بالإيمان ومعاداة من عاداه؛ فإنَّه عدوٌّ لله وعدوٌّ للمؤمنين، فـ﴿لا تتَّخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياءَ تُلْقون إليهم بالمودَّة﴾؛ أي: تسارعون في مودَّتهم والسعي في أسبابها؛ فإنَّ المودَّة إذا حصلت؛ تبعتْها النصرةُ والموالاةُ، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران [وانفصل عن أهل الإيمان]. وهٰذا المتَّخذُ للكافر وليًّا عادمُ المروءة أيضاً؛ فإنَّه كيف يوالي أعدى أعدائه، الذي لا يريد له إلَّا الشرَّ، ويخالف ربَّه ووليَّه الذي يريد به الخير، ويأمره به ويحثُّه عليه. ومما يدعو المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار أنَّهم قد كفروا بما جاء المؤمنين من الحقِّ، ولا أعظم من هٰذه المخالفة والمشاقَّة؛ فإنَّهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا أنَّكم ضلَّالٌ على غير هدىً، والحالُ أنَّهم كفروا بالحقِّ الذي لا شكَّ فيه ولا مريةَ، ومن ردَّ الحقَّ؛ فمحالٌ أن يوجد له دليلٌ أو حجَّةٌ تدلُّ على صحة قوله. بل مجرَّد العلم بالحقِّ[٢] يدلُّ على بطلان قول من ردَّه وفساده.

ومن عداوتهم البليغة أنَّهم ﴿يُخرِجون الرسولَ وإيَّاكم﴾: أيُّها المؤمنون من دياركم ويشرِّدونكم من أوطانكم ولا ذنبَ لكم في ذٰلك عندهم إلَّا أنكم تؤمنون ﴿بالله ربِّكم﴾: الذي يتعيَّن على الخلق كلِّهم القيام بعبوديَّته؛ لأنَّه ربَّاهم، وأنعم عليهم بالنِّعم الظاهرة والباطنة [وهو الله تعالى]، فلمَّا أعرضوا عن هٰذا الأمر الذي هو أوجبُ الواجبات وقمتُم به؛ عادَوْكم وأخرجوكم من أجله من دياركم، فأيُّ دين وأيُّ مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هٰذا وصفُهم في كلِّ زمانٍ

(١) في (ب): «فاعتذر ـ رضي الله عنه ـ عذراً».
(٢) في (ب): «بل مجرد ردِّ الحق».

أو[١] مكان، ولا يمنعهم منه إلَّا خوفٌ أو مانعٌ قويٌّ. ﴿إن كنتُم خرجتُم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي﴾؛ أي: إن كان خروجُكم مقصودُكم به الجهادُ في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وابتغاء رضاه[٢]؛ فاعملوا بمقتضى هٰذا من موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائهِ؛ فإنَّ هٰذا من أعظم الجهاد[٣] في سبيله، ومن أعظم ما يتقرَّب به المتقرِّبون إلى الله ويبتغون به رضاه.

﴿تُسِرُّون إليهم بالمودَّةِ وأنا أعلمُ بما أخفيتُم وما أعلنتُم﴾؛ أي: كيف تسرُّون المودَّة للكافرين وتخفونها مع علمكم أنَّ الله عالمٌ بما تخفون وما تعلنون؛ فهو وإن خفي على المؤمنين؛ فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشرِّ. ﴿ومن يَفْعَلْه منكم﴾؛ أي: موالاة الكافرين بعدما حذَّركم الله منها، ﴿فقد ضلَّ سواءَ السبيل﴾: لأنَّه سلك مسلكاً مخالفاً للشرع وللعقل والمروءة الإنسانيَّة.

﴿٢﴾ ثم بيَّن تعالى شدَّة عداوتهم تهييجاً للمؤمنين على عداوتهم: ﴿إن يَثْقَفوكم﴾؛ أي: يجدوكم وتسنح لهم الفرصة في أذاكم، ﴿يكونوا لكم أعداءً﴾: ظاهرين، ﴿ويَبْسُطوا إليكم أيدِيَهم﴾: بالقتل والضَّرب ونحو ذٰلك، ﴿وألسنَتَهم بالسوءِ﴾؛ أي: بالقول الذي يسوء من شَتْمٍ وغيره، ﴿وودُّوا لو تكفُرون﴾: فإنَّ هٰذا غاية ما يريدون منكم.

﴿٣﴾ فإن احتجَجْتُم وقلتُم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال؛ فلن تغنيَ عنكم أَموالُكم ولا أولادُكم من الله شيئاً ﴿والله بما تعملون بصيرٌ﴾ فلذٰلك حذَّركم من موالاة الكافرين الذين تضرُّكم موالاتهم.

﴿٤﴾ ﴿قد﴾ كان ﴿لكم﴾: يا معشر المؤمنينَ، ﴿أسوةٌ حسنةٌ﴾؛ أي: قدوةٌ صالحةٌ وائتمامٌ ينفعكم ﴿في إبراهيم والذين معه﴾: من المؤمنين؛ لأنَّكم قد أمرتم أن تتَّبعوا ملَّة إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا بُرءَاءُ منكم وممَّا تعبُدون من دونِ اللهِ﴾؛ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومَنْ معه من المؤمنين من قومهم المشركين وممَّا يعبُدون من دون الله، ثم صرَّحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كَفَرْنا بكم وبدا﴾؛ أي: ظهر وبان ﴿بينَنا وبينَكم العداوةُ والبغضاءُ﴾؛ أي: البغض

---

(١) في (ب): «و».

(٢) في (ب): «مرضاة الله».

(٣) في (ب): «فإن هذا هو الجهاد».

بالقلوب وزوال مودَّتها والعداوة بالأبدان. وليس لتلك العداوة والبغضاء وقتٌ ولا حدٌّ، بل ذٰلك ﴿أبداً﴾ ما دمتم مستمرِّين على كفركم، ﴿حتى تؤمِنوا بالله وحدَه﴾؛ أي: فإذا آمنتم بالله وحده؛ زالت العداوةُ والبغضاءُ وانقلبتْ مودَّةً وولايةً؛ فلكم أيُّها المؤمنون أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد ولوازم[1] ذٰلك ومقتضياته وفي كلِّ شيءٍ تَعَبَّدُوا به لله وحده، ﴿إلَّا﴾: في خصلةٍ واحدةٍ، وهي: ﴿قولَ إبراهيمَ لأبيه﴾: آزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمانِ والتوحيدِ، فامتنع، فقال إبراهيمُ له: ﴿لأستغفرنَّ لك و﴾: الحال أني لا ﴿أملِكُ لك من اللهِ من شيءٍ﴾: ولٰكنِّي أدعو ربِّي عسى أن لا أكونَ بدعاءِ ربِّي شقيًّا، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هٰذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا[2]: إنَّا في ذٰلك متَّبِعون لملَّة إبراهيم؛ فإنَّ الله ذَكَرَ عذرَ إبراهيم في ذٰلك بقوله: ﴿وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلَّا عن مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إيَّاه فلمَّا تَبيَّنَ له أنَّه عدوٌّ لله تبرَّأ منه[3]...﴾ الآية، ولكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم ومن معه حين دَعَوُا الله وتوكَّلوا عليه وأنابوا إليه واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربَّنا عليك توكَّلْنا﴾؛ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرُّنا ووثقنا بك يا ربَّنا في ذٰلك، ﴿وإليك أنَبْنا﴾؛ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرِّبُ إليك؛ فنحن في ذٰلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنَّا إليك نصيرُ، فسنستعدُّ للقدوم عليك، ونعمل ما يزلفنا إليك[4].

﴿٥﴾ ﴿ربَّنا لا تجعَلْنا فتنةً للذين كفروا﴾؛ أي: لا تسلِّطْهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتتنون أيضاً بأنفسهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلبة؛ ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفِرْ لنا﴾: ما اقترفنا من الذُّنوب والسيئات وما قصَّرْنا به من المأمورات. ﴿ربَّنا إنَّك أنت العزيز﴾: القاهر لكلِّ شيءٍ. ﴿الحكيمُ﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها؛ فبعزَّتك[5] وحكمتك انصُرْنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلِحْ عيوبنا.

---

(١) في (ب): «والقيام بلوازم». (٢) في (ب): «وتقولون».
(٣) في (ب): «أتم الآية وهي: ﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾».
(٤) في (ب): «ما يقربنا زلفى إليك». (٥) في (ب): «فمن عزَّتك».

﴿٦﴾ ثم كرَّر الحثَّ لهم على[1] الاقتداء بهم وقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ﴾: وليس كلُّ أحدٍ تسهُلُ عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو اللهَ واليومَ الآخرَ﴾: فإنَّ الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهِّل على العبد كلَّ عسير، ويقلِّل لديه كلَّ كثير، ويوجِبُ له [الإكثار مِن] الاقتداء بعباد الله الصالحين والأنبياء والمرسلين؛ فإنَّه يرى نفسه مفتقراً [و] مضطرًّا إلى ذلك غاية الاضطرار، ﴿ومن يتولَّ﴾: عن طاعة الله والتأسِّي برسل الله؛ فلن يضرَّ إلَّا نفسه، ولا يضرُّ الله شيئاً، ﴿فإنَّ الله هو الغنيُّ﴾: الذي له الغنى التامُّ المطلقُ من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه بوجه. ﴿الحميدُ﴾: في ذاته [وأسمائه] وصفاته وأفعاله؛ فإنَّه محمود على ذلك كله.

﴿٧﴾ ثم أخبر تعالى أنَّ هذه العداوة التي أمَرَ [اللَّهُ] بها المؤمنين للمشركين ووصفهم بالقيام بها؛ أنَّهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنَّهم إن انتقلوا إلى الإيمان؛ فإنَّ الحكم يدور مع علته، والمودَّة[2] الإيمانيَّة ترجع؛ فلا تيأسوا أيُّها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان؛ ﴿فعسى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبينَ الذين عادَيْتُم منهم مودةً﴾: سببها رجوعهم إلى الإيمان. ﴿والله قديرٌ﴾: على كلِّ شيءٍ، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال. ﴿والله غفورٌ رحيمٌ﴾: لا يتعاظمُهُ ذنبٌ أن يغفِرَه ولا [يكبر عليه] عيبٌ أن يستُرَه، ﴿قلْ يا عبادي الذين أسْرَفوا على أنفسِهِم لا تَقْنَطوا من رحمةِ الله إنَّ اللهَ يغفرُ الذُّنوب جميعاً إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ﴾. وفي هذه الآية إشارةٌ وبشارةٌ بإسلام[3] بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، ولله الحمد والمنة.

﴿٨﴾ ولمَّا نزلت هذه الآيات الكريمات المهيِّجةُ على عداوة الكافرين؛ وقعتْ من المؤمنين كلَّ موقع، وقاموا بها أتمَّ القيام، وتَأثَّموا من صِلَةِ بعض أقاربهم المشركين، وظنُّوا أنَّ ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخُلُ في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكُمُ الله عن الذين لم يقاتِلوكم في الدِّينِ ولم يُخرِجُوكم من ديارِكم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إنَّ الله يحبُّ المقسِطينَ﴾؛ أي: لا ينهاكم الله عن البرِّ والصِّلة والمكافأة بالمعروف والقسطِ للمشركين من أقاربكم

---

(١) في (ب): «ثم كرَّر الحث على».
(٢) في (ب): «فإنَّ المودة».
(٣) في (ب): «إلى إسلام».

وغيرهم؛ حيث كانوا بحالٍ لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم؛ فليس عليكم جناحٌ أن تَصِلوهم؛ فإنَّ صِلَتَهم في هٰذه الحالة لا محذورَ فيها ولا تَبِعَةَ[1]؛ كما قال تعالى في الأبوين الكافرين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهَداك على أن تشرِكَ بي ما ليس لك به علمٌ فلا تُطِعْهما وصاحِبْهما في الدُّنيا معروفاً﴾.

﴿٩﴾ وقوله: ﴿إنَّما ينهاكُم اللهُ عن الذين قاتَلوكم في الدِّين﴾؛ أي: لأجل دينكم؛ عداوةً لدين الله ولِمَنْ قام به، ﴿وأخرَجوكم من دِياركم وظاهَروا﴾؛ أي: عاونوا غيرهم ﴿على إخراجِكم﴾: نهاكم الله ﴿أن تَوَلَّوهم﴾: بالنصرة والمودَّة بالقول والفعل، وأما بِرُّكم وإحسانُكم الذي ليس بتولٍّ للمشركين؛ فلم ينهكم الله عنه، بل ذٰلك داخلٌ في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الآدميين وغيرهم، ﴿ومن يَتَوَلَّهم﴾ منكم ﴿فأولٰئك هم الظالمونَ﴾: وذٰلك الظلمُ يكون بحسب التولِّي؛ فإنْ كان تولياً تامًّا؛ كان ذٰلك كفراً مخرجاً عن دائرة الإسلام وتحت ذٰلك من المراتب ما هو غليظٌ وما هو دونه[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ[3] ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠﴾ لما كان صلح الحديبية؛ صالَحَ النبيُّ ﷺ المشركين على أنَّ مَن جاء منهم إلى المسلمين مسلماً؛ أنَّه يردُّ إلى المشركين، وكان هٰذا لفظاً عامًّا مطلقاً يدخل في عمومه النساء والرجال، فأمَّا الرجال؛ فإنَّ الله لم ينه رسولَه عن ردِّهم إلى الكفار[4] وفاءً بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأمَّا النساءُ؛ فلمَّا كان ردُّهنَّ فيه مفاسد كثيرةٌ؛ أمرَ المؤمنين إذا جاءهم ﴿المؤمناتُ مهاجراتٍ﴾: وشَكُّوا في صدق إيمانهنَّ أن يمتحنوهنَّ ويختبروهنَّ بما يظهر به من صدقهنَّ من

(١) في (ب): «ولا مفسدة».
(٢) في (ب): «دون ذلك».
(٣) في (أ) إلى قوله: ﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.
(٤) في (ب): «المشركين».

أيمانٍ مغلظةٍ وغيرها؛ فإنَّه يُحتمل أن يكون إيمانُها غيرَ صادقٍ، بل رغبةً في زوج أو بلدٍ أو غير ذٰلك من المقاصد الدنيويَّة؛ فإنْ كُنَّ بهٰذا الوصف؛ تعيَّن ردُّهنَّ وفاءً بالشرط من غير حصول مفسدةٍ؛ وإن امتحنوهنَّ فوجدنَ صادقاتٍ، أو علموا ذٰلك منهنَّ من غير امتحانٍ؛ فلا يَرْجِعوهنَّ إلى الكفار. ﴿**لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يَحِلُّون لهنَّ**﴾: فهٰذه مفسدةٌ كبيرةٌ [في ردهنَّ] راعاها الشارع وراعى أيضاً الوفاء بالشرط؛ بأن يُعطوا الكفار أزواجهنَّ ما أنفقوا عليهنَّ من المهر وتوابعه عوضاً عنهنَّ، ولا جناح حينئذٍ على المسلمين أن ينكحوهنَّ، ولو كان لهنَّ أزواجٌ في دار الشرك، ولٰكن بشرطِ أن يؤتوهنَّ أجورهنَّ من المهر والنفقة، وكما أنَّ المسلمة لا تحلُّ(١) للكافر؛ فكذٰلك الكافرة لا تحلُّ للمسلم [أن يمسكها] ما دامت على كفرها؛ غير أهل الكتاب، ولهٰذا قال تعالى: ﴿**ولا تُمسِكوا بعِصَم الكَوافِرِ**﴾. وإذا نهي عن الإمساك بعصمتها؛ فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿**واسألوا ما أنفقتم**﴾: أيُّها المؤمنون حين ترجِعُ زوجاتكم مرتداتٍ إلى الكفار؛ فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم؛ استحقَّ المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار.

وفي هٰذا دليلٌ على أنَّ خُروجَ البُضْع من الزوج متقوَّمٌ؛ فإذا أفسد مفسدٌ نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره؛ كان عليه ضمانُ المهرِ.

وقوله: ﴿**ذٰلكم حكم الله**﴾؛ أي: ذٰلكم الحكم الذي ذكره الله وبيَّنه لكم حكمُ الله؛ بيَّنه لكم ووضَّحه(٢). ﴿**والله عليمٌ حكيمٌ**﴾: فيعلم تعالى ما يصلح لكم من الأحكام، فيشرعه بحسب حكمته ورحمته(٣).

﴿١١﴾ وقوله: ﴿**وإن فاتَكم شيءٌ من أزواجِكم إلى الكفَّار**﴾: بأن ذهبنَ مرتدَّاتٍ، ﴿**فعاقبتُم فآتوا الذين ذهبتْ أزواجُهم مثل ما أنفقوا**﴾: كما تقدَّم أنَّ الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهم إلى المسلمين؛ فمن ذهبت زوجتُه من المسلمين إلى الكفار، وفاتت عليه؛ فعلى المسلمين أن يعطوه(٤) من الغنيمة بدل ما أنفق. ﴿**واتَّقوا الله الذي أنتم به مؤمنونَ**﴾: فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدَّوام.

---

(١) في (ب): «لا يحل».
(٢) في (ب): «وبينه لكم يحكم به بينكم».
(٣) في (ب): «ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة».
(٤) في (ب): «لزم أن يعطيه المسلمون».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ[١] يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿١٢﴾ هٰذه الشروط المذكورة في هٰذه الآية تسمَّى مبايعة النساء، اللاتي كنَّ يبايِعْنَ على إقامة الواجبات المشتركة التي تجب على الذُّكور والنساء في جميع الأوقات، وأما الرجال؛ فيتفاوتُ ما يلزمُهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعيَّن عليهم، فكان النبيُّ ﷺ يمتثل ما أمره الله [به]، فكان إذا جاءته النساءُ يبايِعْنَه والتزمن بهٰذه الشروط؛ بايَعَهُنَّ وجَبَرَ قلوبَهُنَّ، واستغفر لهنَّ الله فيما يحصل منهنَّ من التقصير[٢] وأدخلهنَّ في جملة المؤمنين، ﴿على أن لا يُشْرِكنَ بالله شيئاً﴾: بل يفرِدْنَ الله وحده بالعبادة، ﴿ولا يَقْتُلْنَ أولادهنَّ﴾: كما يجري لنساء الجاهليَّة الجهلاء، ﴿ولا يَزْنينَ﴾: كما كان ذٰلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببُهتانٍ يفترينَه بين أيديهنَّ وأرجُلهنَّ﴾: والبهتان الافتراء على الغير؛ أي: لا يفترين بكلِّ حالة، سواءً أتعلَّقت بهنَّ مع أزواجهنَّ[٣] أو تعلَّق ذٰلك بغيرهم، ﴿ولا يَعْصينَكَ في معروفٍ﴾؛ أي: لا يعصينك في كلِّ أمرٍ تأمرهنَّ به؛ لأنَّ أمرك لا يكون إلَّا بمعروفٍ، ومن ذٰلك طاعتهنَّ لك في النهي عن النياحة وشقِّ الجيوب وخمش الوجوه والدُّعاء بدعوى[٤] الجاهلية، ﴿فبايِعْهُنَّ﴾: إذا التزمنَ بجميع ما ذُكِر، ﴿واستَغفِرْ لهنَّ اللهَ﴾: عن تقصيرهنَّ وتطييباً لخواطرهنَّ. ﴿إنَّ الله غفورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين. ﴿رحيمٌ﴾: وسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ وعمَّ إحسانُه البَرايا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١٣﴾ أي: يا أيُّها المؤمنون إن كنتُم مؤمنين بربِّكم، ومتَّبعين لرضاه، ومجانبين لسخطه، ﴿لا تَتَولَّوا قوماً غضب الله عليهم﴾: وإنَّما غضب عليهم لكفرهم، وهٰذا شاملٌ لجميع أصناف الكفار، ﴿قد يَئِسوا من الآخرة﴾؛ أي: قد حُرِموا من خير

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿غفور رحيم﴾، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.

(٢) في (ب): «من التقصير منهن». (٣) في (ب): «تعلّقت بهن وأزواجهن».

(٤) في (ب): «بدعاء».

الآخرة، فليس لهم منها نصيبٌ؛ فاحذروا أن تَتَوَلَّوهم فتوافقوهم على شرِّهم وشركهم[١]، فتُحرموا خير الآخرة كما حُرِمُوا. وقوله: ﴿كما يئِس الكفَّار من أصحاب القبور﴾: حين أفضوا إلى الدار الآخرة، وشاهدوا[٢] حقيقة الأمر، وعلموا علم اليقين أنَّهم لا نصيب لهم منها.

ويُحتمل أنَّ المعنى: قد يئسوا من الآخرة؛ أي: قد أنكروها وكفروا بها؛ فلا يُسْتَغربُ حينئذٍ منهم الإقدام على مساخط الله وموجباتِ عذابِه، وإياسهم من الآخرة كما يئس الكفارُ المنكرون للبعث في الدُّنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسيرها. والله أعلم[٣].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الصف

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

﴿١﴾ وهٰذا بيانٌ لعظمته تعالى وقهره وذلِّ جميع الأشياء[٤] له تبارك وتعالى وأنَّ جميع مَن في السماوات والأرض يسبِّحون بحمدِ ربِّهم ويعبُدونه ويسألونَه حوائجهم. ﴿وهو العزيزُ﴾: الذي قهر الأشياء بعزَّته وسلطانِهِ. ﴿الحكيمُ﴾: في خلقه وأمره.

﴿٢ ـ ٣﴾ ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لم تقولونَ ما لا تفعلونَ﴾؛ أي: لم تقولونَ الخير وتحثُّون عليه، وربما تمدَّحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتَنْهَوْنَ عن الشرِّ، وربَّما نزَّهتم أنفسكم عنه وأنتم متلوِّثون متَّصفون[٥] به؛ فهل تليقُ بالمؤمنين هٰذه الحالة الذَّميمة؟! أم من أكبر المقت عند الله أن يقولَ العبدُ ما لا يفعل؟! ولهٰذا ينبغي

---

(١) في (ب): «وكفرهم». (٢) في (ب): «ووقفوا على».
(٣) في (ب): «تم تفسير سورة الممتحنة. والحمد لله رب العالمين».
(٤) في (ب): «الخلق». (٥) في (ب): «متلوثون به ومتصفون به».

للآمر بالخير أن يكونَ أولَ الناس إليه مبادرةً، والناهي عن الشرِّ أن يكون أبعدَ الناس عنه[(١)]؛ قال تعالى: ﴿أتأمرونَ الناس بالبِرِّ وتَنسَوْنَ أنفسَكم وأنتم تتلونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلونَ﴾، وقال شعيبٌ عليه السلام [لقومه]: ﴿وما أريدُ أن أخالِفَكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿٤﴾ هٰذا حثٌّ من الله لعباده على الجهاد في سبيله، وتعليمٌ لهم كيف يصنعون، وأنهم[(٢)] ينبغي لهم أن يَصُفُّوا في الجهاد صفًّا متراصًّا متساوياً من غير خلل يحصُلُ في الصفوف، وتكون صفوفُهم على نظام وترتيبٍ به تحصُلُ المساواة بين المجاهدين والتعاضُد وإرهاب العدوِّ وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهٰذا كان النبيُّ ﷺ إذا حضر القتال؛ صفَّ أصحابه ورتَّبهم[(٣)] في مواقفهم بحيث لايحصُلُ اتِّكالُ بعضهم على بعض، بل تكون[(٤)] كلُّ طائفةٍ منهم مهتمةً بمركزها وقائمةً بوظيفتها، وبهٰذه الطريقة تتمُّ الأعمال ويحصُلُ الكمال.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿٥﴾ أي: ﴿وإذْ قال موسى لقومِهِ﴾: موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيَّته، وهم يعلمون أنَّه رسول الله: ﴿لمَ تؤذونَني﴾: بالأقوال والأفعال، ﴿وقد تعلمونَ أنِّي رسولُ الله إليكم﴾: والرسولُ من حقِّه الإكرام والإعظام والقيام بأوامره[(٥)] والابتدار لحكمِهِ، وأمَّا أذيَّة الرسول الذي إحسانُه إلى الخلق فوق كلِّ إحسان بعد إحسان الله؛ ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد عَلِموه وتَرَكوه، ولهٰذا قال: ﴿فلمَّا زاغوا﴾؛ أي: انصرفوا عن الحقِّ بقصدهم، ﴿أزاغَ الله قلوبَهم﴾: عقوبةً لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفِّقْهم الله للهدى؛ لأنَّهم لا يَليقُ بهم الخير ولا يَصلُحون إلَّا للشرِّ. ﴿والله لا يهدي القومَ الفاسقينَ﴾؛ أي: الذينَ لم يزلِ الفسقُ وصفاً لهم،

---

(١) في (ب): «منه». (٢) في (ب): «وأنه».

(٣) كما جاء في غزوة بدر الكبرى. أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٠).

(٤) في (ب): «يكون». (٥) في (ب): «والانقياد لأوامره».

ليس لهم قصد[1] في الهدى. وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعبيده ليس ظلماً منه ولا حجَّة لهم عليه، وإنَّما ذٰلك بسببٍ منهم؛ فإنَّهم[2] الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذٰلك بالإضلال[3] والزيغ وتقليب القلوب عقوبةً لهم وعدلاً منه بهم؛ كما قال تعالى: ﴿ونقلِّبُ أفئِدَتَهم وأبصارَهم كما لم يؤمِنوا به أولَ مرةٍ ونَذَرُهم في طغيانِهم يعمهونَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ[4] يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿٦﴾ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدِّمين الذين دعاهم عيسى بن مريم وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيلَ إنِّي رسولُ اللهِ إليكم﴾؛ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشرِّ، وأيَّدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدلُّ على صدقي كوني ﴿مصدِّقاً لما بين يديَّ من التَّوراة﴾؛ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماويَّة، ولو كنت مدَّعٍ للنبوَّةِ؛ لجئتُ بغير ما جاء به المرسلون، و ﴿مصدِّقاً لما بين يديَّ من التَّوراة﴾: أيضاً أنها أخبرت بي وبشَّرت، فجئتُ وبعثتُ مصدقاً لها، ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمُهُ أحمدُ﴾: وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب النبيُّ الهاشميُّ؛ فعيسى عليه الصلاة والسلام كسائر الأنبياء[5]؛ يصدِّق بالنبيِّ السابق، ويبشِّر بالنبيِّ اللاحق؛ بخلاف الكذَّابين؛ فإنَّهم يناقضون الأنبياء أشدَّ مناقضة، ويخالِفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمرِ والنهي، ﴿فلمَّا جاءهم﴾: محمدٌ ﷺ الذي بَشَّرَ به عيسى ﴿بالبيِّناتِ﴾؛ أي: الأدلَّة الواضحة الدالَّة على أنه هو، وأنَّه رسول الله حقًّا، ﴿قالوا﴾: معاندين للحقِّ مكذِّبين له: ﴿هٰذا سحرٌ مبينٌ﴾: وهٰذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته

---

(١) في (ب): «لا قصد لهم».
(٢) في (ب): «وإنهم».
(٣) في (ب): «بالضلال والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب».
(٤) في ( أ ) إلى قوله: «ولو كره المشركون»، وفي (ب) ذكر الآيات كاملة.
(٥) في (ب): «كالأنبياء».

وصارتْ أبين من شمس النهار؛ يُجعل ساحراً بيِّناً سحره؛ فهل في الخذلان أعظم من هٰذا؟! وهل في الافتراء أبلغ[١] من هٰذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته وأثبتَ له ما كان أبعد الناس عنه[٢]؟!

﴿٧﴾ ﴿ومن أظلمُ ممَّنِ افترى على الله الكذب﴾: بهٰذا أو غيره والحال أنه لا عذر له وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾: ويُبَيَّن له ببراهينه وبيناته، ﴿واللهُ لا يهدي القوم الظالمينَ﴾: الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردُّهم عنه موعظةٌ ولا يزجُرُهم بيانٌ ولا برهانٌ، خصوصاً هٰؤلاء الظَّلمة القائمين بمقابلة الحقِّ ليردُّوه، ولينصروا الباطل.

﴿٨﴾ ولهٰذا قال [اللّٰه] عنهم: ﴿يريدونَ لِيُطْفِئوا نورَ الله بأفواههم﴾؛ أي: بما يَصْدُرُ منهم من المقالات الفاسدة التي يردُّون بها الحقَّ، وهي[٣] لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفةً بما هم عليه من الباطل، ﴿والله متمُّ نورِهِ ولو كَرِهَ الكافرونَ﴾؛ أي: قد تكفَّل الله بنصر دينه وإتمام الحقِّ الذي أرسل به رسلَه وإظهار[٤] نورِهِ في سائر الأقطار، ولو كَرِهِ الكافرونَ، وبَذَلوا بسبب كراهته كلَّ ما قدروا عليه مما يتوصَّلون[٥] به إلى إطفاء نور الله؛ فإنَّهم مغلوبون، ومَثَلُهم كمثل[٦] مَن ينفخ عين الشمس بفيه ليطفِئَها؛ فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمتْ عقولهم من النقص والقدح فيها.

﴿٩﴾ ثم ذكر سبب الظُّهور والانتصار للدين الإسلاميِّ الحسِّي والمعنويِّ، فقال: ﴿هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى ودين الحقِّ﴾: أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدُّنيا والآخرة، ﴿ودين الحقِّ﴾؛ أي: الدين الذي يُدان به ويُتَعَبَّدُ لربِّ العالمين، الذي هو حقٌّ وصدقٌ لا نقص فيه ولا خلل يعتريه، بل أوامره غذاءُ القلوب والأرواح وراحةُ الأبدان، وترك نواهيه سلامةً من الشرِّ والفساد[٧]، فما بُعِثَ به النبيُّ ﷺ من الهدي ودين الحقِّ أكبر دليل وبرهان على

---

(١) في (ب): «أعظم».
(٢) في (ب): «منه».
(٣) في (ب): «التي».
(٤) في (ب): «وإشاعة».
(٥) في (ب): «وبذلوا بسبب كراهتهم كلَّ سببٍ يتوصَّلُون به».
(٦) في (ب): «وصاروا بمنزلة من ينفخ».
(٧) في (ب): «وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد».

صدقِهِ، وهو برهانٌ باقٍ ما بقي الدهر، كلَّما ازداد به العاقل تفكُّراً؛ ازداد به فرحاً وتبصُّراً. ﴿ليظهِرَه على الدِّين كلِّه﴾؛ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجَّة والبرهان، ويُظْهِرَ أهلَه القائمين به بالسيف والسِّنان.

فأمَّا نفس الدين؛ فهٰذا الوصف ملازمٌ له في كلِّ وقت، فلا يمكن أن يُغَالِبَهُ مغالبٌ أو يخاصِمَهُ مخاصمٌ إلَّا فَلَجَه وبلسه، وصار له الظهورُ والقهرُ، وأمَّا المنتسبون إليه؛ فإنَّهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدَوْا بهديه في مصالح دينهم ودُنياهم؛ فكذٰلك لا يقوم لهم أحدٌ، ولا بدَّ أن يظهروا على أهل الأديان، وإذا ضيَّعوا واكتفَوْا منه بمجرَّد الانتساب إليه؛ لم ينفعْهم ذٰلك، وصار إهمالهم له سببَ تسليطِ الأعداء عليهم، ويَعْرِفُ هٰذا من استقرأ الأحوال والنظر[1] في أول المسلمين وآخرهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ[2] تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٠﴾ هٰذه وصيةٌ ودلالةٌ وإرشادٌ من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين لأعظم تجارةٍ وأجلِّ مطلوب وأعلى مرغوبٍ يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز بالنعيم المقيم، وأتى بأداة العرض الدالَّة على أنَّ هٰذا أمرٌ يرغب فيه كلُّ متبصِّر ويسمو إليه كل لبيبٍ.

﴿١١﴾ فكأنَّه قيل: ما هٰذه التِّجارة التي هٰذا قدرها؟ فقال: ﴿تؤمنون باللهِ ورسوله﴾: ومن المعلوم أنَّ الإيمان التامَّ هو التصديقُ الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، التي من[3] أجلِّها الجهاد في سبيله[4]؛ فلهٰذا قال:

---

(١) في (ب): «نظر».

(٢) في (أ) إلى آخر السورة، وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٣) في (ب): «ومن».

(٤) في (ب): «سبيل الله».

﴿وتجاهدون في سبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفسِكم﴾؛ بأن تبذلوا نفوسكم ومُهَجَكُم لمصادمة أعداء الإسلام، والقصدُ نصرُ دين الله وإعلاءُ كلمته، وتنفقون ما تيسَّر من أموالكم في ذٰلك المطلوب؛ فإنَّ ذٰلك وإنْ[1] كان كريهاً للنفوس شاقًّا عليها؛ فإنَّه ﴿خيرٌ لكم إن كنتُم تعلمون﴾: فإنَّ فيه الخير الدنيويَّ من النصر على الأعداء والعزَّ المنافي للذُّلِّ والرزق الواسع وسعة الصدر وانشراحه، والخير الأخروي بالفوز[2] بثواب الله والنجاة من عقابه.

﴿١٢﴾ ولهٰذا ذَكَرَ الجزاء في الآخرة فقال: ﴿يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم﴾: وهو[3] شاملٌ للصغائر والكبائر؛ فإنَّ الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفِّرٌ للذُّنوب، ولو كانت كبائر، ﴿ويـدخِـلْـكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾؛ أي: من تحت مساكنها وقصورها وغُرَفِها وأشجارها أنهارٌ من ماءٍ غير آسن وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُه وأنهارٌ من خمر لذَّةٍ للشاربين وأنهارٌ من عسل مصفى ولهم فيها من كلِّ الثمرات، ﴿ومساكنَ طيِّبةً في جناتِ عدنٍ﴾؛ أي: جمعت كلَّ طيبٍ من علوٍّ وارتفاع وحسن بناءٍ وزخرفةٍ، حتَّى إنَّ أهل الغرف من أهل علِّيين يتراءاهم أهلُ الجنَّة كما يُتراءى[4] الكوكب الدُّرِّي في الأفق الشرقيِّ أو الغربيِّ، وحتَّى إنَّ بناء الجنَّة بعضُه من لَبِنِ ذهبٍ وبعضُه من لَبِنِ فضَّةٍ[5]، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزُّمُرُّد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنَّها من صفائها يُرى ظاهرُها من باطنها وباطنُها من ظاهرها، وفيها من الطيبِ والحُسن ما لا يأتي عليه وصفُ الواصفين ولا خَطَرَ على قلب أحدٍ من العالمين، لا يمكن أن يدرِكوه حتى يَرَوْه ويتمتَّعوا بحسنه، وتقرَّ به أعينُهم.

ففي تلك الحالة لولا أنَّ الله خَلَقَ أهل الجنَّة وأنشأهم نشأةً كاملةً لا تقبلُ العدم؛ لأوشك أن يموتوا من الفرح؛ فسبحان من لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثني عليه أحدٌ من خلقه[6]، وتبارك الجليلُ الجميلُ، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقولَ الخلق ويأخُذُ بأفئِدتهم، وتعالى من له الحكمةُ التامَّة، الذي[7] من جملتها أنه لو

(١) في (ب): «ولو».
(٢) في (ب): «وفي الآخرة الفوز».
(٣) في (ب): «وهذا».
(٤) في (ب): «يتراءَون».
(٥) في (ب): «من لبن ذهب ولبن فضة».
(٦) في (ب): «وفوق ما يثني عليه عباده».
(٧) في (ب): «التي».

أرى العباد الجنَّة[(١)] ونظروا إلى ما فيها من النعيم؛ لما تخلَّف عنها أحدٌ، ولما هناهم العيش في هٰذه الدار المنغصة المَشوب نعيمها بألمها وفرحها[(٢)] بِتَرَحِها. وسُمِّيت [الجنة] جنَّة عدن؛ لأنَّ أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حِوَلاً. ذٰلك الثواب الجزيل والأجر الجميل هو الفوزُ العظيم الذي لا فوزَ مثله؛ فهٰذا الثواب الأخرويُّ.

﴿١٣﴾ وأما الثواب الدنيويُّ لهٰذه التجارة؛ فذكره بقوله: ﴿وأخرى تحبُّونها﴾؛ أي: ويحصُلُ لكم خَصْلَةٌ أخرى تحبُّونها، وهي: ﴿نصرٌ من الله﴾: لكم على الأعداء، يحصُلُ به العزُّ والفرح، ﴿وفتحٌ قريبٌ﴾: تتَّسع به دائرة الإسلام، ويحصُلُ به الرزق الواسع؛ فهٰذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد إذا قام غيرهم بالجهادِ؛ فلم يؤيِّسْهُمُ الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وبشِّرِ المؤمنينَ﴾؛ أي: بالثواب العاجل والآجل؛ كلٌّ على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ رَضِي بالله ربًّا، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً؛ وجبتْ له الجنةُ». فعجب لها أبو سعيد الخدريُّ راوي الحديث، فقال: أعدها عليَّ يا رسول الله! فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يُرْفَعُ بها العبدُ مائة درجةٍ في الجنة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض». فقال: وما هي يا رسولَ الله؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله». رواه مسلم[(٣)].

﴿١٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا أنصارَ اللهِ﴾؛ أي: بالأقوال والأفعال، وذٰلك بالقيام بدين الله، والحرص على تنفيذه[(٤)] على الغير وجهادِ مَنْ عانده ونابذه بالأبدان والأموال، ومَنْ نَصَرَ الباطلَ بما يزعمُه من العلمِ، وَرَدَّ الحقَّ بدحض حجَّته وإقامة الحجَّة عليه والتحذير منه، ومن نصرِ دين الله تعلُّم كتاب الله وسنَّة رسوله [وتعليمه] والحثُّ على ذٰلك والأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر.

ثم هيَّج الله المؤمنين بالاقتداء بمَنْ قبلَهم من الصالحين بقوله: ﴿كما قال عيسى

---

(١) في (ب): «أنه لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها».

(٢) في (ب): «وسرورها».

(٣) برقم (١٨٨٤) في (ب) جاء هذا الحديث: «إنَّ في الجنةِ مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها الله للمجاهدين في سبيله».

(٤) في (ب): «على إقامته».

ابنُ مريم للحواريِّينَ مَنْ أنصاري إلى الله﴾؛ أي: قال لهم منبهاً[١]: من يعاونني ويقوم معي في نصر دين الله[٢] ويَدْخُلُ مدخلي ويَخْرُجُ مخرجي؟ فابتدرَ الحواريُّون فقالوا: ﴿نحنُ أنصارُ اللهِ﴾: فمضى [عيسى] عليه السلام على [أمر اللَّه و] نصرِ دين الله هو ومن معه من الحواريِّين، ﴿فآمنتْ طائفةٌ من بني إسرائيلَ﴾: بسبب دعوة عيسى والحواريِّين، ﴿وكفرت طائفةٌ﴾: منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنونَ الكافرين، ﴿فأيَّدْنا الذين آمنوا على عَدُوِّهِم﴾؛ أي: قوَّيْناهم ونصرناهم عليهم، ﴿فأصبحوا ظاهرينَ﴾: عليهم، قاهرين لهم[٣]. فأنتم يا أمَّة محمدٍ! كونوا أنصارَ الله ودعاةَ دينه؛ يَنْصُرْكُم الله كما نَصَرَ مَنْ قبلكم، ويُظْهِرْكم على عدوِّكم.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين[٤].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الجمعة

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿الملكِ القدوسِ العزيزِ الحكيم﴾؛ أي: يسبح لله وينقاد لأمره ويتألَّهه ويعبده جميعُ ما في السموات والأرض؛ لأنَّه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلويِّ والسفليِّ؛ فالجميعُ مماليكه وتحت تدبيره. القُدُّوس المعظَّم المنزَّه عن كل آفة ونقص. العزيز القاهر للأشياء كلِّها. الحكيم في خلقه وأمره؛ فهٰذه الأوصاف العظيمة تدعو[٥] إلى عبادة الله وحدَه لا شريك له.

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

(١) في (ب): «قال لهم عارضاً ومنهضاً».
(٢) في (ب): «نصرتي لدين الله».
(٣) في (ب): «وقاهرين».
(٤) في (ب): «تمّت ولله الحمد».
(٥) في (ب): «ممّا تدعو».

ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ ﴾.

﴿٢﴾ ﴿هو الذي بَعَثَ في الأمِّيِّين رسولاً﴾: المراد بالأمِّيِّين الذين لا كتاب عندهم ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ممَّن ليسوا من أهل الكتاب، فامتنَّ الله تعالى عليهم منَّةً عظيمةً أعظم من منَّته على غيرهم؛ لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ﴿ضلال مبين﴾؛ يتعبدون للأصنام والأشجار[١] والأحجار، ويتخلَّقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويُّهم ضعيفَهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولاً منهم يعرِفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يَتْلو عليهم آياتِهِ﴾: القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكِّيهم﴾: بأن يفصِّل لهم الأخلاق الفاضلة ويحثُّهم عليها[٢] ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة﴾؛ أي: علم الكتاب[٣] والسنة، المشتمل[٤] على علوم الأوَّلين والآخرين، فكانوا بعد هٰذا التعليم والتزكية من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين وأكمل الخلق أخلاقاً وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهَدَوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين وقادة المتقين[٥]، فلله تعالى عليهم ببعثة[٦] هٰذا الرسول أكملُ نعمة وأجلُّ منحة.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وآخرين منهم لَمَّا يَلْحَقوا بهم﴾؛ أي: وامتنَّ على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأمِّيِّين ممَّن يأتي بعدهم ومن أهل الكتاب ﴿لما يلحقوا بهم﴾؛ أي: فيمن باشر[٧] دعوة الرسول؛ يحتمل أنَّهم لَمَّا يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لمَّا يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كلٍّ؛ فكلا المعنيين صحيحٌ؛ فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقَهم فيها.

﴿٤﴾ وهٰذا من عزَّته وحكمته؛ حيث لم يترك عباده هَمَلاً ولا سُدىً، بل ابتعث فيهم الرسل وأمرهم ونهاهم، وذٰلك من [فضل اللّه العظيم][٨] الذي يؤتيه مَن يشاءُ

---

(١) في (ب): «للأشجار والأصنام».

(٢) في (ب): «بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة ويفصلها لهم».

(٣) في (ب): «القرآن».

(٤) في (ب): «المشتمل ذلك».

(٥) في (ب): «وهداة المؤمنين».

(٦) في (ب): «ببعث».

(٧) في (ب): «باشروا».

(٨) في (أ): «بياض».

من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق وغير ذٰلك من النِّعم الدُّنيوية؛ فلا أفضل من نعمة الدين التي هي مادة الفوز والسعادة الأبديَّة.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ[1] بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

﴿٥﴾ لمَّا ذكر تعالى[2] منَّته على هٰذه الأمة الذين بَعَثَ[3] فيهم النبيَّ الأميَّ وما خصَّهم الله [به] من المزايا والمناقب التي لا يلحقهم فيها أحدٌ، وهم الأمة الأميَّة، الذين فاقوا الأوَّلين والآخرين، حتى أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدِّمون؛ ذكر أن الذين حمَّلهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى وأمرهم أن يتعلَّموها ويعملوا بها فلم يحملوها[4] ولم يقوموا بما حُمِّلوا به؛ أنَّهم لا فضيلة لَهم، وأنَّ مَثَلَهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم؛ فهل يستفيد ذٰلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟! وهل تلحقه[5] فضيلةٌ بسبب ذٰلك؟! أم حظُّه منها حملها فقط؟ فهٰذا مَثَلُ علماء أهل الكتاب[6]، الذين لم يعملوا بما في التوراة الذي من أجلِّه وأعظمه الأمر باتِّباع محمدٍ ﷺ والبشارة به والإيمان بما جاء به من القرآن؛ فهل استفاد مَن هٰذا وصفه من التوراة إلَّا الخيبة والخسران وإقامة الحجَّة عليه؛ فهٰذا المثل مطابقٌ لأحوالهم. ﴿بئس مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا﴾ بآياتنا الدالَّة على صدق رسولنا وصحة[7] ما جاء به ﴿والله لا يَهْدي القوم الظالمين﴾؛ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً.

﴿٦﴾ ومن ظلم اليهود وعنادهم أنَّهم يعلمون أنَّهم على باطل ويزعمون أنَّهم

(١) في ( أ ) إلى قوله: «فينبئكم بما كنتم تعملون». وفي (ب) ذكر الآياتِ كاملةً.
(٢) في (ب): «لما ذكر الله منته». (٣) في (ب): «ابتعث».
(٤) في (ب): «بما فيها وأنهم لم يحملوها».
(٥) في (ب): «وهل يلحق به». (٦) في (ب): «مثل علماء اليهود».
(٧) في (ب): «صدق».

على حقٌّ، وأنَّهم أولياء لله من دون الناس! ولهٰذا أمر الله رسوله أن يقولَ لهم: إن كنتُم صادقين في زعمِكُم أنَّكم على الحقِّ وأولياء الله؛ ﴿فتَمَنَّوُا الموتَ﴾: وهٰذا أمرٌ خفيفٌ؛ فإنَّهم لو علموا أنَّهم على حقٍّ؛ لما توقَّفوا عن هٰذا التحدِّي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تَمَنَّوْه و[1] كَذِبِهِم إن لم يَتَمَنَّوْه.

﴿٧﴾ ولمَّا لم يقعْ منهم مع الإعلانِ لهم بذٰلك؛ عُلِمَ أنَّهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهٰذا قال: ﴿ولا يَتَمَنَّوْنَه أبداً بما قدَّمت أيديهم﴾؛ أي: من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، ﴿والله عليمٌ بالظالمين﴾: فلا يمكن أن يَخْفى عليه من ظلمهم شيءٌ.

﴿٨﴾ هٰذا؛ وإن كانوا لا يَتَمَنَّوْنَ الموت بما قدَّمت أيديهم، بل يفرُّون[2] منه غايةَ الفرار؛ فإنَّ ذٰلك لا يُنجيهم، بل لابدَّ أن يُلاقيهم الموتُ الذي قد حَتَّمه الله على العباد [وكتبه عليهم]، ثم بعد الموت واستكمال الآجال يُرَدُّ الخَلْقُ كلُّهم يوم القيامةِ إلى عالم الغيب والشهادة، فينبِّئهم بما كانوا يعملون من خيرٍ وشرٍّ قليل وكثيرٍ[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ[4] وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها من حين يُنادى لها والسعي إليها، والمراد بالسَّعْي هنا المبادرة [إليها] والاهتمام لها وجعلها أهمَّ الأشغال، لا العدو الذي قد نُهِيَ عنه عند المضيِّ إلى الصلاة. وقوله: ﴿وذَروا البيعَ﴾؛ أي: اتركوا البيع إذا نودي للصلاة وامضوا إليها؛ فإنَّ ﴿ذٰلكم[5] خيرٌ لكم﴾: من اشتغالكم بالبيع، أو[6] تفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من آكدِ

---

(١) في (ب): «أو».
(٢) في (ب): «ويفرُّون».
(٣) في (ب): «من قليلٍ وكثيرٍ وخيرٍ وشرٍّ».
(٤) في ( أ ) إلى آخر السورة، وفي (ب) ذكر الآيات إلى نهاية السورة.
(٥) في (ب): «ذلك».
(٦) في (ب): «و».

الفروض ﴿إن كنتُم تعلمون﴾: أن ما عند الله خيرٌ وأبقى، وأنَّ مَنْ آثر الدُّنيا على الدين؛ فقد خسر الخسارة الحقيقيَّة؛ من حيث يظنُّ[١] أنَّه يربح.

﴿١٠﴾ وهٰذا الأمر بترك البيع موقَّت مدَّة الصلاة؛ ﴿فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ فانتشروا في الأرض﴾: لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال بالتجارة[٢] مَظِنَّةَ الغفلة عن ذكر الله؛ أمر الله بالإكثار من ذكره؛ لينجبر بهٰذا، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾؛ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، ﴿لعلَّكم تفلحون﴾: فإنَّ الإكثار من ذِكْر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿١١﴾ ﴿وإذا رَأَوْا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها﴾؛ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذٰلك اللهو وتلك التجارة وتركوا الخير، ﴿وتركوكَ قائماً﴾: تخطُبُ الناس، وذٰلك في يوم الجمعة، بينما النبيُّ ﷺ يخطب الناس؛ إذ قَدِمَ المدينةَ عيرٌ تحمل تجارةً، فلمَّا سمع الناس بها وهم في المسجد؛ انفضُّوا من المسجد[٣]، وتركوا النبيَّ ﷺ يخطبُ استعجالاً لما لا ينبغي أن يُستعجل له وترك أدب، ﴿قل ما عندَ الله﴾: من الأجر والثواب لمن لازم الخير وصَبَّرَ نفسَه على عبادة الله[٤]، ﴿خيرٌ من اللهوِ ومن التجارةِ﴾: التي وإن حَصَلَ منها بعض المقاصد؛ فإنَّ ذٰلك قليلٌ منقضٍ[٥]، مفوتٌ لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق؛ ﴿فإنَّ الله خير الرازقين﴾؛ فمن اتَّقى الله؛ رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هٰذه الآيات فوائد عديدة:

**منها**: أنَّ الجمعة فريضةٌ على [جميع] المؤمنين يجب عليهم السعيُ إليها[٦] والمبادرة والاهتمام بشأنها.

**ومنها**: أنَّ الخطبتين يوم الجمعة فريضةٌ[٧] يجب حضورهما؛ لأنَّه فسَّر الذِّكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضيِّ إليه والسعي له.

**ومنها**: مشروعيَّة النداء للجمعة[٨] والأمر به.

---

(١) في (ب): «ظنَّ».
(٢) في (ب): «في التجارة».
(٣) كما في «صحيح البخاري» (٨٩٩)، ومسلم (٨٦٣).
(٤) في (ب): «عبادة رَبِّه».
(٥) في (ب): «منغص».
(٦) في (ب): «لها».
(٧) في (ب): «فريضتان».
(٨) في (ب): «ليوم الجمعة».

**ومنها**: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة وتحريم ذلك، وما ذاك إلَّا لأنَّه يفوِّتُ الواجبَ ويَشْغَلُ عنه[(١)]، فدلَّ ذلك على أنَّ كلَّ أمر وإنْ[(٢)] كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجبٍ؛ فإنَّه لا يجوز في تلك الحال.

**ومنها**: الأمر بحضور الخطبتين[(٣)] يوم الجمعة، وذمُّ مَنْ لم يحضُرْهما[(٤)]، ومن لازِمِ ذلك الإنصاتُ لهما[(٥)].

**ومنها**: أنَّه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله وقت دواعي النفس لحضور اللهو والتجارات والشهوات، أن يُذَكِّرَها بما عند الله من الخيرات وما لمؤثِرِ رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة بمن الله وعونه.

والحمد لله ربِّ العالمين[(٦)].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة المنافقين

## وهي مدنية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ[(٧)] وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

---

(١) في (ب): «يشغل ويفوِّتُ الواجبَ».
(٢) في (ب): «ولو».
(٣) في (ب): «الخطبة».
(٤) في (ب): «لم يحضرْها».
(٥) في (ب): «لها».
(٦) في (ب): «تم تفسير سورة الجمعة. ولله الحمد والثناء».
(٧) في ( أ ) إلى قوله: «إن الله لا يهدي القوم الفاسقين»، وفي (ب) ذكر الآيات.

لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿١﴾ لمَّا قدم النبيُّ ﷺ المدينة، وكَثُرَ الإسلام فيها وعزَّ[1]؛ صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج يظهِرون الإيمان ويبطِنون الكفر؛ ليبقى جاهُهم وتُحْقَنَ دماؤهم وتَسْلَم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يُعرفون؛ لكي يحذر العباد منهم ويكونوا منهم على بصيرةٍ، فقال: ﴿**إذا جاءك المنافقون قالوا**﴾: على وجه الكذب: ﴿**نشهدُ إنَّك لرسولُ اللّهِ**﴾: وهٰذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنَّه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإنَّ اللّه ﴿**يعلمُ إنَّك لرسوله واللهُ يشهدُ إنَّ المنافقين لَكاذبونَ**﴾: في قولهم ودعواهم، وأنَّ ذٰلك ليس بحقيقة منهم.

﴿٢﴾ ﴿**اتَّخذوا أيمانَهم جُنَّة**﴾؛ أي: ترساً يتترَّسون بها من نسبتهم إلى النفاق، فصدُّوا عن سبيله بأنفسهم، وصدُّوا غيرهم ممَّن يخفى عليه حالُهم. ﴿**إنَّهم ساء ما كانوا يعملونَ**﴾: حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وأقسموا على ذٰلك وأوهموا صدقهم.

﴿٣﴾ ﴿**ذٰلك**﴾: الذي زين لهم النفاق، ﴿**بـ**﴾ سبب ﴿**أنَّهم**﴾ لا يَثْبُتون على الإيمان، بل ﴿**آمنوا ثم كفروا فَطُبِعَ على قلوبهم**﴾: بحيث لا يدخلها الخيرُ أبداً. ﴿**فهم لا يَفْقَهون**﴾: ما ينفعهم ولا يَعونَ ما يعودُ بمصالحهم.

﴿٤﴾ ﴿**وإذا رأيتَهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم**﴾: من روائها ونضارتها، ﴿**وإن يقولوا تَسْمَعْ لقولِهم**﴾؛ أي: من حسن منطقهم تستلذُّ لاستماعه؛ فأجسامُهم وأقوالُهم معجبةٌ، ولكن ليس وراء ذٰلك من الأخلاق الفاضلة والهَدي الصالح شيءٌ، ولهٰذا قال: ﴿**كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ**﴾: لا منفعة فيها ولا يُنال منها إلَّا الضَّرر المحض. ﴿**يَحْسَبون كلَّ صيحةٍ عليهم**﴾: وذٰلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم ورَيْبها[2]؛ يخافون أن يُطَّلع عليها؛ فهٰؤلاء ﴿**هم العدوُّ**﴾ على الحقيقة؛ لأنَّ العدوَّ البارز[3] المتميِّز أهونُ من العدوِّ الذي لا يشعَر به، وهو مخادعٌ ماكرٌ، يزعم أنَّه وليٌّ، وهو العدو المبين. ﴿**فاحذَرهم قاتَلَهُمُ الله أنَّى يُؤفَكونَ**﴾؛ أي: كيف يُصْرَفُون عن الدين الإسلاميِّ بعدما تبينت أدلَّته واتَّضحت معالمه إلى الكفر الذي لا يُفيدهم إلَّا الخسار والشقاء.

(١) في (ب): «المسلمون في المدينة واعتز الإسلام».

(٢) في (ب): «والريب الذي في قلوبهم». (٣) في (ب): «المبارز».

﴿٥﴾ ﴿وإذا قيل﴾: لهٰؤلاء المنافقين: ﴿تعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لكم رسولُ الله﴾: عمَّا صدر منكم؛ لتحسن أحوالكم، وتُقبل أعمالكم؛ امتنعوا من ذٰلك أشدَّ الامتناع، و ﴿لَوَّوْا رؤوسَهم﴾: امتناعاً من طلب الدُّعاء من الرسول، ﴿ورأيتَهم يصدُّون﴾: عن الحقِّ بغضاً له، ﴿وهم مستكبِرونَ﴾: عن اتِّباعه بغياً وعناداً. فهٰذه حالُهم عندما يُدْعَوْنَ إلى طلب الدُّعاء من الرسول.

﴿٦﴾ وهٰذا من لطف الله وكرامته لرسوله؛ حيث لم يأتوا إليه فيستغفر لهم، فإنَّه ﴿سواءٌ﴾ أستغفر لهم أمْ لم يَسْتَغْفِر لهم فـ﴿لن يَغفِرَ اللهُ لهم﴾؟ وذٰلك لأنَّهم قومٌ فاسقون خارجون عن طاعة الله مؤثِرون للكفر على الإيمان؛ فلذٰلك لا ينفع فيهم استغفارُ الرسول لو استغفر لهم؛ كما قال تعالى: ﴿استَغْفِر لهم أو لا تَسْتَغْفِرْ لهم إن تَسْتَغْفِرْ لهم سبعينَ مرةً فلن يَغْفِرَ الله لهم﴾. ﴿إنَّ الله لا يَهْدي القوم الفاسقينَ﴾.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ[1] وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿٧﴾ وهٰذا من شدَّة عداوتهم للنبيِّ ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وائتلافَهم ومسارعتَهم في مرضاة الرسول ﷺ؛ قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لا تُنفِقوا على مَنْ عندَ رسول حتى يَنفَضُّوا﴾: فإنَّهم على زعمهم لولا أموالُ المنافقين ونفقاتُهم عليهم؛ لما اجتمعوا في نصرة دين الله! وهٰذا من أعجب العجب أن يدَّعِيَ هٰؤلاء المنافقون الذين هم أحرصُ الناس على خذلان الدين وأذيَّة المسلمين مثل هٰذه الدَّعوى التي لا تَروجُ إلَّا على مَنْ لا علم له بالحقائق[2]، ولهٰذا قال تعالى ردًّا لقولهم: ﴿ولله خزائنُ السمٰواتِ والأرض﴾: فيؤتي الرزق مَنْ يشاءُ، ويمنعه من يشاء، وييسِّر الأسباب لمن يشاء، ويعسِّرها على مَنْ يشاء. ﴿ولٰكنَّ المنافقينَ لا يفقهونَ﴾ فلذٰلك قالوا تلك المقالة التي مضمونُها أنَّ خزائن الرزقِ في أيديهم وتحت مشيئتهم.

﴿٨﴾ ﴿يقولون لئن رَجَعْنا إلى المدينة لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾: وذٰلك في

---

(١) في (أ) إلى قوله: «لا يعلمون»، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾.

(٢) في (ب): «بحقائق الأمور».

غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدَّر الخواطر؛ ظهر حينئذ نفاقُ المنافقين، وتبيَّن ما في قلوبهم[١]، وقال كبيرهم عبدُ الله بنُ أبيٍّ بنُ سلول: ما مَثَلُنا ومَثَلُ هٰؤلاء ـ يعني: المهاجرين ـ إلَّا كما قال القائل: سَمِّنْ كلبك يأكلك. وقال: لئنْ رجَعْنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ بزعمه أنَّه هو وإخوانه المنافقين الأعزُّون، وأنَّ رسول الله ومن اتَّبعه هم الأذلُّون، والأمر بعكس ما قال هٰذا المنافق، فلهٰذا قال تعالى: ﴿ولله العزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين﴾: فهم الأعزَّاء، والمنافقون وإخوانُهم من الكفار هم الأذلَّاء. ﴿ولٰكنَّ المنافقين لا يعلمون﴾: ذٰلك؛ فلذٰلك زعموا أنَّهم الأعزَّاء اغتراراً بما هم عليه من الباطل.

ثم قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ[٢] وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

﴿٩﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذِكْرِه؛ فإنَّ في ذٰلك الربح والفلاح والخيراتِ الكثيرةَ، وينهاهم أنْ تَشْغَلَهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكره؛ فإنَّ محبَّة المال والأولاد مجبولةٌ عليها أكثر النفوس، فتقدِّمها على محبة الله، وفي ذٰلك الخسارة العظيمة، ولهٰذا قال تعالى: ﴿ومَن يفعلْ ذٰلك﴾؛ أي: يُلْهِهِ مالُه وولدُه عن ذكر الله، ﴿فأولٰئك هم الخاسرونَ﴾: للسعادة الأبديَّة والنعيم المقيم؛ لأنَّهم آثروا ما يفنى على ما يبقى؛ قال تعالى: ﴿إنَّما أموالكم وأولادُكم فتنةٌ والله عنده أجرٌ عظيمٌ﴾.

﴿١٠﴾ وقوله: ﴿وأنفقوا ممَّا رَزَقْنَاكُم﴾: يدخلُ في هٰذه النفقات الواجبة من الزكاة والكفارات[٣]، ونفقة الزوجات والمماليك، ونحو ذٰلك، والنفقات المستحبَّة؛

(١) في (ب): «وأظهروا ما في نفوسهم».
(٢) في ( أ ) إلى آخر السورة وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٣) في (ب): «والكفارة».

كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مِمَّا رَزَقْناكم﴾: ليدلَّ ذٰلك على أنَّه تعالى لم يكلِّف العباد من النفقة ما يُعْنِتُهُمْ ويشقُّ عليهم، بل أمرهم بإخراج جزءٍ ممَّا رزقهم ويسَّره ويسَّر أسبابه، فليشكروا الذي أعطاهم بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذٰلك، الموت الذي إذا جاء؛ لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرَّة من الخير، ولهٰذا قال: ﴿من قبلِ أن يأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ﴾: متحسراً على ما فَرَّطَ في وقت الإمكان، سائلاً الرجعةَ التي هي محالٌ: ﴿ربِّ لولا أخَّرْتَني إلى أجل قريبٍ﴾؛ أي: لأتدارك ما فرَّطتُ فيه، ﴿فأَصَّدَّقَ﴾: من مالي ما به أنجو من العذاب، وأستحقُّ [به] جزيل الثواب، ﴿وأكن من الصالحين﴾: بأداء المأموراتِ كلِّها واجتناب المنهيَّات، ويدخل في هٰذا الحجُّ وغيره.

﴿١١﴾ وهٰذا السؤال والتَّمني قد فات وقتُه، ولا يمكن تداركه، ولهٰذا قال: ﴿ولن يؤخِّرَ اللهُ نفساً إذا جاء أجَلُها﴾: المحتوم لها. ﴿والله خبيرٌ بما تعملون﴾: من خير وشرٍّ، فيجازيكم على ما علمه منكم من النيَّات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين. ولله الحمد.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة التغابن

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُۖ(١) وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤْمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

﴿١﴾ هٰذه الآيات الكريمات مشتملاتٌ على جملةٍ كثيرةٍ واسعة من أوصاف الباري العظيمة، فذَكَرَ كمال ألوهيَّته سبحانه [وتعالى]، وسعة غناه، وافتقارَ جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمد ربِّها، وأنَّ المُلْكَ كلَّه لله؛

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

فلا يخرج عن ملكه مخلوقٌ[١]، والحمد كله له؛ حمدٌ على ما له من صفات الكمال، وحمدٌ على ما أوجده من الأشياء، وحمدٌ على ما شرعه من الأحكام وأسداه من النِّعم، وقدرتُه شاملةٌ لا يخرج عنها موجودٌ؛ فلا يعجِزُهُ شيءٌ يريده.

﴿٢﴾ وذكر أنَّه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر؛ فإيمانهم وكفرُهم كلُّه بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم؛ بأنْ جعل لهم قدرةً وإرادةً بها يتمكَّنون من كلِّ ما يريدون من الأمر والنهي. ﴿والله بما تعلمون بصيرٌ﴾.

﴿٣﴾ فلمَّا ذكر خلق الإنسان المأمور المنهيِّ؛ ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خَلَقَ السمٰواتِ والأرضَ﴾؛ أي: أجرامهما وجميع ما فيهما فأحسنَ خَلْقَهما ﴿بالحقِّ﴾؛ أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، ﴿وصَوَّرَكم فأحسن صُوَرَكم﴾؛ كما قال تعالى: ﴿لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسن تقويم﴾: فالإنسان أحسن المخلوقات صورةً، وأبهاها منظراً. ﴿وإليه المصيرُ﴾؛ أي: المرجع يوم القيامةِ، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النِّعم والنعيم الذي أولاكم؛ هل قمتُم بشكره أم لم تقوموا به[٢]؟

﴿٤﴾ ثم ذكر عموم علمه، فقال: ﴿يعلم ما في السمٰواتِ والأرض﴾؛ أي: من السرائر والظواهر والغيب والشهادة، ﴿ويعلمُ ما تُسِرُّون وما تُعْلِنونَ والله عليمٌ بذاتِ الصُّدور﴾؛ أي: بما فيها من الأسرار الطيِّبة والخبايا الخبيثة والنيَّات الصالحة والمقاصد الفاسدة؛ فإذا كان عليماً بذات الصُّدور؛ تعيَّن على العاقل البصير أن يحرص ويجتهد في حفظ باطِنِه من الأخلاق الرذيلة واتِّصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿٥﴾ لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ما به يُعرف، ويُعبد، ويُبذل الجهدُ في مرضاته، وتُجتنبُ مساخِطُه؛ أخبر بما فعل بالأمم السابقين والقرون الماضين، الذين لم تَزَلْ أنباؤهم يتحدَّثُ بها المتأخرون، ويُخْبِرُ بها الصادقون، وأنَّهم حين جاءتهم رسلُهم[٣] بالحقِّ؛ كذَّبوهم، وعاندوهم فأذاقهم الله وَبالَ أمرِهم

(١) في (ب): «فلا يخرج مخلوق عن ملكه». (٢) في (ب): «أم لم تقوموا بشكره».
(٣) في (ب): «الرّسل».

في الدُّنيا، وأخزاهم فيها. ﴿ولهم عذابٌ أليمٌ﴾: في الدار الآخرة.

﴿٦﴾ ولهٰذا ذكر السبب في هٰذه العقوبة، فقال: ﴿ذٰلك﴾: النكال والوبال الذي أحللناه بهم ﴿بأنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالبيناتِ﴾؛ أي: بالآيات الواضحات الدالَّة على الحقِّ والباطل، فاشمأزُّوا واستكبروا على رسلهم، وقالوا: ﴿أبشرٌ يهدونَنا﴾؛ أي: ليس لهم فضلٌ علينا؛ ولأيِّ شيءٍ خصَّهم الله دوننا؟! كما قال في الآية الأخرى: ﴿قالتْ لهم رسُلُهم إن نحنُ إلَّا بشرٌ مثلُكم ولكنَّ الله يمنُّ على مَن يشاءُ من عبادِهِ﴾: فهم حجروا فضل الله ومنَّته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابْتُلوا بعبادة الأشجار والأحجار[1] ونحوها، ﴿فكفروا﴾ بالله، ﴿وتولَّوا﴾ عن طاعته، ﴿واستغنى الله﴾ عنهم؛ فلا يبالي بهم ولا يضرُّه ضلالهم شيئاً. ﴿والله غنيٌّ حميدٌ﴾؛ أي: هو الغنيُّ الذي له الغنى التامُّ المطلقُ من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾.

﴿٧﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين وزعمهم الباطل وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدىً ولا كتابٍ منيرٍ، فأمر أشرف خلقِهِ أن يُقْسِمَ بربِّه على بعثهم وجزائهم بأعمالهم الخبيثة وتكذيبهم بالحقِّ. ﴿وذٰلك على الله يسيرٌ﴾: فإنَّه وإن كان عسيراً، بل متعذِّراً بالنسبة إلى الخلق؛ فإنَّ قُواهم كلهم لو اجتمعت على إحياء ميتٍ واحدٍ؛ ما قدروا على ذٰلك، وأمَّا الله تعالى، فإنَّه إذا أراد شيئاً؛ قال له[2]: كنْ فيكون؛ قال تعالى: ﴿ونُفِخَ في الصُّورِ فَصَعِقَ مَن في السمٰوات ومن في الأرض إلَّا مَن شاء الله ثم نُفِخَ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظُرونَ﴾.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾.

﴿٨﴾ لمَّا ذكر تعالى إنكارَ مَنْ أنكر البعث، وأنَّ ذٰلك منهم موجبٌ كفرَهم بالله وآياته؛ أمر بما يعصمُ من الهلكة والشقاء، وهو الإيمان به وبرسوله وبكتابه[3]، وسمَّاه الله نوراً؛ لأنَّ النور ضدُّ الظلمة؛ فما[4] في الكتاب الذي أنزله الله من

---

(١) في (ب): «الأحجار والأشجار». (٢) في (ب): «فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له».

(٣) في (ب): «وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه».

(٤) في (ب): «وما».

الأحكام والشرائع والأخبار أنوارٌ يُهتدى بها في ظُلمات الجهل المدلهمَّة، ويمشى بها في حِنْدِسِ الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله؛ فهي علومٌ ضررها أكثر من نفعها، وشرُّها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع؛ إلَّا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمانُ بالله ورسوله وكتابه يقتضي الجزم التامَّ واليقين الصادق بها والعمل بمقتضى ذاك التصديق من امتثال الأوامر واجتناب النواهي[(١)]. ﴿والله بما تعملونَ خبيرٌ﴾: فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيِّئة.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ[(٢)] وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٠﴾.

﴿٩﴾ يعني: اذكُروا يومَ الجمع الذي يجمع الله به الأوَّلين والآخرين، ويقفُهم موقفاً هائلا عظيماً، وينبِّئهم بما عملوا؛ فحينئذٍ يظهر الفرق والتغابن[(٣)] بين الخلائق، ويُرفع أقوامٌ إلى علِّيين في الغرف العاليات والمنازل المرتفعات المشتملة على جميع اللَّذَّات والشهوات، ويُخفض أقوامٌ إلى أسفل سافلين محلِّ الهمِّ والغمِّ[(٤)] والحزن والعذاب الشديد، وذٰلك نتيجة ما قدَّموه لأنفسهم وأسلفوه أيَّام حياتهم، ولهٰذا قال: ﴿ذٰلك يومُ التغابنِ﴾؛ أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرِفُ المجرمون أنَّهم[(٥)] على غير شيء، وأنَّهم هم الخاسرون. فكأنَّه قيل: بأيِّ شيءٍ يحصلُ الفلاحُ والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر [تعالى] أسباب ذٰلك بقوله: ﴿ومَن يؤمِن بالله﴾: إيماناً تامًّا شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ﴿ويعملْ صالحاً﴾: من الفرائض والنوافل؛ من أداء حقوق الله وحقوق عباده، ﴿يُدْخِلْه جناتٍ تجري من تحتها الأنهار﴾: فيها ما تشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعينُ، وتختارهُ الأرواح، وتحنُّ إليه القلوب، ويكون نهاية كلِّ مرغوب. ﴿خالدين فيها أبداً ذٰلك الفوزُ العظيمُ﴾.

﴿١٠﴾ ﴿والذين كفروا وكذَّبوا بآياتنا﴾؛ أي: كفروا بها من غير مستندٍ شرعيٍّ

(١) في (ب): «المناهي».

(٢) في (أ) إلى: ﴿المصير﴾، وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿وبئس المصير﴾.

(٣) في (ب): «الفرق والتفاوت». (٤) في (ب): «الغم والهم».

(٥) في (ب): «أنه».

ولا عقليٌّ، بل جاءتهم الأدلَّة والبيِّنات، فكذَّبوا بها وعاندوا ما دلَّت عليه، ﴿أولئك أصحابُ النار خالدين فيها وبئسَ المصيرُ﴾: لأنَّها جمعت كلَّ بؤسٍ وشدةٍ وشقاءٍ وعذابٍ.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ[١] إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿١١﴾ يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبةٍ إلَّا بإذنِ الله﴾: وهٰذا عامٌّ لجميع المصائب في النفس والمال والولد والأحباب ونحوهم؛ فجميع ما أصاب العباد بقضاء[٢] الله وقدره؛ قد سبق بذٰلك علمُ الله وجرى به قلمُه ونفذت به مشيئتُه واقتضتْه حكمتُه، ولٰكنَّ الشأن كل الشأن: هل يقومُ العبد بالوظيفة التي عليه في هٰذا المقام أم لا يقوم بها؟ فإنْ قام بها؛ فله الثواب الجزيل والأجر الجميل في الدُّنيا والآخرة؛ فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذٰلك وسلَّم لأمره؛ هدى الله قلبه، فاطمأنَّ ولم ينزعجْ عند المصائب؛ كما يجري ممَّن لم يهدِ الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودِها[٣] والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذٰلك ثوابٌ عاجلٌ مع ما يدَّخر اللّٰهُ له يوم الجزاء من الأجر العظيم[٤]؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

وعُلِمَ من ذٰلك[٥] أنَّ من لم يؤمنْ بالله عند ورود المصائب؛ بأن لم يلحظْ قضاء الله وقدره بل وقف مع مجرَّد الأسباب؛ أنَّه يُخذل ويَكِلُه الله إلى نفسه، وإذا وُكِلَ العبد إلى نفسه؛ فالنفس ليس عندها إلَّا الهلع والجزع[٦] الذي هو عقوبةٌ عاجلةٌ على العبد قبل عقوبة الآخرة على ما فرَّط في واجب الصبر، هٰذا ما يتعلَّق بقوله: ﴿ومَن يؤمِنْ بالله يَهْدِ قلبَه﴾ في مقام المصائب الخاصِّ، وأمَّا ما يتعلَّق بها من حيث العموم اللَّفظيُّ؛ فإنَّ الله أخبر أنَّ كلَّ مَنْ آمنَ؛ أي: الإيمان المأمور به، وهو[٧] الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه،

---

(١) في (أ) إلى: ﴿فليتوكل المؤمنون﴾، وفي (ب): ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «فبقضاء».
(٣) في (ب): «عندها».
(٤) في (ب): «من الثواب».
(٥) في (ب): «وعلم من هذا».
(٦) في (ب): «الجزع والهلع».
(٧) في (ب): «المأمور به من الإيمان».

وصدَّق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من لوازمه[١] وواجباته؛ أنَّ هٰذا السبب الذي قام به العبدُ أكبرُ سببٍ لهداية الله له في أقواله وأفعاله وجميع أحواله[٢] وفي علمه وعمله، وهٰذا أفضل جزاءٍ يعطيه الله لأهل الإيمان؛ كما قال تعالى مخبراً أنَّه يثبِّت المؤمنين[٣] في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات ثباتُ القلب وصبرُه ويقينُه عند ورود كلِّ فتنة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابتِ في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة﴾؛ فأهلُ الإيمان أهدى الناس قلوباً وأثبتُهم عند المزعجات والمقلقات، وذٰلك لما معهم من الإيمان.

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ﴾؛ أي: في امتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فإنَّ طاعة الله وطاعة رسولِهِ مدارُ السعادة وعنوانُ الفلاح، ﴿فإن تولَّيتم﴾؛ أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فإنَّما على رسولنا البلاغُ المبينُ﴾؛ أي: يبلِّغكم ما أرسل به إليكم بلاغاً بيِّناً واضحاً، فتقوم عليكم به الحجَّة، وليس بيده من هدايتكم ولا من حسابكم شيءٌ[٤]، وإنَّما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله أو عدم ذٰلك، عالمُ الغيب والشهادة.

﴿١٣﴾ ﴿الله﴾ الذي ﴿لا إلٰه إلَّا هو﴾؛ أي: هو المستحق للعبادة والألوهيَّة؛ فكل معبودٍ سواه فباطلٌ. ﴿وعلى الله فليتوكَّل المؤمنون﴾؛ أي: فليعتمدوا[٥] عليه في كلِّ أمرٍ نابهم وفيما يريدون القيام به؛ فإنَّه لا يتيسَّر أمرٌ من الأمور إلَّا بالله ولا سبيل إلى ذٰلك[٦] إلَّا بالاعتماد على الله، ولا يتمُّ الاعتماد على الله حتى يُحْسِنَ العبدُ ظنَّه بربِّه ويثق به في كفايته الأمر الذي يعتمد[٧] عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكُّله قوةً وضعفاً[٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) في (ب): «من القيام بلوازمه».
(٢) في (ب): «في أحواله وأقواله وأفعاله».
(٣) في (ب): «كما قال تعالى في الأخبار أن المؤمنين يثبتهم الله».
(٤) في (ب): «من شيء».
(٥) في (ب): «يعتمدوا».
(٦) في (ب): «لذلك».
(٧) في (ب): «اعتمد».
(٨) في (ب): «وبحسب إيمان العبد يكون توكُّله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكّل».

﴿١٤ ـ ١٥﴾ هٰذا تحذيرٌ من الله للمؤمنين عن[١] الاغترار بالأزواج والأولاد؛ فإنَّ بعضهم عدوٌّ لكم، والعدوُّ هو الذي يريد لك الشرَّ، فوظيفتُك الحذرُ ممَّن هٰذه صفته[٢]، والنفس مجبولة على محبّة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هٰذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، التي فيها محذورٌ شرعيٌّ[٣]، ورغَّبهم في امتثال أوامره وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم، المشتمل على المطالب العالية والمحابِّ الغالية، وأن يؤثِروا الآخرة على الدُّنيا الفانية المنقضية. ولما كان النهيُ عن طاعة الأزواج والأولاد فيما هو ضررٌ على العبد والتحذير من ذٰلك قد يوهِمُ الغِلْظَةَ عليهم وعقابهم؛ أمَرَ تعالى بالحذر منهم والصفح عنهم والعفو؛ فإنَّ في ذٰلك من المصالح ما لا يمكن حصرُه، فقال: **﴿وإن تَعفوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا فإنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾**؛ لأنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فمن عفا؛ عفا الله عنه، ومن صَفَحَ؛ صفح [اللّٰه] عنه، ومن عامَلَ الله [تعالى] فيما يحبُّ، وعامل عباده بما[٤] يحبُّون وينفعهم؛ نال محبَّة الله ومحبَّة عباده واستوسق له أمره.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ[٥] وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٦﴾ يأمر تعالى بتقواه التي هي امتثالُ أوامره واجتنابُ نواهيه، وقيَّد[٦] ذٰلك بالاستطاعة والقدرة. فهٰذه الآية تدلُّ على أنَّ كلَّ واجبٍ عجز عنه العبد يسقُطُ[٧] عنه، وأنَّه إذا قدر على بعض المأمور وعجز عن بعضه؛ فإنَّه يأتي بما يقدر عليه ويسقُطُ عنه ما يعجزُ عنه؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «إذا أمرتُكم بأمرٍ؛ فأتوا منه ما استطعتُم»[٨]. ويدخل تحت هٰذه القاعدة الشرعيَّة من الفروع ما لا يدخُل تحت الحصر. وقوله: **﴿واسمعوا﴾**؛ أي: اسمعوا ما يعِظُكم الله به وما يَشْرَعُه لكم من

---

(١) في (ب): «من».
(٢) في (ب): «ممّن هذا وصفه».
(٣) في (ب): «والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي».
(٤) في (ب): «كما يحبون».
(٥) في الأصل إلى آخرها.
(٦) في (ب): «ويقيّد».
(٧) في (ب): «أنه يسقط».
(٨) أخرجه البخاري (٧٢٧٧)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الأحكام واعلموا ذٰلك وانقادوا له، ﴿وأطيعوا﴾: الله ورسولَه في جميع أموركم، ﴿وأنفِقوا﴾: من النفقات [الشرعية] الواجبة والمستحبَّة؛ يَكُنْ ذٰلك الفعل منكم خيراً لكم في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّ الخير كلَّه في امتثال أوامر الله [تعالى] وقَبول نصائحه والانقياد لشرعه، والشرَّ كلَّه في مخالفة ذٰلك، ولكن ثَمَّ آفةٌ تمنعُ كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشحُّ المجبولة عليه أكثر النفوس؛ فإنَّها تشحُّ بالمال وتحبُّ وجوده وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة، فمن وقاه اللَّهُ [تعالى] ﴿شُحَّ نفسِه﴾: بأن سمحت نفسه بالإنفاق[1] النافع لها، ﴿فأولٰئك هم المفلحونَ﴾: لأنَّهم أدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب، بل لعلَّ ذٰلك شاملٌ لكلِّ ما أمر به العبدُ ونهي عنه؛ فإنَّه إن كانت نفسُه شحيحةً لا تنقاد لما أمرت به ولا تخرِج ما قِبَلَها؛ لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنةً منشرحةً لشرع الله طالبةً لمرضاته[2]؛ فإنَّها ليس بينها وبين فعل ما كلِّفت به إلَّا العلم به ووصول معرفته إليها والبصيرة بأنَّه مُرضٍ لله [تعالى]، وبذٰلك تفلح وتنجح وتفوز كلَّ الفوز.

﴿١٧﴾ ثم رغَّب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إن تقرِضوا الله قرضاً حسناً﴾: وهو كلُّ نفقة كانت من الحلال إذا قَصَدَ بها العبدُ وجه الله تعالى ووضعها موضعها، ﴿يضاعِفه لكم﴾: النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة، ﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يَغفِرْ﴾ اللَّهُ ﴿لكم﴾: بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبَكم؛ فإنَّ الذُّنوبَ يكفرها [اللَّهُ] بالصدقات والحسنات؛ ﴿إنَّ الحسنات يُذْهِبْنَ السيئات﴾. ﴿والله شكورٌ[3] حليمٌ﴾: لا يعاجِلُ من عصاه، بل يُمْهِلُه ولا يُهْمِلُه، ﴿ولو يؤاخِذُ اللهُ الناس بما كَسَبوا ما ترك على ظهرها من دابَّةٍ ولٰكن يؤخِّرُهم إلى أجلٍ مسمًّى﴾، والله[4] تعالى شكورٌ، يقبلُ من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمَّل من أجله المشاقَّ والأثقال وأنواع التَّكاليف[5] الثقال، ومن ترك شيئاً لله؛ عوَّضه الله خيراً منه.

﴿١٨﴾ ﴿عالمُ الغيبِ والشهادةِ﴾؛ أي: ما غاب من[6] العباد من الجنود التي لا

---

(١) في (ب): «في الإنفاق».
(٢) في (ب): «المرضاة الله».
(٣) في ( أ ) صححت بخط مغاير إلى «شكور» وفي (ب): «غفور». والآية ﴿شكور﴾.
(٤) في (ب): «وهو تعالى».
(٥) في (ب): «المشاق وناء بالتكاليف الثقال».
(٦) في (ب): «عن».

يعلمها إلَّا هو وما يشاهدونه من المخلوقات. ﴿العزيز﴾: الذي لا يغالَب ولا يمانَع، الذي قهر جميع[١] الأشياء. ﴿الحكيمُ﴾: في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير السورة. ولله الحمد[٢].

❀ ❀ ❀

# تفسير سورة الطلاق

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ[٣] وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مخاطباً لنبيِّه [محمد] ﷺ وللمؤمنين: ﴿يا أيُّها النبيُّ إذا طلَّقْتُم النساءَ﴾؛ أي: [إذا] أردتم طلاقهنَّ، ﴿فـ﴾: التمسوا لطلاقهنَّ الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطَّلاق من حين يوجد سببه من غير مراعاةٍ لأمر الله، بل ﴿طلِّقوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾؛ أي: لأجل عدَّتهن؛ بأن يطلِّقَها زوجها وهي طاهرٌ في طهرٍ لم يجامِعْها فيه؛ فهٰذا الطلاق هو الذي تكون العدَّة فيه واضحةً بيِّنة؛ بخلاف ما لو طلَّقَها وهي حائضٌ؛ فإنَّها لا تحتسب تلك[٤] الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدَّة بسبب ذٰلك، وكذٰلك لو طلَّقَها في طهرٍ وطىء فيه؛ فإنَّه لا يؤمَن حملها، فلا

---

(١) في (ب): «كلّ».
(٢) في (ب): «تمّ تفسير التغابن».
(٣) في (أ) إلى قوله: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «بتلك».

يتبيَّن ولا يتَّضح[١] بأيِّ عدَّةٍ تعتدُّ، وأمر تعالى بإحصاء العدَّة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيضُ وليست حاملاً؛ فإنَّ في إحصائها أداءً لحقِّ الله، وحق الزوج المطلِّق، وحقِّ من سيتزوجها بعد، وحقِّها في النفقة ونحوها؛ فإذا ضبطت عدَّتها؛ علمت حالها على بصيرةٍ، وعلم ما يترتَّب عليها من الحقوق وما لها منها، وهٰذا الأمر بإحصاء العدَّة يتوجَّه للزوج وللمرأة إن كانت مكلَّفة، وإلَّا؛ فلوليِّها. وقوله: ﴿واتَّقوا الله ربَّكم﴾؛ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حقِّ الزوجات المطلَّقات.

فـ﴿لا تخرجوهنَّ من بيوتهنَّ﴾: مدة العدَّة، بل تلزم بيتها الذي[٢] طلَّقها زوجها وهي فيه[٣]. ﴿ولا يَخرُجْنَ﴾؛ أي: لا يجوز لهنَّ الخروج منها، أما النَّهي عن إخراجها؛ فلأنَّ المسكن يجب على الزوج للزوجة[٤] لتستكمل فيه عدَّتها التي هي حقٌّ من حقوقه، وأما النهي عن خروجها؛ فلما في خروجها من إضاعة حقِّ الزوج وعدم صونه، ويستمرُّ هٰذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدَّة. ﴿إلَّا أن يأتينَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ أي: بأمر قبيح واضح موجبٍ لإخراجها؛ بحيث يُدْخِلُ على أهل البيت الضَّرر من عدم إخراجها؛ كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة؛ ففي هٰذه الحال يجوز لهم إخراجُها؛ لأنَّها هي التي تسبَّبت لإخراج نفسها، والإسكانُ فيه جبرٌ لخاطرها ورفقٌ بها؛ فهي التي أدخلت الضرر عليها. وهٰذا[٥] في المعتدَّة الرجعيَّة، وأمَّا البائن؛ فليس لها سكنى واجبةٌ؛ لأنَّ السكنى تبعٌ للنفقة، والنفقة تجب للرجعيَّة دون البائن.

﴿وتلك حدودُ الله﴾؛ أي: التي حدَّها لعباده وشرعها لهم وأمرهم بلزومها والوقوف معها، ﴿ومن يتعدَّ حدودَ الله﴾: بأن لم يقف معها، بل تجاوَزها أو قصَّر عنها، ﴿فقد ظلم نفسَه﴾؛ أي: بخسها حقَّها[٦]، وأضاع نصيبه من اتِّباع حدود الله التي هي الصلاحُ في الدُّنيا والآخرة. ﴿لاتَدْري لعلَّ الله يحدِثُ بعد ذٰلك أمراً﴾؛ أي: شرع الله العدَّة، وحدَّد الطلاق بها لحِكَم عظيمةٍ:

---

(١) في (ب): «ويتضح».
(٢) في (ب): «بل يلزمن بيوتهن التي».
(٣) في (ب): «فيها».
(٤) في (ب): «فإن المسكن يجب للزوج عليها».
(٥) في (ب): «التي أدخلت الضرر على نفسها. وهذه».
(٦) في (ب): «حظها».

**فمنها**: أنَّه لعلَّ الله يحدِثُ في قلب المطلِّق الرحمة والمودَّة، فيراجع من طلَّقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكَّن من ذٰلك مدَّة العدة، أو لعلَّه يطلِّقها لسبب منها، فيزول ذٰلك السبب في مدَّة العدَّة، فيراجعها؛ لانتفاء سبب الطلاق.

**ومن الحِكَم** أنَّها مدة التربُّص يُعلم براءة رحمها من زوجها.

﴿٢﴾ وقوله: ﴿**فإذا بَلَغنَ أجَلَهنَّ**﴾؛ أي: [إذا] قاربن انقضاء العدَّة؛ لأنهنَّ لو خرجنَ من العدَّة؛ لم يكن الزوج مخيَّراً بين الإمساك والفراق، ﴿**فأمسكوهنَّ بمعروفٍ**﴾؛ أي: على وجه المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة، لا على وجه الضِّرار وإرادة الشرِّ والحبس؛ فإنَّ إمساكها على هٰذا الوجه لا يجوز، ﴿**أو فارِقوهنَّ بمعروفٍ**﴾؛ أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتُم ولا تخاصُم ولا قهرٍ لها على أخذ شيءٍ من مالها، ﴿**وأشهدوا**﴾: على طلاقها ورجعتها، ﴿**ذَوَيْ عدلٍ منكم**﴾؛ أي: رجلين مسلمينِ عَدْلَيْنِ؛ لأنَّ في الإشهاد المذكور سدًّا لباب المخاصمة وكتمان كلٍّ منهما ما يلزم بيانه، ﴿**وأقيموا**﴾: أيُّها الشهداء ﴿**الشهادةَ لله**﴾؛ أي: ائتوا بها على وجهها من غير زيادةٍ ولا نقصٍ، واقصدوا بإقامتها وجهَ الله تعالى[(١)]، ولا تُراعوا بها قريباً لقرابته ولا صاحباً لمَحبَّته. ﴿**ذٰلكم**﴾: الذي ذكَرنا لكم من الأحكام والحدود، ﴿**يوعَظُ به مَن كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر**﴾: فإنَّ الإيمان[(٢)] بالله واليوم الآخر يوجِبُ لصاحبه[(٣)] أن يتَّعِظَ بمواعظ الله وأن يقدِّم لآخرته من الأعمال الصالحة ما يتمكَّن منها[(٤)]؛ بخلاف من ترحَّل الإيمان من قلبه؛ فإنَّه لا يبالي بما أقدم عليه من الشرِّ، ولا يعظِّم مواعظ الله؛ لعدم الموجب لذٰلك. ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغمِّ؛ أمر تعالى بتقواه، ووعد مَنْ اتَّقاه[(٥)] في الطلاق وغيره بأن يجعل[(٦)] له فرجاً ومخرجاً. فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعيِّ، بأن أوقعه طلقةً واحدةً في غير حيضٍ ولا طهرٍ أصابها فيه[(٧)]؛ فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعةً يتمكَّن بها من الرجوع إلى النِّكاح[(٨)] إذا ندم على الطلاق.

والآية وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة؛ فإنَّ العبرة بعموم اللفظ فكل من

---

(١) في (ب): «وجه الله وحده».
(٢) في (ب): «فإن من يؤمن».
(٣) في (ب): «يوجب له ذلك».
(٤) في (ب): «ما تمكن منه».
(٥) في (ب): «وأن من اتّقاه».
(٦) في (ب): «فإن الله يجعل».
(٧) في (ب): «ولا طهر قد وطئ فيه».
(٨) في (ب): «يتمكن فيها من مراجعة النكاح».

اتقى الله [تعالى] ولازم مرضاته[1] في جميع أحواله؛ فإنَّ الله يثيبه في الدُّنيا والآخرة، ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كلِّ شدَّة ومشقَّة، وكما أنَّ من اتَّقى الله؛ جعل له فرجاً ومخرجاً؛ فمن لم يتَّق الله؛ يقع في الآصار[2] والأغلال التي لا يقدر على التخلُّص منها والخروج من تَبِعَتها، واعتبرْ ذٰلك في الطلاق[3]؛ فإنَّ العبد إذا لم يَتَّق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرَّم؛ كالثلاث ونحوها؛ فإنَّه لا بدَّ أن يندم ندامةً لا يتمكَّن من استدراكها[4] والخروج منها.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿ويرزُقْه من حيث لا يحتسِبُ﴾؛ أي: يسوق الله الرزق للمتَّقي من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به، ﴿ومن يَتَوَكَّلْ على الله﴾: في أمر دينه ودنياه؛ بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضرُّه ويثق به في تسهيل ذٰلك ﴿فهو حسبُه﴾؛ أي: كافيه الأمر الذي توكَّل عليه فيه[5]، وإذا كان الأمرُ في كفالة الغنيِّ القويِّ العزيز الرحيم؛ فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربَّما أن الحكمة الإلٰهيَّة اقتضت تأخيره إلى[6] الوقت المناسب له؛ فلهٰذا قال تعالى: ﴿إنَّ الله بالغُ أمرِه﴾؛ أي: لا بدَّ من نفوذ قضائه وقدره، ولٰكنه قد جعل ﴿لكلِّ شيءٍ قَدْراً﴾؛ أي: وقتاً ومقداراً لا يتعدَّاه ولا يقصر عنه.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ[7] مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ لـمَّا ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدَّة النساء؛ ذكر العدَّة، فقال: ﴿واللاَّئي يَئِسْنَ من المحيض من نسائِكُم﴾: بأن كنَّ يَحِضْنَ ثم ارتفع حيضُهُنَّ لكبرٍ أو غيره ولم يُرْجَ رجوعُه؛ فإنَّ عدَّتها ثلاثة أشهر، جعل كلَّ شهرٍ مقابلة حيضة. ﴿واللاَّئي لم يَحِضْنَ﴾؛ أي: الصغار اللائي لم يأتهنَّ الحيضُ بعدُ أو[8] البالغات اللاتي لم يأتهنَّ حيضٌ بالكلِّيَّة؛ فإنَّهنَّ كالآيسات، عدَّتهنَّ ثلاثة

---

(١) في (ب): «مرضاة الله».
(٢) في (ب): «وقع في الشدائد والآصار».
(٣) في (ب): «بالطلاق».
(٤) في (ب): «لا يمكنه استدراكها».
(٥) في (ب): «به».
(٦) في (ب): «في».
(٧) في ( أ ) إلى قوله: ﴿ويعظم له أجراً﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.
(٨) في (ب): «والبالغات».

أشهر، وأمَّا اللائي يحِضنَ؛ فذكر الله عدَّتهنَّ في قوله: ﴿والمطلَّقاتُ يتربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثلاثةَ قروءٍ﴾. وقوله: ﴿وأولاتُ الأحمال أجلُهُنَّ﴾؛ أي: عدَّتُهنَّ ﴿أن يَضَعْنَ حملَهُنَّ﴾؛ أي: جميع ما في بطونهنَّ من واحدٍ ومتعددٍ، ولا عبرة حينئذٍ بالأشهر ولا غيرها. ﴿ومن يتَّقِ اللهَ يجعلْ له من أمره يُسراً﴾؛ أي: من اتَّقى الله يَسَّرَ له الأمور، وسهَّل عليه كلَّ عسير.

﴿٥﴾ ﴿ذٰلك﴾؛ أي: الحكم الذي بيَّنه الله لكم ﴿أمرُ الله أنزلَه إليكم﴾: لتمشوا عليه وتأتمُّوا به[1] وتُعظموه. ﴿ومَن يتَّقِ الله يُكفِّرْ عنه سيئاتِهِ ويُعْظِمْ له أجراً﴾؛ أي: يندفع عنه المحذور ويحصل له المطلوب.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ[2] وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

﴿٦﴾ تقدَّم أنَّ الله نهى عن إخراج المطلَّقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهنَّ وقدر إسكانهنَّ بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثلُه ومثلُها؛ بحسب وُجْد الزوج وعسره، ﴿ولا تُضارُّوهنَّ لِتُضيِّقوا عليهنَّ﴾؛ أي: لا تضاروهنَّ عند سكناهنَّ بالقول أو الفعل؛ لأجل أن يمللنَ فيخرجنَ من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرِجين لهنَّ. وحاصل هٰذا أنَّه نهى عن إخراجهنَّ ونهاهنَّ عن الخروج، وأمر بسكناهنَّ على وجهٍ لا يحصلُ عليهن ضررٌ ولا مشقَّة، وذٰلك راجعٌ إلى العرف. ﴿وإن كنَّ﴾؛ أي: المطلَّقات ﴿أولاتِ حَملٍ فأنفقوا عليهنَّ حتى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾: وذٰلك لأجل الحمل الذي في بطنها إن كانت بائناً، ولها ولحملها إن كانت رجعيةً، ومنتهى النَّفقة إلى وضع الحمل[3]؛ فإذا وضَعْنَ حملَهُنَّ؛ فإمَّا أن يرضِعْن أولادهنَّ أو لا، ﴿فإنْ أرضَعْنَ لكم فآتوهنَّ أجورهنَّ﴾: المسمَّاة لهنَّ إن كان مسمًّى، وإلَّا؛ فأجر المثل، ﴿وأْتَمِروا بينكم بمعروفٍ﴾؛ أي: ليأمر كلُّ واحدٍ من الزوجين

---

(١) في (ب): «وتقوموا به».

(٢) في ( أ ) إلى قوله: ﴿سيجعل الله بعد عسراً يسراً﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

(٣) في (ب): «ومنتهى النفقة حتى يضعن حملهن».

وغيرهما[١] الآخر بالمعروف، وهو كلُّ ما فيه منفعةٌ ومصلحةٌ في الدُّنيا والآخرة؛ فإنَّ الغفلة عن الائتمار بالمعروف يحصُلُ فيها من الضَّرر والشرِّ[٢] ما لا يعلمه إلَّا الله، وفي الائتمار تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى. ومما يناسب هٰذا المقام أنَّ الزوجين عند الفراق وقت العدَّة، خصوصاً إذا ولد بينهما[٣] ولدٌ، في الغالب يحصُلُ من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق الذي لا يحصُلُ في الغالب إلَّا مقروناً بالبغض، فيتأثَّر من ذٰلك[٤] شيءٌ كثيرٌ، فكلٌّ منهما يؤمر بالمعروف والمعاشرة الحسنة وعدم المشاقَّة والمنازعة[٥] وينصحُ على ذٰلك، ﴿وإن تعاسَرْتُم﴾: بأن لم يتَّفق الزوجان على[٦] إرضاعها لولدها، ﴿فسترضِعُ له أخرى﴾: غيرها، و ﴿لا جُناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف﴾، وهٰذا حيثُ كان الولد يقبلُ ثدي غير أمِّه؛ فإنْ لم يقبلْ إلَّا ثدي أمِّه؛ تعينتْ لإرضاعه، ووجب عليها، وأُجْبِرَتْ إن امتنعتْ، وكان لها أجرة المثل إن لم يتَّفقا على مسمًّى. وهٰذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى؛ فإنَّ الولد لمَّا كان في بطن أمِّه مدةَ الحمل لا خروج له منه[٧]؛ عيَّن تعالى على وليِّه النفقة، فلما ولد وكان يتمكَّن[٨] أن يتقوَّت من أمِّه ومن غيرها؛ أباح تعالى الأمرين؛ فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوَّت إلَّا من أمِّه؛ كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمُّه طريقاً لِقُوتِه.

﴿٧﴾ ثم قدَّر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لِيُنفِقْ ذو سَعةٍ من سعتِهِ﴾؛ أي: لينفق الغنيُّ من غناه؛ فلا ينفق نفقة الفقراء. ﴿ومن قُدِرَ عليه رزقُه﴾؛ أي: ضيِّق عليه، ﴿فلينفِقْ ممَّا آتاه الله﴾: من الرزق. ﴿لا يكلِّفُ الله نفساً إلَّا ما آتاها﴾: وهٰذا مناسبٌ للحكمة والرحمة الإلٰهية؛ حيث جعل كلاًّ بحسبه، وخفَّف عن المعسر، وأنَّه لا يكلِّفه إلَّا ما آتاه؛ فلا يكلِّف الله نفساً إلَّا وسعها في باب النفقة وغيرها، ﴿سيجعلُ الله بعد عسرٍ يُسْراً﴾: وهٰذه بشارةٌ للمعسرين أنَّ الله تعالى سيزيلُ عنهم الشدَّة ويرفع عنهم المشقَّة؛ فإنَّ مع العسر يسراً، إنَّ مع العسر يسراً.

---

(١) في (ب): «ومن غيرهما».
(٢) في (ب): «يحصل فيه من الشَّر والضَّرر».
(٣) في (ب): «لهما».
(٤) في (ب): «مع الفراق الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض ويتأثر منه البغض».
(٥) في (ب): «والمخاصمة». (٦) في (ب): «بأن لم تنفقوا على».
(٧) في (ب): «مدة الحمل ليس له خروج منه». (٨) في (ب): «وكان يمكن».

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا [١] وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿٨ ـ ١٠﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية والقرونَ المكذِّبة للرُّسل، وأنَّ[٢] كثرتهم وقوَّتهم لم تُغْنِ عنهم شيئاً[٣] حين جاءهم الحساب الشديد والعذاب الأليم، وأنَّ الله أذاقَهم من العذاب ما هو موجبُ أعمالهم السيِّئة، ومع عذاب الدُّنيا؛ فإنَّ الله أعدَّ لهم في الآخرة عذاباً شديداً، **﴿فاتَّقوا اللهَ يا أولي الألبابِ﴾**؛ أي: يا ذوي العقول التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأنَّ الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم؛ أنَّ مَنْ بعدَهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين.

﴿١١﴾ ثم ذكَّر عباده المؤمنين بما أنزل عليهم من كتابه الذي أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ؛ ليخرج الخلق من ظُلُمات الجهل والكفر[٤] والمعصية إلى نور العلم والإيمان والطاعة؛ فمن الناس من آمن به، ومنهم مَنْ لم يؤمنْ به، **﴿ومَن يؤمِن بالله ويعملْ صالحاً﴾**: من الواجبات والمستحبَّات، **﴿يُدْخِلْهُ جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ﴾**: فيها من النعيم المقيم ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلبِ بشرٍ. **﴿خالدين فيها أبداً قد أحسنَ اللهُ له رِزْقاً﴾**؛ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله؛ فأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون[٥].

﴿١٢﴾ ثم أخبر تعالى أنَّه خلق السماوات والأرض ومن فيهنَّ والأرضين السبع[٦] ومن فيهنَّ وما بينهنَّ، وأنزل الأمر، وهو الشرائع والأحكام الدينيَّة، التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونيَّة والقدريَّة التي يدبِّر

---

(١) في (أ) إلى آخر السورة، وفي ذكر الآيات إلي قوله تعالى: ﴿قد أحسن الله له رزقا﴾.
(٢) في (ب): «المكذبة بالرسل أنَّ». (٣) في (ب): «لم تنفعهم شيئاً».
(٤) في (ب): «الكفر والجهل». (٥) في (ب): «ذكر الآية (١٢)».
(٦) في (ب): «أخبر أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن والأرضين السبع».

بها الخلق؛ كلُّ ذٰلك لأجل أن يعرِفَه العباد ويعلموا إحاطةَ قدرته بالأشياء كلِّها وإحاطة علمِهِ بجميع الأشياء؛ فإذا عَرَفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدَّسة[(١)]؛ عبدوه وأحبُّوه وقاموا بحقِّه؛ فهٰذه الغاية المقصودة من الخلق والأمْر؛ معرفة الله وعبادته، فقام بذٰلك الموفَّقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذٰلك الظالمون المعرضون.

تمَّ تفسيرها. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة التحريم

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ[(٢)] وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ هٰذا عتابٌ من الله لنبيِّه محمدٍ ﷺ حين حرَّم على نفسه سُرِّيَّته مارية أو شُرْبَ العسل مراعاةً لخاطر بعض زوجاته في قصَّةٍ معروفة[(٣)]، فأنزل الله [تعالى] هٰذه الآيات. ﴿يا أيُّها النبيُّ﴾؛ أي: يا أيُّها الذي أنعم الله عليه بالنبوَّة والرسالة والوحي[(٤)]، ﴿لِمَ تحرِّمُ ما أحلَّ الله لك﴾: من الطيِّبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمَّتك، ﴿تبتغي﴾: بذٰلك التحريم ﴿مرضاةَ أزواجِك والله غفورٌ رحيمٌ﴾: هٰذا

(١) في (ب): «بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى».
(٢) في ( أ ) إلى قوله: ﴿ثيبات وأبكارا﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٣) كما في «صحيح البخاري» (٤٩١٢)، ومسلم (١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها.
(٤) في (ب): «والوحي والرسالة».

تصريحٌ بأنَّ الله قد غفر لرسوله ورفع عنه اللومَ ورحِمَه.

﴿٢﴾ وصار ذٰلك التحريمُ الصادرُ منه سبباً لشرع حكم عامٍّ لجميع الأمَّة، فقال تعالى: ﴿قد فَرَضَ الله لكم تَحِلَّةَ أيمانِكم﴾: وهٰذا عامٌّ في جميع أيمان المؤمنين[١]؛ أي: قد شرع لكم وقدَّر ما به تَنْحَلُّ أيمانُكم قبل الحِنْثِ وما به تتكفَّر[٢] بعد الحنث، وذٰلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تُحَرِّمُوا طيباتِ ما أحلَّ الله لكم ولا تَعْتَدَوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين...﴾ إلى أن قال: ﴿فكفَّارتُه إطعامُ عَشَرَةِ مساكين من أوسطِ ما تُطْعِمونَ أهليكم أو كِسْوَتُهم أو تحريرُ رقبةٍ فمن لم يَجِدْ فصيامُ ثلاثةِ أيَّام ذٰلك كفَّارةُ أيمانِكم إذا حَلَفْتُم﴾: فكلُّ مَنْ حرَّم حلالاً عليه من طعام أو شرابٍ أو سُرِّيَّة أو حلف يميناً بالله على فعلٍ أو تركٍ ثم حنثَ وأراد الحِنْثَ؛ فعليه هٰذه الكفارة المذكورة. وقوله: ﴿واللهُ مولاكم﴾؛ أي: متولِّي أموركم ومربِّيكم أحسن تربيةٍ في أمر دينكم ودُنياكم وما به يندفعُ عنكم الشرُّ؛ فلذٰلك فرض لكم تَحِلَّةَ أيمانِكم لتبرأ ذِمَمُكم. ﴿وهو العليم الحكيم﴾: الذي أحاط علمُه بظواهِرِكم وبواطِنِكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به؛ فلذٰلك شرع لكم من الأحكام ما يعلم أنَّه موافقٌ لمصالحكم ومناسبٌ لأحوالكم.

﴿٣﴾ وقوله: ﴿وإذْ أسرَّ النبيُّ إلى بعضِ أزواجِهِ حديثاً﴾: قال كثيرٌ من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسرَّ لها النبيُّ ﷺ حديثاً، وأمر[٣] أن لا تُخْبِرَ به أحداً، فحدَّثت به عائشة رضي الله عنها، وأخبره الله بذٰلك الخبر الذي أذاعتْه، فعرَّفها ﷺ ببعض ما قالتْ وأعرضَ عن بعضِهِ كرماً منه ﷺ وحِلْماً، فقالت له: ﴿مَنْ أنبأكَ هٰذا﴾: الخبر الذي لم يَخْرُجْ منَّا، ﴿قال نَبَّأَنِيَ العليمُ الخبيرُ﴾: الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السرَّ وأخفى.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إن تَتوبا إلى الله فَقَدْ صَغَتْ قلوبُكما﴾: الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة وعائشة[٤] رضي الله عنهما حين كانتا سبباً لتحريم النبيِّ ﷺ على نفسه ما يحبُّه، فعرضَ الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذٰلك، وأخبرهما أنَّ قلوبكما قد صَغَتْ؛ أي: مالت وانحرفت عمَّا ينبغي لهنَّ من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يَشُقُّقْنَ عليه، ﴿وإن تَظاهرا عليه﴾؛ أي: تعاونا على

---

(١) في (ب): «فقال تعالى حاكماً حكماً عامًّا في جميع الأيمان».
(٢) في (ب): «وما به الكفارة». (٣) في (ب): «أمرها».
(٤) في (ب): «من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة».

ما يشقُّ عليه ويستمرُّ هٰذا الأمر منكنَّ، ﴿فإنَّ الله هو مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنين والملائكةُ بعد ذٰلك ظهيرٌ﴾؛ أي: الجميع أعوانٌ للرسول مظاهرون. ومَنْ كان هٰؤلاء أنصاره[1]؛ فهو المنصور، وغيره إن يناوئه؛ فهو مخذولٌ[2]، وفي هٰذا أكبر فضيلة وشرفٍ لسيِّد المرسلين؛ حيث جعل الباري نفسه الكريمة وخواصَّ خلقه أعواناً لهٰذا الرسول الكريم. وفيه[3] من التَّحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى.

﴿٥﴾ ثم خوَّفهما أيضاً بحالةٍ تشقُّ على النساء غاية المشقَّة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيءٍ عليهنَّ، فقال: ﴿عسى ربُّه إن طَلَّقَكُنَّ أن يُبْدِلَه أزواجاً خيراً منكنَّ﴾؛ أي: فلا ترفعْنَ عليه؛ فإنَّه لو طلَّقكنَّ لا يضيق عليه الأمر، ولم يكن مضطراً إليكنَّ؛ فإنَّه سيجد[4] ويبدله الله أزواجاً خيراً منكنَّ ديناً وجمالاً، وهٰذا من باب التعليق الذي لم يوجد ولا يلزمُ وجودُه؛ فإنَّه ما طلقهنَّ، ولو طلَّقهنَّ؛ لكان ما ذكره الله من هٰذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان وهو القيام بالشرائع الباطنة من العقائد وأعمال القلوب، والقنوت وهو دوام الطاعة واستمرارها. ﴿تائباتٍ﴾: عمَّا يكرهه الله، فوصفهنَّ بالقيام بما يحبُّه الله والتوبة عما يكرهه الله. ﴿ثيباتٍ وأبكاراً﴾[5]؛ أي: بعضهنَّ ثَيِّبٌ وبعضهنَّ أبكارٌ؛ ليتنوَّع ﷺ فيما يحبُّ. فلمَّا سمعن رضي الله عنهنَّ هٰذا التخويف والتأديب؛ بادرنَ إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هٰذا الوصف منطبقاً عليهنَّ، فصرن أفضل نساء المؤمنين. [وفي هذا دليلٌ على أنَّ اللّهَ تعالى لا يختار لرسوله إلاَّ أكملَ الأحوال وأعلى الأمورِ، فلمّا اختار اللّهُ لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دلَّ على أنهنَّ خيرُ النساء وأكملهن][6].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦﴾.

﴿٦﴾ أي: يا مَن منَّ الله عليهم بالإيمان! قوموا بلوازمه وشروطه، فـ﴿قُوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ موصوفةً بهٰذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها

(١) في (ب): «أعوانه».
(٢) في (ب): «وغيره ممّن يناوئه مخذول».
(٣) في (ب): «وهذا فيه».
(٤) في (ب): «فإنه سيلقى».
(٥) كذا في النسختين. سقط قوله: ﴿عابدات سائحات﴾.
(٦) زيادة من هامش (ب).

أمر الله[١] امتثالاً ونهيه اجتناباً والتوبة عمَّا يُسْخِطُ الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم وإجبارهم على أمر الله؛ فلا يسلم العبد إلَّا إذا قام بما أمر الله به في نفسه وفيمن تحت ولايته[٢] من الزوجات والأولاد وغيرهم ممَّن هم تحت ولايته وتصرُّفه، ووصف الله النار بهٰذه الأوصاف؛ ليزجر عباده عن التَّهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناسُ والحجارةُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّكم وما تعبُدونَ مِن دونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّم أنتم لها وارِدونَ﴾، ﴿عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ﴾؛ أي: غليظةٌ أخلاقُهم، شديدٌ[٣] انتهارُهم يفزعون بأصواتهم ويزعجون[٤] بمرآهم ويهينون أصحابَ النار بقوَّتهم، وينفِّذون[٥] فيهم أمرَ الله الذي حتم عليهم بالعذاب[٦]، وأوجب عليهم شدَّة العقاب، ﴿لا يعصونَ اللهَ ما أَمَرَهم ويفعلون ما يُؤمرونَ﴾: وهٰذا فيه أيضاً مدحٌ للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كلِّ ما أمرهم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

﴿٧﴾ أي: يوبَّخ أهل النار يوم القيامة بهٰذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يا أيُّها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾؛ أي: فإنَّه ذهب وقت الاعتذار وزال نفعه، فلم يبقَ الآنَ إلَّا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدِّموا إلَّا الكفر بالله والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائِهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ[٧] إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾.

﴿٨﴾ قد أمر الله بالتوبة النَّصوح في هٰذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات ودخول الجنات والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامةِ بنور إيمانهم، ويمشون بضيائِهِ، ويتمتَّعون بروحِهِ وراحته، ويشفِقون إذا طُفِئَتِ الأنوار التي تُعطى

---

(١) في (ب): «بإلزامها أمر الله والقيام بأمره». (٢) في (ب): «وفيما يدخل تحته ولايته».
(٣) في (ب): «عظيم». (٤) في (ب): «ويخيفون».
(٥) في (ب): «ويمتثلون». (٦) في (ب): «العذاب».
(٧) طمس الذي في ( أ ). وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: إنك على كل شيء قدير.

المنافقين، ويسألون الله أن يُتِمَّ لهم نورَهم، فيستجيب الله دعوتَهم، ويوصلهم بما[١] معهم من النور واليقين إلى جناتِ النعيم وجوار الربِّ الكريم، وكلُّ هٰذا من آثار التوبة النَّصوح، والمراد بها التَّوبة العامَّة الشاملة لجميع الذُّنوب[٢]، التي عقدها العبدُ لله، لا يريد بها إلَّا وجه الله[٣] والقرب منه، ويستمرُّ عليها في جميع أحواله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿٩﴾ يأمر اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والإغلاظ عليهم في ذٰلك، وهٰذا شاملٌ لجهادهم بإقامة الحجَّة عليهم ودعوتهم بالموعظة الحسنة[٤] وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يُجيبَ دعوةَ اللهِ وينقادَ لحكمه؛ فإنَّ هٰذا يجاهدُ ويغلظُ له، وأما المرتبة الأولى؛ فتكون بالتي هي أحسنُ؛ فالكفَّار والمنافقون لهم عذابٌ في الدُّنيا بتسليط الله لرسوله وحزبِهِ عليهم وعلى جهادهم، وعذاب النار في الآخرة ﴿وبئس المصير﴾: الذي يصير إليها كل شقيٍّ خاسر.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا[٥] صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

هٰذان المثلان اللَّذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين؛ ليبيِّن لهم أنَّ اتِّصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيدُه شيئاً، وأنَّ اتِّصال المؤمن بالكافر لا يضرُّه شيئاً مع قيامه بالواجب عليه، فكأنَّ في ذٰلك إشارةً وتحذيراً لزوجات النبيِّ ﷺ عن المعصية، وأنَّ اتصالهنَّ به ﷺ لا ينفعهنَّ شيئاً مع الإساءة، فقال:

---

(١) في (ب): «ما معهم».
(٢) في (ب): «الشاملة للذنوب كلِّها».
(٣) في (ب): «إلا وجهه».
(٤) في (ب): «بإقامة الحجة والموعظة الحسنة».
(٥) في (أ) طمس؛ ولعله إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿١٠﴾ ﴿ضَرَبَ الله مثلا للذين كَفَروا امرأة نوح وامرأة لوطٍ كانتا﴾؛ أي: المرأتان ﴿تحت عبدينِ من عبادِنا صالِحَيْنِ﴾: وهما نوحٌ ولوطٌ عليهما السلام، ﴿فخانَتاهما﴾: في الدين؛ بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهٰذا المراد بالخيانة، لا خيانة النَّسب والفراش؛ فإنَّه ما بغت امرأةُ نبيٍّ قطُّ، وما كان الله ليجعلَ امرأةَ أحدٍ من أنبيائه بَغِيًّا، ﴿فلم يُغنيا﴾؛ أي: نوحٌ ولوطٌ ﴿عنهما﴾؛ أي: عن امرأتيهما، ﴿من اللهِ شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادْخُلا النارَ مع الدَّاخِلين﴾.

﴿١١﴾ ﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأةَ فرعونَ﴾: وهي آسيةُ بنتُ مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالتْ ربِّ ابنِ لي عندك بيتاً في الجنَّة ونَجِّني من فرعونَ وعملِهِ ونجِّني من القوم الظَّالمين﴾: فوصفها الله بالإيمان والتضرُّع لربِّها وسؤالها[١] أجلَّ المطالب، وهو دخول الجنَّة ومجاورة الربِّ الكريم، وسؤالها أن ينجِّيَها [اللَّهُ] من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ومن فتنة كلِّ ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشتْ في إيمانٍ كامل وثباتٍ تامٍّ ونجاةٍ من الفتن، ولهٰذا قال النبيُّ ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يَكْمُلْ من النساء إلَّا مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسيةُ بنتُ مزاحم، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ. وفضلُ عائشةَ على النساء كفضل الثريدِ على سائر الطعام»[٢].

﴿١٢﴾ وقوله: ﴿ومريمَ ابنة عمرانَ التي أحصنتْ فَرْجَها﴾؛ أي: حفظته وصانته عن الفاحشة؛ لكمال ديانتها وعفَّتها ونزاهتها، ﴿فنَفَخْنا فيه من رُوحنا﴾: بأن نَفَخَ جبريل عليه السلام في جيب دِرْعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى عليه السلام الرسول الكريم والسيد العظيم، ﴿وصَدَّقَتْ بكلماتِ ربِّها وكتبِهِ﴾: وهٰذا وصفٌ لها بالعلم والمعرفة؛ فإنَّ التصديق بكلمات الله يشمل كلماتِهِ الدينيَّة والقدريَّة، والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصلُ التَّصديق، ولا يكون ذٰلك إلَّا بالعلم والعمل، ولهٰذا قال: ﴿وكانت من القانتينَ﴾؛ أي: المداومين على طاعة الله[٣] بخشيةٍ وخشوع. وهٰذا وصفٌ لها بكمال العمل؛ فإنَّها رضي الله عنها صدِّيقةٌ. والصدِّيقيَّة هي كمالُ العلم والعمل.

تمت [ولله الحمد].

❀ ❀ ❀

---

(١) في (ب): «والتضرّع لربها وسؤالها لربِّها».
(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١) عن أبي موسى دون ذكر خديجة.
(٣) في (ب): «المطيعين لله، المداومين على طاعته».

# تفسير سورة الملك

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾[1].

﴿١﴾ ﴿تبارك الذي بيده الملكُ﴾؛ أي: تعاظم وتعالى وكَثُرَ خيرُه وعمَّ إحسانه؛ من عظمته أنَّ بيده ملك العالم العلويِّ والسفليِّ، فهو الذي خلقه ويتصرَّف فيه بما شاء من الأحكام القدريَّة والأحكام الدينيَّة التابعة لحكمته. ومن عظمته كمالُ قدرته التي يقدر بها على كلِّ شيءٍ وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة؛ كالسماوات والأرض.

﴿٢﴾ و﴿خَلَقَ الموتَ والحياةَ﴾؛ أي: قدَّر لعباده أن يُحْيِيَهم ثم يُميتهم؛ ﴿لِيَبْلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، وذٰلك أنَّ الله[2] خلق عباده وأخرجهم لهٰذه الدار، وأخبرهم أنَّهم سيُنقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره؛ فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل؛ أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله؛ فله شرُّ الجزاء. ﴿وهو العزيز﴾: الذي له العزَّة كلُّها، التي قهر بها جميع الأشياء وانقادتْ له المخلوقاتُ. ﴿الغفور﴾: عن المسيئين والمقصِّرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا؛ فإنَّه يغفر ذنوبهم، ولو بلغتْ عنان السماء، ويسترُ عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

﴿٣﴾ ﴿الذي خلق سبع سمٰواتٍ طباقاً﴾؛ أي: كل واحدةٍ فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خَلْقِ الرحمٰن من

---

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿وهو حسير﴾.

(٢) في (ب): «فإن الله».

تفاوتٍ﴾؛ أي: خلل ونقص، وإذا انتفى النقص من كل وجهٍ؛ صارت حسنةً كاملةً متناسبةً من كلِّ وجه في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من الشمس [والقمر] والكواكب النيِّرات الثوابت منهنَّ والسيارات، ولمَّا كان كمالُها معلوماً؛ أمر تعالى بتكرار النظر إليها والتأمُّل في أرجائها؛ قال: ﴿فارجِعِ البصرَ﴾؛ أي: أعده إليها ناظراً معتبراً، ﴿هل ترى من فُطورٍ﴾؟ أي: نقص واختلال.

﴿٤﴾ ﴿ثم ارجِعِ البصرَ كرَّتين﴾: [و] المراد بذلك كثرة التكرار، ﴿ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسيرٌ﴾؛ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرَّح بذكر حسنها، فقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا(١) لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

﴿٥﴾ أي: ولقد جمَّلْنا ﴿السماء الدُّنيا﴾: التي ترونَها وتليكم، ﴿بمصابيحَ﴾: وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء؛ فإنَّه لولا ما فيها من النُّجوم؛ لكانت سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال، ولكن جعل الله هذه النجوم زينةً للسماء، وجمالاً ونوراً وهدايةً يُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ولا ينافي إخباره أنَّه زيَّن السماء الدُّنيا بمصابيح أن يكون كثيرٌ من النجوم فوق السماوات السبع؛ فإنَّ السماواتِ شفافةٌ، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدُّنيا وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وجعلناها﴾؛ أي: المصابيح ﴿رجوماً للشياطين﴾: الذين يريدون استراقَ خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسةً للسماء عن تلقُّف الشياطين أخبار الأرض؛ فهذه الشهب التي تُرمى من النُّجوم أعدها الله في الدُّنيا للشياطين، ﴿وأعتدنا لهم﴾: في الآخرة ﴿عذابَ السعير﴾: لأنَّهم تمرَّدوا على الله، وأضلُّوا عباده.

﴿٦﴾ ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم قد أعدَّ الله لهم عذاب السعير؛

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿ما كُنا في أصحاب السعير﴾.

فلهٰذا[١] قال: ﴿وللذين كفروا بربِّهم عذابُ جهنَّم وبئس المصير﴾: التي يُهان بها أهلُها[٢] غايةَ الهوان.

﴿٧﴾ ﴿إذا أُلقوا فيها﴾: على وجه الإهانةِ والذُّلِّ، ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾؛ أي: صوتاً عالياً فظيعاً.

﴿٨﴾ ﴿تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظِ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً وتتقطَّع من شدة غيظها على الكفار؛ فما ظنُّك ما تفعل بهم إذا حُصِّلُوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كلَّما أُلقي فيها فوجٌ سألهم خَزَنَتُها ألم يأتِكم نذيرٌ﴾؛ أي: حالكم هٰذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تخبَّروا عنها ولم تحذِّركم النذرُ منها.

﴿٩﴾ ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلْنا ما نَزَّلَ اللّه من شيءٍ إن أنتُم إلَّا في ضلالٍ كبيرٍ﴾: فجمعوا بين تكذيبهم الخاص والتكذيب العامِّ بكلِّ ما أنزل اللّه، ولم يكفهم ذٰلك، حتى أعلنوا بضلال الرُّسل المنذرين، وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرَّد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً؛ فأيُّ عنادٍ وتكبُّر وظلم يشبه هٰذا؟!

﴿١٠﴾ ﴿وقالوا﴾: معترفين بعدم أهليَّتهم للهدى والرشاد: ﴿لو كنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كنَّا في أصحاب السَّعير﴾: فنفَوْا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل اللّه وجاءتْ به الرسل، والعقلُ الذي ينفع صاحبَه ويوقفُه على حقائق الأشياء وإيثار الخير والانزجار عن كلِّ ما عاقبته ذميمةٌ، فلا سمعَ لهم ولا عقلَ. وهٰذا بخلاف أهل اليقين والعرفان وأرباب الصدق والإيمان؛ فإنَّهم أيَّدوا إيمانهم بالأدلَّة السمعيَّة، فسمعوا ما جاء من عند اللّه وجاء به رسولُ اللّه علماً ومعرفةً وعملاً، والأدلَّة العقليَّة المعرِّفة للهدى من الضَّلال، والحسن من القبيح، والخير من الشرِّ، وهم في الإيمان بحسب ما منَّ اللّه عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول؛ فسبحان مَن يختصُّ بفضله مَن يشاء، ويمنُّ على مَن يشاء من عباده، ويخذل مَن لا يصلُحُ للخير.

﴿١١﴾ قال تعالى عن هٰؤلاء الدَّاخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فاعْتَرَفوا بذَنبِهِم فسُحقاً لأصحاب السَّعير﴾؛ أي: بعداً لهم وخسارةً وشقاءً؛ فما

(١) في (ب): «ولهذا».
(٢) في (ب): «الذي يهان به أهله».

أشقاهم وأرداهم؛ حيث فاتهم ثواب اللّه، وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتَطَّلِعُ على أفئدتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجّار؛ ذكر وصف الأبرار السعداء[١]، فقال: ﴿إنَّ الذين يخشَوْنَ ربَّهم بالغيب﴾؛ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطَّلع عليهم فيها إلَّا اللّه؛ فلا يقدِمون على معاصيه، ولا يقصِّرون عمَّا أمرهم به[٢]. ﴿لهم مغفرةٌ﴾: لذنوبهم، وإذا غَفَرَ اللّه ذنوبَهم؛ وقاهم شرَّها ووقاهم عذاب الجحيم. ﴿ولهم أجرٌ كبيرٌ﴾: وهو ما أعدَّه اللّه لهم في الجنة من النعيم المقيم والملك الكبير واللذَّاتِ المتواصلات والقصور والمنازل العاليات[٣] والحور الحسان والخدم والولدان، وأعظم من ذٰلك وأكبر، رضا الرحمٰن الذي يُحِلُّه على ساكني[٤] الجنان.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾.

﴿١٣﴾ هٰذا إخبارٌ من اللّه بسعة علمه وشمول لطفه، فقال: ﴿وأسِرُّوا قولَكم أو اجْهَروا به﴾؛ أي: كلّها سواءٌ لديه لا يخفى عليه منها خافيةٌ، فـ﴿إنَّه عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: بما فيها من النيَّات والإرادات؛ فكيف بالأقوال والأفعال التي تُسمع وتُرى؟!

﴿١٤﴾ ثم قال مستدلاً بدليل عقليٍّ على علمه: ﴿ألا يعلمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ فمن خَلَقَ الخلقَ وأتقنه وأحسنه؛ كيف لا يعلمه؟! ﴿وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾: الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر والخبايا والخفايا والغيوب، ﴿وهو الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى﴾، ومن معاني اللطيف أنَّه الذي يَلْطُفُ بعبدِهِ ووليِّه، فيسوق إليه البِرَّ والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصِمُه من الشرِّ من حيث لا يحتسب، ويرقِّيه إلى أعلى المراتب بأسبابٍ لا تكون من العبد[٥] على بالٍ، حتى إنَّه يذيقُه المكارِهَ

---

(١) في (ب): «ذكر حالة السعداء الأبرار». (٢) في (ب): «فيما أمر به».
(٣) في (ب): «واللذات والمشتهيات والقصور العاليات».
(٤) في (ب): «أهل». (٥) في (ب): «لا تكون منه».

ليوصله[١] بها إلى المحابِّ الجليلة والمطالب[٢] النبيلة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: هو الذي سخَّر لكم الأرضَ وذلَّلها؛ لتدركوا منها كلَّ ما تعلقت به حاجتُكم من غرسٍ وبناءٍ وحرثٍ وطرقٍ يُتَوَصَّلُ بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكِبِها﴾؛ أي: لطلب الرزق والمكاسب، ﴿وكُلوا من رزقِهِ وإليه النشورُ﴾؛ أي: بعد أن تنتقلوا من هٰذه الدار التي جعَلَها اللّه امتحاناً وبلغةً يُتَبَلَّغُ بها إلى الدار الآخرة؛ تُبعثون بعد موتكم وتُحشرون إلى اللّه؛ ليجازِيَكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ[٣] فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٦﴾ هٰذا تهديدٌ ووعيدٌ لمن استمرَّ في طغيانه وتعدِّيه وعصيانه الموجب للنَّكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿أأمنتُم مَن في السَّماء﴾: وهو اللّه تعالى العالي على خلقه، ﴿أن يخسِفَ بكم الأرضَ فإذا هي تمورُ﴾: بكم وتضطربُ حتى تَهْلِكوا وتَتْلَفوا[٤].

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿أم أمنتُم مَن في السماء أن يرسلَ عليكم حاصباً﴾؛ أي: عذاباً من السماء يحصِبُكم وينتقمُ اللّه منكم، ﴿فستعلمون كيف نذيرِ﴾؛ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتْكُم به الرسل والكتب؛ فلا تحسَبوا أنَّ أمنكم من اللّه أن يعاقِبَكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعُكم، فستجدون عاقبة أمرِكم سواءً طال عليكم الأمدُ[٥] أو قَصُرَ؛ فإنَّ مَن قبلكم كذَّبوا كما كذَّبتم، فأهلكهم اللّه تعالى؛ فانظُروا كيف إنكارُ اللّه عليهم؛ عاجلهم بالعقوبة الدنيويَّة قبل عقوبة الآخرة؛ فاحذَروا أن يصيبَكم ما أصابَهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ليتوصل». (٢) في (ب): «والمقامات النبيلة».
(٣) في ( أ ) إلى قوله: (فكيف كان نكير). وفي (ب) ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «حتى تتلفكم وتهلككم». (٥) في (ب): «الزمان».

﴿١٩﴾ وهٰذا عتابٌ وحثٌّ على النظر إلى حالة الطير التي سخَّرها اللّه وسخَّر لها الجوَّ والهواء؛ تصفُّ فيه أجنحتها للطيران وتقبِضُها للوقوع، فتظلُّ سابحةً في الجوِّ متردِّدة فيه بحسب إرادتها وحاجتها، ﴿ما يمسِكُهُنَّ إلَّا الرحمٰنُ﴾: فإنَّه الذي سخَّر لهنَّ الجوَّ وجعل أجسادها وخلقتها[1] في حالة مستعدةٍ للطيران؛ فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها؛ دلَّته على قدرة الباري وعنايته الربانيَّة، وأنَّه الواحدُ الأحدُ الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ﴿إنَّه بكلِّ شيءٍ بصيرٌ﴾: فهو المدبِّر لعباده بما يليق بهم وتقتضيه حكمته.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحقِّ: ﴿أمَّن هٰذا الذي هو جندٌ لكم ينصُرُكم من دونِ الرحمٰن﴾؛ أي: ينصُرُكم إذا أرادَ الرحمٰن بكم[2] سوءاً فيدفعه عنكم؛ أي: من الذي ينصُرُكم على أعدائكم غير الرحمٰن؛ فإنَّه تعالى هو الناصر المعزُّ المذلُّ، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبدٍ لم ينفعوه بمثقال[3] ذرَّةٍ على أيِّ عدوٍّ كان؛ فاستمرارُ الكافرين على كفرهم بعد أن عَلِموا أنَّه لا ينصُرُهم أحدٌ من دون الرحمٰن غرورٌ وسفهٌ.

﴿٢١﴾ ﴿أمَّن هٰذا الذي يرزقُكُم إن أمسَكَ رزقَه﴾؛ أي: الرزق كلُّه من اللّه؛ فلو أمسك عنكم الرزق؛ فمن الذي يرسله لكم؟ فإنَّ الخلق لا يقدرون على رزق أنفسِهِم؛ فكيف بغيرهم؟! فالرازق المنعم الذي لا يصيب العبادَ نعمةٌ إلَّا منه هو الذي يستحقُّ أن يُفْرَدَ بالعبادة، ولٰكنْ الكافرون ﴿لَجُّوا﴾؛ أي: استمروا ﴿في عُتُوٍّ﴾؛ أي: قسوةٍ وعدم لينٍ للحق، ﴿ونُفورٍ﴾؛ أي: شرودٍ عن الحقِّ.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: أيُّ الرجلين أهدى؛ من كان تائهاً في الضَّلال غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحقُّ عنده باطلاً والباطل حقًّا، ومن كان عالماً بالحقِّ، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟! فبمجرَّد

(١) في (ب): «جعل أجسادهن وخلقتهن». (٢) في (ب): «إذا أراد بكم الرحمٰن».
(٣) في (ب): «مثقال».

النظر إلى حال الرجلين؛ يعلم الفرق بينهما والمهتدي من الضالِّ منهما. والأحوالُ أكبرُ شاهدٍ من الأقوال.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ[1] وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى مبيِّناً أنَّه المعبودُ وحدَه وداعياً عباده إلى شكره وإفراده بالعبادة: ﴿هو الذي أنشأكم﴾؛ أي: أوجدكم من العدم؛ من غير معاونٍ له ولا مظاهر، ولما أنشأكم؛ كمَّل لكم الوجود بالسمع والأبصارِ والأفئدةِ، وهٰذه الثلاثة هي أفضل[2] أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانيَّة، ولٰكنَّكم[3] مع هٰذا الإنعام ﴿قليلاً ما تشكُرون﴾ الله، قليلٌ منكم الشاكر، وقليلٌ منكم الشكر.

﴿٢٤﴾ ﴿قل هو الذي ذَرَأكُم في الأرض﴾؛ أي: بثَّكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم ونهاكم، وأسدى عليكم من النِّعم ما به تنتفعون، ثم بعد ذٰلك يحشُرُكم ليوم القيامةِ، ولٰكنَّ هٰذا الوعد بالجزاء ينكِرُه هٰؤلاء المعاندون.

﴿٢٥﴾ ﴿ويقولون﴾: تكذيباً: ﴿متى هٰذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ﴾؟ جعلوا علامة صدقِهِم أنْ يُخْبِروهم[4] بوقت مجيئِهِ، وهٰذا ظلمٌ وعنادٌ.

﴿٢٦﴾ فإنما ﴿العلم عند الله﴾: لا عند أحدٍ من الخلق، ولا ملازمة بين هٰذا الخبر[5] وبين الإخبار بوقته؛ فإنَّ الصدق يُعْرَفُ بأدلَّته، وقد أقام الله من الأدلَّة والبراهين على صحَّته ما لا يبقى معه أدنى شكٍّ لمن ألقى السمع وهو شهيدٌ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟[6] وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني أنَّ محلَّ تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدُّنيا؛ فإذا كان

(١) في ( أ ) إلى قوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾. وفي ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «أنفع». (٣) في (ب): «ولكنه».
(٤) في (ب): «أن يخبروا». (٥) في (ب): «بين صدق هذا الخبر».
(٦) في ( أ ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي: قريباً؛ ساءهم ذٰلك وأفظعهم وأقلقهم[(١)]، فتغيَّرت لذٰلك وجوهُهم، ووُبِّخوا على تكذيبهم، وقيل لهم: ﴿هٰذا الذي كنتُم به تَدَّعونَ﴾: فاليوم رأيتموه عياناً، وانجلى لكم الأمر، وتقطَّعت بكم الأسباب، ولم يبقَ إلَّا مباشرة العذاب[(٢)].

﴿٢٨﴾ ولما كان المكذِّبون للرسول ﷺ الذين يردُّون دعوته ينتظرون هلاكَه ويتربَّصون به ريب المنون؛ أمره اللّه أن يقولَ لهم: إنَّكم وإن حصلتْ لكم أمنيتُكم[(٣)] و﴿أهلكني اللّه ومن معي﴾: فليس ذٰلك بنافع لكم شيئاً؛ لأنَّكم كفرتم بآيات اللّه، واستحققتُم العذاب؛ فمن يجيرُكم ﴿من عذابٍ أليم﴾: قد تحتَّم وقوعُه بكم؛ فإذاً تعبُكم وحرصُكم على هلاكي غير مفيدٍ ولا مجدٍ لكم شيئاً.

﴿٢٩﴾ ومن قولهم: إنَّهم على هدى والرسول على ضلالٍ؛ أعادوا في ذٰلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر اللّه نبيَّه أن يُخْبِرَ عن حاله وحال أتباعه ما به يتبيَّن لكلِّ أحدٍ هداهم وتقواهم، وهو أنْ يقولوا: ﴿آمنَّا به وعليه تَوَكَّلْنا﴾: والإيمانُ يشملُ التصديق الباطن والأعمال الباطنة والظاهرة، ولمَّا كانت الأعمالُ وجودُها وكمالُها متوقفة على التوكُّل؛ خصَّ اللّه التوكُّل من بين سائر الأعمال، وإلَّا؛ فهو داخلٌ في الإيمان، ومن جملة لوازمه؛ كما قال تعالى: ﴿وعلى اللّه فتوكَّلوا إن كُنتُم مؤمنينَ﴾؛ فإذا كانت هٰذه حال الرسول وحال مَن اتَّبعه، وهي الحال التي تتعيَّن للفلاح وتتوقَّف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدِّها؛ فلا إيمان لهم ولا توكُّل؛ عُلِمَ بذٰلك مَن هو على هدىً ومن هو في ضلال مبينٍ.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر عن انفراده بالنِّعم، خصوصاً الماء[(٤)] الذي جَعَلَ اللّه منه كلَّ شيءٍ حيٍّ، فقال: ﴿قل أرأيتُم إن أصبحَ ماؤكم غَوْراً﴾؛ أي: غائراً، ﴿فمن يأتيكم بماءٍ مَعينٍ﴾: تشربون منه وتسقونَ أنعامكم وأشجارَكم وزُروعكم؟ وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لا يقدر أحدٌ على ذٰلك غير اللّه تعالى.

تم تفسير سورة الملك والحمد للّه[(٥)].

---

(١) في (ب): «وقلقل أفئدتهم».
(٢) في (ب): «ولم يبقَ إلاّ مباشرة العذاب، وتقطعت بكم الأسباب».
(٣) في (ب): «أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم».
(٤) في (ب): «بالماء».
(٥) في (ب): «تمّت ولله الحمد».

# تفسير سورة نٓ

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تُكْتَبُ بها أنواع العلوم، ويسطرُ بها المنثور والمنظوم[١]، وذلك أنَّ القلم وما يسطرُ[٢] به من أنواع الكلام من آياته[٣] العظيمة، التي تستحقُّ أن يُقْسِمَ [اللَّهُ] بها على براءة نبيِّه محمدٍ ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه ذلك[٤] بنعمةِ ربِّه عليه وإحسانه؛ حيث منَّ عليه بالعقل الكامل والرأي الجَزْل والكلام الفَصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدُّنيا.

﴿٣﴾ ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وإنَّ لك لأجرًا غيرَ ممنونٍ﴾؛ أي: لأجراً عظيماً كما يفيده التنكير، غير مقطوع[٥]، بل هو دائمٌ مستمرٌّ، وذلك لما أسلفه ﷺ من الأعمال الصالحة والأخلاق الكاملة والهداية إلى كلِّ خير.

﴿٤﴾ ولهذا قال: ﴿وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيم﴾؛ أي: عليًا[٦] به، مستعلياً بخُلُقك الذي مَنَّ اللّه عليك به. وحاصل خُلُقِهِ العظيم ما فسَّرته به أمُّ المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها لمن سألها عنه، فقالت: كان خلقه القرآن[٧]. وذلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلينَ﴾، ﴿فبما رحمةٍ من اللّه لِنتَ لهم. . .﴾ الآية، ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكُم عزيزٌ عليه ما عَنِتُم[٨]. . .﴾ الآية، وما أشبه ذلك من الآيات الدالاَّت على اتِّصافه ﷺ بمكارم الأخلاق،

---

(١) في (ب): «المنظوم والمنثور».
(٢) في (ب): «يسطرون به».
(٣) في (ب): «من آيات الله».
(٤) في (ب): «فنفى عنه الجنون».
(٥) في (ب): «﴿ وإن لك لأجراً﴾؛ أي: عظيماً كما يفيده التنكير ﴿غير ممنون﴾؛ أي: مقطوع».
(٦) في (ب): «عالياً به».
(٧) أخرجه مسلم (٧٤٦).
(٨) في (ب): «ذكر الآية إلى قوله: ﴿رءوف رحيم﴾».

والآيات الحاثَّات على كلِّ خُلُقٍ جميل[1]، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كلِّ خصلة منها في الذِّروة العليا، فكان [ﷺ] سهلاً ليناً قريباً من الناس، مجيباً لدعوة مَنْ دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب مَنْ سأله لا يحرمه ولا يردُّه خائباً. وإذا أراد أصحابُهُ منه أمراً؛ وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذورٌ، وإن عَزَمَ على أمرٍ؛ لم يستبدَّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبلُ من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشِرُ جليساً إلَّا أتمَّ عشرةٍ وأحسنها، فكان لا يعبسُ في وجهه، ولا يُغْلِظُ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فَلَتات لسانِهِ، ولا يؤاخذه بما يصدُرُ منه من جفوةٍ، بل يُحْسِنُ إليه[2] غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

﴿٥ ـ ٦﴾ فلمَّا أنزله اللّه في أعلى المنازل [من جميع الوجوه]، وكان أعداؤه ينسِبون إليه أنَّه مجنونٌ مفتونٌ؛ قال: ﴿فستُبْصِرُ ويُبْصِرونَ. بأيِّكُم المفتونُ﴾: وقد تبيَّن أنَّه أهدى الناس وأكملهم لنفسه ولغيره، وأنَّ أعداءه أضلُّ الناس وشرُّ الناس للناس[3]، وأنَّهم هم الذين فتنوا عبادَ اللّه وأضلُّوهم عن سبيله، وكفى بعلم اللّه بذٰلك؛ فإنَّه [هو] المحاسب المجازي.

﴿٧﴾ ﴿إنَّ ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدينَ﴾: وهٰذا فيه تهديدٌ للضالِّين، ووعدٌ للمهتدين، وبيانٌ لحكمة اللّه؛ حيث كان يهدي مَنْ يَصْلُحُ للهداية دون غيره.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ[4] ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿٨﴾ يقول اللّه تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿فلا تُطعِ المكذِّبين﴾: الذين كذَّبوك وعاندوا الحقَّ؛ فإنَّهم ليسوا أهلاً لأن يُطاعوا؛ لأنَّهم لا يأمرون إلَّا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلَّا الباطل؛ فالمطيع لهم مُقْدِمٌ على ما يضرُّه، وهٰذا عامٌّ في كلِّ مكذِّب وفي كلِّ طاعةٍ ناشئةٍ عن التكذيب، وإن كان السياقُ في شيءٍ

(١) في (ب): «الحاثات على الخلق العظيم». (٢) في (ب): «إلى عشيره».
(٣) في (ب): «أضل الناس للناس».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

خاصٌ، وهو أنَّ المشركين طلبوا من النبيِّ ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم ويسكتوا عنه.

﴿٩﴾ ولهٰذا قال: ﴿ودُّوا﴾؛ أي: المشركون، ﴿لو تُدْهِنُ﴾؛ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه: إمَّا بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعيَّن الكلام فيه ﴿فَيُدْهِنونَ﴾، ولٰكن اصدعْ بأمر اللّه، وأظهرْ دين الإسلام؛ فإنَّ تمام إظهاره نقضُ[١] ما يضادُّه وعيب ما يناقضه.

﴿١٠﴾ ﴿ولا تطِعْ كلَّ حلاَّفٍ﴾؛ أي: كثير الحلف؛ فإنَّه لا يكون كذٰلك إلَّا وهو كذَّابٌ، ولا يكون كذَّاباً إلَّا وهو ﴿مَهينٌ﴾؛ أي: خسيس النفس، ناقصُ الهمة، ليس له رغبةٌ[٢] في الخير، بل إرادتُه في شهوات نفسه الخسيسة.

﴿١١﴾ ﴿همَّازٍ﴾؛ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم[٣] بالغيبة والاستهزاء وغير ذٰلك، ﴿مشاءٍ بنميم﴾؛ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقلُ كلام بعضِ الناس لبعض لقصد الإفسادِ بينهم وإيقاع العداوة والبغضاء.

﴿١٢﴾ ﴿منَّاعٍ للخيرِ﴾: الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزَّكوات وغير ذٰلك. ﴿معتدٍ﴾: على الخلق؛ يظلِمُهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم[٤]. ﴿أثيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم والذُّنوب المتعلِّقة في حقِّ اللّه [تعالى].

﴿١٣﴾ ﴿عُتُلٍّ بعدَ ذٰلك﴾؛ أي: غليظٍ شرس الخلق، قاسٍ، غير منقادٍ للحقِّ. ﴿زنيمٍ﴾؛ أي: دعيٍّ ليس له أصلٌ ولا مادةٌ ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاحٌ. له زِنَمَةٌ؛ أي: علامةٌ في الشرِّ يعرف بها.

﴿١٤﴾ وحاصل هٰذا أنَّ اللّه تعالى نهى عن طاعة كلِّ حلافٍ كذابٍ خسيس النفس سيِّىءِ الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمِّنة للإعجاب بالنفس، والتكبُّر على الحقِّ وعلى الخَلْق، والاحتقار للناس بالغيبة والنَّميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

﴿١٥﴾ وهٰذه الآياتُ وإن كانت نزلتْ في بعض المشركين؛ كالوليد بن المغيرة أو غيره[٥]؛ لقوله عنه: ﴿أن كان ذا مال وبنينَ. إذا تُتْلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ

---

(١) في (ب): «بنقض». (٢) في (ب): «همّة».

(٣) في (ب): «كثير العيب والطعن في الناس».

(٤) في (ب): «في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض».

(٥) انظر «فتح الباري» (٨/ ٦٦٢).

الأولينَ﴾؛ أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحقِّ ودَفَعه حين جاءه وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكنُ صدقُها وكذبُها؛ فإنَّها عامةٌ في كلِّ من اتَّصف بهٰذا الوصف؛ لأنَّ القرآن نزل لهداية الخلق كلِّهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربَّما نزل بعض الآياتِ في سببٍ أو [في] شخصٍ من الأشخاص، لتتَّضح به القاعدةُ العامةُ، ويُعْرَفَ به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامَّة.

﴿١٦﴾ ثم توعَّد تعالى مَنْ جرى منه ما وَصَفَ الله بأن الله سَيَسِمُهُ ﴿على الخرطوم﴾: في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً يكون عليه سِمَةً وعلامةً في أشقِّ الأشياء عليه وهو وجهه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ[1] أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ يقول تعالى: إنَّا بَلَوْنا هٰؤلاء المكذِّبين بالخير، وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولدٍ وطول عمرٍ ونحو ذٰلك ممَّا يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربَّما يكون استدراجاً لهم من حيثُ لا يعلمون، فاغترارهم بذٰلك نظيرُ اغترار أصحاب الجنَّة الذين هم فيها شركاء، حين أينعت أشجارها، وزهت ثمارها[2]، وآن وقت صِرامها وجزموا أنَّها في أيديهم وطوع أمرهم، وأنَّه ليس ثَمَّ مانعٌ يمنعهم منها، ولهٰذا أقسموا وحلفوا من غير استثناءٍ أنَّهم سيصرمونها؛ أي: يجذُّونها مصبحين، ولم يَدْروا أنَّ الله بالمرصادِ، وأنَّ العذاب سيخلفهم عليها ويبادِرُهم إليها.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿فطاف عليها طائفٌ من ربِّك﴾؛ أي: عذابٌ نزل عليها ليلاً، ﴿وهم نائمونَ﴾: فأبادها، وأتلفها، ﴿فأصبحتْ كالصَّريم﴾؛ أي: كالليل المظلم، وذهبت الأشجار والثمار.

---

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) إلى آخر القصة بعد ذكر الآية (١٩).

(٢) في (ب): «حيث زهت ثمارها، وأينعت أشجارها».

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ هٰذا وهم لا يشعرون بهٰذا الواقع الملم، ولهٰذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا؛ يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرثِكم إن كنتُم صارمين﴾.

﴿٢٣ ـ ٢٤﴾ ﴿فانطلقوا﴾: قاصدين لها[١]، ﴿وهم يتخافتونَ﴾: فيما بينهم بمنع[٢] حقِّ اللّٰه تعالى، ويقولون: ﴿لا يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكينٌ﴾؛ أي: بكِّروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذٰلك بمنع الفقراء والمساكين. ومن شدَّة حرصهم وبخلهم أنَّهم يتخافتون بهٰذا الكلام مخافتةً خوفاً أن يَسْمَعَهم أحدٌ فيخبر الفقراء.

﴿٢٥﴾ ﴿وغَدَوْا﴾: في هٰذه الحالة الشنيعة والقسوة وعدم الرحمة ﴿على حردٍ قادرينَ﴾؛ أي: على إمساكٍ ومنعٍ لحقِّ اللّٰه جازمين بقدرتهم عليها.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ ﴿فلمَّا رأوْها﴾: على الوصف الذي ذَكَرَ اللّٰه كالصريم، ﴿قالوا﴾: من الحيرة والانزعاج، ﴿إنَّا لضالُّون﴾؛ أي: تائهون عنها، لعلَّها غيرها، فلما تحقَّقوها ورجعت إليهم عقولهم؛ قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾: منها، فعرفوا حينئذٍ أنَّه عقوبةٌ.

﴿٢٨﴾ فَـ﴿قَالَ أوسطُهم﴾؛ أي: أعدلُهم وأحسنُهم طريقةً: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبِّحونَ﴾؛ أي: تنزِّهون اللّٰه عما لا يليق به، ومن ذٰلك ظنُّكم أنَّ قدرتكم مستقلةٌ، فلولا استثنيتم وقلتُم[٣]: إنْ شاء اللّٰه، وجعلتم مشيئتكم تابعةً لمشيئتِهِ[٤]؛ لما جرى عليكم ما جرى.

﴿٢٩﴾ فَـ﴿قالوا سبحانَ ربِّنا إنَّا كُنَّا ظالمين﴾؛ أي: استدركوا بعد ذٰلك، ولٰكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يُرفع، ولٰكن لعلَّ تسبيحهم هٰذا وإقرارهم على أنفسهم بالظُّلم ينفعهم في تخفيف الإثم ويكونُ توبةً.

﴿٣٠ ـ ٣٢﴾ ولهٰذا ندموا ندامةً عظيمةً، وأقبل ﴿بعضُهم على بعضٍ يتلاومونَ﴾: فيما أجروه وفعلوه، ﴿قالوا يا وَيْلَنا إنا كُنَّا طاغينَ﴾؛ أي: متجاوزين للحدِّ في حقِّ اللّٰه وحقِّ عباده، ﴿عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنا خيراً منها إنَّا إلى ربِّنا راغبونَ﴾: فهم رجوا اللّٰه أن يبدِّلهم خيراً منها، ووعدوا أن[٥] سيرغبون إلى اللّٰه ويلحُّون عليه في الدُّنيا؛ فإنْ كانوا كما قالوا؛ فالظاهر أنَّ اللّٰه أبدلهم في الدُّنيا

(١) في (ب): «له».
(٢) في (ب): «ولكن بمنع».
(٣) في (ب): «فقلتم».
(٤) في (ب): «لمشيئة الله».
(٥) في (ب): «أنهم».

خيراً منها؛ لأنَّ من دعا الله صادقاً ورغب إليه ورجاه؛ أعطاه سؤاله.

﴿٣٣﴾ قال تعالى معظماً[١] ما وقع: ﴿كذلك العذابُ﴾؛ أي: الدنيويُّ لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبَه الله[٢] الشيء الذي طغى به وبغى وآثرَ الحياةَ الدُّنيا وأن يزيلَه عنه أحوجَ ما يكون إليه، ﴿ولَعذابُ الآخرةِ أكبرُ﴾: من عذاب الدُّنيا، ﴿لو كانوا يعلمون﴾: فإنَّ مَنْ عَلِمَ ذلك؛ أوجب له الانزجار عن كلِّ سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب[٣].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ[٤] ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٤ ـ ٤١﴾ يخبر تعالى بما أعدَّه للمتَّقين للكُفْرِ والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأنَّ حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المتَّقين[٥] القانتين لربِّهم، المنقادين لأوامره، المتَّبِعين مراضِيَه، كالمجرمين الذين أوضَعوا في معاصيه والكفر بآياتِهِ ومعاندةِ رسلِهِ ومحاربة أوليائِهِ، وأنَّ من ظنَّ أنَّه يسوِّيهم في الثواب؛ فإنَّه قد أساء الحكم، وأنَّ حكمه [حكمٌ] باطلٌ ورأيه فاسدٌ، وأن المجرمين إذا ادَّعوا ذلك؛ فليس لهم مستندٌ، لا كتابٌ فيه يدرسون ويتلون أنَّهم من أهل الجنة، وأنَّ لهم ما طلبوا وتخيَّروا، وليس لهم عند الله عهدٌ ويمينٌ بالغةٌ إلى يوم القيامةِ أنَّ لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاءُ وأعوانٌ على إدراك ما طلبوا؛ فإنْ كان لهم شركاءُ وأعوانٌ؛ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. ومن المعلوم أنَّ جميع ذلك منتفٍ؛ فليس لهم كتابٌ ولا لهم عهدٌ عند الله في النجاة ولا لهم شركاءُ يعينونَهم، فعُلِمَ أنَّ دعواهم باطلةٌ فاسدةٌ. وقوله: ﴿سَلْهم أيُّهم بذلك زعيمٌ﴾؛ أي: أيُّهم الكفيل بهذه الدعوى التي تَبَيَّنَ بطلانها؛ فإنَّه لا يمكن أحداً أن يتصدَّر بها ولا يكون زعيماً فيها[٦].

(١) في (ب): «مبيِّناً». (٢) في (ب): «أن يسلب الله العبد».
(٣) في (ب): «ويحل العقاب».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «المسلمين».
(٦) في (ب): «بهذه الدعوى الفاسدة؛ فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها».

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ[١] وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢ ـ ٤٣﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخُلُ تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاءِ بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبِهُها شيءٌ، ورأى الخلائقُ من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه؛ فحينئذٍ ﴿يُدْعَوْنَ إلى السجود﴾: لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجُدون لله طوعاً واختياراً، ويذهب الفجَّارُ المنافقون ليسجدوا؛ فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصِي البقرِ؛ لا يستطيعون الانحناء، وهٰذا الجزاء من جنس عملهم؛ فإنَّهم كانوا يُدْعَوْنَ في الدُّنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالمون لا علَّة فيهم؛ فيستكبرون عن ذٰلك، ويأبَوْن؛ فلا تسأل يومئذٍ عن حالهم وسوء مآلهم؛ فإنَّ الله قد سَخِطَ عليهم، وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وتقطَّعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة؛ ففي هٰذا ما يزعِجُ القلوب عن المقام على المعاصي ويوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا[٢] سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٤ ـ ٤٥﴾ أي: دعني والمكذِّبين بالقرآن العظيم؛ فإنَّ عليَّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم؛ فسنستدرِجُهم ﴿من حيث لا يعلمونَ﴾: فنُمِدُّهم بالأموال والأولاد، ونُمِدُّهم في الأرزاق والأعمال؛ ليغتروا ويستمرُّوا على ما يضرُّهم، وهٰذا[٣] من كيد الله لهم. وكيدُ الله لأعدائه متينٌ قويٌّ، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم كلَّ[٤] مبلغ.

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿وهم سالمون﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (أ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٣) في (ب): «فإن هذا».
(٤) في (ب): «وعذابهم فوق كلِّ مبلغ».

﴿٤٦﴾ ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مَغرَم مُثْقَلون﴾؛ أي: ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لك سببٌ يوجب لهم ذٰلك[1]؛ فإنَّك تعلِّمُهم وتدعوهم إلى اللّه لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرماً يَثْقُلُ عليهم.

﴿٤٧﴾ ﴿أم عندَهم الغيبُ فهم يكتُبون﴾: ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا [فيها] أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ لهم الثواب عند اللّه؛ فهٰذا أمرٌ ما كان، وإنَّما كانت حالهم حال معاندٍ ظالم.

﴿٤٨ ـ ٥٠﴾ فلم يبقَ إلَّا الصبر لأذاهم والتحمُّل لما يصدُرُ منهم والاستمرار على دعوتهم، ولهٰذا قال: ﴿فاصبِرْ لحكم ربِّك﴾؛ أي: لما حكم به شرعاً وقدراً؛ فالحكم القدريُّ يُصْبَرُ على المؤذي منه ولا يُتَلَقَّى بالسخط والجزع، والحكم الشرعيُّ يقابَلُ بالقَبول والتسليم والانقياد [التامِّ] لأمرِهِ. وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوتِ﴾: وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابِهه في الحال التي أوصلَتْه وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومِهِ الصبرَ المطلوب منه وذَهابُه مغاضباً لربِّه، حتى ركب [في] البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيُّهم يلقون؛ لكي تَخِفَّ بهم، فوقعت القرعةُ عليه، فالتقمه الحوتُ وهو مليمٌ. وقوله: ﴿إذ نادى وهو مكظومٌ﴾؛ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو: نادى وهو مغتمٌّ مهتمٌّ، فقال[2]: لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، فاستجاب اللّه له، وقَذَفَتْه الحوتُ من بطنها بالعراء وهو سقيمٌ، وأنبت اللّه عليه شجرةً من يقطينٍ، ولهٰذا قال هنا: ﴿لولا أن تدارَكَه نعمةٌ من ربِّه لَنُبِذَ بالعراء﴾؛ أي: لَطُرِحَ في العراء، وهي الأرض الخالية، ﴿وهو مذمومٌ﴾: ولٰكنَّ اللّه تغمَّده برحمته، فَنُبِذَ وهو ممدوحٌ، وصارت حالُه أحسنَ من حاله الأولى، ولهٰذا قال: ﴿فاجتباه ربُّه﴾؛ أي: اختاره واصطفاه ونقَّاه من كلِّ كدرٍ، ﴿فجعله من الصالحين﴾؛ أي: الذين صَلَحَتْ أعمالهم وأقوالهم ونيَّاتهم وأحوالهم.

﴿٥١ ـ ٥٢﴾ فامتثل نبيُّنا محمدٌ ﷺ أمر اللّه[3]، فصبر لحكم ربِّه صبراً لا يدركه [فيه] أحدٌ من العالمين، فجعل اللّه له العاقبة، والعاقبةُ للمتقين، ولم يبلغ[4] أعداؤه فيه إلَّا ما يسوؤهم، حتى إنَّهم حرصوا على أن يُزْلِقوه ﴿بأبصارهم﴾؛ أي: يصيبوه

---

(١) في (ب): «وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب لهم ذلك».
(٢) في (ب): «بأن قال».
(٣) في (ب): «أمر رَبّه».
(٤) في (ب): «ولم يدرك».

بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم. هٰذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعليِّ، والله حافظه وناصِرُه. وأمَّا الأذى القوليُّ؛ فيقولون فيه أقوالاً بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارةً: مجنونٌ! وتارةً: شاعرٌ! وتارة: ساحرٌ![1] قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾؛ أي: وما هٰذا القرآن العظيم[2] والذِّكر الحكيم إلَّا ذكرٌ للعالمين، يتذكَّرون به مصالح دينهم ودنياهم. والحمد لله[3].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الحاقة

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ [4]كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿الحاقَّة﴾: من أسماء يوم القيامة؛ لأنَّها تحقُّ وتنزل بالخلق وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبآت الصدور؛ فعظَّم تعالى شأنها وفخَّمه بما كرَّره من قوله: ﴿الحاقَّة. ما الحاقَّة. وما أدراك ما الحاقَّة﴾؛ فإنَّ لها شأناً عظيماً وهولاً جسيماً[5].

«ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل».

﴿٤﴾ ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدُّنيا المشاهدة فيها، وهو ما[6] أحلَّه من العقوبات البليغة بالأمم[7] العاتية، فقال: ﴿كذَّبتْ ثمودُ﴾: وهم القبيلةُ المشهورةُ سكان الحِجْر الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام؛ ينهاهم عمَّا هم عليه من الشِّرك ويأمرهم بالتوحيد، فردُّوا دعوته، وكذَّبوه، وكذَّبوا ما

---

(١) في (ب): «تارة ساحر! وتارة شاعر». (٢) في (ب): «القرآن الكريم».

(٣) في (ب): «تم تفسير سورة نۤ. والحمد لله رب العالمين».

(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٥) زيادة: في هامش (ب): لم يشر المؤلف إلى مكانها. ولعل مكانها المناسب في هذا الموضع.

(٦) في (ب): «مما أحله». (٧) في (ب): «في الأمم».

أخبر[١] به من يوم القيامةِ، وهي القارعة التي تقرع الخَلْقَ بأهوالها، وكذٰلك عادٌ الأولى سكان حضرموت حين بَعَثَ اللّه إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده، فكذَّبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك اللّه الطائفتين بالهلاك العاجل[٢].

﴿٥﴾ ﴿فأمَّا ثمودُ فأهْلِكوا بالطَّاغية﴾: وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطَّعتْ[٣] قلوبهم وزهقتْ لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يُرى إلَّا مساكِنُهم وجُثَثُهم.

﴿٦﴾ ﴿وأمَّا عادٌ فأُهْلِكوا بريح صرصرٍ﴾؛ أي: قويَّةٍ شديدةِ الهبوب لها صوتٌ أبلغ من صوت الرعد القاصف. ﴿عاتيةٍ﴾؛ أي: عتت على خزَّانها على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عادٍ، وزادت على الحدِّ كما هو الصحيح.

﴿٧﴾ ﴿سخَّرَها عليهم سبعَ ليال وثمانية أيَّام حسوماً﴾؛ أي: نحساً وشرًّا فظيعاً عليهم فدمَّرتهم وأهلكتهم؛ ﴿فترى القومَ فيها صَرْعى﴾؛ أي: هَلكى موتى، ﴿كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾؛ أي: كأنهم جذوعُ النخل التي قد قُطِّعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض.

﴿٨﴾ ﴿فهل ترى لهم من باقيةٍ﴾؟: وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي المتقرِّر.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾[٤] فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٩ ـ ١٠﴾ أي: وكذٰلك غير هاتين الأمَّتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطُّغاة العتاة؛ كفرعون مصر الذي أرسل اللّه إليه عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأراهم من الآيات البيِّنات ما تيقَّنوا بها الحقَّ، ولٰكن جحدوا وكفروا ظلماً وعلوًّا، وجاء من قبله من المكذِّبين ﴿والمؤتفكات﴾؛ أي: قرى قوم لوطٍ؛ الجميع جاؤوا ﴿بالخاطئة﴾؛ أي: بالفعلة الطاغية، وهو الكفر والتكذيب والظُّلم والمعاندة وما انضمَّ إلى ذٰلك من أنواع المعاصي[٥] والفسوق، ﴿فعصَوْا

---

(١) في (ب): «أخبرهم به». (٢) في (ب): «المعجل».

(٣) في (ب): «انصدعت منها قلوبهم».

(٤) في ( أ ): إلى قوله: ﴿أذنٌ واعية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٥) في (ب): «الفواحش».

رسولَ ربِّهم﴾: وهٰذا اسم جنس؛ أي: كلٌّ من هٰؤلاء كذَّبوا الرسول الذي أرسله اللّه إليهم[١]؛ فأخذ اللّهُ الجميع ﴿أخذةً رابيةً﴾؛ أي: زائدة على الحدِّ والمقدار الذي يحصُلُ به هلاكهم.

﴿١١ ـ ١٢﴾ ومن جملة هٰؤلاء[٢] قومُ نوح؛ أغرقهم اللّه في اليمِّ حين طغى الماءُ على وجه الأرض[٣] وعلا على مواضعها الرفيعة، وامتنَّ اللّه على الخلق الموجودين بعدَهم أن[٤] حملهم ﴿في الجاريةِ﴾، وهي السفينة؛ في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجَّاهم اللّه؛ فاحمدوا اللّه واشكروا الذي نجَّاكم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياتِهِ الدالَّة على توحيده، ولهٰذا قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾؛ أي: الجارية، والمراد جنسها [لكم] ﴿تذكرةً﴾: تذكِّركم أول سفينةٍ صُنِعَتْ وما قصَّتها، وكيف نجَّى اللّه عليها مَنْ آمن به واتَّبع رسوله وأهلك أهل الأرض كلَّهم؛ فإنَّ جنس الشيء مذكِّرٌ بأصله. وقوله: ﴿وتَعِيها أذنٌ واعيةٌ﴾؛ أي: يعقلها[٥] أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها. وهٰذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهلِ البلادة وعدم الفطنة؛ فإنَّهم ليس لهم انتفاعٌ بآيات اللّه؛ لعدم وعيهم عن اللّه وتفكُّرهم بآياته[٦].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ[٧] ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٣ ـ ١٨﴾ لمَّا ذكر تعالى ما فعله بالمكذِّبين لرسله، وكيف جازاهم وعجَّل لهم العقوبة في الدُّنيا، وأنَّ اللّه نجَّى الرسل وأتباعهم؛ كان هٰذا مقدِّمةً للجزاء[٨] الأخرويِّ وتوفيةَ الأعمال كاملةً يوم القيامةِ، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامةِ، وأنَّ أوَّل ذٰلك أنَّه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ ـ إذا تكاملتِ الأجسادُ نابتةً ـ نفخةً واحدةً؛ فتخرج الأرواح، فتدخلُ كلُّ روح في جسدها؛ فإذا الناس قيامٌ لربِّ

(١) في (ب): «إليه».
(٢) في (ب): «أولئك».
(٣) في (ب): «طغى في الأرض».
(٤) في (ب): «أن الله».
(٥) في (ب): «تعقلها».
(٦) في (ب): «وفكرهم بآيات الله».
(٧) في ( أ ): إلى قوله: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٨) في (ب): «مقدمة لذكر الجزاء».

العالمين، ﴿وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكةً واحدةً﴾؛ أي: فتّتت الجبال، واضمحلَّت وخلطت بالأرض، ونُسِفَتْ عليها(١)، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. هٰذا ما يُصنع بالأرض وما عليها، وأمَّا ما يُصنع بالسماء؛ فإنَّها تضطرب وتمور وتشقَّق(٢) ويتغيَّر لونُها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمرٍ عظيم أزعجها وكربٍ جسيم هائل أوهاها وأضعفها، ﴿والمَلَكُ﴾؛ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائِها﴾؛ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربِّهم، مستكينين لعظمته، ﴿ويحمِلُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذٍ ثمانيةٌ﴾: أملاكٌ في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهٰذا قال: ﴿يومئذٍ تُعْرَضون﴾: على اللّه، ﴿لا تَخْفى منكم خافيةٌ﴾: لا من أجسادكم وذواتكم(٣)، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإنَّ اللّه تعالى عالمُ الغيب والشهادة، ويحشُرُ العباد حفاةً عراةً غُرلاً في أرض مستويةٍ يسمِعُهم الدَّاعي ويَنْفُذُهم البصرُ، فحينئذٍ يجازيهم بما عملوا، ولهٰذا ذَكَرَ كيفيةَ الجزاءِ، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ(٤) فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ وهٰؤلاء هم أهل السعادة؛ يُعْطَوْن كُتُبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم وتنويهاً بشأنهم ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدُهم عند ذٰلك من الفرح والسرور ومحبَّة أن يطَّلع الخلق على ما منَّ اللّه عليه به من الكرامة: ﴿هاؤمُ اقرؤوا كتابِيَهْ﴾؛ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه؛ فإنَّه يبشِّر بالجنَّات وأنواع الكرامات ومغفرة الذُّنوب وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هٰذه الحال ما منَّ اللّه به عليَّ(٥) من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهٰذا قال: ﴿إنِّي ظننتُ أنِّي ملاقٍ حسابِيَهْ﴾؛ أي: أيقنتُ؛ فالظنُّ هنا بمعنى اليقين.

---

(١) في (ب): «ونسفت على الأرض». (٢) في (ب): «وتتشقَّق».
(٣) في (ب): «لا من أجسامكم وأجسادكم».
(٤) في ( أ ): إلى قوله: ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «عليَّ به».

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿فهو في عيشةٍ راضيةٍ﴾؛ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها، ﴿في جنةٍ﴾: عاليةِ المنازل والقصور عالية المحلِّ، ﴿قطوفُها دانيةٌ﴾؛ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبةٌ سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلُها قياماً وقعوداً ومتّكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾؛ أي: من كلِّ طعام لذيذٍ وشرابٍ شهيٍّ، ﴿هنيئاً﴾؛ أي: تامًّا كاملاً من غير مكدِّرٍ ولا منغِّصٍ. وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفْتُم في الأيّام الخالية﴾: من الأعمال الصالحة ـ وترك الأعمال السيِّئة ـ من صلاةٍ وصيام وصدقةٍ وحجٍّ وإحسانٍ إلى الخلق وذكر للّه وإنابةٍ إليه؛ فالأعمال جعلها اللّه سبباً لدخول الجنة ومادَّةً لنعيمها وأصلاً لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ[1] ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٩﴾ هؤلاء هم أهل الشقاء؛ يعطَوْن كتبهم المشتملة على أعمالهم السيِّئة[2] بشمالهم؛ تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحةً، فيقول أحدُهم من الهمِّ والغمِّ والحزن[3]: ﴿يا ليتني لم أوتَ كتابِيَهْ﴾؛ لأنَّه يبشر بدخول النار والخسارة الأبديَّة، ﴿ولم أدرِ ما حسابِيَهْ﴾؛ أي: ليتني كنت نسياً منسيًّا ولم أُبعَثْ وأحاسب، ولهذا قال: ﴿يا ليتَها كانتِ القاضيةَ﴾؛ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بَعْثَ بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه؛ فإذا هو وبالٌ عليه لم يقدِّم منه لآخرته ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً[4]، فيقول: ﴿ما أغنى عنِّي مالِيَهْ﴾؛ أي: ما نفعني لا في الدُّنيا ـ لم أقدِّم منه شيئاً ـ ولا في الآخرة؛ قد ذهب وقت نفعه، ﴿هلك عني

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «يعطون كتب أعمالهم السيئة». (٣) في (ب): «والخزي».

(٤) في (ب): «ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله».

سُلطانِيَهْ﴾؛ أي: ذهب واضمحلَّ، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العُدَدُ[١] ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح.

﴿٣٠ ـ ٣٧﴾ فحينئذٍ يؤمَر بعذابه، فيقال للزَّبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُذوه فغُلُّوه﴾؛ أي: اجعلوا في عنقه غلًّا يخنقه، ﴿ثم الجَحيم صَلُّوه﴾؛ أي: قلِّبوه على جمرها ولهبها، ﴿ثم في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً﴾: من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فاسْلُكوه﴾؛ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ويعلَّق فيها فلا يزال يعذَّب هذا العذاب الفظيع؛ فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من التوبيخ والعتاب؛ فإنَّ السبب الذي أوصله إلى هذا المحلِّ ﴿إنَّه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾: بأن كان كافراً بربِّه معانداً لرسله رادًّا ما جاؤوا به من الحقِّ، ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾؛ أي: ليس في قلبه رحمةٌ يرحم بها الفقراء والمساكين؛ فلا يطعمهم من ماله ولا يحضُّ غيره على إطعامهم؛ لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأنَّ مدار السعادة ومادَّتها أمران: الإخلاص لله الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوَّتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان؛ فلذلك استحقُّوا ما استحقُّوا. ﴿فليس له اليومَ ها هنا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿حميمٌ﴾؛ أي: قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب الله أو يفوز بثوابه[٢]. ﴿ولا تنفعُ الشفاعة عندَه إلَّا لمن أذن له﴾، ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾. وليس له ﴿طعامٌ إلَّا من غِسْلينَ﴾: وهو صديدُ أهل النار، الَّذي هو في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم[٣]، لا يأكل هذا الطعامَ الذميم ﴿إلَّا الخاطئونَ﴾، الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا كلَّ طريق يوصِلُهم إلى الجحيم[٤]؛ فلذلك استحقُّوا العذاب الأليم.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ[٥] ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ

---

(١) في (ب): «فلم تنفع الجنود الكثيرة ولا العُدَدُ الخطيرة».
(٢) في (ب): «بثواب الله».
(٣) في (ب): «في غاية الحرارة ونتن الريح وقبح الطعم ومرارته».
(٤) في (ب): «وسلكوا سبل الجحيم».
(٥) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٣٨ ـ ٤٣﴾ أقسم تعالى بما يُبْصِرُ الخلقُ من جميع الأشياء وما لا يبصِرونه، فدخل في ذٰلك كلُّ الخلق، بل دخل[١] في ذٰلك نفسُه المقدَّسة، على صدق الرسول بما جاء به من هٰذا القرآن الكريم، وأنَّ الرسول الكريم بلَّغه عن الله تعالى، ونزَّه اللهُ رسولَه عمَّا رماه به أعداؤه من أنَّه شاعرٌ أو ساحرٌ، وأنَّ الذي حملهم على ذٰلك عدم إيمانهم وتذكُّرهم؛ فلو آمنوا وتذكَّروا ما ينفعهم ويضرُّهم، ومن ذٰلك أن ينظروا في حال محمدٍ ﷺ ويرمُقوا أوصافه وأخلاقه ليروا أمراً مثل الشمس يدلُّهم على أنَّه رسول الله حقًّا وأن ما جاء به ﴿تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾، لا يَليقُ أن يكون قولاً للبشر، بل هو كلامٌ دالٌّ على عظمة من تكلَّم به وجلالة أوصافه وكمال تربيته للخلق[٢] وعلوِّه فوق عباده. وأيضاً؛ فإنَّ هٰذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته.

﴿٤٤ ـ ٤٧﴾ فإنه ﴿لو تقوَّل﴾: عليه وافترى ﴿بعض الأقاويل﴾: الكاذبة، ﴿لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتينَ﴾: وهو عرقٌ متصلٌ بالقلب إذا انقطع هلك[٣] منه الإنسان؛ فلو قدِّر أنَّ الرسول ـ حاشا وكلا ـ تقوَّل على الله؛ لعاجَلَه بالعقوبة وأخذَه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ؛ لأنَّه حكيمٌ قديرٌ على كلِّ شيءٍ[٤]؛ فحكمته تقتضي أن لا يُمْهِلَ الكاذب عليه الذي يزعم أنَّ الله أباح له دماء مَنْ خالفه وأموالهم، وأنَّه هو وأتباعه لهم النجاةُ، ومَنْ خالفَه؛ فله الهلاكُ. فإذا كان الله قد أيَّد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البيِّنات، ونصره على أعدائه، ومكَّنه من نواصيهم؛ فهو أكبر شهادةٍ منه على رسالته. وقوله: ﴿فما منكم من أحدٍ عنه حاجزينَ﴾؛ أي: لو أهلكه؛ ما امتنعَ هو بنفسه ولا قَدَرَ أحدٌ أن يمنعه من عذاب الله.

﴿٤٨﴾ ﴿وإنَّه﴾؛ أي: القرآن الكريم، ﴿لتذكرةٌ للمتَّقين﴾: يتذكَّرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكِّرهم العقائد الدينيَّة والأخلاق المرضيَّة

---

(١) في (ب): «بل يدخل». (٢) في (ب): «العباده».
(٣) في (ب): «مات».
(٤) في (ب): «لأنه حكيم. على كلِّ شيءٍ قدير».

والأحكام الشرعيَّة، فيكونون من العلماء الربانيِّين، والعباد العارفين، والأئمَّة المهديِّين.

﴿٤٩﴾ ﴿وإنَّا لَنَعْلَمُ أنَّ منكم مكذِّبين﴾: به، وهٰذا فيه تهديدٌ ووعيدٌ للمكذِّبين، وأنَّه[1] سيعاقِبُهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

﴿٥٠﴾ ﴿وإنَّه لحسرةٌ على الكافرين﴾: فإنَّهم لما كفروا به ورأوا ما وَعَدَهم به؛ تحسَّروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشدِّ العذاب، وتقطَّعت بهم الأسباب.

﴿٥١﴾ ﴿وإنَّه لحقُّ اليقين﴾؛ أي: أعلى مراتب العلم؛ فإنَّ أعلى مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. واليقين مراتبه ثلاثةٌ، كلُّ واحدة أعلى مما قبلها: أولُها علم اليقين، وهو العلمُ المستفاد من الخبر. ثم عينُ اليقين، وهو العلم المدرَك بحاسة البصر. ثم حقُّ اليقين، وهو العلم المدرَك بحاسَّة الذوق والمباشرة. وهٰذا القرآن بهٰذا الوصف؛ فإنَّ ما فيه من العلوم المؤيَّدة بالبراهين القطعيَّة وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانيَّة يحصُلُ به لمن ذاقه حقُّ اليقين.

﴿٥٢﴾ ﴿فسبِّح باسم ربِّك العظيم﴾؛ أي: نزِّههُ عما لا يَليق بجلاله، وقدِّسْه بذِكْرِ أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة. والحمد للّٰه رب العالمين[2].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة سأل سائل

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

(١) في (ب): «فإنه».

(٢) في (ب): «والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على كماله وإفضاله وعدله».

﴿١ ـ ٤﴾ يقول تعالى مبيِّناً لجهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله استهزاءً وتعنُّتاً وتعجيزاً: ﴿سأل سائلٌ﴾ أي: دعا داعٍ واستفتح مستفتح، ﴿بعذابٍ واقعٍ للكافرينَ﴾: لاستحقاقهم له بكفرِهم وعنادِهم. ﴿ليس له دافع من الله﴾؛ أي: ليسَ لهٰذا العذاب الذي استعجلَ به مَنِ استعجلَ من متمرِّدي المشركين أحدٌ يدفعه قبل نزوله أو يرفعه بعد نزوله، وهٰذا حين دعا النَّضر بن الحارث القرشيُّ أو غيره من المكذِّبين[١]، فقال: ﴿اللهمَّ إنْ كان هٰذا هو الحقَّ من عندِكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم. . .﴾ [إلى آخر الآيات]؛ فالعذابُ لا بدَّ أن يقع عليهم من الله؛ فإمَّا أن يُعَجَّلَ لهم في الدُّنيا، وإمَّا أن يُدَّخَرَ[٢] لهم في الآخرة؛ فلو عرفوا الله وعرفوا عظمته وسعة سلطانه وكمال أسمائِهِ وصفاتِهِ؛ لما استعجلوا، ولاستسلموا وتأدَّبوا، ولهٰذا ذكر تعالى من عظمته ما يضادُّ أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذي المعارج. تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوح إليه﴾؛ أي: ذي العلوِّ والجلال والعظمة والتَّدبير لسائر الخلق، الذي تَعْرُجُ إليه الملائكة بما جعلها[٣] على تدبيره، وتَعْرُجُ إليه الرُّوح، وهٰذا اسم جنس يشمل الأرواح كلَّها؛ بَرَّها وفاجِرَها، وهٰذا عند الوفاة، فأمَّا الأبرار؛ فتعرج أرواحُهم إلى الله، فيؤذن لهم من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها اللهُ عزَّ وجلَّ، فتحيي ربَّها وتسلِّم عليه وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنوِّ منه، ويحصُلُ لها منه الثناء والإكرام والبرُّ والإعظام، وأمَّا أرواحُ الفجَّار؛ فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء؛ استأذنتْ، فلا[٤] يؤذَنُ لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافةَ التي تَعْرُجُ فيها الملائكةُ والرُّوح[٥] إلى الله، وأنَّها تعرج في يوم بما يَسَّر لها من الأسباب وأعانها عليه من اللَّطافة والخفَّة وسرعة السير، مع أنَّ تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنةٍ، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى؛ فهٰذا المُلْك العظيم والعالم الكبير علويُّه وسفليُّه جميعه قد تولَّى خلقه وتدبيره العليُّ الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، [وَعَلِمَ] مستقرَّهم ومستودَعهم، وأوصلهم من رحمته وبرِّه وإحسانه[٦] ما عمَّهم وشَمَلَهم، وأجرى عليهم حكمه القدريَّ وحكمه الشرعيَّ

---

(١) في (ب): «المشركين».
(٢) في (ب): «يؤخر».
(٣) في (ب): «بما دبرها».
(٤) في (ب): «فلم يُؤذنْ».
(٥) في (ب): «والأرواح».
(٦) في (ب): «ورزقه».

وحكمه الجزائيَّ؛ فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته ولم يقدروه حقَّ قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان. وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذَوْه فصبر عليهم وعافاهم ورزَقَهم!

هٰذا أحدُ الاحتمالات في تفسير هٰذه الآية الكريمة، فيكون هٰذا العروجُ والصعودُ في الدنيا؛ لأنَّ السِّياق الأول يدلُّ عليه[1]. ويُحتمل أنَّ هٰذا في يوم القيامةِ، وأنَّ الله [تبارك و] تعالى يظهِرُ لعباده في يوم القيامةِ من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفتِهِ مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدةً ونازلةً بالتدابير الإلٰهيّة والشؤون الربَّانيَّة[2] في ذلك اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة من طوله وشدَّته، لٰكنَّ الله تعالى يخفِّفه على المؤمن.

﴿٥ ـ ٧﴾ وقوله: ﴿فاصْبِرْ صبراً جميلاً﴾؛ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تَضَجُّرَ فيه ولا ملل، بل استمرَّ على أمر الله، وادعُ عباده إلى توحيده، ولا يمنعْك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم؛ فإنَّ في الصَّبر على ذٰلك خيراً كثيراً. ﴿إنَّهم يرونَه بعيداً ونراه قريباً﴾: الضمير يعود إلى البعث الذي فيه عذابُ السائلين بالعذاب؛ أي: إنَّ حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشِّقْوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً؛ لأنَّه رفيقٌ حليمٌ لا يَعْجَلُ، ويعلم أنَّه لا بدَّ أن يكون، و[كلُّ] ما هو آتٍ فهو قريبٌ.

ثم ذكر أهوال ذٰلك اليوم وما [يكون] فيه، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ[3] ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿٨ ـ ٩﴾ أي: ﴿يوم﴾ القيامة تقع فيه هٰذه الأمور العظيمة ﴿تكونُ السماءُ كالمُهْلِ﴾: وهو الرصاص المذاب من تشقُّقها وبلوغ الهول منها كلَّ مبلغ، ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ﴾: وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذٰلك هباءً منثوراً فتضمحلُّ.

---

(١) في (ب): «على هذا». (٢) في (ب): «والشؤون في الخليقة».

(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿وجمع فأوعى﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ فإذا كان هٰذا الانزعاج والقلق[١] لهٰذه الأجرام الكبيرة الشديدة؛ فما ظنُّك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟! أليس حقيقياً أن ينخلِعَ قلبُه و[ينزعجَ] لبُّه ويذهلَ عن كلِّ أحدٍ؟! ولهٰذا قال: ﴿ولا يسألُ حميمٌ حميماً يُبَصَّرونَهم﴾؛ أي: يشاهدُ الحميمُ ـ وهو القريب ـ حميمَه؛ فلا يبقى في قلبه متَّسع لسؤاله[٢] عن حاله ولا فيما يتعلَّق بعشرتهم ومودَّتهم ولا يهمُّه إلَّا نفسُه. ﴿يودُّ المجرِمُ﴾: الذي حقَّ عليه العذاب ﴿لو يفتدي من عذاب يومِئِذٍ ببنيه. وصاحبتِهِ﴾؛ أي: زوجته، ﴿وأخيه. وفصيلته﴾؛ أي: قرابته، ﴿التي تؤويه﴾؛ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصَرَ ويعينَ بعضها بعضاً؛ ففي [يوم] القيامةِ لا ينفع أحدٌ أحداً، ولا يشفع أحدٌ إلَّا بإذن الله، بل لو يفتدي المجرمُ المستحقُّ للعذاب بجميع ما في الأرض ثم ينجيه ذٰلك؛ لم ينفعه[٣].

﴿١٥ ـ ١٨﴾ ﴿كلَّا﴾؛ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك[٤]، وذهب نفعُ الأقارب والأصدقاء، ﴿إنَّها لظى. نزاعةً للشَّوى﴾؛ أي: النار التي تتلظَّى تنزِعُ من شدَّتها للأعضاء الظاهرة والباطنة[٥]، ﴿تَدْعو﴾: إلى نفسها[٦] ﴿مَنْ أدْبَرَ وتَولَّى. وجَمَعَ فأوْعى﴾؛ أي: أدبر عن اتِّباع الحقِّ، وأعرض عنه؛ فلا غرض له فيه[٧]، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفِقْ منها ما ينفعه ويدفع عنه النار؛ فالنار تدعو هٰؤلاء إلى نفسها[٨]، وتستعدُّ للالتهاب بهم.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾[٩] إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

---

(١) في (ب): «القلق والانزعاج». (٢) في (ب): «السؤال حميمه».
(٣) في (ب): «ثم ينجيه، لم ينفعه ذلك».
(٤) في (ب): «قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون».
(٥) في (ب): «أي للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدّة عذابها».
(٦) في (ب): «تدعو إليها». (٧) في (ب): «فليس له فيه غرض».
(٨) في (ب): «فإنّ النار تدعوهم إلى نفسها».
(٩) في ( أ ): إلى قوله: ﴿في جنات مكرمون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿١٩ ـ ٢١﴾ وهٰذا الوصف للإنسان من حيث هو؛ ووَصْفُ طبيعته [الأصلية] أنَّه هلوعٌ، وفسَّر الهَلوعَ بقوله(١): ﴿إذا مسَّه الشَّرُّ جزوعاً﴾: فيجزع إن أصابه فقرٌ أو مرضٌ أو ذهابُ محبوبٍ له من مال أو أهل أو ولدٍ، ولا يستعمل في ذٰلك الصبر والرِّضا بما قضى الله، ﴿وإذا مسَّه الخير منوعاً﴾: فلا يُنْفِقُ مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبرِّه فيجزع في الضَّراء ويمنع في السَّراء.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ﴿إلَّا المصلِّين﴾: الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنَّهم إذا مسَّهم الخير؛ شكروا الله وأنفقوا مما خوَّلهم [الله]، وإذا مسَّهم الشرُّ؛ صبروا واحتسبوا. وقوله في وصفهم: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمونَ﴾؛ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكمِّلاتها، وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقتٍ، أو يفعلها على وجهٍ ناقص.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ ﴿والذين في أموالهم حقٌّ معلومٌ﴾: من زكاة وصدقة، ﴿للسائل﴾: الذي يتعرَّض للسؤال، ﴿والمحروم﴾: وهو المسكين الذي لا يسألُ الناس فيعطوه ولا يفطنُ له فيتصدَّق عليه.

﴿٢٦﴾ ﴿والذين يصدِّقون بيوم الدين﴾؛ أي: يؤمنون بما أخبر به وأخبرت به الرسلُ من الجزاء والبعث، ويتيقَّنون ذٰلك، فيستعدُّون للآخرة، ويَسْعَوْن لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ﴿والذين هم من عذاب ربِّهم مشفِقون﴾؛ أي: خائفون وجِلون، فيتركون لذٰلك كلَّ ما يقرِّبهم من عذاب الله. ﴿إنَّ عذاب ربِّهم غيرُ مأمونٍ﴾؛ أي: هو العذاب الذي يُخشى ويُحذر.

﴿٢٩ ـ ٣١﴾ ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾: فلا يطؤون بها وطئاً محرماً من زنا أو لواطٍ أو وطءٍ في دُبُرٍ أو حيضٍ ونحو ذٰلك، ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومسِّها ممَّن لا يجوز له ذٰلك، ويتركون أيضاً وسائل المحرَّمات الداعية لفعل الفاحشة، ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانُهم﴾؛ أي: سُرِّيَّاتهم، ﴿فإنَّهم غير

---

(١) في (ب): «بأنه».

ملومين﴾: في وطئهنَّ في المحلِّ الذي هو محلُّ الحرثِ. ﴿فمنِ ابتغى وراء ذلك﴾؛ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾؛ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله. ودلَّت هٰذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها غير زوجةٍ مقصودةٍ ولا ملك يمينٍ.

﴿٣٢﴾ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدِهِم راعونَ﴾؛ أي: مراعون لها حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهٰذا شاملٌ لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربِّه؛ كالتكاليف السِّرِّيَّة التي لا يطَّلع عليها إلَّا اللهُ، والأمانات التي بيْن العبد وبيْن الخلق في الأموال والأسرار، وكذٰلك العهد شاملٌ للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق عليه[1]؛ فإنَّ العهد يُسأل عنه العبد؛ هل قام به ووفَّاه أم رفضه وخانه فلم يقم به.

﴿٣٣﴾ ﴿والذين هم بشهاداتهم قائمونَ﴾؛ أي: لا يشهدون إلَّا بما يعلمونه من غير زيادةٍ ولا نقصٍ ولا كتمانٍ، ولا يحابي فيها قريباً ولا[2] صديقاً ونحوه، ويكون القصد بإقامتها[3] وجه الله؛ قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادةَ لله﴾، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوَّامينَ بالقِسطِ شهداءَ لله ولو على أنفسِكُم أوِ الوالِدَيْن والأقربين﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾: بالمداومة عليها على أكمل الوجوه[4].

﴿٣٥﴾ ﴿أولٰئك﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات، ﴿في جناتٍ مُكْرَمون﴾؛ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هٰذا أنَّ الله وصف أهل السعادة والخير بهٰذه الأوصاف الكاملة والأخلاق المرضيَّة الفاضلة من العبادات البدنيَّة؛ كالصلاة والمداومة عليها، والأعمال القلبيَّة؛ كخشية الله الداعية لكلِّ خير، والعبادات الماليَّة، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة؛ ومعاملة الله ومعاملة خلقِهِ أحسن معاملةٍ؛ من إنصافهم وحفظ حقوقهم وأماناتهم[5] والعفَّة التامَّة بحفظ الفروج عمَّا يكرهه الله تعالى.

---

(١) في (ب): «عليه الخلق».
(٢) في (ب): «أو».
(٣) في (ب): «بها».
(٤) في (ب): «بمداومتها على أكمل وجوهها».
(٥) في (ب): «وحفظ عهودهم وأسرارهم».

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ[١] ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٩﴾ يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿فمال الذين كفروا قِبلَك مُهطِعين﴾؛ أي: مسرعين، ﴿عن اليمين وعن الشمال عِزين﴾؛ أي: قطعاً متفرِّقة وجماعاتٍ متنوِّعة[٢]، كلٌّ منهم بما لديه فرحٌ. ﴿أيطمعُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُدْخَلَ جنَّةَ نعيم﴾؛ أيُّ[٣] سببٍ أطمعهم وهم لم يقدِّموا سوى الكفر والجحود لربِّ[٤] العالمين؟! ولهٰذا قال: ﴿كلَّا﴾: أي: ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما يشتهون بقوَّتهم، ﴿إنَّا خلَقْناهم ممَّا يعلمونَ﴾؛ أي: من ماء دافقٍ يخرج من بين الصُّلب والترائب؛ فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ[٥] إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ هٰذا إقسامٌ منه تعالى بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم وهم بأعيانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وننشِئُكم فيما لا تعلمونَ﴾. ﴿وما نحنُ بمسبوقينَ﴾؛ أي: ما أحدٌ يسبقنا ويفوتنا ويعجِزُنا إذا أردنا أن نعيدَه.

﴿٤٢﴾ فإذا تقرَّر البعث والجزاء، واستمرُّوا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله؛ ﴿فذَرْهم يخوضوا ويلعبوا﴾؛ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتَّعوا، ﴿حتَّى يلاقوا يومَهُمُ الذي يوعدونَ﴾: فإنَّ الله قد أعدَّ لهم فيه من النَّكال والوبال ما هو عاقبةُ خوضهم ولعبهم.

﴿٤٣ ـ ٤٤﴾ ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون، فقال: ﴿يوم

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿كلا إنا خلقناهم مما يعلمون﴾: وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «متوزعة». (٣) في (ب): «بأيّ».
(٤) في (ب): «بربّ».
(٥) في (أ): طمس، وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَخْرُجونَ من الأجداثِ﴾؛ أي: القبور ﴿سراعاً﴾: مجيبين لدعوة الداعي مهطِعين إليها، ﴿كأنَّهم إلى نُصُبٍ يوفِضونَ﴾؛ أي: كأنَّهم إلى علم يَؤُمُّون ويقصدون؛ فلا[١] يتمكَّنون من الاستعصاء على الدَّاعي ولا الالتواء عن نداء المنادي[٢]، بل يأتون أذلَّاء مقهورين للقيام بين يدي ربِّ العالمين، ﴿خاشعةً أبصارُهم ترهَقُهم ذِلَّةٌ﴾: وذٰلك أنَّ الذِّلَّة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعتْ منهم الأبصار، وسكنتِ [منهم] الحركاتُ، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل هو يومهم ﴿الذي كانوا يوعدون﴾: ولا بدَّ من الوفاء بوعد الله.

تمت. والحمد لله.

# نفسير سورة نوح عليه السلام

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ[٣] مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا
﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ
وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ
وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا
﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا
وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾
وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى

---

(١) في (ب): «أي: يؤمرون ويسرعون؛ أي: فلا».
(٢) في (ب): «والالتواء لنداء المنادي».
(٣) في ( أ ): طمس، وفي (ب) إلى آخر السورة.

وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾ ﴾.

لم يذكر الله في هٰذه السورة إلَّا[1] قصَّة نوح وحدَها؛ لطول لَبْثِهِ في قومه وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك:

﴿١﴾ فأخبر تعالى أنَّه أرسل نوحاً[2] إلى قومه رحمةً بهم وإنذاراً [لهم] من عذاب أليم؛ خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم [اللَّهُ] هلاكاً أبديًّا، ويعذِّبهم عذاباً سرمديًّا.

﴿٢ ـ ٤﴾ فامتثل نوحٌ عليه السلام لذٰلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يا قوم إنِّي لكم نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: واضح النذارة بينها، وذٰلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأيِّ شيءٍ تحصُلُ النجاة؛ بيَّن ذٰلك[3] بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بأصل ذٰلك[4]، فقال: ﴿أنِ اعبُدوا الله واتَّقوه﴾: وذٰلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد[5] والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله؛ فإنَّهم إذا اتَّقوا الله؛ غَفَرَ ذنوبهم؛ وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب والفوز بالثواب، ﴿ويؤخِّرْكم إلى أجل مسمًّى﴾؛ أي: يمتِّعكم في هٰذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى إجل مسمًّى؛ أي: مقدَّر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقتٍ محدودٍ، وليس المتاع أبداً؛ فإنَّ الموت لا بدَّ منه، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ أجَلَ الله إذا جاء لا يؤخَّرُ لو كنتُم تعلمون﴾: كما[6] كفرتُم بالله وعاندتُم الحقَّ.

﴿٥ ـ ٧﴾ فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربِّه: ﴿ربِّ إنِّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزِدْهم دعائي إلَّا فراراً﴾؛ أي: نفوراً عن الحقِّ

---

(١) في (ب): «سوى».
(٢) في (ب): «أنه أرسله».
(٣) في (ب): «بين جميع ذلك».
(٤) في (ب): «وأمرهم بزبدة ما يأمرهم به».
(٥) في (ب): «بالتوحيد والعبادة».
(٦) في (ب): «لما».

وإعراضاً، فلم يبق لذٰلك فائدةٌ؛ لأنَّ فائدة الدَّعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، ﴿وإنِّي كلَّما دعوتُهم لتغفرَ لهم﴾؛ أي: لأجل أن يستجيبوا؛ فإذا استجابوا؛ غفرتَ لهم، وهٰذا[١] محضُ مصلحتهم، ولٰكن[٢] أبوا إلَّا تمادياً على باطلهم ونفوراً عن الحقِّ، ﴿جعلوا أصابِعَهم في آذانهم﴾؛ حَذَرَ سماع ما يقول لهم نبيُّهم نوحٌ عليه السلام، ﴿واستَغْشَوا ثيابَهم﴾؛ أي: تغطوا بها غطاءً يغشاهم بعداً عن الحقِّ وبغضاً له، ﴿وأصرُّوا﴾: على كفرهم وشرِّهم، ﴿واستَكْبَروا﴾: على الحقِّ ﴿استِكْباراً﴾: فشرهم ازداد وخيرهم بعد.

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿ثم إنِّي دعوتُهم جهاراً﴾؛ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثم إنِّي أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسراراً﴾: كل هٰذا حرصٌ ونصحٌ، وإتيانهم بكلِّ طريق يظنُّ به حصول المقصود[٣].

﴿١٠ ـ ١٢﴾ ﴿فقلتُ استَغْفِروا ربَّكم﴾؛ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب واستغفروا الله منها؛ ﴿إنَّه كان غفاراً﴾: كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغَّبهم بمغفرة الذُّنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب، ورغَّبهم أيضاً بخير الدُّنيا العاجل، فقال: ﴿يرسِلِ السماءَ عليكم مِدراراً﴾؛ أي: مطراً متتابعاً يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد، ﴿ويُمْدِدْكُم بأموال وبنينَ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدُّنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً﴾: وهٰذا من أبلغ ما يكون من لَذَّاتِ الدُّنيا ومطالبها.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ﴿ما لكم لا ترجونَ لله وَقاراً﴾؛ أي: لا تخافون لله عظمةً وليس لله عندكم قَدْرٌ، ﴿وقد خَلَقَكم أطواراً﴾؛ أي: خلقاً من بعد خلقٍ في بطن الأمِّ ثم في الرَّضاع ثم في سنِّ الطفوليَّة ثم التمييز ثم الشباب ثم إلى آخر ما يصل[٤] إليه الخلق؛ فالذي انفردَ بالخَلْق والتَّدبير البديع متعيَّنٌ أن يُفْرَدَ بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيهٌ لهم على المعاد[٥]، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم قادرٌ على أن يعيدَهم بعد موتهم.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ واستدلَّ أيضاً[٦] بخلقِ السماواتِ التي هي أكبر من خلق الناس،

---

(١) في (ب): «فكان هذا».
(٢) في (ب): «ولكنهم».
(٣) في (ب): «وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود».
(٤) في (ب): «وصل».
(٥) في (ب): «تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد».
(٦) في (ب): «واستدلَّ أيضاً عليهم».

فقال: ﴿ألم تَرَوْا كيف خَلَقَ الله سبع سمٰواتٍ طباقاً﴾؛ أي: كلّ سماءٍ فوق الأخرى، ﴿وجعل القمر فيهنَّ نوراً﴾: لأهل الأرض، ﴿وجعل الشمسَ سِراجاً﴾: ففيه تنبيهٌ على عظم خلق هٰذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر، الدالَّة على رحمة الله[(١)] وسعة إحسانه؛ فالعظيم الرحيم يستحقُّ أن يعظَّم ويُحبَّ[(٢)] ويُخاف ويُرجى.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿والله أنبتَكم من الأرض نباتاً﴾: حين خلق أباكم آدمَ وأنتم في صلبِهِ، ﴿ثم يعيدُكم فيها﴾: عند الموت، ﴿ويخرِجُكم إخراجاً﴾: للبعث والنشور؛ فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾؛ أي: مبسوطةً مهيئة للانتفاع بها، ﴿لِتَسْلُكوا منها سُبُلاً فِجاجاً﴾: فلولا أنَّه بسطها؛ لما أمكن ذٰلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها.

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿قال نوحٌ﴾: شاكياً لربِّه: إنَّ هٰذا الكلام والوعظ والتَّذكير ما نَجَعَ فيهم ولا أفاد: ﴿إنَّهم عَصَوْني﴾: فيما أمرتُهم به، ﴿واتَّبعوا مَنْ لم يَزِده مالُه وولدُه إلَّا خساراً﴾؛ أي: عَصَوُا الرسول الناصح الدالَّ على الخير، واتَّبعوا الملأ والأشراف الذين لم تَزِدْهم أموالُهم ولا أولادُهم إلَّا خساراً؛ أي: هلاكاً وتفويتاً للأرباح؛ فكيف بِمَنِ انقادَ لهم وأطاعهم؟! ﴿ومكروا مَكْراً كُبَّاراً﴾؛ أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحقِّ. قالوا لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لا تَذَرُنَّ آلهتكم﴾: فدعوهم إلى التعصُّب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يَدَعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عيَّنوا آلهتهم، فقالوا: ﴿ولا تَذَرُنَّ ودًّا ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويعوقَ ونَسْراً﴾: وهٰذه أسماء رجال صالحين؛ لما ماتوا؛ زيَّن الشيطان لقومهم أن يصوِّروا صورهم؛ لينشطوا بزعمهم على الطاعةِ إذا رأوها، ثم طال الأمدُ، وجاء غير أولٰئك، فقال لهم الشيطانُ: إنَّ أسلافكم يعبدونهم ويتوسَّلون بهم، وبهم يُسْقَوْن المطر، فعبدوهم، ولهٰذا وصَّى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يَدَعوا عبادة هٰذه الأصنام[(٣)]، ﴿وقد أضلُّوا كثيراً﴾؛ أي: أضلَّ الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق. ﴿ولا تزدِ الظالمينَ إلَّا ضلالاً﴾؛ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إيَّاهم للحقِّ[(٤)]؛ لكان مصلحةً، ولٰكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلَّا ضلالاً؛ أي: فلم يبق محلٌّ لنجاحهم وصلاحهم.

---

(١) في (ب): «على رحمته».
(٢) في (ب): «ويحب ويعبد ويخاف..».
(٣) في (ب): «الآلهة».
(٤) في (ب): «بحق».

﴿٢٥﴾ ولهٰذا ذكر الله عذابَهم وعقوبتهم الدنيويَّة والأخرويَّة، فقال: ﴿مِمَّا خطيئاتِهِم أغرِقوا﴾: في اليمِّ الذي أحاط بهم، ﴿فأدْخِلوا ناراً﴾: فذهبت أجسادُهم في الغرق وأرواحُهم للنار والحرق. وهٰذا كلُّه بسبب خطيئاتهم التي أتاهم نبيُّهم [نوح] ينذِرُهم عنها ويخبِرُهم بشؤمها ومغبَّتها، فرفضوا ما قال، حتى حلَّ بهم النَّكال، ﴿فلم يجِدوا لهم من دونِ الله أنصاراً﴾: ينصُرونهم حين نزل بهم الأمرُ الأمرُّ، ولا أحد يقدر يعارِضُ القضاء والقدر.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ ﴿وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين ديَّاراً﴾: يدور على وجه الأرض. وذكر السبب في ذٰلك، فقال: ﴿إنَّك إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادك ولا يَلِدوا إلَّا فاجراً كفَّاراً﴾؛ أي: بقاؤهم مفسدةٌ محضةٌ لهم ولغيرهم، وإنَّما قال نوحٌ ذٰلك؛ لأنَّه مع كثرة مخالطته إيَّاهم ومزاولته لأخلاقهم؛ علم بذٰلك نتيجة أعمالهم؛ فلهٰذا استجاب الله له دعوته[1] فأغرقهم أجمعين، ونجَّى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿٢٨﴾ ﴿ربِّ اغفِرْ لي ولوالديَّ ولِمَنْ دَخَلَ بيتي مؤمناً﴾: خصَّ المذكورين لتأكُّد حقِّهم وتقديم برِّهم، ثم عمَّم الدُّعاء، فقال: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزِدِ الظالمينَ إلا تَباراً﴾؛ أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح. والحمد لله[2].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة قل أوحي إليّ

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيُّها الرسول للناس، ﴿أوحِيَ إليَّ أنَّه استمع نفرٌ من الجنِّ﴾: صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته؛ لتقوم عليهم الحجَّة وتتمَّ عليهم

(١) في (ب): «لا جرم أنّ الله استجاب دعوته».
(٢) في (ب): «تمّ تفسير سورة نوح عليه السلام».

النعمة ويكونوا منذِرين[1] لقومهم، وأمر [اللّهُ] رسولَه أن يقصَّ نبأهم على الناس، وذٰلك أنَّهم لما حضروه؛ قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا؛ فهموا معانيه ووصلت حقائقُه إلى قلوبهم. ﴿فقالوا إنَّا سمِعْنا قرآناً عَجَباً﴾؛ أي: من العجائب الغالية والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يهدي إلى الرُّشْدِ﴾: والرُّشدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فآمنَّا به ولن نُشْرِكَ بربِّنا أحداً﴾: فجمعوا بين الإيمان الذي يدخُلُ فيه جميع أعمال الخير، وبين التَّقوى المتضمِّنة لترك الشرِّ، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضارِّ؛ فإنَّ ذٰلك آيةٌ عظيمةٌ وحجَّةٌ قاطعةٌ لمن استنار به واهتدى بهديه، وهٰذا الإيمانُ النافع المثمر لكلِّ خير، المبنيُّ على هداية القرآن؛ بخلاف إيمان العوائد والمَرْبى والإلف ونحو ذٰلك؛ فإنَّه إيمانُ تقليدٍ تحت خطر الشُّبُهات والعوارض الكثيرة.

[﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾][2].

﴿٣﴾ ﴿وأنَّه تعالى جَدُّ ربِّنا﴾؛ أي: تعالت عظمتُه وتقدَّسَتْ أسماؤه، ﴿ما اتَّخذ صاحبةً ولا ولداً﴾: فعلموا من جَدِّ الله وعظمتِهِ ما دلَّهم على بطلان مَنْ يزعُمُ أنَّ له صاحبةً أو ولداً؛ لأنَّ له العظمة والجلال[3] في كلِّ صفة كمال، واتِّخاذُ الصاحبة والولد ينافي ذٰلك؛ لأنَّه يضادُّ كمال الغنى.

﴿٤﴾ ﴿وأنَّه كان يقولُ سفيهُنا على الله شططاً﴾؛ أي: قولاً جائراً عن الصواب متعدياً للحدِّ، وما حمله على ذٰلك إلَّا سفهُه وضعفُ عقله، وإلَّا؛ فلو كان رزيناً مطمئناً؛ لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

﴿٥﴾ أي: كنَّا مغترِّين قبل ذٰلك، غرَّتنا السادة[4] والرؤساء من الجنِّ والإنس، فأحسنَّا بهم الظنَّ، وحسبناهم[5] لا يتجرؤون على الكذب على الله؛ فلذٰلك كنَّا

(١) في (ب): «نذاراً».
(٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٣) في (ب): «الكمال».
(٤) في (ب): «غرّنا القادة...».
(٥) في (ب): «وظنناهم».

قبل ذٰلك على طريقهم؛ فاليوم إذ بان لنا الحقُّ؛ سلكنا طريقه[١]، وانقَدْنا له، ولم نبالِ بقول أحدٍ من الخلق[٢] يعارض الهدى.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

﴿٦﴾ أي: كان الإنس يعوذون بالجنّ[٣] عند المخاوف والأفزاع ويعبُدونهم، فزاد الإنسُ الجنَّ رهقاً؛ أي: طغياناً وتكبراً، لمَّا رأوا الإنس يعبدونَهم ويستعيذون بهم، ويُحتمل أنَّ الضمير وهي الواو ترجع[٤] إلى ﴿الجنّ﴾؛ أي: زاد الجنُّ الإنسَ ذُعْراً وتخويفاً لما رأوْهم يستعيذون بهم ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسُّك بما هم عليه، فكان الإنسيُّ إذا نزل بوادٍ مخوفٍ؛ قال: أعوذ بسيِّد هٰذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾.

﴿٧﴾ أي: فلمَّا أنكروا البعث؛ أقدموا على الشرك والطغيان.

[﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾][٥].

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿وأنَّا لمسنا السماءَ﴾؛ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فوجَدْناها مُلِئَتْ حرساً شديداً﴾: عن الوصول إلى أرجائها والدنوِّ منها، ﴿وشُهُباً﴾: يرمى بها من استرقَ السمعَ، وهٰذا مخالفٌ لعادتنا[٦] الأولى؛ فإنَّا كنَّا نتمكَّن من الوصول إلى خبر السماء فإنا ﴿كنَّا نقعدُ منها مقاعدَ للسمع﴾: فنتلقَّف من أخبار السماء ما شاء اللّه، ﴿فمن يستمِع الآنَ يَجِدْ له شهاباً رصداً﴾؛ أي: مرصداً له معدًّا لإتلافه وإحراقه؛ أي: وهٰذا له شأنٌ عظيمٌ ونبأٌ جسيمٌ، وجزموا أنَّ اللّه تعالى أراد أن يحدِثَ في الأرض حادثاً كبيراً من خيرٍ أو شرٍّ؛ فلهٰذا قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾.

---

(١) في (ب): «إذ بان لنا الحق؛ رجعنا إليه..».
(٢) في (ب): «من الناس».
(٣) في (ب): «يعبدون الجن ويستعيذون بهم».
(٤) في (ب): «ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن، ضمير الواو».
(٥) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٦) في (ب): «وهذا بخلاف عادتنا».

﴿١٠﴾ أي: لا بدَّ من هٰذا أو هٰذا؛ لأنَّهم رأوا الأمر تغيَّر عليهم تغيُّراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أنَّ هٰذا الأمر يريده الله ويحدِثُه في الأرض، وفي هٰذا بيانٌ لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشرُّ حذفوا فاعله تأدُّباً [مع الله].

[﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾](1).

﴿١١﴾ ﴿وأنَّا منَّا الصالحون ومنَّا دون ذٰلك﴾؛ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كنَّا طرائِقَ قِدَداً﴾؛ أي: فرقاً متنوعةً وأهواءً متفرقةً؛ كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ أي: وأنَّا في وقتنا الآن تبيَّن لنا كمال قدرة الله وكمال عجزنا، وأنَّ نواصينا بيد الله؛ فلن نعجِزَه في الأرض ولن نعجِزَه إنْ هَرَبْنا وسَعَيْنا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلَّا إليه.

[﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ﴿١٤﴾﴾](2).

﴿١٣﴾ ﴿وأنَّا لـمَّا سمِعنا الهدى﴾: وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده؛ أثَّر في قلوبنا، فآمنَّا به، ثم ذكروا ما يرغِّب المؤمن، فقالوا: ﴿فمن يؤمِن بربِّه فلا يخافُ بخساً ولا رَهَقاً﴾؛ أي: من آمن به إيماناً صادقاً؛ فلا عليه نقصٌ(3) ولا أذىً يلحقُه، وإذا سَلِمَ من الشرِّ؛ حصل له الخيرُ؛ فالإيمان سببٌ داعٍ إلى [حصول] كلِّ خيرٍ وانتفاء كلِّ شرٍّ.

﴿١٤﴾ ﴿وأنَّا منَّا المسلمونَ ومنَّا القاسطونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم، ﴿فمَنْ أسلم فأولٰئك تَحَرَّوْا رَشَداً﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ﴿١٥﴾ [وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾﴾](2).

---

(١) الآية زيادة لا توجد في النسختين. (٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

(٣) في (ب): «﴿فمن يؤمن بربِّه﴾ إيماناً صادقاً ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾؛ أي: لا نقصاً ولا طغياناً».

﴿١٥ ـ ١٧﴾ ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾: وذلك جزاءً على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنَّهم ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾: المثلى، ﴿لأسقيناهم ماءً غدقا﴾؛ أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعهم ذلك إلَّا ظلمهم وعدوانهم، ﴿لنفتنهم فيه﴾؛ أي: لنختبرهم [فيه] ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ومن يعرض عن ذكر ربِّه يسلكه عذاباً صعدا﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه، فلم يتَّبعه وينقذ له، بل لها عنه وغفل[(١)]؛ يسلكه عذاباً صعداً؛ أي: بليغاً شديداً[(٢)].

[﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾][(٣)].

﴿١٨﴾ ﴿وأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾؛ أي: لا دعاء عبادةٍ ولا دعاء مسألةٍ؛ فإنَّ المساجد التي هي أعظم محالِّ العبادة مبنيَّةٌ على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزَّته.

﴿١٩﴾ ﴿وأنَّه لمَّا قام عبدُ اللهِ يدعوه﴾؛ أي: يسأله ويتعبَّد له ويقرأ القرآن كاد الجنُّ من تكاثُرِهم عليه، ﴿يكونون[(٤)] عليه لِبَدا﴾؛ أي: متلبِّدين متراكمين حرصاً على [سماع] ما جاء به من الهدى.

﴿٢٠﴾ ﴿قل﴾: لهم يا أيُّها الرسول، مبيِّناً حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إنَّما أدعو ربِّي ولا أشركُ به أحدا﴾؛ أي: أوحِّده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونَه من الأنداد والأوثان، وكلُّ ما يتَّخذه المشركون من دونه.

---

(١) في (ب): «بل غفل عنه ولها».
(٢) في (ب): «شديداً بليغاً».
(٣) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٤) في (ب): «أن يكونوا».

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿قل إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا رَشَداً﴾: فإنِّي عبدٌ ليس لي من الأمر والتصرُّفِ شيءٌ[١]، ﴿قلْ إنِّي لن يُجيرَني من اللهِ أحدٌ﴾؛ أي: لا أحدَ أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسولُ الذي هو أكملُ الخلق لا يملكُ ضرًّا ولا رشداً ولا يمنعُ نفسَه من الله شيئاً إن أراده بسوءٍ؛ فغيرُهُ من الخلق من باب أولى وأحرى، ﴿ولن أجدَ من دونِهِ مُلْتَحَداً﴾؛ أي: ملجأ ومنتصراً.

﴿٢٣﴾ ﴿إلَّا بلاغاً من الله ورسالاتِهِ﴾؛ أي: ليس لي مزيَّةٌ على الناس إلَّا أنَّ الله خصَّني بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقِهِ إليه[٢]، وبذلك تقوم الحجَّةُ على الناس، ﴿ومن يَعْصِ الله ورسولَه فإنَّ له نارَ جهنَّمَ خالدين فيها أبداً﴾: وهذا المراد به المعصية الكفريَّة كما قيَّدتها النُّصوص الأخر المحكمة، وأمَّا مجرَّد المعصية؛ فإنَّه لا يوجب الخلود في النار؛ كما دلَّت على ذلك آيات القرآن والأحاديث عن النبيِّ ﷺ، وأجمع عليه سَلَفُ الأمَّة وأئمَّة هذه الأمَّة.

﴿٢٤﴾ ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدونَ﴾؛ أي: شاهدوه عياناً وجزموا أنَّه واقعٌ بهم، ﴿فسيعلمون﴾: في ذلك الوقت حقيقة المعرفة، ﴿مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً﴾: حين لا ينصرُهُم غيرهم، ولا أنفسهم ينتصِرونَ، وإذْ يُحْشَرون فرادى كما خُلِقوا أوَّلَ مرَّةٍ.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿قل﴾ لهم إنْ سألوك فقالوا: متى هذا الوعد؟: ﴿إنْ أدري أقريبٌ ما توعدونَ أمْ يجعلُ له ربِّي أمداً﴾؛ أي: غايةً طويلةً؛ فعلمُ ذلك عند الله ﴿عالمُ الغيب فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً﴾: من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب[٣].

﴿٢٧﴾ ﴿إلَّا من ارتضى من رسول﴾؛ أي: فإنَّه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبِرَه به، وذلك لأنَّ الرسل ليسوا كغيرهم؛ فإنَّ الله أيَّدهم بتأييدٍ ما أيَّده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلِّغوه على حقيقته؛ من غير أن تَقْرَبَهُ الشياطينُ فيزيدوا فيه[٤] أو يَنْقُصوا، ولهذا قال: ﴿فإنَّه يَسْلُكُ من بينِ يديهِ ومن خلفِهِ رَصَداً﴾؛ أي: يحفظونه بأمر الله.

---

(١) في (ب): «ليس لي من الأمر شيء ولا من التصرف شيء».

(٢) في (ب): «ودعوة الخلق إلى الله». (٣) في (ب): «والغيب».

(٤) في (ب): «أن تتخبطهم الشياطين ولا يزيدوا فيه».

﴿٢٨ ـ ٢٩﴾ ﴿ليعلم﴾ بذٰلك ﴿أن قد أبلَغوا رسالات ربِّهم﴾: بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وأحاط بما لَدَيهم﴾؛ أي: بما عندهم وما أسرُّوه وما أعلنوه، ﴿وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً﴾.

**وفي هٰذه السورة فوائدُ عديدةٌ[1]:**

منها: وجودُ الجنِّ، وأنَّهم [مكلَّفون] مأمورون منهيُّون مجازَوْن بأعمالهم؛ كما هو صريح في هٰذه السورة وغيرها.

**ومنها:** أنَّ رسول الله ﷺ مبعوثٌ[2] إلى الجنِّ كما هو مبعوثٌ[2] إلى الإنس؛ فإنَّ الله صرف نفرَ الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلِّغوا قومهم.

**ومنها:** ذكاء الجنِّ ومعرفتُهم بالحقِّ، وأنَّ الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحقَّقوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم.

**ومنها:** اعتناء الله برسوله وحفظُه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشائر نبوَّته والسماء محروسةٌ بالنجوم، والشياطين قد هربت من[3] أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأنَّ الله رَحِمَ به أهل الأرض[4] رحمةً ما يُقَدَّرُ لها قدرٌ، وأراد بهم ربُّهم رشداً، فأراد أن يظهِرَ من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به[5] القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائرُ الإسلام، وينقمع به أهلُ الأوثان والأصنام.

**ومنها:** شدَّة حرص الجنِّ على استماعهم للرسول[6] ﷺ وتراكمهم عليه.

**ومنها:** أنَّ هٰذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشركِ، وبيَّنت حالة الخلق، وأن كلَّ أحدٍ منهم لا يستحقُّ من العبادة مثقالَ ذرَّةٍ؛ لأنَّ الرسول محمداً ﷺ إذا كان لا يملك لأحدٍ نفعاً ولا ضرًّا، بل ولا يملك لنفسه؛ علم أن الخلق كلَّهم كذٰلك؛ فمن الخطأ والظلم[7] اتِّخاذ مَنْ هٰذا وصفه إلٰهاً آخر[8].

---

(١) في (ب): «فوائد كثيرة».
(٢) في (ب): «رسول».
(٣) في (ب): «عن».
(٤) في (ب): «رحم به الأرض وأهلها».
(٥) في (ب): «له».
(٦) في (ب): «شدة حرص الجن لاستماع الرسول».
(٧) في (ب): «والغلط».
(٨) في (ب): «إلٰهاً مع الله».

**ومنها**: أنَّ علوم الغيوب[١] قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحدٌ من الخلق؛ إلَّا من ارتضاه الله واختصَّه[٢] بعلم شيء منها.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين[٣].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة المزمل

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢)[٤] نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا (١١)﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ المزَّمِّل: المتغطي بثيابه كالمدَّثِّر، وهٰذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه[٥]، فرأى أمراً لم يَرَ مثلَه ولا يقدِرُ على الثَّبات عليه[٦] إلَّا المرسلون، فاعتراه عند ذٰلك[٧] انزعاجٌ، حين رأى جبريلَ عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»، وهو ترعَدُ فرائصُه، ثم جاءه جبريلُ، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارئٍ». فغطه حتَّى بلغ منه الجهدَ، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ[٨].

ثم ألقى الله عليه الثباتَ، وتابع عليه الوحيَ، حتى بَلَغَ مَبْلَغاً ما بَلَغه أحدٌ من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوَّته ونهايتها! ولهٰذا

(١) في (ب): «علوم الغيب». (٢) في (ب): «وخصَّه».
(٣) في (ب): «تمَّ تفسير سورة قل أوحي إليَّ. ولله الحمد».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿ومهلهم قليلاً﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «وابتدأه بإنزال جبريل إليه».
(٦) في (ب): «له». (٧) في (ب): «فاعتراه في ابتداء ذلك».
(٨) كما في «صحيح البخاري» (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

خاطبه الله بهٰذا الوصف الذي وُجِدَ منه في أول أمره، فأمره هنا بالعباداتِ المتعلّقة به، ثم أمره بالصبر على أذيّة قومه[١]، ثم أمر بالصَّدْع بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكدِ الأوقات وأفضلها، وهو قيامُ الليل. ومن رحمته [تعالى] أنّه لم يأمرْه بقيام الليل كلّه، بل قال: ﴿قم الليلَ إلّا قليلاً﴾. ثم قدَّر ذٰلك فقال: ﴿نصفَه أو انقُصْ منه﴾؛ أي: من النصف ﴿قليلاً﴾: بأن يكون الثلث ونحوه، ﴿أو زِدْ عليه﴾؛ أي: على النصف، فيكون نحو الثلثين[٢]، ﴿ورتِّل القرآن ترتيلاً﴾؛ فإنَّ ترتيلَ القرآن به يحصُلُ التدبُّر والتفكُّر وتحريك القلوب به والتعبُّد بآياته والتهيُّؤ والاستعداد التامُّ له؛ فإنَّه قال: ﴿إنّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾؛ أي: نوحي إليك هٰذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهٰذا الوصف حقيقٌ أن يُتَهَيّأ له ويُرَتَّل ويُتَفَكَّر فيما يشتمل عليه.

﴿٦﴾ ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إنَّ ناشئةَ الليل﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم، ﴿هي أشدُّ وطئاً وأقومُ قيلاً﴾؛ أي: أقرب إلى حصول[٣] مقصود القرآن؛ يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقلُّ الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

﴿٧﴾ وهٰذا بخلاف النهار؛ فإنَّه لا يحصلُ به هٰذه المقاصد[٤]، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾؛ أي: تردُّداً في[٥] حوائجك ومعاشك يوجبُ اشتغال القلب وعدم تفرُّغه التفرُّغ التامَّ.

﴿٨﴾ ﴿واذكرِ اسمَ ربِّك﴾: شاملٌ لأنواع الذِّكر كلِّها، ﴿وتَبَتَّلْ إليه تَبتيلاً﴾؛ أي: انقطع إليه[٦]؛ فإنَّ الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصالُ بالقلب عن الخلائق، والاتِّصاف بمحبّة الله وما[٧] يقرِّب إليه ويدني من رضاه.

﴿٩﴾ ﴿رب المشرق والمغرب﴾: وهٰذا اسم جنس؛ يشمل المشارق والمغارب كلَّها؛ فهو تعالى ربُّ المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي

---

(١) في (ب): «أعدائه».
(٢) في (ب): «فيكون الثلثين ونحوها».
(٣) في (ب): «إلى تحصيل».
(٤) في (ب): «هذا المقصود».
(٥) في (ب): «على».
(٦) في (ب): «إلى الله تعالى».
(٧) في (ب): «وكلِّ ما».

مصلحةٌ له من العالم العلويِّ والسفليِّ؛ فهو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقُه ومدبِّره. ﴿لا إله إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود إلَّا وجهه الأعلى، الذي يستحقُّ أن يُخَصَّ بالمحبَّة والتعظيم والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فاتَّخِذْه وكيلاً﴾؛ أي: حافظاً ومدبِّراً لأمورك كلِّها.

﴿١٠﴾ فلما أمره الله بالصَّلاة خصوصاً وبالذِّكر عموماً، وذلك يحصل للعبد مَلَكَةٌ قويةٌ في تحمُّل الأثقال وفعل المُشِقِّ[1] من الأعمال؛ أمره بالصبر على ما يقوله[2] المعاندون له ويسبُّونه ويسبُّون ما جاء به، وأن يمضِيَ على أمر الله؛ لا يصدُّه عنه صادٌّ ولا يردُّه رادٌّ، وأن يَهْجُرَهُم هجراً جميلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحةُ [الهجرَ]، الذي لا أذيَّة فيه، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن[3] أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

﴿١١﴾ ﴿وذرني والمكذِّبين﴾؛ أي: اتركْني وإيَّاهم، فسأنتقم منهم، وإنْ أمْهَلْتُهم؛ فلا أهمِلُهم. وقوله: ﴿أولي النَّعْمةِ﴾؛ أي: أصحاب النَّعمة والغنى، الذين طَغَوْا حين وسَّع الله عليهم من رزقه وأمدَّهم من فضله؛ كما قال تعالى: ﴿كلَّا إنَّ الإنسانَ لَيَطْغى . أن رآه استغْنى﴾.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ أي: إنَّ عندنا ﴿أنكالاً﴾؛ أي: عذاباً شديداً جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمرًّا على ما يغضِبُ الله، ﴿وجحيماً﴾؛ أي: ناراً حامية، ﴿وطعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾؛ أي: موجعاً مفظعاً.

﴿١٤﴾ وذلك ﴿يوم ترجُفُ الأرضُ والجبالُ﴾: من الهول العظيم، فكانتِ ﴿الجبالُ﴾: الراسياتُ الصمُّ الصلابُ ﴿كثيباً مَهيلاً﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تُبَسُّ بعد ذلك فتكون كالهباء المنثور.

---

(١) في (ب): «الثقيل».

(٢) في (ب): «على ما يقول فيه».

(٣) في (ب): «عنهم وعن».

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ يقول تعالى: احْمَدوا ربَّكم على إرسال هٰذا النبيِّ الأميِّ العربيِّ البشير النذير الشاهد على الأمَّة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهٰذه النِّعمة الجليلة، وإيَّاكم أن تَكْفُروا، فتَعْصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتَّوحيد، فلم يصدِّقْه، بل عصاه، فأخذه الله ﴿أخذاً وبيلاً﴾؛ أي: شديداً بليغاً.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ أي: فكيف يحصلُ لكم الفكاكُ والنَّجاة يومَ القيامةِ، اليوم المَهيل أمرُه، العظيمُ خطرُه[(١)]، الذي يشيِّبُ الولدان وتذوبُ له الجمادات العظام؛ فتنفطر السماء وتنتثر نجومُها[(٢)]. ﴿كان وعدُه مفعولاً﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: إنَّ هٰذه الموعظة التي نبَّأ الله بها من أحوال يوم القيامةِ وأهوالها تذكرةٌ يتذكَّر بها المتَّقون وينزجر بها المؤمنون. ﴿فمن شاءَ اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه، وذٰلك باتِّباع شرعه؛ فإنَّه قد أبانه كلَّ البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هٰذا دليلٌ على أنَّ الله تعالى أقْدَرَ العبادَ على أفعالهم ومكَّنهم منها، لا كما يقوله الجبريَّةُ: إنَّ أفعالهم تقع بغير مشيئتهم؛ فإنَّ هٰذا خلاف النقل والعقل[(٣)].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ[(٤)] وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ

---

(١) في (ب): «قدره».
(٢) في (ب): «فتنفطر به السماء وتنتثر به نجومها».
(٣) في (ب): «العقل والنقل».
(٤) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآية كاملة.

وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿٢٠﴾ ذكر الله في أول هٰذه السورة أنَّه أمر رسولَه بقيام نصفِ الليل أو ثلثيه أو ثلثه[1]، والأصلُ أنَّ أمته أسوةٌ له في الأحكام، وذكر في هٰذا الموضع أنَّه امتثل ذٰلك هو وطائفةٌ معه من المؤمنين. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقَّة على الناس؛ أخبر أنَّه سهَّل عليهم في ذٰلك غاية التسهيل؛ فقال: **﴿والله يقدِّرُ الليلَ والنهارَ﴾**؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما[2]، **﴿علم أن لن تُحصوه﴾**؛ أي: لن تعرِفوا مقداره من غير زيادةٍ ولا نقصٍ؛ لكون ذٰلك يستدعي انتباهاً وعناءً زائداً؛ أي: فخفَّف عنكم وأمركم بما تيسَّر عليكم سواء زاد على المقدَّر أو نَقَصَ، **﴿فاقرؤوا ما تيسَّرَ من القرآن﴾**؛ أي: ممَّا تعرفون ولا[3] يشقُّ عليكم، ولهٰذا كان المصلِّي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً؛ فإذا فَتَرَ أو كسل أو نعس؛ فليسترحْ ليأتيَ الصلاةَ بطمأنينةٍ وراحةٍ.

ثم ذكر بعضَ الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: **﴿علم أن سيكونُ منكم مرضى﴾**: يشقُّ عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه[4] أو ثلثه، فليصلِّ المريض ما يسهُلُ عليه، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصَّلاة قائماً عند مشَّقة ذٰلك، بل لو شقَّت عليه الصلاةُ النافلةُ؛ فله تركُها، وله أجرُ ما كان يعمل صحيحاً. **﴿وآخرون يضربون في الأرض يبتغونَ من فضل الله﴾**؛ أي: وعلم أنَّ منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكفَّفوا عنهم[5]؛ أي: فالمسافر حالُهُ تناسِبُ التخفيف، ولهٰذا خفَّف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمعُ الصلاتين في وقتٍ واحدٍ وقصرُ الصَّلاة الرُّباعية. وكذلك **﴿آخرون يقاتِلون في سبيل اللهِ فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه﴾**: فذكر تعالى تخفيفين؛ تحفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه من غير أن يُكلَّفَ عليه تحرير الوقت، بل يتحرَّى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفاً للمريض والمسافر، سواء كان سفرُه للتجارة أو لعبادةٍ من جهادٍ أو حجٍّ أو

---

(١) في (ب): «ثلثه أو ثلثيه».
(٢) في (ب): «وما يمضي منهما ويبقى».
(٣) في (ب): «وممّا لا».
(٤) في (ب): «صلاة ثلثي الليل أو نصفه».
(٥) في (ب): «عن الناس».

غيره(١)؛ فإنَّه [أيضاً] يراعي ما لا يكلِّفه؛ فلله الحمد والثناء؛ حيث لم يجعلْ علينا(٢) في الدين من حرج، بل سهَّل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين هما أمُّ العبادات وعمادُها: إقامة الصلاة التي لا يستقيمُ الدين إلَّا بها، وإيتاءُ الزَّكاة التي هي برهانُ الإيمان وبها تحصُلُ المواساة للفقراء والمساكين، فقال(٣): ﴿وأقيموا الصلاة﴾؛ أي: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكمِّلاتها(٤)، ﴿وأقرضوا الله قرضاً حسناً﴾؛ أي: خالصاً لوجه الله بنيَّة صادقةٍ وتثبيتٍ من النفس ومالٍ طيِّبٍ، ويدخُلُ في هذا الصدقة الواجبة والمستحبَّة.

ثم حثَّ على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدِّموا لأنفسكم من خيرٍ تجِدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة. وليعلمْ أنَّ مثقال ذرَّةٍ في هذه الدار من الخير(٥) يقابله أضعافُ أضعافِ الدُّنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذَّات والشَّهوات، وأنَّ الخير والبرَّ في هذه الدنيا مادةُ الخير والبرِّ في دار القرار وبذرُه وأصلُه وأساسُه. فوا أسفاه على أوقاتٍ مضت في الغفلات! ووا حسرتاه على أزمانٍ تقضَّت في غير(٦) الأعمال الصالحات! ووا غوثاه من قلوبٍ لم يؤثِّرْ فيها وعظُ بارئها ولم ينجَعْ فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها(٧)! فلك اللهم الحمدُ وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك.

﴿واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحثِّ على أفعال الطاعة والخير فائدةٌ كبيرةٌ، وذلك أنَّ العبد لا(٨) يخلو من التقصير فيما أُمِرَ به: إما أنْ لا يفعلَه أصلاً، أو يفعله على وجهٍ ناقصٍ، فأُمِرَ بترقيع ذلك بالاستغفار؛ فإنَّ العبد يذنِبُ آناء الليل والنهار؛ فمتى لم يتغمَّدْه الله برحمته ومغفرته؛ فإنَّه هالكٌ.

تم تفسيرها. والحمد لله(٩).

* * *

(١) في (ب): «من قتالٍ أو جهادٍ أو حجٍّ أو عمرةٍ ونحو ذلك».
(٢) في (ب): «الذي ما جعل على الأمة».
(٣) في (ب): «ولهذا قال».
(٤) في (ب): «بأركانها وشروطها ومكمّلاتها».
(٥) في (ب): «من الخير في هذه الدار».
(٦) في (ب): «بغير».
(٧) في (ب): «منها».
(٨) في (ب): «ما».
(٩) في (ب): «تمَّ تفسير سورة المزمل».

# تفسير سورة المدثر

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ تقدَّم أنَّ المزَّمِّل والمدَّثر بمعنى واحد، وأنَّ الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات[١] الله القاصرة والمتعدِّية، فتقدَّم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بالإعلان بالدَّعوة والصَّدْع بالإنذار، فقال: ﴿قمْ﴾؛ أي: بجدٍّ ونشاطٍ ﴿فأنذِرْ﴾: الناس بالأقوال والأفعال التي يحصلُ بها المقصودُ وبيانُ حال المنذَر عنه ليكون ذلك أدعى لتركه.

﴿٣﴾ ﴿وربَّك فكبِّرْ﴾؛ أي: عظِّمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله وأن يعظِّمه العباد، ويقوموا بعبادته.

﴿٤﴾ ﴿وثيابَكَ فطَهِّرْ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بالثياب[٢] أعماله كلها. وبتطهيرها: تخليصها، والنُّصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات من شركٍ ورياء ونفاق وعُجْبٍ وتكبُّر وغفلةٍ وغير ذلك مما يؤمَرُ العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة؛ فإنَّ ذلك من تمام التطهير للأعمال، خصوصاً في الصلاة، التي قال كثيرٌ من العلماء: إنَّ إزالة النجاسة عنها شرطٌ من شروطها[٣].

ويُحتمل أنَّ المراد بثيابه الثياب المعروفة؛ أنَّه مأمورٌ بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات، خصوصاً عند الدُّخول في الصلوات.

﴿٥﴾ وإذا كان مأموراً بطهارة[٤] الظَّاهر؛ فإنَّ طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن: ﴿والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عُبِدَتْ مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها ومما نُسِبَ إليها من قول أو عملٍ، ويُحتمل أنَّ المرادَ بالرُّجز أعمالُ الشرِّ كلُّها وأقوالُه، فيكون أمراً له بترك الذُّنوب صغارها

(١) في (ب): «عبادة».

(٢) في (ب): «بثيابه».

(٣) في (ب): «من شروط الصلاة».

(٤) في (ب): «بتطهير».

وكبارها[١] ظاهرها وباطنها، فيدخل في هٰذا الشرك فما دونه[٢].

﴿٦﴾ ﴿ولا تَمْنُنْ تَسْتَكثِرْ﴾؛ أي: لا تمنُنْ على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينيَّة والدنيويَّة، فتستكثر بتلك المنَّة، وترى لك الفضل عليهم[٣]، بل أحسِنْ إلى الناس مهما أمكنك، وانسَ عندهم إحسانَك، واطلُبْ أجرك من الله تعالى[٤]، واجعلْ مَن أحسنتَ إليه وغيره على حدٍّ سواء.

وقد قيل: إنَّ معنى هٰذا ألَّا تعطي أحداً شيئاً وأنت تريدُ أن يكافِئَك عليه بأكثر منه، فيكون هٰذا خاصًّا بالنبيِّ ﷺ.

﴿٧﴾ ﴿ولربِّكَ فاصْبِرْ﴾؛ أي: احتسبْ بصبرك واقصدْ به وجهَ الله تعالى.

فامتثل رسولُ الله ﷺ لأمر ربِّه، وبادر فيه[٥]، فأنذر الناس وأوضح لهم بالآياتِ البيناتِ جميع المطالب الإلٰهيَّة، وعظَّم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهَّر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوءٍ، وهجر كلَّ ما يُعْبَدُ من دون الله[٦] وما يُعْبَدُ معه من الأصنام وأهلها والشرِّ وأهله، وله المنَّة على الناس بعد منَّة الله، من غير أن يطلبَ عليهم بذٰلك[٧] جزاءً ولا شكوراً، وصبر لربِّه[٨] أكمل صبر: فصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وصبر على أقداره[٩] المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسَلين. صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿٨ ـ ١٠﴾ أي: فإذا نُفِخَ في الصُّور للقيام من القبور، وجُمِعَ الخلائق[١٠] للبعث والنشور، ﴿فذٰلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ﴾: لكثرة أهواله وشدائده، ﴿على الكافرين غيرُ يسيرٍ﴾؛ لأنَّهم قد أيِسوا من كلِّ خيرٍ وأيقنوا بالهلاك والبَوار. ومفهومُ

---

(١) في (ب): «صغيرها وكبيرها».
(٢) في (ب): «فيدخل في ذلك الشرك وما دونه».
(٣) في (ب): «وترى لك عليهم بإحسانك المنَّة».
(٤) في (ب): «ولا تطلب أجره إلا من الله». (٥) في (ب): «إليه».
(٦) في (ب): «وهجر كلَّ ما يبعد عن الله». (٧) في (ب): «منهم على ذلك».
(٨) في (ب): «لله».
(٩) في (ب): «وعن معاصي الله وعلى أقدار الله».
(١٠) في (ب): «الخلق».

ذلك أنه على المؤمنين يسيرٌ؛ كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هٰذا يومٌ عسِرٌ﴾.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾[1] وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿١١ ـ ٣٠﴾ هٰذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة[2]، المعاند للحقِّ، المبارز[3] لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقَّة، فذمَّه الله ذمًّا لم يذمَّ به غيره[4]، وهٰذا جزاءُ كلِّ مَنْ عانَد الحقَّ ونابذه؛ أنَّ له الخزيَ في الدُّنيا ولَعذاب الآخرة أخزى، فقال:

﴿ذَرْني ومَن خلقتُ وحيداً﴾؛ أي: خلقته منفرداً بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أربِّيه وأعطيه، فجعلت ﴿له مالاً ممدوداً﴾؛ أي: كثيراً، ﴿و﴾ جعلتُ له ﴿بنينَ﴾؛ أي: ذكوراً، ﴿شهوداً﴾؛ أي: حاضرين عنده[5] على الدَّوام، يتمتَّع بهم ويقضي بهم حوائِجَه ويستنصِرُ بهم، ﴿ومهَّدْتُ له تمهيداً﴾؛ أي: مكَّنته من الدُّنيا وأسبابها حتى انقادَتْ له مطالِبُه وحصل له[6] ما يشتهي ويريدُ. ﴿ثم﴾: مع هٰذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أن أزيدَ﴾؛ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، ﴿كلَّا﴾؛ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذٰلك ﴿إنَّه[7] كان لآياتنا عنيداً﴾: عرفها[8] ثم أنكرها، ودعتْه إلى الحقِّ فلم يَنْقَدْ

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٠٦) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) في (ب): «معاند الحق والمبارز».

(٤) في (ب): «لم يذمَّه غيره».

(٥) في (ب): «دائماً حاضرين عنده».

(٦) في (ب): «حصل على».

(٧) في (ب): «لأنه».

(٨) في (ب): «أي: معانداً عرفها».

لها، ولم يكفِهِ أنَّه أعرض عنها وتولَّى[١]، بل جعل يحاربُها ويسعى في إبطالها، ولهٰذا قال عنه: ﴿إنَّه فَكَّر﴾؛ أي: في نفسه. ﴿وقدَّر﴾: ما فكَّر فيه؛ ليقولَ قولاً يبطِلُ به القرآن، ﴿فقُتِلَ كيف قدَّر. ثم قُتِلَ كيف قدَّر﴾؛ لأنَّه قدَّر أمراً ليس في طوره، وتسوَّر على ما لا ينالُه هو ولا أمثاله، ﴿ثم نَظَرَ﴾: ما يقول، ﴿ثم عَبَسَ وبَسَرَ﴾: في وجهه وظاهره نفرةً عن الحقِّ وبُغضاً له، ﴿ثم أدبر﴾؛ أي: تولَّى، ﴿واستكبر﴾: نتيجة سعيه الفكريِّ والعمليِّ والقوليِّ، ﴿فقال إنْ هٰذا إلَّا سحرٌ يُؤثَرُ. إنْ هٰذا إلَّا قولُ البشرِ﴾؛ أي: ما هٰذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الأشرار منهم والفجَّار[٢] من كل كاذبٍ سحَّارٍ، فتبًّا له! ما أبعده من الصواب! وأحراه بالخسارة والتَّباب! كيف يدور في الأذهان أو يتصوَّره ضميرُ أيِّ[٣] إنسان أن يكون أعلى الكلام وأعظمه كلام الربِّ الكريم الماجد العظيم[٤] يشبِهُ كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرَّأ هٰذا الكاذب العنيد على وصفه بهٰذا الوصف لكلام الله تعالى[٥]؛ فما حقُّه إلَّا العذاب الشديد [والنكال]، ولهٰذا قال تعالى: ﴿سأُصْليه سَقَرَ. وما أدراك ما سَقَرُ. لا تُبْقي ولا تَذَرُ﴾؛ أي: لا تبقي من الشدَّة ولا على المعذَّب شيئاً إلا وبَلَغَتْه. ﴿لوَّاحةٌ للبشر﴾؛ أي: تلوحهم وتُصليهم في عذابها وتقلقهم بشدَّة حرِّها وقرِّها. ﴿عليها تسعةَ عشرَ﴾: من الملائكة، خزنة لها، غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

﴿٣١﴾ ﴿وما جعلنا أصحاب النارِ إلَّا ملائكةً﴾: وذٰلك لشدَّتهم وقوَّتهم، ﴿وما جعلنا عِدَّتهم إلَّا فتنةً للذين كفروا﴾: يحتمل أنَّ المراد؛ إلَّا لعذابهم وعقابهم في الآخرة ولزيادة نَكالهم فيها، والعذاب يسمَّى فتنة؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ هم على النَّارِ يُفْتَنونَ﴾.

ويُحتمل أنَّ المراد أنَّا ما أخبرناكم بعدَّتهم إلَّا لنعلم من يصدِّق ممَّن[٦] يكذِّب. ويدلُّ على هٰذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿ليستيقِنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً﴾: فإنَّ أهل الكتاب إذا وافق ما عندَهم وطابَقَه؛ ازدادَ يقينُهم بالحقِّ، والمؤمنون كلَّما أنزل الله آيةً، فآمنوا بها وصدَّقوا؛ ازداد إيمانُهم، ﴿ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون﴾؛ أي: ليزول عنهم الريبُ والشكُّ، وهٰذه مقاصدُ جليلةٌ يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كلِّ وقتٍ

---

(١) في (ب): «أعرض وتولى عنها».
(٢) في (ب): «بل كلام الفجار منهم والأشرار».
(٣) في (ب): «كلِّ».
(٤) في (ب): «الرب العظيم الماجد الكريم».
(٥) في (ب): «على وصفه كلام المبدئ المعيد».
(٦) في (ب): «ومن».

وكلِّ مسألةٍ من مسائل الدين، ودفعِ الشكوك والأوهام التي تَعْرِضُ في مقابلة الحقّ، فجعل ما أنزله على رسولِهِ محصِّلاً لهٰذه المقاصد[(١)] الجليلة، ومميزاً للصادقين من الكاذبين[(٢)]، ولهٰذا قال: ﴿وليقولَ الذين في قلوبِهِم مرضٌ﴾؛ أي: شكٌّ وشبهةٌ ونفاقٌ، ﴿والكافرون ماذا أرادَ الله بهٰذا مثلاً﴾: وهٰذا على وجه الحيرة والشكِّ منهم والكفر بآيات الله، وهٰذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يُضِلُّه، ولهٰذا قال: ﴿كذٰلك يُضِلُّ الله مَن يشاءُ ويَهْدي مَن يشاءُ﴾: فمن هداه الله؛ جعل ما أنزل[(٣)] على رسوله رحمةً في حقِّه وزيادةً في إيمانه ودينه، ومن أضلَّه؛ جعل ما أنزله على رسوله زيادةَ شقاءٍ عليه وحيرةً وظلمةً في حقِّه، والواجب أن يُتَلَقّى ما أخبر الله به[(٤)] ورسولُه بالتسليم، فإنه ﴿لا يعلمُ جنودَ ربِّك﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿إلَّا هو﴾: فإذا كنتُم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير؛ فعليكم أن تصدِّقوا خبره من غير شكٍّ ولا ارتياب، ﴿وما هي إلَّا ذِكْرى للبشرِ﴾؛ أي: وما هٰذه الموعظة والتذكار مقصوداً به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكَّر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرُّهم فيتركونه.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾[(٥)] وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٣٢ ـ ٣٤﴾ ﴿كلَّا﴾: هنا بمعنى حقًّا، أو بمعنى ألا الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقتَ إدباره، والنهارِ وقتَ إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات الله

---

(١) في (ب): «الفوائد».
(٢) في (ب): «للكاذبين من الصادقين».
(٣) في (ب): «ما أنزله الله».
(٤) في (ب): «به الله».
(٥) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

العظيمة الدالَّة على كمال قدرةِ الله وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه.

﴿٣٥ ـ ٣٧﴾ والمقسَمُ عليه قوله: ﴿إنَّها لإحدى الكُبَرِ﴾؛ أي: إنَّ النار لإحدى[1] العظائم الطامَّة والأمور الهامَّة؛ فإذا أعلمناكم بها وكنتُم على بصيرةٍ من أمرها؛ فمن شاء منكم أن يتقدَّم فيعمل بما يقرِّبه إلى الله ويُدْنيه من رضاه ويُزْلفه من دار كرامته، أو يتأخَّر عمَّا خُلِقَ له وعمَّا يحبُّه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرَّب إلى جهنَّم؛ كما قال تعالى: ﴿وقلِ الحقُّ من ربِّكم فَمَن شاء فَلْيُؤمِن ومَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ الآية.

﴿٣٨ ـ ٤٨﴾ ﴿كلُّ نفس بما كسبتْ﴾: من أفعال الشرِّ وأعمال السوء[2] ﴿رهينةٌ﴾: بها موثقةٌ بسعيها، قد أُلزِمَ[3] عنقها وغُلَّ في رقبتها واستوجبت به العذاب، ﴿إلَّا أصحابَ اليمين﴾: فإنَّهم لم يرتهنوا، بل أُطلقوا وفرحوا ﴿في جناتٍ يتساءلونَ. عن المجرمينَ﴾؛ أي: في جناتٍ قد حصل لهم فيها[4] جميع مطلوباتهم وتمَّت لهم الراحةُ والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضتْ بهم المحادثة أن سألوا عن المجرمين؛ أيُّ حال وصلوا إليها؟ وهل وَجَدوا ما وعَدَهم الله [تعالى]؟ فقال بعضهم لبعضٍ هل أنتم مُطَّلعونَ عليهم، فاطَّلعوا عليهم في وسطِ الجحيم يعذَّبون، فقالوا لهم: ﴿ما سَلَكَكم في سَقَرَ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ أدخلكم فيها؟ وبأيِّ ذنبٍ اسْتَحَقيْتُموها؟ فقالوا: ﴿لم نَكُ من المصلِّينَ. ولم نكُ نطعِمُ المسكينَ﴾: فلا إخلاص للمعبودِ ولا إحسانَ ولا نفع للخلق المحتاجين، ﴿وكنَّا نخوضُ مع الخائضينَ﴾؛ أي: نخوض بالباطل ونجادل به الحقَّ، ﴿وكنَّا نكذِّبُ بيوم الدِّين﴾: هٰذه آثار الخوض بالباطل، وهو التَّكذيب بالحقِّ، ومن أحقِّ الحقِّ يوم الدين، الذي هو محلُّ الجزاء على الأعمال وظهور مُلك الله وحُكمه العدل لسائر الخلق، فاستمرَّ عَمَلُنا على هٰذا المذهب الباطل[5] ﴿حتَّى أتانا اليقين﴾؛ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر؛ تعذَّرت حينئذٍ عليهم الحِيَلُ، وانسدَّ في وجوههم باب الأمل. ﴿فما تَنفَعُهم شفاعةُ الشَّافعين﴾؛ لأنَّهم لا يشفعون إلَّا لِمَنِ ارتضى، وهٰؤلاء لا يرضى الله أعمالهم.

---

(١) في (ب): «﴿إنها﴾؛ أي: النار ﴿لإحدى الكبر﴾، أي: لإحدى...».

(٢) في (ب): «من أعمال السوء وأفعال الشرِّ».

(٣) في (ب): «ما لزم».

(٤) في (ب): «بها».

(٥) في (ب): «فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد».

﴿٤٩ ـ ٥٣﴾ فلمَّا بيَّن الله مآل المخالفين وبيَّن ما[1] يفعل بهم؛ عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فما لهم عن التَّذْكِرَةِ معرِضينَ﴾؛ أي: صادِّين غافلين عنها، ﴿كأنَّهم﴾: في نفرتِهِم الشديدة منها ﴿حمُرٌ مستنفرةٌ﴾؛ أي: [كأنَّهم] حمُرُ وحشٍ نفرتْ؛ فنفَّر بعضُها بعضاً فزاد عَدْوُها، ﴿فرَّتْ من قَسْوَرَةٍ﴾؛ أي: من صائدٍ ورامٍ يريدها أو من أسدٍ ونحوه، وهٰذا من أعظم ما يكون من النُّفور عن الحقِّ، ومع هٰذا النفور والإعراض[2] يدَّعون الدَّعاوي الكبار؛ فيريد ﴿كلُّ﴾ واحد ﴿منهم أن يُؤتى صُحُفاً منشَّرةً﴾: نازلة عليه من السماء؛ يزعم أنَّه لا ينقاد للحقِّ؛ إلَّا بذٰلك، وقد كذَّبوا؛ فإنَّهم لو جاءتهم كلُّ آيةٍ؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ لأنَّهم[3] جاءتهم الآياتُ البيناتُ، التي تبيِّن الحقَّ وتوضِّحه؛ فلو كان فيهم خيرٌ؛ لآمنوا، ولهٰذا قال: ﴿كلَّا﴾؛ أي: لا نعطيهم[4] ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذٰلك إلَّا التعجيز، ﴿بل لا يخافونَ الآخرةَ﴾: فلو كانوا يخافونها؛ لما جرى منهم ما جرى.

﴿٥٤ ـ ٥٦﴾ ﴿كلاً [إنَّه][5] تذكرةٌ﴾: الضمير إمَّا أن يعود على هٰذه السورة أو على ما اشتملتْ عليه من هٰذه الموعظة، ﴿فَمَن شاء ذَكَرَهُ﴾: لأنَّه قد بيَّن له السبيل ووضَح له الدَّليل. ﴿[وما يَذْكُرون][6] إلَّا أن يشاءَ اللهُ﴾: فإنَّ مشيئة اللّٰه[7] نافذةٌ عامَّةٌ، لا يخرج عنها حادثٌ قليلٌ ولا كثيرٌ؛ ففيها ردٌّ على القدريَّة، الذين لا يُدْخِلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبريَّة، الذين يزعمون أنَّه ليس للعبد مشيئةٌ ولا فعلٌ حقيقةً، وإنَّما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئةً حقيقةً وفعلاً، وجعل ذٰلك تابعاً لمشيئته، و﴿وهو أهلُ التَّقوى وأهلُ المغفرةِ﴾؛ أي: هو أهل أن يُتَّقى ويُعبد؛ لأنَّه الإلٰه الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له، وأهلٌ أن يَغْفِرَ لمن اتَّقاه واتَّبع رضاه.

تمت. ولله الحمد والمنة[8].

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «ورهَّب مما».
(٢) في (ب): «ومع هذا الإعراض وهذا النفور».
(٣) في (ب): «فإنَّهم».
(٤) في (ب): «﴿كلَّا﴾: أن نعطيهم».
(٥) في النسختين: «إنها». وعليه فسَّرها. والله أعلم.
(٦) في ( أ ): «وما تشاؤون». وفي (ب): «وما يشاؤون».
(٧) في (ب): «مشيئته».
(٨) في (ب): «تم تفسير سورة المدثر ولله الحمد».

# تفسير سورة القيامة

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ[١] ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

﴿١﴾ ليست ﴿لا﴾ ها هنا نافية ولا زائدة، وإنَّما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح؛ فالمقسم به في هٰذا الموضع هو المقسَم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يَحْكُم به الربُّ عليهم.

﴿٢﴾ ﴿ولا أقسم بالنَّفس اللَّوَّامةِ﴾: وهي جميع النفوس الخيِّرة والفاجرة، سميِّت لوَّامةً لكثرة تلوُّنها وتردُّدها[٢] وعدم ثبوتها على حالةٍ من أحوالها، ولأنَّها عند الموت تلوم صاحبها على ما فعلت[٣]، بل نفسُ المؤمن تلومُ صاحبها في الدُّنيا على ما حصل منه من تفريطٍ أو تقصيرٍ في حقٍّ من الحقوق أو غفلةٍ، فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء وبين مستحقِّ الجزاء.

﴿٣ ـ ٤﴾ ثم أخبر مع هٰذا أنَّ بعض المعاندين يكذِّبون[٤] بيوم القيامة، فقال: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن لن نَجْمَعَ عظامَه﴾: بعد الموت؛ كما قال [في الآية الأخرى]: ﴿قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ﴾، فاستبعد من جهله وعدوانه قدرةَ الله على خلق عظامه التي هي عمادُ البدن، فردَّ عليه بقوله: ﴿بلى قادرينَ على أن نُسَوِّيَ بَنانَه﴾؛ أي: أطراف أصابعه وعظامه، وذٰلك مستلزمٌ[٥] لخلق جميع أجزاء البدن؛ لأنَّها إذا وُجِدت الأنامل والبنان؛ فقد تمَّتْ خلقة الجسد.

﴿٥ ـ ٦﴾ وليس إنكارُه لقدرة الله تعالى قصوراً بالدَّليل الدَّالِّ على ذٰلك، وإنَّما وقع ذٰلك منه لأنَّ إرادته وقصده التكذيبُ[٦] بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمُّد.

---

(١) في ( أ ): إلى قوله: ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «ترددها وتلومها».

(٣) في (ب): «ما عملت».

(٤) في (ب): «يكذب».

(٥) في (ب): «المستلزم لذلك».

(٦) في (ب): «وإنما ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب».

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ[١] ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

﴿٧ ـ ١٠﴾ أي: ﴿فإذا﴾ كانت القيامة؛ برقت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يؤخِّرُهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ. مهطِعين مُقْنِعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفُهم وأفئِدَتُهم هواءٌ﴾، ﴿وخسف القمر﴾؛ أي: ذهب نورُه وسُلطانه، ﴿وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ﴾: وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامةِ، ويُخسف القمر، وتكوَّر الشمس، ثم يقذفان في النار؛ ليرى العباد أنَّهما عبدان مسخَّران، وليرى مَنْ عَبَدَهما أنَّهم كانوا كاذبين، ﴿يقول الإنسانُ﴾: حين يرى تلك القلاقل المزعجات[٢]: ﴿أين المفرُّ﴾؛ أي: أين الخلاص والفكاك[٣] ممَّا طرقنا وألمَّ بنا[٤]؟

﴿١١ ـ ١٣﴾ ﴿كلاَّ لا وَزَرَ﴾؛ أي: لا ملجأ لأحدٍ دون الله، ﴿إلى ربِّكَ يومئذٍ المستقرُّ﴾: لسائر العباد، فليس في إمكان أحدٍ أن يستترَ أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بدَّ من إيقافه؛ ليجزى بعمله، ولهذا قال: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّمَ وأخَّرَ﴾؛ أي: بجميع عمله الحسن والسيىء، في أول وقته وآخره، وينبَّأ بخبرٍ لا ينكِرُه.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿بل الإنسانُ على نفسِهِ بصيرةٌ﴾؛ أي: شاهدٌ ومحاسبٌ، ﴿ولو ألقى معاذيرَهُ﴾: فإنَّها معاذيرُ لا تُقبل، بل يقرَّر بعمله[٥]، فَيُقِرُّ به؛ كما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابَكَ كفى بنفسِكَ اليوم عليك حَسيباً﴾: فالعبدُ وإن أنكر أو اعتذر عمَّا عمله؛ فإنكارُه واعتذارُه لا يفيدانه شيئاً؛ لأنَّه يشهد عليه سمعُه وبصره وجميعُ جوارحه بما كان يعمل، ولأنَّ استعتابه قد ذهب وقتُه وزال نفعُه، ﴿فيومئذٍ لا ينفعُ الذين ظلموا معذِرَتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾.

---

(١) في ( أ ): إلى قوله: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «والمزعجات». (٣) في (ب): «والفرار».
(٤) في (ب): «وأصابنا».
(٥) في (ب): «لا تقبل ولا تقابل ما يقرَّرُ به العبد».

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ كان النبيُّ ﷺ إذا جاءه جبريلُ بالوحي وشرع في تلاوته [عليه]؛ بادَرَهُ النبيُّ ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إيَّاه[1]، فنهاه الله عن ذٰلك، وقال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾: وقال هنا: **﴿لا تُحرِّكْ به لسانَكَ لِتَعْجَلَ به﴾**.

ثم ضمن له تعالى أنَّه لا بدَّ أن يحفظَه ويقرأه ويجمعه الله في صدره، فقال: **﴿إنَّ علينا جمعَه وقرآنه﴾**؛ فالحرص الذي في خاطرك إنَّما الداعي له حذر الفوات والنسيان؛ فإذا ضَمِنَه الله لك؛ فلا موجب لذٰلك، **﴿فإذا قَرَأْناه فاتَّبِعْ قرآنه﴾**؛ أي: إذا أكمل جبريلُ ما يوحى إليك[2]؛ فحينئذٍ اتَّبع ما قرأه فاقرأه[3]، **﴿ثمَّ إنَّ علينا بيانه﴾**؛ أي: بيان معانيه. فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهٰذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربِّه، فكان إذا تلا عليه جبريلُ القرآن بعد هٰذا؛ أنصتَ له؛ فإذا فرغ؛ قرأه.

**وفي هٰذه** الآية أدبٌ لأخذ العلم: أن لا يبادر المتعلِّم[4] للعلم قبل أن يفرغ المعلِّم من المسألة التي شرع فيها؛ فإذا فرغ منها؛ سأله عمَّا أشكل عليه. **وكذٰلك** إذا كان في أول الكلام ما يوجب الردَّ أو الاستحسان أن لا يبادِرَ بردِّه أو قَبوله قبل[5] الفراغ من ذٰلك الكلام؛ ليتبيَّن ما فيه من حقٍّ أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكَّن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب[6]. **وفيها** أنَّ النبيَّ ﷺ كما بيَّن للأمَّة ألفاظ الوحي؛ فإنَّه قد بيَّن لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٢٧)، ومسلم (٤٤٨).
(٢) في (ب): «إذا أكمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك».
(٣) في (ب): «واقرأه».
(٤) في (ب): «المتعلم المعلم». وعدل عنها الشيخ في هامش ( أ ) كما هو مثبت.
(٥) في (ب): «حتى».
(٦) في (ب): «وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه».

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ أي: هٰذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنَّكم ﴿تحبُّونَ العاجلةَ﴾، وتسعون فيما يحصِّلها وفي لذَّاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأنَّ الدُّنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولعٌ بحبِّ العاجل، والآخرة متأخِّر ما فيها من النعيم المقيم؛ فلذٰلك غفلتم عنها وتركتُموها كأنَّكم لم تُخلقوا لها وكأنَّ هٰذه الدار هي دار القرار التي تُبْذَلُ فيها نفائس الأعمار ويُسعى لها آناء الليل والنهار، وبهٰذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل؛ فلو آثرتُم الآخرة على الدُّنيا ونظرتم العواقب[1] نظر البصير العاقل؛ لأنجحتم وربحتم ربحاً لا خسار[2] معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدُّنيا: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ﴾؛ أي: حسنة بهيَّة لها رونقٌ ونورٌ مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذَّة الأرواح، ﴿إلى ربِّها ناظرةٌ﴾؛ أي: ينظرون إلى ربِّهم[3] على حسب مراتبهم؛ منهم مَنْ ينظره كلَّ يوم بكرةً وعشيًّا، ومنهم من ينظره كلَّ جمعة مرةً واحدةً، فيتمتَّعون بالنَّظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيءٌ؛ فإذا رأوه؛ نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللَّذَّة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوهُهم، فازدادوا[4] جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعَلَنا معهم.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة، [و] ﴿وجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ﴾؛ أي: معبسةٌ كدرةٌ[5] خاشعةٌ ذليلةٌ، ﴿تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقرةٌ﴾؛ أي: عقوبةٌ شديدةٌ وعذابٌ أليمٌ؛ فلذٰلك تغيَّرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾[6] وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ

---

(١) في (ب): «للعَواقب».
(٢) في (ب): «خسارة».
(٣) في (ب): «تنظر إلى رَبِّها».
(٤) في (ب): «وازدادوا».
(٥) في (ب): «مكدّرة».
(٦) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿٢٦ ـ ٣٠﴾ يَعِظُ تعالى عبادَه بذكر المحتضر حال السياق[١]، وأنَّه إذا بلغت روحه[٢] ﴿التراقي﴾: وهي العظام المكتنفة لثُغْرَةِ النَّحر؛ فحينئذٍ يشتدُّ الكربُ، ويطلب كلَّ وسيلةٍ وسببٍ يظنُّ أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهٰذا قال: ﴿وقيلَ مَنْ راقٍ﴾؛ أي: من يرقيه، من الرُّقية؛ لأنَّهم انقطعت آمالهم من الأسباب العاديَّة، فتعلَّقوا بالأسباب الإلٰهيَّة[٣]، ولٰكنَّ القضاء والقدر إذا حتم وجاء؛ فلا مردَّ له، ﴿وظنَّ أنَّه الفراقُ﴾: للدنيا، ﴿والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفَّت، وعظُم الأمر، وصعُب الكرب، وأريد أن تخرجَ الرُّوح من البدن الذي ألفته[٤] ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها[٥] بأعمالها ويقرِّرها بفعالها؛ فهٰذا الزجر الذي ذكره الله يسوقُ القلوب إلى ما فيه نجاتُها ويزجُرُها عمَّا فيه هلاكها.

﴿٣١ ـ ٣٣﴾ ولٰكنَّ المعاند الذي[٦] لا تنفع فيه الآياتُ لا يزال مستمرًّا على غيِّه[٧] وكفره وعناده، ﴿فلا صدَّقَ﴾؛ أي لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه، ﴿ولا صلَّى. ولٰكن كذَّبَ﴾: بالحقِّ في مقابلة التصديق، ﴿وتولَّى﴾: عن الأمر والنَّهي، هٰذا وهو مطمئنٌّ قلبهُ غير خائفٍ من ربِّه، بل ﴿ذهب إلى أهله يَتَمَطَّى﴾؛ أي: ليس على بَالِه شيءٌ.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ثم توعَّده بقوله: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾: وهٰذه كلماتُ وعيدٍ؛ كرَّرها لتكرير وعيدِهِ.

﴿٣٦ ـ ٤٠﴾ ثم ذكَّر الإنسان بخَلْقِهِ الأوَّل، فقال: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدىً﴾؛ أي: مهملاً[٨] لا يؤمر ولا ينهى ولا يُثاب ولا يعاقب؟ هٰذا حسبانٌ باطلٌ

---

(١) في (ب): «بذكر حال المحتضر عند السياق».
(٢) في (ب): «الروح».
(٣) في (ب): «فلم يبق إلّا الأسباب الإلٰهية».
(٤) في (ب): «أن تخرج الروح التي ألفت البدن».
(٥) في (ب): «حتى يجازيها».
(٦) في (ب): «التي».
(٧) في (ب): «بغيه».
(٨) في (ب): «معطّلاً».

وظنٌّ بالله غير ما يليق بحكمته. ﴿ألم يكُ نطفةً مِن مَنِيٍّ يُمْنى. ثمَّ كان﴾: بعد المنيِّ ﴿علقةً﴾؛ أي: دماً، ﴿فَخَلَقَ﴾: الله منها الحيوان، وسواه؛ أي: أتقنه وأحكمه، ﴿فجعل منه الزوجين الذَّكر والأنثى. أليس ذٰلك﴾؛ أي: الذي خلق الإنسان وطوَّره إلى هٰذه الأطوار المختلفة[1] ﴿بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى؟﴾: بلى إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

تم تفسير سورة القيامة. والحمد لله ربِّ العالمين. وصلى الله على محمدٍ وسلَّم[2].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الإنسان

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ ذكر الله في هٰذه السورة أول حال الإنسان ومنتهاها ومتوسِّطها[3]: فذكر أنَّه مرَّ عليه دهرٌ طويلٌ، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم، بل ليس مذكوراً.

﴿٢﴾ ثمَّ لـمَّا أراد خلقه؛ خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نطفةٍ أمشاجٍ﴾؛ أي: ماء مَهينٍ مستقذرٍ، ﴿نبتليه﴾: بذٰلك؛ لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغرُّه نفسه؟ فأنشأه الله وخَلَقَ له القُوى الظاهرة والباطنة[4]؛ كالسمع والبصر وسائر الأعضاء، فأتمَّها له وجعلها سالمةً يتمكَّن بها من تحصيل مقاصده.

---

(١) في (ب): «الذي خلق الإنسان بهذه الأطوار».

(٢) في (ب): «تمَّ تفسير سورة القيامة. ولله الحمد والمنة. وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤».
وجاء في (ب): قبل تفسير سورة الإنسان ما نصه: «المجلد التاسع من «تيسير الرحيم الرحمٰن في تفسير القرآن» لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين. آمين».

(٣) في (ب): «ومبتداها ومتوسطها ومنتهاها». (٤) في (ب): «الباطنة والظاهرة».

﴿٣﴾ ثم أرسل إليه الرُّسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة إليه[1]، وبيَّنها، ورغَّبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إليه[1]، ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهَّبه عنها[2]، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكرٍ لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه. وإلى كفورٍ للنعم[3] أنعم الله عليه بالنعم الدينيَّة والدنيويَّة، فردَّها وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك. [ثم ذكر تعالى الفريقين عند الجزاء، فقال]:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ
مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ [4]عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ
شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ
مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ
نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا
زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ
قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ
سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ
نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا
﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا
ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ
فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: إنَّا هيَّأنا وأرصدنا لمن كفر بالله وكذَّب رسله وتجرَّأ على معاصيه،

---

(١) في (ب): «إلى الله». (٢) في (ب): «منها».
(٣) في (ب): «النعمة الله عليه».
(٤) في ( أ ): طمس. وفي (ب): إلى آخر الثواب.

﴿سلاسل﴾: في نار جهنَّم؛ كما قال تعالى: ﴿ثمَّ في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعونَ ذِراعاً فاسلكوه﴾، ﴿وأغلالاً﴾: تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها، ﴿وسعيراً﴾؛ أي: ناراً تستعر بها أجسامُهم وتُحرق بها أبدانُهم، كلَّما نَضِجَتْ جلودُهم؛ بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، وهٰذا العذاب الدَّائم مؤبَّدٌ لهم[١]، مخلَّدون فيه سرمداً.

﴿٥﴾ وأمَّا ﴿الأبرار﴾، وهم الذين بَرَّتْ قلوبُهم بما فيها من معرفة الله ومحبَّته[٢] والأخلاق الجميلة؛ فبرَّت أعمالُهم[٣]، واستعملوها بأعمال البرِّ، فأخبر[٤] أنَّهم ﴿يشربون من كأسٍ﴾؛ أي: شرابٍ لذيذٍ من خمرٍ [قد] مُزِجَ بكافورٍ؛ أي: خلط به[٥] ليبرِّده ويكسر حدَّته، وهٰذا الكافور في غاية اللَّذَّة، قد سلم من كلِّ مكدِّرٍ ومنغِّص موجودٍ في كافور الدُّنيا؛ فإنَّ الآفة الموجودة في الدُّنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة[٦]؛ كما قال تعالى: ﴿في سِدْرٍ مخضودٍ. وطلحٍ منضودٍ﴾، ﴿وأزواجٌ مطهرةٌ﴾، ﴿لهم دارُ السلام عند ربِّهم﴾، ﴿وفيها ما تشتهيهِ الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ﴾.

﴿٦﴾ ﴿عيناً يشربُ بها عبادُ اللهِ﴾؛ أي: ذٰلك الكأس اللذيذ الذي يشربونه لا يخافون نفاده، بل له مادَّة لا تنقطع، وهي عينٌ دائمةُ الفيضان والجريان، يفجِّرها عباد الله تفجيراً أنَّى شاؤوا وكيف أرادوا؛ فإن شاؤوا؛ صرفوها إلى البساتين الزاهرات أو إلى الرياض النضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أيِّ جهةٍ يَرَوْنَها من الجهات المؤنَّقات.

﴿٧﴾ ثم ذكر جملةً من أعمالهم[٧]، فقال: ﴿يوفون بالنَّذْرِ﴾؛ أي: بما ألزموا به أنفسهم للّٰه من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجبٍ في الأصل عليهم[٨] إلا بإيجابهم على أنفسهم؛ كان فعلُهم وقيامهم بالفروض

---

(١) في (ب): «وهذا العذاب دائمٌ لهم أبداً». (٢) في (ب): «من محبة الله ومعرفته».
(٣) في (ب): «جوارحهم». (٤) في (ب): «أخبر».
(٥) في (ب): «بكافور».
(٦) في (ب): «فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة».
(٧) في (ب): «وقد ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة».
(٨) في (ب): «يوفون بالنذر وهو لم يجب عليهم».

الأصليَّة من باب أولى وأحرى، ﴿ويخافون يوماً كان شَرُّه مستطيراً﴾؛ أي: فاشياً منتشراً، فخافوا أن ينالهم شرُّه، فتركوا كلَّ سببٍ موجبٍ لذلك.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ﴿ويطعِمونَ الطَّعامَ على حبِّه﴾؛ أي: وهم في حال يحبُّون فيها المال والطعام، لكنَّهم قدَّموا محبَّة الله على محبَّة نفوسهم، ويتحرَّوْن في إطعامهم أولى الناس وأحوجَهم، ﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾: ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجهَ الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿إنَّما نطعِمُكم لوجه الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾؛ أي: لا جزاءً ماليًّا ولا ثناءً قوليًّا، ﴿إنا نخاف من ربِّنا يوماً عبوساً﴾؛ أي: شديد الجهمة والشرِّ، ﴿قمطريراً﴾؛ أي: ضنكاً ضيقاً.

﴿١١﴾ ﴿فوقاهُمُ اللهُ شرَّ ذلك اليوم﴾: فلا يحزنهم الفزعُ الأكبر، وتتلقَّاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتُم توعدون، ﴿ولَقَّاهُم﴾؛ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نضرةً﴾: في وجوههم، ﴿وسروراً﴾: في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظَّاهر والباطن.

﴿١٢﴾ ﴿وجزاهم بما صبروا﴾: على طاعته[1] فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصيه[2] فتركوها، وعلى أقداره[3] المؤلمة فلم يتسخَّطوها ﴿جنَّةً﴾: جامعةً لكلِّ نعيم سالمةً من كلِّ مكدِّرٍ ومنغِّص، ﴿وحريراً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ولباسُهم فيها حريرٌ﴾: ولعلَّ اللهَ إنَّما خصَّ الحريرَ لأنَّه لباسهم الظَّاهر الدالُّ على حال صاحبه.

﴿١٣﴾ ﴿متَّكئين فيها على الأرائكِ﴾: الاتِّكاء: التمكُّن من الجلوس في حال الطُّمأنينة والراحة والرَّفاهية[4]، والأرائك هي السُّرُر التي عليها اللباس المزيَّن، ﴿لا يَرَوْن فيها﴾؛ أي: في الجنة ﴿شمساً﴾: يضرُّهم حرُّها، ﴿ولا زمهريراً﴾؛ أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظلٍّ ظليلٍ، لا حرٌّ ولا بردٌ؛ بحيث تلتذُّ به الأجساد ولا تتألَّم من حرٍّ ولا بردٍ.

﴿١٤﴾ ﴿ودانيةً عليهم ظِلالها وذُلِّلَتْ قطوفُها تذليلاً﴾؛ أي: قُرِّبَتْ ثمراتها من مريدها تقريباً، ينالها وهو قائمٌ أو[5] قاعدٌ أو[5] مضطجعٌ.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ﴿ويُطافُ عليهم﴾؛ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة[6]،

---

(١) في (ب): «طاعة الله».
(٢) في (ب): «معاصي الله».
(٣) في (ب): «أقدار الله».
(٤) في (ب): «في حال الرفاهية والطمأنينة».
(٥) في (ب): «و».
(٦) في (ب): «﴿ويطاف﴾ على أهل الجنة؛ أي: يدور عليهم الخدم والولدان».

﴿بآنيةٍ من فضَّةٍ وأكوابٍ كانت قواريرَ. قواريرَ من فضَّةٍ﴾؛ أي: مادتها فضَّةٌ، وهي على صفاء القوارير، وهٰذا من أعجب الأشياء؛ أن تكون الفضَّةُ الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير، ﴿قدَّروها تقْديراً﴾؛ أي: قدَّروا الأواني المذكورة على قدرِ رِيِّهم؛ لا تزيدُ ولا تنقصُ؛ لأنَّها لو زادت؛ نقصتْ لذَّتها، ولو نقصت؛ لم تكفِهِم لرِيِّهم[1]. ويُحتمل أنَّ المراد: قدَّرها أهلُ الجنة[2] بمقدارٍ يوافقُ لذَّتَهم، فأتتْهم على ما قدَّروا في خواطرهم.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿ويُسْقَوْنَ فيها﴾؛ أي: الجنة ﴿كأساً﴾: وهو الإناء [المملوء] من خمرٍ ورحيقٍ. ﴿كان مِزاجُها﴾؛ أي: خلطها ﴿زنجبيلاً﴾: ليطيب طعمُه وريحُه. ﴿عيناً فيها﴾؛ [أي: في الجنة] ﴿تسمّى سَلْسَبيلاً﴾: سمِّيت بذٰلك لسلاستها ولذَّتها وحسنها.

﴿١٩﴾ ﴿ويطوفُ﴾: على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم، ﴿ولدانٌ مخلَّدون﴾؛ أي: خلقوا من الجنة للبقاء؛ لا يتغيَّرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إذا رأيتَهم﴾: منتشرين في خدمتهم، ﴿حسبتَهم﴾: من حسنهم ﴿لؤلؤاً منثوراً﴾: وهٰذا من تمام لذَّة أهل الجنة؛ أن يكون خُدَّامُهم الولدان المخلَّدون، الذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويدخُلون في مساكنهم آمنين من تَبِعَتِهِم، ويأتونَهم بما يدَّعون وتطلُبُه نفوسُهم.

﴿٢٠﴾ ﴿وإذا رأيتَ ثَمَّ﴾؛ أي: رمقتَ ما أهل الجنة عليه[3] من النعيم الكامل، ﴿رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً﴾: فتجد الواحد منهم عنده من [القصور و] المساكن والغرف المزيَّنة المزخرفة ما لا يدركُه الوصفُ، ولديه من البساتين الزاهرة والثِّمار الدَّانية والفواكه اللَّذيذة والأنهار الجارية والرِّياض المعجِبَة والطُّيور المطربة المُشْجِيَة، ما يأخُذُ بالقلوب ويُفْرِحُ النفوس، وعنده من الزَّوْجاتِ اللاَّتي هنَّ في غاية الحسن والإحسان الجامعات لجمال الظاهر والباطن الخَيِّراتِ الحسانِ، ما يملأُ القلبَ سروراً ولذَّةً وحبوراً، وحوله من الوِلْدان المخلَّدين والخدم المؤبَّدين ما به تحصل الراحة والطُّمأنينة، وتتمُّ لَذَّة العيش وتكمل الغِبطة، ثم علاوة ذٰلك ومعظمه الفوز برضا[4] الربِّ الرحيم وسماع خطابه ولَذَّة قربه والابتهاج برضاه والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كلَّ وقتٍ وحينٍ؛ فسبحان المالك الملك[5] الحقِّ المُبين، الذي لا تَنْفَدُ

---

(١) في (ب): «لم تفِ بريِّهم».
(٢) في (ب): «قدرها أهل الجنة بنفوسهم».
(٣) في (ب): «أي: هناك في الجنة ورمقت ما هم فيه».
(٤) في (ب): «برؤية».
(٥) في (ب): «الملك المالك».

خزائنه ولا يقلُّ خيرُه؛ كما[1] لا نهاية لأوصافِهِ؛ فلا نهايةَ لبرِّه وإحسانه.

﴿٢١﴾ ﴿عاليهم ثيابُ سندسٍ خضرٌ﴾؛ أي: قد جلَّلتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران اللَّذان هما أجَلُّ أنواع الحرير، فالسُّندس ما غلظ من الحرير، والإستبرقُ ما رقَّ منه، ﴿وحُلُّوا أساوِرَ من فضَّةٍ﴾؛ أي: حُلُّوا في أيديهم أساور الفضَّة؛ ذكورهم وإناثهم. وهٰذا وعدٌ وَعَدَهم الله، وكان وعدُه مفعولاً؛ لأنَّه لا أصدق منه قيلاً ولا حديثاً. وقوله: ﴿وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً﴾؛ أي: لا كدر فيه بوجهٍ من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كلِّ أذىً وقذىً.

﴿٢٢﴾ ﴿[إنَّ] هٰذا﴾: الجزاء الجزيل [والعطاء الجميل] ﴿كان لكم جزاءً﴾: على ما أسلَفْتموه من الأعمال، ﴿وكان سعيُكم مشكوراً﴾؛ أي: القليل [منه] يجعل الله لكم به من النعيم [المقيم] ما لا يمكن حصره.

﴿٢٣﴾ وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إنَّا نحن نزَّلْنا عليك القرآن تنزيلاً﴾: فيه الوعد والوعيد وبيانُ كلِّ ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتمَّ القيام والسعي في تنفيذها والصبر على ذٰلك.

﴿٢٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربِّك ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً﴾؛ أي: اصبر لحكمه القدريِّ؛ فلا تسخطه، ولحكمه الدينيِّ؛ فامض عليه، ولا يعوقنَّك عنه عائقٌ، ﴿ولا تطع﴾: من المعاندين الذين يريدونَ أن يَصُدُّوك ﴿آثماً﴾؛ أي: فاعلاً إثماً ومعصيةً، ﴿ولا كفوراً﴾: فإنَّ طاعة الكفَّار والفجَّار والفسَّاق لا بدَّ أن تكون معصيةً لله[2]؛ فإنَّهم لا يأمرون إلَّا بما تهواه أنفسهم.

﴿٢٥﴾ ولما كان الصبر يُسْتَمَدُّ من القيام بطاعة الله[3] والإكثار من ذِكْرِه؛ أمر[4] الله بذٰلك، فقال: ﴿واذكُرِ اسمَ ربِّك بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذٰلك الصلوات المكتوبات، وما يتبعها من النَّوافل والذِّكْر والتَّسبيح والتَّهليل والتَّكبير في هٰذه الأوقات.

﴿٢٦﴾ ﴿ومن الليل فاسْجُدْ له﴾؛ أي: أكثر له من السُّجود، وذٰلك متضمِّن لكثرة الصلاة[5]، ﴿وسبِّحه ليلاً طويلاً﴾: وقد تقدَّم تقييد هٰذا المطلق بقوله: ﴿يا

(١) في (ب): «فكما».
(٢) في (ب): «لا بد أن تكون في المعاصي».
(٣) في (ب): «ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله».
(٤) في (ب): «أمره الله».
(٥) في (ب): «أي: أكثر من السجود، ولا يكون ذلك إلاَّ بالإكثار من الصلاة».

أيُّها المزَّمِّلُ. قم الليلَ إلَّا قليلاً. نِصْفَهُ أو انقُصْ منه قليلاً. أو زِدْ عليه...﴾.

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿إنَّ هٰؤلاء﴾؛ أي: المكَذِّبين لك أيها الرسول بعدما بُيِّنَتْ لهم الآيات ورُغِّبوا ورُهِّبوا، ومع ذٰلك لم يُفِدْ فيهم ذٰلك شيئاً، بل لا يزالون يُؤْثِرون ﴿العاجلةَ﴾: ويطمئنُّون إليها، ﴿ويذرونَ﴾؛ أي: يتركون العمل ويهملون ﴿وراءهم﴾؛ أي: أمامهم ﴿يوماً ثقيلاً﴾: وهو يوم القيامةِ، الذي مقداره خمسون ألفَ سنةٍ ممَّا تعدُّون، وقال تعالى: ﴿يقولُ الكافرون هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾؛ فكأنَّهم ما خُلِقوا إلَّا للدُّنيا والإقامة فيها.

﴿٢٨﴾ ثم استدلَّ عليهم وعلى بعثهم بدليل عقليٍّ، وهو دليلُ الابتداء، فقال: ﴿نحن خلَقْناهم﴾؛ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشَدَدْنا أسْرَهم﴾؛ أي: أحكمنا خِلْقَتَهم بالأعصاب والعروق والأوتار والقُوى الظاهرة والباطنة، حتى تمَّ الجسم واستكمل وتمكَّن من كلِّ ما يريده؛ فالذي أوجدهم على هٰذه الحالة قادرٌ على أن يعيدَهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقَّلهم في هٰذه الدار إلى هٰذه الأطوار لا يَليقُ به أن يَتْرُكَهم سدىً، لا يُؤْمَرون، ولا يُنْهَوْن، ولا يُثابون، ولا يُعاقبون، ولهٰذا قال: ﴿وإذا شِئْنا بَدَّلْنا أمثالَهم تَبْديلا﴾؛ أي: أنشأناكم للبعث نشأةً أخرى، وأعدْناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إنَّ هٰذه تذكرةٌ﴾؛ أي: يتذكَّر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب، ﴿فمَن شاءَ اتَّخذَ إلى ربِّه سَبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه؛ فالله يبيِّن الحقَّ والهدى، ثم يخيِّر الناس بين الاهتداء بها أو النُّفور عنها؛ إقامةً للحُجَّة[1]؛ ليهلكَ من هَلَكَ عن بيِّنةٍ، ويحيا من حيَّ عن بينةٍ.

﴿٣٠﴾ ﴿وما تشاؤون إلَّا أن يشاءَ اللهُ﴾: فإنَّ مشيئة الله نافذةٌ. ﴿إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾: فله الحكمةُ في هداية المهتدي وإضلال الضالِّ.

﴿٣١﴾ ﴿يُدْخِلُ مَن يشاءُ في رحمتِهِ﴾: فيختصُّه بعنايته، ويوفِّقه لأسباب السعادة، ويهديه لطُرُقِها، ﴿والظَّالمين﴾: الذين اختاروا الشقاء على الهدى، ﴿أعدَّ لهم عذاباً أليماً﴾: بظلمهم وعدوانهم.

تمت. ولله الحمد[2].

* * *

(١) في (ب): «مع قيام الحجة».

(٢) في (ب): «تمَّ تفسير سورة الإنسان. ولله الحمد والمنة».

# تفسير سورة المرسلات

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾[1] فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال بـ ﴿المُرْسَلات عُرْفاً﴾: وهي الملائكةُ التي يرسِلُها الله تعالى بشؤونه القدريَّة وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعيَّة ووحيه إلى رسله، و ﴿عُرْفاً﴾: حال من المرسلات؛ أي: أرسلت بالعُرْف والحكمة والمصلحة، لا بالنُّكر والعبث. ﴿فالعاصفاتِ عصفاً﴾: وهي أيضاً الملائكة التي يرسِلُها الله تعالى، وَصَفَها بالمبادرة لأمره وسرعة تنفيذ أوامره كالريح العاصف أو أنَّ العاصفات الرياح الشديدة التي يُسْرِعُ هبوبها، ﴿والناشرات نشراً﴾: يُحتمل أنَّ المراد بها الملائكة[2]؛ تنشر ما دُبِّرت على نشره، أو أنَّها السحاب التي يَنْشُرُ الله بها الأرض فيحييها بعد موتها. ﴿فالمُلْقِياتِ ذِكْراً﴾: هي الملائكة تلقي أشرفَ الأوامر، وهو الذِّكْرُ الذي يرحم الله به عباده، ويذكِّرهم فيه منافعهم ومصالحهم؛ تلقيه إلى الرسل ﴿عُذْراً أو نُذْراً﴾؛ أي: إعذاراً وإنذاراً للناس؛ تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطَعُ أعذارهم[3]؛ فلا يكون لهم حُجَّةٌ على الله.

﴿٧﴾ ﴿إنَّما توعَدون﴾: من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَواقِعٌ﴾؛ أي: متحتِّم وقوعه من غير شكٍّ ولا ارتياب.

﴿٨ ـ ١٤﴾ فإذا وقع؛ حصل من التغيُّر[4] للعالم والأهوال الشَّديدة ما يزعج القلوبَ وتشتدُّ له الكروب فتنطمس النُّجوم؛ أي: تتناثر وتزول عن أماكِنِها، وتُنْسَفُ الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها

---

(١) في (أ): «إلى قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «يحتمل أنها الملائكة». (٣) في (ب): «معذرتهم».

(٤) في (ب): «التغيير».

عوجاً ولا أمتاً، وذٰلك اليوم هو اليوم الذي ﴿أُقِّتَتْ﴾ فيه الرسل، وأُجِّلَتْ للحكم بينها وبين أممها، ولهٰذا قال: ﴿لأيِّ يوم أُجِّلَتْ﴾: استفهامٌ للتعظيم والتفخيم والتهويل، ثم أجاب بقوله: ﴿ليوم الفصل﴾؛ أي: بين الخلائق بعضهم من بعض، وحساب كلٍّ منهم منفرداً.

﴿١٥﴾ ثم توعَّد المكذِّب بهٰذا اليوم، فقال: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾؛ أي: يا حسرتهم وشدَّة عذابهم وسوءَ منقلبهم، أخبرهم الله وأقسم لهم فلم يصدقوه؛ فلذٰلك استحقُّوا[1] العقوبة البليغة.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ أي: أما أهلكنا المكذِّبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كَذَّب من الآخرين، وهٰذه سنَّته السابقة واللاحقة في كلِّ مجرم، لا بدَّ من عقابه[2]، فلِمَ لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟! ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: بعدما شاهدوا من الآيات البينات والعقوباتِ والمَثُلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٠ ـ ٢٤﴾ أي: أما خلقناكم أيُّها الآدميُّون ﴿من ماءٍ مَهينٍ﴾؛ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصُّلب والتَّرائب، حتى جعله الله ﴿في قرارٍ مَكينٍ﴾: وهو الرحم به يستقرُّ وينمو، ﴿إلى قدرٍ معلومٍ﴾: ووقتٍ مقدَّرٍ. ﴿فقَدَرْنا﴾؛ أي: قدَّرْنا ودبَّرْنا ذٰلك الجنين في تلك الظُّلمات، ونقلناه من النُّطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن جعله الله جسداً و[3]نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذٰلك. ﴿فنعم القادِرونَ﴾؛ يعني بذٰلك نفسه المقدَّسة؛ لأنَّ قَدَرَه تابعٌ لحكمته موافقٌ للحمد[4]. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ﴾، [بعد ما بيَّن اللّٰهُ لهم الآياتِ وأراهم العبَر والبيِّناتِ].

---

(١) في (ب): «فاستحقوا». (٢) في (ب): «عذابه».
(٣) في (ب): «ثم».
(٤) في (ب): «حيث كان قدراً تابعاً للحكمة وموافقاً للحمد».

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٨﴾ أي: أما مَنَنَّا[1] عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم فجعلناها ﴿كفاتاً﴾: لكم، ﴿أحياءً﴾: في الدور، ﴿وأمواتاً﴾: في القبور؛ فكما أنَّ الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنَّته؛ فكذلك القبور رحمة في حقِّهم وسترٌ لهم عن كون أجسادهم باديةً للسِّباع وغيرها. ﴿وجعلنا فيها رواسيَ﴾؛ أي: جبالاً ترسي الأرض لئلاَّ تميدَ بأهلها، فثبَّتها الله بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض. ﴿وأسقيناكم ماءً فُراتاً﴾؛ أي: عذباً زلالاً؛ قال تعالى: ﴿أفرأيْتُم الماءَ الذي تشربونَ. أأنتُم أنزَلْتُموه من المُزْنِ أمْ نحنُ المنزِلونَ. لو نشاءُ جعلناه أُجاجاً فلولا تَشْكُرونَ﴾. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد بها، واختصَّهم بها فقابلوها بالتكذيب.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٤﴾ هٰذا من الويل الذي أُعِدَّ للمجرمين المكذِّبين أنْ يقال لهم يوم القيامةِ: ﴿انطَلِقوا إلى ما كُنتُم به تكذِّبونَ﴾: ثم فسَّر ذٰلك بقوله: ﴿انطَلِقوا إلى ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: إلى ظلِّ نار جهنَّم التي[2] تتمايز في خلاله ثلاث شعب؛ أي: قطع من النار تتعاوره[3] وتتناوبه وتجتمع به. ﴿لا ظليلٍ﴾: ذٰلك الظلُّ؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ولا يُغْني﴾: من مَكَثَ فيه ﴿من اللَّهب﴾: بل اللهب قد أحاط به يمنةً ويسرةً ومن كلِّ جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتِهِم ظُلَلٌ﴾، ﴿لهم من جَهَنَّمَ مهادٌ ومن فوقِهِم غواشٍ وكذٰلك نجزي الظَّالمينَ﴾.

ثم ذكر عِظَمَ شرر النار الدالِّ على عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال: ﴿إنها تَرْمي بشررٍ كالقَصْر. كأنَّه جِمالةٌ صُفْرٌ﴾: وهي السود التي تضرِب إلى لونٍ فيه صفرة، وهٰذا يدلُّ على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداءُ كريهةُ

(١) في (ب): «أما آمتنَّا».
(٢) في (ب): «الذي».
(٣) في (ب): «أي: تتعاوره».

المنظر[1] شديدةُ الحرارة؛ نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقرِّبة منها. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٥ ـ ٣٧﴾ أي: هٰذا اليوم العظيم الشَّديد على المكذِّبين، لا ينطِقون فيه من الخوف والوَجَل الشديد، ﴿ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتَذِرون﴾؛ أي: لا تُقبل معذرتُهم ولو اعتذروا. ﴿فيومئذٍ لا ينفع الذين ظَلَموا معذِرَتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾.

﴿٣٨ ـ ٤٠﴾ ﴿هٰذا يومُ الفصل جَمَعْناكم والأوَّلينَ﴾: لنفصل بينَكم ونحكُمَ بين الخلائق. ﴿فإن كانَ لكم كيدٌ﴾: تقدِرون على الخروج عن ملكي وتَنْجونَ به من عذابي، ﴿فكيدونِ﴾؛ أي: ليس لكم قدرةٌ ولا سلطانٌ؛ كما قال تعالى: ﴿يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إنِ اسْتَطَعْتُم أن تنفُذوا من أقطارِ السمٰواتِ والأرضِ فانفُذوا، لا تَنفُذون إلَّا بسلطانٍ﴾؛ ففي ذٰلك اليوم تبطُل حيل الظالمين، ويضمحلُّ مكرُهم وكيدُهم ويستسلمون لعذابِ الله، ويبين لهم كذِبُهم في تكذيبهم. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤١ ـ ٤٥﴾ لمَّا ذكر عقوبة المكذِّبين؛ ذكر مثوبة[2] المحسنين، فقال: ﴿إنَّ المتَّقين﴾؛ أي: للتكذيب، المتَّصفين بالتَّصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذٰلك إلَّا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرَّمات، ﴿في ظلالٍ﴾: من كثرة الأشجار المتنوِّعة الزاهرة[3] البهيَّة، ﴿وعيونٍ﴾: جاريةٍ من السلسبيل والرحيق وغيرهما، ﴿وفواكهَ ممَّا يشتهونَ﴾؛ أي: من خيار الفواكه وأطيبها[4]، ويقال لهم: ﴿كُلوا واشْرَبوا﴾: من المآكل الشهيَّة والأشربة اللَّذيذة، ﴿هنيئاً﴾؛ أي: من غير منغِّص ولا مكدِّر، ولا يتمُّ هناؤه حتى يسلمَ الطعام والشرابُ من كلِّ آفةٍ ونقصٍ،

---

(١) في (ب): «كريهة المرأى».
(٢) في (ب): «ثواب».
(٣) في (ب): «الزاهية».
(٤) في (ب): «وطيبها».

وحتى يجزموا أنَّه غيرُ منقطع ولا زائل؛ ﴿بما كنتُم تعملونَ﴾: فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى جنَّات النعيم[١] المقيم، وهٰكذا كلُّ من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهٰذا قال: ﴿إنَّا كذٰلك نجزي المحسِنينَ. ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: ولو لم يكن من هٰذا الويل إلَّا فوات هٰذا النعيم؛ لكفى به حزناً وحرماناً[٢].

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٦ ـ ٥٠﴾ هٰذا تهديدٌ ووعيدٌ للمكذِّبين أنَّهم وإن أكلوا في الدُّنيا وشربوا وتمتَّعوا باللَّذَّات وغفلوا عن القُربات؛ فإنَّهم مجرمون يستحقُّون ما يستحقُّه المجرمون، فتنقطع عنهم اللَّذَّات، وتبقى عليهم التَّبِعات. ومن إجرامهم أنَّهم إذا أُمِروا بالصَّلاة التي هي أشرف العبادات، و﴿قيل لهم اركعوا﴾: امتنعوا من ذٰلك؛ فأيُّ إجرام فوق هٰذا؟ وأيُّ تكذيب يزيد على هٰذا؟ ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: ومن الويل عليهم أنَّهم تنسدُّ عنهم[٣] أبواب التوفيق ويُحْرَمون كلَّ خيرٍ؛ فإنَّهم إذا كذَّبوا هٰذا القرآن الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق؛ ﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَه يؤمنونَ﴾: أبالباطل الذي هو كاسمه لا يقوم عليه شبهةٌ فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام[٤] مشركٍ كذَّابٍ أفَّاكٍ مبينٍ؟ فليس بعد النُّور المبين إلَّا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين القاطعة إلَّا الإفك الصراح والكذب المبينُ[٥] الذي لا يَليقُ إلَّا بمن يناسبه؛ فتبًّا لهم ما أعماهم! وويحاً لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

تمت.

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «إلى هذا النعيم».
(٢) في (ب): «حرماناً وخسراناً».
(٣) في (ب): «عليهم».
(٤) في (ب): «بكلام كلِّ».
(٥) في (ب): «قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين».

# تفسير سورة عمَّ

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ أي: عن أيِّ شيءٍ يتساءل المكذِّبون بآيات الله؟ ثم بيَّن ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عن النبإ العظيم. الذي هم فيه مختلفون﴾؛ أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعُهم وانتشر فيه خلافُهم على وجه التَّكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشكَّ ولا يدخُله الريبُ، ولكن المكذِّبون بلقاء ربِّهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كلُّ آيةٍ، حتى يَرَوُا العذاب الأليم، ولهذا قال: ﴿كلَّا سيعلمونَ. ثم كلَّا سيعلمونَ﴾؛ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذابُ ما كانوا به يكذبون حين ﴿يُدَعُّون إلى نار جَهَنَّم دعًّا﴾. ويقال لهم: ﴿هذه النَّار التي كنتُم بها تكذِّبونَ﴾.

ثم ذكر[1] تعالى النِّعم والأدلَّة الدالَّة على ما جاءت[2] به الرُّسل فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾[3] وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿٦ ـ ١٦﴾؛ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلةٍ، فجعلنا لكم ﴿الأرضَ مِهاداً﴾؛ أي: ممهَّدة مذلَّلة[4] لكم ولمصالحكم من الحروث والمساكن والسُّبل، ﴿والجبالَ أوتاداً﴾: تمسك الأرض لئلاَّ تضطرب بكم وتميدَ، ﴿وخَلَقْناكم أزواجاً﴾؛ أي: ذكوراً وإناثاً من جنس واحدٍ؛ ليسكن كلٌّ منهما إلى الآخر، فتتكوَّن[5] المودَّة والرحمة، وتنشأ عنهما الذُّرِّيَّة. وفي ضمن هذا الامتنان بلذَّة المنكح. ﴿وجَعَلْنا نومَكم سُباتاً﴾؛ أي: راحةً لكم وقطعاً لأشغالكم التي متى تمادت بكم؛ أضرَّت

---

(١) في (ب): «بيَّن». (٢) في (ب): «أخبرت».
(٣) في ( أ ): إلى قوله: ﴿ألفافاً﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «مهيئة». (٥) في (ب): «فتكون».

بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يُغشي الناس لتسكنَ[١] حركاتُهم الضارَّة وتحصل راحتُهم النافعةُ، ﴿وبنينا فوقَكم سبعاً شِداداً﴾؛ أي: سبع سماواتٍ في غاية القوَّة والصَّلابة والشِّدَّة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفاً للأرض، فيها عدَّة منافع لهم، ولهٰذا ذكر من منافعها الشمس، فقال: ﴿وجَعَلْنا سراجاً وهَّاجاً﴾: نبَّه بالسِّراج على النِّعمة بنورها الذي صار ضرورةً للخلق، وبالوهَّاج ـ وهي حرارتها ـ على ما فيها من الإنضاج والمنافع[٢]، ﴿وأنزلنا من المعصِراتِ﴾؛ أي: السَّحاب ﴿ماءً ثَجَّاجاً﴾؛ أي: كثيراً جدًّا؛ ﴿لِنُخرِجَ به حبًّا﴾: من برٍّ وشعيرٍ وذرةٍ وأرزٍّ وغير ذٰلك ممّا يأكله الآدميُّون، ﴿ونباتاً﴾: يشملُ سائر النَّبات الذي جعله الله قوتاً لمواشيهم، ﴿وجناتٍ ألفافاً﴾؛ أي: بساتين ملتفَّة فيها من جميع أصناف الفواكه اللَّذيذة؛ فالذي أنعم [عليكم] بهٰذه النِّعم الجليلة[٣] التي لا يقدر قدرها ولا يحصى عددها؛ كيف تكفُرون به وتكذِّبون ما أخبركم به من البعث والنُّشور؟! أم كيف تستعينون بنعمِهِ على معاصيه وتجحَدونها؟!

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ [٤]يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ
فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا
﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً
وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ
كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

﴿١٧ ـ ٢٥﴾ ذكر الله تعالى ما يكون في يوم القيامةِ الذي يتساءل عنه المكذِّبون ويجحده المعاندون؛ أنَّه يومٌ عظيمٌ، وأن الله جعله ﴿ميقاتاً﴾ للخلق، ﴿يُنفَخُ في الصُّور﴾ فيأتون ﴿أفواجاً﴾: ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يَشيبُ له المولودُ[٥] وتنزعجُ له القلوبُ، فتسير الجبال حتى تكون كالهباء المبثوثِ، وتنشقُّ[٦]

(١) في (ب): «فتنقطع».
(٢) في (ب): «كالضرورة للخلق، وبالوهاج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح».
(٣) في (ب): «العظيمة».
(٤) في ( أ ): إلى قوله: ﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «الوليد».
(٦) في (ب): «وتشقّق».

السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور، وتوقدُ نارُ جهنَّم التي أرصدها الله وأعدَّها للطَّاغين وجعلها مثوىً لهم ومآباً، وأنَّهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرةً، والحقبُ على ما قاله كثيرٌ من المفسِّرين ثمانون سنة؛ فإذا وردوها[١]؛ ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾؛ أي: لا ما يبرِّدُ جلودَهم ولا ما يدفع ظمأهم؛ ﴿إلَّا حميماً﴾؛ أي: ماءً حارًّا يشوي وجوههم ويقطِّع أمعاءهم ﴿وغسَّاقاً﴾: وهو صديدُ أهل النار: الذي هو في غاية النتن وكراهة المذاق.

﴿٢٦ ـ ٣٠﴾ وإنَّما استحقُّوا هٰذه العقوبات الفظيعة جزاءً لهم وفاقاً على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها، لم يظلمهم الله ولٰكن ظلموا أنفسهم، ولهٰذا ذكر أعمالهم التي استحقُّوا بها هٰذا الجزاء، فقال: ﴿إنَّهم كانوا لا يرجونَ حساباً﴾؛ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أنَّ الله يجازي الخلق بالخير والشرِّ؛ فلذٰلك أهملوا العمل للآخرة، ﴿وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً﴾؛ أي: كذَّبوا بها تكذيباً واضحاً صريحاً، وجاءتهم البيِّنات فعاندوها، ﴿وكلَّ شيءٍ﴾: من قليلٍ وكثيرٍ وخيرٍ وشرٍّ، ﴿أحصيناه كتاباً﴾؛ أي: أثبتناه[٢] في اللوح المحفوظ؛ فلا يحسب[٣] المجرمون أنَّا عذَّبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنَّه يضيع من أعمالهم شيءٌ أو يُنسى منها مثقالُ ذرَّةٍ؛ كما قال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مشفقين ممَّا فيه ويقولون يا ويلتنا مالِ هٰذا الكتاب لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلَّا أحصاها ووجدَوا ما عمِلوا حاضراً ولا يظلِمُ ربُّك أحداً﴾. ﴿فذوقوا﴾: أيُّها المكذِّبون هٰذا العذاب الأليم والخزيَ الدائم، ﴿فلن نزيدكم إلَّا عذاباً﴾: فكلُّ وقتٍ وحينٍ يزدادُ عذابُهم. وهٰذه الآيةُ أشدُّ الآيات في شدَّة عذاب أهل النار، أجارنا الله منها.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾[٤] حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣١ ـ ٣٦﴾ لمَّا ذكر حال المجرمين؛ ذَكَرَ مآلَ المتَّقين، فقال: ﴿إنَّ للمتَّقين مفازاً﴾؛ أي: الذين[٥] اتَّقوا سَخَطَ ربِّهم بالتَّمسُّك بطاعته والانكفاف عن

---

(١) في (ب): «وهم إذا وردوها». (٢) في (ب): «كتبناه».
(٣) في (ب): «فلا يخشى».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿عطاء حساباً﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «إن المتقين الذين...».

معصيته[١]؛ فلهم مفازٌ ومنجىً وبعدٌ عن النار، وفي ذٰلك المفاز لهم ﴿حدائق﴾: وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثِّمار التي تتفجَّر بين خلالها الأنهار، وخصَّ العنب[٢] لشرفه وكثرته في تلك الحدائق. ولهم فيها زوجاتٌ على مطالب النُّفوس ﴿كواعبَ﴾: وهي النواهِدُ اللاَّتي لم تتكسَّر ثديُهُنَّ من شبابهنَّ وقوَّتهن ونضارتهنَّ[٣]. والأتراب اللاَّتي على سنٍّ واحدٍ متقاربٍ، ومن عادة الأتراب أن يكنَّ متآلفاتٍ[٤] متعاشراتٍ، وذٰلك السنُّ الذي هنَّ فيه ثلاثٌ وثلاثونَ سنةً أعدل ما يكون من الشباب[٥]، ﴿وكأساً دِهاقاً﴾؛ أي: مملوءة من رحيقٍ لَذَّةٍ للشاربين، ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾؛ أي: كلاماً لا فائدة فيه، ﴿ولا كِذَّاباً﴾؛ أي: إثماً؛ كما قال تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلَّا قِيلاً سلاماً سلاماً﴾، وإنَّما أعطاهم الله هٰذا الثَّواب الجزيل من فضله وإحسانه[٦]. ﴿عطاءً حساباً﴾؛ أي: بسبب أعمالهم التي وفَّقهم الله لها، وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته[٧].

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾[٨] يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٧ ـ ٣٩﴾ أي: الذي أعطاهم هٰذه العطايا هو ربُّهم، ﴿ربُّ السمٰواتِ والأرضِ﴾: الذي خلقها ودبَّرها. ﴿الرحمٰن﴾: الذي رحمته وسعتْ كلَّ شيءٍ، فربَّاهم ورحمهم ولطف بهم حتى أدركوا ما أدركوا. ثم ذكر عَظَمَتَه وملكَه العظيم يوم القيامةِ، وأنَّ جميع الخلق كلَّهم ساكتون ذٰلك اليوم[٩] لا يتكلَّمون و ﴿لا يملِكونَ منه خطاباً﴾؛ ﴿إلَّا مَنْ أذِنَ له الرحمٰن وقال صواباً﴾: فلا يتكلَّم أحدٌ إلَّا

---

(١) في (ب): «عمّا يكرهه».
(٢) في (ب): «الأعناب».
(٣) في (ب): «وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابها ونضارتها وقوتها».
(٤) في (ب): «متوالفات».
(٥) في (ب): «في أعدل سنِّ الشباب».
(٦) في (ب): «هذا الثواب الجزيل جزاء من ربك لهم».
(٧) في (ب): «وجعلها ثمناً لجنّته ونعيمها».
(٨) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٩) في (ب): «ذلك اليوم ساكتون».

بهٰذين الشرطين: أن يأذنَ الله له في الكلام، وأنْ يكونَ ما تكلَّم به صواباً؛ لأنَّ ﴿ذٰلك اليوم﴾ [هو] ﴿الحقُّ﴾: الذي لا يَروج فيه الباطلُ ولا ينفعُ فيه الكذب. وفي ذٰلك اليوم ﴿يقومُ الرُّوح﴾: وهو جبريلُ عليه السلام، الذي هو أفضلُ[١] الملائكة، ﴿والملائكةُ﴾: أيضاً يقوم الجميع ﴿صفًّا﴾: خاضعين لله، لا يتكلَّمون إلَّا بإذنه[٢]. فلمَّا رَغَّب ورَهَّب وبشَّرَ وأنذر؛ قال: ﴿فَمَن شاء اتَّخذ إلى ربِّه مآباً﴾؛ أي: عملاً وقَدَمَ صدقٍ يرجع إليه يوم القيامةِ.

﴿٤٠﴾ ﴿إنَّا أنذَرْناكم عذاباً قريباً﴾: لأنَّه قد أزِفَ مقبلاً، وكلُّ ما هو آتٍ [فهو] قريبٌ. ﴿يوم ينظُرُ المرءُ ما قدَّمتْ يداه﴾؛ أي: هٰذا الذي يهمُّه ويفزع إليه، فلينظر في هٰذه الدار ما قدَّم لدار القرار[٣]، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله وَلْتَنظُرْ نفسٌ ما قدَّمت لغدٍ واتَّقوا اللهَ إنَّ الله خبيرٌ بما تعملونَ...﴾ الآيات؛ فإن وجد خيراً؛ فليحمدِ الله، وإن وجدَ غير ذٰلك؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه. ولهٰذا كان الكفار يتمنَّوْن الموت من شدَّة الحسرة والندم. نسأل الله أن يعافِيَنا من الكفر والشرِّ كلِّه إنَّه جوادٌ كريمٌ.

تمت[٤].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة النازعات

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾[٥] وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

---

(١) في (ب): «أشرف». (٢) في (ب): «إلا بما أذن لهم الله به».

(٣) في (ب): «فلينظر في هذه الدنيا إليه كما قال تعالى».

(٤) طمس الذي في (أ). وفي (ب): «تمّ تفسير سورة عم. والحمد لله رب العالمين».

(٥) في (أ): إلى قوله: ﴿فإذا هم بالساهرة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿١ ـ ٥﴾ هٰذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالَّة على كمال انقيادهم لأمر الله وإسراعهم في تنفيذه[(١)]؛ يُحتمل أنَّ المقسم عليه الجزاء والبعث؛ بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذٰلك، ويُحتمل أنَّ المقسَم عليه والمقسَم به متَّحِدان، وأنَّه أقسم على الملائكة؛ لأنَّ الإيمان بهم أحدُ أركان الإيمان الستَّة، ولأنَّ في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمَّن الجزاء الذي تتولَّاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده، فقال: ﴿والنازعاتِ غَرْقاً﴾: وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوَّة، وتغرق في نزعها حتى تخرج الرُّوح فتجازى بعملها. ﴿والناشطاتِ نشطاً﴾: وهي الملائكة أيضاً تجتذبُ الأرواحَ بقوَّة ونشاطٍ، أو أنَّ النشطَ[(٢)] يكون لأرواح المؤمنين والنَّزْع لأرواح الكفَّار. ﴿والسَّابحاتِ﴾؛ أي: المتردِّدات في الهواء صعوداً ونزولاً، ﴿سبحاً. فالسَّابقاتِ﴾: لغيرها ﴿سبقاً﴾: فتبادِرُ لأمر الله وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله؛ لئلَّا تسترِقه[(٣)]، ﴿فالمدبِّراتِ أمراً﴾؛ [أي]: الملائكة الذين جعلهم الله يدبِّرون[(٤)] كثيراً من أمور العالم العلويِّ والسفليِّ من الأمطار والنَّبات [والأشجار] والرِّياح والبحار والأجنَّة والحيوانات والجنَّة والنار وغير ذٰلك.

﴿٦ ـ ٩﴾ ﴿يومَ ترجُفُ الرَّاجفةُ﴾: وهي قيام الساعة، ﴿تتبعُها الرادفةُ﴾؛ أي: الرجفة الأخرى التي تَرْدُفُها وتأتي تلوَها. ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ﴾؛ أي: منزعجةٌ[(٥)] من شدَّة ما ترى وتسمع، ﴿أبصارُها خاشعةٌ﴾؛ أي: ذليلةٌ حقيرةٌ قد ملك قلوبهم الخوف وأذهل أفئدتهم الفزع وغلب عليهم التأسُّف، واستولت عليهم الحسرة.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ ﴿يقولونَ﴾[(٦)]؛ أي: الكفار في الدُّنيا على وجه التكذيب: ﴿أإذا كُنَّا عظاماً نخرةً﴾؛ أي: باليةً فتاتاً، ﴿قالوا تلك إذاً كَرَّةٌ خاسرةٌ﴾؛ أي: استبعدوا أن يبعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرةً جهلاً منهم بقدرة الله وتجرياً عليه! قال الله في بيان سهولة هٰذا الأمر عليه: ﴿فإنَّما هي زجرةٌ واحدةٌ﴾: يُنفخ[(٧)] في الصور؛ فإذا الخلائقُ كلُّهم ﴿بالسَّاهرةِ﴾؛ أي: على وجه الأرض قيامٌ ينظرونَ، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم.

---

(١) في (ب): «تنفيذ أمره».
(٢) في (ب): «النزع».
(٣) في (ب): «حتى لا تسترقه».
(٤) في (ب): «الذين وكلهم الله أن يدبروا».
(٥) في (ب): «أي: موجفة منزعجة».
(٦) الآية (١٠) لم يفسرها المؤلف.
(٧) في (ب): «وينفخ فيها في».

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ [١] إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿١٥ ـ ٢٥﴾ يقول الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿هل أتاك حديثُ موسى﴾: وهٰذا الاستفهام عن أمرٍ عظيم متحقِّق وقوعه؛ أي: هل أتاك حديثه. ﴿إذ ناداه ربُّه بالوادِ المقدَّس طوىً﴾: وهوَ المحلُّ الذي كلَّمه الله فيه، وامتنَّ عليه بالرسالة، وابتعثه بالوحي، واجتباه[٢]، فقال له: ﴿اذهبْ إلى فرعونَ إنَّه طغى﴾؛ أي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه بقولٍ ليِّنٍ وخطابٍ لطيفٍ لعله يتذكر أو يخشى، ﴿فقُل له هل لك إلى أن تزكَّى﴾؛ أي: هل لك في خصلةٍ حميدةٍ ومحمدةٍ جميلةٍ يتنافس فيها أولو الألباب؟ وهي أن تزكِّيَ نفسك وتطهِّرَها من دَنَس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح. ﴿وأهدِيَك إلى ربِّك﴾؛ أي: أدلُّك عليه، وأبيِّن لك مواقع رضاه من مواقع سخطه، ﴿فتخشى﴾: الله إذا علمت الصراط المستقيم. فامتنع فرعون ممَّا دعاه إليه موسى، ﴿فأراه الآيةَ الكبرى﴾؛ أي: جنس الآية الكبرى؛ فلا ينافي تعدُّدها، ﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ . ونزعَ يدَه فإذا هي بيضاءُ للنَّاظرين﴾. ﴿فكذَّب﴾: بالحقِّ، ﴿وعصى﴾: الأمر، ﴿ثم أدبر يسعى﴾؛ أي: يجتهد في مبارزة الحقِّ ومحاربته. ﴿فحشر﴾: جنودَه؛ أي: جمعهم، ﴿فنادى. فقال﴾: لهم: ﴿أنا ربُّكم الأعلى﴾: فأذعنوا له وأقرُّوا بباطله حين استخفَّهم. ﴿فأخذه اللهُ نكالَ الآخرةِ والأولى﴾؛ أي: جعل الله[٣] عقوبته دليلاً وزاجراً ومبيِّنةً لعقوبة الدُّنيا والآخرة.

﴿٢٦﴾ ﴿إنَّ في ذٰلك لَعبرةً لـمَن يَخْشى﴾: فإنَّ مَنْ يخشى الله هو الذي ينتفع بالآيات والعبر؛ فإذا رأى عقوبة فرعون؛ عرف أنَّ [كلَّ] من تكبَّر وعصى وبارز الملك الأعلى؛ يعاقِبه في الدُّنيا والآخرة، وأمَّا مَن ترحَّلت خشيةُ الله من قلبه؛ فلو جاءته كلُّ آيةٍ؛ لم يؤمنْ بها.

(١) في (أ): طمس، وفي (ب): ذكر الآيات إلى قوله: ﴿لعبرة لمن يخشى﴾.
(٢) في (ب): «واختصه بالوحي والاجتباء».
(٣) في (ب): «أي: صارت».

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾[1] رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿٢٧ ـ ٣٣﴾ يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد: ﴿أأنتم﴾: أيُها البشر، ﴿أشدُّ خلقاً أم السماءُ﴾: ذات الجرم العظيم والخلق القويِّ والارتفاع الباهر، ﴿بناها﴾: الله، ﴿رفَعَ سَمْكَها﴾؛ أي: جرمها وصورتها. ﴿فسوَّاها﴾: بإحكام وإتقانٍ يحيِّر العقول ويذهل الألباب، ﴿وأغطشَ ليلَها﴾؛ أي: أظلمه، فعمَّت الظُّلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، ﴿وأخرج ضُحاها﴾؛ أي: أظهر فيه النُّور العظيم حين أتى بالشمس، فانتشر[2] الناس في مصالح دينهم ودُنياهم، ﴿والأرضَ بعد ذٰلك﴾؛ أي: بعد خلق السماء ﴿دحاها﴾؛ أي: أودع فيها منافعها، وفسر ذٰلك بقوله: ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها. والجبال أرساها﴾؛ أي: ثبَّتها بالأرض[3]، فدحى الأرض بعد خَلْق السماواتِ؛ كما هو نصُّ هٰذه الآيات الكريمة، وأمَّا خلق نفس الأرض؛ فمتقدِّم على خلق السماء؛ كما قال تعالى: ﴿قل أإنَّكم لتكفرونَ بالذي خلق الأرضَ في يومين وتجعلون له أنداداً ذٰلك ربُّ العالمين...﴾ إلى أن قال: ﴿ثمَّ استوى إلى السَّماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهنَّ سبع سمٰواتٍ...﴾: فالذي خلق السماواتِ العظام وما فيها من الأنوار والأجرام والأرض الغبراء الكثيفة[4]، وما فيها من ضروريَّات الخلق ومنافعهم لا بدَّ أن يبعث الخلق المكلَّفين فيجازيهم بأعمالهم[5]؛ فمن أحسن؛ فله الحسنى، وَمن أساء؛ فلا يلومنَّ إلَّا نفسه.

ولهٰذا ذكر بعد هٰذا قيام الساعة ثم الجزاء[6]، فقال:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾[7] يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «فامتدَّ».
(٣) في (ب): «في الأرض».
(٤) في (ب): «الكثيفة الغبراء».
(٥) في (ب): «على أعمالهم».
(٦) في (ب): «ولهذا ذكر بعد هذا القيام فالجزاء».
(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٦ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٧ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٨ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٣٩ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤٠ ۝٤١﴾.

﴿٣٤ ـ ٣٦﴾ أي: إذا جاءت القيامةُ الكبرى والشدَّةُ العظمى، التي يَهون عندها كلُّ شدَّةٍ؛ فحينئذٍ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكلُّ محبٍّ عن حبيبه، و﴿يتذكَّرُ الإنسانُ ما سعى﴾: في الدُّنيا من خير وشرٍّ، فيتمنَّى زيادة مثقال ذرَّةٍ في حسناته، ويغمُّه ويحزن لزيادة مثقال ذرَّةٍ في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أنَّ مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدُّنيا، وينقطع كلُّ سبب ووصلةٍ كانت في الدُّنيا سوى الأعمال، ﴿وبُرِّزَت الجحيم لمن يرى﴾؛ أي: جُعِلَت في البراز ظاهرةً لكلِّ أحدٍ؛ قد هُيِّئت[1] لأهلها، واستعدَّت لأخذهم منتظرةً لأمر ربِّها.

﴿٣٧ ـ ٣٩﴾ ﴿فأمَّا مَن طغى﴾؛ أي: جاوز الحدَّ بأن تجرَّأ على المعاصي الكبار ولم يقتصرْ على ما حدَّه الله، ﴿وآثَرَ الحياة الدُّنيا﴾: على الآخرة، فصار سعيه لها ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل[2] لها؛ ﴿فإنَّ الجحيم هي المأوى﴾: له؛ أي: المقرُّ والمسكن لمن هٰذه حاله.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ ﴿وأمَّا مَنْ خافَ مقامَ ربِّه﴾؛ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل؛ فأثَّر هٰذا الخوف في قلبه، فنهى ﴿النفس عن﴾: هواها الذي يصدُّها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادَّيْن عن الخير؛ ﴿فإنَّ الجنَّة﴾: المشتملة على كلِّ خيرٍ وسرورٍ ونعيم، ﴿هي المأوى﴾: لمن هٰذا وصفُه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢[3] فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾.

﴿٤٢ ـ ٤٤﴾ أي: يسألك المتعنِّتون المكذِّبون بالبعث ﴿عن الساعة﴾: متى وقوعُها؟ و﴿أيَّان مُرْساها﴾؟! فأجابهم الله بقوله: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾؛ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؛ فليس تحت ذٰلك نتيجةٌ، ولهٰذا لـمَّا كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحةٌ دينيةٌ ولا دنيويةٌ، بل المصلحة في

---

(١) في (ب): «برزت». (٢) في (ب): «وترك العمل لها».
(٣) في (أ): طمس. وفي (ب) إلى آخر السورة.

إخفائه[١] عليهم، طوى علم ذٰلك عن جميع الخلق واستأثر بعلمه فقال: ﴿إلى ربك منتهاها﴾؛ أي: إليه ينتهي علمها؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يسألونَكَ عن الساعة أيَّانَ مُرْساها قل إنَّما علمُها عند ربِّي لا يُجَلِّيها لوقتها إلَّا هو﴾.

﴿٤٥ ـ ٤٦﴾ ﴿إنَّما أنت منذرُ مَنْ يَخْشاها﴾؛ أي: إنَّما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة ويخاف الوقوف بين يدي الله[٢]؛ فهم الذين لا يُهِمُّهم إلَّا[٣] الاستعداد لها والعمل لأجلها، وأما مَنْ لم[٤] يؤمن بها؛ فلا يُبَالى به ولا بتعنُّته؛ لأنَّه تعنتٌ مبنيٌّ على التَّكذيب والعناد[٥]، وإذا وصل إلى هٰذه الحال؛ كان الإجابة عنه عبثاً، ينزَّه أحكم الحاكمين عنه[٦].

تمت. والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة عبس

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ [٧]وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾.

سببُ[٨] نزول هٰذه الآيات الكريمات أنَّه جاء رجلٌ من المؤمنين أعمى[٩] يسألُ النبيَّ ﷺ ويتعلَّم منه، وجاءهُ رجلٌ من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فمال ﷺ وأصغى إلى الغنيِّ وصدَّ عن الأعمى الفقير؛ رجاءً لهداية ذٰلك الغنيِّ وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهٰذا العتاب اللطيف فقال:

---

(١) في (ب): «خفائه».
(٢) في (ب): «بين يديه».
(٣) في (ب): «سوى».
(٤) في (ب): «من لا».
(٥) في (ب): «على العناد والتكذيب».
(٦) في (ب): «ينزه الحكيم عنه».
(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿فأنت عنه تلهى﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٨) في (ب): «وسبب».
(٩) وهو عبد الله بن أم مكتوم؛ كما في «سنن الترمذي» (٣٣٣١) والحاكم (٢/ ٥١٤).

﴿١ ـ ١٠﴾ ﴿عبس﴾؛ أي: في وجهه، ﴿وتولَّى﴾: في بدنه لأجل مجيء الأعمى له. ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وما يدريكَ لعلَّه﴾؛ أي: الأعمى، ﴿يَزَّكَّى﴾؛ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة، ﴿أو يَذَّكَّرُ فَتَنفعهُ الذِّكرَى﴾؛ أي: يتذكَّر ما ينفعه فينتفع[1] بتلك الذِّكرى، وهٰذه فائدةٌ كبيرةٌ، هي المقصودة من بعثة الرسل ووعظ الوعَّاظ وتذكير المذكِّرين؛ فإقبالُك على مَنْ جاء بنفسه مفتقراً لذٰلك مقبلاً[2] هو الأليقُ الواجب، وأما تصدِّيك وتعرُّضك للغنيِّ المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك مَنْ[3] أهمُّ منه؛ فإنَّه لا ينبغي لك؛ فإنَّه ليس عليك أن لا يَزَّكَّى؛ فلو لم يَتزَكَّ؛ فلست بمحاسبٍ على ما عمله من الشرِّ، فدلَّ هٰذا على القاعدة المشهورة؛ أنَّه لا يُترَك أمرٌ معلومٌ لأمرٍ موهومٍ، ولا مصلحة متحقِّقة لمصلحة متوهَّمة، وأنَّه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتَقر إليه الحريص عليه[4] أزيد من غيره.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ [5] فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢﴾.

﴿١١ ـ ١٦﴾ يقول تعالى: ﴿كلَّا إنَّها تذكرةٌ﴾: أي: حقًّا إنَّ هٰذه الموعظة تذكرةٌ من الله يُذكِّر بها عباده ويبيِّن لهم في كتابه ما يحتاجون إليه ويبيِّن الرُّشد من الغيِّ؛ فإذا تبيَّن ذٰلك؛ ﴿فَمَن شاء ذَكَرَه﴾؛ أي: عمل به؛ كقوله تعالى: ﴿وقلِ الحقُّ مِن ربِّكم فَمَن شاء فَلْيُؤْمِن ومَن شاءَ فَلْيَكْفُر﴾. ثم ذكر محلَّ هٰذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها، فقال: ﴿في صحفٍ مكرمةٍ. مرفوعةٍ﴾: القدر والرتبة، ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾: من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي ﴿بأيدي سفرةٍ﴾: وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده، ﴿كرامٍ﴾؛ أي: كثيري الخير والبركة، ﴿بَرَرَةٍ﴾: قلوبهم وأعمالهم. وذٰلك كلُّه حفظٌ من الله لكتابه؛ أن

(١) في (ب): «فيعمل». (٢) في (ب): «لذلك منك».
(٣) في (ب): «ما». (٤) في (ب): «إليه».
(٥) في (أ): إلى قوله: ﴿متاعاً لكم ولأنعامكم﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعلْ للشياطين عليه سبيلاً، وهٰذا مما يوجب الإيمان به وتلقِّيه بالقَبول.

﴿١٧ ـ ٢٣﴾ ولكنْ مع هٰذا أبى الإنسان إلَّا كُفوراً، ولهٰذا قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه﴾: لنعمة الله، وما أشدَّ معاندته للحقِّ بعدما تبيَّن، وهو؛ ما هو؟ هو من أضعفِ الأشياء، خلقه الله من ماء مَهين، ثم قدَّر خلقه وسوَّاه بشراً سويًّا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة، ﴿ثم السَّبيلَ يَسَّرَه﴾؛ أي: يسَّر له الأسباب الدينيَّة والدنيويَّة، وهداه السبيل، وبيَّنه، وامتحنه بالأمر والنهي، ﴿ثم أماتَه فأقْبَرَهُ﴾؛ أي: أكرمه بالدفن، ولم يجعلْه كسائر الحيوانات التي تكون جِيَفُها على وجه الأرض، ﴿ثم إذا شاءَ أنشَرَه﴾؛ أي: بعثه بعد موته للجزاء؛ فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهٰذه التَّصاريف، لم يشارِكْه فيه مشارِكٌ، وهو مع هٰذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقضِ ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصِّراً تحت الطلب!

﴿٢٤ ـ ٣٢﴾ ثم أرشده الله[1] إلى النظر والتفكُّر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكرَّرت عليه طبقاتٌ عديدةٌ ويسَّره [اللَّهُ] له؛ فقال: ﴿فلينظُرِ الإنسانُ إلى طعامه. أنَّا صَبَبْنا الماء صَبًّا﴾؛ أي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة ﴿ثم شَقَقْنا الأرض﴾ للنبات ﴿شقًّا. فأنبَتْنا فيها﴾: أصنافاً مصنَّفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهيَّة، ﴿حبًّا﴾: وهٰذا شاملٌ لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها، ﴿وعنباً وقضباً﴾: وهو القتُّ، ﴿وزيتوناً ونخلاً﴾: وخصَّ هٰذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها، ﴿وحدائق غُلْباً﴾؛ أي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفَّة[2]، ﴿وفاكهةً وأبًّا﴾: الفاكهة ما يتفكَّه فيه الإنسان من تينٍ وعنبٍ وخوخٍ ورمانٍ وغير ذٰلك. والأبُّ ما تأكله البهائم والأنعام، ولهٰذا قال: ﴿متاعاً لكمْ ولأنعامكم﴾: التي خلقها الله وسخَّرها لكم. فمن نظر في هٰذه النعم؛ أوجب له ذٰلك شكر ربِّه وبذل الجهد في الإنابة إليه والإقبال على طاعته والتَّصديق لأخباره.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾[3] يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ثم أرشده تعالى». (٢) في (ب): «الملتفة الكثيرة».

(٣) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿٣٣ ـ ٤٢﴾ أي: إذا جاءت صيحة القيامةِ التي تُصَخُّ لهولها الأسماع وتنزعج لها الأفئدة يومئذٍ؛ ممَّا يرى الناس من الأهوال وشدَّة الحاجة لسالف الأعمال؛ يفرُّ المرء من أعزِّ الناس إليه وأشفقهم عليه[١]؛ من أخيه وأمِّه وأبيه وصاحبته؛ أي: زوجته وبنيه، وذلك لأنَّه ﴿لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾؛ أي: قد أشغلته نفسُه، واهتمَّ لفكاكها، ولم يكنْ له التفاتٌ إلى غيرها. فحينئذٍ ينقسم الخلقُ إلى فريقين: سعداء وأشقياء: فأمَّا السعداءُ؛ فوجوههم ﴿يومئذٍ مسفرةٌ﴾؛ أي: قد ظهر فيها السرور والبهجةُ مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم، ﴿ضاحكةٌ مستبشرةٌ. ووجوهٌ﴾: الأشقياء ﴿يومئذٍ عليها غَبَرَةٌ. ترهقُها﴾؛ أي: تغشاها ﴿قترةٌ﴾: فهي سوداء مظلمةٌ مدلهمةٌ، قد أيست من كلِّ خير، وعرفتْ شقاءها وهلاكها. ﴿أولئك﴾: الذين بهذا الوصف، ﴿هم الكفرةُ الفجرةُ﴾؛ أي: الذين كفروا بنعمة الله، وكذَّبوا بآياته، وتجرَّؤوا على محارمِهِ[٢]. نسأل الله العفوَ والعافيةَ؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

والحمد لله ربِّ العالمين

❁ ❁ ❁

## تفسير سورة التكوير

### وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾[٣] وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١ ـ ١٤﴾ أي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلةُ؛ تميَّز الخلقُ، وعلم كلٌّ[٤] ما قدَّمه لآخرته وما أحضره فيها من خيرٍ وشرٍّ، وذلك أنَّه إذا كان يومُ القيامةِ؛ تُكَوَّرُ

---

(١) في (ب): «وأشفقهم لديه».

(٢) في (ب): «وكذبوا بآيات الله وتجرؤوا على محارم الله».

(٣) في ( أ ): إلى قوله: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾: وفي (ب) ذكر الآيات.

(٤) في (ب): «كلُّ أحد».

الشمس؛ أي: تُجمع وتلفُّ ويُخسف القمر ويلقيان في النار، ﴿وإذا النُّجوم انكدرتْ﴾؛ أي: تغيَّرت وتناثرت[١] من أفلاكها، ﴿وإذا الجبال سُيِّرَتْ﴾؛ أي: صارت كثيباً مهيلاً، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيَّرت وصارت هباءً منبثًا وأزيلت[٢] عن أماكنها، ﴿وإذا العِشارُ عُطِّلَتْ﴾؛ أي: عَطَّل الناس يومئذٍ نفائسَ أموالهم التي كانوا يهتمُّون لها، ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يُذْهِلُهم عنها، فنبَّه بالعشار ـ وهي النوق التي تتبعها أولادُها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم ـ على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وإذا الوحوشُ حُشِرَتْ﴾؛ أي: جُمِعَتْ ليوم القيامةِ؛ ليقتصَّ اللّه من بعضها لبعض، ويري العبادَ كمالَ عدلِهِ، حتى إنَّه يقتصُّ للشاة الجمَّاء من الشاةِ القرناء ثم يقال لها[٣]: كوني تراباً[٤]، ﴿وإذا البحارُ سُجِّرَتْ﴾؛ أي: أوقدت فصارت على عظمها ناراً تتوقَّد، ﴿وإذا النُّفوس زُوِّجَتْ﴾؛ أي: قُرِنَ كلُّ صاحب عمل مع نظيره، فجُمِعَ الأبرار مع الأبرار والفجَّار مع الفجَّار، وزوِّج المؤمنون بالحور العين والكافرون بالشياطين، وهٰذا كقوله تعالى: ﴿وسيقَ الذين كَفَروا إلى جهنَّم زُمَراً﴾، ﴿وسيق الذين اتَّقَوْا ربَّهم إلى الجنَّةِ زُمَراً﴾، ﴿احْشُروا الذين ظَلَموا وأزواجَهم﴾.

﴿وإذا الموؤُدةُ سُئِلَتْ﴾: وهي التي كانت الجاهليَّة الجهلاء تفعله من دفن البنات وهنَّ أحياء من غير سببٍ إلَّا خشيةَ الفقر، فتسأل: ﴿بأيِّ ذنبٍ قُتِلَتْ﴾، ومن المعلوم أنَّها ليس لها ذنبٌ، ولٰكن هٰذا فيه[٥] توبيخٌ وتقريعٌ لقاتليها، ﴿وإذا الصُّحُفُ﴾: المشتملة على ما عمله العاملون من خيرٍ وشرٍّ، ﴿نُشِرَتْ﴾: وفرِّقت على أهلها؛ فآخذٌ كتابه بيمينه وآخذٌ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

﴿وإذا السماءُ كُشِطَتْ﴾؛ أي: أزيلت؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ تَشَقَّقُ السماءُ بالغمام﴾، ﴿يومَ نَطْوي السماءَ كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ﴾، ﴿والأرضُ جميعاً قبضَتُه يوم القيامةِ والسمٰوات مطوياتٌ بيمينه﴾، ﴿وإذا الجحيمُ سُعِّرَتْ﴾؛ أي: أوقد عليها فاستعرتْ والتهبت التهاباً لم يكنْ لها قبل ذٰلك، ﴿وإذا الجنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾؛ أي: قرِّبت

---

(١) في (ب): «تساقطت». (٢) في (ب): «وسيِّرت».

(٣) في (ب): «حتى إنه ليقتصُّ من القرناء للجمَّاء ثم يقول لها».

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٤/ ١٨٠)، وقد أورده الشيخ ناصر الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

(٥) في (ب): «ففي هذا».

للمتقين، ﴿علمت نفسٌ﴾؛ أي: كلُّ نفس لإتيانها في سياق الشرط، ﴿ما أحضرت﴾؛ أي: ما حضر لديها من الأعمال التي قدَّمتها؛ كما قال تعالى: ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

وهٰذه الأوصافُ التي وصَفَ [اللَّهُ] بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتدُّ من أجلها الكروب، وترتعد الفرائصُ، وتعمُّ المخاوف، وتحثُّ أولي الألباب للاستعداد لذٰلك اليوم، وتزجُرُهم عن كلِّ ما يوجب اللوم، ولهٰذا قال بعض السلف: من أراد أن يَنْظُرَ ليوم القيامة كأنه رأي عينٍ؛ فليتدبَّر سورة ﴿إذا الشمسُ كُوِّرَتْ﴾.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ[1] ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ أقسم تعالى ﴿بالخُنَّسِ﴾: وهي الكواكب التي تخنس؛ أي: تتأخَّر عن سير الكواكب المعتاد[2] إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيَّارة؛ الشمس والقمر والزُّهرة والمشتري والمريخ وزُحل وعطارد؛ فهٰذه السبعة لها سيران: سيرٌ إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك[3]. وسير معاكسٌ لهٰذا من جهة المشرق تختصُّ به هٰذه السبعة دون غيرها، فأقسم اللَّه بها في حال خنوسها؛ أي: تأخُّرها، وفي حال جريانها، وفي حال كُنوسها؛ أي: استتارها بالنهار. ويُحتمل أنَّ المراد بها جميع الكواكب السيَّارة وغيرها.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿والليل إذا عسعس﴾؛ أي: أقبل، وقيل أدبر[4]، والنهار ﴿إذا تَنَفَّسَ﴾؛ أي: بدت[5] علائم الصبح، وانشقَّ النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس.

---

(١) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «المعتادة».
(٣) في (ب): «مع باقي الكواكب والأفلاك».
(٤) في (ب): «أي: أدبر، وقيل أقبل».
(٥) في (ب): «بانت».

﴿١٩﴾ وهٰذه آياتٌ عظامٌ أقسم اللّه عليها لقوّة سند القرآن[١] وجلالته وحفظه من كلِّ شيطانٍ رجيم، فقال: ﴿إنَّه لَقولُ رسولٍ كريم﴾: وهو جبريل عليه السلام، نزل به من اللّه تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وإنَّه لَتنزيل ربِّ العالمين. نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ. على قلبكَ لتكونَ من المُنذِرينَ﴾. ووصفه اللّه بالكريم لكرم أخلاقِهِ و[كثرة] خصالِهِ الحميدة؛ فإنَّه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبةً عند ربِّه.

﴿٢٠﴾ ﴿ذي قوَّةٍ﴾: على ما أمره اللّه به، ومن قوَّته أنَّه قَلَبَ ديار قوم لوطٍ بهم فأهلكهم، ﴿عند ذي العرش﴾؛ أي: جبريل مقرَّبٌ عند اللّه، له منزلةٌ رفيعةٌ وخصيصةٌ من اللّه اختصَّه بها، ﴿مكينٌ﴾؛ أي: له مكانةٌ ومنزلةٌ فوق منازل الملائكة كلِّهم.

﴿٢١﴾ ﴿مطاعٍ ثَمَّ﴾؛ أي: جبريل مطاعٌ في الملأ الأعلى؛ لأنَّه[٢] من الملائكة المقرَّبين، نافذ فيهم أمرُه، مطاعٌ رأيه، ﴿أمينٍ﴾؛ أي: ذو أمانة وقيام بما أُمِرَ به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدَّى ما حُدَّ له، وهٰذا كلُّه يدلُّ على شرف القرآن عند اللّه تعالى: فإنَّه بعث به هٰذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادةُ أنَّ الملوك لا ترسل الكريم عليها إلَّا في أهمِّ المهمَّات وأشرف الرسائل.

﴿٢٢﴾ ولما ذكر فضل الرسول الملكيِّ الذي جاء بالقرآن؛ ذكر فضل الرسول البشريِّ الذي نزل عليه القرآنُ، ودعا إليه الناس، فقال: ﴿وما صاحِبُكم﴾: وهو محمدٌ ﷺ ﴿بمجنونٍ﴾؛ كما يقوله أعداؤه المكذِّبون برسالته، المتقوِّلون عليه [من] الأقوال التي يريدون أن يطفِئوا بها ما جاء به[٣]، بل هو أكملُ الناس عقلاً، وأجزلُهم رأياً، وأصدقُهم لهجةً.

﴿٢٣﴾ ﴿ولقد رآه بالأفُقِ المُبين﴾؛ أي: رأى محمدٌ ﷺ جبريل عليه السلام[٤] بالأفُقِ البيِّن الذي هو أعلى ما يلوح للبصر.

﴿٢٤﴾ ﴿وما هو على الغيب بضَنينٍ﴾؛ أي: وما هو على ما أوحاه اللّه إليه

---

(١) في (ب): «أقسم الله بها على علو سند القرآن».

(٢) في (ب): «لديه من الملائكة المقربين جنود».

(٣) في (ب): «أن يطفئوا بها ما جاء، ما شاؤوا وقدروا عليه».

(٤) تقدم تخريجه. وهو في «صحيح مسلم» (١٧٧). وانظر «تفسير سورة النجم».

بِمُتَّهَم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمينُ أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلَّغ رسالات ربِّه البلاغَ المبين، فلم يَشُحَّ بشيءٍ منه عن غنيٍّ ولا فقيرٍ ولا رئيسٍ ولا مرؤوسٍ ولا ذكرٍ ولا أنثى ولا حضريٍّ ولا بدويٍّ، ولذلك بعثه اللَّه في أمَّةٍ أميَّةٍ جاهلةٍ جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربَّانيِّين وأحباراً متفرِّسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والمفهوم[1]، وهم الأساتذة، وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿٢٥﴾ ﴿وما هو بقول شيطانٍ رجيم﴾: لما ذكر جلالة كتابه وفضلَه[2] بذكر الرسولين الكريمين اللذين وَصَلَ إلى النَّاس على أيديهما، وأثنى اللَّه عليهما بما أثنى؛ دَفَعَ عنه كلَّ آفةٍ ونقصٍ مما يقدحُ في صدقه، فقال: ﴿وما هو بقول شيطانٍ رجيم﴾؛ أي: في غاية البعد عن اللَّه وعن قربه.

﴿٢٦﴾ ﴿فأين تذهبون﴾؛ أي: كيف يخطر هٰذا ببالكم؟! وأين عَزَبَتْ عنكم أذهانكم حتى جعلتم الحقَّ الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب الذي هو أنزلُ ما يكون وأرذلُ وأسفلُ الباطل؟! هل هٰذا إلَّا من انقلاب الحقائق؟!

﴿٢٧﴾ ﴿إنْ هو إلَّا ذكرٌ للعالمين﴾: يتذكَّرون به ربَّهم وماله من صفات الكمال وما ينزَّه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكَّرون به الأوامر والنواهي وحكمها؛ ويتذكَّرون به الأحكام القدريَّة والشرعيَّة والجزائيَّة، وبالجملة يتذكَّرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿٢٨﴾ ﴿لمن شاء منكم أن يَسْتَقيمَ﴾: بعد ما تبيَّن الرشد من الغيِّ والهدى من الضَّلال.

﴿٢٩﴾ ﴿وما تشاؤون إلَّا أن يشاء اللَّه ربُّ العالمين﴾؛ أي: فمشيئتُه نافذةٌ لا يمكن أن تعارضَ أو تمانع. وفي هٰذه الآية وأمثالها ردٌّ على فرقتي القدريَّة النُّفاة والقدريَّة المجبرة؛ كما تقدَّم مثالها. واللَّه أعلم والحمد للَّه.

* * *

(١) في (ب): «والفهوم».

(٢) في (ب): «لما ذكر جلالته وفضله».

# تفسير سورة الانفطار

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ أي: إذا انشقَّت السماء، وانفطرت، وتناثرت[١] نجومُها، وزال جمالُها، وفُجِّرت البحار، فصارت بحراً واحداً، وبُعْثِرَتِ القبور بأن أُخْرِج ما فيها من الأموات وحُشِروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال؛ فحينئذٍ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيًّا، وتعلم كلُّ نفس ما معها من الأرباح والخسران. هنالك يعضُّ الظالم على يديه إذا رأى ما قدَّمت يداه[٢] وأيقن بالشقاء الأبديِّ والعذاب السَّرمديِّ، وهنالك يفوز المتَّقون المقدِّمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ[٣] ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٦ ـ ٨﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصِّر في حقِّه المتجرِّىء على معاصيه[٤]: ﴿**يا أيُّها الإنسان ما غرَّك بربِّك الكريم**﴾: أتهاوناً منك في حقوقه؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟! أم عدم إيمانٍ منك بجزائِهِ؟! أليس هو ﴿**الذي خلَقَك فسوَّاك**﴾: في أحسن تقويم، ﴿**فعَدَلَك**﴾: وركَّبك تركيباً قويماً معتدلاً في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات؟! فهل يَليق بك أن تكفُرَ نعمة[٥] المنعِم أو تَجحَدَ إحسان

---

(١) في (ب): «انتثرت».
(٢) في (ب): «إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خفَّ، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه».
(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿تفعلون﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «المقصِّر في حقِّ الله المتجرئ على مساخطه».
(٥) في (ب): «بنعمة».

المحسن؟! إنْ هٰذا إلَّا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك؛ فاحمد اللّه إذْ لم يجعلْ صورتَك صورة كلبٍ أو حمارٍ أو نحوهما من الحيوانات، ولهٰذا قال تعالى: ﴿في أيِّ صورةٍ ما شاء ركّبَك﴾.

﴿٩ ـ ١٢﴾ وقوله: ﴿كلَّا بل تكذِّبونَ بالدِّين﴾؛ أي: مع هٰذا الوعظ والتَّذكير لا تزالون مستمرِّين على التَّكذيب بالجزاء، وأنتم لا بدَّ أن تُحاسبوا على ما عمِلْتُم، وقد أقام اللّه عليكم ملائكةً كراماً، يكتُبون أقوالكم وأفعالكم ويَعْلَمونها[1]، فدخل في هٰذا أفعالُ القلوبِ وأفعالُ الجوارح؛ فاللائق بكم أن تكرِموهم وتُجِلُّوهم.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ[2] ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٣ ـ ١٩﴾ المراد بالأبرار هم: القائمون بحقوق اللّه وحقوق عباده، الملازمون للبرِّ في أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ فهٰؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والرُّوح والبدن في دار الدُّنيا وفي دار البرزخ وفي دار القرار، ﴿وإنَّ الفجّارَ﴾: الذين قصَّروا في حقوق اللّه وحقوق عباده، الذين فَجَرَتْ قلوبُهم ففَجَرَتْ أعمالُهم، ﴿لفي جحيم﴾؛ أي: عذابٍ أليم في دار الدُّنيا ودار البرزخ وفي دار القرار، ﴿يَصْلَوْنها﴾: ويعذَّبون بها أشدَّ العذاب ﴿يومَ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء على الأعمال، ﴿وما هم عنها بغائبينَ﴾؛ أي: بل هم ملازمون لها لا يخرُجون منها، ﴿وما أدراك ما يومُ الدِّينِ. ثمَّ ما أدراكَ ما يومُ الدِّينِ﴾: في[3] هٰذا تهويلٌ لذٰلك اليوم الشديد، الذي يحيِّر الأذهان، ﴿يومَ لا تملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً﴾: ولو كانت قريبةً أو حبيبةً مصافيةً[4]؛ فكلٌّ مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها. ﴿والأمرُ يومئذٍ للّه﴾: فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخُذُ للمظلوم حقَّه من ظالمه. واللّه أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) في (ب): «ويعلمون أفعالكم».
(٢) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٣) في (ب): «ففي». (٤) في (ب): «ولو كانت لها قريبة مصافية».

# تفسير سورة المطففين

## وهي مدنية[(١)]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ۝٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ ﴿ويل﴾: كلمة عذابٍ وعقابٍ[(٢)]، ﴿للمطفِّفين﴾: وفسر الله المطفِّفين بأنهم[(٣)] ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس﴾؛ أي: أخذوا منهم وفاءً لهم عمَّا قِبَلَهم[(٤)]، يستوفونه كاملاً من غير نقصٍ، ﴿وإذا كالوهم أو وَزَنوهم﴾؛ أي: إذا أعطوا الناس حقَّهم الذي لهم[(٥)] عليهم بكيل أو وزن، ﴿يُخْسِرونَ﴾؛ أي: ينقصِونَهم ذلك إمَّا بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المِكْيال والميزان، أو بغير ذلك؛ فهذا سرقةٌ لأموال الناس[(٦)] وعدمُ إنصاف لهم منهم. وإذا كان هذا وعيداً[(٧)] على الذين يَبْخَسونَ الناس بالمكيال والميزان؛ فالذي يأخذ أموالهم قهراً وسرقةً أولى بهذا الوعيد من المطفِّفين.

ودلَّت الآية الكريمة على أنَّ الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب [عليه] أن يعطِيَهم كلَّ ما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخُلُ في عموم هذا الحجج والمقالات؛ فإنَّه كما أنَّ المتناظرين قد جرت العادة أنَّ كل واحدٍ منهما يحرص على ماله من الحجج؛ فيجب عليه أيضاً أن يبيِّن ما لخصمه من الحجَّة[(٨)] التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلَّة خصمه كما ينظر في أدلَّته هو، وفي هذا الموضع يُعْرَفُ إنصاف الإنسان من تعصُّبه واعتسافه وتواضُعُه من كِبْره وعقلُهُ من سَفَهِهِ، نسأل الله التوفيق لكلِّ خير.

---

(١) في (ب): «وهي مكية». (٢) في (ب): «ووعيد».
(٣) في (ب): «بقوله».
(٤) في (ب): «أخذوا منهم وفاء عمّا ثبت لهم قبلهم».
(٥) في (ب): «للناس».
(٦) في (ب): «أو نحو ذلك، فهذا سرقة للناس».
(٧) في (ب): «الوعيد». (٨) في (ب): «من الحجج».

ثم توعَّد تعالى المطفِّفين، وتعجَّب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه، فقال: ﴿ألا يظنُّ أولئك أنَّهم مبعوثونَ ليومٍ عظيمٍ. يومَ يقومُ الناسُ لربِّ العالمينَ﴾: فالذي جرَّأهم على التَّطفيف عدمُ إيمانهم باليوم الآخر؛ وإلَّا؛ فلو آمنوا به وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم[١] على القليل والكثير؛ لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ[٢] ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿٧ ـ ٩﴾ يقول تعالى: ﴿كلَّا إنَّ كتاب الفجَّار﴾: وهٰذا شاملٌ لكلِّ فاجرٍ من أنواعِ الكفرة والمنافقين والفاسقين، ﴿لفي سِجِّينٍ﴾. ثم فسَّر ذٰلك بقوله: ﴿وما أدراكَ ما سِجِّينٌ. كتابٌ مرقومٌ﴾؛ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة. والسِّجِّينُ: المحلُّ الضيِّق الضَّنك، وسِجِّين ضدّ علِّيين، الذي هو محلُّ كتاب الأبرار كما سيأتي. وقد قيل: إنَّ سجِّين هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجَّار ومستقرُّهم في معادهم.

﴿١٠ ـ ١٣﴾ ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾. ثم بيَّنهم[٣] بقوله: ﴿الذين يكذِّبون بيوم الدِّين﴾؛ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله الناس فيه[٤] بأعمالهم. ﴿وما يكذِّبُ به إلَّا كلُّ معتدٍ﴾: على محارم الله متعدٍّ من الحلال إلى الحرام. ﴿أثيم﴾؛ أي: كثير الإثم؛ فهٰذا يحمله عدوانه على التكذيب، ويوجب له كبره ردَّ الحقِّ[٥]، ولهٰذا ﴿إذا تُتلى عليه﴾ آيات الله الدالَّة على الحقِّ وعلى صدق ما جاءت به الرسل؛ كذَّبها وعاندها وقال: هٰذه ﴿أساطيرُ الأوَّلين﴾؛ أي: من ترَّهات المتقدِّمين وأخبار الأمم الغابرين، ليس من عند الله؛ تكبُّراً وعناداً.

﴿١٤ ـ ١٧﴾ وأمَّا مَن أنصف وكان مقصودُه الحقَّ المبين؛ فإنَّه لا يكذِّب بيوم

---

(١) في (ب): «يقومون بين يدي الله يحاسبهم».
(٢) في (أ): إلى قوله: ﴿ثم يقال هٰذا الذي كنتم به تكذبون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٣) في (ب): «ثم بيّن المكذبين». (٤) في (ب): «فيه الناس».
(٥) في (ب): «ويحمله كبره على رَدّ الحق».

الدين؛ لأنَّ الله[١] قد أقام عليه من الأدلَّة القاطعة والبراهين [الساطعة] ما يجعله حقَّ اليقين[٢]، وصار لبصائرهم بمنزلة[٣] الشمس للأبصار؛ بخلاف مَنْ ران على قلبه كسبُه وغطَّته معاصيه؛ فإنَّه محجوبٌ عن الحقِّ، ولهٰذا جوزي على ذٰلك بأن حُجِبَ عن الله كما حُجِبَ قلبُه [في الدنيا] عن آيات الله. ﴿ثم إنَّهم﴾: مع هٰذه العقوبة البليغة، ﴿لصالو الجحيم. ثم يقالُ﴾: لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿هٰذا الذي كنتُم به تكذِّبونَ﴾: فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن[٤] ربِّ العالمين، المتضمِّن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودلَّ مفهومُ الآية على أنَّ المؤمنين يرون ربَّهم يوم القيامة، وفي الجنة، ويتلذَّذون بالنَّظر إليه أعظم من سائر اللَّذَّات ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه؛ كما ذكر الله ذٰلك في عدَّة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هٰذه الآيات التَّحذير من الذُّنوب؛ فإنَّها ترين على القلب وتغطِّيه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمسَ نورُه وتموتَ بصيرتُه، فتنقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً. وهٰذا من أعظم[٥] عقوبات الذُّنوب.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾[٦] وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ [عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ][٧] ﴿٢٨﴾﴾.

﴿١٨ ـ ٢١﴾ لما ذكر أنَّ كتاب الفجَّار في أسفل الأمكنة وأضيقها؛ ذكر أنَّ كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها، وأنَّ كتابهم المرقوم ﴿يشهدُهُ المقرَّبون﴾: من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء[٨]، وينوِّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى. وعليُّون: اسم لأعلى الجنة.

---

(١) في (ب): «فإن الله تعالى».
(٢) في (ب): «حق يقين».
(٣) في (ب): «وصار لقلوبهم مثل».
(٤) في (ب): «من».
(٥) في (ب): «من بعض».
(٦) في (أ): إلى قوله: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٧) زيادة على النسختين.
(٨) في (ب): «والشهداء والصديقين».

﴿٢٢ ـ ٢٨﴾ فلمَّا ذَكَرَ كتابَهم؛ ذَكَرَ أنَّهم في نعيم، وهو اسمٌ جامعٌ لنعيم القلب والرُّوح والبدن. ﴿على الأرائِكِ﴾؛ أي: على السرر المزيَّنة بالفرش الحسان، ﴿ينظُرونَ﴾: إلى ما أعدَّ اللّه لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربِّهم الكريم، ﴿تعرِفُ﴾: أيُّها الناظر[١]، ﴿في وجوههم نَضْرَةَ النَّعيم﴾؛ أي: بهاءه[٢] ونضارته ورونقه؛ فإنَّ توالي اللَّذَّات والمسرَّات والأفراح[٣] يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجةً، ﴿يُسْقَوْنَ من رحيقٍ﴾: وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿مختوم﴾ ذٰلك الشرابُ ﴿ختامُه مسكٌ﴾: يُحتمل أن المراد مختومٌ عن أن يداخِلَه شيءٌ يُنْقِصُ لذَّته أو يفسِدُ طعمه، وذٰلك الختام الذي ختم به مسكٌ، ويحتمل أنَّ المراد أنَّه الذي يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر؛ فهٰذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدُّنيا أنه يراق يكون في الجنَّة بهٰذه المثابة. ﴿وفي ذٰلك﴾: النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره[٤] إلَّا اللّه، ﴿فلْيَتَنافسِ المتنافسونَ﴾؛ أي: فليتسابقوا[٥] في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه؛ فهٰذا أولى ما بُذِلَتْ فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال. ومزاجُ هٰذا الشراب ﴿مِن تَسْنيم﴾: وهي عين ﴿يشربُ بها المقرَّبون﴾: صرفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق؛ فلذٰلك كانت خالصةً للمقرَّبين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين؛ أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾[٦] وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٣﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمينَ وجزاء المحسنين، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم؛ أخبر أنَّ المجرمين كانوا في الدُّنيا يسخرون بالمؤمنين ويستهزِئون بهم و﴿يضحكون﴾: منهم، فَـ﴿يتغامَزون﴾: بهم عند مرورهم عليهم

---

(١) في (ب): «أيها الناظر إليهم». (٢) في (ب): «بهاء النعيم».
(٣) في (ب): «فإن توالي اللَّذة والسرور». (٤) في (ب): «مقداره وحسنه».
(٥) في (ب): «يتسابقوا».
(٦) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.

احتقاراً لهم وازدراءً، ومع هٰذا تراهم مطمئنِّين لا يخطُر الخوف على بالهم، ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلِهم﴾: صباحاً أو مساءً، ﴿انقلبوا فَكِهين﴾؛ أي: مسرورين مغتبطين، وهٰذا أشدُّ ما يكون[1] من الاغترار؛ أنَّهم جمعوا بين غاية الإساءة مع الأمن[2] في الدُّنيا، حتى كأنَّهم قد جاءهم كتابٌ وعهدٌ من الله[3] أنَّهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنَّهم أهلُ الهدى، وأنَّ المؤمنين ضالُّون؛ افتراءً على الله، وتجرؤوا على القول عليه بلا علم. قال تعالى: ﴿وما أُرْسِلوا عليهم حافظين﴾؛ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين، ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميهم بالضَّلال، وما هٰذا منهم إلَّا تعنُّتٌ وعنادٌ وتلاعبٌ ليس له مستندٌ ولا برهانٌ.

﴿٣٤ ـ ٣٦﴾ ولهٰذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم؛ قال تعالى: ﴿فاليوم﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿الذين آمنوا من الكفَّارِ يضحكون﴾: حين يرونَهم في غَمَراتِ العذاب يتقلَّبون وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿على الأرائكِ﴾: وهي السرر المزيَّنة، ﴿ينظُرون﴾: إلى ما أعدَّ الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربِّهم الكريم. ﴿هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون﴾؛ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟ فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورمَوْهم بالضلال؛ ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، حين رأوهم[4] في العذاب والنَّكال الذي هو عقوبةُ الغيِّ والضَّلال. نعم؛ ثُوِّبوا ما كانوا يفعلون عدلاً من الله وحكمةً. والله عليمٌ حكيمٌ.

❁ ❁ ❁

## تفسير سورة الانشقاق

### وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ[5] ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَن

---

(١) في (ب): «مغبوطين، وهذا من أعظم ما يكون».
(٢) في (ب): «والأمن». (٣) في (ب): «كتاب من الله وعهد».
(٤) في (ب): «ورأوهم».
(٥) في (أ): إلى قوله: ﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يقول تعالى مبيِّناً لما يكون في يوم القيامة من تغيُّر الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقَّتْ﴾؛ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومُها، وخسف شمسُها وقمرها، ﴿وأذِنَتْ لربِّها﴾؛ أي: استمعت لأمره وألقت سمعَها وأصاخت لخطابه، أي: حُقَّ لها ذٰلك؛ فإنَّها مسخَّرة مدبَّرة تحت مسخِّر ملكٍ عظيمٍ لا يُعصى أمره ولا يخالَف حكمُه.

﴿٣ ـ ٥﴾ ﴿وإذا الأرض مُدَّتْ﴾؛ أي: رجفت وارتجَّت ونُسِفَتْ عليها جبالُها ودُكَّ ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدَّها الله مدَّ الأديم، حتى صارت واسعةً جدًّا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ﴿وألقتْ ما فيها﴾: من الأموات والكنوز، ﴿وتخلَّتْ﴾: منهم؛ فإنَّه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالإسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسَّرون على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأذِنَت لربِّها وحُقَّتْ﴾.

﴿٦﴾ ﴿يا أيُّها الإنسانُ إنَّك كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فملاقيه﴾؛ أي: إنك ساعٍ إلى الله وعاملٌ بأوامره ونواهيه ومتقرِّبٌ إليه إمَّا بالخير وإمَّا بالشرِّ، ثم تلاقي اللهَ يوم القيامةِ؛ فلا تعدم منه جزاءً بالفضل أو العدل؛ بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعقوبة إن كنت شقيًّا[١].

﴿٧ ـ ٩﴾ ولهٰذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأمَّا مَنْ أوتي كتابه بيمينِهِ﴾: وهم أهل السعادة، ﴿فسوف يحاسَبُ حساباً يسيراً﴾: وهو العرض اليسير على الله، فيقرِّره الله بذنوبه، حتى إذا ظنَّ العبدُ أنَّه قد هلك؛ قال الله تعالى: إنِّي قد سترتُها عليك في الدُّنيا وأنا أستُرها لك اليوم[٢]، ﴿وينقلبُ إلى أهله﴾: في الجنة ﴿مسروراً﴾: لأنَّه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

---

(١) في (ب): «جزاء بالفضل إن كنت سعيداً أو بالعدل إن كنت شقيًّا».

(٢) كما في «صحيح البخاري» (٦٠٧٠)، ومسلم (٢٧٦٨).

﴿١٠ ـ ١٥﴾ ﴿وأمَّا مَن أوتي كتابَه وراء ظهرِهِ﴾؛ أي: بشماله من وراء ظهره[1]، ﴿فسوفَ يدعو ثُبوراً﴾: من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدَّمها ولم يتبْ منها، ﴿ويصلى سعيراً﴾؛ أي: تحيط به السعير من كلِّ جانب، ويقلَّب على عذابها، وذٰلك لأنَّه ﴿كان في أهلِهِ مسروراً﴾: لا يخطُرُ البعث على باله، وقد أساء، ولا[2] يظنُّ أنَّه راجعٌ إلى ربِّه وموقوفٌ بين يديه. ﴿بلى إنَّ ربَّه كان به بصيراً﴾: فلا يحسُنُ أن يترُكَه سدىً لا يُؤمر ولا يُنهى ولا يُثاب ولا يُعاقب.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ[3] ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ أقسم في هٰذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشَّفق؛ الذي هو بقيَّة نور الشمس الذي هو مفتتح الليل، ﴿والليل وما وَسَقَ﴾؛ أي: احتوى عليه من حيواناتٍ وغيرها، ﴿والقمرِ إذا اتَّسَقَ﴾؛ أي: امتلأ نوراً بإبداره، وذٰلك أحسن ما يكون وأكثر منافع. والمقسَم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: أيُّها الناس ﴿طبقاً﴾: بعد ﴿طبقٍ﴾؛ أي: أطواراً متعدِّدة وأحوالاً متباينة من النُّطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الرُّوح، ثم يكون وليداً وطفلاً ومميزاً[4]، ثم يجري عليه قَلَمُ التَّكليف والأمر والنَّهي، ثم يموت بعد ذٰلك، ثم يُبْعَثُ ويجازى بأعماله؛ فهٰذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالَّة على أنَّ الله وحده هو المعبودُ الموحَّدُ المدبِّرُ لعباده بحكمته ورحمته، وأنَّ العبد فقيرٌ عاجزٌ تحت تدبير العزيز الرحيم.

﴿٢٠ ـ ٢٤﴾ ومع هٰذا؛ فكثيرٌ من الناس لا يؤمنون، ﴿وإذا قُرِىءَ عليهم القرآنُ لا يَسْجُدونَ﴾؛ أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه، ﴿بل الذين كفروا يكذِّبون﴾؛ أي: يعاندون الحقَّ بعدما تبيَّن؛ فلا يُسْتَغْرَبُ عدم إيمانهم

---

(١) في (ب): «من خلفه». (٢) في (ب): «ولم».
(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «ثم مميزاً».

وانقيادهم[1] للقرآن؛ فإنَّ المكذِّب بالحقِّ عناداً لا حيلة فيه، ﴿والله أعلم بما يُوعون﴾؛ أي: بما يعملونه وينوونه سرًّا؛ فالله يعلم سِرَّهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهٰذا قال: ﴿فبشِّرْهم بعذابٍ أليم﴾: وسميت البشارة بشارةً؛ لأنَّها تؤثِّر في البشرة سروراً أو غمًّا.

﴿٢٥﴾ فهٰذه حال أكثر الناس؛ التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان به. ومن الناس فريقٌ هداهم الله فآمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرُّسُل، فـ﴿آمنوا وعملوا الصالحات﴾: فهٰؤلاء ﴿لهم أجرٌ غير ممنونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل هو أجرٌ دائمٌ ممَّا لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ. والحمد لله[2].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة البروج

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ[3] (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢)﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿والسماءِ ذات البُروج﴾؛ أي: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيبٍ ونظامٍ دالٍّ على كمال قدرة الله [تعالى] ورحمته وسعة علمِه وحكمتِه. ﴿واليوم الموعودِ﴾: وهو

---

(١) في (ب): «وعدم انقيادهم». (٢) في (ب): «تم تفسير السورة. ولله الحمد».

(٣) في ( أ ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يومُ القيامةِ، الذي وَعَدَ اللّهُ الخَلْقَ أن يجمَعَهم فيه ويضمَّ فيه أوَّلهم وآخرَهم وقاصيَهم ودانِيَهم، الذي لا يمكن أن يتغيَّر ولا يُخْلِفُ اللّه الميعاد. ﴿وشاهدٍ ومشهودٍ﴾: وشمل هٰذا كلُّ من اتَّصف بهٰذا الوصف؛ أي: مبصِرٍ ومبصَرٍ وحاضرٍ ومحضورٍ وراءٍ ومرئيٍّ. والمقسَم عليه ما تضمَّنه هٰذا القسم من آيات اللّه الباهرة وحِكَمِهِ الظاهرة ورحمته الواسعة. وقيل: إنَّ المقسم عليه قوله:

﴿٤ ـ ٩﴾ ﴿قُتِلَ أصحابُ الأخدود﴾: وهٰذا دعاءٌ عليهم بالهلاك، والأخدودُ الحُفَرُ التي تُحْفَرُ في الأرض، وكان أصحابُ الأخدود[١] هٰؤلاء قوماً كافرين، ولديهم قومٌ مؤمنون، فراودوهم على الدُّخول[٢] في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذٰلك، فشقَّ الكافرون أخدوداً في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولَها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها؛ فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمرَّ على الإيمان قذفوه في النار، وهٰذا غايةُ المحاربة للّه ولحزبه المؤمنين، ولهٰذا لعنهم اللّه وأهلكهم وتوعَّدهم، فقال: ﴿قُتِلَ أصحابُ الأخدودِ﴾، ثم فسَّر الأخدود بقوله: ﴿النارِ ذاتِ الوَقود. إذ هم عليها قعودٌ. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهودٌ﴾: وهٰذا من أعظم ما يكون من التجبُّر وقساوة القلب؛ لأنَّهم جمعوا بين الكفر بآيات اللّه ومعاندتها ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهٰذا العذاب الذي تَنْفَطِرُ منه القلوب وحضورهم إيَّاهم عند إلقائهم فيها. والحالُ أنَّهم ما نقموا من المؤمنين إلَّا حالةً[٣] يُمْدَحون عليها وبها سعادتُهم، وهي أنَّهم كانوا يؤمنون ﴿باللّه العزيز الحميد﴾؛ أي: الذي له العزَّة، التي قَهَرَ بها كلَّ شيء، وهو حميدٌ في أقواله وأفعاله وأوصافه[٤]. ﴿الذي له مُلْكُ السمٰوات والأرض﴾: خلقاً وعبيداً يتصرَّف فيهم بما يشاء[٥]. ﴿واللّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾: علماً وسمعاً وبصراً؛ أفلا خاف هٰؤلاء المتمرِّدون عليه أن يأخُذَهم[٦] العزيز المقتدر، أوَ ما علموا كلُّهم أنَّهم[٧] مماليك للّه، ليس لأحدٍ على أحدٍ سلطةٌ من دون إذن المالك؟! أوَ خَفِيَ عليهم

(١) قصة أصحاب الأخدود، أخرجها مسلم (٣٠٠٥).

(٢) في (ب): «للدّخول».

(٣) في (ب): «إلا خصلة».

(٤) في (ب): «وأوصافه وأفعاله».

(٥) في (ب): «يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه».

(٦) في (ب): «على الله أن يبطش بهم».

(٧) في (ب): «أو ما علموا أنهم جميعهم».

أنَّ اللّه محيطٌ بأعمالهم مجازيهم عليها[١]؟! كلَّا إنَّ الكافر في غرورٍ، والجاهل في عمىً وضلالٍ[٢] عن سواء السبيل.

﴿١٠﴾ ثم أوعدهم ووعدهم وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إنَّ الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثمَّ لم يَتوبوا فلهم عذابُ جهنَّم ولهم عذابُ الحريق﴾؛ أي: العذاب الشديد المحرِق. قال الحسن رحمه اللّه[٣]: انظُروا إلى هٰذا الكرم والجود؛ قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

﴿١١﴾ ولما ذكر عقوبة الظالمين؛ ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إنَّ الذين آمنوا﴾: بقلوبهم، ﴿وعمِلوا الصالحاتِ﴾: بجوارحهم، ﴿لهم جناتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ ذٰلك الفوزُ الكبيرُ﴾: الذي حَصَلَ لهم[٤] الفوزُ برضا اللّه ودار كرامته.

﴿١٢﴾ ﴿إنَّ بطش ربِّكَ لشديدٌ﴾؛ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذُّنوب العظام لقويَّةٌ شديدةٌ[٥]، وهو للظالمين بالمرصاد[٦]؛ قال اللّه تعالى: ﴿وكذٰلك أخذُ ربِّك إذا أَخَذَ القُرى وهي ظالمةٌ إنَّ أخذَه أليمٌ شديدٌ﴾.

﴿١٣﴾ ﴿إنَّه هو يُبدِئُ ويعيدُ﴾؛ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته؛ فلا يشارِكهُ في ذٰلك مشارك[٧].

﴿١٤﴾ ﴿وهو الغفورُ﴾: الذي يغفر الذُّنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيِّئات لمن استغفره وأناب. ﴿الودودُ﴾: الذي يحبُّه أحبابه محبَّةً لا يشبهها شيءٌ؛ فكما أنَّه لا يشابهه شيءٌ في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال؛ فمحبَّته في قلوب خواصِّ خلقه التابعة لذٰلك لا يشبِهُها شيءٌ من أنواع المحابِّ، ولهٰذا كانت محبَّتُه أصل العبوديَّة، وهي المحبَّة التي تتقدَّم جميع المحابِّ وتغلبها، وإن لم تكن غيرها تبعاً لها؛ كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودودُ الوادُّ لأحبابه؛ كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهم ويحبُّونه﴾: والمودَّة هي المحبَّة الصافية.

وفي هٰذا سرٌّ لطيفٌ؛ حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدلَّ ذٰلك على أنَّ أهل الذُّنوب إذا تابوا إلى اللّه، وأنابوا غفر لهم ذنوبهم، وأحبهم فلا يقال تغفر ذنوبهم، ولا

---

(١) في (ب): «مجازٍ لهم على فعالهم». (٢) في (ب): «والظالم في جهل وعمى».
(٣) أي: الحسن البصري. انظر «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٩٣).
(٤) في (ب): «به». (٥) في (ب): «والذنوب العظام لَشديدة».
(٦) في (ب): «وهو بالمرصاد للظالمين». (٧) في (ب): «فلا مشارك في ذلك».

يرجع إليهم الود كما قاله بعض الغالطين، بل اللّه أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجلٍ على راحلته عليها طعامُهُ وشرابه وما يصلحه، فأضلَّها في أرضِ فلاةٍ مهلكةٍ، فأيس منها، فاضطجع في ظلِّ شجرةٍ ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال؛ إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها[1]. فاللّه أعظم فرحاً بتوبة العبد من هٰذا براحلته، وهٰذا أعظم فرح يقدَّر؛ فللّه الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظمَ برَّه وأكثر خيرَه وأغزرَ إحسانَه وأوسع امتنانَه!

﴿١٥﴾ ﴿ذو العرش المجيدُ﴾؛ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته أنه وسع السماواتِ والأرض والكرسيَّ؛ فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاةٍ في فلاةٍ بالنسبة لسائر الأرض[2]، وخصَّ اللّه العرش بالذِّكر لعظمته، ولأنَّه أخصُّ المخلوقات بالقرب منه [تعالى]. وهٰذا على قراءة الجرِّ يكون ﴿المجيد﴾ نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع؛ فإنَّه يكون نعتاً للّه[3]، والمجدُ سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿١٦﴾ ﴿فعَّالٌ لما يريد﴾؛ أي: مهما أراد شيئاً؛ فعله، إذا أراد شيئاً؛ قال له: كن، فيكون، وليس أحدٌ فعالاً لما يريد إلَّا اللّه؛ فإنَّ المخلوقات ولو أرادت شيئاً؛ فإنَّه لا بدَّ لإرادتها من معاونٍ وممانع، واللّه لا معاون لإرادته ولا ممانع له ممَّا أراد.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ثم ذكر من أفعاله الدالَّة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هل أتاك حديث الجُنود. فرعونَ وثمودَ﴾: وكيف كذَّبوا المرسلين فجعلهم اللّه من المهلكين.

﴿١٩﴾ ﴿بل الذين كَفَروا في تكذيبٍ﴾؛ أي: لا يزالون مستمرِّين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآياتُ، ولا تُجدي لديهم العظات.

﴿٢٠﴾ ﴿واللّه من ورائهم محيطٌ﴾: قد أحاط بهم علماً وقدرةً؛ كقوله: ﴿إنَّ

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) عن عدة من الصحابة بألفاظ مختلفة.

(٢) كما في كتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي (٥٨) من حديث أبي ذر رضي اللّه عنه، والحديث صححه الألباني في «الصحيحة» (١٠٩) وقال: «واعلم أنه لا يصح حديث مرفوع عن النبي ﷺ في صفة العرش إلاّ هٰذا الحديث».

(٣) في (ب): «فإن المجيدَ نعتٌ لله».

ربَّك لبالمرصاد﴾؛ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة مَنْ هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿بل هو قرآنٌ مجيدٌ﴾؛ أي: وسيع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم. ﴿في لوحٍ محفوظٍ﴾: من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ، الذي قد أثبت اللّه فيه كلَّ شيء، وهٰذا يدلُّ على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند اللّه تعالى. واللّه أعلم.

تم تفسيرها[١].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الطارق

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ[٢] ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

﴿١ ـ ٤﴾ يقول اللّه تعالى: ﴿والسماءِ والطارقِ﴾: ثم فسَّر الطارقَ بقوله: ﴿النَّجمُ الثاقبُ﴾؛ أي: المضيء الذي يثقب نورُه فيخرِقُ السماوات فينفذ حتى يُرى في الأرض. والصحيح أنَّه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب. وقد قيل: إنَّه زحل، الذي يخرق السماوات السبع وينفذها[٣] فيُرى منها، وسُمِّيَ طارقاً لأنَّه يطرق ليلاً. والمقسَم عليه قوله: ﴿إن كلُّ نفسٍ لَمَّا عليها حافظ﴾: يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستُجازى بعملها المحفوظ عليها.

---

(١) في (ب): «تَمَّ تفسير السورة».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٣) في (ب): «وينفذ فيها».

﴿٥ ـ ٧﴾ ﴿فلينظرِ الإنسانُممَّ خُلِقَ﴾؛ أي: فليتدبَّر خلقته ومبدأه؛ فإنَّه مخلوق ﴿من ماءٍ دافقٍ﴾: وهو المنيُّ، الذي ﴿يخرُجُ من بين الصُّلْبِ والترائبِ﴾: يُحتمل أنَّه من بين صلبِ الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها، ويُحتمل أنَّ المراد المنيُّ الدافق، وهو منيُّ الرجل، وأنَّ محلَّه الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعلَّ هٰذا أولى؛ فإنَّه إنَّما وصف به الماء الدافق الذي يُحَسُّ به ويشاهَدُ دفْقُه[١]، وهو منيُّ الرجل، وكذٰلك لفظ الترائب؛ فإنَّها تستعمل للرجل؛ فإنَّ الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى؛ فلو أريدت الأنثى؛ لقيل[٢] من الصُّلب والثديين ونحو ذٰلك. والله أعلم.

﴿٨ ـ ١٠﴾ فالذي أوجد الإنسان من ماءٍ دافقٍ يخرج من هٰذا الموضع الصعب قادرٌ على رجعه في الآخرة وإعادته للبعث والنُّشور والجزاء. وقد قيل: إنَّ معناه أنَّ الله على رجع الماءِ المدفوق في الصُّلب لَقادرٌ، وهٰذا وإن كان المعنى صحيحاً؛ فليس هو المرادُ من الآية، ولهٰذا قال بعده: ﴿يومَ تُبلى السرائر﴾؛ أي: تختبر سرائر الصدور ويظهر ما كان في القلوب من خيرٍ وشرٍّ على صفحات الوجوه؛ كما قال تعالى: ﴿يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ﴾؛ ففي الدُّنيا تنكتم كثيرٌ من الأشياء ولا يظهر عياناً للناس، وأمَّا يوم القيامة[٣]؛ فيظهر بِرُّ الأبرار وفجورُ الفجار، وتصير الأمور علانيةً. وقوله: ﴿فما له من قوَّةٍ﴾؛ أي: من نفسه يدفع بها[٤]، ﴿ولا ناصرٍ﴾: من خارجٍ[٥] ينتصر به، فهٰذا القسمُ على العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

﴿١١ ـ ١٤﴾ ثم أقسم قسماً ثانياً على صحة القرآن، فقال: ﴿والسماءِ ذات الرَّجْع. والأرضِ ذاتِ الصَّدْع﴾؛ أي: ترجع السماء بالمطر كلَّ عام، وتنصدِعُ الأرض للنبات، فيعيش بذٰلك الآدميُّون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقدار والشؤون الإلٰهيَّة كلَّ وقتٍ، وتنصدع الأرض عن الأموات، ﴿إنَّه﴾؛ أي: القرآن، ﴿لقولٌ فصلٌ﴾؛ أي: حقٌّ وصدقٌ بيِّنٌ واضحٌ، ﴿وما هو بالهَزْل﴾؛ أي: جدٌّ ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات، وتنفصل به الخصومات.

---

(١) في (ب): «إنما وصف الله به الماء الدافق والذي يحسُّ ويشاهد دفقه».

(٢) في (ب): «لقال».

(٣) في (ب): «وأمَّا في القيامة».

(٤) في (ب): «﴿فما له من قوَّة﴾: يدفع بها عن نفسه».

(٥) في (ب): «﴿ولا ناصر﴾: خارجي».

﴿١٥ ـ ١٧﴾ ﴿إنَّهم﴾؛ أي: المكذِّبين للرسول ﷺ وللقرآن، ﴿يكيدون كيداً﴾: ليدفعوا بكيدِهِم الحقَّ ويؤيِّدوا الباطل، ﴿وأكيدُ كيداً﴾: لإظهار الحقِّ، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويُعلم بهٰذا مَنْ الغالب؛ فإنَّ الآدميَّ أضعفُ وأحقرُ من أن يغالب القويَّ العليم في كيدِهِ. ﴿فمهِّلِ الكافرين أمْهِلْهم رويداً﴾؛ أي: قليلاً، فسيعلمون[1] عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسيرها[2]. والحمد للّه رب العالمين.

# تفسير سورة سبح

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾[3] الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ يأمر تعالى بتسبيحه المتضمِّن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً يليق بعظمة اللّه تعالى؛ بأن تُذْكَرَ أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها العظيم الجليل[4]، وتذكر أفعاله التي منها أنَّه خلق المخلوقات فسواها؛ أي: أتقن وأحسن خلقها، ﴿والذي قدَّر﴾: تقديراً تتبعه جميع المقدَّرات، ﴿فهدى﴾: إلى ذٰلك جميع المخلوقات، وهٰذه الهداية العامَّة التي مضمونها أنَّه هدى كلَّ مخلوق لمصلحته.

﴿٤ ـ ٥﴾ وتُذكَر فيها نِعَمه الدنيويَّة، ولهٰذا قال[5]: ﴿والذي أخرج المرعى﴾؛ أي:

---

(١) في (ب): «فسيعملون». (٢) في (ب): «تم تفسير سورة الطارق».

(٣) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٤) في (ب): «الحسن العظيم». (٥) في (ب): «قال فيها».

أنزل من السماء ماءً، فأنبت به أصناف[١] النبات والعشب الكثير، فرتع فيه الناسُ والبهائم وجميع الحيوانات[٢]. ثم بعد أن استكمل ما قَدَّرَ له من الشباب؛ ألوى نباته وصوَّح عشبه، ﴿فجعله غثاءً أحوى﴾؛ أي: أسود؛ أي: جعله هشيماً رميماً.

﴿٦ ـ ٧﴾ ويذكر فيها نعمه الدينيَّة، ولهٰذا امتنَّ اللّه بأصلها ومادَّتها، وهو القرآن، فقال: ﴿سنقرِئُك فلا تَنسى﴾؛ أي: سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ونوعيه قلبك؛ فلا تنسى منه شيئاً، وهٰذه بشارةٌ من اللّه كبيرةٌ[٣] لعبده ورسوله محمدٍ ﷺ؛ أنَّ اللّه سيعلمه علماً لا ينساه، ﴿إلَّا ما شاء اللّه﴾: مما اقتضت حكمتُه أن ينسيكه لمصلحةٍ وحكمةٍ بالغةٍ. ﴿إنَّه يعلم الجهر وما يَخفى﴾: ومن ذٰلك أنَّه يعلم ما يُصْلِحُ عباده؛ أي: فلذٰلك يشرع ما أراد ويحكم بما يريد[٤].

﴿٨﴾ ﴿ونيسِّرُك لليُسرى﴾: وهٰذه أيضاً بشارةٌ أخرى[٥]؛ أنَّ اللّه ييسِّر رسولَه ﷺ لليُسرى في جميع أموره، ويجعل شرعَه ودينَه يسيراً[٦].

﴿٩ ـ ١٣﴾ ﴿فذكِّر﴾: بشرع اللّه وآياته، ﴿إن نفعتِ الذِّكرى﴾؛ أي: ما دامت الذِّكرى مقبولةً والموعظة مسموعةً، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنَّه إن لم تنفع الذِّكرى؛ بأنْ كان التَّذكير يزيد في الشرِّ أو يَنْقُصُ من الخير؛ لم تكن مأموراً بها، بل منهيًّا عنها؛ فالذِّكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون، وغير منتفعين. فأمّا المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سيذَّكَّر مَن يخشى﴾: اللّه؛ فإنَّ خشية اللّه تعالى والعلم بمجازاته على الأعمال توجب للعبد الانكفاف عمَّا يكرهه اللّه[٧] والسعي في الخيرات، وأمَّا غير المنتفعين؛ فذكرهم بقوله: ﴿ويتجنَّبُها الأشقى. الذي يَصْلى النارَ الكُبرى﴾: وهي النار الموقدة، التي تطَّلِعُ على الأفئدة، ﴿ثمَّ لا يموت فيها ولا يَحْيا﴾؛ أي: يعذَّب عذاباً أليماً من غير راحةٍ ولا استراحةٍ، حتَّى إنَّهم يتمنَّوْن الموت؛ فلا يحصُلُ لهم؛ كما قال تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفَّفُ عنهم من عذابها﴾.

---

(١) في (ب): «أنواع». (٢) في (ب): «وكلّ حيوان».
(٣) في (ب): «كبيرة من الله».
(٤) في (ب): «فلذلك يحكم بما».
(٥) في (ب): «كبيرة». (٦) في (ب): «يسراً».
(٧) في (ب): «فإن خشيته لله وعلمه بأن سيجازيه على أعماله توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي».

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿قد أفلح من تزَكّى﴾؛ أي: قد فاز وربح من طهَّر نفسه ونقَّاها من الشرك والظلم ومساوىء الأخلاق، ﴿وذَكَرَ اسمَ ربِّه فصلَّى﴾؛ أي: اتَّصف بذكر اللّه، وانصبغ به قلبُه، فأوجب له ذٰلك العمل بما يرضي اللّه، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزانُ الإيمان. هٰذا معنى الآية [الكريمة]، وأمَّا من فسَّر قوله: ﴿تزكى﴾؛ يعني[1]: أخرج زكاة الفطر، و﴿ذكر اسم ربِّه فصلى﴾؛ أنَّه صلاة العيد؛ فإنَّه وإن كان داخلاً في اللفظ وبعض جزئيَّاته؛ فليس هو المعنى وحده.

﴿١٦ ـ ١٧﴾ ﴿بل تؤثرون الحياة الدُّنيا﴾؛ أي: تقدِّمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها المنغَّص المكدَّر الزائل على الآخرة، ﴿والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾: خيرٌ من الدُّنيا في كلِّ وصفٍ مطلوبٍ، ﴿وأبقى﴾؛ لكونها دار خلدٍ وبقاءٍ [وصفاء] والدنيا دار فناء. فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذَّة ساعةٍ بترحة الأبد، فحبُّ الدُّنيا وإيثارها على الآخرة رأس كلِّ خطيئة.

﴿١٨ ـ ١٩﴾ ﴿إنَّ هٰذا﴾: المذكور لكم في هٰذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة، ﴿لفي الصُّحُفِ الأولى. صُحُفِ إبراهيم وموسى﴾: اللَّذيْنِ هما أشرف المرسلين بعد[2] محمدٍ صلى اللّه عليه وعليهم أجمعين. فهٰذه أوامر في كلِّ شريعةٍ؛ لكونها عائدةٌ إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

تمَّت. وللّه الحمد[3].

❁ ❁ ❁

## تفسير سورة الغاشية

### وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ[4] ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

---

(١) في (ب): «بمعنى». (٢) في (ب): «سوى النبي».
(٣) في (ب): «تمَّ تفسير سورة سبح ولله الحمد».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿وزرابي مبثوثة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١﴾ يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامَّة، وأنَّها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازَوْن بأعمالهم، ويتميَّزون إلى فريقين: فريق في الجنَّة، وفريق في السَّعير. فأخبر عن وصف كلا الفريقين:

﴿٢ ـ ٧﴾ فقال في وصف أهل النار: ﴿وجوهٌ يومئذٍ﴾؛ أي: يوم القيامة، ﴿خاشعةٌ﴾: من الذُّلِّ والفضيحة والخزي، ﴿عاملةٌ ناصبةٌ﴾؛ أي: تاعبة في العذاب، تجرُّ على وجوهها، ﴿وتغشى وجوهَهم النارُ﴾؛ ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ. عاملةٌ ناصبةٌ﴾: في الدنيا لكونهم في الدُّنيا أهل عباداتٍ وعمل، ولكنَّه لما عدم شرطه، وهو الإيمان؛ صار يوم القيامة هباءً منثوراً.

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى؛ فلا يدلُّ عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول؛ لأنَّه قيَّده بالظرف، وهو يوم القيامةِ، ولأنَّ المقصود هنا بيان ذكر[١] أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزءٌ قليلٌ بالنسبة إلى أهل النار[٢]، ولأنَّ الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية؛ فليس فيه تعرُّضٌ لأحوالهم في الدُّنيا.

وقوله: ﴿تَصْلى ناراً حاميةً﴾؛ أي: شديداً حرُّها تحيط بهم من كلِّ مكان، ﴿تُسقى من عينٍ آنيةٍ﴾؛ أي: شديدة الحرارة[٣]، ﴿وإن يَسْتَغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمهل يَشْوي الوجوهَ﴾؛ فهذا شرابهم، وأمَّا طعامُهم؛ فـ﴿ليس لهم طعامٌ إلَّا من ضريعٍ. لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوعٍ﴾: وذلك لأنَّ[٤] المقصود من الطعام أحد أمرين: إمَّا أن يسدَّ جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإمَّا أن يُسْمِنَ بدنَه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيءٌ من هذين الأمرين، بل هو طعامٌ في غاية المرارة والنَّتن والخسَّة، نسأل الله العافية.

﴿٨ ـ ١٦﴾ وأمَّا أهلُ الخير؛ فوجوههم يوم القيامةِ ﴿ناعمةٌ﴾؛ أي: قد جرت عليهم نَضْرَةُ النعيم فَنَضَرَتْ أبدانهم واستنارت وجوههم وسُرُّوا غاية السرور، ﴿لسعيها﴾: الذي قدَّمته في الدُّنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله،

---

(١) في (ب): «وصف».
(٢) في (ب): «جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها».
(٣) في (ب): «حارة شديدة».
(٤) في (ب): «أن».

﴿راضية﴾: إذْ وجدت ثوابه مدَّخراً مضاعفاً، فحمدت عقباه، وحصل لها كلُّ ما تتمنَّاه. وذٰلك أنَّها ﴿في جنَّةٍ﴾: جامعةٍ لأنواع النَّعيم كلِّها، ﴿عاليةٍ﴾: في محلِّها ومنازلها؛ فمحلُّها في أعلى عِلِّيين، ومنازلها مساكنُ عاليةٌ، لها غرفٌ، ومن فوق الغرف غرفٌ مبنيَّةٌ يشرفون منها على ما أعدَّ الله لهم من الكرامة. ﴿قطوفُها دانيةٌ﴾؛ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول؛ بحيث ينالونها على أيِّ حال كانوا، لا يحتاجون أن يَصْعَدوا شجرةً أو يستعصي عليهم منها ثمرةٌ. ﴿لا تسمع فيها﴾؛ أي: الجنَّة ﴿لاغيةً﴾؛ أي: كلمة لغوٍ وباطلٍ فضلاً عن الكلام المحرَّم، بل كلامُهم كلامٌ حسنٌ نافعٌ، مشتملٌ على ذكر الله وذكر نعمه المتواترة عليهم وعلى الآداب الحسنة[1] بين المتعاشِرين الذي يسرُّ القلوب ويشرح الصدور. ﴿فيها عينٌ جاريةٌ﴾: وهٰذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجِّرونها ويصرِّفونها كيف شاؤوا وأنَّى أرادوا. ﴿فيها سررٌ مرفوعةٌ﴾: والسرر جمعُ سريرٍ، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها وبما عليها من الفُرُش الليِّنة الوطيئة. ﴿وأكوابٌ موضوعةٌ﴾؛ أي: أوانٍ ممتلئةٌ من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدَّت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوفُ بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارقُ مصفوفةٌ﴾؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلَّا الله، قد صُفَّتْ للجلوس والاتِّكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها أو يصفوها بأنفسهم. ﴿وزرابِيُّ مبثوثةٌ﴾: والزرابِيُّ هي البسط الحسان، مبثوثةٌ؛ أي: مملوءةٌ بها مجالسهم من كلِّ جانب.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ[2] ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

﴿١٧ ـ ٢٠﴾ يقول تعالى حثًّا للذين لا يصدِّقون الرسول ﷺ ولغيرهم من الناس أنْ يتفكَّروا في مخلوقات الله الدالَّة على توحيده. ﴿أفلا ينظُرون إلى الإبل كيف خُلِقَتْ﴾؛ أي: ألا ينظُرون إلى خَلْقها البديع وكيف سخَّرها الله للعباد وذلَّلها لمنافعهم الكثيرة

---

(١) في (ب): «والآداب المستحسنة».

(٢) في ( أ ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

التي يضطَرُّون إليها؟[١] ﴿وإلى الجبال كيف نُصِبَتْ﴾: بهيئةٍ باهرةٍ حصل بها الاستقرار للأرض[٢] وثباتُها من الاضطراب وأودع [الله] فيها من المنافع الجليلة ما أودع، ﴿وإلى الأرض كيف سُطِحَتْ﴾؛ أي: مُدَّت مدًّا واسعاً، وسُهِّلت غاية التسهيل؛ ليستقرَّ العبادُ[٣] على ظهرها ويتمكَّنوا من حرثها وغراسها والبنيان فيها وسلوك طرقها[٤].

واعلم أنَّ تسطيحها لا ينافي أنَّها كرةٌ مستديرةٌ قد أحاطتِ الأفلاك فيها من جميع جوانبها كما دلَّ على ذٰلك النقل والعقل والحسُّ والمشاهدة؛ كما هو مذكورٌ معروفٌ عند كثيرٍ من الناس[٥]، خصوصاً في هٰذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقرِّبة للبعيد؛ فإنَّ التسطيح إنَّما ينافي كرويَّة الجسم الصغير جدًّا، الذي لو سطح؛ لم يبق له استدارةٌ تُذْكَر، وأمَّا جسم الأرض الذي هو كبيرٌ جدًّا واسعٌ[٦]، فيكون كرويًّا مسطحاً، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذٰلك أرباب الخبرة.

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿فذكِّرْ إنَّما أنت مذكِّرٌ﴾؛ أي: ذكِّر الناس وعِظْهم وأنذِرْهم وبشِّرْهم؛ فإنَّك مبعوثٌ لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تُبْعَثْ عليهم مسيطراً عليهم مسلطاً[٧] موكلاً بأعمالهم؛ فإذا قمت بما عليك؛ فلا عليك بعد ذٰلك لومٌ؛ كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبارٍ. فَذَكِّرْ بالقرآنِ مَن يخافُ وعيدِ﴾.

﴿٢٣ ـ ٢٤﴾ وقوله: ﴿إلَّا مَن تولَّى وكَفَرَ﴾؛ أي: لٰكن مَن تولَّى عن الطاعة وكفر بالله، ﴿فيعذِّبُه الله العذابَ الأكبرَ﴾؛ أي: الشديد الدائم.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿إنَّ إلينا إيابَهم﴾؛ أي: رجوع الخلائق[٨] وجمعهم في يوم القيامةِ. ﴿ثم إنَّ علينا حسابَهم﴾: على ما عملوا[٩] من خيرٍ وشرٍّ.

والحمد لله [رب العالمين].

❁ ❁ ❁

---

(١) في النسختين لم يفسر قوله: ﴿وإلى السماء كيف رفعت﴾.
(٢) في (ب): «حصل بها استقرار الأرض».
(٣) في (ب): «الخلائق».
(٤) في (ب): «وسلوك الطرق الموصلة إلى أنواع المقاصد فيها».
(٥) في (ب): «أكثر الناس».
(٦) في (ب): «الذي هو في غاية الكبر والسعة».
(٧) في (ب): «مسيطراً عليهم مسلطاً».
(٨) في (ب): «الخليقة».
(٩) في (ب): «فنحاسبهم على ما عملوا».

# تفسير سورة والفجر

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ الظاهر أن المقسم عليه هو المقسَم به[١]، وذٰلك جائزٌ مستعملٌ إذا كان أمراً ظاهراً مهمًّا، وهو كذٰلك في هٰذا الموضع. فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخرُ الليل ومقدِّمة النهار؛ لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالَّة على كمال قدرة اللّه تعالى، وأنَّه تعالى هو[٢] المدبِّر لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ويقع في الفجر صلاةٌ فاضلةٌ معظَّمة يَحْسُنُ أن يُقسم اللّه بها، ولهٰذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح ليالي عشر رمضان أو عشر ذي الحجَّة[٣]؛ فإنَّها ليالٍ مشتملةٌ على أيَّام فاضلةٍ، ويقع فيها من العبادات والقُرُبات ما لا يقع بغيرها. وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر، وفي نهارها صيامُ آخر رمضان، الذي هو أحد أركان[٤] الإسلام العظام. وفي أيَّام عشر ذي الحجَّة الوقوف بعرفة، الذي يغفر اللّه فيه لعباده مغفرةً يحزن لها الشيطان؛ فإنَّه ما[٥] رُئي الشيطان أحقر ولا أدحر منه[٦] في يوم عرفة[٧]؛ لما يرى من تنزُّل الأملاك والرحمة من اللّه على عباده[٨]، ويقع فيها كثيرٌ من أفعال الحجِّ والعمرة، وهٰذه أشياء معظَّمة مستحقَّة أن يقسم اللّه بها، ﴿والليل إذا يَسْرِ﴾؛ أي:

(١) في (ب): «الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه».

(٢) في (ب): «وأنه وحده».

(٣) انظر «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٥٦) فقد ذكر المفاضلة فيها بين العشر من ذي الحجة والعشر الأخير من رمضان.

(٤) في (ب): «الذي هو ركن من أركان».

(٥) في (ب): «فما».

(٦) في (ب): «من».

(٧) أخرجه مالك في «الموطأ» في الحج، باب: «جامع الحج»، وعنه عبدالرزاق (٨٨٣٢) مرسلاً عن عبيدالله بن كريز.

(٨) في (ب): «لعباده».

وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمئنُّون رحمةً منه تعالى وحكمةً. ﴿هل في ذٰلك﴾: المذكور، ﴿قَسَمٌ لذي حِجْرٍ﴾؛ أي: لذي عقل؟ نعم بعضُ ذٰلك يكفي لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيدٌ.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ[1] ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿٦ ـ ١٤﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾: بقلبك وبصيرتك، ﴿كيف فَعَلَ﴾: بهذه الأمم الطاغية، عاد وهي ﴿إرم﴾: القبيلة المعروفة في اليمن، ﴿ذات العِماد﴾؛ أي: القوَّة الشديدة والعتوِّ والتجبُّر، ﴿التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلاد﴾[2]؛ أي: في جميع البلدان في القوَّة والشدَّة؛ كما قال لهم نبيُّهم هودٌ عليه السلام: ﴿واذكُروا إذْ جَعَلَكُم خُلَفاء من بعدِ قوم نوح وزادَكُم في الخَلْقِ بَسْطَةً فاذكُروا آلاء اللّه لعلَّكم تفلِحونَ﴾. ﴿وثمودَ الذين جابوا الصَّخْر بالواد﴾؛ أي: وادي القرى؛ نحتوا بقوَّتهم الصخور فاتَّخذوها مساكن، ﴿وفرعونَ ذي الأوتادِ﴾؛ أي: ذي الجنود الذي ثبَّتوا ملكه كما تثبت الأوتاد [و] ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طَغَوْا في البلاد﴾: هٰذا الوصف عائدٌ إلى عادٍ وثمودَ وفرعونَ ومن تَبِعَهم؛ فإنَّهم طَغَوْا في بلاد اللّه، وآذوا عباد اللّه في دينهم ودنياهم. ولهٰذا قال: ﴿فأكثَروا فيها الفسادَ﴾: وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرُّسُل وصدِّ الناس عن سبيل اللّه، فلما بلغوا من العتوِّ ما هو موجبٌ لهلاكهم؛ أرسل اللّه عليهم من عذابه ذَنوباً وسوطَ عذاب، ﴿إنَّ ربَّك لبالمرصادِ﴾: لمن يعصيه[3]؛ يمهِلُه قليلاً ثم يأخُذُه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ[4] فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «﴿التي لم يخلق مثلها﴾؛ أي: مثل عاد في البلاد».

(٣) في (ب): «لمن عصاه».

(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿حباً جماً﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿١٥ ـ ٢٠﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنَّه جاهلٌ ظالمٌ لا علم له بالعواقب، يظنُّ الحالة التي تقع فيه تستمرُّ ولا تزول، ويظنُّ أنَّ إكرام اللّه في الدُّنيا وإنعامه عليه يدلُّ على كرامته [عنده] وقربِهِ منه، وأنَّه إذا ﴿قَدَرَ عليه رِزْقَه﴾؛ أي: ضيَّقه، فصار بِقَدَرِ قوتِهِ لا يفضُلُ عنه؛ أنَّ هٰذا إهانةٌ من اللّه له، فردَّ اللّه عليه هٰذا الحسبان، فقال: ﴿كلا﴾؛ أي: ليس كلُّ مَنْ نَعَّمْتُهُ في الدُّنيا فهو كريمٌ عليَّ، ولا كلُّ من قَدَرْتُ عليه رِزْقَه فهو مهانٌ لديَّ، وإنَّما الغِنى والفقر والسعة والضيق ابتلاءٌ من اللّه وامتحانٌ يمتحن به العباد؛ ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثيبه على ذٰلك الثواب الجزيل، ممَّن ليس كذٰلك، فينقله إلى العذاب الوبيل. وأيضاً؛ فإنَّ وقوف همَّة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمَّة، ولهٰذا لامَهُمُ اللّه على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين، فقال: ﴿كلاَّ بل لا تكرِمون اليتيمَ﴾: الذي فقد أباه وكاسبه واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه؛ فأنتُم لا تكرِمونه بل تهينونه، وهذا يدلُّ على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير، ﴿ولا تحاضُون على طعام المسكين﴾؛ أي: لا يحضُّ بعضكم بعضاً على إطعام المحاويج من الفقراء والمساكين[١]، وذٰلك لأجل الشحِّ على الدنيا ومحبَّتها الشديدة المتمكِّنة من القلوب. ولهٰذا قال: ﴿وتأكُلون التُّراثَ﴾؛ أي: المال المخلَّف، ﴿أكلاً لَمًّا﴾؛ أي: ذريعاً، لا تبقون على شيء منه، ﴿وتحبُّون المال حُبًّا جَمًّا﴾؛ أي: شديداً[٢]، وهٰذا كقوله: ﴿بل تؤثرون الحياةَ الدُّنيا والآخرةُ خيرٌ وأبقى﴾، ﴿كلاَّ بل تحبُّونَ العاجِلَةَ وتَذَرون الآخرةَ﴾.

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا[٣] ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾.

(١) في (ب): «من المساكين والفقراء».
(٢) في (ب): «أي: كثيراً شديداً».
(٣) في ( أ ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿كلاَّ﴾؛ أي: ليس كلُّ ما أحببتم من الأموال وتنافستُم فيه من اللَّذات بباقٍ لكم، بل أمامكم يومٌ عظيمٌ وهولٌ جسيمٌ تُدَكُّ فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تُجْعَلَ قاعاً صفصفاً لا عِوَجَ فيه ولا أمتا، ويجيء اللَّه لفصل القضاء بين عباده في ظُلَلٍ من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام أهل السماواتِ كلُّهم[1] ﴿صفًّا صفًّا﴾؛ أي: صفّاً بعد صفٍّ، كلُّ سماءٍ يجيء ملائكتها صفًّا، يحيطون بمن دونَهم من الخلق، وهٰذه الصفوف صفوفُ خضوع وذُلٍّ للملك الجبار، ﴿وجيء يومئذٍ بجهنَّم﴾: تقودُها[2] الملائكة بالسلاسل؛ فإذا وقعت هٰذه الأمور؛ فـ﴿يومئذٍ يتذكَّرُ الإنسان﴾: ما قدَّمه من خيرٍ وشرٍّ، ﴿وأنَّى له الذِّكرى﴾: فقد فات أوانُها وذهب زمانها، ﴿يقول﴾: متحسِّراً على ما فرَّط في جنب اللَّه: ﴿يا ليتني قدَّمتُ لحياتي﴾: الباقية الدائمة[3] عملاً صالحاً؛ كما قال تعالى: ﴿يقول يا ليتني اتَّخَذْتُ مع الرسولِ سبيلاً. يا ويلتىٰ لَيْتَني لم أتَّخِذْ فلاناً خليلاً﴾، وفي هٰذا[4] دليلٌ على أنَّ الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها[5] وفي تتميم لَذَّاتها هي الحياة في دار القرار؛ فإنَّها دارُ الخُلد والبقاء.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿فيومئذٍ لا يعذِّبُ عذابَه أحدٌ﴾: لمن أهمل ذٰلك اليوم ونسي العمل له، ﴿ولا يوثِقُ وَثاقَه أحدٌ﴾؛ فإنَّهم يقرنون بسلاسل من نارٍ، ويسحَبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يُسْجَرون؛ فهٰذا جزاءُ المجرمين.

﴿٢٧ ـ ٣٠﴾ وأمَّا مَن آمن باللَّه واطمأنَّ به[6] وصدَّق رسله؛ فيقال له: ﴿يا أيَّتها النفسُ المطمئنَّةُ﴾: إلى ذِكْرِ اللَّه، الساكنة إلى حبِّه[7]، التي قرَّتْ عينُها باللَّه، ﴿ارجِعي إلى ربِّك﴾: الذي ربَّاك بنعمته، [وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه] ﴿راضيةً مَرْضِيَّةً﴾؛ أي: راضيةً عن اللَّه وعن ما أكرمها به من الثواب، واللَّه قد رضي عنها، ﴿فادْخُلي في عبادي. وادْخُلي جنَّتي﴾: وهٰذا تخاطَبُ به الرُّوح يوم القيامةِ، وتخاطَبُ به وقتَ السياق والموت[8].

والحمد للَّه رب العالمين.

---

(١) في (ب): «كلّها».
(٢) في (ب): «يقودها».
(٣) في (ب): «الدائمة الباقية».
(٤) في (ب): «وفي الآية».
(٥) في (ب): «التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها».
(٦) في (ب): «وأمّا من اطمأن إلى الله وآمن به».
(٧) في (ب): «لحبّه».
(٨) في (ب): «وتخاطب به في حال الموت».

# تفسير سورة لا أقسم
## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢[١] وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ يقسم تعالى ﴿بهذا البلدِ﴾ الأمين، وهو[٢] مكّة المكرَّمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالدٍ وما وَلَدَ﴾؛ أي: آدم وذرِّيَّته.

﴿٤ ـ ٧﴾ والمقسَم عليه قولُه: ﴿لقد خَلَقْنا الإنسانَ في كَبَدٍ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشَّدائد في الدُّنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، وأنَّه ينبغي له أن يسعى في عملٍ يُريحُهُ من هذه الشَّدائد ويوجب له الفرح والسرور الدَّائم، وإن لم يفعلْ؛ فإنَّه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد، ويحتمل أن المعنى لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خِلْقة يقدر[٣] على التصرف والأعمال الشديدة ومع ذلك فإنه لم يشكر الله على هذه النِّعمة العظيمة، بل بطر بالعافية، وتجبَّر على خالقه، فَحَسِبَ بجهله وظلمه أنَّ هذه الحال ستدوم له، وأنَّ سلطان تصرُّفه لا ينعزل، ولهذا قال [تعالى]: ﴿أيحسبُ أن لن يقدِر عليه أحدٌ﴾: ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه؛ فيقول ﴿أهلكتُ مالاً لُبَداً﴾؛ أي: كثيراً بعضه فوق بعض. وسمى الله [تعالى] الإنفاق في الشَّهوات والمعاصي إهلاكاً؛ لأنَّه لا ينتفع المنفق بما أنفق، ولا يعود إليه[٤] من إنفاقه إلَّا

(١) في (أ): طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٢) في (ب): «الذي هو».
(٣) في (ب): «مقدر».
(٤) في (ب): «عليه».

النَّدم والخسار والتَّعب والقلَّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير؛ فإنَّ هٰذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق، قال الله[١] متوعِّداً هٰذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أيحسبُ أن لم يَرَهُ أحدٌ﴾؛ أي: أيظنُّ[٢] في فعله هٰذا أنَّ الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟! بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله[٣] من خيرٍ وشرٍّ.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ثم قرَّره بنعمه، فقال: ﴿ألم نجعل له عينين. ولساناً وشفتين﴾: للجمال والبصر والنُّطق وغير ذٰلك من المنافع الضروريَّة فيها؛ فهٰذه نعم الدُّنيا. ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيناهُ النَّجدَيْنِ﴾؛ أي: طريقي الخير والشرِّ؛ بيَّنَّا له الهدى من الضَّلال، والرُّشد من الغيِّ. فهٰذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله ويشكره[٤] على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصي الله[٥].

﴿١١﴾ ولٰكن هٰذا الإنسان لم يفعل ذلك؛ ﴿فلا اقتحم العقبة﴾؛ أي: لم يقتحمْها ويعبرْ عليها؛ لأنه متَّبع لهواه[٦]، وهٰذه العقبة شديدةٌ عليه.

﴿١٢ ـ ١٦﴾ ثم فسَّر هٰذه العقبة بقوله: ﴿فكُّ رقبةٍ﴾؛ أي: فكُّها من الرقِّ بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار، ﴿أو إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَةٍ﴾؛ أي: مجاعةٍ شديدةٍ؛ بأن يطعم وقت الحاجة أشدَّ الناس حاجةً، ﴿يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ﴾؛ أي: جامعاً بين كونه يتيماً وفقيراً ذا قرابة، ﴿أو مسكيناً ذا مَتْرَبَةٍ﴾؛ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضَّرورة.

﴿١٧﴾ ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾: وعملوا الصالحات[٧]؛ أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هٰذا كلُّ[٨] قول وفعل واجبٍ أو مستحبٍّ، ﴿وتواصَوْا بالصَّبْرِ﴾: على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره[٩] المؤلمة؛ بأن يحثَّ بعضهم بعضاً على الانقياد لذٰلك والإتيان به كاملاً منشرحاً به الصَّدر مطمئنَّةً به النفس، ﴿وتواصَوْا بالمَرْحَمَةِ﴾: للخلق؛ من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه،

---

(١) في (ب): «قال تعالى».
(٢) في (ب): «أيحسب».
(٣) في (ب): «ما عمل».
(٤) في (ب): «ويشكر الله».
(٥) في (ب): «معاصيه».
(٦) في (ب): «الشهواته».
(٧) كذا في النسختين. ذكر الشيخ الآية: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾.
(٨) في (ب): «من كلِّ».
(٩) في (ب): «معصية الله وعلى أقدار الله».

ومساعدتهم على المصالح الدينيَّة والدنيويَّة، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

﴿١٨﴾ ﴿أولئك﴾: الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام [هذه] العقبة، ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾: لأنَّهم أدَّوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نُهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾: بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظُهورهم فلم يصدِّقوا بالله ولا آمنوا به ولا عملوا صالحاً ولا رحموا عباد الله. أولئك ﴿أصحاب المشأمة. عليهم نارٌ مؤصدةٌ﴾؛ أي: مغلقةٌ، في عَمَدٍ ممدَّدةٍ، قد مدَّت من ورائها؛ لئلَّا تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيقٍ وهمٍّ وشدَّةٍ.

والحمد لله.

* * *

# تفسير والشمس وضحاها

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا(١) ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال: ﴿والشمس وضُحاها﴾؛ أي: نورها ونفعها الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾؛ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنَّهار إذا جلَّاها﴾؛ أي: جلَّى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾؛ أي: يغشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً؛ فتعاقُبُ الظُّلمة والضياء والشمس والقمر على هذا

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

العالم بانتظام وإتقانٍ وقيام[١] لمصالح العباد أكبر دليل على أن الله بكلِّ شيءٍ عليمٌ وعلى كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنَّه المعبود وحده، الذي كلُّ معبودٍ سواه باطل[٢]، ﴿والسَّماء وما بناها﴾: يحتمل أن ﴿ما﴾ موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، وهو الله تعالى[٣]، ويحتمل أنها مصدريَّة، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها الذي هو غاية ما يقدَّر من الإحكام والإتقان والإحسان. ونحو هٰذا[٤] قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾؛ أي: مدَّها ووسَّعها، فتمكَّن الخلق حينئذٍ من الانتفاع بها بجميع أوجه[٥] الانتفاع.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿ونفسٍ وما سوَّاها﴾: يحتمل أنَّ المراد: ونفس سائر المخلوقات الحيوانيَّة؛ كما يؤيِّد هٰذا[٦] العموم، ويُحتمل أنَّ الإقسام[٧] بنفس الإنسان المكلَّف؛ بدليل ما يأتي بعده. وعلى كل؛ فالنفس آيةٌ كبيرةٌ من آياته التي يحقُّ الإقسام بها[٨]؛ فإنَّها في غاية اللُّطف والخفَّة، سريعة التنقُّل والحركة والتغيُّر والتأثُّر والانفعالات النفسيَّة من الهمِّ والإرادة والقصد والحبِّ والبغض، وهي التي لولاها؛ لكان البدن مجرَّد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ما هي عليه[٩] آيةٌ من آيات الله العظيمة.

﴿٩ ـ ١٠﴾ وقوله: ﴿قد أفلح من زكَّاها﴾؛ أي: طهَّر نفسه من الذُّنوب، ونقَّاها من العيوب، ورقَّاها بطاعة الله، وعلَّاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ﴿وقد خاب من دسَّاها﴾؛ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدنُّس بالرَّذائل والدُّنوِّ من العيوب والذُّنوب[١٠]، وترك ما يكمِّلها وينمِّيها، واستعمال ما يشينها ويدسِّيها.

﴿١١ ـ ١٥﴾ ﴿كذَّبت ثمود بطَغْواها﴾؛ أي: بسبب طغيانها وترفُّعها عن الحقِّ وعتوِّها على رسولهم[١١]، ﴿إذ انبعث أشقاها﴾؛ أي: أشقى القبيلة[١٢]، وهو قُدَار بن سالف؛ لعقرها؛ حين اتَّفقوا على ذٰلك وأمروه فائتمر لهم، ﴿فقال لهم

(١) في (ب): «وانتظام».
(٢) في (ب): «فباطل».
(٣) في (ب): «الذي هو الله تبارك وتعالى».
(٤) في (ب): «ونحو ذلك».
(٥) في (ب): «وجوه».
(٦) في (ب): «ذلك».
(٧) في (ب): «أن المراد بالإقسام».
(٨) في (ب): «التي حقيقة بالإقسام بها».
(٩) في (ب): «على هذا الوجه».
(١٠) في (ب): «والاقتراف للذنوب».
(١١) في (ب): «على رسول الله».
(١٢) انظر البخاري (٣٣٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥).

رسولُ اللهِ﴾: صالحٌ عليه السلام محذِّراً: ﴿ناقة الله وسُقْياها﴾؛ أي: احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آيةً عظيمةً، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذَّبوا نبيَّهم صالحاً، ﴿فعقروها فدمدم عليهم ربُّهم بذنبهم﴾؛ أي: دمَّر عليهم، وعمَّهم بعقابه، وأرسل عليهم الصَّيحة من فوقهم والرَّجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً، ﴿فسوَّاها﴾: عليهم؛ أي: سوَّى بينهم في العقوبة[1]، ﴿ولا يخاف عُقْباها﴾؛ أي: تبعتها. وكيف يخاف من هو قاهر لا يخرج عن قهره وتصرُّفه مخلوقٌ. الحكيم في كلِّ ما قضاه وشرعه.

[تمّت ولله الحمد].

* * *

# تفسير سورة والليل

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾[2] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ هٰذا قسمٌ من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم، فقال: ﴿والليلِ إذا يغشى﴾؛ أي: يعمُّ الخلق بظلامه، فيسكنُ كلٌّ إلى مأواه ومسكنه، ويستريحُ العباد من الكدِّ والتعب، ﴿والنَّهار إذا تجلَّى﴾: للخلق، فاستضاؤوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

﴿٣﴾ ﴿وما خلقَ الذَّكرَ والأنثى﴾: إن كانت ﴿ما﴾ موصولةً؛ كان إقساماً بنفسه

(١) في (ب): «بالعقوبة».

(٢) في ( أ ) إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

الكريمة الموصوفة بكونه[١] خالق الذُّكور والإناث، وإن كانت مصدريَّة؛ كان قسماً بخلقه للذَّكر والأنثى، وكمال حكمته في ذٰلك؛ أن خلق من كلِّ صنفٍ من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكراً وأنثى؛ ليبقى النوع ولا يضمحلَّ، وقاد كلًّا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلًّا منهما مناسباً للآخر؛ فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿٤﴾ وقوله: ﴿إنَّ سعيَكم لشتَّى﴾: هٰذا هو المقسم عليه؛ أي: إن سعيكم أيُّها المكلَّفون لمتفاوتٌ تفاوتاً كثيراً، وذٰلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال؛ هل هو وجه الله الأعلى الباقي، فيبقى العمل[٢] له ببقائه، وينتفع به صاحبه؟ أم هي غايةٌ مضمحلَّةٌ فانيةٌ؛ فيبطل السعي ببطلانها ويضمحلُّ باضمحلالها؟ وهٰذا كلُّ عملٍ يقصَد به غير وجه الله [تعالى] بهٰذا الوصف.

﴿٥ ـ ٧﴾ ولهٰذا فصَّل الله العاملين ووصف أعمالهم، فقال: ﴿فأمَّا من أعطى﴾؛ أي: ما أمر به من العبادات الماليَّة كالزَّكوات والنَّفقات والكفَّارات[٣] والصَّدقات والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنيَّة كالصَّلاة والصوم وغيرهما[٤]، والمركَّبة من ذٰلك[٥] كالحجِّ والعمرة ونحوهما، ﴿واتَّقى﴾: ما نُهِي عنه من المحرَّمات والمعاصي على اختلاف أجناسها، ﴿وصدَّق بالحُسنى﴾؛ أي: صدَّق بلا إلٰه إلَّا الله، وما دلَّت عليه من [جميع] العقائد الدينيَّة وما ترتَّب عليها من الجزاء [الأخروي]، ﴿فسنيسِّره لليُسرى﴾؛ أي: نيسِّر له أمره ونجعله مسهَّلاً عليه[٦] كلَّ خيرٍ، ميسَّراً له ترك كلِّ شرٍّ؛ لأنَّه أتى بأسباب التيسير، فيسَّر الله له ذٰلك.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ﴿وأمَّا مَن بَخِلَ﴾: بما أمِرَ به، فترك الإنفاق الواجب والمستحبَّ، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله، ﴿واستغنى﴾: عن الله، فترك عبوديَّته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرةً غاية الافتقار إلى ربِّها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلَّا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجَّه إليه، ﴿وكذَّب بالحُسنى﴾؛

---

(١) في (ب): «بأنه».
(٢) في (ب): «السعي».
(٣) في (ب): «والكفارات والنفقات».
(٤) في (ب): «ونحوهما».
(٥) في (ب): «والمركبة منهما».
(٦) في (ب): «أي: نسهل عليه أمره ونجعله ميسَّراً له».

أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة، ﴿فسنيسِّرهُ للعُسْرى﴾؛ أي: للحالة العسرة والخصال الذَّميمة؛ بأن يكون ميسَّراً للشرِّ أينما كان ومقيَّضاً له أفعالُ المعاصي. نسأل الله العافية.

﴿١١﴾ ﴿وما يُغني عنه مالُه﴾: الذي أطغاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات؛ فإنَّه لا يصحب الإنسان[1] إلَّا عمله الصالح. وأمَّا ماله الذي لم يخرج منه الواجب؛ فإنَّه يكون وبالاً عليه؛ إذ لم يقدِّم منه لآخرته شيئاً.

﴿١٢﴾ ﴿إنَّ علينا لَلهُدى﴾؛ أي: إنَّ الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله ويدني من رضاه، وأمَّا الضَّلال؛ فطرقه مسدودةٌ عن الله، لا توصل صاحبها إلَّا للعذاب الشديد.

﴿١٣﴾ ﴿وإنَّ لنا للآخرةَ والأولى﴾: ملكاً وتصرُّفاً، ليس له فيهما مشاركٌ، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

﴿١٤ ـ ١٦﴾ ﴿فأنذرتُكم ناراً تلظَّى﴾؛ أي: تستعر وتتوقَّد، ﴿لا يصْلاها إلَّا الأشقى. الذي كذَّب﴾: بالخبر، ﴿وتولَّى﴾: عن الأمر.

﴿١٧ ـ ٢١﴾ ﴿وسيجنبها الأتقى. الذي يؤتي مالَه يتزكَّى﴾: بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذُّنوب والأدناس[2]، قاصداً به وجه الله تعالى. فدلَّ هٰذا على أنَّه إذا تضمَّن الإنفاق المستحبُّ ترك واجبٍ كدينٍ ونفقةٍ ونحوهما؛ فإنَّه غير مشروع، بل تكون عطيَّتُه مردودةً عند كثيرٍ من العلماء؛ لأنَّه لا يتزكَّى بفعلٍ مستحبٍّ يفوِّتُ عليه الواجبَ، ﴿وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى﴾؛ أي: ليس لأحدٍ من الخلق على هٰذا الأتقى نعمةٌ تُجزى؛ إلَّا وقد كافأه عليها[3]، وربَّما بقي له الفضل والمنَّة على الناس، فتمحَّض عبداً للَّه؛ لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقيت[4] عليه نعمةُ الناس فلم يجزِها ويكافئها؛ فإنَّه لا بدَّ أن يترك للناس ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

وهٰذه الآية وإن كانت متناولةً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت بسببه[5]؛ فإنَّه رضي الله عنه ما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تُجزى، حتى ولا رسول

---

(١) في (ب): «فإنه لا يصحبه».
(٢) في (ب): «والعيوب».
(٣) في (ب): «بها».
(٤) في (ب): «بقي».
(٥) في (ب): «في سببه».

الله ﷺ؛ إلَّا نعمة الرسول، التي لا يمكن جزاؤها، وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام وتعليم الهدى ودين الحقِّ؛ فإنَّ لله ورسولِهِ المنَّة على كلِّ أحدٍ، منةً لا يمكنُ لها جزاء ولا مقابلة؛ فإنَّها متناولةٌ لكلِّ من اتَّصف بهٰذا الوصف الفاضل. فلم يبقَ لأحدٍ عليه من الخلق نعمةٌ تُجزى، فبقيت أعمالُه خالصةً لوجه الله تعالى، ولهٰذا قال: ﴿**إلَّا ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلى. ولَسوفَ يرضى**﴾: هٰذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله رب العالمين.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة والضحى

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾[١] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه؛ بالضُّحى، وبالليل ﴿**إذا سجىٰ**﴾ وادلهمَّت ظلمته؛ على اعتناء الله برسوله ﷺ، فقال: ﴿**ما ودَّعك ربُّك**﴾؛ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ ربَّاك ورعاك، بل لم يزل يربِّيك أكمل[٢] تربيةٍ ويُعليك درجةً بعد درجةٍ، ﴿**وما**﴾: قلاكَ الله؛ أي: ما أبغضك منذ أحبَّك؛ فإنَّ نفي الضِّدِّ دليلٌ على ثبوت ضدِّه، والنفي المحض لا يكون مدحاً إلَّا إذا تضمَّن ثبوت كمال. فهٰذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمُّها، محبَّة الله له واستمرارها وترقيته في درجات[٣] الكمال ودوام اعتناء الله به.

﴿٤﴾ وأمَّا حاله المستقبلة؛ فقال: ﴿**وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى**﴾؛ أي: كلُّ

---

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٢) في (ب): «أحسن». (٣) في (ب): «درج».

حالةٍ متأخِّرةٍ من أحوالك؛ فإنَّ لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل ﷺ يصعد في درجات[١] المعالي، ويمكِّن اللّه له[٢] دينه، وينصره على أعدائِه، ويسدِّده[٣] في أحواله، حتَّى مات وقد وصل إلى حال ما[٤] وصل إليها الأوَّلون والآخرون؛ من الفضائل والنِّعم وقرَّة العين وسرور القلب.

﴿٥﴾ ثمَّ بعد هٰذا لا تسأل عن حاله في الآخرةِ من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام، ولهٰذا قال: ﴿**ولَسوف يعطيكَ ربُّك فترضى**﴾: وهٰذا أمرٌ لا يمكن التعبير عنه إلَّا بهٰذه العبارة الجامعة الشاملة.

﴿٦ ـ ٨﴾ ثم امتنَّ عليه بما يعلمه من أحواله الخاصَّة[٥]، فقال: ﴿**ألمْ يجدْكَ يتيماً فآوى**﴾؛ أي: وجدك لا أمَّ لك ولا أبَ، بل قد مات أبوه وأمُّه وهو لا يدبِّر نفسه، فآواه الله، وكفَّله جدَّه عبد المطلب، ثم لمَّا مات جدُّه؛ كفَّله الله عمَّه أبا طالب، حتى أيَّده [اللّه] بنصره وبالمؤمنين، ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾؛ أي: وجدك لا تدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، فعلَّمك ما لم تكن تعلمُ، ووفَّقك لأحسن الأعمال والأخلاق. ﴿**ووجدك عائلاً**﴾؛ أي: فقيراً، فأغناكَ الله بما فتح[٦] عليك من البلدان، التي جُبيت لك أموالها وخراجها، فالذي أزال عنك هٰذه النقائص سيزيل عنك كلَّ نقصٍ، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك، قابلْ نعمته بالشُّكران.

﴿٩ ـ ١١﴾ ولهٰذا قال: ﴿**فأمَّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ**﴾؛ أي: لا تُسِيء معاملة اليتيم، ولا يَضِقْ صدرُك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسَّر، واصنع به كما تحبُّ أن يُصْنَعَ بولدك من بعدك، ﴿**وأمَّا السائلَ فلا تنهر**﴾؛ أي: لا يصدر منك كلامٌ للسائل[٧] يقتضي ردَّه عن مطلوبه بنَهْرٍ وشراسةِ خلقٍ، بل أعطه ما تيسَّر عندك، أو ردَّه بمعروفٍ وإحسانٍ. ويدخل في هٰذا[٨] السائل للمال والسائل للعلم، ولهٰذا كان المعلِّم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلِّم ومباشرته بالإكرام والتحنُّن عليه؛ فإنَّ في ذٰلك معونةً له على مقصده وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد،

---

(١) في (ب): «درج».
(٢) في (ب): «ويمكن له الله».
(٣) في (ب): «ويسدِّد له».
(٤) في (ب): «لا».
(٥) في (ب): «من الأحوال».
(٦) في (ب): «فأغنى بما فتح الله».
(٧) في (ب): «إلى السائل كلام».
(٨) في (ب): «وهذا يدخل فيه».

﴿وأمّا بنعمة ربّك فَحَدِّثْ﴾: وهٰذا يشمل النّعم الدينيّة والدنيويّة[١]؛ أي: أثْنِ على الله بها، وخُصَّها[٢] بالذِّكر إن كان هناك مصلحةٌ، وإلّا؛ فحدِّث بنعم الله على الإطلاق؛ فإنّ التحدُّث بنعمة الله داعٍ لشكرها وموجبٌ لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها؛ فإنّ القلوب مجبولةٌ على محبّة المحسن.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١[٣] وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾.

﴿١ ـ ٤﴾ يقول تعالى ممتنًّا على رسوله: ﴿ألم نشرحْ لك صدرَك﴾؛ أي: نوسِّعه لشرائع الدِّين والدَّعوة إلى الله والاتِّصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيِّقاً حرجاً لا يكاد ينقاد لخيرٍ ولا تكاد تجده منبسطاً، ﴿ووضعنا عنك وِزْرَك﴾؛ أي: ذنبك، ﴿الذي أنقَضَ﴾؛ أي: أثقل ﴿ظهرَكَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ليغفرَ لك اللهُ ما تقدَّم من ذنبِكَ وما تأخَّر﴾، ﴿ورفَعْنا لكَ ذِكْرَك﴾؛ أي: أعلينا قدرَك، وجعلنا لك الثَّناء الحسن العالي، الذي لم يصلْ إليه أحدٌ من الخلق؛ فلا يُذْكَرُ الله؛ إلّا ذُكِر معه رسوله ﷺ؛ كما في الدُّخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب[٤]... وغير ذٰلك من الأمور التي أعلى الله بها ذِكر رسوله محمدٍ ﷺ، وله في قلوب أمَّته من المحبَّة والإجلال والتَّعظيم ما ليس لأحدٍ غيره بعد الله تعالى؛ فجزاه الله عن أمَّته أفضل ما جزى نبيًّا عن أمَّته.

---

(١) في (ب): «﴿وأما بنعمة ربك﴾ الدينية والدنيوية ﴿فحدّث﴾».

(٢) في (ب): «وخصصها».

(٣) في ( أ ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٤) في (ب): «والخطبة».

﴿٥ ـ ٦﴾ وقوله: ﴿فإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً. إنَّ مع العُسْرِ يُسْراً﴾: بشارةٌ عظيمةٌ أنَّه كلَّما وُجِدَ عسرٌ وصعوبةٌ؛ فإنَّ اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحرَ ضبٍّ؛ لدخل عليه اليسر فأخرجه؛ كما قال تعالى: ﴿سيجعل اللهُ بعدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾، وكما قال النبيُّ ﷺ: «وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسراً»[١].

وتعريف العسر في الآيتين[٢] يدلُّ على أنَّه واحدٌ، وتنكير اليسرِ يدلُّ على تكراره؛ فلن يغلب عسرٌ يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللَّام الدالِّ[٣] على الاستغراق والعموم يدل على أنَّ كلَّ عسرٍ وإنْ بلغ من الصعوبة ما بلغ؛ فإنَّه في آخره التيسير ملازمٌ له.

﴿٧ - ٨﴾ ثم أمر [اللَّهُ] رسوله أصلاً والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال: ﴿فإذا فرَغْتَ فانصَبْ﴾؛ أي: إذا تفرَّغْتَ من أشغالِك، ولم يبقَ في قلبكَ ما يعوقه؛ فاجتهدْ في العبادة والدُّعاء، ﴿وإلى ربِّكَ﴾: وحده ﴿فارغَبْ﴾؛ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول دعواتك[٤]، ولا تكنْ ممَّن إذا فرغوا[٥]؛ لعبوا وأعرضوا عن ربِّهم وعن ذِكْرِه، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إنَّ معنى هٰذا[٦]: فإذا فرغتَ من الصَّلاة وأكملتها؛ فانصب في الدُّعاء، وإلى ربِّك فارغبْ في سؤال مطالبك.

واستدلَّ من قال هٰذا القول على مشروعيَّة الدُّعاء والذِّكر عقب الصلوات المكتوبات. والله أعلم [وبذالك].

تمت. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

(١) جزء من وصية الرسول ﷺ لابن عباس. أخرجه الإمام أحمد (١/٣٠٧)، والترمذي (٢٥١٦) وقال: «حديث حسن صحيح».

(٢) في (ب): «الآية».

(٣) في (ب): «الدالة».

(٤) في (ب): «وعبادتك».

(٥) في (ب): «إذا فرغوا وتفرغوا».

(٦) في (ب): «معنى قوله».

# تفسير سورة والتين

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ①[١] وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ⑧﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿التين﴾: هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزَّيتون﴾؛ أقسم بهاتين الشجرتين؛ لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأنَّ سلطانهما في أرض الشام محلُّ نبوَّة عيسى ابن مريم عليه السلام، ﴿وطورِ سينينَ﴾؛ أي: طور سيناء محلُّ نبوَّة موسى عليه السلام[٢]، ﴿وهٰذا البلدِ الأمينِ﴾: وهو مكَّة المكرَّمة محلُّ نبوَّة محمدٍ ﷺ. فأقسم تعالى بهٰذه المواضع المقدَّسة التي اختارها وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم[٣].

﴿٤﴾ والمقسم عليه قوله: ﴿لقد خَلَقْنا الإنسان في أحسنِ تقويم﴾؛ أي: تامَّ الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد ممَّا يحتاج إليه ظاهراً وباطناً شيئاً.

﴿٥ ـ ٦﴾ ومع هٰذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها؛ فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللَّهو واللَّعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفساف الأخلاق، فردَّهم الله ﴿في أسفل سافلين﴾؛ أي: أسفل النَّار موضع العصاة المتمرِّدين على ربِّهم؛ إلَّا مَن منَّ الله عليه بالإيمان والعمل الصَّالح والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فلهم﴾: بذٰلك المنازل العالية، و ﴿أجرٌ غيرُ ممنونٍ﴾؛ أي: غير مقطوع، بل لَذَّاتٌ متوافرةٌ وأفراحٌ متواترةٌ ونعمٌ متكاثرةٌ؛ في أبدٍ لا يزول، ونعيم لا يحول، أكُلُها دائمٌ وظلُّها.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿فما يكذِّبك بعدُ بالدِّين﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ يكذِّبك أيُّها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال؟ وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين[٤]،

(١) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٢) في (ب): «موسى ﷺ».

(٣) في (ب): «أفضل النبوات وأشرفها».

(٤) في (ب): «ما به يحصل لك اليقين».

ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيءٍ منها[1]. ﴿أليس الله بأحكم الحاكمينَ﴾: فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدىً لا يُؤمرون ولا يُنهَوْن ولا يُثابون ولا يُعاقبون؟ أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوارٍ، وأوصل إليهم من النعم والخير والبرِّ ما لا يحصونه، وربَّاهم التربية الحسنة؛ لا بدَّ أن يعيدهم إلى دارٍ هي مستقرُّهم وغايتهم التي إليها يقصدون ونحوها يؤمُّون.

تمت. والحمد لله[2].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة اقرأ

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ [3] خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

﴿١﴾ هٰذه السُّورة أول السُّور القرآنيَّة نزولاً على رسول الله ﷺ؛ فإنَّها نزلت عليه في مبادىء النبوَّة؛ إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه [الصلاة و] السلام بالرِّسالة، وأمره أن يقرأ، فامتنع وقال: ما أنا بقارىءٍ! فلم يزل به حتى قرأ[4]؛ فأنزل الله [عليه]: ﴿اقرأ باسمِ ربِّك الذي خَلَقَ﴾: عموم الخلق.

﴿٢﴾ ثم خصَّ الإنسان، وذكرَ ابتداءَ خلقِه ﴿من عَلَقٍ﴾؛ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لا بدَّ أن يدبِّره بالأمر والنَّهي، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب[5]،

---

(١) في (ب): «ممَّا أخبرك به». (٢) في (ب): «تمت. ولله الحمد».
(٣) في ( أ ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.
(٤) تقدم تخريجه وهو في «الصحيحين».
(٥) في (ب): «بإرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتب عليهم».

ولهٰذا أتى[١] بعد الأمر بالقراءة بخلقه[٢] للإنسان.

﴿٣ ـ ٥﴾ ثم قال: ﴿اقرأ وربُّك الأكرمُ﴾؛ أي: كثير الصِّفات، واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علَّم أنواع العلوم[٣]، و ﴿علَّم بالقلم. علَّم الإنسانَ ما لَمْ يعلمْ﴾: فإنَّه تعالى أخرجه من بطن أمِّه لا يعلم شيئاً، وجعل له السَّمع والبصر والفؤاد، ويسَّر له أسباب العلم؛ فعلَّمه القرآن، وعلَّمه الحكمة، وعلَّمه بالقلم، [الذي به تُحفظ العلوم][٤] وتُضبط الحقوق، وتكون رسلاً للنَّاس تنوب منابَ خطابهم؛ فلله الحمد والمنَّة الذي أنعم على عباده بهٰذه النِّعم، التي لا يقدرون لها على جزاءٍ ولا شكورٍ، ثمَّ منَّ عليهم بالغنى وسعة الرزق.

﴿٦ ـ ٨﴾ ولٰكن الإنسان لجهله وظلمه؛ إذا رأى نفسه غنيًّا؛ طغى، وبغى، وتجبَّر عن الهدى، ونسي أنَّ لربِّه ﴿الرُّجعى﴾: ولم يخفِ الجزاء، بل ربَّما وصلت به الحال أنَّه يترك الهدى بنفسه ويدعو غيره إلى تركه، فينهى عن الصَّلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان.

﴿٩ ـ ١٤﴾ يقول الله لهٰذا المتمرِّد العاتي: ﴿أرأيتَ﴾: أيُّها الناهي للعبد إذا صلَّى، ﴿إنْ كانَ﴾: العبد المصلِّي ﴿على الهُدى﴾: العلم بالحقِّ والعمل به، ﴿أو أمر﴾: غيره ﴿بالتَّقوى﴾: فهل يحسُنُ أن يُنهى مَن هٰذا وصفه؟! أليس نهيه من أعظم المحادَّة لله والمحاربة للحقِّ؟! فإنَّ النَّهي لا يتوجَّه إلَّا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى، ﴿أرأيتَ إن كذَّبَ﴾: النَّاهي بالحقِّ، ﴿وتولَّى﴾: عن الأمر؟ أما يخاف الله ويخشى عقابه؟! ﴿ألَمْ يعلمْ بأنَّ اللهَ يرى﴾: ما يعمل ويفعل.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ثم توعَّده إن استمرَّ على حاله، فقال: ﴿[كلَّا] لئن لم ينتَهِ﴾: عمَّا يقول ويفعل، ﴿لَنَسْفَعَاً بالنَّاصيةِ﴾؛ أي: لَنأخُذنَّ بناصيته أخذاً عنيفاً، وهي حقيقةٌ بذٰلك؛ فإنَّها ﴿ناصيةٌ كاذبةٌ خاطئةٌ﴾؛ أي: كاذبةٌ في قولها، خاطئةٌ في فعلها.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿فَلْيَدْعُ﴾: هٰذا الذي حقَّ عليه العذابُ[٥] ﴿نادِيَهُ﴾؛ أي: أهل

---

(١) في (ب): «ذكر».

(٢) في (ب): «خلقه».

(٣) في (ب): «أن علم بالعلم».

(٤) كذا في (ب). وفي (أ): «الذي به تحفظ به العلوم».

(٥) في (ب): «العقاب».

مجلسه وأصحابه ومن حوله ليُعينوه على ما نزل به، ﴿سَنَدْعو الزَّبانيةَ﴾؛ أي: خزنة جهنَّم لأخذه وعقوبته. فلينظر أيُّ الفريقين أقوى وأقدر. فهٰذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة.

﴿١٩﴾ وأمَّا حالة المنهيِّ؛ فأمره الله أن لا يصغي إلى هٰذا الناهي، ولا ينقاد لنهيه، فقال: ﴿كلَّا لا تُطِعْهُ﴾؛ أي: فإنَّه لا يأمر إلَّا بما فيه الخسار[1]، ﴿واسجُدْ﴾: لربِّك، ﴿واقْتَرِبْ﴾: منه في السُّجود وغيره من أنواع الطاعات والقُربات؛ فإنَّها كلها تدني من رضاه وتقرِّب منه. وهٰذا عامٌّ لكلِّ ناهٍ عن الخير ولكلِّ منهيٍّ عنه، وإن كانت نازلةً في شأنِ أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعذَّبه[2] وآذاه.

تمت. والحمد لله رب العالمين[3].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة القدر

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾[4] وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلوِّ قدره: ﴿إنَّا أنزَلْناهُ في ليلةِ القَدْرِ﴾: [كما قال تعالى: ﴿إنَّا أنزلناه في ليلةٍ مباركة﴾] وذٰلك أنَّ الله تعالى ابتدأ بإنزال القرآن[5] في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمةً عامَّةً لا يقدر العباد لها شكراً، وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنَّه يقدِّر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريَّة.

---

(١) في (ب): «إلا بما فيه خسارة الدارين». (٢) في (ب): «وعبث به».

(٣) في (ب): «تمت. ولله الحمد».

(٤) في ( أ ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

(٥) في (ب): «بإنزاله».

﴿٢﴾ ثم فخَّم شأنها وعظَّم مقدارها، فقال: ﴿وما أدراكَ ما ليلةُ القَدْرِ﴾؛ أي: فإنَّ شأنها جليلٌ، وخطرها عظيمٌ.

﴿٣﴾ ﴿ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ﴾؛ أي: تعادل من فضلها ألف شهرٍ، فالعمل الذي يقع فيها خيرٌ من العمل في ألف شهرٍ خاليةٍ منها، وهٰذا مما تتحيَّر فيه[1] الألباب، وتندهش له العقول؛ حيث منَّ [تبارك و] تعالى على هٰذه الأمَّة الضعيفة، القوَّة والقوى بليلةٍ يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمَّرٍ عمراً طويلاً نيفاً وثمانين سنةً.

﴿٤﴾ ﴿تنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فيها﴾؛ أي: يكثر نزولهم فيها، ﴿من كلِّ أمرٍ﴾.

﴿٥﴾ ﴿سلامٌ هي﴾؛ أي: سالمةٌ من كل آفةٍ وشرٍّ، وذٰلك لكثرة خيرها، ﴿حتَّى مطلعِ الفجرِ﴾؛ أي: مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر[2]. وقد تواترت الأحاديث في فضلها[3]، وأنَّها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، خصوصاً في أوتاره، وهي باقيةٌ في كلِّ سنةٍ إلى قيام الساعة، ولهٰذا كان النبيُّ ﷺ يعتكف ويكثرُ من التعبُّد في العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة لم يكن

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾[4] رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا

(١) في (ب): «به».
(٢) في (ب): «أي: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر».
(٣) انظر «صحيح البخاري» كتاب فضل ليلة القدر. و«صحيح مسلم» باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها وبيان محلها وأرجى أوقات طلبها.
(٤) في (أ): طمس. وفي (ب) إلى آخر السورة.

ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿لم يكنِ الذينَ كَفَروا من أهلِ الكتاب﴾؛ أي: من اليهود والنصارى، ﴿والمشركين﴾: من سائر أصناف الأمم، ﴿مُنفَكِّينَ﴾: عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيِّهم وضلالهم، لا يزيدهم مرور الأوقات[1] إلَّا كفراً، ﴿حتَّى تأتِيَهم البيِّنةُ﴾: الواضحة والبرهان الساطع.

﴿٢ ـ ٣﴾ ثم فسَّر تلك البيِّنة، فقال: ﴿رسولٌ من اللهِ﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحقِّ، وأنزل عليه كتاباً يتلوه ليعلِّم الناس الحكمة ويزكِّيهم ويخرجَهم من الظُّلمات إلى النُّور، ولهٰذا قال: ﴿يتلو صُحُفاً مطهَّرةً﴾؛ أي: محفوظةً من[2] قربان الشياطين، لا يمسُّها إلَّا المطهَّرون؛ لأنَّها أعلى[3] ما يكون من الكلام، ولهٰذا قال عنها: ﴿فيها﴾؛ أي: في تلك الصُّحف ﴿كتبٌ قيِّمةٌ﴾؛ أي: أخبارٌ صادقةٌ وأوامرُ عادلةٌ تهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيم؛ فإذا جاءتهم هٰذه البيِّنة؛ فحينئذٍ يتبيَّن طالب الحقِّ ممَّن ليس له مقصدٌ في طلبه، فيهلكُ مَن هلك عن بيِّنة ويحيا من حيَّ عن بيِّنةٍ.

﴿٤﴾ وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهٰذا الرسول وينقادوا له؛ فليس ذٰلك ببدع من ضلالهم وعنادهم؛ فإنَّهم ما تفرَّقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً ﴿إلَّا من بعدِ ما جاءَتْهُمُ البيِّنَةُ﴾: التي توجب لأهلها الاجتماع والاتِّفاق، ولٰكنَّهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالاً ولا البصيرة إلا عمىً.

﴿٥﴾ مع أنَّ الكتب كلَّها جاءت بأصل واحدٍ ودين واحدٍ؛ فما ﴿أمِروا﴾ في سائر الشرائع، إلا أن يعبدوا ﴿اللهَ مخلصين له الدِّين﴾؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظَّاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزُّلفى لديه، ﴿حنفاءَ﴾؛ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التَّوحيد، وخصَّ الصلاة والزَّكاة بالذِّكر مع أنَّهما داخلان في قوله: ﴿ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾؛ لفضلهما وشرفهما

---

(١) في (ب): «السنين».
(٢) في (ب): «عن».
(٣) في (ب): «لأنها في أعلى».

وكونهما العبادتين اللتين مَن قام بهما قام بجميع شرائع الدين. ﴿وذٰلك﴾؛ أي: التَّوحيد والإخلاص في الدِّين هو ﴿دين القيِّمة﴾؛ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنَّات النَّعيم، وما سواه فطرقٌ موصلةٌ إلى الجحيم.

﴿٦﴾ ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البيِّنة، فقال: ﴿إنَّ الذين كفروا من أهل الكتابِ والمشركينَ في نارِ جهنَّم﴾: قد أحاط بهم عذابها، واشتدَّ عليهم عقابها، ﴿خالدين فيها﴾: لا يُفتَّر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون. ﴿أولٰئك هم شرُّ البريَّة﴾: لأنَّهم عرفوا الحقَّ، وتركوه، وخسروا الدُّنيا والآخرة.

﴿٧﴾ ﴿إنَّ الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات أولٰئك هم خيرُ البريَّة﴾: لأنَّهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدُّنيا والآخرة.

﴿٨﴾ ﴿جزاؤهم عند ربِّهم جناتُ عدنٍ﴾؛ أي: جناتُ إقامةٍ لا ظعن فيها ولا رحيل ولا طلب لغايةٍ فوقَها، ﴿تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً رضيَ الله عنهم ورضوا عنه﴾: فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعدَّ لهم من أنواع الكرامات [وجزيل المثوبات]. ﴿ذٰلك﴾: الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خشيَ ربَّه﴾؛ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه، وقام بما أوجب عليه[(١)].

تمت. والحمد لله.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة إذا زلزلت

## وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾[(٢)] وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يخبر تعالى عمَّا يكون يوم القيامة، وأنَّ الأرض تتزلزل وترجف وترتجُّ

---

(١) في (ب): «وقام بواجباته».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

حتى يسقطَ ما عليها من بناءٍ ومَعْلَم[١]، فتندكُّ جبالها، وتسوَّى تلالُها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمتا، ﴿وأخرجت الأرضُ أثقالها﴾؛ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

﴿٣﴾ ﴿وقال الإنسان﴾: إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم [مستعظمًا لذلك]: ﴿ما لها﴾؛ أي: أيُّ شيء عرض لها؟!

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿يومئذٍ تحدِّث﴾: الأرض ﴿أخبارَها﴾؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خيرٍ وشرٍّ؛ فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم. ذٰلك ﴿بأنَّ ربَّك أوحى لها﴾؛ أي[٢]: أمرها أن تخبر بما عمل عليها؛ فلا تعصي[٣] لأمره.

﴿٦﴾ ﴿يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ﴾: من موقف القيامة [حين يقضي اللَّهُ بينهم] ﴿أشتاتاً﴾؛ أي: فرقاً متفاوتين، ﴿لِيُرَوْا أعمالَهم﴾؛ أي: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات[٤]، ويريهم جزاءه موفراً.

﴿٧ ـ ٨﴾ ﴿فمَن يعملْ مثقال ذرَّةٍ خيراً يَرَهُ. ومَن يعملْ مثقال ذرَّةٍ شرًّا يَرَهُ﴾: وهٰذا شامل عامٌّ للخير والشرِّ كلِّه؛ لأنَّه إذا رأى مثقال الذَّرَّة التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها؛ فما فوق ذٰلك من باب أولى وأحرى؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضَراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينها وبينه أمداً بعيداً﴾، ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾، وهٰذا فيه الترغيب[٥] في فعل الخير، ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر، ولو حقيراً.

# تفسير سورة العاديات

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾[٦] فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾

(١) في (ب): «وَعَلَم».
(٢) في (ب): «و».
(٣) في (ب): «ولا تستعصي».
(٤) في (ب): «من الحسنات والسيئات».
(٥) في (ب): «وهذه الآية فيها غاية الترغيب».
(٦) في ( أ ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿١﴾ أقسم [الله تبارك و] تعالى بالخيل؛ لما فيها من آياتِه[1] الباهرة ونعَمِه الظَّاهرة ما هو معلومٌ للخلق، وأقسم تعالى بها في الحال التي لا يشاركُها فيه غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿والعادياتِ ضَبْحاً﴾؛ أي: العاديات عدواً بليغاً قويًّا يصدر عنه الضَّبحُ، وهو صوت نَفَسها في صدرها عند اشتداد عَدْوِها[2].

﴿٢﴾ ﴿فالمورياتِ﴾: بحوافرهنَّ ما يطأنَ عليه من الأحجار، ﴿قَدْحاً﴾؛ أي: تنقدح[3] النار من صلابة حوافرهنَّ وقوتهنَّ إذا عَدَوْنَ.

﴿٣﴾ ﴿فالمغيراتِ﴾: على الأعداء، ﴿صبحاً﴾: وهٰذا أمرٌ أغلبيٌّ أنَّ الغارة تكون صباحاً.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿فأثرنَ به﴾؛ أي: بعدوهنَّ وغارتهنَّ، ﴿نقعاً﴾؛ أي: غباراً، ﴿فوسطن به﴾؛ أي: براكبهنَّ ﴿جمعاً﴾؛ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

﴿٦﴾ والمقسَم عليه قوله: ﴿إنَّ الإنسانَ لربِّه لَكَنودٌ﴾؛ أي: منوعٌ للخير الذي لله عليه[4]؛ فطبيعة الإنسان وجِبِلَّتُه أنَّ نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها[5] من الحقوق الماليَّة والبدنيَّة؛ إلَّا مَن هداه الله وخرج عن هٰذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿٧﴾ ﴿وإنَّه على ذٰلك لَشهيدٌ﴾؛ أي: إن الإنسانَ على ما يعرفُ من نفسه من المنع والكَنَد لشاهدٌ بذٰلك لا يجحده ولا ينكره؛ لأنَّ ذٰلك [أمرٌ] بيِّن واضحٌ، ويحتمل أنَّ الضمير عائدٌ إلى الله [تعالى]؛ أي: إنَّ العبد لربِّه لكنودٌ، والله شهيدٌ على ذٰلك؛ ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمَن هو لربِّه كنودٌ بأنَّ الله عليه شهيدٌ.

---

(١) في (ب): «آيات الله».
(٢) في (ب): «العدو».
(٣) في (ب): «تقدح».
(٤) في (ب): «المنوع للخير الذي عليه لربه».
(٥) في (ب): «عليه».

﴿٨﴾ ﴿وإنه﴾؛ أي: الإنسان ﴿لحبِّ الخير﴾؛ أي: المال، ﴿لشديدٌ﴾؛ أي: كثير الحبِّ للمال، وحبُّه لذٰلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه؛ قَدَّمَ شهوة نفسه على رضا[1] ربِّه، وكلُّ هٰذا لأنَّه قصر نظره على هٰذه الدار، وغفل عن الآخرة.

﴿٩ ـ ١٠﴾ ولهٰذا قال حاثًّا له على خوف يوم الوعيد: ﴿أفلا يعلمُ﴾؛ أي: هلاّ يعلم هٰذا المغتر، ﴿إذا بُعْثِرَ ما في القبورِ﴾؛ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم، ﴿وحُصِّل ما في الصُّدور﴾؛ أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشرِّ، فصار السرُّ علانيةً والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿١١﴾ ﴿إنَّ ربَّهم بهم يومئذٍ لخبيرٌ﴾؛ أيْ: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفيَّة والجليَّة، ومجازيهم عليها، وخصَّ خبرهم[2] بذٰلك اليوم مع أنه خبيرٌ بهم كلَّ وقتٍ؛ لأنَّ المراد بهٰذا الجزاء على الأعمال[3] الناشىء عن علم الله واطِّلاعه.

❁ ❁ ❁

## تفسير سورة القارعة

### وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢[4] وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿القارعةُ﴾: من أسماء يوم القيامة، سمِّيت بذٰلك لأنَّها تقرع الناس وتزعِجهم

---

(١) في (ب): «حق». (٢) في (ب): «خبره».
(٣) في (ب): «لأنَّ المراد بذلك الجزاء بالأعمال».
(٤) في ( أ ): إلى آخرها. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

بأهوالها، ولهٰذا عظَّم أمرها وفخَّمه بقوله: ﴿القارعةُ. ما القارعةُ. وما أدراكَ ما القارعةُ﴾.

﴿٤﴾ ﴿يومَ يكونُ الناسُ﴾: من شدَّة الفزع والهول، ﴿كالفراشِ المبثوثِ﴾؛ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش هي الحيوانات التي تكون في الليل يموج بعضها ببعض، لا تدري أين توجَّه؛ فإذا أوقد لها نارٌ؛ تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهٰذه حال الناس أهل العقول.

﴿٥﴾ وأما الجبال الصمُّ الصلابُ؛ فتكون ﴿كالعهنِ المنفوش﴾؛ أي: كالصُّوف المنفوش الذي بقي ضعيفاً جدًّا تطير به أدنى ريح؛ قال تعالى: ﴿وترى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهي تمرُّ مرَّ السحابِ﴾، ثم بعد ذٰلك تكون هباءً منثوراً، فتضمحلُّ ولا يبقى منها شيءٌ يشاهَد. فحينئذٍ تُنصَبُ الموازينُ، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء:

﴿٦ ـ ٧﴾ ﴿فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازينُه﴾؛ أي: رجحت حسناتُه على سيئاتِه، ﴿فهو في عيشةٍ راضيةٍ﴾: في جنَّات النعيم.

﴿٨ ـ ١١﴾ ﴿وأمَّا من خفَّت مَوازينُه﴾: بأن لم تكنْ له حسناتٌ تقاوم سيئاتِه، ﴿فأمُّه هاويةٌ﴾؛ أي: مأواهُ ومسكنُه النارُ التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأمِّ الملازمة؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّ عذابَها كانَ غَراماً﴾. وقيل: إنَّ معنى ذٰلك: فأمُّ دماغه هاويةٌ في النار؛ أي: يُلقى في النار على رأسه، ﴿وما أدراكَ ما هِيَهْ﴾: وهٰذا تعظيمٌ لأمرها. ثم فسَّرها بقوله: ﴿نارٌ[1] حاميةٌ﴾؛ أي: شديدةُ الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

❁ ❁ ❁

## تفسير سورة ألهاكم التكاثر

### وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ[2] ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

---

(١) في (ب): «بقوله: هي نار».

(٢) في (أ): إلى آخرها. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿١﴾ يقول تعالى موبِّخاً عباده عن اشتغالهم عمَّا خُلِقوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبَّته على كلِّ شيءٍ: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾: عن ذٰلك المذكور، ﴿التَّكَاثُرُ﴾: ولم يذكر المُتكاثَرَ به؛ ليشمل ذٰلك كلَّ ما يَتَكاثَرُ به المتكاثرون ويفتخر به المفتخرون؛ من [التكاثر في] الأموال والأولاد والأنصار والجُنود والخدم والجاه وغير ذٰلك ممَّا يقصد منه مكاثرة كلِّ واحدٍ للآخر، وليس المقصود منه وجه الله[1].

﴿٢﴾ فاستمرَّت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم ﴿حَتَّى زُرْتُمُ المقابرَ﴾: فانكشف حينئذٍ لكم[2] الغطاءُ، ولٰكنْ بعدَما تعذَّر عليكم استئنافه. ودلَّ قولُه: ﴿حتَّى زرتُم المقابر﴾: أنَّ البرزخ دارٌ المقصود منها النفوذ إلى الدار الآخرة[3]؛ لأن الله سمَّاهم زائرين، ولم يسمِّهم مقيمين، فدلَّ ذٰلك على البعث والجزاء على الأعمال[4] في دار باقيةٍ غير فانيةٍ.

﴿٣ ـ ٦﴾ ولهٰذا توعَّدهم: ﴿كلَّا سوف تعلمون. ثم كلَّا سوف تعلمون. كلَّا لو تعلمونَ علمَ اليقينِ﴾؛ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصلُ إلى القلوب؛ لما ألهاكم التَّكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة، ولٰكن عدم العلم الحقيقيِّ صيَّركم إلى ما ترون، ﴿لَتَرَوُنَّ الجحيم﴾؛ أي: لَتَرِدُنَّ القيامة، فلَتَرَوُنَّ الجحيم التي أعدَّها الله للكافرين.

﴿٧﴾ ﴿ثمَّ لَتَرَوُنَّها عين اليقين﴾؛ أي: رؤيةً بصريةً؛ كما قال تعالى: ﴿ورأى المجرمون النَّارَ فظَنُّوا أنَّهم مُواقِعوها ولم يَجِدوا عنها مَصْرِفاً﴾.

﴿٨﴾ ﴿ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذٍ عن النَّعيم﴾: الذي تنعَّمتم به في دار الدُّنيا؛ هل قمتم بشكره، وأدَّيتم حقَّ الله فيه، ولم تستعينوا به على معاصيه؛ فينعِّمكم نعيماً أعلى منه وأفضل؟ أم اغتررتُم به، ولم تقوموا بشكره، بل ربَّما استعنتم به على المعاصي[5]؛ فيعاقبكم على ذٰلك؟ قال تعالى: ﴿ويومَ يُعْرَضُ الذين كفروا على النارِ أذْهَبْتُم طيباتِكم في حياتكم الدُّنيا واستمتعتم بها فاليوم تُجْزَوْنَ عذاب الهُونِ...﴾ الآية.

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى».
(٢) في (ب): «لكم حينئذٍ».
(٣) في (ب): «إلى الدار الباقية».
(٤) في (ب): «بالأعمال».
(٥) في (ب): «معاصي الله».

# تفسير سورة والعصر

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ أقسم تعالى بالعصر، الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم؛ أن كلَّ إنسانٍ خاسرٌ، والخاسر ضدُّ الرابح، والخسار مراتبُ متعدِّدةٌ متفاوتةٌ: قد يكون خساراً مطلقاً؛ كحال من خسر الدُّنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحقَّ الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعضٍ، ولهٰذا عمَّم اللهُ الخسار لكلِّ إنسانٍ؛ إلَّا مَن اتَّصف بأربع صفات:

**الإيمان بما أمر الله بالإيمان به**، ولا يكون الإيمان بدون العلم؛ فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

**والعمل الصالح**، وهٰذا شاملٌ لأفعال الخير كلِّها، الظاهرة والباطنة، المتعلِّقة بحقوق[(١)] الله وحقوق[(١)] عباده، الواجبة والمستحبَّة.

**والتَّواصي بالحقِّ** الذي هو الإيمان والعمل الصالح؛ أي: يوصي بعضُهم بعضاً بذٰلك، ويحثُّه عليه، ويرغِّبه فيه.

**والتَّواصي بالصَّبر** على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين يكمِّل العبد[(٢)] نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد[(٢)] قد سلم من الخسار وفاز بالرِّبح العظيم.

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «حق».

(٢) في (ب): «الإنسان».

# تفسير سورة الهمزة

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿١﴾ **﴿ويلٌ﴾**؛ أي: وعيدٌ ووبالٌ وشدَّة عذابٍ، **﴿لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾**؛ أي: الذي يهمز الناس بفعله ويلمزهم بقوله؛ فالهمَّاز: الذي يَعيبُ الناس ويطعُنُ عليهم بالإشارة والفعل، واللَّمَّاز: الذي يعيبهم بقوله.

﴿٢﴾ ومن صفة هٰذا الهمَّازِ [اللَّمَّازِ] أنَّه لا همَّ له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به، وليس له رغبةٌ في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذٰلك.

﴿٣﴾ **﴿يحسبُ﴾**: بجهله **﴿أنَّ ماله أخلَدَهُ﴾**: في الدُّنيا، فلذٰلك كان كدُّه وسعيه [كلُّه] في تنمية ماله، الذي يظنُّ أنَّه ينمي عمره، ولم يدرِ أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البرَّ يزيد في العمر.

﴿٤ ـ ٧﴾ **﴿كلَّا لَيُنبذَنَّ﴾**؛ أي: ليطرحنَّ[1] **﴿في الحُطَمَةِ. وما أدراك ما الحُطَمَةُ﴾**: تعظيمٌ لها وتهويلٌ لشأنها. ثم فسَّرها بقوله: **﴿نار الله الموقَدة﴾**: التي وقودها الناس والحجارة، **﴿التي﴾**: من شدَّتها **﴿تطَّلع على الأفئدة﴾**؛ أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

﴿٨﴾ ومع هٰذه الحرارة البليغة، هم محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، ولهٰذا قال: **﴿إنَّها عليهم مؤصدةٌ﴾**؛ أي: مغلقة، **﴿في عَمَدٍ﴾**: من خلف الأبواب، **﴿ممدَّدةٍ﴾**: لئلا يخرجوا منها؛ ﴿كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾، نعوذ بالله من ذٰلك، ونسأله العفو والعافية.

❋ ❋ ❋

---

(١) في (ب): «يطرحن».

# تفسير سورة الفيل

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ أي: أما رأيتَ من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلَّة توحيده وصدق رسوله [محمدٍ] ﷺ ما فعله اللهُ بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيتَه الحرام، وأرادوا إخرابه؛ فتجهَّزوا لأجل ذٰلك، واستصحبوا معهم الفِيَلَةَ لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قِبَلَ للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهَوْا إلى قربِ مكَّةَ ـ ولم يكن بالعرب مدافعةٌ، وخرج أهل مكَّة من مكَّة خوفاً [على أنفسهم] منهم ـ أرسل الله عليهم طيراً أبابيلَ؛ أي: متفرِّقة، تحمل أحجاراً[١] محمَّاة من سِجِّيلٍ، فرمتْهم بها، وتتبَّعَتْ قاصِيَهم ودانِيَهم، فخمدوا وهمدوا، وصاروا كعصفٍ مأكولٍ، وكفى الله شرَّهم، وردَّ كيدهم في نحورهم، وقصَّتُهم معروفةٌ مشهورةٌ، وكانت تلك السنة التي وُلِدَ فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهاصات دعوته وأدلَّة[٢] رسالته. فلله الحمد والشكر.

❃ ❃ ❃

# تفسير سورة لإيلاف قريش

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿١ ـ ٤﴾ قال كثيرٌ من المفسِّرين: إنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّقٌ بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل؛ لأجل قريشٍ وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن وفي الصيف للشام لأجل التِّجارة والمكاسب.

---

(١) في (ب): «حجارة». (٢) في (ب): «ومقدِّمات».

فأهلك الله من أرادهم بسوءٍ، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أيِّ سفرٍ أرادوا، ولهٰذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فلْيَعْبُدوا ربَّ هٰذا البيتِ﴾؛ أي: ليوحِّدوه ويُخْلِصوا له العبادة، ﴿الذي أطْعَمَهُم من جوعٍ وآمَنَهُم من خوفٍ﴾: فرغدُ الرِّزق والأمن من الخوف[1] من أكبر النِّعم الدنيويَّة الموجبة لشكر الله تعالى. فلك اللهمَّ الحمد والشُّكر على نعمك الظَّاهرة والباطنة. وخصَّ الله الربوبيَّة بالبيت[2] لفضله وشرفه، وإلَّا؛ فهو ربُّ كلِّ شيءٍ.

* * *

# تفسير سورة الماعون

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (٧)﴾.

﴿١﴾ يقول تعالى ذامًّا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أرأيتَ الذي يُكَذِّبُ بالدِّين﴾؛ أي: بالبعث والجزاء؛ فلا يؤمن بما جاءت به الرُّسل.

﴿٢﴾ ﴿فذٰلك الذي يَدُعُّ اليتيمَ﴾؛ أي: يدفعه بعنفٍ وشدَّةٍ، ولا يرحمه؛ لقساوة قلبه، ولأنَّه لا يرجو ثواباً ولا يخاف[3] عقاباً.

﴿٣﴾ ﴿ولا يحضُّ﴾: غيره ﴿على طعام المسكينِ﴾: ومن باب أولى أنَّه بنفسه لا يطعم المسكين.

﴿٤ ـ ٥﴾ ﴿فويلٌ للمصلِّينَ﴾؛ أي: الملتزمين[4] لإقامة الصلاة، ولٰكنهم ﴿عن صلاتهم ساهونَ﴾؛ أي: مضيِّعون لها، تاركون لوقتها، مُخِلُّون[5] بأركانها، وهٰذا لعدم اهتمامهم بأمر الله؛ حيث ضيَّعوا الصلاة التي هي أهمُّ الطاعات، والسَّهو عن

---

(١) في (ب): «من المخاوف».

(٢) في (ب): «بالربوبية البيت».

(٣) في (ب): «ولا يخشى».

(٤) في (ب): «أي: الذين ملتزمون».

(٥) في (ب): «مفوّتون».

الصَّلاة هو الذي يستحقُّ صاحبه الذمَّ واللوم[(١)]، وأمَّا السَّهو في الصَّلاة؛ فهٰذا يقع من كلِّ أحدٍ، حتَّى من النبيِّ ﷺ[(٢)].

ولهٰذا وصف الله هٰؤلاء بالرِّياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الذين هم يراؤون﴾؛ أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس، ﴿ويمنعون الماعون﴾؛ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضرُّ إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة؛ كالإناء والدَّلو والفأس ونحو ذٰلك ممَّا جرت العادة ببذله والسَّماح به[(٣)]، فهٰؤلاء لشدَّة حرصهم يمنعون الماعون؛ فكيف بما هو أكثر منه؟!

وفي هٰذه السورة الحثُّ على إطعام[(٤)] اليتيم والمساكين، والتَّحضيض على ذٰلك، ومراعاة الصَّلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص فيها، وفي سائر الأعمال[(٥)]، والحثُّ على فعل المعروف، وبذل الأمور الخفيفة كعارية الإناء والدَّلو والكتاب ونحو ذٰلك؛ لأنَّ الله ذمَّ من لم يفعل ذٰلك. والله سبحانه أعلم[(٦)].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الكوثر

## وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ② إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③﴾.

﴿١﴾ يقول الله تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ [ممتنًّا عليه]: ﴿إنَّا أعطيناك الكَوْثَر﴾؛ أي: الخير الكثير والفضل الغزير، الذي من جملته ما يعطيه اللهُ لنبيِّه ﷺ [يوم القيامة] من النهر الذي يقال له: الكوثر[(٧)]، ومن الحوض[(٨)]؛ طولُه شهرٌ وعرضُه

(١) في (ب): «الذم والوعيد».
(٢) كما في «صحيح البخاري» (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث ابن مسعود أنه ﷺ قال: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني».
(٣) في (ب): «والسماحة بها».
(٤) في (ب): «إكرام».
(٥) في (ب): «وعلى الإخلاص في جميع الأعمال».
(٦) في (ب): «والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب. والحمد لله رب العالمين».
(٧) كما في «صحيح مسلم» (٤٠٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٨) في (ب): «ومن الحوض الذي يقال له الكوثر».

شهرٌ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء[١] في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربةً؛ لم يظمأ بعدها أبداً[٢].

﴿٢﴾ ولمَّا ذكر مِنَّته عليه؛ أمَرَهُ بشكرها، فقال: ﴿فصلِّ لربِّك وانْحر﴾: خصَّ هاتين العبادتين بالذِّكر؛ لأنَّهما أفضل[٣] العبادات وأجلُّ القربات، ولأنَّ الصلاة تتضمَّن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقله[٤] في أنواع العبوديَّة، وفي النحر تقرُّبٌ إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراجٌ للمال الذي جُبِلَت النُّفوس على محبَّته والشُّحّ به.

﴿٣﴾ ﴿إنَّ شانِئَكَ﴾؛ أي: مبغضك وذامَّك ومتنقصك، ﴿هو الأبتر﴾؛ أي: المقطوع من كلِّ خيرٍ؛ مقطوعُ العمل، مقطوعُ الذِّكر، وأمَّا محمدٌ ﷺ؛ فهو الكامل حقًّا، الذي له الكمال الممكن للمخلوق[٥] من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

❋ ❋ ❋

# تفسير سورة قل يا أيها الكافرون

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ أي: قلْ للكافرين معلناً ومصرِّحاً: ﴿لا أعبُدُ ما تعبُدون﴾؛ أي: تبرَّأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهراً وباطناً. ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبُدُ﴾: لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله[٦]؛ فعبادتُكم له المقترنةُ بالشِّرك لا تسمَّى عبادةً. وكرَّر ذُلك ليدلَّ الأوَّل على عدم وجود الفعل، والثاني على أنَّ ذُلك قد صار وصفاً

(١) في (ب): «أوانيه كنجوم السماء».
(٢) كما في «صحيح مسلم» (٢٣٠٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.
(٣) في (ب): «من أفضل».
(٤) في (ب): «وتنقلها».
(٥) في (ب): «في حق المخلوق».
(٦) في (ب): «لله في عبادتكم».

لازماً، ولهٰذا ميَّز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿لكم دينُكم وليَ دينِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿قلْ كلٌّ يَعْمَلُ على شاكِلَتِه﴾؛ أنتم بريئون ممَّا أعمل، وأنا بريءٌ ممَّا تعملون.

❁ ❁ ❁

## تفسير سورة النصر

### وهي مدنية(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ في هٰذه السورة الكريمة: بشارةٌ، وأمرٌ لرسوله عند حصولها، وإشارةٌ، وتنبيهٌ على ما يترتَّب على ذٰلك:

**فالبشارةُ** هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكَّة، ودخول الناس ﴿في دين الله أفواجاً﴾ بحيث يكون كثيرٌ منهم من أهله وأنصاره بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هٰذا المبشَّر به.

**وأما الأمر** بعد حصول النَّصر والفتح؛ فأمر [اللَّهُ] رسولَه أن يشكره(٢) على ذٰلك، ويسبِّح بحمده، ويستغفره.

**وأما الإشارة**؛ فإن في ذٰلك إشارتين: إشارة أنَّ النَّصر يستمرُّ للدين(٣) ويزداد عند حصول التَّسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله؛ فإن هٰذا من الشُّكر، والله يقول: ﴿لئن شكرتُمْ لأزيدَنَّكم﴾: وقد وُجِدَ ذٰلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هٰذه الأمَّة، لم يزل نصر الله مستمرًّا حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دينٌ من الأديان، ودخل فيه من لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتُلوا(٤) بتفرُّق الكلمة وتشتُّت الأمر، فحصل ما حصل، ومع هٰذا؛ فلهٰذه الأمَّة وهٰذا الدِّين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

---

(١) في (أ): «مكية». (٢) في (ب): «أن يشكر ربَّه».

(٣) في (ب): «إشارة لأنْ يستمرَّ النصر لهذا الدين».

(٤) في (ب): «فابتلاهم الله».

**وأما الإشارة الثانية**؛ فهي الإشارة إلى أنَّ أجلَ رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذٰلك أنَّ عمره عمرٌ فاضلٌ، أقسم الله به، وقد عُهِدَ أنَّ الأمور الفاضلة تُخْتَم بالاستغفار؛ كالصلاة والحجِّ وغير ذٰلك، فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هٰذه الحال إشارةٌ إلى أنَّ أجله قد انتهى؛ فلْيستعدَّ ويتهيَّأ للقاء ربِّه ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه، فكان [ﷺ] يتأوَّل القرآن ويقول ذٰلك في صلاته؛ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ! اغفر لي»[١].

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة تبت

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

أبو لهبٍ هو عمُّ النبيِّ ﷺ، وكان شديد العداوة والأذيَّة له[٢]؛ فلا فيه دين له، ولا حميَّةٌ للقرابة، قبَّحه الله، فذمَّه الله بهٰذا الذَّمِّ العظيم، الذي هو خزيٌ عليه إلى يوم القيامة، فقال:

﴿١﴾ ﴿تبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ﴾؛ أي: خسرت يداه وشقي، ﴿وتبَّ﴾: فلم يربح.

﴿٢﴾ ﴿ما أغنى عنه مالُه﴾: الذي كان عنده؛ فأطغاه[٣]، ولا ﴿ما كسبَ﴾: فلم يردَّ عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به.

﴿٣ ـ ٥﴾ ﴿سيصلى ناراً ذات لهبٍ﴾؛ أي: ستحيط به النَّار من كلِّ جانبٍ، هو ﴿وامرأتُه حمَّالةَ الحطبِ﴾: وكانت أيضاً شديدة الأذيَّة لرسول الله ﷺ؛ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشرَّ، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذيَّة الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها الأوزار[٤]؛ بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعدَّ له

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٦٧ و ٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) في (ب): «للنبي ﷺ». (٣) في (ب): «وأطغاه».
(٤) في (ب): «من الأوزار».

في عنقه حبلاً ﴿من مسدٍ﴾؛ أي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلِّدةً في عنقها حبلاً من مسدٍ.

وعلى كلٍّ؛ ففي هٰذه السورة آيةٌ باهرةٌ من آيات الله؛ فإنَّ الله أنزل هٰذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنَّهما سيعذَّبان في النار ولا بدَّ، ومن لازم ذٰلك أنَّهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الإخلاص

## وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قُلْ﴾: قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه: ﴿هو اللّٰه أحدٌ﴾؛ أي: قد انحصرت فيه الأحديَّة؛ فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدَّسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

﴿٢﴾ ﴿اللهُ الصمدُ﴾؛ أي: المقصود في جميع الحوائج؛ فأهل العالم العلويِّ والسفليِّ مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونَه حوائجَهم، ويرغَبون إليه في مهمَّاتهم؛ لأنَّه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي [قد] كمل في حلمه، الرحيم الذي كمل في رحمته، الذي وسعت رحمتُه كلَّ شيءٍ... وهٰكذا سائر أوصافه.

﴿٣﴾ ومن كماله أنَّه ﴿لم يَلِدْ ولم يولَدْ﴾؛ لكمال غناه.

﴿٤﴾ ﴿ولم يكن له كُفُواً أحدٌ﴾: لا في أسمائه، ولا في صفاته[1]، ولا في أفعاله؛ تبارك وتعالى.

فهٰذه السورة مشتملةٌ على توحيد الأسماء والصفات.

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «أوصافه».

# تفسير سورة الفلق

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قل﴾: متعوِّذاً: ﴿أعوذُ﴾؛ أي: ألجأ وألوذُ وأعتصمُ، ﴿بربِّ الفلق﴾؛ أي: فالق الحبِّ والنَّوى، وفالق الأصباح.

﴿٢﴾ ﴿من شرِّ ما خلَقَ﴾: وهٰذا يشمل جميع ما خلق الله من إنسٍ وجنٍّ وحيوانات؛ فيستعاذ بخالقها من الشرِّ الذي فيها.

﴿٣﴾ ثم خصَّ بعدما عمَّ، فقال: ﴿ومن شرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ﴾؛ أي: من شرِّ ما يكون في الليل حين يغشى النّاسَ، وتنتشر فيه كثيرٌ من الأرواح الشرِّيرة والحيوانات المؤذية.

﴿٤﴾ ﴿ومن شرِّ النَّفَّاثات في العقد﴾؛ أي: ومن شرِّ السَّواحر اللاتي يَسْتَعِنَّ على سحرهنَّ بالنَّفْثِ في العقد التي يَعْقِدْنَها على السحر.

﴿٥﴾ ﴿ومن شرِّ حاسدٍ إذا حَسَدَ﴾: والحاسدُ هو الذي يحبُّ زوال النِّعمة عن المحسود؛ فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شرِّه وإبطال كيده. ويدخل في الحاسد العاينُ؛ لأنَّه لا تصدر العين إلَّا من حاسدٍ شرِّيرِ الطبع خبيث النفس.

فهٰذه السورة تضمَّنت الاستعاذة من جميع أنواع الشُّرور عموماً وخصوصاً، ودلَّت على أنَّ السِّحر له حقيقةٌ؛ يُخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه ومن أهله.

❁ ❁ ❁

# تفسير سورة الناس

## وهي مدنية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ وهٰذه السورة مشتملةٌ على الاستعاذة بربِّ النَّاس ومالكهم وإلٰههم من الشيطان، الذي هو أصل الشُّرور كلِّها ومادتها، الذي من فتنته وشرِّه أنَّه يوسوس في صدور النَّاس؛ فيحسِّن لهم الشرَّ، ويريهم إيَّاه في صورة حسنةٍ، وينشِّط إرادتهم لفعله، ويثبِّطهم عن الخير[1]، ويريهم إيَّاه في صورةٍ غير صورتِه، وهو دائماً بهٰذه الحال، يوسوس ثم يخنُسُ؛ أي: يتأخَّر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربَّه واستعان [به] على دفعه؛ فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبيَّة الله للناس كلِّهم، وأنَّ الخلق كلَّهم داخلون تحت الرُّبوبيَّة والملك، فكلُّ دابَّةٍ هو آخذٌ بناصيتها، وبألوهيَّته التي خلقهم لأجلها؛ فلا تتمُّ لهم إلَّا بدفع شرِّ عدوِّهم الذي يريد أن يقتَطِعَهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبِه؛ لِيكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجنِّ يكون من الإنس، ولهٰذا قال: ﴿من الجِنَّةِ والنَّاسِ﴾.

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبنا التي حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته، ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشرِّ ما عندنا؛ فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضَّالُّون[2]، وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه على يد جامعه وكاتبه عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي. [غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين].

(١) في (ب): «ويقبح لهم الخيرَ».
(٢) في (ب): «القوم الضالون».

وقع النقل في ٧ شعبان سنة (١٣٤٥)[١][٢]

ربّنا تقبل منّا واعف عنّا إنك أنت الغفور الرحيم.

* * *

(١) في هامش ( أ ): بلغ مقابلة.

(٢) في (ب): «وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ».